٩٤٠٠

تصنیف الإمامِلُ بن جَامِله مجُهُمَّ لَ بْنْ مِحْلِالْعَبْ زَالِیٰ النوفی فی عندهد

وبذي له يكناب المغنى على الأسيف الرفى الأسيف الم المغنى على الأسيف الم في الأسيف الم في الأسيف المنافذة في المناف

وتمامًا لِلنَفع أَلَحَمَنا بِالْكِنَابِ فِي آخِره ثَلاثَة كُلْبٍ الْكِنَابِ فِي آخِره ثَلاثَة كُلْبٍ اللهُ الأول : تعريف لأخياء بعضائل الإحياء العلامة غيدا لفا در برشيخ بن عبدا قد العيدرُوس باعلوك الأرشيخ بزعبدا قد العيدرُوس باعلوك الأملاء عن إشكالات الإحياء الإمام الفنزال ، وذبه اعتراضات أورد ها بعض المعاضرين أنه على جمش مواضع من الإحياء . الدات ، عوارف المعارف ، العارف بالمد متمتالي الإمام المنهروردك الثالث ، عوارف المعارف ، العارف بالمد متمتالي الإمام المنهروردك

السنالين

المكتبة التجارية الكبرى

كتاب التوبة

وهو الكتاب الاول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين



الحمد لله الدى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدّر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الاشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الارباب ومسبب الاسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، ونمزج الحنوف برجائنا منج من لايرتاب ، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلني وحسن مآب .

أما بعد ؟ فإن التوبة عن الذبوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائرين ، وأوّل أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولابينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء أجمعين ، وما أجدر بالاولاد ، الاقتداء بالآباء والاجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدى واجرم ، فهى شنشنة فعرفها من أخرم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الآب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرف النني والإلبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندّم على ماسبق منه وتقدم . فن اتخذه قدوة فى الذنّب دون الثوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرّد لحمض الحمير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون الثلافي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الحمير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين ؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمطحب فيه سجيتان ، وكل عبد بالرجوع إلى الحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالمتجرد المتجرد المتحرب على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، على صحة نسبه إلى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، على المسبح للى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، والمصر على العلميان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، على صحة نسبه إلى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، على سحة نسبه إلى الملائكة بالتجرد مقد الإنسان ، في المدر على العلميان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد المدر المدر على العلم المدر على العلم على المدر على النسب الدورة التوريد في المدر على المدر على العلم على العلم على الملك أدم أدر إلى النسب المدر المدر على المدر على المدر على المدر على المدر على العلم على المدر على المدر على المدر على التحر على المدر المدر على المدر على المدر على المدر على المدر على المدر

لمحض الحير فحارج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الحير في طينة آدم عجمنا محكما لايخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضرورى في تخليص جوهر الإنسان من خبائمت الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر وبع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المائعة منها والآدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان: (الركن الآول) في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الاشخاص وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثاني): فيها عنه التوبة وهو الدنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع المدرجات والدركات انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بها تعظم الصغائر . (الركن الثالث): في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة . (الركن الرابع): في الموبة . (الركن الرابع): في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين .

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إنَّ شاء الله عز وجل .

الركن الأول: في نفس التوبة بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الآول والحال الثانى ، والثانى ، والثانى موجب للثانى إيجابا اقتضاه إطراد سنة انه فى الملك والملكوت . أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الدنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل مجبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محقة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفه تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهماشعر بفوات مجبوبه تألم ، فإن كان فوانه بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمجبوبه ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب والستولى وانبعث من هذا الآلم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال فيالقرك للذنب الذي كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعرم على ترك الدنب المفوت المجبوب المحبوب على ترك الدنب مطلع هذه الحيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الدنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن أكدهذا الإيمان مهما أشرق على القلب المسلم في خدما لحيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن المبوبه، كمن يشرق عليه نورالشمس وقدكان عبارة عن تأكم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار مجبوبا عن عبوبه، كمن يشرق عليه نورالشمس وقدكان في ظلمة فيسطم النور عليه بانقشاع سحاباً وانحسار حجاب فرأى عبوبه وقدأ شرف على الملاك فتشعل نيران الحب فى قلبه ونظمة فيسطم النور عليه بانقشاع سابرا والتحود ، فيطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويحمل العلم كالسابق وللمقدمة والترك كالثرة والثابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قالعليه الصلاة والسلام والندم توبة قله المندم توبة الندم توبة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قالعليه الصلاة والسلام والندم توبة قائم علم علم علم علم علم المتأخر ، وبهذا الاعتبار قالعلية الصلاة والسلام والندم توبة والنادم عن عمل الدم توبي و المناه عن عمل علم المندم توبة والمراه على علم على المعام على المعلم عالم والمقدمة والمدر والمقدمة والمدر والمندم توبة والمناه عن علم على المدرة والمابات عن عبوبه على المدرة والمناه عربة على على المدرة والمناه عن عبوبه على على المدرة والمابية المابوالد عن على على المدرة والمناه على على المدروبي على المد

⁽۱) حديث د الندم توبة ، أخرجه ابن ماجه وابن حان والحاكم وصحيح إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث ألس وقال صحيح على شرط الشيخين .

أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفو فابطرفيه أعنى ثمرته ومثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة إنه ذو بان الحشا لما سبق من الحطأ ، فإن هذا يعرّض لمجرّد الآلم ، ولذلك قيل : هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حدّ التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل ابن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المندمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والآقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ، وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أه من طلب الآلفاظ المجرّدة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أنوجوبالتوبةظاهر بالأخيار (١١ والآيات ، وهو واضح بنورالبصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنورالإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقو ده في كل خطوة • فالسالك إما أعمى لايستغنى عن القائد في خطوه ، وإما يصير يهدى إلى أوَّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربمــا يعوزه ذلك فيتحير ؛ فسيرهذا وإن طال عمرهوعظم جدّه مختصروخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمـان ، وهو لشدّة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان ، فكأنه يـكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، وهذا لايحتاج إلى نص منقول في كل واقعة ، فن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلابنور البصيرة إلى التوبةماهي ،ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها ، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد ، فإنه لولا تعاق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل : صار واجبا بالإيجاب ؛ حديث مجض فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوبوأنه الوسيلة إلى سعادة الابد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشق لامحالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم.وعلم أنه لامبعد عنالقاءالله إلا اتباع الشهوات والآنس بهذا العالم الفانى والإكباب على حب ما لابد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لامقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عنزخرف هذا العالم والإقبال بالـكلية علىالله طلبا للانس به بدوام ذكره والمحبةله بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبًا مبعدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد وأجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم ، فإنه مالم يعلمأن الذنوب أسبابالبعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد ، ومالم يتوجع فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلايشك في أن المعا في الثلاثة ضرورية في الوصول

⁽١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة : اخرج مسلم من حديث الأغر المزنى « ياأيها الناس توبوا لملى الله ...الحديث » ولابن ماجه من حديث جابر « ياأيها الناس توبوا لمل ربسكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى الحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، فني التقليد والاتباع له مجالرحب يتوصلبه إلى النجاة منالهلاك، فليلاحظ فيه قولالله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿ وَتُونُوا إِلَى اللهُ جَمِيعًا أَيَّهُ المؤمنُون لعلكم تفلحون ﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا ۚ إِلَىٰ اللهِ تُوبَةُ نُصُوحًا . . ﴾ الآية ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إِنْ الله يحب التَّوَّابين ويحب المتطهرين ﴾ وقال عليه السلام . التائب حبيب الله والتائب من الدنبكن لا ذنب له (١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلها حنى إذا اشتدّ عليه الحرّوالعطش أوماشاء اللهقال أرجع إلى مكانى الذي كـنتفيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ؛ فالله تعمالي أشدّ فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته (٢١) . وفي بعض الألفاظ . قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله : أناربك وأنت عبدى ، ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عزوجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جديل وميكائيل علمهما السلام فقالا : يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام: ياجبريل فإنَّ كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي ؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورَّثت ذويك التعب والنصب وورَّثتهم التوبة ، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب يا آدم وأحشر النائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب . والآخبار والآثار في ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الامة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأنَّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعــالى ، وهذا داخل في وجوب الإبمــان ، ولـكن قد تدهش الغفلة عنه ، فمنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف في وجوبها . ومن معانها : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها فيالاستقبال وتدارك ماسبق من التقصيرفي سابق الاحوال ، وذلك لا يشك في وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب ، وهو روح الثوبة ، وبه تمـام التلافي ، فكيف لايكون واجبا ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بمـا فات من العمر وضاع في سخط الله .

فإن قلت: تألم القلب أمر ضرووى لايدخل تحت الاختيار ، فكيف بوصف بالوجوب ؟ فاعلم أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فإن ذلك محال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر المكل من خلق الله وفعله (والله خلقه كم وما تعملون) هذا هو الحق عند ذوى الابصار وما سوى هذا ضلال .

* فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : فعم وذلك لا يناقض قولنا : إنّ الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضا من خلق الله ، والعبد مضطر في الاختيار الذي له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

⁽۱) حدیث « التائب حبیب الله والتائب من الذنب کن لاذنب له » أخرجه ا بن ماجه من حدیث ابن مسعود بالشطر الثانی دون الأول ، وأما الشطر الأول فروی ابن أبی الدنیا فی التوبة وأبو الشیخ فی کتاب النواب من حدیث آنس بسند ضعیف ه ان الله یمب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد فی زواند المسندو أبی بعنی بسند ضعیف من حدیث علی ه ان الله عبالعبد المؤمن المفتر التواب » (۲) حدیث « لله آفرح بتوبه عبده المؤمن من رجل نزل فی أرض فلاة دویة مهلکة ... الحدیث » متفق علیه من حدیث ابن مسعود وأنس . زاد مسلم فی حدیث أنس « ثم قال من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزیادة من حدیث النمان بن بشیر ومن حدیث أبی هریرة مختصرا ،

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معهتناوله أملاً ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول ؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بدّ منحصوله عند تمــام أسبابه ؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إيَّاها تجرّكت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموافع ، وهما أيضامن خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة بجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ، ولا ينبعث هذا الميل انبغاثًا تاماً مالم يخلق علمــا بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المـآل ، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ؛ فالعلموالميل الطبيعي أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدآ تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلّا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولاتخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لاأن الحياة تتولد من الجسم ، ويكونخلق الحياةشرطا لحلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحيأة ، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة لا أنَّ العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم ، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لان تغييره محال ، فهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرةالازلية عند حصولالاستعداد ، ولما كاناللاستعداد بسببالشروط ترتيب كَان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد بحرى هذه الحوادث المرتبة ؛ وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحدكلمح البصرترتيباكليا لا يتغير ، وظهررها بالتفصيل مقدّر بقدر لايتعدّاها وعنه العبارةبقوله تعالى ﴿ إِنَا كُلُّ شَيْءَ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرَ ﴾ وعن الفضاء السكلي الآزلي العبارة بقوله تعمالي ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وأما العباد فإنهم مسخرون تحت بجارى القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة في يد السكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بمــا إليه مييله يسمى الإدراك والمعرفة ، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت ، وقالوا ياأيها الرجل قد تحرّكت ورميت وكتبت ، ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . وما قتلت إذ تتلت . ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعندهذا تنحير عقول الفاعدين في بحبوخة عالم الشهادة ؛ فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السهاء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأنَّ القصور شامل لجميعهم . فلم يدك واحد منهم كنه هـذا الآمر ولم يحط علمه بجوانبه ، وتمسام علمه ينال بإشراق النور من كرّة نافذة إلى عالم الغيب ، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة

من لم يدخل فى حير الارتضاء ، ومن حرّك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه .

* فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الآفهام بمثال ؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللبس الذى نقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سأهم بقية العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سأهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ماهو إلا مثل أسطوانة خشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذى لمس الآذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولا هو مثل السطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ ، فحك واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ، الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أهواجها وليسذلك من غرضنا ، فالمرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن النوبة واجبة بجميع أجزائها الثلائة : العلم والندم والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب بسمله . كرنه واقعا فى حملة أفعال الله الحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الحوب بشمله .

بيان أرب وجوب النوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور المتقصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلايقع التقصى عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه ؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا المركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه ؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا المركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد المجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام ، لا يرني الزاني حين يزني وهو مؤمن (١١) ، وماأوادبه نني الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكمتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزا والمعاصى ، وإنما أراد به نني الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للبقت ، كا إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمني أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصى بالضرورة مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها الله و أيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الآذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نتي البشرة عن المرسود عن الطروح وأدناها إماطة الآذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نتي البشرة عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نتي البشرة عن المسرد بالمورد عن المراد وأدناها إماطة الآذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الإطاقة المؤلم المسلم المنافقة عن المسلم عن المسرد بالمورد عن المراد وأدناها إماطة الآذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأطأفر تنق البشرة بأن يكون مقصوص الشارب المورد عن المؤلم عن المورد عن المراد المؤلم المؤ

⁽١) حديث « لابزني الزاني حين بزني وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الحبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوئة بأروائها المستكر هة الصور بطول مخالبها وأظلافها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالسكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الاطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لاأصل الروح ، وكما أن من همذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الاعضاء التى تمدّها وتقويها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر فى الاعسال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح الماصفة المحركة للإيمان فى مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده ؛ فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنشر فى الاعمال فروعه لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنشر فى الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الحاتمة لا مايستى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إلى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستمرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الحريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الاشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار ، أفرس تحتــــك أم حمــار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة التي لا يثبت علمها إلا الأقلون ؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الحلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالباً لا يقع لجأة ، فيقال له : الصحيَّح يخاف المرض ثم إذا مرض حانى الموت ، وكذلك العاصي يخاف سوء الحاتمة. ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الحلودق النار ؛ فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للابدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصى ، فإذا كان الخائف من الملاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور ، فالحائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على ملاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فتناول سموم المدين وهي الدنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك ألممكن مادام يبق للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّته ، إذ ليس لمدّته آخر ألبتة ؛ فالبدار البدار إلى التوبة تبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمـان عملا بجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الـكلمة عليه بأنه من الهالـكين ، وبدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ إِنَا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقُهُمُ أَعْلَالًا فَهِي إِلَى الْأَذْقَانَ فَهُمْ مَقْتَحْمُونَ . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأخشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ولا ينزنك لفظ الإيماك ، فنقول: المراد بالآية الـكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزانى لايرنى حين يزنى وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الحاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي مي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي مي أصل ؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الآصل ، ولا فرق بين الآصل والفرع إلا فى شىء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الآصل ، وأما وجود الآصل فلا يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الآصل بالفرع ، ووجود الفرع بالآصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والآصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الآصل والآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تمكن باعثة على العمل فعدمها خمير من وجودها ، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة الحجة على صاحبها ، ولذلك يزاد في عذاب العملم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الآخبار في كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والاحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة

اعـلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلـكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه ، إذ معنى النوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصوّر ذلك إلا من عافل ، ولا تـكمل غريزة العقل إلا بعد كال غريزة الشهوة والغضب وســائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان . إذ كمال العقل إنما يكون عنـد مقاربة الاربعـين ، وأصله إنمـا يتم عنُـد مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعاً قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لايثبت أحدهما الآخر لانهما ضدان ، فالتطارد بينهمـــا كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جنــد الشيطان واستولى على المـكان ووقع للقلب به أنس وإلف لامحالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئا فشيئا على الندريج ، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لاحتنكن ذرّبته إلا قليلا ﴾ وإن كمل المقل وفوي كان أول شغله قمـع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارفة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليلهالشهوة وخفيرهالشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس في الوجود آدى إلا وشهوتهسابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فـكان الرجوع عما سبق إليه عـلى مساعدة الشهوات ضروريا فى حقكل إنسان نبياكان أو غبيا ، فـلا تظنن أن هـذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنسلايمكن فرض خلافه مالم تتبدّل السنة الإلهية التى لامطمع فى تبديلها ، فإذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئامالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنسع والإطلاق والانفكاك والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الاكثرون إذ عجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة ، فدل على أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم ، فخلقة الولد لاتتسع لما لم يتسع له خلقة الوالداصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو يستغن آدم ، فخلقة الولد لاتتسع لما لم يتسع له خلقة الوالداصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو

أنّ كل يشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذ لم يخل عنه الانبياء كا ورد فى القرآن والاخبار من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلايخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ؟ فإن خلا فى بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الحواطر المتفرقه المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصوّر الحلو فى حق الآدى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير ، فأما الاصل فلا بدّ منه ، ولهذا قال عليه السلام ، إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة (١) ، الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال (ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخر) وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

فإن قلت : لايخني أن مايطراً على القلب من الهموم والحنواطرنقض ، وأنَّ السكمال في الحلو عنه ، وأنَّ القصور عن معرِفة كنه جــلال الله نقص ، وإنه كلمــا ازدادت المعرفة زاد السكمال ، وأنَّ الانتقال إلىالسكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع ثوبة ، ولكن هذه فضائل لافرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كلحال ، والتوبة عن هذَّه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع : فما المراد بقولك : النوبة واجبة فى كل حال؟ فأعلم أنه قد سبق أنَّ الإنسان لايخلو في مبـدإ خلقته من أتباع الشَّهوات أصلاً ، وليس معني التَّسوبة تركها فقط ، بل تمــام التوبة بتدارك مامضي ، وكل شهوة اتبعهاالإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما برتفع عننفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة ، فإن تراكمت ظلمة الشهرات صار ربّناكما يصير بخار النفس في وجهه المرآة عند تراكه خبثاً ، كما قال تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطب على قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعدم وصار كالمطبوع من الحبث ، ولا يكني في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محوتلك الاريان الني انطبعت في القلب ، كما لايكني في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس والبخارت المستردة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحوما الطبع فيها من الاريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمةمن المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليها لإشارة بقوله عليه السلام . أتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) . فإذن لايستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثمار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثمارها آثار تلك السيئات ؛ هذا فى قلب حصل أو لا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة ؛ فأما التصقيل الأول ففيه لاتنقطع أصلاً ، وكل ذلك يرجمع إلى التوبة ، فأما قولك : إن هذا لايسمى واجباً بل همو فضل وطلب كمال ، فاعلم أنَّ الواجب له معنبان : أحدَّهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الحلق وهو القدر الذي لواشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوآ آلله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالـكلية ، تم يؤدى ذلك إلى بطلان التفوى بالسكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى ، بل شغل الحيساكة

⁽۱) حديث « لمنه لينان على قابي فأستمفر الله في اليوم والليلة سبعين مهة » أخرجه مسلم من حديث الأغرالمزني ، إلاأنه قال « في اليوم مائة مهة » وكذا عند أبي داود ، وللبخارى من حديث أبي هريرة هاني لأستنفرالله في اليوم أكثر من سبعين مهة » وفي رواية البيهتي في الشعب ه سبعين » لم يقل « أكثر » وتقدم في الأذكار والدعوات (۲) حديث ه أتبم السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره ويال حسن صحيح ، وقد تقدم في رياضة النفس .

والحراثة والحنبز يستغرق جميعالعمر من كلواحد فيمايحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست نواجبة بهذاالاعتبار، والواجب الثاني هو الذي لابدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين ، والثوبة عن جميع ماذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوّع أي لمن يريدها.فإنه لايتوصل إليه إلا بها . فأمامن رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لاجلها، كما يقال : العين والآذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان ، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ويتوصلبها إلى درجات العلا في الدنيا ، فأما منقنع بأصل الحياة ورضيأن يكون كلحم علىوضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثلهذه الحياة عين ويد ورجل، فأصلالواجبات الداخلة فيفتوىالعامة لايوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كـأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعاداتالتي بها تنتهي الحياة يجرى بجرى الاعضاء والآلات التي بها تنهيأ الحياة وفيه سعى الانبياء والاولياء والعلماء والامثل فالامثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تعلوافهم ، و لاجله كان رفعتهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرًا في منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال أماكنت تركت الدنيا للآخرة؛ فقال: فعم، وما الذي حدث فقال : توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الارض؟ فرى عيسي عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان رميه المحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لايسمىواجبا في فتاوى العامة ؟ أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لمــا شغله الثوب الذي كانعليه علم في صلاته حتى نزعه (١) وشغله شراك فعله الذي جدَّده حتىأعاد الشراك الحلق (٦) لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لـكافة عباده ، وإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لانه رآه مؤثرًا في قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ؟ أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللين وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر ؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا بحب في فتوى الفقه إخراجه ؟ فلم تاب عن شرابه بالتدارك علىحسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهلكان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرّفه ذلك السر أرخ فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لايعرفه إلا الصدّيقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر اللهوبمكامن الغرور بالله ، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياكألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيثقال لولم يبك العاقل فيها بق من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لـكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى المات، فكيف من يستقبلما بتي من عمره بمثل ما مضي من جهله ؟ وإنما قال هذا لانالعاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكي عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ ، وكلساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لان توصلك إلى سعادة الابدوتنقذك من شقاوة الابد ، وأيجواهر أنفسمن هذا ؟ فإذاضيعتها في الغفلة فقد خسرتخسرانا مبينا ، وإن صرفتها إلى معصية

⁽١) حديث نرعه صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضاً (٢) حديث نرعه الممراك الجديد ولمادة المعراك الحلق : تقدم في الصلاة أيضاً .

فقد هلكت هلاكا فاحشا. فإن كنت لاتبكى على هذه المعصية فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة ، فإنّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بتى من عمرك ساعة وإنك لاتستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالوكانت له الدنيا بحذافيرها لحرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فها ويتدارك تفريطه فلا بجد إليه سبيلا ، وهو أوّل ما يظهر من معانى أوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين مايشتهون ﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخرالله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ فقيل ؛ الأجلالقريب الذي يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يامالئ الموت أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزقرد صالحًا لنفسى ، فيقول : فنيت الآيام فلا يوم ، فيقول : فأخرني ساعة فيقول : فنيت الساعات فلاساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر مروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه ، ويتجرّع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الاحوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسني خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الحاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذاك سوء الخاتمة ، ولمثل هذا يقال ﴿ وليست التوبُّة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ وقرله ﴿ إنما التربة على الله للذين يعملون السر مبجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ومعناء عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلايقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . أتبع السيئة الحسنة تمحها , ولذلك قال لقيان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغته ومن ترك المبادرة إلى التوبة باللسويف كان بينخطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثانى) أن يعاجله المرض أوالموت فلايجد مهلة الاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الحبر مإن أكثر صياح أهلالنار من التسويف (١) ، فما هلك من هلك إلا بالتسويف ، فيكون تسويده القاب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلىأن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سلم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمر. مخطر .

قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى قد أخر جتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واثتمنتك عايه ، فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر إلى كيف تلقانى . (والثانى) عند خروج روحه يقول : عبدى ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء ، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راغون) .

⁽١) حديث ﴿ لَمِن أَكْثَرَ سَيَاحَ أَهُلَ النَّارَ مِنَ النَّسَوِيفِ ﴾ لم أجد له أصلاً •

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل تو بة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظرونبنورالبصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سلما في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه الفلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بلكا لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لان يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الاعمال الحسيسة يوسخالثوبوغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أنَّ كل ثوَّب نظيف فهو مقبول ، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الآزلي الذي لا مرد له ، وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ومن لم يعرف على سببل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثرُ بالمعاصي والطَّاعات تَأْثُرا مَتْضَادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النوركما يستعارللعلم، وأنَّ بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كشيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، و من جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه ، إذ بقلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لايعرف قلبه ، فن يتوهم أنَّ التوبة تصح ولا تقبل كن يتوهم أنَّ الشمس تطلع والظلام لايزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ، فثال ذلك أنَّ تتراكمالذنوبحتي تصير طبعاً وريناً على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف النموب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وَهُوَ الذِّي يَقْبُلُ التَّوْبُةُ عَنْ عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقال صلى الله عليه وسلم قه أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث ، والفرح وراء القبول ، فهودلبل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم . « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل إلى النهار ولمسىء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١١) و بسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا جتى تبلغ السهاء ثم ندمتم لناب الله عليكم (١) ، وقال أيضا . إن العبد ليذنب

⁽۱) حديث « أن الله ببسط يده بالتوبة لمسى، الخبل الى النهار ... الحديث » رواه سلم من حديث أبى موسى بافظ « يبسطيده باللهل ليتوب مسى، النهار ... الحديث » (۲) حديث ولوعمتم باللهل ليتوب مسى، النهار ... الحديث » (۲) حديث ولوعمتم المطايا حتى تبلغ السهاء ثم ندمتم لتاب الله عليديم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هربرة ولسناده حسن بافظ و لو أخطأتم » وقال « ثم تبتم » .

الذنب فيدخل به الجنة ، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائبا منه فارًا حتى يدخل الجنة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، التائب من الذنب كن لا ذنب له » .

وبروى . أن حبشيا قال : يارسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة ؟ قال . فعم ، فولى ثم رجع فقال : يارسول الله أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال . فعم ، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه (٢) . .

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه (1) . وقال صلى الله عليه وسلم ، إن الحسنات يذهب الماء الوسخ (0) ، والاخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنول قوله تعالى ﴿ إنه كان الاقابين غفورا ﴾ في الرجل يذنب ثم يتوب ثم ينوب .

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم .

وقال طاق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب .

ويروى أن نبيا من أنبياء بنى إسراء لل أذنب فأوحى الله تعالى إليه : وعزتى لأن عدت لاعذبنك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمنى لاعودن فعصمه الله تعالى .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس : ليتنى لمأوقعه فالذنب. وقال حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول . أما إنى قد كنت مشفقا منه ، : فيغفر له .

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان ؛ فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الـكافر وقول الله تعالى ﴿ إِن ينتهوا

⁽۱) حديث « لمن العبد ابذب الذنب فيدخل به الجنة ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ، ولأبي لعيم في الحلية من حديث أبي هريرة « لمن العبد ليذنب الدب فإذا ذكره أحزله ، فإذا لظر الله أنه أحزله غفر له .. الحديث » وقيه صالح المرى ، وهو رجل صالح لكنه مضعف الحديث . ولابن أبي الدايا في التوبة عن ابن عمر « لمزالة لبنهم العبد بالدنب بذنبه » والحديث غير محفوظ ، قاله العقبل (٢) حديث وكفارة الذنب الندامة » أخرجه أحمد والعبراني والبهتي في الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يميى بن عمرو بن مالك الهشكرى ضعيف .

⁽٣) حديث : أن حبشيا قال يارسول الله إلى كنت أعمل الفواحش فهل لم من توبة قال « نم ، الحديث لم أجد له أسلا (٤) حديث « لن الله لمما لمن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم الفيامة فقال: وعزتك لاخرجت من قاب ابن آدم مادام فيه الروح ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحعه من حديث أبى سميد أن الشيطان قالى: وعزتك يارب لاأزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقالد: وعزتي وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استنفروني ، أورده المسنف بصينة : ويروى كما أخلا ولم ينزه الى النبي صلى الله عليه ، فذكرته احتياطا (٥) حديث « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ» لم أجده بهذا الففط ، وهو صحيح المعنى ، وهو يمعنى « أتب السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريها .

يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فقال إنى لارجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ، ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل أو كتاب ، نزل ، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين .

قال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التَّوَّابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل : ومتى ؟ قال : إذا تاب على .

وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لامحالة .

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال: إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلاً بقول ولا يرى شخصا : أحببتنا فأحبناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بما التوبة فأثمرت ندما وحزنا ، لجنوا من غير جنون و تبلدوا من غير عى ولا بكم ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقر موا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى العلاحتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريخ النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة ، فهذا القدر كاف فى بيان أن كل بوية صحيحة مقبولة لا محالة .

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول: لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه إذا منع الماء مدّة وجب العطش ، وأنه إذا منع الماء مدّة وجب العطش ، وأنه إذا منا المعشرة الموت ، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة المعصية ، والحسنة ماحية المسيئة ، كا خلق الماء من بلا العطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واحب على الله تعالى ، ولكن ماسبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة

فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته ، والشارب للساء لا يشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائطالصحة ، فإن للتوبة أركانا وشروطادقيقة كاسيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فالدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته ، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ومرجب للشك فى قبولها لا محالة على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى ،

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أنّ التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل إليها إلا بهواجبا، فعرفة الدنوب إذن واجبة، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أوفعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح الشكليفات من أولها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى بحامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنَّ للإنسان أوصافاً وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ، ولكن تنحصر مثارات الدنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفه ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضي السكر والحل والزعفران في السكنجبين آثارا مختلفة ، فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل|الـكمبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الاعلى ، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الحلق ولم يمدُّوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة الني مي كالامهات لا كرثر المعاصى كما استقصيناه في ربع المهلكات (الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمسكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة الهيمية ومنها يتشعب الشره والـكلب والحرص على تضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات. (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرّع عنها جمل من الذنوب ، وهذه الصفات لهــا تدريج في الفطرة ، فالصفة الهيمية هي التي تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصغات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكدرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق . فهذهأمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضهاعلىالبطن والفرج، وبعضها علىاليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية : أعلم أنّ الذنوب تقسم إلى مابين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد عاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به ومايتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض وكل متناول من حق الغير ، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعه والترغيب في المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الحزف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء في الخبر ، الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لايغفر ، وديوان لايغفر ؛ وديوان الذي لايغفر ؛ فالشرك

الله تعالى . وأما الديوان الذي لا يترك . فظالم العباد (١) . أي لابدّ وأن يطالب بها حتى يعني عنها .

قسمة ثالثة : اعلم أن الدنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون : لا صغيرة ولاكبيرة ، بل كل مخالفة بنه فهى كبيرة ، وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى ﴿ إِن تجتنبوا كبائر ما تهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، الصلوات الحنس والجمعة إلى الجمعة يكفرن مابينهن إن اجتنبت الكبائر (٢٠) ، وفي لفظ آخر ، كفارات لمسا يدنهن إلا الكبائر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيا رواه عبد الله بن عرو بن العاص ولى الله الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس والهين الغموس ٢٠٠ ، واختلف الصحابة والتابدون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فيا فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : هن أربع ، وقال ابن عرو : هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عرد : الكبائر سبع ، يقول: هن إلى سبع ، وقال مرة : كل ما أو جد عليه بالنار فهو سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال ابن مسعود عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة : وقال غيره : كل ماأوعد الله عليه بالنار فهو كبيرة القدر وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود لماسئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود علم الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب عشر جمعها من جملة الاخبار (١٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر على المكى : الكبائر سبع عشر جمعها من جملة الاخبار (١٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر على المكى : الكبائر سبع عشر جمعها من جملة الاخبار (١٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر

⁽۱) حديث « الدواوين ثلاثة : ديوان ينفر... الحديث أخرجه أخد والحاكم وسععه من حديث عائشة ، وفيه صدقة بن موسى الدقيق ضفه ابن معين وغيره ، وله شاهد من حديث سلمان ، رواه الطبراني . (۲) حديث « الصلوات الحسوالجمة الى الجمعة تحكفر ما يونهن ان اجتنبت السكبائر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة . (۳) حديث عبد الله بن عمرو « السكبائر الإشراك باقة وعقوق الوالدين وقتل النفس والمجين النموس » رواه البغاري .

^(؛) الأخبار الواردة في السكبائر حكى المصنف من أبي طالب المسكى أنه قاله : السكمائر سبع عشرة جبعها من جلة الأخار ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وا ن مسعود وابن عمر وغيرهم . الشرك بافلة ، والإصرار على معميته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مَكْرُه ٬ وشهادة الزور ، وقذف المحصن ، والعين الغموس ، والسحر ، وشرب الخر والمسكر ، وأكل مال اليتم ظلما وأكل الربا ، والزنا ، واللواط ، والفتل ، والسرفة ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ما ورد منها مهافوعا ، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو . وفي الصحيحين من حديث أني هريرة « اجتذبوا السبع الموبقات » ةالوا : يارسول الله ومامى ؟ قال « الشرك بافة ، والسنجر ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحتي ، وأكل الربا ، وأكل مال البتيم والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات المؤمنات » ولهما من حديث أبي بكرة « ألا أنبشكم بأكبر الكبائر قالم « الشهرك بافة ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ــ أو قال قول الزور ــ ، ولها من حديث أنس : سئل عن السكبائر قال و الشرك بالله ،وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقال « ألا أنبشكم بأكبر السكبائر ؟ قال : قول الزور ، أو قال شهادة الزور ، ولهما من حديث ابِن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلُّم أى الله نب أعظم : قال ﴿ أَن تَجْعِلُ لله خَدَا وهو خلفك ﴾ فلت ثم أى؟ قال ﴿ أَن تقتل ولدك عنافة أن يطعم ممك ، قلت ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » . والطبراني من حديث سلمة بن قيس : «لماهي أربع: لاتمبركوا بافة شيئاً ، ولانفتاوا النفس التي حرم افة لملا بالحق ، ولاتزنوا ، ولاتسرقوا » وفي المصحيحين من حذيث عبادة بن الصامت : « بايموني على أن لانشركوا بالله شيئا ، ولاتزنوا ، ولانسرقوا » وفي الأوسط الطبراني من حديث ابن عباس « الحر أم النواحش وأكبر السكباس » وفيه موقوفا على عبد الله بن عمروه أعظم السكبائر شرب الحمر »وكلاما ضعيف . وللبذار من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال بارسول الله ما السكبائر ؟ قال « الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والغنوط من رحمة الله » وله من حديث بريدة « أكبر السكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنم فضل المـاء ومنمالفحل » وفياصالح ابن حيان ضعفه ابن معين واللسائي وغيرها ، وله من حديث أبي هريرة « السكبائر أولهن الاشراك بالله ، وفيه « والانتثال لمل الأعراب بعد هجرته » وفيه خالد بن وحف السبين ضعيف والعلماني في السكبير من حديث سهل بنأ في حشمة في السكبائر دوالتعرب بعد الهميرة » وفيه ابن لهيمة ، وله في الأوسط من حديث أبي سبيد الحدري « السكبائر سبع » وفيه «والرجوع لمل الأعرابية بعد الهجرة، وفيه أبو بلال الأشعرى ضعفه الدارقطني ، والنحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه « السكبائر تسم ، فذكر منها (٣ --- إحياء علوم الدين --- ١

وغيره : أربعة في القلب وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والآمن من مكره . وأربع في المسان ، وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ـ وهي التي يحق بها باطلا أديبطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امري مسلم باطلا ولو سواكا من أراك . وسميت غموسا لآنها تغمس صاحبها في النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الاجسام عن موضوعات الحلقة . والاث في البطن : وهي شرب الخر والسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم واثنتان في الفرج وهما : الزنا والمواط . واثنتان في اليدين وهما : القتل والسرقة وواحدة في الرجلين : وهي الفرار من الرحف الواحد من اثنتين والعشرة من العشرين . وواحدة في جميعا لجسد وهي عقوق الوالدين ، قال : وجملة عقوقههاأن يقسها عليه في حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألاه عاجة فلا يعطيهما ، وأن يسباه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما : هذا ماقاله في حق فلا يبر قسمهما ، وأن يسباه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما : هذا ماقاله اليتم من الكبائر ، وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس الا القتل ، فأما فق العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتم وتعذيبه وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتم وتعذيبه وتعلم أطرافه عرض أخيه المسلم (١١) ، وهذا زائد على قذف المحس . وقال أبو سعيد الحدري وغيره من الصحابة: إنكاتهملون عرض أخيه المسلم (١١) ، وهذا زائد على قذف المحس . وقال أبو سعيد الحدري وغيره من الصحابة: إنكاتهملون أعمالا هي أدى في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر (١٢) . وقالت طائمة كل عمد كبيرة وكل ما هي الله عنه فهو كبيرة ، وكشف النطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة ، وكشف النطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أكبر من الكبائر (١٣) . وقالت

⇒ واستحلال البيت الحرام ، والطبراني من حديث واثلة ﴿ إِنْ مِنْ أَكْبِرِ السَّكَبَائِرُ أَنْ يَقُولُ الرَّجِلُ عَلَى مَا لَمُ أَقَلَ ، وله أيضًا من. حديثه ﴿ لَمْنَ مَنَ أَكِبُرُ الْكَبَائِرُ أَنْ يَنْتَنَى الرَّجِلُ مَنْ وَلَدُهُ ﴾ ولمسلم من حديث جابر ﴿ بين الرَّجِلُ وبين الشرك ـــ أو السَّكَافر ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « من السكبائر شتم الرجل والديه » ولأبي «اود من حديث سعيد بززبد «من أربى الربا الاستطالة في مرض المسلم بنير حق ، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبربن فقال لمنهما ليعذبان وما يعذبان في كبر وأنه اسكبير ، أما أحدها فسكان عشى بالتمميمة ، وأما الآخر فسكان لايستتر من بولا ، الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة « أما أحدها فسكان يأكل لحوم الناس » الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث ألس «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآرأو آية أوتيها رجل ثم نسيها» سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى . وروى ابن أبي شببة في التوبة من حديث ابن عباس « لاصنيرة مم لمصرار » وفيه أبو شببة الخراساني والحديث منسكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبرآني والبيهتي في الشعب عن ابن مسعودقال السكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والفنوط من رحمة الله ، والبأس من روح الله . وروى البيهق فيه عن ابن عباس تال : السكبائر الإشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس الق حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، والحيين النموس الفاجرة ، والناول ، ومنم الزكاة. وشهادة الزور، وكتمانُ الممهادة وشرب الحمر ، وترك الصلاة متعمدًا وأشباء نمسًا فرضها الله ، ونفض العهد ، وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس :كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة ، وفيه الربسح بن صيبح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الغردوس عن ألس قوله ؛ لاصنيرة مع الإصرار ، ولسناده جيد ؟ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوقات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون ، ألا أن بعضها لا يصنع لسنادً كما تندم ، ولمنمسا ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف . وللبيه ق في الشعب عن أبن عباس أنه قبل له : السكبائر سبيع ، فغال: هي إلى السبعين أقرب . وروى البيهق أيضافيه عن ابن عباس قال : كل مانهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(۱) حديث د من السكبائر السبتان بالسبة ومن السكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم » عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد ، والذي عندها من حديثه « من أربي الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بنير حق » كا تقدم . (۲) حديث أبي سعيد الحدري وغيره من الصحابة : لمنكم تسلون أعمالاهي أدف في أعينكم من الشمر كنا تعدما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من السكبائر . أخرجه أحمد والبرار بسند صحيح وقال « من الموبقات » بدل السكبائر . ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرس وقال . صحيح الاسناد .

أم لا : لا يصح ، ما لم يفهم معتى الكبيرة ، والمراد بهاكتول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده في السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبَّهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع ، وذلك لأنّ الكبير والصغير من الضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، مغيرة بالإضافة إلى قتله . فعم للإنسان أن يطلن على ما توعد بالنار على فعله عاصة الـم الكبيرة ، ونعنى بوصفه بالكبيرة : أنَّ العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيرًا إلى أنّ ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واحبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنـه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكـبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هـذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هـذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إِن تَجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . الصلوات كـ فَارات لما بينهن إلا الكبائر ، فإن هـذا إثبات حـُكُم الكبائر . والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم إنها معدودة في الصغائر ، وإلى ما يشك فيه ، فلا يدرى حكه ، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع ما نعطلب لمالم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : إنى أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها فإن لم يرد هذا ـ بل ورد في بعض الالفاظ ، ثلاث من الكبائر (١١) ، وفي بعضها . سبع منالكبائر (٢) ، ثم ورد . أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث : علمأنه لم يقصدبه العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربمـا قصد الشرع ابهامه ليكوّن العباد منه على وجل ،كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدَّ الناس في طلبها ، فعم لنا سبيل كان يمكننا أن نعرف به أجناس الـكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأماأعيانها فندرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصمد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه ،وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليهالإشارةبقوله تعالى ﴿ ومَا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي ليكونوا عبيد لى ، ولايكونالعبدعبدا ما لم يعرف ربه بالربوبيه ونفسه بالعبودية ولا بدَّ أن يعرف نفسه وربُّه ، فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة الانبياء ، ولكن لا يتم هذا إلاني الحياة الدنيا،وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام . الدنيا مررعة الآخرة (١٣) فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال ، فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالىفهوأ كبر الكبائر ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها حياة الناس ، فهذه ثلاث مراتب، فحفظ

⁽۱) حديث و ثلاث من السكبائر ، أخرجه الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبشكم بأكبر السكبائر ـ ثلاث الحديث وقد تقدم . (۲) حديث و سمع من السكبائر ، رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد و السكبائر سم ، وقد تقدم وله في السكبير من حديث عبد الله بن عمر و من صلى الصلوات الخس واجتنب السكبائر ... الحديث ، ثم عدهن سبما ، وتقدم عن المسجيحين حديث أبي هريرة و اجتنبوا السبع الموقعات ، (٣) حديث و الدنيا مزرعة الآخرة ، لم أجده بهذا الفظ مرفوعا وروى اامقيلي في الضفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من جديث طارق بن أشيم و نعمت الدار الدنيا لمن تزوده تها لآخرته ، الحديث ، ولمناده ضعيف .

المعرفة على القلوب، والحياة على الابدان ، والاموال على الاشخاص ضرورى في مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل ، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح آلخاق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ؟ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال ، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : (الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهوالكفر ، فلاكبيرة فوق الكفر ، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة ، وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله ، ويتلو الجهل الذي يسمى كـفرا الآمن من مكر الله والقنوط من رحمته ، فإنهذا أيضا عين الجهل ، فن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ، ويتلو هذه الرتبة البدع كلهاالمتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض ، وتفادتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر ، وهي تنقسم إلى ما يعلم أنهاداخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن ، وإلى ما يعلم أنه لايدخل ؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع . (المرتبة الثانية)النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود ، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، وُدفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش إلا بها ، بلكيف يتم النظام مع إياحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لايتصور أن يكون الزنا مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الانساب ويحرّك من الاسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكش وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . (المرتبة الثالثة) الآموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلا. والسرقة وغيرهما ، بل ينبغي أن تحفظ لتبتى ببقائها النفوس ، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الآمر فيها . نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التداركله فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق : أحدها الحفية ، وهي السرقة بإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك . الثانى : أكل مال البتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به في حق الولى والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإمه ظاهر يعرف ، وبخلاف الحيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً ، وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس : وهذه الاربعة جديرة بأن تـكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرامع

في مثله ، وإذا لم يجعل الغضب الذي هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المنالك والكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالعصب وغيره وعظم الحيانة ، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظنّ إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بمــا لا بجوز اختلاف الشرعفيه ليكون ضروريا في الدين ، فيبقى عما ذكره أبوطالب الممكى القذف والشربوالسحر والفرار من الزحف وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دل عليه تشذيدات الشرع وطريق النظر أيضاً ، لأن العقل محظوظ كما أنَّ النفس محظوظة ، بل لا خير في النفس دون العقل ، فإزالة العقل منالكبائر ولكن هذا لايجرى في قطرة من الخر ، فلاشك في أنه لو شرب ما. فيه قطرة من الخر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها في محل الشك ، وإيحاب الشرع الحدُّ به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوّة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، و لا فللتوقف فيه بحال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الآعراض ، والاعراض دون الاموال في الريبة ، ولتناولهــا مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا، وقد عظم الشرع أمره، وأظن ظنا غالباً أن الصحابة كانوا يمدّون كل مايحب به الحدّ كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لانكفره الصلوات الخس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلُف فيه الشرائع فالقياس بمجرَّده لا يدل على كبره وعظمته ، بلكان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنّى فله أن يشهد وبجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته ، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضروريا ف.مصالح الدنياوإنكان على الجملة منالمصالح الظاهرةالواقعة فى رتبة الحاجات ، فإذن هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أنَّ له أن يشهد وحده ، أوظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كانفيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوىالزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بفصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر ــ إذ لم ينقل ذلك فالسبع عشرة كبيرة وهو أكبر ماقيل فيه ـ فالتوقف في هذا أيضا غيربعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فإذا رجع حاصلِ الآمر إلى أنافعي بالكبيرة مالاتكفره الصلوات بحكم الشرع. وذلك بما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ماينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه ، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنني والإثبات وبعضه مشكوك فيه ومو شك لا يزيله إلا نص كـتاب أو سنة ، وإذن لامطمع فيه _ فطلب رفع الشك فيه محال .

ه فإن قلت . فهذا إقامه برهان على استحالة معرفة حدّها ، فكيف يردّ الشرع بما يستحيل معرفة حدّه ؟ فاعلم أنّ كل مالا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام ، لآن دار البسكليفهى دار الدنيا والكبيرة على الحصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الحنس لا تكفرها ، وهذا أس يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الحنس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) ولكن اجتناب الكبيرة إنمايكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه على الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس ، فإن بجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه ؛ فهذا معى تكفيره ، فإن كان عنينا أو لم يكن المتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراولكن المتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا ، وكل من يشتهى الخر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لايكف عنه الصغائر التي هي مقدماته كسماع الملاهي والارتار ، نعم من يشتهى الخر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالجاهدة عن الحر ويطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع ، فكا هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبتى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلايعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولاحد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفات ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصلاة إلى الصلاة كفارة ، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث : إشراك بالله ، وترك السنة ، ونكث الصفقة : أن يبايع رجلا ثم خرج عليه بالسيف يقاتله ، فهذا وأمثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيق لا عالة مهما .

ه فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلا عن يحتلُب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ! فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر ، فلا خلاف في أنَّ من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشربني أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أنّ هذهالامور من الكبائر . وقال الشافعي رضي الله عنه : إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعلة كبيرة بإيجاب الحد ولم برد به الشهادة ، فدل علىأنالشهادة نفيا وإثبانا لا تدور على الصغائر والكبائر ، بلكل الذنوب تقدح في العدالة إلا مالا يخلق الإنسان عنه غالبًا بضرورة مجاري العادات .كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب في بعض الأفوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأس بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام وضربهما محكم الغضب زائدًا على المصلحة ، و إكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتـكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدن ، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرّد لامور الآخرة ويجاهد نفسه مدّة بحيث يبتى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك ، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات . وليس لبس الحرير وسماع الملامي واللعب بالنرد وبجالسة أهلالشرب في وقت الشرب والحلوة بالاجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثم آحاد هذه الصغائر الني لاترد الشهادة بها لو واظب عليها لاثر في رد الشهادة كمن انخذ الغيبة وثلب الناس عادة ، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم ، رالصغيرة تسكبر بالمواظبة كما أنَّ المباح يصير صغيرة بالمواظبة ، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والـكبائر .

⁽١) حديث « الصلاة لمل الصلاة كفارة ورمضان لمل رمضان كفارة الامن ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحو. وقال صحيح الإسناد .

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة ، ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة ، فإنا الآن نتكام في الدنيا وهو علم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت ، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملكوت ، ولذلك قال تعالى (وتلك الآمثال نضربها الناس وما يعقلها إلا العالمون في وهذا لآن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، الناس نيام فإذا ماتوا انتهوا (١١) ، وما سيكون في اليقظة لايتبين لك في النوم إلا الآمثال المحوجة إلى التعبير ، فكذلك ماسيكون في يقظة الآخرة لايتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الآمثال ، وأعنى بكثرة الآمثال مانعرفه من علم التعبير ، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كـأن في يدى خاتما أختم به أفواه الرجالوفروج النساء فقال :إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأني أصب الزبت في الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت فهويرد إلىالاصل ، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقدسييت في صغره . وقال له آخر رأيت كأني أقلدالدرّ فأعنان الخنازير ، فقال : إنك تعلما لحكمة غيرأهلها فكانكما قال ، والتعبير منأوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الامثال، وإتما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقاً ، وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا ، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الحاتم والحتم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ صدر منه روح الحتم ومعناه وهوالمنع الذي يرادالحتم له ، وليس للانبياء أن يتـكلموامع الخلق إلابضرب الامثال ، لانهم كلفوا أن يكلمُوا الناس علىقدر عقولهم ، وقدرُ عقولهم أنهم فىالنوم ، والنائم لايكشفله عنشىء إلا بمثل ، فإذا مانوا انتهوا ، وعرفوا أن المثل صادق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) ، وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون ، فأما الجاهل فلا يجاوز قـ دره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير مايرى من الامثلة في النوم تعبيراً فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً ـ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم . إن الله خلق آدم على صورته (٣) ، فإنه لايفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ــ تعالى الله عن قوله علوًا كبيرًا . من ههنا زل من . زلَّ في صفات إلهية حتى في السكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غيرذلك من الصفات ، والفول فيه يطول ، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثله يـكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده ، كقوله صلى الله عليه وسلم . يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح (١٤) فيثور الملحدالاحمق ويكذب ويستدلبه على كذب الأنبياء ويقول : ياسبحان الله . الموت عرض والـكمبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما ؟ وهل هذا إلا

⁽١) حديث و الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، لم أجده مراوعا ، ولم على يمزى لل على بن أبي طالب .

⁽٢) حديث « قلب المؤمن بين أسبمين من أسابع الرحن ، تقدم ﴿ ٣) حديث « ان الله خلق آدم على صورته » تقدم .

⁽٤) حديث د يؤتى بالموت يوم الفيامة في صورة كبش أملح فيذبح ... ، الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد .

عال ، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمق عن معرفة أسراره فقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ولا يدرى المسكين أن من قال رأيت في مناى أنه جيء بكبش وقبيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والأمركما رأيت وهذا يدلعلى أن هذا الوباء ينقطع ولايعودقط ، لأن المذبوح وقع اليأسمنه ، فإذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلـع الارواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرَّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناً وصيحاً ؛ فالرسل أيضاً إنمـاً يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالامثلة حكة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الافهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالامثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كَن فَيْكُونَ ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله • قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، عن سرعة التقليب. وقيد أشرنا إلى حكمة ذلك في وكتاب قواعد العقائد ، من ربع العبادات فلرجع الآن إلى الغرض ، فالمقصُود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصركما تفازتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعني أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لاشريك له . وسنته الصادرة عن إرادته الازلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الاجناس. فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزبن . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملكمن الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدّة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع عَلَى بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلايقتل|لاجاحدالاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخلي إلا معترفًا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلي عمره في الحدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائرين متفاوتة المدرجات بحسب درجاتهم في الحدمة ، وإهلاك الهالكين[ما تحقيقا بجز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الحفة والشدّة وطول المدّة وقصرها واتحاد أنواعها واختلاقها بحسب درجات تقضيرهم ، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون ، فمن هالك ، ومن معذب مدّة ، ومن ناج يجل فىدار السلامة ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدنأوجناتالمـأوى أوجنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من الناركا ورد في الحبر (١) ، وكذلك الهــالـكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم ، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى ، فلنذكر كيفية توزعها علمها .

⁽۱) حديث و ان آخر من بخرج من النار يعذب سبمة آلاف سنة » أخرجه الترمذي الحسكيم في نوادر الأسول من حديث أبي هريرة بسند سميف في حديث قال فيه وأطولهم مكنا فيه مثل الدنيا من يوم خلفت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

(الرتبة الأولى) وهي رتبة المالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، إذ الذي فتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تعفل عن معانى المثال ، وهذه الدرجة لاتكون إلا للجاحدين والمعرضين المتخردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه ، فإن السعادة الآخروية في القرب منالله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ للحجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوبه فحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون مخترقا نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاءونا للحور العين وإنمامطالبنا اللقاءومهر بنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد ألله بموض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره ، بل العارف يعبده لذا ته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه ففد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق لذا استولت ربما غلبت النار الحرقة للاجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ، ونار جهنم إذا استولت ربما غلبت النار الحرقة للاجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ، ونار جهنم المنار لهما الإحسام ، وألم الاجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولاينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد رؤى من غلب عليه الوجدفغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبة . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الغضب قطعة من النيار (١) ، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الاجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالاضعفكا تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرّق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التــأليف الممكن في الاجسام ، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشــــّــ ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدّة هذا الآلم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعدّ ذلك ألمـا وقال : العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الاعداء ويفرح به الاصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصيرالجاه محبوبا . ووجودالمعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا ، وذلك لمناسترقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لايناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لايكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والالوان، وليس لكل إنسان قلب؛ ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ إِنَّ فَى ذَلِكَ لَذَكُرَى لَمْنَ كَانَ لَهُ قلب ﴾ فجمل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظامالصدر بل أعنى به السر الذي هو من عالم الامر ، واللحم الذي هو من عالم الحلق عرشه والصدر كرسيه ، وسائر الاعضاء

⁽۱) حديث « النضب قطعة من النار » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه ، وقد تقدم . (٤ - لمحياء علوم الدين - ٤)

عالمه وبملكته ، ولله الحلق والامر جميعا ، ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه (قل الروح من أمر ربى) هو الامير والملك لآن بين عالم الامر وعالم الحلق ترتيبا ، وعالم الامر أمير على عالم الحلق ، وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم ، إن الله خلق آدم على صورته ، ونظر بدين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل ، لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الامر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وحكمته يختص بها من يشاء (ومن يوت الحكمة فقد أوتى خيراكشيرا) ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطؤلنا النفس في أمر هو أعلى من عام المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب ، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلاللجهال المكذبين ، وشهادةذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاتدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها .

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان والكن قصر في الوفاء بمقتصاه ، فإنّ رأس الإيمـان هو التوحيد: وهو أن لايعبد إلا الله ، ومن أتبع هواه فقد اتخذ إلهــه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعمالي ﴿ قَمَلُ الله ثُم ذَرَهُمْ في خوضهم يلعبون ﴾ وهو أن تذر بالسكلية غير الله ، ومعنى قوله تعمالي ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ولمما كان الصراط المستقيم الذي لايكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قادح ف كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فذلك يقتضي لامحالة نقصانا في درجات القرب ، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولـكمن شدّة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدّ، إنمــا يـكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوّة الإيمــان وضعفه ، والثانى : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر في غالب الامرعن واحد من الامرين قال الله تعالى ﴿ وإنَّ منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ه ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأمه ينادي ياحنان يامنان (١) قال الحسن : باليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الاخبار مايدل على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدّة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على الناركبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة و بين سبعة آ لاف منة درجات متفاوته من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد وأنَّ الاختلاف بالشدَّة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو ؛ وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدّة والشدّة وهو اختلاف الأنواع، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقطكن يعذاب بأخذ المسال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد

⁽¹⁾ حديث « من يخرج من النار بمد ألف عام وأنه ينادى ياحنان بإمنان » أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أمى غلال الفسمل هن ألس وأبو غلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

والأنف والأذن وغيره ؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل علمها قواطعالشرع ، وهي بحسب اختلاف قوة الإيسان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدّة العذاب فبشدّة قبح السيئات وكثرتها وأماكثرته فبكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمـان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بَطْلَامُ لَلْعَبَيْدٌ ﴾ وبقوله تعـالى ﴿ اليوم تجزى كل نفس بمـا كسبت ﴾ وبقوله تمـالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبقوله تمـالى ﴿ فمـن يعمل مثقال ذرّة خيرًا يره ه ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك بمـا ورد في الـكمتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال ، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ؛ إذ قال تعالى فيها أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم , سبقت رحمّى غضى (١) , وقال تعالى ﴿ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةُ بِضَاعَفُهَا ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فإذن هذه الامور السكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمدّ من أنوار الاستَبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمـان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض ـ أعنى الأركان الخسة ـ ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أنَّ يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته ، إذ ورد فىالاخبار أنالصلوات الحسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرا للصغائر ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشه راضية ، نم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتم أصناف الإيمان ، لأن الإيمان : تقليدي كإيمان العوام يصدّقون بمـا يستمغون ويستمرّون عليه ، وإيمـانكشني يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجودكله على ما هو عليه ، فيتضح أنَّ الـكلُّ إلىالله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الاعلى ، وهم على غاية القرب من الملا الاعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعمالي : ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنمـا يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعـالى في الآزل ؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازلة ؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمــانا تقليديا فنأصحاباليمينودرجته دون درجة المقربين ، وهم أيضا على درجات ؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرّبين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها _ أعنى الأركان الخسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أوأهمل بعضأركان الإسلام، فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الاجل التحق بمن لم يرتكب ، لأنّ التائب من الذنب كن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً ، وإن مات قبل التوبَّة فهذا أمر يخطر عند الموت ، إذ ربمــا يـكون موته علىالإصرار سبباً لتزلزل إيمـانه فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيا إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإنكان جزما فهو قابل للانحلال

⁽١) حديث « سبقت رحمي غضي » أخرجه سلم من إحديث أبير هرايرة .

بأدنى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الحاتمة وكلاهما إن مانًا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذا با يزيد على عذاب المناقشة في الحساب ، ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدّة الإصرار ، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدّة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب البمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ؛ فني الخبر . آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنياكلها عشرة أضعاف ١١٠ ، فلا تظن أنّ المرادبه تقدير مبالمساحة لاطراف الاجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ؛ فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الامثال، بلهذا كقول القائل : أخذمنه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائةدينار ؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كمفة الميزان والجمل فيالكمفةالآخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معانى الاجسام وأرواحها دونَ أشخاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لايقصدلثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لمساليته ، فروحه المسالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لابالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المـالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثاله ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوحريون ؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبي بلالقروىوالبدوى ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجل ألف ألف مثقال فقد كـذب في قوله :إنىأعطيته عشرةأمثاله، والسكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والسكالوأن يحصل في قلبه النور الذي مدرك به أرواح الحواهر وسائر الاموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم . الجنة في السموات (١٢ ، كا ورد فى الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة ، وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلي بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذ بلى بالبليد الابله فى تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم و أرحموا ثلاثة : عالمـا بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل (٢) ، والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب، ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلى ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالأمثل (١) ﴾ فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن ؛ فإنّ بلا. نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجهاعة كان لا يزبدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لمما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال , رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر (٠) ، فإذن لا تخلُّو الانبياء

⁽١) حديث ﴿ إِنْ آخَرَ مِنْ يَحْرِجُ مِنَ النَّارِ يَعْطَى مِثْلُ الدِّنْيَا كُلَّهَا عَمْرِتُهُ أَضْعَاف ﴾ متنق عليه من حديث ابن مسمود .

⁽۲) حدیث کون الجنة فی السموت : أخرجه البخاری من حدیث أبی هریرة فی أثناء حدیث فیه و فإذا سألم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلی الجنة وفوقه عرش الرحمن » (۳) حدیث و ارحوا ثلاثة : عالمابین الجهال ... الحدیث » أخرجه ابن حبان فی الضعفاء من روایة عیسی بن طهمان عن أنس ، وعیسی ضعیف ، ورواه فیه من حدیث ابن عباس الا أنه قال و عالم تلاعب به الصبیان » وفیه أبو البحتری واسمه و هب بن و هب أحد السكذابین . (۱) حدیث و البلاء موكل بالأنبیاء ثم الأولیاء ثم الأمثل الأمثل » أخرجه النرمذی و صححه ، واللسائی فی السكبری ، وابن ماجه من حدیث سعد بن أبی و قاس و قال : قلت الأولیاء ثم الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولیاء و قطیرانی من حدیث قطیم و أخرجه البخاری من حدیث ابن مسعود . . . (۱) حدیث و رحم الله أخی مومی لقد أو ذكر من هذا فصیر » أخرجه البخاری من حدیث ابن مسعود .

عن الابتلاء بالجاحدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ؛ وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الـكافرين ،كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين ، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام و إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخس وإنما أنت مفارق للحار بسر إلهي عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم ؛ فمن ذهل عن ذلكوعطلهوأهملهوقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فـكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله ، إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العـالم بالحواس الحنس ، وكل من نسى الله أنساه الله _ لامحالة _ نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك النرق إلى الافق الأعلى وخان فى الآمانة التي أودعه الله تعسالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرّضا لنقمته إلا أنه أسوأ حالا مناابهيمة،فإنّ البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الامانة ومُصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الفانى وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هـذا القالب من مغربها وتعود إلى بارتها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غيرمحجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للـكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى ﴿ وَلُو تَرَى إِذَ الْجُرِمُونَ نَاكُسُو رَءُوسُهُم عند ربهم ﴾ فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءرسهم عن جهة فوق|لىجهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم بهده طريقه ؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال ؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النــار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لاإله إلا الله ، فإن اللسان منعالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدى الغانمين عن ماله ، ومدّة الرقبـة والمـال مدّة الحياة ، فحيث لاتبق رقبـة ولأ مال لاينفع القول باللسان، وإنمـا ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لايرى الأموركلها إلامن الله. وعلامته أن لايغضب على أحد من الخلق بمـا يجرى عليه ، إذ لايرى الوسائط وإنما يرى مسبب الاسباب كما سيأتى تحقيقه في التوكل ، وهذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال . ومنهممنله مقدار خردلة وذرّة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمــان فهو أوّل من يخرج من النار ، وفي الحبر يقال . أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان (١١ ، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، وما بين المثقال والذرّة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة ، والموازنة بالمُثقال والذرّة علىسبيل ضرب المثلكا ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الاموال وبين النقود، وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لايترك ، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها ، فني الآثر ء إن العبــد

^{. (1)} حديث « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من لميمان ، الحديث تقدم .

ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لـكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لاتبق له حسنة ، فتقول الملائكة ياربنا هذا قد فنيت حسناته وبق طالبون كثير، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا لهصكا إلى النار ، وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنةالظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عماظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال : لاأفعل ، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ، فهذا ماأردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أركر الاحوال ، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لايشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذي العارض الحفيف أجله من حيث لايطلع عليه ، وذلك منأسرار الله تعالى الحفية في أرواح الاحياء وغموض الاسباب التي رتبهما مسبب الاسباب بقـدر معلوم ، إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشرالالملاع عليها ، يعبر عن ذلكالسبب الخفي المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراءذلك سرالمشيئة الإلهية الأزلية الىلايطلع الخلق عليها ، فلذلك بجب عليناأن نجوز العفو عنالعاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإنكثرت طاعاته الظاهرة ؛ فإنّ الاعتماد علىالتقوىوالتقوى في القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لارباب القلوب أنه لاعفو عن عبد إلا بسبب خنى فيه يقتضى الَّعَفُو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى ، ولو لا ذلك لم يكن العفووالغضب جزاء على الاعمال والاوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إنْ الله لايظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ماسعي ، وسعيه هو الذي يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينه ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا مابأنفسهم غير الله مابهم ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ إِن الله لاينـير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر ، إذ للبصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لايمكنالغاط فيها ، وإيماالشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشار. بقوله تعمالي ﴿ مَا كَذَبِ الْفُؤَادِ مَارِأَى ﴾ .

(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين، وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفاروالمعتوهين والذين لم تبلغهم المدعوة فى أطراف البلاد، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف، وحلول طائفة من الحلق (۱) فيه معلوم يقينا من الآيات والاخبار ومن

⁽۱) حدیث حلول طائفة من الحاق الأعراف: أخرجه البرار من حدیث أبی سمید الحدری: سئل رسول الله صلی الله علیه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال « هم رجال قتلوا فی سببل الله وهم عصاه لآبائهم فنعتهم العصادة أن يدخلوا النارومنعتهم المصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار ... الحديث » وفيه عبد الرحمن بن ذيد بن أسلم وهوضعيف. ورواه الطبراني من رواية =

أنوار الاعتبار ؛ فأما الحمكم علىالعين كالحسكم مثلابأن الصبيان منهم ؛ فهذامظنون وليس بمستيقن ؛ والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ؛ ويبعد أن ترتق إليه رتبة الاولياء والعلماء ؛ والاخبار في حق الصبيان أبضا متعارضة . حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، وما يدريك ، (١) فإذن الإشكال والاشتباء أغلب في هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائرين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون السابقون؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقي هؤلاء بجاوز حدّ البيان، والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان ، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى في فلا تعلم نفس ماأخني لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل ، أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والعارفون مطلبهم تلك الحاله التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العمالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخر والحلى والآساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو اعطوها لم يقنعوا بها، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية الملذات ولذلك قيمل لوابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ؛ فهؤلا، قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شي سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لايحس بما يصيبه في بدنه ، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم بن فيه متسع لغير بأنه فني عن يلتفت إليه لانفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحاله هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لايتصور أن عبوبه حتى يلتفت إليه لانفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحاله هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لايتصور أن

⁼ أنى معمر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصراً ، وأبو معمر تجييح السندى ضعيف ، ويحبى بن شبل لا يعرف ، وللعاكم عن حذيفة قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة . . الحديث وقال صحيح على شهرط المعيضين . وروى التعلى عن ابن عباس قال : الأعراف موضع عال فى العمراط عليه العباس وحزة وعلى وجعفر . . . الحديث ، هذا كذب موضوع وفيه جاعة من الكذابين .

⁽١) حديث عائشة أنها قالت لمــا مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة فأنــكر ذقك رسول الله وقال « مابدريك » رواه مــلم ، قال المصنف : والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخارى من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فـكمل مولود يولدعلي الفطرة » فقيل : يارسول الله ، وأولاد المصركين ؟ قال وأولاد المصركين » وللطبراني من حديثه : سألما رسول القاصليالله عليه وسلم عن أولاد المصركين فقال « فم خدمة أهل الجنة » وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة ، وهوضيف يرويه عن عيسي ابن شعيب ، وقد ضفه ابن حبان . وللنسائي من حديث الأسود بن سريع . كنا في غزانه لنا .. الحديث في قتلي الذربة ، وقيه ألا لن خباركم أبناء المشركين » ثم قال « لانفتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ... الحديث » وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » وفي رواية لأحمد « ليس مولوديولد الا على هذه الملة » ولأبي داوه في آخر الحديث : يازسول الله أفرأيت من يموت وحو صدير ؟ فقال ﴿ إِللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عاملين ﴾ وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المصركين فقال ﴿ اللهُ أعــلم عُــاكانُوا عاملين ﴾ وقطيراني من حديث ثات بن الحارث لأنصارى : كانت يهودى لذا هلك لهمصيصنير قالوا . هو صديق ، فقال النبي صلىافة عليه وسلم «كذبت يهود» مامن نسمة يخلقها الله في بطن أمه لملا أنه شتى أو سعيد ... الحديث » وفيه عبدالله بن لهيمة ، ولأبي داود منحديث ابن مسمود الوائدة والمومودة في النار ، وله من حديث عائشة : قلت يارسول الله ذراري المؤمنين ؟ فقال « مُم آبائهم ، قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بمساكانوا عاملين » قلت : فذرارى المصركين؟ قال «مع آبائهم» قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بمساكانوا عاملين » والعابراني من حديث خديجة : قلت يارسول الله أين أطفاليمنك ؛ قال ﴿ فِي الْجُنَّةِ ﴾ قلت: بلا عمل ؟ قال ﴿ الله أعلم بمساكانوا عاملين ﴾ قلت : أطفالى قبلك ? قال « في النار » قلت : بلا عمل ؟ قال « لقد علم الله ما كانوا عاملين » ولمسناد. منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة . وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين ﴿ فَمَ مِنْ آبَاتُهُم ﴾ وفي رواية ﴿ فم منهم ﴾

تخطر فى هذا العالم على قلب بشر ، كما لايتصوّر أن تخطر صورة الآلوان والآلحان على قلب الآصم والآكمه ، إلا أن برفع الحيجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانون يعلمون ﴾ فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه .

بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرمولايتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفوعنها أرجى من صغيرة يواظبالعبد عليها ومثال ذلك قطرات من المـاء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من المـاء لوصب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . خير الاعمال أدومها وإن قل (١) . والأشياء تستبان بأُضداها وإن كان النافسع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أنّ الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزنى الوانى بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتلبغتةمن غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ، ولو تصوّرت كبيرة وحدهابغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإنّ الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدّة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الآلف به وذلك يوجب شدّة الآثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تتويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لايؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فإنالقلب لايتأثر بما يجرى في الغفلة ، وقد جاء في الحبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرىذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره (٢) ، وقال بعضهم : الذنب الذي لايغفر قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ، وإنمــا يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة ، وقدأ وحي الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لاتنظر إلى قلة المدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لاصغيرة ، بل كل عنالفة فهي كبيرة ، وكذلكقال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : وإنكم لتعملون أعمالًا هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، إذ كانت معرفةالصحابة بجلال الله أتم ، فـكانتالصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف ، لأن الذنبُ والمخالفة يحكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السروربالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقياوة ، فيكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبيدكبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدّة فرحه بمقارفته إياه ،

⁽١) حديث « خير الأعمال أدومها ولمن قل » متفق عليه من حديث عائمه بلفظ « أحب » وقد تقدم .

⁽٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه . . . الحديث » أخرجه البخارى ، من رواية الحارث بن سويد قال حدثناعبد الله ابن مسمود حديثين : أحدما من اللبي سلى الله عليه وسلم ، والآخر عن نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة المهد » ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهق في القصب من هذا .

كا يقول: أما رأيتني كيف من قت عرضه ، ويقول المناظر إفي مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فيالتحارة : أمارأيت كـفـر وّجت عليه الزائف وكميف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدق عليه وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لايرجى شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنمـا يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثماً ، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لامنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبنس المصير ﴾ ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن لذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان الضمتا إلى جنايته فغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ، وفي الخبر « كل الناس معافى إلا المجاهرين بسيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله و يتحدّث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله وفعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتكالستر ؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لاتذنب فإن كان ولا بدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنيين ، ولذلك قال تعالى ﴿ المسافقون والمافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حـرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يـكمون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرىذلك مته كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردّده علمهم ومساعدته إياهم بترك الإنسكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بمسا لايقصمد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبتى شره مستطيراً لـ العالم آماد متطاولة ، فطوى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر . من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بمالاينقص منأوزارهم شيئًا (١٠) ، قال تعالى ﴿ وَسَكتُ ما قدموا وآثارهم ﴾ والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس: ويل للسالم من الأنباع بزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العــالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثمم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف،ن أصلات من عبادى فأدخلتهم النار ، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهموظيفتان : إحداهما ركالدنب ، والآخرى|خفامه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الدنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعرا . فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدىبه البلماءوالعوامفيكوناله مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولايقدرون على التجمل|لابخدمة السلاطين

⁽١) حديث «كل الناس معانى لال الحجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هو يرة بلفظ «كل أمتى » وقدتقدم (٢) حديث « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب السكسب .

وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك ، فحركات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران ، وهذا القدركاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

الركن الثالث: في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعماصي حائلا بينه وبين عبوبه ، ولمحكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط فلا بدّ من بينها : أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعرته طالعليه مصيبته وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيءأدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى عنبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه انسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه و لا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا المريض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار ، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع و في الحبر المبارئ في المبارئ وفي المبرا ثيايات : إن الله سبحانه وتعالى قال لمعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتي وجلالي لوشفع فيه أهمل السموات قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتي وجلالي لوشفع فيه أهمل السموات والارض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قله .

فإن قلت: فالدنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالدوق واستلده ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أملا؟ فإنقلت: لا ، فهو جعد للمشاهدة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكها من قبل ، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من المساء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من عنول بل ما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من عنول بالماضي ؛ وهو عظافة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث ،نه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالماضي ؛ وهو وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال . وله تعلق بالماضي ؛ وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالمساضي أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أوالاحتلام ويفتش عما معني من

⁽١) حديث و جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » لم أجده مرفوعاوهو من قول عون بن عبد اللهرواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال و جالسوا التوابين فإن رحمة الله لمل النادم أفرب » وقال أينيا و فالموعظة لمل قلوبهم أسرع وهم لمل الرقة أقرب، وقال أيضا و التائب أسرع دممة وأرق قلبا » .

عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فى ثوب نجس أو صلاها بنية غير سحيحة لجهلة بشرط النية فيقضها عن آخرها ، فإن شك فى عدد مافاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عسدا أو نسى النبة بالايل ولم يقض ؛ فيتعرّف بجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه .

وأماالزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه ـ لامن زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي ـ فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته ، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية او أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزيه أصلا ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول و يحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الحروج عنه من العلماء .

وأما الحبج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الركاة أو الصدقات مايحج به ، فإنه إن مات قبل الحبح مات عاصيا قال عليه السلام ، من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء فصرانيا (١) ، والعجز الطارى بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر فيها فيها في هميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعهاصغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فيها كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجناة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خر وسماع ملاه وغيره ذلك ممالايتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن محسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم ، اتن الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢٢) ، بل من قوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن و بمجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف عدانا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ، ويكفر شرب المربق المضادة فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إلها بحسنة الطربق المضادة فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إلها بحسنة تضادها ، والمتضادات مى المتناسبات فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تصادها ، فإن البياض يزال بالسواد لابالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المجو فالرجاء فيه أصدق والثقة يرال بالسواد لابالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المجو فالرجاء فيه أصدق والثمة

⁽۱) حديث «من مات ولم محج فليمت لمن شاء يهوديا ... الحديث، تقدم في الحج (۲) حديث «اتني الله حيمًا كنت وأتبع السيئة الحسنة عجها » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب السكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم مابينه وبين الله تعلى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حبالدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرو بهاوا لحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم ، من الدنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم (۱) ، وفي لفظ آخر ، إلا الهم بطلب المعيشة ، وفي حديث عائشة رضى الله عنها ، إذا كثرت ذنوب العبد ولم تمكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لدنو به (۲) ، ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالبا بمـاله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكثيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثمـكلى قال : فمـاله عند الله ؟ قال : أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا ، فايتعلق منه بحق الله تعالى تعاركه بالندم والتحسروترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها ، فيقابل إبذاء ه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والفدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار مايعرف من خصال الحنير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب بالثناء على أهل الدين وإظهار مايعرف من خصال الحنير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب للان تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إبجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما فى النفوس أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فنوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول. وإن كان عمدا مو جباللقصاص فبالقصاص، فإن الم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عندولى الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كا لوزنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أوباشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لايلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائمين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه و تكون توبته صحيحة مقبولة عندالله تعالى بدليل ماروى أن ماعزين مالك أنى رسول الله عليه وله عليه وله الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ! فرده فلما كان من الغد أناه فقال ؛ يا رسول الله إنى قد زنيت ! فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به لحفر له حفرة ثم أمر به كان من الغد أناه فقال ؛ يا رسول الله إنى قد زنيت ! فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به لحفر له حفرة ثم أمر به

⁽۱) حديث د من الدنوبذنوب لايكفرها إلا الهموم » وفىلفظ آخر د إلا الهم فى طلب المعيشة» أخرجه الطبراني فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف تقدم فى النسكاح .

⁽٢) حديث « اذاكثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تسكفيرها أدخل الله عليه النموم » وتقدم أيضا في النسكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد تاب توبة لوقسمت بين أمة لوسعتهم (۱) ، وجاءت الغامدية فقالت : يارسول الله إلى قد زنيت فطهرنى ! فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى لعلك تريد أن ترددنى كا رددت ماعزا ، فوالله إلى لحبلى : فقال صلى الله عليه وسلم ، أما الآن فاذهبي حتى تضعى ، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال ، اذهبي فأرضعيه حتى تفطيه ، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها لحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجوها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع وسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال ، مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفلت . (۲) ،

وأما القصاص وحد القذف: فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حدّ بلوغه بل من أوّل مدة وجوده ، فإنّ ما يجب في مال الصي يجب على الصي إخراجه بعد الملوغ إن كان الولى قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالباً به ، إذ يستوى في الحقوق المالية الصي والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم وبته قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش فين لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه ، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد عكن فليكتبه وليكتب أساى أصحاب المظالم واحداً واحدا وليطف في واحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن بجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهاك بسيئات غيره ، فهذا طريق كل تابه في دد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك عما لا يعرف ؟ ورجما يكون الأجل قريبا ؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره للذي كان في المعاصي في متسع الاوقات . هذا حكم المظالم الثابة في ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليردّ إلى المسالك ما يعرف له مالسكا معينا وما لا يعرف له مالسكا فعليه أن يتصدّق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدّق بذلك المقداركما سبق تفصيله ف كتاب الحلال والجرام .

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيهم فى الغيبة فيطلب كل من تعرّض له بلسان أو آذى قلمه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدامنهم ومن مات أوغاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلابتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة ، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

⁽۱) حديث : اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله « لقد تاب توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (۲) حديث النامدية واعترافها بالزنا ورجها وقوله صلى الله عليه وسلم « لقد تابت توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكنى ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة بأخذها من حسنانه أو يحمله من سيئاته ، فإن كان فى جملة جنايته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة بجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنايته وعرفه الجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر منحبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبي إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته ، وايكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده واللطفه كقدر سعيه في اذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه ،كمن أتلف في الدنيا مالا هجاء بمثله فامتنع من له المسال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين . وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الحدريأن نبيالله صلى الله عليه وسلم قال . كان فيمن كان قبلـكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال: : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل عل رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : فعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عزء جل فاعبد الله معهم ولاترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطربق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا مابين الارضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الارض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة (١) ، وفي رواية . فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها ، وفي رواية ﴿ فَأُوحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذَهُ أَنْ تَبَاعِدَى وَإِلَى هَذَهُ أَنْ تَقَرَّقَ وَقَالَ قيسُوا مابينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ﴾ فبهذا تعرف أنه لاخلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة فلا بدّ للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثميق أن لايعود إلى تلك المذبوب ولا إلى أمثالها ، كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزماأنه لايتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة فى ثمانى الحال ، ولكن لايكون تائماً مالم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب فى أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الآكل والنوم واحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

⁽١) حديث أبى سعيد الحدوى المتفق عليه « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسمين فسأل عن أعلم أهل الأرض ... الحديث » هو متفق عليه كما قال الممنف من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولايكتني بالحلال وترك الشبهات من لايقدر على ترك الشهوات في المـأكولات والملبوسات ؟ وقد قال بعضهم منصدق في تركشهوة وجاهد نفسه نهسبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر . من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التاءب إذا لم يكن عالمًا أن يتعلم مايجب عليه في المستقبل ومايحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة لمرتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا ، وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إنَّ هذه التوبة لاتصح ، وقال قائلون تصح ، ولفظ الصحة في هذا المقام بحمل ، بل نقول لمن قال لاتصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بلا وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ! فإنا نعلم أن كثرة الذوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال قصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الدنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع . هذا حكم الظاهر ولسنانتكلم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لاتصح إلى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم . وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لاجل المعصية فإنّ العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالبسيف يتوجع علىقتله بالسكين لآنّ توجعه بفوات محبوبه سواءكان بالسيف أو مالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض ؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها منعصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصى دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخرين واحــد وإنمــا الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الآمر واحدة ، فإذن معني عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولايتصوّر الندم على بعض المتماثلات ، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول وإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لايصح أى لم تترتب عليه النمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أنَّ ثمرة مجرَّد النُّرك أن ينقطع عنه عقاب ماتركه وثمرة الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لايكفر السرقة بل الندم عليها ولايتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي ، وهوكلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فنقول: التوبة عن بعض الدنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الصغائر دون المجائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر بمكن لانه يدلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه ، كالذي يحنى على أهل الملك وحرمه ويحنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة ، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى . وهذا بمكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المربض العسل تحذيرا شديدا ، ويحذره السكر أحلا ، العسل تحذيرا شديدا ، ويحذره السكر أحد منه على وجه يشعر معه أنه ربما لايظهر ضرر السكر أصلا ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر .

-الثانى : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا بمكن لاعتقاده أنَّ بعض الكبائر أشدُّوأُغلظ عند الله ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لايترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه ، فهذا أيضاً بمكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر ، لآن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أنّ الخر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لايدرى فبحسب ترجح شرب الخر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على المماضى .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذي يتوب عن الغيبة أوعن النظر إلى غير المحرم أو مايجرى بجراه وهو مصر على شرب الخر ، فهو أيضا بمكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ، ولكن تسكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لاسهاب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قرّة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لايكون مليا بتحريك العزم ولاقويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقزى منه بأن لم يعارضه إلا ماهو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشتدضراوة الفاسق بالخر فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم ، وخوفه من الله قدبلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه ؛ إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلاينبغي أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي ، فعساني أغلبه فيكون قهرىله في البعض كفارة لبعض ذنوبي . ولولم يتصور هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله تعالى مالم تتقرّب بترك الفسق؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان ، وأناملي في أحدهما بقهر الشبطان عاجز عنه في الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ماعجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لايتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لامسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولاسبب له إلاهذا ، وإذا فهم هذا فهم أنَّ غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب بمكن وجودها ، والحوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال الني صلى الله عليه وسلم . الندم توبة ، ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال . التائب من الذنب كن لاذنب له ، ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل إنّ التوبة عن بعض الدنوب غير بمكنة لانها منائلة في حق الشهوة وفي حق التعرّض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ، ويتوب عنالكثير دون القليل لآن الكثرة الدنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لايستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لايمكن أن يتوب عن شيء ولايتوب عن مثله بل لابدّ وأن يكون ماتاب عنه مخالفًا لمنا بتي عليه إما في شدّة المعصية وإما في غلبة الشهوة ، وإذا حصل هـذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الحوف والندم ، فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإرز لم يكن قـد أطاع الله في جميح الاوامر والنواحي .

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأنَّ التوبة عبارة عن ندم

يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، ومالا يقدر على فعله فقد المعدم بنفسه لابتركه إياه ، ولسكى أقول لوطرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لوكانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغابها فإنى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحية عنه سيئته ، إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لوظهر قصده ، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه ، فإن كل من لا يشتهى شيئا يقدّر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه ، بل الظاهر أنه يقبله .

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقة الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك في المستقبل . وقد المتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولو لا هذا لقلنا إن التوبة لاتقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك بما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا .

فإن قلت : إذا فرصنا تائمين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها و يمنعها فأسما أفضل ؟ فاعلم أن هذا بما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سلمان الدارانى : إن المجاهد أفضل لآن له مع التوبة فضل الجهاد : وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لآنه لوفتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لايخلو عن حق وعن قصور عن كال الحقيقة .

والحق فيه أن الذى انقطع نروع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نروعه إلها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا ، وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعال لفظ الافضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة ، والصبى أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لأن المفلس لاعدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الاخطار وأن العلق شرطه افتحام الاغرار ، بل كمقول القائل ؛ الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في مناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الارض وآمن من أن يعضه الكلب ويعدى عليه ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا قوما علما باطريق تأديبها أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القاتل : ليس لذلك فصل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود ربة من المجاهد المقاسى المبياء علم الهبين - ،)

الجهاد فإن الجهاد كان مقصودا لعينه ، بل المقصود قطع ضراوة العدة حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن الستجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت فى المجاهدة فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدق واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهادفى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما ناتمان عنده بعد ترك الكلب الصراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، ولقد زل فى هذا فريق فظنو أن الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قع الشهوات وإماطنها بالكلية مقصود حتى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال : هذا محال ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات ، وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلسكات .

فإن قلت : فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الدنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولايزال بتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن همذا أيضا قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذنبين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوّفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجدّحيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كشيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مم الاشتراك في أصل المداية ؟

فأقول: تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعائه لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل ما فع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل ما فع عن سلوك الطريق ولوامع الغيب استغرقه ذلك أن لا يعرج على غير السلوك ، فإن ظهر له مبادى الوصول وانكشف له أبوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يمق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو السكال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولوجلس على شاطى "البحر بعد عبوره يبسكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا ما فعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المافع. فعم إلى بكن بعد عبوره يبسكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا ما فعا طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تفه فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والكاء عليه ، وهذا ما واتى بنفسه أنه لأ يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والكاء عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والين الفيل الفيل والمناكات سبل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في الذيا كالحور والقصور فإن ذلك الفيكر ربما يحرك عبة فيطلب شا فلا ينبغى أن يطبغى أن ينبغى أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تمالى فقط فذلك لانظير له في الدنيا.

فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة ، فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك ففسك على الانبباء قياس فى غاية الاعوجاج لابهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأبمهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع ابمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للاس على المريد . ولائل قال صلى الله عليه وسلم « أما إنى لا أنسى ولكنى أنسى لاشرع (۱۱) ، وفى لفظه وأسهر لاسن ، ولا تعجب من هذا فإن الامم فى كنف شفقة الانبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الآب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى كا قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ (۱۲) ، لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه ؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته ، بل الذى يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزيلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين . فسأل الله حسن الترفيق بلطفه وكرمه .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التاتبين في التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يمن في رتبة النبوة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها واضية مرضية عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا أن ، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل عنه الطبقة على رتب من حيث النووع إلى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فعتر براعها ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملى بمجاهدتها وردها . ثم تتفاوت درجات النراع أيضا بالكثرة والقلة و باختلاف المدة وباختلاف المنوعة فيل الفترة . ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت الستقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذكل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعضاده وصبره وتمادت الننب الذي ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا منالة العالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

⁽۱) حديث د أما لمانى لا أنسى ولسكن أنسى لأشرع » ذكره مالك بلاغا بنير لسناد وقال ان عبد البر لايوجد فى الموطأ لملا مرسلا لالسناد له وكذا قال حزة السكتانى لمله لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطى : وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأثمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

⁽۲) حدیث أنه قال للحسل « کُنج کُج » لما أُخَذُ بَمَرَةً من الصدقة ووضعها في فيه : أُخْرَجِه البخاري من حدیث أبي هريرة وتقدم في کتاب الحلال والحرام . (۳) حدیث « سبق المفریون المستهترون بذكر الله ... الحدیث » أخرجه الترمذي من . حدیث أبي هریرة وحسنه وقد نقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الدرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بمسا يقدر عليه فبه قسلم توبته فى الابتداء .

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلي بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإفدام عليها ، ولكنه كلما أقدم علمها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لهما. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذتلوم صاحبها على ماتستهدف له من الأحوال الذميمة لاعن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب احوال النائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلبخيره شره حتى يثقل ميزا نه فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالـكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللم إن ربك واسع المغفرة ﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لاعن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللم للمفو عنه . قال تدالى ﴿ والذين إَذَا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه .وإلىمثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وَسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) ، وف خبر آخر « المؤمن كالسنبلة ينيء أحيانا ويميل أحيانا (٢) ، وفي الحبر . لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٢) ، أى الحين بعد الحين . فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لاينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عندوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والاطعمة الحارّة مرة بعدأخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولاكثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه ف الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بمـا يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي صلى الله عليه وسلم «كلبنيآدمخطاءونوخيرالخطائينالتةوابونالمستغفرون (١٤) ، وقال تعالى ﴿ أُولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويُدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ، ثم تغلبه الشهوات فى بعض الدنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الدنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكنفاه شرها ، هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى

⁽۱) حديث على « خياركم كل مفتن تواب » أخرجه البيهق فىالشعب بسندضعيف (۲). حديث « المؤمن كالسنبلة تنيء أحيانا وتميل أحياما » أخرجه أنو يعلى وابن حيان فى الضعفاء من حديث أنس والعلبرانى من حديث عمار بنياسر والبيهق فى الشعب من حديث الحسن مهسلا وكلها ضعيفة وقالوا « تقوم » بدل « تنيء » وفى الأمثال للرامهرمنى، لمهناد جيد لحديث أنس .

⁽٣) حديث « لابد المؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أخرجه الطبراني والبيهتي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث «كل ابن آدم خطاء وخير المطائين المستنفرون » أخرجه الترمذي واستنربه والحاكم وصميح لمسناده من حديث ألى وقال « التوابون » بدل « المستنفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث « المؤمن واه رائع غيره من مات على رفعه » أخرجه الطبراني والبيهتي في الفعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا « فسميدهم » بدل وغيرهم»

في قهرها ، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى : النفس المسؤلة ، وصاحبها من الذين قال الله تعــالى فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ فأس، من حيث مواظبته على الط ات وكراهته لما تعاطاه مرجة فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبركسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، و إن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الآزل، لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الآزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه ، وإذا يسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات يحكم تقدير مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس ، فكما لايصلح لمنصب الرياسة والقضاء والنقدّم بالعلم إلا نفس صارت فقهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التركية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبيررب الارباب . ولذلك قال تعالى ﴿ ونفس -وما سواها فألهمها لجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها / فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الحذلان . قال صلى الله عليه وسلم . إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها (١) ، فإذن الخوفمن الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهوخاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكوتالموت متصلا به ، فليراقب الانفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لاينفع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذبوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جلة المصرين ، وهذه النفس هي : النفس الأمارة بالسوء ، الفرارة من الحير ؛ ويخاف على هذا سوء الحاتمة وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شتى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسني حتى مات على التوحيد فينتظر له الحلاص من النار ولوبعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خنى لا تطلع عليه ، كما لا يستحل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يحده ، وأن يحلس في البيت ليجعله الله عالمها بالعلوم من غير تعلم كمان الانبياء صلوات الله عليم ، فطلب المنفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلمها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطلب الكنوز في المواضع الحربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجرد الرجاء من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له ، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون والعالمون والمعامون على خطر عظم . وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا نجده تحت الارض في بيته الحرب يعد عنه ذوى البصائر من الحق والمغرورين _ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تمالى وفضله _ _ فكذلك من ينتظر البصائر من الحق والمغرورين _ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تمالى وفضله _ _ فكذلك من ينتظر البصائر من الحق والمغرورين _ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تمالى وفضله _ _ فكذلك من ينتظر

⁽١) حديث • أن العبدليمسل بعمل أحل الجنة بسبعين سنة .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله « سبعين سنة » ولمسلم من حديث أبى هريرة « أن الرجل ليعمل الزمن العلويل بعمل أحل الجنة ... الحديث » ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة » وشهر مختلف فيه ،

المفقرة من فضل الى تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الدنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القاوب من المعتوهين . والعجب من عقل هذا المعتوه و ترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتي ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قبيل له إن الله كريم ودنانير خواتنه ليست تقصر على فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب فيستحمق قائل هذا المكلام ويستهزئ به ويقول : ماهذا الهوس ! السهاء لا تمطر ذهبا ولافضة رب الآخرة ورب الدنيا واحدوان سنته لا تبديل لهما فيهما جميعا ، وأنه قد أخبر إذ قال (وأن ليس للإنسان إلا ماسعي) فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضي الكرم الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غيرجهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الآمر في الدنيا ؟ وينسي قوله تمالي (وفي السهاء رزقكم وما توعدون) فندوذ بالله من العمي والضلال فيا هذا إلاانته كاس على أم الرأس والنهاس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا) أي أبصرنا أنك صدفت إذ قلت (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقل والمآب .

بيان ما ينبغى أن يبادر إليه التاثب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أنّ الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كها ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعده النفس على العزم على النرك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيها يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكفرَه بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائرالعباد ، وكذلك يضمر بقلبه الحيرات للمسلمين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : رب ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى ذبوبى ، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـكما أوردناه فى كناب الدعوات والاذكار .

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفى الآثار ما يدل على أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا ؛ أربعة من أعمال القلوب وهى : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإفلاع عن الدنب وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهى : أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم تتخفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده ، مائة مرة ثم تتصدّق بصدقة ثم تصوم

يوما ، وفي بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين ١١) وفي بعض الآخبار : تصلى أربع ركعات (٢) وفي الحبر و إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلانية بالعلانيه (٢) ، ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفي الحبر الصحيح ، أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى عالجت امرأة فأصبت منهاكل شيء إلا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم وأو ماصليت معنا صلاة الغداة ، قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم ، إن الحسنات يذهبن السيئات (٤) ، وهذا يدل على أن مادون الزيا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات .

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الحبر و المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله (٥) ، وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفار نا يحتاج إلى استغفار كثير ! فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر . ذكر ناها فى كتاب الآذكار والدعوات . حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبق الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا (١) فنقول : يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبق الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا (١) فنقول : عكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفة النار فعوذ بالله منها من غيران يتأثر بهقله ، وهذا يرجع إلى بحرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال يرجع إلى بحرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بهاالسيئة ، وعلى هذا تحمل الآخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم , ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة (٧) ،

⁽۱) أثر د لمن من مكفرات الذنب أن تسبخ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه د مامن عبد يذنب دنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله لا غفر الله له » لفظأ في داود وهو في السكبري النسائي ممانوعا وموقوقا فلمل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتباطا ولملافالآثار ايست من شرطكتابي (۲) حديث : التسكفير بصلاة أربع ركمات : أخرجه ابن مم دويه في التفسير والبيهتي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بهرى امرأته و. . . الحديث وفيه : فلما رآها جلس منها بجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل المدية فقام نادما فآتي النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « صل أربع ركمات » فأنزل الله عزوجل (وأقم العلاة طرفي النهار) الآية ولمساهم جيد .

⁽٣) خديث « لذا عملت سيئة فأتبها حنة تسكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ، أخرجه البيهتي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بافظ « وما عملت من سوء فأحدث قة فيه توبة السر بالسر بالسر بالسر بالسر بالسر بالسر المحديث » (٤) حديث: أن رجلا قال يارسول الله لمني عالجت اممأة فأصبت منهاكل شيء لملا المسيس ... الحديث في نزول (إن الحسنات بذهبن السيئات) متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ماصليت معنا صلاة النداة » ورواه ملم من حديث أنس وفيه « همل حضرت معنا الصلاة » قال: نعم ، ومن حديث أبي أمامة وفيه «ثم شهدت الصلاة معنا» قال: نعم ... الحديث (ه) حديث « المستنفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بكيات الله » أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه المبهن في الشعب من حديث ابن عباس بافظ « كالمستهزئ بربه » وسنده ضعيف .

⁽٦) حديث بعض الصحابة في قوله تمالى (وماكان الله ليعذبهم وأنتُ فيهم) الآية «كان لنا أمانان ذهب أحدما » أخرجه أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه «أنزل الله على أمانين ... الحديث» وضعفه وابن مهدوبه في تفسيره من قول أبن عباس (٧) حديث «ما أصر من استنفر ... الحديث» تقدم في الدعوات .

وهو عبارة عن الاستففار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل: لابت للعبد فى كل حال من مولاه ، فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء فإن عصى قال يارب استرعلى ، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب على ، فإذا تاب قال يارب ارزقنى الهصمة ، وإذا عمل قال يارب تقبل منى . وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال : أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاء بأن يترك الحلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفرله ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم عادئة السر وهو الحلة ، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى بكون العلم غذاه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش . وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم ، التائب حبيب الله ، فقال: إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر في قوله تعالى ﴿ التاثبون العابدون ﴾ الآية ، وقال : الحبيب هوالذي لايدخل فيا يكومه حبيبه .

والمقصود أن للتوبة ثمرتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصيركن لاذنب له (والثانية) نيل الدرجات-تى يصير حبيباً . وللتكفير أيضادر جات : فبعضه محولاً صل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتداركبالحسنات ـ وإن خلا عن حلعقدة الإصرار . من أو اثل الدرجاتـ فليس يخاو عن الفائدة أصلاً ، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها أن قول الله تعالى ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ صدق وأنه لاتخلو ذرة من الحير عنأثر، كمالا بخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لـكانت الثانية مثلها ولـكان لايرجح الميزان بأحمالالذرّات وذلكبالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجم بذرات الحبير إلى أن يثقل فترفع كفةالسيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تكسل عن الغزل تعلملابأنها لاتقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط وماوقع ذلك فى الثياب ؟ ولاتدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطاوأن أجسام العالم معاتساع أقطارهاجتمعت ذرةذرة . فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضييع عند الله أصلا . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلةخير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه و إنمـا يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الاحوال بجرى بالذكر والقرآن وقلي غافل . فقال ؛ اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الحبير وعةده الذكر ولم يستعمله في الشر رلم يعوده الفضول . وماذكره حق فإن تعوّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى . فن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا ؟ سبق لسانه إلى ما تعود دفقال: استغفر الله . ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبيح كذبك 1 ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، وإذا تموّد الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الآخرى ، وسلامت أثر اعتياد لسانه الحير وهو من جملة معناني قوله تعنالي ﴿ إِنْ الله لا يُضيع أُجِرَ المحسنين ﴾ ومعساني قوله تنصالي ﴿ وَإِنْ تَكَ حَسْسَةً يَضَاعِفُهَا وَيُؤْتُ مِنْ لَدُنَّهُ

أجرا عظما ﴾ فانظركيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لادنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة ﴿ أَكْبُرُ لُو كَانُوا يُعلمون ﴾ فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة رؤجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيّل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التغطن للحفايا والسرائر ، فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالحيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولسكن هي كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب ، فحكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه وأما الظالم المغرور : فاستشمر ف نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجر عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شنّ طبقه وافقه فاعتنقه . وأماالمقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسبان بالإضبافة إلى القلب ، ولكن الهندي إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتيادا لخير . فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا ، والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا ، والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لاأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لابالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عنالكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلىاستغفار كثير . فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو عتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لامن حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لاإلىاستغفارواحدفه كذاينبغيأن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد و إلا جهلت معنى ماقال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي أن لاتستحقر ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث ؛ رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئافلعل,رضامفيه ، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئًا فلمل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى . وزاد : وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فريما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان: شاب لاصبوة له نشأ على الحير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم و تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (۱) ، وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى: هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائمين ، وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لايحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لايقف على الداء ، إذلامعنى للدواء لا مناقضة أسباب الداء ف كل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله . ولا يبطل الشيء لا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

⁽۱) حديث « يمجب ربان من الشاب ليست له صبوة » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عاص وفيه ابن لهيمة . (۲ -- حياء علوم الدين -- ٤)

الاسباب المحركة للشهوة والعفلة رأس الخطبايا قال الله تعالى ﴿ وأولئكُ هم الغنافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخناسرون ﴾ فلا دوا. إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الاسباب المهيجة للصفرا. فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما .

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من عـلم مخصوص؟ فاعـلم أن العلوم بجملتها أدوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع فى علاج الامراض بالجلة ولكن يخص كل علة عـلم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الأول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الآسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لايؤمن به لايشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه بما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع ، وهذا لابدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان.

(الثانى) أنه لابدأن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيها يعبر عنه لايلبس ولا يكذب ، فإنّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووزانه بما نحن فيه : العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لاكذب فيه ولاخلف .

(الثالث) أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والآسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الحنوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الحنوف باعثه له على الاحتماء . ووزانه من الدين : الإصغاء إلى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتمكاب الذنوب وا تباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الحنوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج

(الرابع) أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرّفه أوّلا تفصيل مايضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواءبل لمكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . ووزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلي بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لمكل مؤمن ذنب بخصوص أو ذنوب بخصوصة ؟ وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآ فاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تسكفير ماسبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعماصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وإن كان لايدرى أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإغليم أو بلدة أو علمة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز مايضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغى أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ، ما تركوا النماس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى بحسامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كاأنّ الذى ظهر على وجهه برص

ولا مرآة معه لايدرف برصه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإنّ الحلق لايولدون إلا جهالا فلا بدّ من تبليغ الدعوة اليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القالوب أكثر من مرضى الآبدان . والعلماء أطباء والسلاطين قرام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى أو الذى غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الابدان لثلاث علل ؛ إحداها : أنَّ المريض به لايدرىأنهمريض ؛

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الدنوب وإن عليها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة: وهو الداء العضال؛ فقد الطبيب، فإنّ الآطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الآعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لايظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الحلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا، لآنّ الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الآطباء فلم يقدروا على تحذير الحلق منه استنكافا من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الحلق لفقد الآطباء، بل اشتغل الآطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ا وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم الاما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحة لأن ذلك ومن بد على الحاصى الدفا وقد استفادوا من بد جراءة على المعاصى ومن بد ثقة بفضل الله:

فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الانواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الدنوب وهي أربعة أنواع .

(الآوَّل) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الآخبار والآثار

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم ، مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : ياليت هذا الحلق لم يخلقوا ا ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا الحلوا الماذا خلقوا علموا علموا علموا لماذا خلقوا علموا علموا علموا الماذا خلقوا علموا علموا الماذا خلقوا علموا علموا الما علموا المائة علموا المائة إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشهال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر الميمن ما الميمن السلف : مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الارض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى للارض والسهاء كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكا لم تخلقاه ولوخلقهاه لرحمته ولحله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الله يمسك السموات والمله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الله يمسك السموات والآرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه والطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب ، القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع (٣) ، وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدًا من المعاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قله فلم يوفقه بعدها لخير .

والآخبار والآثار فى ذم المعاصى ومسدح التاثبين لا تحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحسكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٤٠).

(النوع الثانى) حكايات الآنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الحلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ، ونودى من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لايحاورنى من عصانى . قال : فالتفت آدم إلى حوّاء باكيا وقال : هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب ، وروى أن سليان بن داود عليهماالسلام لما عوقب على خطيئته لاجل التمثال الذى عبد في داره أربعين يوما ، وقيل : لأنّ المرأة سألته أن بحكم لابيها فقال فعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقله أن

⁽¹⁾ حديث « مامن يوم طلع لجره ولا ليلة غاب شفتها لملا وملسكان يتجاوبان بأربعة أصوات فبفول أحدها يالبت هذا الحلق لم يخلفوا ... الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « لمن نه ملسكا ينادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده .. الحديث » وفيه « ليت الحلائق لم يخانموا وليتهم لذخلقوا علموا لمساذا خلفوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ... الحديث » .

⁽٢) حديث عمر « العلايم معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ... الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل السكف المفتوحة » قلت هكذا قال المهنف : وفي حديث مجاهد ، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وايس بمرفوع وقد رويناه في سعب الإيمان الببهتي من قول حديث العمل والحسكمة أخرجه البناري من حديث قول حذيفة (٤) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درجا ولا عبداولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة عمرو بن الحارث قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درجا ولا عبداولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة مترك دينارا ولا درجا ولا درجا والا درجا الما ورثوا العلم ..

يكون الحكم لأيها على خصمه لمكامها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطمعونى فإنى سليمان بن داودر شبح وطرد وضرب. وحكى أمه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه. وفى رواية : أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الاربعين .. أيام العقوبة .. قال : فجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لا ألومكم فيها فعلتم من قبل ولا أحمدكم فى عذركم الآن إنّ هذا أمر كان من السهاء ولا بقد منه . وروى فى الإسرائيليات : أنّ رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم ، قال : فنبأه الله ببركة تقواه فكان أنبي في أسرائيل . وفى قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام : بم أطلمك الله على الغيب الخال بنبركي للماصي لأجل الله تعالى . وروى أن الربح كانت تسير بسلمان عليه السلام . بم أطلمك الله على الفيب الله . وروى أن الربح كانت تسير بسلمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا الله تحمل أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أندرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لقولك لا يوب في الدي و تدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا ، قال : لانك رجو تني وقلت (عسى الله أن يأ تيني بهم جميعا) و بما قلت (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك جميعا) و بما قلت (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ردن عند ربك) قال الله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبت في السجن بضع سنين) .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والآخبار ورود الاسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الدنوب الكبار ؟ نعم كانت سعادتهما فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولان عذاب الآخرة أشد وأكبر . فهذا أيضا بما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

(النوع الثالث) أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الدنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكر لفرط جهله ، فينبغي أن يخوف به فإن الدنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الآمر ، كما حكى في قصة داود وسلمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم ، إن العبد ليحرم الرزق بالدنب يصيبه (۱) ، وقال ابن مسعود: إنى لآحسب أن العبد ينسي العلم بالذنب يصيبه ؛ وهو معنى قوله عليه السلام ، من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا (۱) ، وقال بعض السلف : ليست المعنة سوادا في الوجه ونقصا في المال إنما المعنة أرب لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لان المعنة هي الطرد والإبداد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة

⁽۱) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصنبه » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححاسناده والمفظلة الا أنه قال «الرجل » بدل « العبد » من حديث ثوبان (۲) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لايمود لمليه أبدا » تقدم ،

العلماء المنكرين للذنوب ومن بجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون. وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعاً ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول : هذا مثل العبد لايزال يتوقى الدنوب ويجانبهـا حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الدنوب خوضاً . وهو إشارة إلى أنَّ الذنب تتعجل عقوبته بالآنجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفضيل : ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك وترثتك ذلك . وقال بعضهم ﴿ إِنْ لَاعْرُفْ عَقُوبَة ذَنِّي فَي سُوءَ خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأربيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجمه فوقفت أنظر إليه فمر لى ابن الجلاء الدمشتي فأخذ بيدى فاستحييت منه فقلت : ياأبا عبدالله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار ! فغمز يدى وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سلمان الداراني ؛ الاحتلام عقوبة . وقال : لايفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر . ما أنكرتم من زمانكم فما غيرتم من أعمالكم (١١) . وفي الخبر . يقول الله تعالى إن أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي ٢١٪ . . وحكى عن أبي عمر و بن علوان ـ في قصــة يطول ذكرها ـ قال فيها :كنت قائمًا ذات يوم أصلي فخاس قلبي هوى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الارض واسود جسدى كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يرداد إلا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة ، فلمــا أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى كنت قائمًا بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليـك برقــة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى فلولا أنى دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ؟ .

واعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أخنى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والاخبار كثيرة في آفات الدنوب في الدنيا من النقر والمرض وغيره ، بل من شؤم الدنب في الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته ، فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يقضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لدنوبه وزيادة في درجاته .

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الدنوب كالخر والزنا والسرقة والقتـل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك بما لايمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه، بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنـة ووجود الحركات على العلل البـاطنـة ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصنى يارسول الله ولا تكثر على قال ولا تغضب ""، وقال له آخر أوصـنى يارسول الله فقـال

⁽۱) حدیث « ما أنسكرتم من زمانسكم فيما أنسكرتم من أعمالسكم » أخرجه البيهتي في الزهد من حدیث أبی الدرداء وقال هریب تفرد به هكذا العقیلي وهو عبد الله بن هاني ً . ثلت : هو متهم بالسكذب قال ابن أبی حائم روی عن أبیه أحادیث بواطیل . (۲) حدیث « یقول الله لمنی أدنی ماأصنع بالعبد لمذا آثر شهوته علی طاعتی أن أحرمه لخدة مناجاتی » غریب لم أجده .

 ⁽٣) حديث : قال رجل أوسنى ولانسكثر على قال د لأنفضب » تَفْدُم .

عليك السلام و عليك باليأس بما في أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه (١١) ، وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : وكيف لى بذلك ؟ قال : الزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول يخايل الغضب فنهاه عنه ، وفي السائل الآخر بخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخيل مجمد بن واسع في السائل يخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ : أوصنى ، فقال : كن رحيا أكن لك بالجنة زعيا . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم ، أوصنى فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بين أدهم ، أوصنى فقال : إياك والناس وعليك بالناس بأخسوا في ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عماكان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس بل رضى الله عنها : أن اكتبى لى كتابا توصيني فيه ولا تكثرى ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية رحمه القبل المعافية الناس ، ومن رضى الله برضا الناس وكله الله إلى الناس (١٠) ، والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت الآفة التي التمس شخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس (١٠) ، والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت الآفة التي تكون الولاة بصددها ؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى . أما بعد، فانق الله فإذا اتقيت الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الحفية وتوسم الأحوال اللائفة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هر مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتسكلم فى جمع أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر ، فإن فى علوم الشرع أغذية وأدوية فالاغذية للسكافة والادوية لارباب العلل .

ومثاله ما روى أن رجلا قال لآبى سعيد الخدرى: أوصنى ، قال : عليك بتقوى الله عزوجل فإنهارأس كلخير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الارض وذكر لك فى أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن : أوصنى ، فقال : أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقهان لابنه : يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكرن عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شهو تكولاتهم صوما يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه: يابنى لاتضحك من غير عجب ولا تمش فى غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولاتضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن ما تركت ، يابنى إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخيريغنم ومن يقل الشر بأثم ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لابى حازم : أوصنى ، فقال : كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة

⁽١) حديث قال له آخر : أوسني قال « عليك باليأس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

⁽٢) حديث عائشة « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله لل الناس ... الحديث ، أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

فالزمه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضرعلهما السلام : أوصني ، فقال : كن بساما ولاتكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانرع عن اللجاجة ولاتمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام : أوصني ، فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ماتجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني فقال: اجعللدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات ، قال . وما غلاف الدين ؟ قال . ترك طلب الدنيا إلا مالا بدّ منه وترك كثرة السكلام إلا فيما لابد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه . وكتب الحسن إلى عربن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى أما بعد ، فخف بمـا خوَّفك الله واحذر بمـا حذرك الله وخذ بمـا في يديك لمـا بين يديك ، فعند الموت يأتيك الحبر اليقين والسلام. وكنتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ؛ فإن الهول الاعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسرومن لظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضلومن حلم غنم ومن خاف أمن ومنأمن اعتبر ومناعتبر أبصرومن أبصر فهمومن فهم علم ، فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل وإذاغضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد ، فإن الدنيـــا دارعقو بة ولهايجمعمن من لاعقل له وبها يغتر من لاعلم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدّة الدواء لمــا يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضىالله عنه إلى عدى بن أرطاة . أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله . أما بعد ؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتى إلى الناس شيئا إلاكان زائلا عنهم باقياً عليك ، واعلم أن الله عزوجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغى أن يبكون وعظ العامة ووعظ من لا يدرى خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الاغذية التي يشترك البكافة في الانتفاع بها . ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصى واستسرى الفساد، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يبكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القاب ، بل القائل متصاف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. فهذا أحد أركان العلاج وأصوله. (الأصل الثانى) الصبر: ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضره، وإنما يتناول ذلك: إمالغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته؛ فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ـ وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولايكش ضرره ثم يصبر بقرة الحوف على الألم الذى يناله فى تركه، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى، كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لايقدر على حفظ عينه ولاحفظ قلبه أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى الخلوقات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة وسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا اشتذ خوفه تباعد من الامنباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج. هو

حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة ، ومن داخل : تناول لذائذ الاطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلاعن بصيرة وافتكار أو عن سماع و تقليد ، فأول الامر حضور بجالس الذكر ثم الاستماع من قلب بجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم ، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوى الحوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الحوف فأتق وانتظر الثواب وصدق بالحسني فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من محل واستغنى وكذب بالحسني فسييسره الله للعسرى فلا يننى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الانبياء إلا شرح طرق الهدى وإنمالله الآخرة والاولى .

فإن قلت: فقد رجع الآمركله إلى الإيمان لآن ترك الدنب لايمكن إلا بالصبر عنه والصبر لايمكن إلا بمعرفة الحنوف، والحنوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الدنوب، والتصديق بعظم ضرر الدنوب، والتصديق بعظم ضرر الدنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان؛ فكأن من أصر على الدنب لم يصر عليه إلا لانه غير مؤمن؟ فأعلم أن هذا لايكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد منالله تعالى وسبب العقاب في الآخرة. ولكن سبب وقوعه في الدنب أمور.

(أحدها) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

(الثاني) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهى فى الحال آخذة بالمختق وقدة وى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ والنزوع عن العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) وقال عز وجل (بل تؤثرون الحياة الدنيا) وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (۱۱) ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى خلق النار فقيال لجبريل عليمه السلام: اذهب فانظر إليها ، فنظر فقيال وعزتك لا يسمع بها أحد فيد خلها الحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها الحديل عليه السلام اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها لحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها فقال وعزتك لفد خشيت أن لا يدخلها أحد (۱۲) ، فإذا كون الشهوة مرهقة فى الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سببان ظاهران فى الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب فى مرضه ماه الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الآلم المنتظر .

(الثالث) أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات ، وقد وعد بأن ذلك بجبره إلا أن طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسترف التوبة والتكفير ، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان .

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيحسابا لا يمكن العفو عنها ،

⁽۱) حدیث « حفت الجنة بالمسكاره . . الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی هریرة (۲) حدیث « آن الله خلق النارفقال لمبريل اذهب فالنظر لمایها . . الحدیث » أخرجه أبو داود والترمذی والحاکم وصحه من حدیث أبی هریرة وقدم فیه ذکر الجنة لمبریل اذهب فالنظر لمایها . . الحدیث » أخرجه أبو داود والترمذی والحاکم وصحه من حدیث أبی هریرة وقدم فیه ذکر الجنة

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . فهذه أساب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه وهو كونه شاكا فى صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذى يحذره الطبيب عن تناول ما يضره فى المرض فإن كان المحذر بمن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر .

فإن قلت فسا علاج الاسباب الخسسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب، أنكل ماهو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحمد من شراك نعله فمما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال، إذ يركب البحار ويقاسي الاسفار لاجل الربح الذي يظنّ أنه قد عتاج إليه في ثاني الحال. بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده ، ومفارقته للدنيا لابدّ منها ، فسكم نسبة وجود. في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا؟ فلينظر كيف يبـادر إلى ترك ملاذه بقول ذى لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقــلى أن يكون قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات عندى دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولايشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أفدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لاأطبق ألمالصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لاأصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرهـــا فكيف أصبر عن نعم الآخرة ؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لآن المسترف يبني الأمر على ماليس إليه وهو البقساء فلعله لايبتي و إن بتي فلا يقدر على الترك غداكما لايقدر عليه اليوم ، فليت شعرى هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف.إذ تتأكدبالاعتياد 1 فليست الشهوة التي أكدما الإنسسان بالعادة كالتي لم يؤكدهـا . وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المنهائلين ولا يظنون أن الآيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق . وما مثال المسوف إلا مثاله مناحتاج إلى قلع شجرة فرآما قوية لاتنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلمأنالشجرة كلمابقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة فيالدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فصل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة ، فإن إمكان العفو عن الدنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فصل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى دارى أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار 1 فإن الموت بمكن والغفلة بمكنة 1 وقد حكى فى الاسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر بمكن ولكنه فى غاية الحاقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يعسكون .

وأما الحامس وهو شك فهذا كفر ، وعلاجه الاسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يمالج بعلم قريب يليق بحد عقله ، فيقال له : ما قاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه عال كا أعلم استحالة شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في المقلاء . وإن قال : أنا شاك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول عندتركك طعامك في الديت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الاطعمة ؟ فيقول : أتركه لا محالة لاني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والمرت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكاء بل جميع أصناف العقلاء _ ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الالباب _ عن صدق وجل واحد يجهول لمل له غرضا فيا يقول ؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الاخر وأثبت ثوا با وعقابا وإن اختلفوا في كيفيته ، فإن عرضا فيا يقول ؟ فليس في العقلاء إلا من صدق بالذو الأخر وأثبت ثوا با وعقابا وإن اختلفوا في كيفيته ، فإن الملك قرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدر نااللدنيا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تدقى أبد الآباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تدقى أبد الآباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء أحد بن سلمان التنوخي المعزى:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الاموات قلت إليكما ان صح قول فالحسار عليكما ان صح قول فالحسار عليكما

لذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت وهلكت 1 أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال .

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيها من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فاعلم أنّ المافع من الفكر أمران (أحدهما) أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة . (والثاني) أنّ الفكر شغل في الحال ما فع من لذائذ الدنها وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك ،

أما علاج هذين المانعين: فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألمها بذكره مع استحقار ألم مواقعته ، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبرعلى تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثاني وهوكون الفكر مفوتا للذات الدنيا ؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولاكدورة فيها ، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الانس به ؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاةالله تعالى للحان ذلك كافيا ، فكيف بمـا ينضاف إليه من نعيم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لاتكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الحير ديدنا كمان الشر ديدنا ، فالنفس قابلة ـــ ما عودتها تتعود ــ والحير عادة والشر لجاجة .

فإذن هذه الآفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقؤة الصبر عن اللذات ، ومهيج هذه الآفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الحير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعني الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روى في حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبي طالب كرّم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال على رضى الله عنه : بني على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرّته الآماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن عقسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنامن أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كـتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياءبقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعاء ، والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى أصحابه سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء .

أما بعد : فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الآخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعمالي واسمان من أسمائه الحسني إذ سمى نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصوّر سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مابه الإيمان ، فما أحوج كلا الشطرين إلى عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مابه الإيمان ، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيمان و ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شام الله تعالى . (الشطر الايمان وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

كتاب الصبر والشكر

⁽۱) حديث « الإعسان لمغان لصف صبر ولصف شسكر » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الله دوس من رواية يزيد الرقاشي من أنس ويزيد ضيف .

أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القرّة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ،وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

بيارس فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القيآن فى نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل (وجعانا منهم أثمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) وقال تعالى (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى (إنما يوف الصابرون أجرهم بغير حساب) فما من قرمة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولاجل كون الصوم من الصبر وأنه فصف الصبر قال الله تعالى د الصوم لى وأنا أجزى به ، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (واصبروا إن الله مع الصابرين) وعلى النصرة على الصبر فقال تعالى (بلى إن تصبروا وتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم يخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين) وجمع الصابرين بين أمور المجموعة الغيرهم فقال تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك همالمهندون) فالهدى والرحمة والصلوات المجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآبات فى مقام الصبر يطول

وأما الآخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم و الصبر نصف الإيمان (١) ، على ما سيأتى وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم و من أقل ما أو تيتم اليقين وعزيمة الصبر و من أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولآن تصبروا على ماأتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السهاء عندذلك ، فن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ماعندكم ينفد وما عنده الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم (١) ، الآية ودوى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال والصبر والسهاحة (١) ، وقال أيضاً والصبر كاز من كنوز الجنة (١) ، وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ الحبح عرفة (١) » معناه معظم وسئل مرة ﴿ ما الإيمان ؟ فقال : الصبر (١) » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ الحبح عرفة (١) » ومناه أن أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل الله داود عليه السلام ؛ تخلق بأخلاق وأن من أخلاقي أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله عليه وسلم على الله عليه وسلم وما علامة إيمانكم ؟ ، قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء وترضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم وما علامة إيمانكم ؟ ، قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء وترضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم وما على الله عليه وسلم ولما الله عليه وسلم وما علامة إيمانكم ؟ ، قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء وترضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم

⁽¹⁾ حديث « الصبر نصف الإيمـان » أخرجه أبو لعبم والحطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم

⁽٢) حديث « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث » بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطول

⁽٣) حديث جاسر : سئل عن الإيمسان فقال و الصبر والسهاحة » أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابزحبان فالضعفاء وفيه يوسف بن عمد بن المنسكدر ضعيف ورواء الطبراني في السكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده

و هسك بن مند بن المستمثار تسميك ورواه الطبراي في السلطير عن روايا طبله له بن طبيع بن طبيع المارية المار » (ه) حديث « الصبر كند من كنوز الجنة » غريب لم أجسده . (ه) حديث : سئل ممرة عن الإيمسان بمذلة الرأس من الجسد» أخرجه أبو منصورالديلمي في مسندالفردوس من رواية يزيدالرقائي عن السي مرةوعا « الصبر من الإيمسان بمذلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف (1) حديث « الحج عرفة » تقدم في الحج .

⁽٧) حديث و أفضل الأعمال ماأكرهت عليه النفوس ، الأصل له مهنوعا ولاعسا هو من تول عمر بن عبد العزيز هكذا رواء ابن أبي الدئيا في كتاب محاسبة النفس .

, مؤمنون ورب الكعبة (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم , فى الصبر على ماتكره خير كثير (۲) ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ماتكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كان الصبر رجلا لكان كريمـا والله يحب الصابرين (۱) ، والاخبار فى هذا لاتحصى .

وأما الآثار . فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الآشعرى عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا ، الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولاجسد لمن لارأس له ولاايمان لمن لاصبرله . وكان عمر رضى الله عنه يقول . فعم العدلان وفعمت العلاوة للصابرين ؛ يعني بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فرق العدلين على البعير وأشاربه إلى قوله تعالى في بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فرق العدلين على البعير وأشاربه إلى قوله تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية (إنا وجدناه صابرا فعم العبد إنه أقاب) بكي وقال . واعجاء أعطى واثني أي هو المعطى للصبر وهو المشي . وقال أبو الدرداء . ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحيل معرفة المؤسوف فلذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور . معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هي الأصول وهي تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار ، والاحوال كالاغصان ، والاعمال كالثمار . وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على السكل _ كا ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد _ وكذلك الصبر لايتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة . فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والهائم . فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة ، أما في البهائم فلنقصانها . وأما في الملائكة فلكالها .

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتصاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صدا . وأما الملائكة عليهم السلام فأبهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تفهوة النكاح ، على القرتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبر عبارة عن تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على القرتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبر عبارة عن

⁽١) حديث عطاء هن ابن صاس : دخل على الألصار فقال « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوًا ، فقال عمر : لمم يارسول الله . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منسكر الحديث عن عطاء .

⁽٢) حديث ﴿ فِي الصِهْرِ عَلَى مَاتِسَكُمْرَهُ خَبْرَ كَشْرٍ ﴾ أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم

⁽٣) حديث « لوكان الصبر رجلا ، لسكان كريما أخرجه العابراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضفه العقيل

ثمبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياً تهما ومطالبهما ، وليس فى الصي إلا جند الهوى كا فى البهائم ، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقويه ، فتميز بمعونة الملكين البهائم .واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف . فالمهيمة لامعرفة لما ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط ، فلذلك لاتطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال فلا تطلبه ولاتعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له منبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية مالم تكن له قدرة على ترك ماهو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لاقدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأم هذا الجند بقتال جندالشهوة ، فتارة بصعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كا أن نور الهداية أيضا يختلف في الحتلا اختلافا لاينحصر .

فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها: باعثا دينيا ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا الفتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين الاعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين .

فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يشمره حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه .. أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق القاتعالى قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلابقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الكرام المكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك المادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، الذى ينبغي أن يكون مسلما له ، فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشيال .

وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عنصاحب اليمينومسى وليه فيكتب أعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسى واليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما تبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سمياكراماكاتبين .

أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لايطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الابصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى ، وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال صلى الله عليه وسلم ، من مات فقد قامت قيامته ١١١ . وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ وَلَقَدْ جَنْتُمُونَا فَرَادَى كَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مرة ﴾ وفيها يقال ﴿ كَنَّى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ﴾ أما في القيامة الكبرى الجامعة لـكافة الحلائق فلا يكون وحده بل ربمـا يحاسب على ملا من الحلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنه والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهول الاول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامةالكبرى نظير فىالقيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فالموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم ترازل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لانه إنمها يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لابزلزلة مسكن غيره ، فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب، وحظك الحاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والارض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنمـاتخاف من تزلزلهأن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلافالهوا. أبدا منزلزل وأنت لاتخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فظلك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهي أرضك وترابك الحاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سهاء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، ومكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالهـــا ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتادكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كؤرت الشمس تكويراً ، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقدانكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السها. انشقاقا ، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالآخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الارض فدّت حتى ألقت مافيهاوتخلت ، واست أطول بجمبع موازنة الاحوال والاهوال ولكني أقول بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولايفوتك من القيامة الكبرى شيء بمــا يخصك بل مايخص غيرك . فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلىالكواكب ، والاعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لانها قدكسفت فيحقه دفعة وأحدة ، وهوحصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهةُ الرأس فن لارأس له لاسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟ فهذه هي القيامة الصغرى . والحوف بعد أسفل والمول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والارض ونسفت الجبال ونمت الأهوال .

⁽١) حديث و من مان فقد قامت قيامته ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث ألمس بسند ضعيف .

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الحروج من الصلب والتراثب إلى هستودع الارحام فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله فى سلوكه إلى الكالمنازل وأطوار من فطعة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى فى خلقه كولا بعثكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وننششكم فيها لاتعلون ﴾ فالمقر بالقيامة ين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والمنكل والمناكوت ، والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والصلال والاقتداء بالأعور الدجال .

في أعظم غفلتك يا مسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء وكنى بالموت واعظا (۱۱) ، أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم واللهم هؤن على محمد سكرات الموت (۱۲) ، أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصدون فلايستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون؟ فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟ ﴿ أو لم يرواكم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ولكن ﴿ ما تأتيم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وذلك لانا ﴿ جعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يوصرون

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة . فنقول : ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام السكاتبين ولايكتبان شيئا عن الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما ، وما اللصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض ، وهمالا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمرى إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولى البر الشفيق

⁽۱) حدیث «کنی بالموت واعظا» أخرجه البیهتی فی الشعب من حدیث عائشة وفیه الربیع بن بدر ضعیف ورواه الطبرائی من حدیث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضیل بن عیاض رواه البیهتی فی الزهد ، (۲) حدیث «اللهم هون علی عمد سکرات الموت » أخرجه الترمذی وقال غریب واانسائی فی الیوم والایلة وابن ماجه من حدیث عائشة بلفظ « اللهم أعنی علی سکرات الموت ، »

- إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار - أن يكتب على الصبى سيئته وحسنته على عيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب . فمكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها فى حق الصبى . فينال بها درجة القرب من رب العالمين كا نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم . أنا وكافل اليديم كهاتين فى الجنة ١١١ ، وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أنّ الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلافات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، ولمكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا. فيكون الإيمان ركنان: (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر. والمراد باليقين. المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعمالي عبده إلى أصول الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر.. الحديث ، إلى آخره

الاعتبار الثانى: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتباركا أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الآول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر و فصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولماكان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الشهوة ، والشهوة الطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار والصوم نصف الصبر ، لأن كال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع محدود الأعمال والاحوال ونسبتها إلى الإيمان : والاصل فيه أن تعمل الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأساى التي تنجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر

أعلم أن الصبر ضربان ؛ أحدهما : ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات علمها . وهو إما بالفعل : كتعاطى

⁽١) حديث « أنا وكافل اليتم كهاتين ، أخرجه البخارى من حديث سهل بن سمد وتقدم .

الاعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبيع ومقتضبات الهوى . ثم هذا الهنرب إنكان صبرًا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإنكان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما . وإن كان في احتمال الغني سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمىالبطر . وإن كان في حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمى حلمًا ويضاده التذمر . وإن كان في نائبة من نوائب الزمان،مضجرة سمىسعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان في إخفاءكلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضو لـ العيش سمى زهدا ويضاده الحرص. وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال . هو الصبر ، لابه أكثر أعماله وأعزها كما قال « الحج عرفة (١) ، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى السكل صبرا فقال تعالى ﴿ والصابرين في البأساء ﴾ أي المصيبة ﴿ والضراء ﴾ أي الفقر ﴿ وحين البأس ﴾ أي المحاربة ﴿ أولكك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعـاني من الأســامي يظن أنّ هذه الاحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الاسامي مختلفة ، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أوّلا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسام فإنها وضعت دالة على المعانى. فالمعانى هي الاصول والالفاظ هي التوابع . ومن يطلب الاصول من التوابع لابدّ وأن يزل . وإلى الفريقين الإشــادة بقوله تعالى ﴿ أَفَن يمشى مَكَبًا عَلَى وَجَهِهُ أَهْدَى أَمَن يمشى سويًا عَلَى صراط مستقيم ﴾ فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بـكرمه ولطفه .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال ؟ أحدها : أن يقهر داعى الهوى فلاتبق له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) .

الحالة الثانية: أن تغلب دواعى الهوى وتبسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون رهم الاكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله و وإليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ ولو شَنّنا لاّتيناكل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

⁽١) حديث و الحج عرفة ، أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحن بن يسر وتقدم في الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحقق كا قال صلى الله عليه وآله وسلم و الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحق من أتبع نفسه هواهما وتمنى على الله (١) ، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولسكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولسكن قال: إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتى . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله في يد شهواته كسلم أسير في أيدى الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الحنازير وحفظ الحنور وحملها ، ومحله عندالله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من مدفة الله وباعث الشياطين وحق المسلم على وباعث الدين وباعث الشياطين وحق المسلم على الحنى هو من حزب الله يامند الملاككة للمدى الحسيس نفسه أوجب من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كن أرق مسلما لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعر أولاده وسلمه إلى أبغض أعذائه ، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته الان الهوى أبغض فأخذ أعر أولاده وسلمه إلى أبغض أعذائه ، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة: أن يمكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيشا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ هذا باعتبار القرّة والضعف . ويتطرّق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد مايصبر عنه : فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى . والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشهون بالانعام بلهم أضبل سبيلا ، إذ البيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ، ولذلك قبل :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصرر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى مايكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر ، وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ﴿ فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لايلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ، ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومن يد جهد وعرق جبين ، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الموى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنودالشياطين ، ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا _ كاسياتى فى كتاب الرضا _ فالرضا

⁽١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » تقدم في ذم النرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم . اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع فني الصبر على ماتكره خـير كثير (١١) . .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التاثبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين .

وسنبين في كتاب المحبة أنّ مقام المحبة أعلى من الرضا ، كاأنّ مقام الرضاأعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام بحرى في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الآذى المحظور محظور كن تقطع بده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا . وكن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على مايجرى على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر الممكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لاينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لايستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أنّ جميع ما يلتى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين (أحدهما) هو الذى يوافق هواه . (والآخر) هو الذى لايوافقه بل يسكرهه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الاحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كلهما . فهو إذن لايستغنى قط عن الصبر .

(النوع الآول) مايوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا. وما أحوح العبيد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق، وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الصراء فصبر نا وابتلينا بفتنة المسراء فصبر نا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال. والزوج والولد فقال تعالى (ينايها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) وقال عز وجل (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) وقال صلى الله عليه وسلم ، الولد مبخلة بجبنة محزنة (") م. ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعشر في قبيصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال ، صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إنى لما رأيت ابنى يتعشر لم أملك نفسى أن أخذته (") ، فني ذلك عبرة لأولى الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لابركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لابرسل نفسه فىالفرح بهاولابهمك فى التنعمواللذةواللهوواللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ماأنعم الله به عليه

⁽۱) حدیث و اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع فني الصبر على ماتسكره خير كثير ، أخرجه الترمذي من حدیث ابن عباس. وقد تقدم . (۳) حدیث و الولد عجنة مخلة عزنة ،أخرجه أبو يعلى الموصلي من حدیث إبي سعيد وتقدم (۳) حدیث ولما نظر لملى ابنه الحسن يتعثر في قيمه نزل عن المنبر . الحدیث ، أخرجه أصحاب الدن من حدیث بریدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غرب ،

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر – كما سيأتى – وإنماكان الصبر على السراء أشدًلا به مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لاتقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(النوع الثانى) مالا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخاو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب . أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشنى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أفسام :

(القسم الأوَّل) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله الني توصف بكونها طاعة أو معصيه وهما ضربان:

(الضرب الآول) الطاعة ، والعبد بحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لآن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله وأنا ربكم الأعلى ولكن فرعون وجد له بحالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، ومامن أحد إلاوهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضهار الكبر ومنازعة الربو بية في رداء الكبرياء. فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب الكسل كالشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال: الأولى قبل الطاعة، وذلك فى تصحيح النيةوا لإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عندمن يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذقال. إنما الإعمال بالنيات وإنما لكل امرى مانوى (۱) ، وقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات).

الحالة الثانية : حالة العمل ، كن لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الادب إلى آخر العمل الاخير فيلازم الصبر عندوا عى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا ﴾ أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بدين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كا قال تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعماله م) وكما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاته ما لمان والآذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ﴿ إِنَّ اللهُ يَأْم يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربي ﴾ فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل وإيتاءذىالقربي، والمروءة وصلة الرحم . وكل ذلك بحتاج إلى صبر .

(الضرب الثانى) المعاصى : فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقدجمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه (١٠ ،

⁽۱) حدیث د انسالاعمالبالنیات» متفق علیه من حدیث عمروقد تقدم (۲) حدیث «المهاجر من هجر السوء والمجاهدمن جاهد هواه» أخرجه ابن ساجه بالشطر الأول والنساق فی السكبری بالشطر الثانی كلاهما من حدیث فضالة بن عبیدالله بإسنادین جیدین وقد تقدما

والمعاصي مقنضي باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا المضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء والمناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذى القلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضدّ ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسامه طول النهار في أعراض الناس ولا بستنكرذلك فترى المؤبر من أن الغيبة أشد من الزنا (١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلاينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قرتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الحنواطر باختلاف الوساوس ، فلا جرم يبتى حديث النفس فى العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه ،كن أصبح وهمومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر فى شىء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثانى) مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار فى دفعه ، كما لو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه فى نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بهض الصحابة رضوان الله عليهم : ماكنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الآذى . وقال تعالى ﴿ ولنصبر ت على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الاعراب من المسلمين؟ هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحرّت وجنتاه ثم قال ، يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر ١٦ ، وقال تعالى ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ولفد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلمك ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره فقال تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عن ظلمك ١٦ ، ورأيت فى الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام ، لقد قيل لكمن وأبل السن بالسن والانف بالأنف ، وأنا أقول لكم لاتفاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فؤل إليه قبل إن السن بالسن والانف بالأنف ، وأنا أقول لكم لاتفاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فؤل إليه قبل إن السن بالسن والانف بالأنف ، وأنا أقول لكم لاتفاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فؤل إليه

⁽١) حديث « إن النبية أشد من الزنا » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث : قسمه من مالا وقول بعض الأعراب :هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

⁽٣) حديث د صل من قطعك ... الحديث ، تقدم

الحقد الايسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا .

(القسم الثالث) مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره ؛ كالمصائب : مثل موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى الدين وفساد الاعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر علىذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما . الصبر فى القرآن على الملائة أوجه ؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم.

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الانبياء لانه بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلىالله عليه وسلم .أسألك من اليقين ماتهوّن على به مصائب الدنيا(١). فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان: وآلة ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على مانكره ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الله عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله و ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم وانتظار الفرج بالصبر عبادة (١، وقال صلى الله عليه وسلم ومان عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كا أس الله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم الوجر فى بمصيبتى وأعقبى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك (٤) ، وقال أنس : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله عزوجل قال ياجبريل ماجزاه من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتناقال الله تعالى جراؤه الخلود في دارى والنظر إلى وجهى (٠) ، ما ما الله عليه وسلم و يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبداته لحاخيرا من لمه وما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنبله وإن وفيته فإلى رحتى (١) ، وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنبله وإن وفيته فالمي رحتى (١) ، وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء عرب نا عبد العزيز رحمه الله في خطبته : ما أنم الله على عبد فعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر الاكان ما عوضه منها أفضل بما انتزع منه وقرأ (إنها يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب على وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو منها أفضل بما انتزع منه وقرأ (إنها يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب على وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

⁽۱) حدیث « أسألك من الیقین ماتهون به علی مصائب الدنیا » أخرجه الترمذی والنسائی والحاكم وصحیحهمن حدیث ابن عمر وحسنه الترمذی وقد تقدم فی الدعوات (۲) حدیث « قال الله لمذا وجهت لمل عبد من عبیدی مصیبة فی بدنه أو ولده أوماله ثم استقبل ذلك بصبر جمل ... الحدیث » أخرجه ابن عدی من حدیث ألس بسند ضعیف .

⁽٣) حديث « انتظار الغرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاعي في مسند المسهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنبا في الفرج بعد الفدة من حديث على دون قوله « بالصبر » وكذاك رواه أبو سعيد المساليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة والمترمذي من حديث ابن مسعود « أفضل العبادة انتظار الفرج » وتقدم في الدعوات (٤) حديث « مامن عبد أصيب عصيبة فقال كما أص، الله (لمنا لله ولمنا لليه راجعون) ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

⁽ه) حدیث ألس ه لمن الله قال یاجعبل ماجزاه من سلبت کریمتیه ... الحدیث ، أخرجه الطبرانی فی الأوسط من روایة أبی نلال القدلی واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاری بلفظ « لمن الله عزوجل قال لذا ابتلیت عبدی مجیبةیه فصبر عوضته منهما الجنة ، رواه ابن عدی وأبو یهلی بلفظ « لذا أخذت کریمتی عبدی لم أرض له تولیا دون الجنة ، قلت یارسول الله ولن کانت واحدة ، وفیه سعید بن سلیم قال ابن عدی ضعیف (٦) حدیث « یقول الله لذا ابتلیت عبدی بلاه فصد ولم بشکنی لمل عواده أبدلته لحا خبرا من لحمه ... الحدیث ، أخرجه مالك فی الموطأ من حدیث عطاء بن یسار عن أبی سعید انتهی وعباد بن كثیر ضعیف ورواه البیهتی موقوفا علی أبی هریرة .

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلى رحمه الله في المسارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ قالوا . أحباؤك جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال : لوكنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجهاكل ساعة ويطالعها وكان فيها ﴿ واصبر لحسكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ويقال إن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه . وقال داود لسليان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيا لم ينل ، وحسن الرضا فيا قد نال ، وحسن الصبر فيا قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ، من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا نذكر مصيبتك (۱۱) ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني . وروى عن بعض م أنه قال : مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جزئي قليلا إلى العدق واجعل المساء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جزئي قليلا إلى العدق واجعل المساء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته . فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فَعَاذًا تَنَالُ دَرَجَةَ الصَّبُّرُ فَي المَصَاءُبِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتَيَارُهُ ، فهو مضطر شاء أم أبي ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار؟ فأعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكتابة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضابقضاء الله تعالى ويبتى مستمرًا على عادته ، ويعتقد أنَّ ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روىعن الرميصاء أم سليم رحمها الله ، أنها قالت: تو في ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطار. فجعل يأكل ، فقال : كيف الصي ؟ قلت : بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتـكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ماكنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا 1 قال : مالهم ؟ قلت : أعيروا عارية ولما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى و إن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثم غداعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال , اللهم بارك لهما في ليلتهما (٢) ، قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءواالقرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال . رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصا. امرأة أبي طلحة ، وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لايعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لاجل الموت سواء ، ولأنَّ البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشر ة ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لمـا مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له: أمانهيتنا عن هذا؟ فقال ﴿ إِنَّ هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحما. ، بل ذلك أيضا لايخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناء إذا عظم ألمه ـ وسيأتى

⁽۱) حديث « من لمجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك » لم أجد، مرفوعا ولم عما رواه ابن أبى الدنيا في المرض والسكفارات من رواية سفيان من سفل الفقهاء قال « من المعرأن لاتتحدث بصيبتك ولا بوجعك ولا بركى نفسك » _ (۲) حديث الرميصاء أم سلم : توفي ابن لى وزوجي أبوطايحة فائب فقمت فسجيته في ناحية البيت . الحديث ، أخرجه الطبرا في ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في المسحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

ذلك فى كتاب الرصا إن شاء الله تعالى ـ وكتب ابن أبى نجيه يعزى بعض الخلفاء: إنّ أحق من عرف حق الله تعالى فيها أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيها أبقاء له : واعلم أنّ المساضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المساجور فيك . واعلم أنّ أجر الصابرين به فيها يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيها يعافون منه .

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر · كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البركتمان المصائب والأوجاع والصدقة . فقدظهر لك بهذه التقسيات أنّ وجوب الصبر عام في جميع الاحوال والافعال، فإنّ الذي كني الشهوات كلهــا واعتزل وحده لايستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لايسكن. وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لابدّ وأن يحصـل منه ماهو مقدّر ، فهو كيفهاكان تضييع ⁄زمان . وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ، ولا يكون ذلك غالبًا ، بل يتفكر في وجوء الحيل لقضاء الشهرات، إذ لايزال ينسازع كل من تحرُّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخــالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه ، بل يقدر الخـالفة من أخلص النــاس في حبه حتى في أهله وولده ، ويتوهم *خالفتهم له ثم يتفكر ف كيفية زجرهم وكيفية قهر هم وجوابهم عمايتعللون به في بخالفته ، ولا يزال في شغل*دائم ، فللشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار تد اجتمع فيهمع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها . وقد كلم الملمون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ســاجدا لمــا خاق الله من الطين فأبي واستـكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته منطين ﴾ .

فإذن حيث لم يسجد المامون لابينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغى أن يطمع فى سجرده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه . وانقياده بالإذعان سجود منه منه ووح السجود ـ وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جمل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة ، فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن الله ! فتكون بمن قيده عالم الشهادة بالمكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمو مك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملمون مجالافيك ، فعند ذلك تكون من عباد الله المخاصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللمين .

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم بجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يخسلو من المساء يدخسل فيه الهواء لامحسالة ، فكذلك القلب المشغسول بفكر مهم في الدين لا يخسلو عن جولان الشيطان ، وإلا فن غفل عن الله تعالى ولوفي لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعسالي

(ومن بعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم و إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ (۱۱) ، وهذا لآن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا ، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ،ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لآن طبعه من النار ، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبتة بل تسرى شيئا فشيئا على الانصال ، فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان بحاف إذا الحسين بن منصور المحلاج . حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال : هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

فإذن حقيقة الصبر وكماله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركةالباطنأولى بالصبر عن ذلك ، وهذا ضبر دائم لايقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أبرل الداء أبرل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شافا أو يمتنعا فتحصيله بمكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منها تركب الادوية لأمراض القلوبكلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل الما لعنه منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج لذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك بما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الامثلة .

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاوقدغلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لاتزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة , فنقول ، قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدها الآخر فلاطريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلز منا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور .

(أحدما) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه ، فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة .

(الثانى) قطع أسبابه المهيجة في الحالفإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب عرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالسكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النظرة سهم من سهام إبليس (١) ، وهو سهم يسدده الملمون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الاجفان أو الهرب من صوب رميه ، فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه ،

(الثالث): تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل مايشتهيه الطبع فني المباحات

⁽١) حديث « لن الله يبنس الشاب النارغ » لم أجده . ﴿ (٢) حديث النظرة سهم مسموم من سهام لمبليس» تقدم غيرمهة

من جنسه مايغنى عن المحظورات منه : وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الاعمال ، ثم قد لايقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء ، . (1)

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن السكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثانى : يضاهى تغيب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لاتتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشىء قليل مما بميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب .

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين ، أحدهما : إطاعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره فى الاخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنياوالآخرة (وفالاثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالايستى معه إلا مدة الحياة وحصل له مايبتى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا فى نفيس فلا ينبغى أن يحزن لفوات الحسيس فى الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ماأوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثانى: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بهما فيستجرئ عليها وتقوى منته فى مصارعتها ، فإن الاعتياد والمهارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التى قصدر منها تلك الاعمال ، ولمذلك تزيد قوة الحالين والفلاحين والمقاتلين . وبالجلة فقوة المهارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الحياطين والمطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لان قواهم لم تتأكد بالمهارسة .

فالعلاج الآول: يضاهى إطاع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال ﴿ وَإِنْكُمْ إِذَا لَمْنَ المَقْرَبِينَ ﴾ .

والثانى: يضاهى تعويد الصبى الذى يراد منه المصارعة والمفاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصباحتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيسه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه ، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرّغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس المراقبة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لايزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لاعلاج له ألبتة إلا قطع العلائق كانها ظاهراً وباطنا بالفرار عن الآهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء ، ثم الاهتزال إلى زواية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ، ثم كل ذلك لا يكنى مالم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يمكن له بجال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السموات والارمن وعجائب صنع الله تعالى فلا يكن له بحال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السموات والارمن وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بجاذبة الشيطان ووسواسه وإن

⁽١) حديث و عليسكم بالباءة فن لم يستطع فعايه بالصوم ... الحديث ، تقدم في النسكاح .

لم يكن له سير بالساطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة : من القراءة والآذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حرادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثاني : فهو ضروري أشد ضرورة من الأوّل وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسبابالمعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه . ولكن بعد قطع الملائق كلهــا يسلم له أكثر الاوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة ، وفى تلك الاوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض مالايقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتسابوا لجهد فأما مقادير ما ينكشف مبالغ مايرد من لطف الله تعمالي في الاحوال والاعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد وبجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإنّ المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرَّضوا لها ، وذلك لان تلك النفحات والجذبات لهـا أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿ وَفَ السماءُ رزقه كم وما توعدون ﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السيادية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعمالي أسباب الرزق . فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيهـا ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدرى متى يقدّر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعـالي ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر ، فكذلك فلمـا تجلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات : فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهـاب رياح الرحمـة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم و تساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فإن الممم والانفاس أسباب . بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بهــا الامطار في أوقات الاستسقاء ، وهي لاســتدرار أمطار المـكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات المياء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار ، بل الاحوال والمسكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنمها أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الارض بحفر القني أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا فىالقلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعسالى جميع معارف الإيمسان تذكرا ، فقال تعالى ﴿ إِنَا نَحِن نُولِنَا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ وليتذكر أولو الالباب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾

فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنميا الصبر عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر .

قال الجنبد رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعمالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب شم شدّة هجران الخلق .

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فإنّ لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفيات الله تعمالي وهي الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لمما فيه من المناسبة لأمور الربوبية ، وعنه العبارة بقوله تسالي ﴿ قُلُ الروح مِن أمر ربي ﴾ وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر . فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه . وعزا لاذل فيه وأمنا لاخوف فيه وغني لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه ؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية . وليس مذموماعلي طلب ذلك ، بل حق كل عبد أن يطلب ملـكما عظما لا آخر له . وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لايشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولـكـه آجل ... وقد خلق الإنسان عجولا راغبًا في العاجلة لجاء الشيطان وتوسل إليه تواسطة العجلة ـ التي في طبعه ـ فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم , والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني ، فانخذع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدرإمكامه . ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذعلم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة . فعبر عن المخذو لينبقوله تعالى ﴿ كَلَا بَل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ إنَّ هؤلاء يحبون العاجله ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ وقال تعمالي ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق أرسل الله الملائدكه إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدق وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيق عن الملك المجازى الذى لاأصل له إن سلم ولادوام له أصلا فنادوا فيهم (يا أيهما الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لسكم انفروا فى سبيل الله اثاقاتم إلى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل).

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الحلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فىالدنيا ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا : فالزهد فيها والقناعة باليسير منها . وأماملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لاذل فيه وقرة عين أخفيت فى هذا العالم لاتعلمها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم لمل ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت، إذ الدنيا والآخرة ضرتان، ولعلمه بأنالدنيا لانسلم له أيضا ولوكانت تسلم له لـكان يحسده أيضا، ولـكنَ ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم فى الندبيرات وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتتم الاسباب ينقضى العمر ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخر فها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أناها أمرنا ليلا أو نهارا لجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس ﴾ فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنياكاء أنولناه من السهاء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيها تذروه الرياح ﴾ والزهد فى الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا . و باستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيمكون مسخرا مثل البهيمة بملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أبه ينال الملك بأنه يصير بملوكا ا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ا ومثل هذا هل يمكون إلا معمكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ؟ فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لى ا فقال كيف ذلك ؟ قال . أنت عبدشهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلى . فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة . فالخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط فى ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتابيسه يسبهل عليك النزوع عن الملك والجاء والإعراض عنه والصبر عند فواته ؛ إذ تصير بتركه ملسكا فى الحال وترجو به ملسكا فى الآخرة .

ومن كوشف بهذه الامور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج بحرد العلم والكشف ؛ بل لابدر وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كي لايشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كايهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر فعمة الله في سعة الارض إذ قال تعالى ﴿ ألم تسكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ لم يفعل هذا فقد كفر فعمة الله في سعة الارض إذ قال تعالى ﴿ ألم تسكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وكذلك كل هيئة وحال وفعل : في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغى أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد مارسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعى في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الاقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور و لايمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج ، فيترك البعض ويسلى نفسه بالبهض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداً بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن يقمع بالمبقية . وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بتوله صلى الله عليه وسلم ، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولاتبغض من الدن نفيا منا النبت كا أرضا قطع ولاظهرا أبتى (ا) ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لاتشادوا هذا الدين فارن من يشاده يفايه (۱) ، .

⁽۱) حديث « لمن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهتي منحديث جابر والمدم في الأوراد (۲) حديث « لاتشادوا هذا الدين فإنه من تشاده ينظبه » تقدم فيه .

فإذن ماذكر ناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ماذكر ناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كاكان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره فيصير ماكان محبوبا عنده بمقوتا وماكان مكروها عنده مشربا هنيئا لايصبر عنه . وهذا لايعرف إلابالتجربة والذوق وله نظيرفي العادات ، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا . فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ماحكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : عن العبر في العبر في اللعب . وإلى هذا يشير ماحكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : الصبر في القد أنه تعلى (اصبر واو صابر واو رابطوا) الصبر عن الله و فعلم و العبر مع الله و والم و الله و والعبر الله و والعبر مع الله و والعبر مع الله و والعبر مع الله و والعبر مع الله و والعبر والعبر الله و والعبر والنه والعبر والنه والعبر والعبر والعبر والعبر والعبر والعبر والعبر والنه والعبر والنه والعبر والنه والعبر والنه والنه و والعبر والنه والعبر وال

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود وقيل أيضا: الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليــــك فإنه لايجمل هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه(الثاني) في حقيقة النعمة وأفسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول: فى نفس الشكر بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال (ولذكر الله أكبر) فقال تعالى (فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون) وقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وقال تعالى (وسنجزى الشاكرين) وقال عزوجل إخبارا عن إبليس اللهين (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) قيل هو طريق الشكر ، ولعلق رتبة الشكر طعن اللهين في الحلق فقال : ولا تجعد أكثرهم شاكرين . وقال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى (لأن شكرتم الازيدنكم) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقال (يرزق من يشاء بغير حساب) وقال (ويغفر مادون ذلك فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) وقال (يرزق من يشاء بغير حساب) وقال (والله شكور حليم) لمن يشاء) وقال (ويتوب الله على من يشاء) وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى (والله شكور حليم) وقال (وآخر وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقناه وعده) وقال (وآخر دعوام أن الحمد لله رب العالمين) .

وأما الآخبار فقد قال رسولالله صلى الله عليهوسلم . الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (١١) . وروى عنعطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب مارأيت من رسولالله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبًا ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ـ أو قالت في لحافي ـ حتى مس جلدي جلده ثم قال . ياابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي ، فقالت : قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ما. فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يسكي حتى جاء بلال فـآذنه بالصلاة ، فقلت يارسول الله ما يبكيك وقدغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ قال , أفلا أكون عبدا شكورا ولم لاأفعل ذلك وقعد أنزل الله تعالى على ﴿ إِنْ فَي خَلِقَ السَّمُواتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية (٢) ، وهذا يدل على أنَّ البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروى أنه مربعض الانبياء بحجر صغير بخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ فأنا أبكي من خوفه ، فسأله أن يجيره من النار فأجاره ، ثم رآه بعد مدّة على مثل ذلك فقال : لم تبكى الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور ! وقلب العبدكالحجارة أو أشدّ قسوة ولاتزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعًا . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرةفينصب لهملوا. فيدخلون الجنة» قيل : ومن الحمادون؟ قال « الذين يشكرون الله تعالى على كُل حال ٣٠) ﴾ وفي لفظ آخر ﴿ الذين يشكرون الله على السراء والضراء ، وقال صلى الله عليه وسلم , الحمد رداء الرحمن (١٤) ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ـ في كلام طويل ـ وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، وبالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز مانزل ؛ قال عمر رضي الله عنه : أي المـال نتخذ ؟ فقال عليه السلام , ليتخذأ حدكم لسانا ذاكر اوقلبا شاكرا (٥٠ , فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال . وقال ان مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حذ الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم و محبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ماقيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكال معانيه .

⁽۱) حدیث « الطاعم الشاکر بمنزلة الصائم الصابر » علقه البخاری وأسنده النرمذی وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حدیث أبی هربرة ورواه ابن ماجه من حدیث سنان من سنة وفی لمسنا ده اختلاف .

⁽٢) حديث عطاء: دخات على عائشة فغلت لها : أخرينا بأعجب مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : واى أمره لم يكن عجبا ... الحديث في بكائه في صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ماريقه ابن الجوزى في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحبى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سلمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث ابن أبي سلمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة والبيهتي في الشعب من (٣) حديث . ينادى يوم القيامة و ليقم الحادون ... الحديث ، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهتي في الشعب من

حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى لملى الجنه الحمادون ... الحديث » وفيه قبس بن الربيع ضعفه الجهور . (٤) حديث « الحمد رداء الرحن » لم أجد له أصلا وفي الصحيح من حديث أبي مربرة « السكبر رداؤه .. الحديث » وتقدم

ف العلم (٥) حديث عمر : ليتغذ أحدكم اسانا ذاكراً وقِلْها شاكراً .. الحديث » تقدم في النسكاح . (١١ - لحياء علوم الدين -- ١)

(فالاصل الاول) العسلم: وهو علم بثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه ، فإنه لا بد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها ، هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس ; وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل فعمة منه ، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد : كال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنات و من قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله الملاثون حسنة (۱۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحد لله (۱۲) ، وقال المله شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (۱۲) ، ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب ، فسبحان الله ، كلمة تدل على التقديس و ، لا إله إلا الله ، كلمة تدل على التوحيد و ، الحمد لله ، كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التى هي من أبواب الإيمان واليقين ،

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينني الشرك في الافعال، فن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يمكون موحدا في حق الملك . نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقله وبالسكاغد الذي كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والمكاغد ولا يشكرهما ، لابه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما ، وجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك . وقد يعمل أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال ، وأنه لو رد الامر إليه ولم يمكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عافبته لما سلم إليه شيئا ، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والمكاغد ، فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من السكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها ، فإن الله تعمالي هوالمسلط للدواعي عليها لتفعل ــ شاءت أم أبت ــ كالخازن المضطر الذي لايجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة بمما في يده . فمكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليمه الإرادة وهيج عليه الدواعي ا وألق في نفسه أنّ خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ماأعطاك ، وأن غرضه المقصودعنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه ، فهو إذن إنما يعطيك

⁽١) حديث « من قال سحان الله فله عشر حسنات . . الحديث نقدم فى الدعوات (٢) حديث « أفضل الله كل الله وأفضل الله كل الله وأفضل الله الله وأفضل الدعاء الحمد لله » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي فى اليوم واللبلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » لم أجده مراوعا ولم يما رواه ابن أبي الدنبا في كتاب الديم عن إبراهيم المنعمي . يقال أن الحمد أكثر السكلام تضميفا .

لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألق في قلبه من الاعتقادات والإرادات ماصار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بلكنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته . إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك منى فسكانت معرفته شكرا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك ؛ فهذا بيان هذا الاصل .

(الأصل الثانى) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الحضوع والتواضع،وهوأيضا فى نفسه شكر على تجرَّده كما أن المعرفة شكر ولـكن إنمـا يـكون شكرًا إذا كَانَ حاويا شرطه،وشرطهأن يَكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة دَلا بالإنعام ، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مئلا فنقول : الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها)أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لسكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثانى)أن يفرح به لا من حبث إنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه مجانبه ، لو وجد هذا الفرس في صحرا. أو أعطاه غير الملك لسكان لايفرح، أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ايركبه ليخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقةالسفرلينال بخدمته القرب منه ، وربمــا يرتق إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يـكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلابواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حالكل من فرح بنعمة منحيث إنهالذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته الى تستحثه على الإنعام فى المستقبل ، وهذاحالالصالحينالذين يعبدون اللهويشكرونه خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنمــا الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته أن لايفرح منالدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل لعمةتلهيه عنذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله ، لأنه ليس يريدالنعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جوادومهملجبل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكررؤيةالمنعم لا رؤية النعمة وقال الحقواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب . وشكر الحاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لايدركهاكل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلاعن لذة القلب ، فإن القلب لايلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعمللي ومعرفته ولقائه ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرت ، كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فميزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى فحارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك ، وكم من فرق بين من يريد الملك المفرس عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الآصل الثالث : العمَل بموجب الفرح الحاصل منمعرفة المنعم. وهذاالعمل يتعلق بالقلب و باللسان و بالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لـكامة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعـالي بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى فيطاعته والتوق من الاستعانة بها علىمعصيته ، حتى إن شكر العينين : أن تستركل عيب تراه لمسلم ، وشكر الاذنين : أن تستركل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الاعضاء والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت؟ ، قال بخير ، فأعاد صلى الله تعـالى عليه وسـلم السؤال حتى قال في الثالثـة : بخير أحمـد الله وأشكره ، فقال صلى الله تعسالى عليه وســـلم . هــــذا الذي أردت منك (١) . وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليمكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وماكان قصدهمالريا. بإظهار الشوق،وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكرطاعة والشكوى معصية قبيحة من أهلالدين، وكيف لا تقبح الشكرى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالاحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلىوالقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاء عز ، والشكوى إلى غير. ذل ؛ واظهارالذل للمبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبِدُونَ مِن دُونَ اللَّهُ لا يُملِّكُونَ لَـكُمْ رَزْقًا فَابْتَغُوا عَند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَ اللهُ عَبَادُ أَمِثَالُكُمْ ﴾ فألشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيزوحمه الله ، فقام شاب ليتسكُّم ، فقال عمر : الكبرالكبر 1 فقال : ياأمير المؤمنينلوكان الامر بالسن لسكان فيالمسلمين منهوأسن منك ا فقال : تسكلم ، فقال : لسنا وفدالرغبة ولا وفد الرهبة ، أماالرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأماالرمبة فقد آمننا منها عدلك ، وإنما نحن وقد الشكرجئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الحضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول الشكرهو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان . وقول القائل:

⁽۱) حديث قال صلى الله هايه وسلم لرجل • كيف أصبحت ٢ » فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة : بخيرأحدالة وأشكره ، فقال « هذا الذي أردت منك » أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيلين عمرو مرفوعا نحوه ، قال في الثالثة : أحمد الله . وهذا معضل ، ورواه في المعجم السكبير من حديث عبد الله من عمرو ايس فيه تسكرار السؤال وقال : أحمد الله البك ، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ، ورواه مالك في الموطأ موقوطا على عمر بإسناد محييح

إن الشكر هو الاعتسكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة : جامع لاكثر معانى الشكر لا يشذ منه إلاعمل اللسان . وقول حمدون القصار شكرالنعمة : أن ترى نفسك في الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيدالشكر : أن لاترى نفسك أهلا للنعمة : إشارة إلى حال من أحوال القلب على الحصوص وهؤلا . أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لائتم لا يتسكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم ، أو يتسكلمون بما يرونه لائتما بحالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يحتاج إليه ؛ فلا ينبغى أن تظن أن لائتما بحالتهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعانى التي شرحناها كانوا يشكرونها ، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا الا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى ، أم يتناول بعضها مقصودا و بقية المعانى تمكون من توابعه ولو ازمه ؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرحموضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أنّ الشكر إنمــا يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فإنا نشــكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم علىبعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الحدم ، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك ، وهذا محال في حق الله تعـالي من وجهين : (أحدهما) أن الله تــالي منزه عن الحظوظ والاغراض ، مقدَّس عن الحاجة إلى الحدمة والإعانة ، وعن نشر الجاء والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الحدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا ؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن نسام في بيوتنا أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيـه وهو غائب لاعلم له ، ولاحظ لله تعـالي في أفعالنــاكلها (الوجه الثاني) أن كل ما نتماطاه باختيــارنا فهو لعمة أخرى من لعم الله علينــا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الامور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة، ولو أعطاما الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكر للأول منا بلكان الثانى يحتاج إلى شكركما يحتاج الأول ، ثم لايمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالًا في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنـا نشك في الآمرين جميعاً ، والشرع قـد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أنَّ النعمة منى رضيت منك بذلك شكرًا .

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ؛ فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فإنّ هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف ضار شكرا ؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر ، وأنّ قبول الحلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه ، فاعلم أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه ، فاعلم أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى

من علوم المعاملة ، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول : ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحضوهذاالنظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أز لا وأبدا ، لأن الغير هو الذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام ، و مثل هذا الغير لاوجود له بل هو محال أن يوجد ٬ إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه ، وماليس له بنفسه قوام فليس لهبنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره؛ فإن اعتبر ذا ته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود ألبتة ، و إنمــا الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لوقدر عدم غيره بتي موجودا فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصوّر أن يكون غير ذلك ؛ فإذن ليس فيالوجودغيرالحيالقيوموهوالواحد الصمد ؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره , إليه مرجعه ، فهو الشاكر وهوالمشكور ، وهو المحب وهو المحبوب، ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قسراً ﴿ إِنَا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٍ ﴾ فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى ، فهوا لمثنى وهوالمثنى عليه ، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرئ بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لآنه إنما يُحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهــذه رتبة عالية لاتفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك ، فلايخني عليك أنَّ المصنف إذا أحب تصنيفه لقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب:نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل مانى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعــالى وصنعته ؛ فإن أحبه فما أحب ِ إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسـه فبحق أحب ماأحب ؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفنا. النفس أى فني عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعمالي ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فني وطول ظله أربعـة أذرع ولعله يأكل في كل بوم أرطالا من الخــبز ، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَحَرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مِرُوا بَهُم يتغامرُونَ * وَإِذَا انقلبُوا إِلَى أهلهم انقلبوا فكهين ه وإذ رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ه وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ﴾ وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿ إِن تُسخرُوا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فهذا أحد النظرين . النظر الثانى : نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم ف كلتا العينين لانهم! نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم ، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجــدوا ، وفرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد ، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان، فسلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثانى: اليس بهم عمى ولكن بهم عور ، لاتهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلاينكرونه ، والعين الآخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق؛ فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذامشرك تحقيقاكما

أن الذى قبله جاحد تحقيقا : فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً وربا ، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ، ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى ؛ فإن بق في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى الحو ، فينمحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله ، ليكون قد بلغ كال التوحيد ، وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لاتحصى ، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله الماذلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الابصار ، والانبياء هم الكحالون ، وقد جاءوا داعين الى التوحيد المحض ، وترجمته قول و لا إله إلا الله » ومعناه أن لايرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كال التوحيد هم الاقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد ، إذ عبدة الاوثان قالوا (ما فعبدهم إلا ليقرونا إلى الله زلفى) فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا ، والمتوسطون هم الاكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الاحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لايثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لايدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيزفي الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له ﴿ وَاسْجِدُ وَاقْتُرْبُ ﴾ قال في سجوده ﴿ أُعُوذُ بِعَفُوكُ من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنتكا أثنيت على نفسك (١) ، فقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أُعُودُ بِعِفُوكُ مِنْ عَقَابِكُ ﴾ كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكا نه لم ير إلاالله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقتر بـ ففني عن مشاهدة الافعال، وترقى إلى مصادر الافعال وهي الصفات فقال . أعوذ برضاك من سخطك , وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقترب ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهــدة الذات فقال . وأعوذ بك منك ، وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصا ما واقترب فقال ﴿ لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقوله صلى الله عليه وسلم . لاأحصى ، خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله . أنت كما أثنيت على نفسك ، بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكلمنه بدا وإليه يعود وأن كل شي. هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لايرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل منفعل : فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صــلى الله عليه وسلم لايرقى من رتبة الى أخرى إلا ويرى الاولى بعداً بالإضافة الى الثانية ، فىكان يستغفر الله من الاولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيرا في مقامه ، واليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم . انه ليغان على قلمي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة (٢) ، فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض : أوَّلهاوانكان مجاوزًا أقصى غايات الخلق ولمكن كان نقصانا بالإضافة الى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبكوما تأخر ف هذا البكاء في السجود وماهذا الجهدالشديد؟

⁽١) حديث قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخماك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضاك من سخطك و عماقاتك من عقوبتك ... الحديث (٢) حديث « لمنه لينان على قلبي ... الحديث » تقدم في التوبة ، وقبله في الدعوات .

قال . أفلا أكون عبداً شكوراً (١) ، معناه . أفلا أكون طالباً للمزيد فى المقامات . فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ﴾

و إذا تغلغنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، والرجع إلى مايليق بعملوم المعاملة : فنقول الأنبياء عليهم السملام بعثوا لدعوة الحق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ، ولكِّن بينهم وبين الوصول إليهمسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرعكله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكمون النظر عنءشساهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركو باو ملبوساونقدا لأجلزاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، ثمم يكون له حالتان : (إحداهما) أن يكون قصدهمن وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عنـاية في خدمته (والثانية) أن لايكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لايزيد في ملكه لانه لايقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء ، وغيبته لا تنقص من ملكه ؛ فيكون قصد من الإنمام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به و بانتفاعه ، فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى بحال على الله تمالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لايـكون شاكرا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلىحضرته مالم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية قلا يحتاج إلى الخدمة أصلا ، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شَاكُواْ وَكَافُوا وَيَكُونَ شِيكُرُهُ بَانَ يُستَعْمَلُ مَا أَنْفُذُهُ إِلَيْهُ مُولَاهُ فَيَا أَحْبُهُ لَا لاجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته : أي فيها أحبه لعبده لالنفسه ، وإنركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر لعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لالنفسه ، وإن جلس ولم يركب لاني طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دونمالو بعد منه ، فـكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتسكمل بها أبدانهم فيبعدون بهــا عن حضرته ، وإيمــا سعادتهم في القرب منه فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعاله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ه ثم رددناه أسفل سافلين ه إلاالذين آمنوا ﴾ الآية ، فإذن نعم الله تمالي آلات يتر في العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لاجل العبدحتي ينال بهاسعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قدشكر لموافقة محبةمولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فإن الله لا يرضي لعبساده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييح ، وكل ماخلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فـكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الاسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار فيغير محبة الله تعالى ؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لاتشملها المحبة والبكراهة ، بلرب سراد

⁽۱) حديث عائفة لمسا قالت له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فمسا هذا البكاء .. الحديث. رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسمة أحاديث ٬ وهو عند مسلم من رواية عروة هنها مختصرا وكذاك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المنبرة بن شعبة .

حبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الآوَل : وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ؛ وبهذا أيضا ينحل الثانى ؛ فإنا لم نعن بالشكر إلا الصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا الصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أثني عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لابمعنى أنك خالق للعلم وموجــده ، ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الازلية فيك ؛ فوصــفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء ، إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئًا من ذاتك ؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئًا فأنت شيء إذ جعلك شيئًا ؛ فإنقطم النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقيا ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال . اعملوا فكل ميسر لما خلق له (١) ، لماقيلله : يارسول الله فضيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق بجارى قدرة الله تعالى وبحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله . اعملوا ، وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو فعل من أفعاله ، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لا نبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعــالى ، وهوسبب لحركة الاعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأوَّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لحلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لحلق العلم وخلق العلم شرط لحلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ، ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعدّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة ولا انبول الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سببًا للبعض بهذا المعنى لابمعنى أنّ بعض أهماله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه .

فإن قلت: فلم قال الله تعالى اعملوا و إلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم و إنما الكل إلى الله تعالى ؟ فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الحنوف، وهيجان الحنوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها، فمن سبق له في الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى يقوده بسلسلنها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلا هيسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف، وإذا لم يتفسم وألم الملماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف، وإذا لم يتفسم الركون إلى الدنيا بق في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعده أجمعين ؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الاسباب، وهو تسليط العلم والحوف عليه . وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والإمن الهار، عليه ، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، عليه ، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار،

⁽۱) حدیث « اعملوا فکل میسر لما خلق له » من حدیث علی وعمران بُن حصین . (۱) حدیث « اعملوا فکل میسر لما خلق له » من حدیث علی وعمران بُن حصین .

ولا قادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الآمركذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لمن الملك اليوم ته الواحد القهار) ولقد كان الملك ته الواحد القهار كل يوم لاذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لاينفعهم الكشف ؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

بيان تمييز مايحبه الله تعالى عما يسكرهه

اعلم أنَّ فعل الشكر وترك الكفر لايتم إلا بمعرفة مايحبه الله تعـالى عمـا يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محامه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه . ولتمييز مايحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع ، ومستنده الآيات والاخبار (والثاني) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الآخير عسير ، وهو لا جل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لايطلع على أحسكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الشـاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه ، إذ ماخلق شيئًا في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فـكالعلم بأن الحـكمة في خلق الشمس أن يحصل بهــا الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لاكل الحسكم فيهـا بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الإمطـار وذلك لانشقاق الارض بأنواع النبات مطمها للخلق ومرعى الأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة منالحسكمالجاية التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى ﴿ أَنَا صِبْنَا المَاءُ صِبَّا شُم شققناالأرض شقا فأنبتنا فيهـا حبـا وعنبا ﴾ الآية . وأماالحكة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لايطلـع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الـكوكب ﴾ فجميع أجزا. االعالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحــاره وجباله ومعادنه ونبــاته وحيواناته وأعضاء حيواناته لانخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يد ف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للشي، والرجل للشي لا للشم، فأما الاعضاء الباطنة من الامعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقمة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قــدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿ وَمَا أُوتَيْتُمْ مِنَ الْعُلِّمُ إِلَّا قَايِلًا ﴾ فإذن كل من استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خلن لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كَفر فيه نعمة الله تعالى ، فن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليدليدفع بها عن نفسـه مايه لمكه ويأخذ ماينفهه لا ليهلك بهـا غيره ، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ماينفعه في دينه ودنياء ويتتى بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملها في غير ما أريدنًا به ، وهذا لأنَّ المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والآنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ، ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والمساء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والارض وخلق سائر الاعضاء ظاهراً وباطنا ، فكل ذلك لاجـل البدن والبدن مطية النفس ، والراجح إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلذلك قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتَ الْجِنْ وَالْإِنْسَ إِلَّا لَيْعَبِدُونَ هُ ما أريد منهم من رزق ﴾ الآية ، فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لابدّ منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الحفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهمامن حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه وبملك مايستغنى عنه .كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربمـا يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بيهما من معاوضة ولا بدُّ في مقدار العوض من تقدير ، إذ لايبذل صاحب الجل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولامناسبة بين الزعفران والجمل حتى · يقال يعطىمنه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشترى داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقا بحار فهذه الاشياء لاتتناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا ، فافتقرت هـذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل فيعرف من كل واحدرتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فحلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يسوىمائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ،فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لاغرض في أعيانهــما ولو كان في أعيامهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حقمن لاغرض له فلا ينتظم الامر ، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الايدى ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكة إخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الاشياء لانهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب، فلواحتاج إلى طمام ربمًا لم يرغب صاحب الطمام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلًا فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها يخصوصها ، كالمرآة لا لون لهـا ، وتحكى كل لون فكذلك النقد لاغرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعانى في غيره ، فهذه هي الحكمة الثانية ، وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تمالى فيهما، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبسحاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لاغرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران ، وإنمــا خلقا لتتداولها الايدي فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقوّمة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الاسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط المي لاحرف فيه ولا صوت الذي لايدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ـ أخبر هؤلاء العاجزين

بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكذون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سببل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا بمن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكه والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه، وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، وإيما الأوانى لحفظ المائعات ، ولا يكنى الحزف والحديد فى المنتصودالذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آنية من ذهب أوفضة فكأنما يجرجر فى بطنه نارجهنم (اأ ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لاغرض فى عينهما فقذ اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه فهذ المتقدر على أن يشترى به طعاما ودابة ، إذ ربما لايباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلنان إلى الغير لاغرض فى أعيانهما ، معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلنان إلى الغير لاغرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إن الحرف هو الذى جاء لمدنى فى غيره ، وكوقع المرآة من الآلوان ؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبق النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادغار وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحمد النقدين بالآخر ؛ ولما جاز بيع المدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحمد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بالمحمامات على كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلا قليلا ، ففي المنع منه ما يشتوش المقصود الحناص به ؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره : وأما بيسع الدرهم بدرهم يما لله لجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يحرى بحرى وضع المدرهم على الآرض وأخذه بعينه ، فلا بمنع بما لانتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدمما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لايتسور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لايتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدمما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لايتسور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لايرضي بمثله من الردىء فلا جرم بمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديتها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر اليهما فيما يقصد في عينه ، وما لاغرض في عينه فلا بأن جيدها ورديتها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر اليهما فيما يقصد في عينه ، وما لاغرض في عينه فلا مارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لانقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لا أنه لا يقدم صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لانقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز ذلك لا أنه لا يقدم والماوضة لاحمد فيها ولا أجر ، فهو أيضا ظلم لانه إضاعة خصوص المساعة وإخراجها في معرض المعارضة ، وكذلك الأطعمة خلقت لينغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأبعد عن بد المستغن عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة إلا ليؤكل والحاجة إلى الاطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن بد المستغن عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة إلا مستغن عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الله منه طعام فلم مع مدام مع معام فلم فلم فلم المناه في المناه في المناه في عنه به المستغن عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الالهمة وأنه مده طعام فلم فلم فلم فلم فلم المناه في المناه المناه في المناه المناه المناه المناه المناه المنا

⁽۱) حديث « من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بعلنه نار جهنم » متنق عليه من حديث أم سلمة ، ولم يسمرح المصنف بكونه حديثا .

لاياً كله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه بمن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه ، فأمامن يطلبه بعينذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ، ولهذا ورد فيالشرع/لعن/ لمحتكر ، ووردفيه من التشديداتماذكرناه في كتاب آداب الكسب؛ فعم بائع البر بالتمرمعذور ،إذ أحدهما لايسة مسة الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلىمنع لآن النفوس لاتسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ؛ ومقابلة الجيد بمثله من الردى. لايرضيها صاحب الجيد وأما جيد برديثين فقد يقصد، ولكن لمــا كانت الاطعمة منالخرورياتوالجيديساوى الردى. في أصل الفائدة ويخالفه في وجو. التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام ، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بَهْنِ الفَقهياتِ فإنه أوى من جميـم ماأوردناه في الخلافيات ، وبهذا يتضم رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في النَّخصص بالاطعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجمس فيه لـكانت الثياب والدواب أولى بالدَّخول ؛ ولولا الملح لـكان مذهب مالك رحمه الله أفوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات ، واكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان بمكنا بالقوت وكان بمكنا بالمطموم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعومأخرى لكل ما هو ضرورة البقاء؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لايقوى فها أصل المعنى الباعث على الحبكم ؛ ولكن التحديد يقع كـذلك بالضرورة ولو لم يحدّ لنحير الحلق في أتباع جوهر المعنى معاختلافه بالاحوالوالاشخاص فعين المعنى بكال أو ته يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فيكون الحدّ ضروريًا ، فلذلك قال الله تعمالي ﴿ وَمَن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ولأنّ أصول هذه المعانى لا تختلف فيها الشرائع وإنميا تختلف في وجو التحديد ، كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخر بالسكر ، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر ؛ لان قليله يدعو إلى كشير ، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجلة الأصلية ، فهذامثالواحد لحسكمة خفية من حكم النقدين ، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما حلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ وَمَنْ يَوْتَ الحُكُمَّةُ فَقَدَ أُوتَى خَيْرًا كُ ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهواتُ وملاعب الشياطين ، بل لايتذكر إلاأولواالالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . لو لا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السهاء (١١ ، وإذ عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك ، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوامالناس بالكراهةوبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرياب القلوب موصوف بالخطر ، فأقول مثلا : لو أستنجيت بالبني فقد كـفرت نعمةاليدين، إذخلق الله لك اليدين وجعُل إحداهما أقوى من الآخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالبالتشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله لا يأمر بالعدل، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال: بعضها شريف كـأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كـإزالة النجاسة ، فإذا أخذتالمصحف باليساروأزلتالنجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بمسا هو خسيس فنضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بصقت مثلاً فيجهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كيفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لآنه خلق الجهات لتبكون متسمك في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلىنفسه استمالة

⁽١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على بني آمم لنظروا لل ملكوت السهاء ، تقدم في الصوم .

لقلبك إليه ليتقيدبه قلبك فيتقيد بسببه بدنك فرتلك الجهة علىهيئةالثباب والوقار إذاعبدت ربك ، وكذلكانقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كـقضاء الحاجة ورمى البصاق ، فإذا رميت بصاقك إلىجهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعمالي عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتهدأت باليسرى فقد ظلمت ؛ لأن الحف وقاية المرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة في الحفاوظ ينبغيأن تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل ، وهذا عند العارفين كبيرةوإن سماه الفقيه مكروها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع إكرارا من الحنطة وكان يتصدّق بها ، فسئل عنسببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريّد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لايقدر على تفخيم الآمر فيهذه الامور لانه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الإنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ؛ فقييم أن يقال : الذي شرب الخر وأخذالقد حبيساره قد تعدّى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ، ومن باع خمرا فى وقت النداميومالجمة فقبيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الحر ، والآخر البيـع في وقت النداء . ومن قضي حاجته في محر ابالمسجدمستدس القبلة فقبيح أن يذكر تركه الادب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجمل القبلة عن يمينه، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فيمنحق بمضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لوقتل بتلك السكين أعز أولاد. لم يـق لاستعال السكين بنير إذنه حـكم ونكاية في نفسه ، فـكل ماراعا. الانبيا. والاوليا. من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالسكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير ساجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كـفر نعمةالله تدالى فىخلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلقلهالعروق وساق إليه المــاء وخلق فيه قوّة الاغتــذاء والنمــاء ليبلغ منتهي نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهي نشوة لا على وجه ينتفع به عباد، مخالفة لمقصود الحسكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحبح فله ذلك ،إذالشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان ، فإنهما جميعا فانيان هالسكان ، فإفناء الآخس فيبقاءالاشرف.مدّة ماأقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً وإليه الإشارة بقوله تعـالي ﴿ وَسَخَرُ لَكُمْ مَافَى السَّمُواتِ وَمَا فَي الأرض جميعا منه ﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإنكان محتاجاً ، لأنَّ كل شجرة بدينها لاتني بحاجات عباد الله كلهم بل تني بحاجة واحدة ، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما ،فصاحبالاختصاص هوالذي حصل البذر ووضعه في الارض وساق إليه المــاء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ،فإننبت ذلك في موات الأرض لا بسعى آدى اختص بمغرسه أو بغرسه ، فلا بدّ من طلب اختصاص آخر و موالسبق إلى أخذه ، فللسابق خاصية السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به وعـبر الفقر اء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا لمسلك الملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يسكون العبد مالسكا وهو في نفسه البس يمسلك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ،كالملك بنصب مائدة لعبيده ، فن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاءعبدآخر وأراد انتزاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالآخذ باليد _ فإن اليد وصاحب اليدأيضا مملوك _ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تني محاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والآخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن من احمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمرالله في فى عباده ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكـنز. وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، وإنمــا سبيل الله طاعتهوزادا لخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، فعم لايدخل هذا في حدَّفتاويالفقه لانمقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر فيالاستقبال مختلفة ، وأواخرالاعمارغيرمعلومة ، فتكليفالعوام ذلك يجرى مجرى تسكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق ، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الاموال والافتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ماجبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه ، إذ قال تعمالي ﴿ إن يَسَالُكُوهَا فَيَحْفُكُمْ تَبْخُلُوا ﴾ بل الحق الذي لاكدورة فيمه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباداته من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فمكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان إلى حضرة الملك الديان ، فن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائرالاسبابالتي بماعرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعمالي في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام نوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تني إلا بالقليل ، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخر ورا. ذلك تنقضى الاعمــار دونُ استقصاء مباديها ؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير .

ه فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا السكلام إلى أن الله تعالى حكمة فى كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحسكمة ، فسكل فعل وافق مقتضى الحسبا لتمام الحسكة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض افعالها مانعاً من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران ، وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باق : وهو أنّ فعل العبد المنقسم إلى مايتمم الحسكة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعسالى ، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى ؟ فاعلم أنّ تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المسكل شفات ، وقد رمن نا فيا سبق إلى تلويحات بمباديها ، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن الإيضاع في السير فضلا عن بعبارة وجيزة عن الإيضاع في السير فضلا عن أن يحول في جوّ الملكوت جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الحلق والاختراع و تملك الصفة أعلى وأجل من أن تلحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتذ طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصاره كما تنخفض أبصار الحفافيش عن ورالشمس ، لالغموض فهمهم إلى مبادي إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصاره كما تنخفض أبصار الحفافيش عن ورالشمس ، لالغموض

فى نور الشمس ولكن اضعف فى أبصار الخفافيش ، فاضطرّ الذينفتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدًا ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الحلق والاختراع ، ثم الحلق ينقسم في الوجود إلى أفسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الافسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارةالمشيئة ، فهي توهم منها أمرا محملاعند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كفصور لفظ القدر ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة إلى مأينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى مايقف دون الغاية ، وكان لحكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقفدون غايته عبارةالكراهة ، وقيل : إنهماجيعاً داخلان في وصف المشيئة ، ولكن لـكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والـكراهة ، منهما أمرا بحملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ، ثمم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الازلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويُحكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الازل أن يستعملهم لسيافة حكمته إلى غايتها في بعضاً لامور ، فسكان لـكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمــاما لحــكة بهم عبارةالرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على منغضب عليه في الأزلفعل وقفت الحكمة به دون غايتها . فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النـكال، وظهر على من ارتضاء في الآزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعةالثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإفبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثني ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عنأوساخه ثم بلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال ياجميل ما أجملك و أجمل ثيابك و أنظف و جهك، فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمالفهو المثنى عليه بكل عال ، وكأنه لم بثنى من حيث المعنى إلا علىنفسه ، و إنماالعبدهدف الثناء من حيث الظاهروالصورة ، فهكذا كانت الأمور في الأزال ، وهكذا تتسلسل الاسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الاسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمرجز ماستمير له لفظ القضاء، وقيل إنه كلمح بالبصر أوهو أفرب ، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بمساسبق به التقدير، فاستعير لتر تب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاءا لآمرالو احدالكلي ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية . وقيل : إنَّ شيمًا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لمماذا اقتضت هذا النفصيل ، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل ، وكان بعضهم لقصوره لايطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه ، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم ﴿ لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والارض ، وكان زيتهم أولا صافيا بكاد يضيء ولولم تمسسه نار ، فمسته نار فاشتعل نورًا على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الامور كلهاكماً هي عليه فقيل لهم : تأدبوا بآداب الله تعالى واسكنوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا (۱) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ولاتكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وخاله وإن كان لايحيا به حياة المترددين في كال نور الشمس ، وكونواكن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب شربنا وأهرقنا على الأرض فضله وللارض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان أوّل هذا الامر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له ، وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك ، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحدّ من السيف وادق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى ، وإذا دق الجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجرّ وراءه آخر ۽ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو بحال جماهير الحلق كنسبة المشي على المــاء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم؛ فأما المشي على المــاء فلايكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين؛ ولذلك قيل للني صلى الله عليه وسلم : إن عيسي عليه السلام يقال إنه مشي على المــاء ! فقال صلى الله عليه وسلم . لو ازداد بقينا لمشي على الهواء (٢) ، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران ، لايليق بعلم المعاملة أكثر منها ، وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبًا إلى أفهام الخلق إذ عرّف أنه ماخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين : ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قُلْ نُزَلُهُ رُوحِ القدس مِن رَبِّكُ بِالْحَقِّ ﴾ وقال تعالى ﴿ يَلْقَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرُهُ عَلَى مِنْ يَشَاءُ مِنْ عَبَادُهُ ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليصَلُّ عَنْ سَبَيْلُهُ ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحـكة ، فانظركيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذيأحبه ، وعندك في العادة لهمثال ، فالملك إذا كان محتاجا إلىمن يسقيه الشراب وإلى من يحجمه رينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولايفوض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهماوأ كملهما وأحبهما إليه ولاينبغي أن تقول « هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ؟ ، فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك ، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوبُ إتمــاما للعدل ، فإن عدله تارة يتم بأمور لامدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فإنك أيضا من أفعاله ، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسبابُ

⁽۱) حدیث د اذا ذکر القدر فأمسکوا ، رواه الطبرانی من حدیث ابن مسعود ، وقد تقدم فی الملم ، ولم یصرح المصتف بکونه حدیثا . (۲) حدیث قبل له : یقال إن عیسی مفی علی المساء قال د لوازداد یقینا لمفی علی الهواه ، مذاحدیث منسکر لایسرف هکذا ، والمعروف . رواه ابن أبی الدنیا فی کتاب الیقین من قول بکر بن عبدالله الزی قال : فقد الحواریون نبیهم فقیل لهم توجه نمو البحر فائللقوا یطلبونه ، فلما انهوا لملی البحر لمذا هو قد أقبل یمهی علی المساء ، فذکر حدیثا فیه أن عیسی قال : لوآن لابن آدم من الیقین شعرة مفی علی المساء . وروی أبو منصور الدیلی فی مسند الفردوس بسند ضعیف من حدیث معاذ بن جبل د لو عرفتم الله حق معرفته لمشیتم علی البحور ولزالت بدعائشكم الجبال » .

حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة ، إلا أنك لاترى إلانفسك فتظن أنَّ مايظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت ، فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لاتتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لاتظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد . وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربمــا لايعلمون كيف تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لايعلم كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيّان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى هذه الاشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم عركون إلا أنهم لايعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدةً أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثه الاطراف بأشخاص أهل الارض لاتدرك تلك الخيوط لدةتها بهذه الابصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بهـا ، وشاهـدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدى الملائكة المحركين للسموات ، وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كى لايعصوا الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وعبر عن هـذه المشاهدات في القرآن وقيل ﴿ وَفِي السَّاءُ رَزِّقَـكُمْ وما توعدون ﴾ وعبر عن انتظار مـلائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير وأن الله قــد أحاط بكل شيء علما ﴾ وهذه أمور لايعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لاتحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ يَتَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ ﴾ فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى ، وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر .

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملا في إنمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام ، وإنما على ورجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الانبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الارض ، ويلى درجتهم درجة الانبياء فإنهم في أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الحلق وتهم بهم حكمته ، وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكل الله به الدين وختم به النبيين ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الحلق ، ودرجة كل واحدمنهم بقدرما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم بليهم السلاطين بالعدل لانهم أصلحوا دنيا الحلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الانبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لنيره من الانبياء ، هم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهميج رعاع .

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغى أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الآجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر (۱) م . وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل : أى الناس خير ؟ فقال : السلطان ، فقيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى له كل يوم نظر تين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ، ونظرة إلى سلامة أبدا نهم ، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه ، وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون .

الركن الثاني من أركان الشكر: ما عليه الشكر

وهو النعمة ، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وبجامعها فيها يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر ، كما قال تعالى ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ فنقدم أموراكلية تجرى بجرى القوانين فى معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بلكل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الاخروية ، وتسمية ماسواها فعمة وسعادة إما غلط وإما بجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة فعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاو لكن يكون إطلاقه على السعادة الآخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته فعمة صحيحة وصدق لاجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة واللذات المسماة فعمة نشرحها بتقسيات :

(القسمة الأولى) أن الأمور كلهابالإضافة إلينا تنقسم إلى ماهونافع فى الدنيا والآخرة جميعا : كالعلم وحسن الخلق وإلى ما ينفع فى الحال ويضر فى الحال : كالتلاذ باتباع الشهوة وإلى ما ينفع فى الحال ويضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل : كقمع الشهوات و مخالفة النفس ، فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل لبلاء محض عند ذوى البصائر و تظنه الجهال فعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلافيه مم فإنه يعدّه فعمة إن كان جاهلا ، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار فى الحال النافع فى المآل لفعمة عند ذوى الالباب بلاء عند الجهال : ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه إلاأنه شاف من الامراض والاسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبى الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعدّه فين شاف من الحجامة والاب يدعوه إليها ، فإن الاب لكال عقله يلم العافية ، والام لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه الاب لكال عقله يلم العافية ، والام لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه

⁽۱) حدیث و سیکون علیکم أمماه یفسدون و مایصلح افته بهم أكثر ... الحدیث، أخرجه مسلم من حدیث أم ساه و بستمعل علیکم أمماه فتمرفون و تنسكرون ، ورواه الترمذی بافظ و سیکون علیکم أثمة ، وقال حسن صحیح ،وابرار بسند ضعیف من حدیث ابن عمر و السلطان ظل افته فی الأرض بأوی المیه كل مظاوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان علی الرعبة الشكر ، ولن جار أو حاف أوظام كان علیه الوزر وعلی الرعبة الصبر ، واما قوله و ومایسلح الله بهم أكثر ، فلم أجده بهذا الفقط ، لملا أنه یؤخذ من حدیث بن مسعود حین فزع الیه الناس الما أنكروا سیرة الولید بن عقبة فقال عبد الله : اصبروا فإن جورلمامكم خسین سنة خیر من هرج شهر ، فإنی سمت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقولی ــ فذكر حدیثا فیه و والإمارة الفاجرة خیر من الهرج ، رواه العلبرانی فی الكبر بإسناد لاباس به .

ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الآب عدوًا له ؛ ولو عقل لعلم أن الآم عدوًا باطنا في سورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآ لام أشد من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدّو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدة .

(قسمة ثانية) اعلم أن الاسباب الدنيوية عنتلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلها يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والافارب والجاه وسائر الاسباب ، ولكن تنقسم إلى مانفعه أكثر من ضره كقدرالكفاية من المال والجاه وسائر الاسباب ، وإلى ماضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافى ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالاشخاص ؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الحنيرات ، فهو مع هذه التوفيق نعمة فى حقه ، ورب انسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغراله شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الحذلان بلاء فى حقه .

(قسمة ثالثه) اعلم أن الحيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته لالنه ولغيره ، فالآول : ما يؤثر لذاته لالغيره : كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لتاته ، وبالجلة سعادة الآخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب لذاتها ، الثانى : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته : كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لاتنقضى بها لمكانت هى والحصباء بمثابه لغيره ولا غرض أصلا في ذاته : كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لاتنقضى بها لمكانت هى والحصباء بمثابه واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال مجبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول مجبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والصنلال الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره : كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسبها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصداً يضالذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فإن الإن الغيره كالنقد بن فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما فعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه ما يكونان فعمة في حرورة حياته ، استوى عند الذهب والمدر ، فيكان وجودها وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عند الذهب والمدر ، فيكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربيا شعلة واحدده ، بل

(قسمة رابعة) اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذى تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذى يفيد في المآل ، والجميل هو الذى يستحسن في سائر الاحوال : والشرور أيضا تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ، فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحسكة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحسكة ، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الجسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم في تجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أوبترك

الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة . الضرب الثانى : المقيد ، وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيت كالحق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لاعقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق ، فإيه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها . والنافع قسمان : ضرورى كالإيمان وحسن الخلق فى الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما ألبتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء ؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قسمة خامسة) اعلم أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعضالحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنمــا يستلذها القلب لا ختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل ، وهذه أقل اللذات وجودا وهي أشرفها ، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العـلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلانها لازمة لاتزول أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فالطعام يشبع منه فيمل ، رشهوه الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصوّر أن تمل وتستثقل ، ومن قدر على الشريف الباق أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لا محتاج إلى أعوان وحفظة مخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرسالمـــال ، والعلم يزيد بالإنفاق والمسال ينقص بالإنفاق ، والمسال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتذ إليه أيدىالسراق بالاخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الامن أبدا ؛ وصاحب الممال والجاه في كرب الحوف أبداً ، ثم السلم نافع ولذبذ وجميل في كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المــال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم • فإما لعدم الذوق فن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإمالفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب أتباع الشهوات ، كالمريض الذي لايدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرصيح الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولايستلذ إلااللمن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الاشياء ، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يحي باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة بانباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الاحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالابدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجود في الاسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة . مايشارك قيهاسائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا وهيأخسها ، ولذلك اشترك فيهاكل مادب ودرج حتى الديدان والحشرات ، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغُلبة ، وهو

أشدِّما التصاقا بالمتغافلين ، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعمالي ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذة رتية الصديقين ، ولا ينال تمامها إلابخروج استيلاءحب الرياسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره بمــا يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون: فأما قمعها بالكلية ـ حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الاحوال فيشبه أن يكون خارجًا عن مقدور البشر . نعم تغلب لذة معرفة الله تعالىفأ حوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ، ولكن ذلك لايدوم طول العمر بل تعتريه الفتراتفتمودإلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعندهذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلبلايدرى ما لذة المعرفة وما معنى الآنس بالله ولمنمسا لذته بالجساء والرياسة والمسال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الآنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الاحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفاب البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة •أماالا ول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد . وأما الثاني فالدنيا طالحة به . وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصوّر أن يكون ذلك نادراً شاذاً ، وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة ، وإنمـا تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ٬ فلا يزال يزداد العهدطولا وتزدادمثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإنميا وجب أن يـكون هذا نادراً لا نه مبادى ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لايكثرون ، فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناسمن دونهم ، فكذا في ملك الآخرة ، فإنّ الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لاترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أوَّلا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ؛ فالقلب التابع في الوجود متبوعا فيحق المعرفة والقلب المتأخر متقدّماً ؛ وهذا نوع من الانعـكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم،فكذلكعالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعتبروا يا أولى الابصار﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوءناراً من شأنها أن تطلع على الافتدة ، إلا أن بينه وبين إدرا ك ألمها حجابا ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لايسكون إلاف\آخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أى في الدنيا ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى في الآخرة ، فإذن قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عريزا كالشخص الصالح لملك الدنيا .

(قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم أنَّ النعم تنقسَم إلى ماهي غاية مطلوبة لذاتها وإلىماهيمطلوبة لأجل

الغاية ؛ أما العاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعه أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغني لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا عيش إلا عيش الآخرة (١١) ، وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس ، وذلك في وقت حفر الحندق في شدّة الضر ؛ وقال ذلك مرة في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع (٢) . وقال رجل : اللهم إنى أسألك تمــام النعمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . وهل تعلم ماتمام النعمة ؟ قال :لا . قال « تمـام النعمة دخول الجنة (٢^{١)} » ·

وأما الوسائل فتنقسم إلى الآفرب الآخص كفضائل النغس؛ وإلى مايليه فىالقرب كفضائل البدن وهو الثانى ، و إلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المسأل والآهل والعشيرة ؛ وإلى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عنالنفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهي إذن أربعة أنواع : (النوع الأوّل) وهو الآخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمــان وحسن الحلق ، وينقسمُ الإيمــان إلى علم المسكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينتسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ولايقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسانرسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تمالى ﴿ أَن لا تطغوانى الميزان وأفيموا الوزن بالقسطولاتخسروا الميزان﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أوترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكرفقد أخسرالميزان . ومن انهمَك في شهوة البطنوالفرجفقد طغيفي الميزان ، وإنمــا العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولايتم هذا في غالب الأمر إلابالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة : الصحة ، والقوّة ، والجمال ، وطول العمر ولاتتهيأ هذه الأمور الاربعة إلابالنوع الثالث وهي النعم الخارجةالمطيفة بالبدنوهي أربعة : المـالـوالآهل ، والجاه ، وكرمالعشيرة ، ولاينتفع بشيءمنهذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الاسباب الى تجمع بينهاوبينما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده. فجموعهذه النَّعم ستةعشر إذا قسمناها إلىأربعة وقسمناكل واحدة من الاربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلىالإيمــان وحسن الخلق إذ لاسبيل إلىالوصول إلىسعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ماسعى وليس لاحد في الآخرة إلاماتزودمن الدنيا ، فكذلك حاجةالفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الآخلاق إلى صحة البدن ضرورى : وأما الحاجة النافعة على الجلة فكحاجة هذهالنعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المــال والعز والآهل ، فإن ذلك لو عدم ربمــا تطرق الحلل إلى بعض النعم الداخلة .

ه فأن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الحارجة من المال والاهل والجاء والعشيرة ؟ فاعلم أنَّ هذه الاسباب جارية بحرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للنقصود . أما المسال فالفقير في طلب العلم والكمالوليس

⁽١) حديث قوله صند حفر الحندق ﴿ لاعيش اللَّا عَيْشِ الْآخَرَةِ ﴾ متفق عليه من حديث ألس .

⁽٢) حديث قوله في حجة الوداع « لاعيش ألا عيش الآخرة » رواه الفاقعي مرسلا ، والحاكم متصلا وصحه ، وتقدم في الحج (٣) حديث قال رجل : اللهم أني أسألك تمسام النعمة ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن .

له كفاية: كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، نعم المال الصالح للرجل الصالح (١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، نعم العون على تقوى الله المال (١٢) ، وكيف لاو من عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب الاقوات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرّض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولاتندفع إلابسلاح المال ، ثم معذلك يحرم عن فضيلة الحمج والزكاة والصدقات وإفاضة الحيرات .

وقال بعض الحسكاء ـ وقد قبل له ما النعيم ؟ فقال : الغني فإني رأيت الفقير لاعيش له . قيل : زدنا ! قال : الامن ، فإنى رأيت الخائف لاعيش له . قيل : زدنا ! قال : العافية ، فإنى رأيت المريض لاعيش له. قيل : زدنا ! قال : الشباب ، فإنى رأيت الهرم لاعيش له . وكأنّ ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه مِعين على الآخرة فهو لعمة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ', من أصبح معانى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٢) ، وأما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال صلى الله عليه وسلم دنعم العون على الدين المرأة الصالحة(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم في الولد ، إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له ... الحديث ، (٥) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح. وأما الآقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الآعين والآيدى فيتيسر له بسبهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه مالو انفرد به الطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والصيم ، ولا يستغنى عنه مسـلم فإنه لاينفك عن عدق يؤذية وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشخل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، ولمنما تندفع هـذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لامعنى للغـنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الآذي عنمه ، فكما يحتاج إلى سقف يدفع عنمه المطر ، وجبة تدفع عنمه البرد ، وكلب يدفع الذُّتب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصدكان الآنبياء الذين لاملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عنـدهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لاعلى قصــد التناول من خزا تنهم والاستثثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة (٦)

⁽١) حديث « لهم المسال الصالح الرجل الصالح » رواء أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاس بسند جيد .

⁽۲) حديث « لعم الدون على تقوى الله المسآل » رواه أبو منصور الديلمي في «سند الفردوس من رواية محمد بن المنسكدر عن جابر ، ورواه أبو الفاسم البنوى من رواية ابن المنسكدر ممسلا : ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا ممسلا (۳) حديث « من أصبيح معافى في بدنه آمنا في سربه ... الحديث » أخرجه البرمذي وحسنه » وابن ماجه منحديث عبيدالله ابن محسن الألساري » وقد تقدم ، (٤) حديث « لهم الدون على الدين المرأة الصالحة » لم أجد له لمسنادا ،ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . (٥) حديث « لذا مات العبد القدلم عمله لامن ثلاث ...

⁽٦) حديث ماناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى آفتقر لملى الهرب والهجرة . رواه البخارى ومسلم منحديث عائشة أنها قالت النبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال « المد الهيت من قومك وكان أشد مالفيت يوم العقبة لم ناسبة المنه على أبن هبدياليل . . . الحديث ، والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس « لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ==

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الآهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والآئمة من قريش (١) ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام (٢) وقال صلى الله عليه وسلم و إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : وقال صلى الله عليه وسلم و إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال و المرأة الحسناء فى المنبت السوء (٤) ، فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحسين والآبرار المتوسمين بالعلم والعمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول: لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، أفضل السمادات طول العمر في طاعة الله تعالى (*)، وإنما يستحقر من جملته أمرا لجال قل صلى الله عليه وسلم ، أفضل السمادات طول العمر في الحقول الحليل الحال المناء ولكنه من الحيرات أيضا : أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما في الآخرة فن وجهين (أحدها) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجيل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع ، فكا نه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجيل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثانى : أن الجمال في الآكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخسبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عقل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا : الوجه والعين مراة ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا مو ألكن ، فالمعن من الديوان وقال : الوح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن فعصاحة ، مو ألكن ، فالمعن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ، اطلبوا الحير عند صباح الوجوه (١٠) ، وقال عمر وهذا ليس له ظاهر و لا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ، اطلبوا الحير عند صباح الوجوه (١٠) ، وقال عمر

⁼ ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أنى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلالطعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه لمبط بلال » قال الترمذى : معنى هذا حين خرج الذي سلى الله عليه وسلم هاربا عن مكة ومعه بلال . والبخارى عن عروة قال : ألله عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المصركون برسول الله سلى الله عليه وسلم قال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء الى الذي سلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه خنقا شديدا ، لجاء أبو بكر فدفهه عنه . . . الحديث . والبزار وأبيه لى من حديث أنى قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه ، فقام أبو بكر لجمل ينادى : ويله مم أتقالون رجلا أن يقول ربيالله ولمناده صحيح على شرط مسلم : (١) حديث « الأعقدن قريش » رواه النسائي والحاكم من حديث أنى بإسناد صحيح (٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأسل ، هذا معلوم ، فروى عسلم من حديث واثلة بن الأسقم مم فوعا « لمن الله اصطفى كنانة من ولد اسمبل ، واصطفى قريشامن كنانة ، واصطفى من قريش عاملهم ، واصطفائي من بن هاهم » وفي رواية الترمذى « لمن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسميل » وله من حديث ابن عباس و ما بال أقوام ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه « ان الله خلى الحلي لجملني من خبرهم » وفي حديث ابن عباس « ما بال أقوام ابتذلون أملى ، فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخبرهم موضا » (٣) حديث «غيروا انطف كم أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في الند كاح . (٤) حديث و فريعة و المحديث ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم في الند كاح . (٤) حديث « ايا كم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضاً .

رسال الله على السلامة علول العمر في عبادة الله » غريب بهذا الفنط ، والمترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلا قال :. يارسول الله ، أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح .

يرسول المدينة و اطلبوا الحير عند حسان الوجوم ، أخرجه أبو يهلى من رواية اسمدل بن عياش عن خيرة بنت محدين البت بن سباع عن أمها عائشة ، وخيرة وأمها الأعرف عالما ، ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء ، والبيهتي في الشب من حديث ان عمر ، وله طرق كلها ضميفة .

رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة ، وقال تعالى ممتنا بذلك ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ولسنا نعنى بالجمال مايحرك الشهوة فإن ذلك أنوئة ، وإنمها نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه .

ه فإن قلت : فقد أدخلت المـال والجاه والنسب والأهل والولد في حير النعم ، وقد ذم الله تعالى المـال والجاه، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وكذا العلماء . قال تعالى ﴿ إِنَّ مِن أَزُواجِكُمْ وأُولادكم عدَّوا لكم فاحذروهم ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما أموالكم وأولادكمفتنة ﴾ وقال على كرّم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرئ مايحسنه . وقيل : المرء بنفسه لابأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟ فاعلم أن من يأخـذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤوّلة والعـمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على مامي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها ، إلا أنّ فيها فتنا ومخاوف ؛ فمثال المــال مثال الحـية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإنأصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللَّاليُّ ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإنخاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال وسهاه خسيرا ، ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال . نعم العون على تقوى الله تعالى المـال ، وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدبن كاه وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولـكنالمنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذم المال والجاء كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاء ، إذ الرياء مقصوده اجتــــلاب القـــلوب . ومعنى الجامماك القلوب ، وإنماكثر هـذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المـال وطريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولوكانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحسد لما تصور أن ينضاف إلىالنبوة الملككا كان لرسولنا صلى الله عايه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغني كما كان لسليمان عليه السلام : فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والانبياء والعارفون معزمون، فقد يضر الصبي مالا يضر المعسزم. فعم المعزم لوكان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنهلو أخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآما ليلعب بها فيهلك ، فله غرض في النرياق وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً ، ولو أخــذها لاخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآما ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرُّفه أنَّ فيها سما قاتلا لاينجو منه أحد ولا يحدَّثه أصلا بمـا فيها من نفع الترياق ، فإنَّ ذلك ربمـا يغرُّه فيقدم عليه من غير تمـام المعرفة . وكذلك الغرّاص إذا علم أنه لو غاص في البحرّ بمرأى من ولده لاتبعه وهلك .

 ⁽۱) حدیث ذم المسال والحاه . أخرجه الترمذی من حدیث کمب بن ۱۰۵ ه ماذئبان جائمان أرسلا فی غنم بأفسد لها من حب
 المسال والصرف لدینه » وقد تقدم فی ذم المسال والبخل .

فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل. فواجب عليمه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الامة في حجر الانبياء عليهم السلام كالصبيان الاغبياء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . [بمـاأنالـكممثل الوالد لولده ١١٠ ، وقال صلى الله عليه وسلم . إنما تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخــُد بحجزكم ٢٠١ ، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك ، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على ة ر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه ، فإن الإنفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم ، ولو فتح للناس باب كسب المسال ورغبوا فيه لمسالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، ، فلذلك قبحتُ الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها ؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضلإلى الخيراتفليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لايحمل إلا بقدرزاده فىالسفر إذا صمم العزم على أن يختص بمــا يحمله ؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام , ليكن بلاغ أحدكم من الدنياكزاد الراكب (٣) , معناه لانفسكم خاصة ولا فقد كان فيمن يروى هـذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه وإلا يمسك منها حبة . ولمما ذكر رسولالله صلىالله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدّة استأذنه عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عنجميع ما يملكه ، فأذن له فنزل جبريل عليهالسلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف (^{۱)} ... الحديث فإذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائهــا ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها ؛ فن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرارعن مظان الاخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئًا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والثأييد والتسديد؟ فاعلم أن التوفيق لايستغى عنه أحد: وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشروماهو سعادة وماهو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فحصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قبل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده فأما الهداية فلا سبيل لاحد إلى طلب السعادة إلا بها ، لان داعية الإنسان قد تكون ماثلة إلى مافيه صلاح آخرته

⁽۱) حدیث د انسا آنا لسکم مثل الوالد لولده » أخرجه مسلم من حدیث أبی هریرة دون قوله د لولده » وقد تقدم ،
(۲) حدیث د انسکم تها فتون علی النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزکم » متفق علیه من حدیث أبی هریرة یلفظ دمثلی و مثل الناس » وقال مسلم د و مثل أمنی کشل رجل استوقد نارا لجعلت الدواب والفراش یقمن قیه فأنا آخذ بحجزکم وأنتم تقتصون فیه » ولمسلم من حدیث با الاغ أحدیم من الدنیا کراد ولمسلم من حدیث با الاغ أحدیم من الدنیا کراد راکب » أخرجه این ماجه و الماکم من حدیث سلمان لفظ الماکم وقال د بلغ » وقال د مثل زاد الراکب » وقال صحیح الإسناد قلمت : هو من روایة أبی سفیان عن أشیاخه غیر مسمین وقال این ماجه د عهد الی أن یسکنی أحدکم مثل زاد الراکب » و الماکم و الما

⁽٤) حديث استندان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جبيع ما علمك لمسا ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال : مهه أن يطعم المسكين ... الجديث أخرجه الحساكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صبح الاسناد ، فقد : كلا ، فيه خالد بن أبي ماك ضيف جدا .

ولكن إذا لم يعلم مافيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة ؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ، ولذلك قال تعالى ﴿ رَبَّنَا الذِّي أَعْطَى كُلُّ شِّي خَلْقَه ثُم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليه كم ورحمته ما زكى منه من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم . ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمةالله تعالى ، أى بهدايته ، فقيل : ولا أنت يارسولالله ؟ قال . ولا أنا (١) . وللهداية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وأما ثَمُود فهديناهمُ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هي الكتاب والرسل وبصائر العقول ، وهي مبذولة ولا يمنع منهـــا إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التي تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فَإِنهَا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ومن جلة المعميات : الإلف والعادة وحب استصحابهما ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إِنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل منالقريتين عظيم ﴾ وقوله تمالى ﴿ أَبْشُرَا مِنَا وَاحْدًا نَتْبُعُهُ ﴾ فهذه الممياتُهيالتي مندت الاهتداء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهي ثمرة الجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ والهدايه الثالثة وراءالثانية : وهوالنور الذي يشرق في عالمالنبقة والولاية بعد كال المجاهدة ، فيهتدى بها إلا مالا يهتدى إنيه بالعقل الذي يحصل به التـكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدّمات؛ وهو الذي شرفهالله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإنّكان الكلمن جهته تعالى ، فقال تعالى ﴿ قُلْ إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ وهوالمسمى حياة في قوله تعالى ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشيبه فيالناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أَفَن شرح الله صدره الإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية الئي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقوبه على مافيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدَ آتَيْنَا لِمُرَاهِمِ رَشَدُهُ مِن قَبَلُ وَكَنَا بِهِ عَالَمِينَ ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصي إذا بلغ خبيراً بحفظ المـال وطرق التجارة والاستنهاء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنهاء لايسمى رشيدا الالعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزبها عن الجاهل الذي لايدري أنه يضره ولكن ماأعطى الرشد ، فالرشد هذا الاعتبار أكمل من بجرّد الهداية إلى وجوه الاعمال وهي لعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرّدها لا تبكني ، بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشدوالرشد لايكني ، بللابدّمن تيسرا لحركات بمساعدة الاعضاءوالآلات حتى يتم المرادماانبعث الداعية إليه فالهداية محض النعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستقيظ وتتحرّك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الاعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للسكل، وهو عبارة عن تقوية أس، بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الاسباب من خارج ، وهو المرادبقوله عزوجل ﴿ إِذْ أَيْدَتُكُ بِرُوحُ القَدْسُ ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهي

⁽۱) حديث ه مامن أحد يدخل الجنة الا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبي حريرة « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا ولاأنت يارسول الله ؟ قال ه ولاأنا الا أن يتنمدنى الله بفضل منه ورحمة » وفي رواية لمعلم « مامن أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » واتفقا عليه من حديث عائشة ، وأنفرد به مسلم من جديث جابر وقد تقدم .

عبارة عن وجود إلهى يسبح فى الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشريصير كافع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهذه هى مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير المراعى المتواضع والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعزالذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء، ويستدعى كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر أسبابا، وتستدعى تلك الاسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الارباب ومسبب الاسباب، وإذا كانت تلك الاسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإنه التوفيق .

بيان وجه الانموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الآكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الآكل فلا يخني أن الآكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابدلها من جسم متحرك هو آلتها ، ولابد لهامن قدرة على الحركة ، ولابدمن إدادة للحركة ، ولابد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد لله أكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صافع يصلحه ؛ فانذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب الما كول على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أنّ الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى ؛ فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهى له آلات ، فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ،ثم تتسعب، ولا ترال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر ، إلا أنّ النبات مع هذا الكال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر ، فإنّ الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فن نعمة الله تعالى عليك أن خلق الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فن نعمة الله تعالى في خلق الحواس الخس خلق الله هي آلة الإدراك ، فأو لهما حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرفة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس عيوان ، وأ نقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه ، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس فليس عيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه ، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة ، وهذا الحس موجود لمكل حيوان ، حتى الدودة التى في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت المهرب ، لا كالنبات فإن الناب يقطع فلا ينقبض إذ لايحس بالقطع ، إلا أنك لولم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية ، فتحتاج إلى أن تطوف كشيرا من الجوانب فربماً تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لولم يخلق لك إلا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لولم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوًا لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدق فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لاتدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا ، وأما الغائب فلايمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك ، وميزت بفهم السكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يغنيك لولم يكن لك حس الدوق ، إذ يصل الغذاء إليك فلاتدرك أنه موافق لك أو عنالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب في أصلهاكل مائع ولا ذوق لهما فتجذب ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك لا يكفيك لولم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخس وتجتمع فيه ، ولولاه لطال الامر عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئًا أصفر مثلاة وجدته مرّا يخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولاً لحسالمشترك، إذالعين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع والذوق يدركالمرارة ولايدركالصفرة ، فلا بدّمن حاكم تجتمع عندهالصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أردت الصفرة حكم أنه مرفيمتنع عن تناوله ثانيا ، وهذا كله تشاركك فيه الحيو انات ، إذللشاة هذه الحواس كلها ؛ فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً ؛ فإنّ البهيمة يحتال عليهافتؤ خذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت ، وقدتلق نفسها في برولا تدرى أن ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها فى الحال فتمرض وتموت ، إذ ليسلما إلاالإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا، فيزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من السكل وهو العقل ، فبه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في الحال والمسآل، وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقاك في الاكل الذي هوسبب صحتك وهو أحسن فو ائدالعقل، وأقل الحسكم فيه بل الحسكة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحسكمة في عالمه ، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخس في حقك ، فتكون الحواس الخس كالجواسيس وأصحاب الآخبار الموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأس تختص به ، فواحدة منها بأخبار الألوان ، والآخرى بأخبار الاصوات ، والآخرى بأخبار الروائح ، والاخرى بأخبار الطعوم ، والاخرى بأخبار الحرّ والبرد والحشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها ، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك ، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمُها ، إذليس لهإلا أخذها وجمعها وحفظها ؛ فأما معرفة حقائق مافيها فلا ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الآمير والملك سلم الإنهاءات إليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحمكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرِّك الجنود وهي الأعضاء: مرة في الطلب وَمَرَة في الحرب ومرة في إتمــام التدبيرات التي تعنّ له،

فهذه سياقة لعمة الله عليك في الإدراكات ، ولا تظنن أنا استوفيناها ؛ فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولحل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب ، ولو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم ، فهذا في حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس ؛ بل لا يمكن أن تستوف حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة ، مع أنّ جملته لا تزيد على جوزة صغيرة ؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامن إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى: في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لسكان البشر معطلا ، فسكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبق البصروالإدراك معطلا في حقه ، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمىكراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة ؛ فخلق القاتعالى فيكشهوة الطعام وسلطهاعليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى الغذاء ، وهذا بما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ، ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق الله لك الكرامة عند الشبع لتترك الآكل بها ، لاكالزرع فإنه لا يزال بجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدى يقدّر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذهالشهوة حتى تأكل فيبق به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبق به نسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعمالي في خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطهالعروق وكيفية انقسام مقمر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقه ثم عظا و لحـاً ودما ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الاعضاء: لقضيت من أنواع نعمالله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلا عما تراه الآن ، ولكنا لسنا نريد أن نتعرَّض إلا لنعم الله تعـَّالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام ؛ فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب ، فلولم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للآفات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلا مايضر وينفع في الحال ، وأما في المـــآل فلا تكني فيه هذه الإرادة ، فحلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل، إذكان بجرَّد المعرفة بأن هـذه الشهوة مثلاً تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينيا، وفصلناه في كتاب الصدر تفصيلا أوفي من هذا .

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة و آلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لهـا إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لاكفاية فيه مالم تكنُّ فيك آلة الطلب والهرب ، فسكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لايمكنه أن يمشي إليه لفقدرجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما ، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتسكون حركتها بمقتضىالشهوة طلبا وبمقتضىالكراهية هربا ، فلذلك خلق الله تعالى لكالاعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها ؛ فنها ماهو للطلب والهربكالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب، ومنها ماهو للدفع كالأسلحة الإنسان والقرون للحيوان، وفى هذا تختلف الحيوانات آختلافا كثيرا ۽ فنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاًوه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق لهالجناح ليطير بسرعة ، ومنها ماخلق له أربع قوائم ؛ ومنها مالهرجلان ، ومنهاما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بهايتم الاكل فقط ليقاس عليها غير هافنقول : رؤيتكالطعام من بعد وحركتك إليه لاتكنى مالم تتمكن من أن تأخذه ؛ فأفتقرت إلى آلة باطشة ؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الآشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتُمتذو تنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة : ثم جمل رأس اليد عريضا بخلق الكف ؛ ثم قسم رأس الكف بخسمة أقسام هي الاصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور علىالاربعة الباقية ، ولو كانت بجتمعة أو متراكة لم يحصل بها تمسام غرضك فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإنجمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض، ثم خلق لها أظفارا وأسندإليها رءوس الإصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تحويها الاصابع فتأخذها برءوس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالميصل إلى المعدة وهي فىالباطن ، فلابد وأن يكون من الظاهردهليز إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحسكم السكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمتين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس العليا على السفلي لتطحن بهما الطعام طحنا ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك ، فقسم الاسنان إلى عريضة طواحين كالاضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للنكسر كالانياب ، ثم جُعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الآعلى دوران الرحى ، ولولا ذلك لمـا تيسر إلا ضرب أحدهماعلى الآخرمثل تصفيقاليدينمثلا ، وبذلك لايتم الطحن . فجعل اللحي الاسفل متحركا حركة دورية ، واللحي الاعلى ثابتاً لا يتحرَّك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الحلق فيثبت منه الحجر الاسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى ، إذ يدورمنه الاسفل على الاعلى ، فسبحانه ماأعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في ذيناء الفم فيكيف يتحرّك الطعام إلى ماتحت الاسنان ، أوكيف تستجرّ الاسنان إلىنفسها ، وكيف يتصرف باليدفي داخل الفم ؟ فانظر كيف أفعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الإسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي تُرد الطعام إلى الرحي ،

هذا مع مافيه من فائدة الذوق وعجائب قوّة النطق والحـكم الني لسنا نطنب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلاتقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللماب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصباللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتذ فتجذب الطعام ، فانظر كيفهيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطمام بضغطه فيهوىإلى المعدة ف.دهليز المرىء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظا ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاماحتي تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، فلا زال لابثا فيها ختى يتم الهضم والنضج بالحرار. التي تحيط بالمددة من الاعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ، ومن قدّام التراثب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف المروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لايصلح للتغذية ؛ فخلق الله تعالى بيها وبين الكبد مجارى منالعروق وجعل لهافوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد ، والكبدمعجون من طينة الدمحتي كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطمام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثها يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الاعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هـذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع مايطبخ : إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي ، والآخري شبيهة بالرغوةوهيالصفراء ، ولولم تفصلعنها الفضلتانفسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطحالوجعل لـكلواحد منهما عنقاممدودا إلى الكبدداخلافي تجويفه ، فتجذب المرارةالفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي ، فيبتى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لمــا فيه من المــائية، واولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولاخرج منها متصاعداً إلى الأعضاء ، فحلق اللهسبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجاءب حكمة الله تعالى أنعنقهما ليس داخلافي تجويف الكبد بلمتصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب مايليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذلوا جتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العِروق ، فإذا انفصلت منه المـاثية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الـكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لاتدرك بالابصار ، فيصلمنهاالغذاء بالرشح إلى سائر الاعضاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحرة ، وإن حلتْ بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والمـاليخوليا وغيرها ، وإن لم تندفع المـائية نحو الـكلى حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة : أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف (١٥) - لحياء علوم الدين - ١٠)

بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة من لقة ويحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك . وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصلبها فيه حموضةوقبض ، ثم يرسل منهاكل يوم شيئا إلى فمالمعدة فيحرّك الشهوة بحموضته ويذبهها ويثيرها ويخرجالباقىمعالثفل ، وأماالكلية فإنها تنتذي بمـا في تلك المـاثية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الاسباب التي أعدت للاكل . ولو ذكرناكيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاحضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها ـ لطال الـكلام ، وكل ذلك محتاج إلىه للاكل ولامور أخر سواه، بل في الآدي آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولاشيء منها إلا وفيه حكمة أواثنتان أوثلاثأوأربع إلى عشروزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لوسكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أو لا لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لاتعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لاتعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحار أيضا يعلمأنه بجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرع ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرف الحمار فكيف تقوم بشكر فعمة الله عليك ؟ وهذا الذي رمن الله على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار لعم الله فقط ، فقس على الإجمال ماأهملناه من جملة ماعرفناه حذرا من التطويل ، وجملة ماعرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئًا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعمالى ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نَعْمَةُ اللَّهُ لاتحصوها ﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هـذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخارلطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزءمنأجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في الك الاجزاء مايحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركةوغيرها ، كالسراج الذي يدار فى أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصولهضوء على أجزاء البيت منخلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الاطباء الروح ؛ ومحله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلبله كالمسرجة ، والدم الأسود الذي فباطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت و كاأن السراج إذا انقطع زيته ا فطفاً فسراج الروح أيضا ينطني مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحتر ق فتصير بمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطني السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخارفالقلب قديحتر قبفرط-رارةالقلبفينطني معوجود الغذاء؛ فإنه لايقبلالغذاء الذيبقبه الروح كما لايقبل الرمادالزيتة بولاتتشبث الناربه ؛ وكما أن السراج تارة بنطني بسبب من داخل كماذكر ناه و تارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطني بسبب من داخل وتارة بسبب من خارجوهو القتل ، وكاأن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لايكون إلا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر ۽ فـكذلك الطماء الروح ، وكما أن إلطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، فكذلك الطفاء الروح ؛ وكاأن السراج إذا الطفأ أظلمالبيت كله فالروح إذا الطفأ أظلم

البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح وهى أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضار من وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجاء بصنعه وحكمته ليعلم أنه (لوكان البحر مدادا لحكات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل : فتعسا لمن كفر بالله تعسا ؛ وسحقا لمن كفر نعمته سحقا .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال وقل الروح من أمرربي (١) ، فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح ، فإنَّ الروح يطلق لمعان كثيرة لانطوَّل بذكر ما نحن إيمها وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الاطباء روحا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الاعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الاعضاء به ، ختى إذا خدر بعض الاعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة فى بحرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الحندر بل منابت الاعصاب ومواقع السدّة فيهــا ويعالجونها بمــا يفتح السدّة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذفي شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الاعضاء ومايرتتي إليه معرفة الاطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الاصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولارخصة فى وصفه إلا بأن يقال: هوأمر ربانيكا قال تعمالي ﴿ قُلُ الرُّوحِ مِن أَمَرٍ رَبِّي ﴾ والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الحلق ، وأما الاوهام والخبالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الاصوات ، وتتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء منوصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرقذلك النور في عالم النبَّرة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبه العقل إلى الوهم والحيال ، وقد خلق الله تعالى الحلق أطوارا ، فـكما يدرك الصي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فـكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراً مما ؛ لآن ذلك طورلم يبلغه بعد ، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية ، فيها يلحظجناب الحق بنور الإيمـان واليقين ، وذلك المشربأعز من أن يكونشريعة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أوَّل الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمرالرباني ؛ فن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولالحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان ، فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ، ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أبن للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الآمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الامر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحرّكها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك في أنَّ خطأه فاحش ، وهذا الخطأ أفحش منه جدًا ، ولما كانت العقول التي بها يحصل التـكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الآمر لم يأذن الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم أن بتحدّث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدرعقولهم ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الامرشيئا ، ولكن ذكرنسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته في قوله تعالى ﴿ من أسرب ﴾ وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى ﴿ ياأيها النفس

⁽١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال « الروح من أمر ربى » متفق عليه من حديث ابن مسمود ، وقد إن تقدم في شرح عجائب القلب إ.

المطمئنة ارجمى إلى ربك راضية مرضيةفادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ ولنرجع الآنإلى الغرض ، فإنالمقصود ذكر نعم الله تعالى فى آلات الاكل .

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الآدي بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الاطعمة كثيرة ، ولله تعالى في خالفها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لاتتناهي ، وذكر ذلك فكل طعام مما يطول، فإن الاطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية ، فانأخذ الاغذية فإنها الاصل، ولنأخذ من جملنها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلنها فنيت وبقيت جائعا ، فما حوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتنضاعف حتى تني بتهام حاجتك ا فحلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك ، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لانه يغتذي بالمـا. ويجتذب إلى ماطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب ، ولسنا نطنب في ذكرآ لات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ، ولُـكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الحشب والتراب لايغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لاتفتذى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها إلا هواء ، وبجرد الهوا. لا يصلح لفذائها ، ولو تركنها في الماء لم تزد ، ولو تركنها في أرض لا ماء فيها لم ترد، بل لا بد من أرض فيها ماء عترج ماؤها بالأرض فيصير طينا، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا المساء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ... ﴾ الآية ؛ ثم لا يكني المــاء والتراب ، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها في أرض رجوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثم الهواء لايتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلىريخ تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لوانح ﴾ وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والارض ، ثم كل ذلك لايغنيك لوكان في برد مفرط وشتاء شات ، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فأنظر إلى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج المساء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والميون والانهار والسواق ، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الانهار ، ثم الارض ربما تكون مرتفعة والميا. لاترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرباح عليها لتسوقها الذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال حوامل بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضى فى وقت الربيع والحزيف على حسب الحاجة ، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا ، فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لايمكن إحصاؤها ، وأما الحرارة فإنها لانحصل بين المساء والارض وكلاهما باردان ، فأنظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر ، فهذه إحدى حكم الشمس ــ والحسكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه ا نعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضب الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ١ ولذلك لوكانت الاشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تمكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولانطول فيما لامطمع في استقصائه ، بل نقول : كلكوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لاتني قوة البشر بإحصائها ، ولو لم يكن كذلك لـكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ رَبُّنَا مَاخُلَقْتُ هَذَا بَاطُلَا ﴾وقوله عزوجل ﴿ ومَاخُلَقْنَا السموات والارض وما بينهما لاعبين ﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاءً بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحادأجسامه كالاعضاء لهوهي متعاونة تعاونأعضا. بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولاينبغي أن تظن أنّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحامه في أمور جعلت أسبابًا لها بحكم الحكمة _ مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن عـلم النجوم (١١ ، بل المنهى عنه في النجوم أمران (أحـدهماً) أن تصدّق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهـذا كفر (والثاني) تصديق المنجمين في تفصيل مايخبرون عنه من الآثار التي لايشترك كافة الحلق في دركها ، لانهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة البعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ماهو مختلط لايتميز فيه الصواب عن الخطام ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الارض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قدطلعت وحمى النهار والهوا. لايلزمك تكذيبه ولايلزمك الإِنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار ، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها بجهول. فالمجهول لايجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناسكافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر ؛ فإذن الكواكب ماخلقت عبثًا ، بل فيها حكم كثيرة لاتحصى ، ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السهاء وقرأ قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَا خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم . ويل لمن قرأ هـذه الآية ثم مسح بها سبلته 😗 ، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك بمـا تعرفه البهائم أيضا ، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته ، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات عجاءب يطلب معرفتها المحبون لله تعالَى ؛ فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجاءب علمه حباله ، فكذلك الآمر في عجاءب صنع الله تعالى ، فإن العالم

⁽¹⁾ حديث النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم . أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس ه من افتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد مازاد ، والطبراني من حديث ابن مسعودوثوبان « لمذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، ولمسنادها ضعيف ، وقد تقدم في العلم . ولمسلم من حديث معاوية بن الحسكم السلمي قال : قلت يارسول الله ، أمورا كنا فأمينها في الجاهلة كنا نأتي الكهان ! قال « فلا تأتوا الكهان . . . الحديث » .

⁽٢) حديث قرأ قوله تمالى (ربنا ماخاةت هــذاً بإطلا سبعانك فقنا عذاب النار) ثم قال « وبل لمن قرأ هــذه الآية ثم مسع بهـا سبلته ، أى ترك تأملها ، أخرجه الثملي من حديث إبن عباس بلفظ « ولم يتفــكر فيها » وفيه أبو جناب يمين بن أبى

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قاوب عباده ، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده و تعريفه ، كماإذا وأيت لعب المشعوذ ترقص و تتحرّك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محركة لامتحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار ، فإذن المقصود أن غذاه الذات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتم الافلاك إلا بحركانها ، ولا تتم حركانها إلا بملائكة سهاوية يحركونها ، وكذلك يتهادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبها بماذكرناه على ماأهملناه ، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الاطعمة كلها لاتوجد فى كل مكان بل لها شروط يخصوصة لاجلها توجد فى بعض الاماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى ، فافظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الامر شى ، ، بل يخمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهيها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن بأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لوعرفوا ، فافظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغزروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الاطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ! وافظر كيف عليهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ! وافظر كيف عليه الله بلابل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت بسرعة الحركة ، وإلى الحوائج ! وتأمل مايحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وماتحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدًا لحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير يمكن ، ويتهادى ذلك إلى أمو رخارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة

اعلم أنّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل ، وهو كذلك، بل لا بتد في كل واحد من إصلاح وطبخ و تركيب و تنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أهور أخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول ، فلنعين رغيفاً واحدا ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير و يصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض ، فأول ما يحتاج إليه الحارث ليزرع و يصلح الأرض ، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان و جميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسق الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرك والتنقية ، ثم الطحن ، ثم المحين ، ثم الحير ؛ فتأمل عدد هذه الافعال التي ذكر ناها و مالم نذكره ، و عدد الاشخاص القائمين بها ، و عدد الآلات التي يعتاج إليها من الحديد والحشب والحمير وغيره ، وانظر إلى أعمال العناع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والحبز من نجار ، وحداد وغيرهما ا وانظر إلى عاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ا وانظر كيف خلق الله تعالى من نجار ، وحداد وغيرهما ا وانظر إلى عاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ا وانظر كيف خلق الله تعالى

الجبال والاحجار والمعادن ! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ! فإن فتشت علمت أنَّ رغيفاً واحداً لايستدير بحيث يصلح لاكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صافع ، فابتدى من الملك الذي يزجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الاعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الحلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديدة تصلح الإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبرى خسأ وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملا، فلولم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة 1 فانظر إلى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحـدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبانا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثمم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاعنغيرها ؛ فسبحان من ألحق ذوى الابصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان ، فانظر الآن لوخلا بلدك عن الطحان مثلا ، أوعن الحدّاد ، أو عن الحجام الذي هو أخس العال ، أو عن الحائك ، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذي وكيف تضطرب عليك أمورك كلها 1 فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين

إعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين الأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فافظر كيف ألف الله تعالى بين فاويهم وسلط الآنس والحبة عليهم (لو أنفقت مانى الآرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الاسواق والحانات وسائر أصناف البقاع بما يطول إحصاؤه ، تم هذه الحبة ترول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، فني جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك بما يؤدى الحبة ترول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، لللاطين وأمدهم بالقوة والعدة والاكسباب وألق رعهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها الأسواق ، واضطروا الحلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحقاد ينتفع بالقصاب والحباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحراث ، والحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وافضاطهم تحت ترتيب السلطان وجمه ، كا يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وافضاطهم تحت ترتيب السلطان وجمه ، كا يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض . وانظر كيف بعث الانبياء عايهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعزفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الحلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقة العدل بين الحلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقة

ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أر شدوهم إليه من إصلاح لدين ا وانظر كيف أصلح الله تمالى الانبياء الملائكة وكيف أصلح الملائكة بمضهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذي لاواسطة بينه وبين الله تعالى فالحنباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحزاث يصلحه بالحصاد، والحسداد يصلح آلات الحرائة والنجار يصلح آلات الحداثة وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والانبياء إلى أن ينتهى والانبياء إلى أن المنتهى والانبياء إلى أن ينتهى والانبياء إلى أن ينتهى الم حضرة الربوبية الترهى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعمالي (والذين جاهدوا فينا انهدينهم سبلنا) لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نظمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا يحكم القهر والقدرة فقال تعالى (وإن تعدوا بعمة الله لاتحصوها) فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكنا فبقهره انقبضنا ؛ إذ لامعطى لما منع ولا مانع لما أعطى، لانا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) فالحد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار .

الطرف الثامن: في ببان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة: عليهم السلام

ليس يخنى عليك ماسبق من نعمة الله فى خلق الملائدكة بإصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحى إليهم، ولا تظان أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجلة في ثلاث طبقات : الملائمكة الارضية والسهاوية وحملة العرش ، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيها يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون مايجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما . واعلم أن كل جزءمن أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لايغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ماوراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دما في آخر الامر ، ثم يصير لحماً وعظماً ، وإذا صار لحماً وعظما تم اغتذاؤك ، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفةواختيار ، فهى لانتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ، ومجرد الطبع لايكني في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لايصير طحينا ثم عجيناً ثم خبرًا مستديراً مخبوراً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لايصير لحاً وعظها وعروقا وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كهاأن الصناع في الظاهر هم أهل البلد ، وقدأسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة ، فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم · فان الغذاء لايتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من االث يخلع عليه صورةالدم ،ولا بدمن را بع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم ومااكتسب صفة اللحم باللحم حتى لايكون منفصلا، ولا بد من سابع يرعى المقادير فالإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالمريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا ببطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ، فإنه لو جمع مثلامنالغذاء على أنف الصبى مايجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائهاو إلى الالخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته مايليق بكل واحد منها من حيث القـدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل فى القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر وكبرجميح البدن ، فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل وله رجل واحدة كانها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فراعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفترضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن عيل هذه الأمور على الطبع جاهل لايدرى ما يقول ، فهذه هى الملائكة الارضية وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح وفى الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم وذلك فى كل جزء من أجزا تلك الدى لا يتبجزا حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للايجاز ، والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السهاوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السهاوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملائكة الموكلين بالسموات والارض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والاخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والارض والحيوا نات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به .

* فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك ، والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلاكانت أعمال الملائكة باطناكا عال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما منا إلا وله مقام معلوم ﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل ، بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخس، فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الا صوات ولا الشم يراحمها ولا هما يتنازعان الشم ؛ وليس كاليدوالرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفاً فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ، ولذلك نرى الإنسان يطيد ، ونقلة مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير يمكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة المة مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير يمكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة

⁽۱) حديث الأخبار الواردة في الملائسكة الموكاين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحبوانات حتى كل تطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب للى جانب ... ؟ فني الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لحازن السهاء الدنيا : افتح ، وفيه : أنى السهاء الثانية فقال لحازتها : افتح ... الحديث ، ولها من حديث أبي هريرة و لمن تله ملائسكة سياحين يبلغوني عن أمتى السلام » وفي الصحيحين من حديث الشه في قصة عرضه نفسه على عبد بالبل و فناداني ملك الجبال إن شأت أن أطبق عابهم الأخشبين .. الحديث » وفي أبو منصور الديلمي في مسندالفردوس من حديث بريدة الأسلمي و مامن نبت ينبت الا ونحته ملك موكل حتى يحصد ... الحديث » وفيه محد بن صالح الطبري وأبو بحر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف و لمن تقملانسكة يترلون في البسكر اوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاما ضعيف . والطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف و لمن تقالت اليهود كليلة يحسون السكل عن دواب النزاة الا دابة في عنهها جرس » والترمذي وحسنه من حديث ابن عباس : قالت اليهود يا الما القاسم أخيرناعن الرعد قال و ملك من الملائسكة موكل بالسحاب » ولمسلم من حديث أبي هريرة : و بينها رجل بفلاتهمن الأرض سم صونا من سحابة : استى حديقة فلان ، فتنحي ذا ي السحاب فأفرغ ماء في حرة .. العديث » و المعد علوم الدين سه على الدين سه على مونا من سحابة : استى حديقة فلان ، فتنحي ذا ي السحاب ولما على حرة .. العديث » و

لابجال للمعصية في حفهم ، فلا جرم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ويسبحون الليــل والنهار لايفترون ، والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولسكل واحد مقام معلوم لايتعداه ، وطاعتهم لله تعـالى من حيث لابجال المخالفة فيهــم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فإنك مهما جرمت الإرادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الضحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك ، فهذا يشبهه من وجهولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لاعلم له بمـا يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بمـا يعملون ؛ فإذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الارضية والسهاوية وحاجتك إليهما في غرض الاكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ؛ فإنا لم نطول بذكرها ؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم وبجامع الطبقات لايمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد مايدخل تحت مجامع الطبقات ، فإذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرِ الْإِثْمُ وَبَاطَنَهُ ﴾ فترك باطن الإثم مما لايعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واصمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوار ح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث بجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعمالي عليمه في السمموات والأرض وما بينهما ، فإن كل ماخلقه الله تعمالي حتى الملاءمكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصابالدماغهما يتم انخفاض الجفنالاعلىوار تفاع الجفن الاسفلوعلى كلجفنشعورسود، ونعمةالله تعالى في سوادها أنهاتجمع ضوءالعين ، إذ البياض بفرّق الضوءوالسواد يجمعه ، و نعمة الله تعالى في ترتيبها صفاوا حداً أن يكون مانعا للهوام من الدببب إلى باطن العينومتشبثا للأفذاء الى تتنائر في الهواء ،وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها ، وله في اشتباك الآهداب نعمة أعظم من السكل :وهو أنّ غبار الهواء قديمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الاجفان مقدار ماتتشابك الاهداب فينظر من وراءشباك الشعر ، فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء إلى زوايا العين والاجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين ، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعمالي ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الاجفان، ولاتقوم الاجفان إلا بعين ، ولاالعين إلابرأس ؛ ولا الرأس إلا بحميه البدن ، ولاالبدن إلا بالغذاء ، ولاالغذاء إلا بالمساء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ، ولايقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولاالسموات إلا بالملائكة ، فإنّ الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولاملك ولاحيوان ولانبات ولاجماد إلا ويلعنه ، ولذا ورد في الآخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أوتستغفر لهم (١) وكذلكورد أنالعالم يستغفر

⁽١) حديث « ان البقعة الق اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستنفر لهم » لم أجد له أصلا .

له كل شىء حتى الحوت فى البحر (۱) وأن الملائكة يلمنون العصاة (۳) فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكلذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع مافى الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسينة تمحوها، فيتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام ويأيوب مامن عبدلى من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرنى على نعائى قال الملكان: اللهم زده نعا على نعم، فإنك أهل الحمد والشكر، فكن من الشاكرين قريبا فكنى بالشاكرين علق رتبة، وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم،

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعاكثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جرء من أجزاء العالم ، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى في وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ قال : إلى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان : أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها ؟ وكذا ورد فى الآثر : أن من لم يعرف نعم الله فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذا به .

وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإنّ البصير لاتقع عينه فى العالم على شيء ولايلم خاطره بموجود إلا وبتحقق أن نله فيه نعمة عليه ، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع فى غير مطمع .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالحلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسامه : الحمدلله ، الشكر لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عزوجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم فعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعدّه فعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حاز أو فى بثر فيه هواء تقل برطوبة الماء ماتوا غما ؛ فإن ابتلى واحد منهم بشىء من ذلك ثمنجا ربما قدّر ذلك فعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الاحوال ، والنعمة فى جميع الاحوال أولى بأن تسكر فى بعضها ؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره

⁽١) حديث « لمن العالم ليستنفرله كل شيء حتى الحوت في البحر » زهدم في العلم (٢) حديث « ان الملائكة يلعنون العصاة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلمن أحدكم اذا أشار الى أخيه بمديدة وان كان أخاه لأبيه وأمه .

أحس به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الحلق وبذل لهم فى جميع الاحوال فلم يعده الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائمها ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلدبه منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المهال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليم ، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا : فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أنك بحنون ولك عشر آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ ووض بخمسين ألفا ا

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا ، فرأى فى المنام كـأنّ قائلاً يقول له : تود أناأنسيناك من القرآن سورة الآنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف؟ قال : لا ، فعدّد عليه سوراً ثم قال : فعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على بعض الحلفاء وبيده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظنى ! فقال:لولم تعطـهذهالشربة إلاببذل جميع أموالك و إلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : فعم ، فقال : لو لم تعط إلا بملـكك كله فهلكنت تتركه ؟ قال : فعم . قال : فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء .

فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كالها ، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة _ وقد ذكرنا النعم العامة _ فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الحاصة فنقول : مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو فعاكثيرة تخصه لايشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل ، والعلم .

أما العقل. فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الحالى عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فو اجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه، فمن أن يشكره ، لانه إن كان كذلك فهو نعمة فى حقه، فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكره عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبتى فرحه بحسب اعتقاده ويدقى شكره لانه فى حقه كالماق .

وأما الحلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها ، وإنمـا يذمها من حيث يرىنفسه بريثا عنها ، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعـالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالحلق السيىء .

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفسكاره وما هو منفرد به ، ولوكشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فسكيف لو اطلع الناس كافة ا فإذن لسكل عبد علم بأسر خاص لايشار كه فيه أحد من عباد الله ، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخنى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد ؛ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا. وأمانى بعض الأمور فلنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً

لوسلب ذلك منه وأعطى ماخصص به غيره لكان لايرضى به ، وذلك مثل أن جمله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليا لامعيبا ؟ فإن كل هذه خصائص ، وإنكان فيها عموم أيضا فإن هذه الآحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها ، بل له أمور لا يبدلها بأجوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به الحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الاكثر ؟ فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرقضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجلة وإما في أمر عاص ؛ فإذن لله تسال عليه فعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإنكان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيمكون من درنه في الحال لمن دونه الكثر بكثير بما هو فوقه ، فما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقار فها يعتذر إليها بأن في الفساق ليستحظم فعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقار فها يعتذر إليها بأن في الفساق أكثر الخلق في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فما لا يكون نظره في الدنيا كذلك كفإذا كان حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلز مه الدن إلى من هو دونه و نظر في الدين إلى من هو دوقه كتبه الله صابرا ولا شاكرا (١٠) ، فإذن كل من اعتبر حال في الدنيا إلى من هو دوقه وفي الدن كن من اعتبر حال الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ، ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به في ديسه ثم في دنيساه إقبالا فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم , من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله (١) ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام , إن القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه (١) ، وقال عليه السلام , من أناه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم , ليس منا من لم يتغن بالقرآن (١) ، وقال عليه السلام , كنى باليقين غنى (١) ، وقال بعض السلف : يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة , إن عبداأغنيته عليه نعمتى عليه نعمتى : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه ، وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والآمن وأصبحت أخا حرن فسلا فارقك الحرن

⁽۱) حديث ه من نظر في الدنيا الى منهو دونه ونظر في الدين الى منهو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا...الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المثنى بن الصباح ضميف . (۲) حديث ه من لم يستنن بآيات الله فلا أغناه الله علم أجده بهذا الهفظ . (۳) حديث ه ان القرآن هو النناء الذي لاغناء بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يهل والطبراني من حديث ألس بسند ضميف بافظ ه ان القرآن غنى لافقر بعده ولاغنى دونه » قال الدار تعلى رواد أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

⁽٤) حديث و من آناه الله الفرآن فظرأن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله ، أخرجه البخارى في التاريخ من حديث رجاه الدرى بلفظ و من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أونى أفضل ممما أوتي فقد صدر أعظم النم » وقد تقدم في فضل الفرآن ، ورجاء عندا في صحبته . وورد من حديث عبدالله بن عمر و وجابر والبراء نحوه وكلها ضميفة (٥) حديث و ليس منامن لم يتنن بالقرآن » تقدم في آداب التلاوة . (٦) حديث و كان باليقين غني » رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر ، ورواه ابن أبي الدنيا في المقاعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق العبارات وأفصح الـكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى ﴿ فقال من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه : فكمأنمـا حيزت له الدنيـا بحذافيرها (١) ، ومهما تأملت الناسكُلُهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ؛ مع أنها و بال عليهم ولا يشكر ونامعة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لايفرح إلا بالمعرفة واليقين والإبمـان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميـع مادخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضاً عن علىك بل عن عشر عشير علمك : لم يأخذه ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعـالى فى الآخرة ، بل لو قيل له لكفالآخرة ما ترجوه بكاله ، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به ، لـكان لايأخذه، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لاتنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنياكلها ناقصة مُكدّرة مشوشة لايني مرجوها بمخوفها ولالذتها بألمها ولافرحها بغمها ، هكذا كانت إلىالآن ، وهكذا تكون مابتي من الزمان إذ ماخلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول النافصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بهاأبت عليها واستعصت ،كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة ، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فإنّ المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها ، وتألم المعرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الآلم في الآخرة ، فليقرأ المعرض عنالدنياعلى نفسه قوله تعالى ﴿ وَلا تَهْنُوا فِي ابْتَغَاء القوم ، إن تَـكُونُوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ﴾ فإذن إنمـا انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة .

* فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيها رمزنا إليه من أصناف فعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البايدة التي لا آمد النعمة فعمة الا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها ، فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ماكان يفعله بعض الصوفية ، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود ، فسكان يحضر دار المرضى ويشاهدانواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الامراض ويشكر الله تعالى ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على عصمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الاشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله تعالى فليتدارك ، وأمامن أطاع فليزد في طاعته، فإن يوم التيامة أن يوم التغابن ، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فاأعظم غبنى إذ يوم التغابن ، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فاأعظم غبنى إذ يوم التغابن ، فالمور مابق له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهى أهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة يكون قد بتى لهم من العمر مابق له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهى أهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله وهو الترود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعمل العمر لاجله وهو الترود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى العمر لاجله وهو الترود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى العمر لاجله وهو الترود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى التوريش المائة التسمر بنعم الله تعالى العرب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى المائولة لتشعر بنعم الله تعالى القبوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى القبوب الغافلة لتشعر بنعم الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم النوية المرود المائولة المورد المنافلة لتسمر بند من الدنيا للقرود المورد ال

⁽١) حديث « من أصبح آمنا في سربه ... الحديث » تقدم غير مهة .

فعساها تشكر . وقد كان الربيع بن خيثم مع تمـام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة ، فكانقد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا ﴾ ثم يقوم ويقول: ياربيع قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد .

ويما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرفأن النامة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر. وفي الحبر ، ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال (۱۱) ، وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول : ماذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة ، وهــذا يشير إلى أن البلاء لاوجود له أصلا ، فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء . وقدادعي مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصوّر الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على مايصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألمــا والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان ، وما معني ماذكرتموه منأنلة تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجودكما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لانهما متضادان ، ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه : أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى ، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق ومايعين عليهما ، وإلى لعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمـال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق في الآخرة فالبعد من آلله تعالى إما مدّة وأما أبدا . وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لاتكون بلاء في الدين بل في الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لايؤمر بالصبر عليه لآن الكفر بلا. ولا معني للصعر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصى ، نعم الكافر قد لايعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لايتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه ، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية ، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الالم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ماليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ؛ فإن الغني مثلا يجوز أن يكون

⁽١) حديث « ماعظمت نعمة الله على عبد الاكثرت حوائج الناس اليه .:. الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ « الا عظمت مؤنة الناس عليه ، فن لم يحتمل تلك المؤنة... الحديث » ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن حباس وقال : انه موضوع على حجاج الأعور .

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضاكذلك ؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك مامن بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة ؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ، ولوصح بدنه وكثر ماله لبطر وبغي ؛ قال الله تعالى ﴿ وَلُو بُسُطُ اللَّهُ الرَّزِقُ لَعْبَادُهُ لَبِغُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَلَّا إِنْ الْإِنسَانُ لَيْطُغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم , إن الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه (١١) , وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ماذكرناه في الافسام الستة عشر من النعمسوي الإيمان وحسن الحلق فإنها يتصوّر أن تسكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعا في حقهم ، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعمالي ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلا. ويكون فقدها نعمة ، مثاله :جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه ربمـا تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه ؛ وكذلك، جهله بمـا يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاعليه في الدنيا والآخرة ، بل جهله بالصفات المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربمــا يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ، ولو عرف ذلك وآذي كان إنمه لا محالة أعظم ، فليس من آذي نبيا أو ولياو هو يعرف كن آذى وهو لا يعرف. ومنها: إبهام الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامه بعض الكبائر ، فـكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد في حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة في حقه كالآلم الحاصل من المعصية كـقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه بتألم به وهو عاص بهءوألمالـكمفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لاني حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كمـثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة ، ولا يشتَّد فرحهم بالنظر إلى زينة السهاء وهي أحسن من كل بستان لهم ڧالارض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لمـا عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذن قد صحماذ كرناه من أنّالله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذن فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة ، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

ه فإن قلت: فهما متضادان فكيف يجتمعان؟ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح. وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الغافل بهما ويشكر عليها. (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله

⁽١) حديث د ان الله ليحمى عبده من الدنيا ... الحديث ، أخرجه النرمذي وحسنه والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

تعالى وزادما ماذا كان يرده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . (الثاني) أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه : قال رجل لسهل رضي الله تعمالي عنه : دخل اللُّص بيتي وأخذ متَّاعي ! فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه. وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال :اشكر الله ، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي ، فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان المجوسي محتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله ' فقال : إلى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟فإذن ما من إنسان أصيب ببلاء إلا واو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لـكان يرى أنه يستحق أكمثر بما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فانتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ٬ فالافتصار على الرماد نعمة ، وقيل لبعضهم : لا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار 1 فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر .

* فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة بمن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن النكافر قد خبى له ما هو أكثر ، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كا قال تمالى (إنما بملى لهم ليزدادوا إنما) وأما المعاصى فن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تمالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال تعالى فى مثله (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) فن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك . وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر ؛ وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقمها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالقسلى ، إذ أسباب القسلى مقطوعة بالسكلية فى الآخرة عن المعذبين ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله عليه وسلم ، إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم المكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح ، وبعضها أو من جميعها ، فهذه فعمة . (الحامس) أن ثوابها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح ، وبعضها أو من جميعها ، فهذه فعمة . (الحامس) أن ثوابها

⁽۱) حدیث « ان العبد إذا اذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنیا ظائلة أكرم من أن يعذبه ثانیا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حدیث على « من أصاب فى الدنیا ذنبا عوقب به ظائلة أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ... الحدیث » لفظ ابن ماجه أوقال الترمذى « من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنیا » وظل حسن . والشیخین من حدیث عبادة بن الصاحت « ومن أصاب من ذاك شیئا فعوقب به فهو كذارة له ... الحدیث » .

أكثر منها فإن مصائب الدنيـا طرق إلى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنبع من أسباب اللعب نعمة حق الصبي ، فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العسلم والادب ، فكان يخسر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والاعضاء حتى العين التي هي أُعز الاشياء قد تُكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الاحوال ، بل العقل الذي هو أعز الامور قد يكون سببا لهلاكه ، فالملحدة غدا يتمنون لوكانوا بجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دينالله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الحنيرة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا ، كما يشكر الصي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روى أنّ رجلاقال لرسولالله صلىالله عليه وسلم : أوصنىقال.لاتتهمالله شي.قضا،عليك (١١) . ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السهاءفضحك،فسئلفقال،عجبت لقضاءالله تعالى للمؤمن؛ إن قضى له بالسراء رضى وكان خيراله وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له (٢) . الوجه الثاني: أنَّرأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافى بالفلب عن دار الغرور ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلا. ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته ، وإذا كثرت عليه المصائب الزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ١٣٠ . والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأنّ إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خنى ، وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخنى ، بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق ؛ فإذن في البلاء فعم من هذا الوجمه فيهجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضرورى ، وذلك يضاهي فرحك عنـد الحـاجة إلى الحجـامة بمن يتولى حجـامتك بجـانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا بجاما ، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح ، فسكل بلاء في الامور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لامحالة ، فرأى وجهـا حسنا لايخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليــه لأنه يورثه الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفر. عن المقام كانذلك نعمة عليه ، والدنيــا منزل وقد دخلها النــاس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحــد ؛ فـ كل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ، فن عرف هذا تصوّر منهأن يشكر على البلايا ، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر ؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ،

⁽¹⁾ حديث : قال له رجل أوسني قال « لاتهم الله في شيء قضاء عليك » رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله ، وفي لمسناده ان لهيعة . (٢) حديث : نظر الى السهاء فضحك . فسئل فقال « عجبت لقضاء الله المؤمن ... الحديث الحرجه مسلم من حديث صهيب دون لمظره الى السهاء ، وضحكه « عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وايس ذلك لأحد الاللهؤمن ان أصابته سراء سكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » والمسائى في اليوم والليان من حديث سعد بن أبي وقاس « عجبت من رضا الله المؤمن ان أصابه خير حمد ربه وشكر .. الحديث » (٣) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة المكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هربرة ، وقد تقدم .

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزى ابن عماس على أبيه فقال :

> اصبر نكن بك صابرين فإنما ، صبر الرعية بمد صبر الراس خير من العباس أجرك بعده ، والله خير منك للعباس

> > فقال ابن عباس : ماعزانی أحد أحسن من تعزیته .

والاخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآلهوسلم . من يرد الله به خيرا يصبمنه (١) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى . إذا وجهت إلى عبدٌ من عبيدى مصيبة في بدنه أوماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا ، وقال عليه السلام . ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعمالي ﴿ إِنَا لَلَّهُ وَإِنَّهُ إِلَيْهُ رَاجِعُونَ ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله ذلك به ، وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى . من سلبتُه كريمتيه فجزاؤه الحلود في داري والنظر إلى وجهي ، وروى أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لاخير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وأذا ابتلاه صبره (٢) ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لايبلغها بعمل حتى يبتلي ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك (١٣) , وعن خباب بن الارت قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوســـد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يارسول الله ، ألا تدعو الله تستصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال . إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الارض حفيرة وبجا. بالمنشار فيوضع على رأسه فيجمل فرقتين مايصرفه ذلكءن دينه (١٤) ، وعن على كرّم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد ، وإن ضربه فمــات فهو شهيد وقال عليه السلام . من إجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجمك ولا تذكر مصيبتك ، وقال أبوالدرداء رضىالله تمالى عنه : تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يه قى ، ألاحبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿ إِذَا أَرَادُ الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا ، فإذا دعاء قالت الملائكة : صوت معروف وإن دعاء ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبدى وسعديك لا تسألني شيئًا إلا أعطيتكأو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندى ماهو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة جي. بأهل الاعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل

ص ابيه عن جده . ورواه البيه في من روايه مراسم الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل السكمة فشكونا (٤) حديث خباب بن الأرث : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل السكمة فشكونا إليه الحديث ١٠٠ تقدم .

⁽۱) حديث « من يرد الله به خير يصب منه ، رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

⁽۲) حدیث أن رجلا قال یارسول الله ذهب مالی وسقم جسدی نقال و لاخیر فی عبد لایذهب ماله ولایسةم جسده ، لمن الله لذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره ، أخرجه ابن أبی الدنیافی کتاب المرضوالسکفارات من حدیث أبی سمیدالحدری بایسناد فیه لین (۳) حدیث و لمن الرجل لیسکون له الدرجة عند الله لایبلنها بعمل حتی ببتلی بلاه فی جسمه فیبلها بدلای ، رواه أبو داود فی روایة ابن داسه ، وابن العبد من حدیث محمد بن خالد السلمی عن أبیه عن جده ، وایس فی روایة الحؤاؤی . و کذلك لم یرو عنه الا أبو الملبح الحسن بن عمر الرقی ، و کذلك لم یروعن خالد الا ابنه محمد ، وذكر أبو لعیم أن ابن منده سمی جده اللجلاج بن سلیم ، فالله أعلم . وعلی هذا فابنه خالد بن اللجلاج العاص می ذاك مصهور روی عنه جاعة ، ورواه ابن منده وأبو لعیم وابن عبد الله فی الصحابة من روایة عبد الله بن أبی فاطمة فن أبیه عن جده ، ورواه البیهنی من روایة لم براهیم السلمی عن أبیه عن جده فالله أعلم ،

الصلاة والصيام والصدية والحبح ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولاينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية فى الدنيا لوأنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب (۱) ، فذلك قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وعن ابن عباس رضى الله تمالى عنهما قال : شكا نبى من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويحتذب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ، ويكون الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلى مماصيك تزوى عنه الدنيا ؛ فأوحى الله تعالى إليه ، إنّ العباد لى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى ، فيكون تؤمن عايسه من الذنوب ، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنو به ، حتى يلقانى فأجزيه بجسناته فى الدنيا ، حتى يلقانى فأجز به يسمئاته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا ، حتى يلقانى فأجز به يسمئاته .

وروى أنه لما نزل قوله تعالى (من يعمل سوما يجز به) قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست يصيبك الآذى ؟ ألست تحزن ؟ فهذا بما تجزون به (٢) ، يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنو بك . وعن عقبة بن عام نانبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال ، إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أزذلك عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال ، إذا رأيتم الرجل يعطيه أبو اب كل شيء) (١٦) ، يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبو اب كل شيء) (١٦) ، يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبو اب الخير (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) أى بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة .

وعن الحسن البصرى رَحمه الله: أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية ، فكلمها ثم تركها ، فجمل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم في في المناجع في المناجع لله عقوبة ذنبه فى الدنيا (١٠ ، وقال على كرم الله وجهه : ألا أخبر كم بأرجى آية فى القرآن ؟ قالوا : بلى ، فقرأ عليهم ﴿ وماأصابكم من مصيبة فيها كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار ؛ فإذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضى الله تعالى منه عن النبي صلى الله عايه وآله وسلم قال « ماتجزع عبد قط حرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب إلى الله ، وما خطا عبد من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله ، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد و لا يراه إلا الله ، وما خطا عبد من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله ، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد و لا يراه إلا الله ، وما خطا عبد

⁽۱) حدیث الس ه لمذا أراد الله بعبد خیرا وأراد أن بصافیه صب علیه البلاء صبا .. الجدیث » أخرج، ابن أبی الدنیافی کتاب المرض من روایة بکر بن خنیس عن یزید الرقاشی عن آلس أخصر منه دون قوله ه فإذا کان یوم القبامة ... الى آخره » و بکر بن خنیس والرقاشی ضمیفان . ورواه الأسفهانی فی النرغیب والترهیب بتهامه وأدخل بین بکر و بین الرقاشی ضمرار بن عمرو و هو أیضا ضعیف . (۲) حدیث لمما نزل قوله تعالی (من بعمل سوءا یجز به) قال أبو بکر الصدیق : کیف الفرح بعد هذه الآیة ؟ ققال رسول الله صلی الله علیه وسلم « غفر الله لك یا آبا بکر ، ألست تمرض ... الحدیث » ، من روایة سن لم یسم عن آبی بسکر ورواه الترمذی من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه ، قال : و ایس له اسناد صحیح . و قال الدار قطنی : و روی أیضا من حدیث عمر و من حدیث الزبیر ، قال : و ایس فیها شیء یثبت . (۳) حدیث عقم قامی « لمذا رأیتم الرجل بعطیه الله ما یعب و هومه معلی معمدیت فاعلموا آن ذاک استدراج ... الحدیث » رواه أحمد و الطبرانی و البیه ق فی الفعب بسند حسن .

⁽¹⁾ حديث الحسن البصرى في الرجل الذي رأى امرأة لجمل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه سائط ... الحديث ، وفيه ه اذا أراد الله بعبد خيرا مجل له عقوبة ذنبه في الدنيا ، أخرجه أحمد والطبراني بإسناد سميسح من رواية الحسن عن عبد الله من معقل مراوعا ومتصلا . ووصله الطبراني أيضاً من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس ،وقدروى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم (١) . •

وعن أبى الدرداء قال: توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان لجميًا بين يديه في زى الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه، فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لابد للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ،

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يابنى ، لأن تسكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك ، فقال ياأبت ، لأن يـكون ماتحب أحب إلى من أن يـكون ماأحب .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نعى إليه ابنة له ، فاسترجعوقال : عورةسترهاالله تعالى ، ومؤنة كفاهاالله وأجر قد ساقه الله تعالى : قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه بجوسى يعرفه ؛ فقال له : ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم مايفعلها لجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه .

وقال بعض العلماء إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب.

وقال الفضيل إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير .

وقال حاتم الاضم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الاغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم

وروى أن زكريا عليه السلام لمـا هرب من الكفار من بنى إسرائيل واختنى فى الشجرة فعرفوا ذلك ، لجى. بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأنّ منه أنة ؛ فأوحىالله تعالى إليه يازكريا لتن صعدت منك أنة ثانية لامحونك من ديوان البرّة ، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .

وقال أبو مسعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ ربحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل .

وقال لقان رحمالله لابنه : يابني إن الذهب يجرّب بالنار والعبدالصالح يجرّب بالبلاء ، فإذا أحب الله قوماا بتلاهم ، فن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الاحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : ما نمت البــارحة من وجــع الصرس حتى قاتما ثلاثا ، فقال : لقــد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلق وأشك إلى

⁽۱) حديث أنس و ماتجرع عبد قط جرعتين أحب لما الله من جرعة غيظ ردها محلم ، وجرعة مصية يصبر الرجل لها ...
الحديث ، أخرجه أبو بكر بن لان في مكارم الأخلاق من حديث على بنابي طالب دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن سدقة وهو
الفلكي منسكر الحديث . وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد : مامن جرعة أعظم هند الله من جرعة غيظ كفلمها
عبد ابتفاء وجه الله . وروى أبو منصور الديلي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة و ماقطر في الأرض قطرة أحب لمل الله
عزوجل من دم وجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سسواد الليل ، . . الحديث ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفلكي
المنسكر الحديث .

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول: هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول: لاوجه لذلك ، لماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) وكان يقول هو والانبياء عليهم السلام ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (١) ، وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وغيرها (١) .

وقال على كرّم الله وجهه . اللهم إنى أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم , لفد سألت البلامفاسأله العافية (١) ، وروى الصدّيق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال , سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين (١) ، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب عن عافية البدن .

وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لاشر فيه : العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر .

وقال مطرّف بن عبد الله : لأن أعانى فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلي فأصبر .

وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه , وعافيتك أحب إلى (٦) . .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ماهو أكثر منه إما فى الدنيا أوفى الدين ، والآخر بالإضافة إلى ماير جى من الثواب ؛ فينبغى أن نسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع مافوقه من البلاء ، ونسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فإمه قادر على أن يعطى على الشكر مالا يعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الحلق كلهم فينجون وأكون أنا فى النار . وقال سمنون رحمه الله تعمالى :

وليس لى في سواك حظ فكيفها شتَّت فاختبرني

⁽١) حديث : أنه سلىالله عليه وسلم كان يستميذ في دعائه من بلاء الدنياوبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث بصر بن أبي أرطاة بافظ « أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » ولسناده جيد . ولأبى داود من حديث عائشة « اللهم لأنى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة » وفيه بقية وهو مدلس ، ورواه بالمنمنة .

ر (٢) حديث : كان يقول هو والألبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقدا عذاب النار » أخرجه البخارى ومسلم من حديث ألس : كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم آتنا في الدنيا . . . الحديث » ولا بي داود والنسائي من حديث عبد الله بين السائب قال : سممت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ابين الركنين « ربنا آتنا . . . الحديث » (٣) حديث : كان يستعيذ من شمانة الأعداء : تقدم في الدعوات (٤) حديث قال على رضي اللهعنه : اللهم أني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فسله العافية » رواه الترمذي من حديث معاذفي أنماء حديث وحسنه ، ولم يسم عليا ولم عالى : سم رجلا . وله وللنسائي في اليوم واللية من حديث على : كنت ساكنا في ين رسول القد عليه وسلم وأنا أقول . . الحديث . وقيه : فإن كان بلاء فصدر في ، فضر به برجله وقال « اللهم عافه واشفه » وقال حسن صحيح .

^(•) حديث أبى بسكر الصديق « سلوا الله العافية ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد جيد ، وقد تقدم . (٦) حديث « وعافيتك أحب لمل » ذكره ابن استحق فى السيرة فى دعائه يوم خرج لمل العلائف بلفظ « وعافيتك أوسم لى » وكذا رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن منده عن يجهل .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء! فاعلم أمه حكى عن سمنون الحب رحمه الله أمه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول الصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الحلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبالمثل ذلك، فن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في المكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لاحقيقة لها، في اسمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه ، كاحكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عنى _ ولو أردت أن أقلب الكالكونين مع ملك سلمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمعه سلمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يانبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر:

أريد وصاله ويريد هجرى فأثرك ماأريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد مالايريد ، لأن من أراد الوصال ماأراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذى يرده ، بل لايصدق هذا المحلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك فى بعض الاحوال حق يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال محب الممال إذا أسلم درهما فى درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال (الثان) أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته ، فعند ذلك بتصور أن يريدمافيه الرضا، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء معاستشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت ، وإن ثبت مثلا فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا و لجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك ، فقال قائلون: الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون: الشكر أفضل وقال آخرون: هما سيان . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول : فى بيان ذلك مقامان : (المقام الاول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الامر ولايطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة ، وهذا الفن من السكلامهو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم ، والظثر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصي الطفل بالطيور السبان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف ، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الاطعمة إلى أن يصير محتملا لهما بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته فنقول : هذا المقام فى البيان بأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر ، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ماورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر ، أمن فيه ألفاظ

صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم ، من أفضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر (١) ، وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الارض فيقال له : أماترضى أن يجزيك كا جزينا هذا الشاكر ، فيقول : فعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أقعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لاضعفن لك الاجر عليه ، فيقطى أضعاف جزا الشاكر بن (١٦ ، وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وأما قوله ﴿ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (٢) ﴾ فهو دليل على أنّ الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لماكان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم ، الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل (١) ، وكقوله صلى الله عليه وسلم ، شارب الخركعابد الوثن (٥) ، وأبدا المشبه به ينبغى أن يمكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ، الصبر نصف الإيمان ﴾ لايدل على أنّ الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر ﴾ فإنّ كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت ، كا يقال : الإيمان هو العمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوى العلم . وفي يقال : الإيمان هو العلم والعمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوى العلم . وفي أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، آخر الانبياء دخولا الجنة سلمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر ريفا (١) ، وفي الحبر ، أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أبوب عليه السلام (١٥) ﴾ .

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لآن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق والتعريف لمنا فيه صلاح دينهم .

(المقام الثاني) هو البيان الذي نقصد به تعريف أهـل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الـكشف

 ⁽١) حديث « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث: يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض . . . الحديث . المجابر » الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض . . . الحديث (٣) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

⁽٤) حديث ه الجمعة حيج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل ، أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشعار الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، أو الطبراني بالشعار الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضا أن اسرأة قالت : كتبالله الجهادعلي الرجال فل بعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ قال : طاعة أزواجهن . وفي رواية : ماجزاء غزوة المرأة ؟ قال طاعة الروج ... الحديث ، وفيه القاسم بن فياض ، وثقه أبو داود وضعفه ابن سين وباقي رجاله ثقات ، (٥) حديث « شارب الخركمابد الوثن » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « مدمن الحرب » الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر ، وكلاما ضعيف وقال ابن عدى : لمن حديث أبي هريرة أخطأ فيه مجمد بن سليمان بن الأصبهاني .

⁽٦) حديث « آخر الأنباء دخولا الجنة سليمان بن داود لمسكان ملسكه ، وآخر أصابي دخولا الجنة عبد الرجن بن عوف لمسكان غناه » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بآر بمين عاما » وقال : لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة ، وروى البرار من حديث أنس « أول من يدخل الجنة من أغنياء أهى عبد الرحن ابن عوف » وفيه أغلب بن تميم ضعيف . (٧) حديث « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأر بمين خريفا » تقدم حديث معاذقبه ، ورواه أبو منصور الديلي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ، ودينار الحبيمي أحد الكذابين على أنس ، والحديث منسكر : (٨) حديث « أبوات الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فإنه باب واحد . . الحديث لم أجدله أصلا ولا في الأحديث الواردة في مصاريم أبواب الجنة تفرقة ؟ فروى مسلم من حديث ألس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده أن مابين المصراعين من مصاريم الجنة لمكما بين مكم وسعرى وفي الصحيمين في خطبة عتبة بن غزوان : ولقد ذكر نا أن مابين المصراعين من مصاريم الجنة مديرة أربهين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كفايظ من الزحام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالمرازنة حتى يتبين الرجحان . والصبر والشكر أفسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمالفنقول : قدذكرنا أن هذهالمقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم ، وأحوال ، وأعال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك ،وهذهالثلاثة إذاوزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العملوم تراد للاحوال ، والاحوال ترادللاعمال ، والاعمال هي الافضل ؛ وأماأر بابالبصائر فالامرعندهم بالعكس منذلك ؛ فإن الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم؛ فالافضل العلوم ثممالاحوال ثم الاعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه: وأما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قدتتساوى وقدتتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الاحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحادالمعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دونالمعاملة لأنها تراد المعاملة ؛ ففائدتها إصلاح العمل ، وإنمافضل العالم بالمعاملة على العابدإذا كان عليه بمـا يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل؛ وإلافالعلم القاصر بالعمل ليسبأفضل من العمل القاصر ؛ فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذا ته وصفاته، وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها ، فإن السعادة تنال بما بلهي عين السعادة ، ولكن قد لايشعر القلب في الدنيا بأنهاعين السعادة وإنمايشعرها في الآخرة،فهي المعرفة الحرّة التي لاقيد عليها فلا تتقيد بغسيرها . وكل ماعداها من المعارف عبيدوخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنمائراد لاجلها . ولماكانت مرادة لاجلهاكان تعاونها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى : فإن بعضالمعارف يفضي إلى بعض إمابواسطة أو بوسائط كثيرة ، فكما كانت الوسائط بينهوبين معرفةالة تعالى أقلفهي أفضل وأماالاحوالفنعنيها أحوال القلبني تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضحله حقيقة الحق، فإذن فضائل الاحوال بقدرتاً ثيرهافي إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لانتحصل له علوم المكاشفة ، وكماأن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة بعضها أقرب إلىالصقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب هي أفضل بمــا دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود ، وهكذا ترتيب الا عمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الا حوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة الفلب جاذبة إلى زخارف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة المـكاشفة موجبة لصفاء القاب وقطع علائق الدنيا عنه . واسم الا ُول المعصية ، واسمالثاني الطاعة ، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القاب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربمــا نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأنَّ الحج أفضل من الصدقة ، وأنَّ قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أنَّ الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المسال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام ، لا أن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبيع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر إذا لم تبكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هومشتغل بنوع فكر يمنعه الشبيع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمريض الذي يشكو وجم البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به ، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه ، والشمح المطاع من جملة (١٨ _ احياء علوم الدين _ ٤)

المهلكات، ولا يزبل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لايزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدّق بما معه، وتفصيل هذه بما ذكر ناه في ربع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هده الاحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل: الخبر أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق الا أن الخبر للجائع أفضل ، والماء للمعلشان أفضل ، فإن اجتمعا فلينظر إلى الاغلب ؛ فإن كان العطش هو الاغلب فلماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبر أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل: السكنجين أفضل أم شراب اللينوفر ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا: السكنجيين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول: عدم الصفراء ؟ فنه السكنجين مراد له ، وما يراد لغيره فلذلك أفضل منه لاعالة ، فإذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه ، فالافضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل .

• فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لايكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فأعلم أن الطبيب إذا أتنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشيفاء الحاصل به ، ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب عما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لامرآة معه، فإنه لايسعر به ، ولو ذكر له لايصدق به . والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزبل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لاعيب فيه .

ولنضرب مثلا أفرب من هذا : من له ولد علمه العسلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبتى له محفوظا لهال إنه محفوظ ولا حاجة في إلى تكرار ودراسة ، لانه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فريما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الآمر فيقول : مابالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليني به ، وأعلم أن لانقصان لابي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فريما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسي العلم والقرآن وبيق مدبراً محروما من حيث لايدرى ، وقد انخدع بمثل هذا الحيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غي عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا ، فأى معني لقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كا قال تعلى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قبل لم أنفقوا بما وزقكم الله قال الذين كفروا الذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم كا قال تعدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يصل به كثيرا ويهدى به وكثيرا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يصل به كثيرا ويهدى به وكيرا » فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لاحظ انا في المساكين ولاحظ به فينا وفي أموالنا سواء انفةنا أو أمسكنا : هلكواكا هلك الصيكا ظن أن مقصود الوالد استخدامه لاحل ولاحظ به فينا وفي أموالنا سواء انفقنا أو أمسكنا : هلكواكا هلك الصيكا ظن أن مقصود الوالد استخدامه لاحل ولاحظ بقاؤل الموالنا سواء انفقا أو أمسكنا : هلكواكا هلك الصيكا ظن أن مقود الوالد استخدامه لاحل ولاحظ بقالوا الموالنا سواء النفائا أو المسكنا : هلكواكا هلك الصيكوركا القول الموالنا سواء النفائا ولاحظ الله على الله القول الموالنا الموالنا العدم المواكا التعالى موالكا التعالي الله الموالكا السيكور الموالكا السيكور الموالد المتدولة

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في تفسه وتأكده في قلبه حتى يكونذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره إلى مافيــه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضـــلال من ضل من هذا الطريق، فإذن هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المـال خبث البخل وحب الدنيا منباطنك، فإنهمهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئًا بالدم ، ولما كانت الصــدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) ، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (١)، والمقصود أنالأعمال مؤثرًات في القلبكما سبق فيربع المهلسكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول الـكلى والقانون الاصلى الذي ينبغيأن يرجع إليه في معرفة فضائل الاعمالوالاحوال والمعارف، والرجع الآن إلى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلايجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال ، أو العمل في الآخر ، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهرالتناسب ، وبعدالتناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربمـا رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر: أن يرى فعمة العينين مثلا من الله تعالى . ومعرفةالصابر : أن يرى العمى من الله ، وهمامعرفتان متلازمتانمتساويتان هذا إن اعتبرنا فىالبلاء والمصائب. وقد بينا أن الصبر قد يكون علىالطاعة وعنالمعصية، وفيهما يتحد الصبروالشكر لآن الصبر على الطاعة هو عينشكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف فعمة الله تعالى إلى ماهو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدينفي مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحدباعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إيمـا خلق لهذه الحـكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحـكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشيء على نفسه ؛ فإذن مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة،والمعصية،والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلاً ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المـال ، أما العينان فصبر الاعمى عنهما بأن لايظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي ، وشكر البصير عليهمامنحيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستمين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة ، وكل أحد من الأسرين لايخلو عن الصبر ؛ فإنَّ الاعمى كنى الصبر عن الصور الجميلة لانه لايراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين ؛ وإن أتبعالنظر كفر نعمة العينين ؛ فقد دخل الصبر في شكره ، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعمالي ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيسكون هذا الشكر أفضل من الصبر ، ولولا هذا لسكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الانبياء ، لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً ، ولـكان الـكمال في أن يسلب الإنسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا

⁽۱) حديث النهى عن كسب الحجام: تقدم: (۲) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها . أخرجه مسلم من حديث عبد المعللب بن ربعة « ان هذه الصدقة لانحل لنا أنما هي أوساخ القوم وانها إلا تمل لمحمد ولالآل عجد » وفي رواية له « أوساخ الناس » .

لأنَّ كل واحد من هذه الاعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيـــه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصـبر، وأما مايقـم في محل الحاجـه كالزيادة على الكفاية من المـال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتساج إلى ماوراءه ، فني الصبر عتمه مجماهدة وهمو جهماد الفقر ، ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية ، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضا، وفيه فرح بنعمة الله تصالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبماضها ، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات ، لأنَّ الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعي لامحالة قرة ؛ والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لابدّمن قوة في الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة الني يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوّة التي يدل العمل عليها ، فإنّ الاعمال لاتراد إلا لاحوال القلوب، وتلك الفرّة حالة للقلب تختلف بحسب قرّة اليقينوالإيمــان ، فمــا دلعلى زيادة قرّة فىالإيمــان فهو أفضل لامحالة ، وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فىالآيات والاخبار إنمــا أريد به هذه الرتبة على الحنصوص لآنَّ السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغني بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولايستعين بالنعمة على المعصية ، لا أن يصرفها إلى الطاعة ، فإذن الصبر أفضل من الشكر ، أىالصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيدرحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغني بالوجود ولامدح الفقير بالعدم ، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما ، فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها ، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذي ا لم صفته وأزعجها أنم حالا بمن متع صفته وأعمها . والاحر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الآخير الذي ذكرناه ، وهو لم يرد سواه . ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال : الغي الشَّاكر أفضل من الفقير الصابر ، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة ، فسكان يقول : دعوة الجنيد أصابتني ، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر .

ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها علمت أنّ لكل واحد من القولين وجها فى بعض الآحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ، ودب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هوالغنى الذى يرىنفسه مثل الفقير ، إذ لايمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقى يصرفه إلى الخيرات أويمسكم ، على اعتقاداً نه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولالتقليد منه ، بل أداه لحق الله تعالى فى تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر .

 فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر ؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشمر ألم الصبر ، فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق ، فأعلم أنّ الذي تراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا بمن ينفقه وهو بخيل به وإنمـا يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيها سبق من كتاب التوبة ، فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد ، والسكلب المتأدب أكمل من السكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والجاهدة في البداية ولايحتاج إليهما في النهاية ، بل النهاية أن يصير ماكان مؤلمـافي حقه لذيذا عنده ، كما يصيرالتعلم عند الصبي العاقل لذيذا . وقد كان مؤلما له أولا ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأفلين في البداية _ بل قبل البداية بكثير ـ كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذن إذا كنت لاتفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الافهام ؛ فإذا أردتالتحقيق ففصل ، فإنّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراً منا الرضا وهوالرضاوهومقام وراءالصبر ، ووراءهالشكرعلىالبلاءوهووراءالرضا ؛ إذالصبر معالتاً لم والرضا يمكن بما لاألم فيه ولافرح ، والشكر لايمكن إلا على محبوب مفروح به ، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ؛ فإنّ حياء العبد من تتابــع فعمالله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنفُ ستره شكر ، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعمالي من غير استحقاق شكر ، والعلم بأنّ الشكر أيضا نعمة من نعم اللهوموهبة منه شكر ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ؛ إذ قال عليهااسلام . من لم يشكرالناس لم يشكر الله (١١) . وقد ذكرنا حُتيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الادب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لاتنحصر آحادها ؛ وهي درجات مختلفة ؛ فكيف يمكن أجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الاخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال: رأيت فى بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طدن فى السن فسألته عن حاله فقال: إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى ؛ فاتفق أنها زوّجت منى ، فليلة زفافها قلت : تمالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ماجمتنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه ؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فند سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك بافلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ، أولو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخنى عليك أن هذا الشكر أفضل ، فإذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلابتفضيل كما سبق . والله أعلم .

⁽١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، تقدم في الزكاة .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

النيسالين التنابين

الحمد لله المرجق لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه . وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته ، وصدّهم عن التعرّض لائمته والتهدّف لسخطه ونقمته ، قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته :

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثمقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومثناق الجوارح والاعضاء ـ إلاأزمة الرجاء . ولايصدّ عن نار الجحيم والعذاب الآليم ـ مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ـ إلاسياط التخويف وسطوات التعنيف ، فلا بدّ إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينها مع تضادهما وتعاندهما . ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين : الشطر الآول في الرجاء ، والشطر الثاني في الحوف .

أما الشطر الأقرل فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء ، والطرق الذي بحتلب به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وأنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، ولما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال ، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ماهو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال . والحال يقتضى العمل ، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه و يحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيا مضى سمى ذكرا و تذكرا ، وإن كان ماخطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وإدراكا ، وإنما سمى وجدا لانها حالة تجدما من نفسك ، وإن كان قد خطر موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وإدراكا ، وإنما سمى وجدا لانها حالة تجدما من نفسك ، وإن كان تحد فل من القلب سمى خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظارا و توقعا ، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه المنا له القلب سمى خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره و تملق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب سمى خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره و تملق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب سمى خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره و تملق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو محبوب عنده ، ولكن ذلك في القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو عبوب عنده ، ولكن ذلك في القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو عبوب عنده ، ولكن ذلك في العلم و المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك في العلم و المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك في المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك في العلم و المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك في العدم و المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك الارتياح و المورد عبوب المورد عبوب المورد عبوب المورد عبوب المورد عبوب المورد عبوب عنده ، ولكن ذلك المورد عبوب المورد المورد عبوب المورد المورد عبو

المحبوب المتوقع لابدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لاحل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاءعليه صادق، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسمالرجاء والحوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لايقال : أرجوطلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأنّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد عَلَم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالارض ، والإيمان كالبذرفيه ، والطاعات جارية بجرى تقليب الارض وتطهيرها وبجرى حفر الانهار وسياقه المــاء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيــا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لاينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ، ولاينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلافه ، كما لاينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فـكل من طلب أرضا طيبة وألق فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوّس ، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق المـا. إليه في أوقاته ، ثم نتى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته : سمى انتظاره رجاء . وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لاينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه : سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن\اماءلهاوأخذينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا : سمى انتظاره تمنيا لارجاء ؛ فإذن اسم الرجاء إنمــا يصــدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعمالي بصرف القواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بمماءالطاعات ، وطهرالقلب عن شوك الآخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الحاتمة المفضية إلى المغفرة : وكان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت : وإن قطم عن بذر الإيمــان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الآخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم . الاحمق من أتبع نفسه هو اها وتمنى على الله الجنه (١) ، وقال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعواالشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ وقال تعالى ﴿ فَلْفَ مِن بِعِدِهُمْ خَافَ وَرَثُوا الْكَتَابِ يَأْخَذُونَ عَرَضَ هَذَا الْآدَنَى وَيَقُولُونَ سَيْغُفُر لَنَا ﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ماأظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولأن رددت إلى رب لاجدن خيرا منها منقلبا ﴾ فإذن العبد الجتهد في الطَّاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجوقبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهىالتوبة ويشتاق|ليها ، لحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأنَّ كراهيته المعصية وحرصه على التوبة يجرى بحرى السبب الذي قسد يفضي إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعنه تأكد الاسباب ، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود

⁽١) حديث و الأحق من اتبع نفسه هواها .. الحديث ، تقدم غير مهة .

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بستى ولا تنقية ، قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التمادى في الدنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالـكها إن السفينة لاتجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الاسباب، وهذه الحسالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلاإل وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد ، فن عرف أن الارض سيخة وأن الماء معوز وأن البذر لاينبت : فيترك لامحالة تفقد الارض والتعب في تعهدهــا ، والرجاء محمود لامه باعث ، واليأس مذموم وهو ضدّه لانه صارف عن العمل، والحوف ليس بضدّ للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي,بيانه، بلهو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذن حال الرجاء يورثطولاالمجاهدة بالاعمالوالمواظبةعلى الطاعات كيفًا تقلبت الاحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإفبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له ، فإن هذه الاحوال لابدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملـكا من الملوك أو شخصا منالاشخاص ، فـكيف لايظهر ذلك في حق الله تعالى ؟ فإن كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاءوالنزول في-حضيضالغروروالتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثماره لهذه الإعمال حديث زيد الخيل، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريدو علامة و فيمن لا يريد ؟ فقال . كيف أصبحت ؟ ، قال : أصبحتأ حبالخيروأهله ، وإذاقدرت على شي.منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه ، وإذافانني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه . فقال , هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للآخرى هيأك لهـما ثم لا يبــالى في أي أوديتها هلكت ، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يـكونـرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور (١١) ي.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الحوف ، لآن أقرب العباد إلى القتمالي أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظان رغائب لاسيما فى وقت الموت : قال تعالى ﴿ لاتقنطوا من رحمة الله ﴾ لحرم أصل الياس ، وفى أخبار يمقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه . أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لانك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . وقال صلى الله عليه وسلم . يموتن لم

⁽۱) حدیث : قال زید الحیل جثت لأسألك من علامة الله قیمن پرید وجلامته قیمن لاپرید ... الحدیث . أخرجه العابرانی ف السكبیر من حدیث این مسعود بسند ضعیف ، وفیه آنه قال « آنت زید الحیر » وكذا قال این آبی سام سماهالنی سلمالله علیهوسلم زید الحیر بروی منه حدیث ، وذكره فی حدیث بروی : فقام زید الحیر فقال : پارسول الله ... الحدیث ، سممت آبی یقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بي فليظن بي ما شاء (٢) ، . ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهوفي النزع فقال ﴿ كَيْفَ تَجِدْكُ ؟ ﴾ فقال : أجدني أخاف ذنون وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم , ما اجتمعا في قلب عبدفي هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه بما يخاف (٢) ، وقال على رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لـكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم منذنو بك . وقالسفيان : من أذنبذنبا فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لان الله عزوجل عيرقوما فقال ﴿ وذاحكم ظنكم الذي ظنلتم بربكم أرداكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وظنلتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ وقال صلىالله عليه وسلم , إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته قال : يارب رجو تك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعمالي . قد غفرته لك (١٠). وفي الحبر الصحيح : أن رجلاكان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقيالله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل: من أحق بذلك منا (٥٠) . فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات. وقال تعـالى ﴿ إِنَ الذين يَتَلُونَ كُتَابُ اللَّهُ وَأَنَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مَـا رزقناهُم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ ولماغال صلىالله عليه وسلم , لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولب كميتم كشيرا ولخرجتم إلىالصعدات تلدمونصدوركم وتجارون إلى ربكم. فهبط جبريل عليه السلام فقال إن راك يقول لك لم تقنط عبادى ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوَّقهم (٦) . وفي الخبر : إن الله تعالى أوحي إلى داود عليه السلام . أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي . فقال : يارب ، كيف أحسك إلى خلقك ؟ : اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإمهم لا يعرفون منى إلا الجميل (٧) ورثى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال : أوقفني الله تعالى بين يديه فقال : ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحببك إلى خلقك ، فقال : قدغفرت لك . ورئى يميي بن أكثم بعد موته في النوم ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : أوقفنيالله بين يديه وقال ، ياشيخالسوم ، فعلت وفعلت ، وقال : فأخذني من الرعب مايعلم الله ، ثم قلت : يارب ماهـكذا حدثت عنك ، فقال : وماحدثت عني ؟ فقلت : حداني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أناعند ظن عبدي في فليظن في ماشاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبني ، فقال الله عزوجل : صدق جبريل وصدق نبيي ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبدالرزاق وصدقت قال فألبست ومشي بين

⁽١) حديث • لايموتن أحدكم لملا وهو يحسن الظن بالله » أخرجه مسلم هن حديث جابر .

⁽۲) حدیث أنا عند ظن عبدی بی فلیظن بی ماشاه ، أخرجه ابن حبان من حدیث وانلة بن الأسقم وهو فی الصحیحین من حدیث أبی هریرة دون قوله ، فلیظن بی ماشاه ، . (۳) حدیث : دخل صلی الله علیه وسلم علی رجل وهو فی النرم فقال : «کیف تجدك الله الحدیث ، رواه اللارمذی وقال غرب ، والنسائی فی السكبری ، وابن ماجه من حدیث السر وقال اللاوی : لمسناده جید (٤) حدیث « لن الله یقول العبد بوم الفیامة : مامنمك لذ وأیت المنسكر أن الاسكره ... الحدیث » أخرجه ابن ماجه من حدیث أبی سعید الخدری بإسناد جید ، وقد تقدم فی الأمر، بالمعروف .

⁽ه) حديث : لمن رجلاكان يداين الناس فيساع النبي و يتجاوز عن المعسر . . . الحديث ، أخرجه مسلم من حديث أبي مسمود « حوسب رجل بمن كان قبله كم يوجد له من الخبر شيء الا انه كان يخالط الناس وكان موسر ا فسكان يأمر غلما له أن يتجاوزواعن المسسر قال الله عزوجل : نحن أحق بذلك ، تجاوزوا عنه . واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه .

⁽٦) حديث و لوتعلمون ماأعلم المنحكتم قلهلا ولبسكيتم كثيرا ... الحديث » وفيه « فه طجبريل ... الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبى » ورواه بزيادة « ولحرجتم الى الصعدات » أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم . (٧) حديث « ان الله تعالى أوحى الى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى .٠. الحديث » لم أجد له أصلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالذى قبله .

⁽١٩ --- لمدياء علوم الدين --- ٤) .

يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت : يالها من فرحة . وفى الخبر ، أنّ رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّ عليهم ، قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة ، اليوم أويسك من رحمتى كاكنت تقنط عبادى منها (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إنّ رجلا يدخل النار فيمك فيها ألف سنة ينادى : ياحنان يامنان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فائتنى بعبدى . قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول ردّوه إلى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عزوجُل : إلى أى شيء تلتفت ا فيقول : لقد رجوت أن لاتعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة (٢) ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه المخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرف الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاملن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لايستعمل في حقه إلا أدوية الحزف والاسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الحلق متلطفاً ناظرا إلى مواقع العلل معالجاً لمكل علة بما يضادها لابما يزبد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والاخلاق كلها وخير الأمور أوساطها ؛ وإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزبد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الحلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضا تمكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن السفواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالمكلية ، ولكنها لمما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الحلق بالثناء كيفها كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا . قال على كرم الله وجهه إنما الدالم الذي لا يقنط الناس من رحة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف افتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحابمة استعمال الطبيب الحاذق لااستعمال الاخرق الذي يظن أن كل شيء من الادوية صبالح لسكل مريض كيفها كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين ، أحدهما . الاعتبار ، والآخر . استقراء الآيات والاخبار والآثار .

أما الاعتبار ، فِهُو أن يتأمل جميد ماذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنياكل ما هو ضروري له في دوام

⁽۱) حدیث : أن رجلا من ننی لمسرائبل کان یةنط الناس ویشدد سابهم ... الحدیث ٬ رواه البیهتی فی المعبءن زیدین أسلم ، فذكره مقطوط . (۲) حدیث لمن رجلا یدخل « النار فیمكث فیها ألف سنة ینادی با حنان یا منان ... الحدیث ، أخرجه ابن أبی الدنبا فی كتاب حسن الظن بالله ، والبیهتی فی الشعب وضعفه من حدیث أنس .

الوجود كآلات الغذاء وماهو محتاج إليه كالاصابع والاظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك بما كان لاينثلم بفقده غرض مقصود ؛ وإبماكان يفوت به مزبة جمال ، فالدناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائن حتى لم برض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزبنة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا علم أن أكثر الحلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لايعذب بعد الموت أبدا مثلا أولا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم إلا لآن أسباب النعم أغلب لامحالة ، وإنما الذي يتمنى الموت نادر ، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الحلق في الدنيا الغالب عليه الحير والسلامة فسنة الله لاتجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ، ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين برى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له : ومافيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنول الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظدينه ، فكيف لايحفظ دينه الذي لاعوض له منه ؟

الفن الثانى: استقراء الآيات والاخبار ، فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى في عابدى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من وحمة الله إن الله يغفر الذبوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولايبالى إنه هو الغفور الرحيم) (ا وقال تعالى (والملائكة يسبحون بحمد وبهم طلل ويستغفرون لمن فى الارض) وأخبر تعالى أن النار أعدها لاعدائه ، وإنما خوّف بها أولياء ه فقال (لهم من فوقهم ظلل من النارومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله بعداه) وقال تعالى (واتقوا النار التي اعتدال كافرين وقال تعالى (فاندر تك المراق على الله على ظلمهم) ناراً تلظى لا يصلاها إلا الآشق الذي كذب وتولى) وقال عزوجل (وإن ربك لذو مغفرة الناس على ظلمهم) ويقال : إن الذي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قبيل له : أما ترضى وقد أنولت عليك هذه الآية (وإن ربك لاو مغفرة الناس غللمهم (۲)) . وفي تفسير قوله تعالى (ولسوف يعطيك وبك فترضى) قال «لايرضى عروجل قوله (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية فى كتاب الله تصالى قوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وأما الاخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة عجل الله عقابها فى الدنيا : الزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار (٣) ،

⁽¹⁾ حديث : قرأ قل ياعادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتفنطوا من رحمة الله إن الله ينفر الذنوب جيما ولا يبالى أخرجه الترمذى من حديث أسماء بلت يزيد وقال حين غريب . (٢) حديث أن النبي سلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترخى وقد أنزل عليك (ولمن ربك لهو منفرة الناس على ظلهم) لم أجده بهذا اللفظ . وروى ابن أبى حام والثملي فى تفسيرها من رواية على بن زيد بنجدعان عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسوله الله صلى الله عليه وسلم و لولا عفو الله وتجاوزه ماهنا أحدا العيش ... المديث » . . . (٣) حديث أبى موسى و أمتى أمة صرحومة لاعذاب عابها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن .. الحديث » أخرجه أبو داود دون قوله و فإذا كان يوم القيامة ... الح » فرواها ابن ماجه من حديث أبى بسند ضعيف ، وفي صحيحه من حديث أبى موسى كا سيأتى ذكره في الحديث الذي يليه .

وفي لفظ اخر . يأتي كل رجل من هذه الآمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول : هذا فدائي من النار فيلق فيها (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم , الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار (٢) ، وروى في تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لايخزى الله الذي والذين آمنوا معه ﴾ أنّ الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة السلام : إنى أجعل حساب أمتك إليك . قال « لايارب أنت أرحم بهم منى ، فقال « إذن لانخزيك فيهم (٣) ، . وروى عن أنس : أنّ رسول الله · صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال . يارب اجعل حسابهم إلى لئلايطلع على مساويهم غيرى، فأوحى الله تعمالي إليه : هم أمتك وهم عبادى ، وأناأر حم سهم منك ، لاأجمل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولاغيرك (١٤) . وقال صلى الله عليه وسلم . حياتى خير لـكم وموتى خير لـكم ، أما حياتى فأسن لـكم السنن وأشرع لكم الشرائـع . وأما موتى فإنّ أعمالكم تعرض على فمـا رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، ومارأيت منها سيئًا استغفرت الله تعمالي لـكم (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم يوما . ياكريم العفو ، فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير ؛ ياكريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه (٦) . وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك تمـام النعمة . فقال « هل تدرى ماتمـام النعمة ؟ ، قال لا .قال « دخول الجنة (١) ، قال العلماء : قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى ﴿ وأتممت عليهم نعمتي ورضيت لـكم الإسلام دينا ﴾ وفي الخبر . إذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عزوجُر لملائبكبته ؛ انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أنَّ له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أثه ,دكم أنى قد غفرت له ١٨١ ، وفي الحبر ، لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السياء غفرتها له مااستغفرنى ورجانى (١) ، وفي الخبر , لولقيني عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة (١٠) ، وفي الحديث . إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنبست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه و إلا كتبها سيئة (١١١) ، وفي لفظ آخر : . فإذا كنبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب

⁽۱) حدیث و یأتی کل رجل من هذه الأمة بیهودی أو نصرانی لمل جهنم ... الحدیث » أخرجه مسلم من حدیث أبی موسی و لمذا کان یوم القیامة دفع الله لمل مسلم یهودیا أو نصرانیا فیقول : هذا فداؤك من النار » وفی روایة له و لا یموت رجل مسلم لا أدخل الله مكانه فی المار بهودیا أو نصرانیا » . (۲) حدیث و الحمی من فیصح جهنم و می حظ المؤمن من النار » أخرجه أحد من روایة أبی سالح الأشعری عن أبی أمامة ، وأبو سالح لا یمرف ولایسرف اسمه . (۳) حدیث و لمنالة أوحر لمل نبیه سلی الله علیه وسلم ان أجمل حساب أمتك لملیك ، فقال و لایارب أنت خیر لهم منی ... الحدیث » فی تفسیر توله تعالی (یوم لا یخزی الله النبی) أخرجه این أبی الدنیا فی کتاب حسن الظن بالله . (۶) حدیث أنس أنه صلی الله علیه و سلم سأل ربه فی ذوب أمت فقال و یارب اجمل حسابه بالم . الحدیث عبد المزیز بن أبی داود و لمن أخرجه البرار من حدیث عبد المزیز بن أبی داود و لمن أخرج له مسلم و و و ته اسماد ضدیث ... الحدیث المن بنتوه با بالد ضدیف .

⁽٦) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما « يأكريم الدَّهُو » فقال جبريل . أندرى ماتفسير ياكريم الدَّهُو ؟ الحديث : لم أجده هن النبي سلى الله عليه وسلم ، والموجود أن هذا كان بين لمبراهيم الحليل وبين جبريل ، هكذا رواءأبو الشبيخ في كتاب المظمة من قول هتبة بن الوليد . ورواء البيهتي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثني بعض الزهاد ... فذكره .

⁽٧) حديث سمم رجلا يقول: اللهم أني أسألك تمسام النعمة ... الحديث: تقدم . (٨) حديث « أذا أذنب العبدفاستنفر يقول الله تعالى لملائسكته انظروا لمل عبدى أذنب ذنبا فعسلم أن له ربا ينفر الذنب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بقفظ « أن عبدا أساب ذنبا فقال: أى رب أذنبت ذنبا فاغفر لى ... الحديث » وفي رواية «أذنب عبد ذنا فقال ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس « ياابن آدم لوبلنت (٩) حديث « لوأذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السهاء ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس « ياابن آدم لوبلنت ذنوبك عنان السهاء ثم استنفرتني غفرت لك» وقال : حسن . (١٠) حديث « لولفيني عبدى بقراب الأرض ذنوبالقيته بقرابها منفرة » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر « ومن لقيني بقراب الأرض خطيثة لايصرك بي شيئا لقيمه عثلهامنفرة » والترمذى من حديث أنس الذي قبله « ياابن آدم لو لقيتني ... الحديث . (١١) حديث « لمن الملك ليرفع القبل عن العبد لذا أذنب ست ساعات ، عان تاب واستنفر لم يكتبه عليه . . الحديث » قال: وفي لفظ آخر « فإذا كتبها عليه و عمل حديثال ماحب المجين لصاحب الشهال =

الشال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألتى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة ، وروى أنس فى حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال ، إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه ، فقال أعرابى: وإن ناب عنه ؟ قال ، محى عنه ، قال : فإن عاد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتب عليه ، قال الأعرابى : فإن ناب ؟ قال ، محى من صحيفته ، ال : إلى متى ؟ قال ، إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل ، إن الله لا يمل من المنفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (1) .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولاأصلى الا الخس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالى صدقة ولا حج ولا تطقع: أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، فعم معى ، إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل ، والحسد ؛ ولسانك من اثنتين: الغيبة ، والكذب؛ وعينيك من اثنتين: النظر إلى ماحرم الله ، وأن تزدرى بهما مسلما - دخلت معى الجنة على راحتى هاتين (٢) ، وفي الحديث الطويل لانس : أن الاعرابي قال : يارسول الله ، من يلى حساب الحلق ؟ فقال ، الله تبارك وتعالى ، قال : هو بنفسه ؟ قال ، فعم ، فتبسم الاعرابي ؛ فقال صلى الله عليه وسلم ، صدق الاعرابي ؟ ، فقال : أن الاكريم أكرم الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، صدق الاعرابي ، ألا لاكريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الاكريم أكرم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الاكريم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى ، قال الاعرابي ؛ ومن أولياء الله تعالى ؟ قال ، المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين ومن أولياء الله تعالى ؟ قال ، المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين أمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ، وفي بعض الاخبار ﴿ المؤمن أفضل من الكمبة (٤) » و « المؤمن طيب

⁼ وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألق من حسنانه واحدة من تضعيف العشر... الحديث، أخرجه البيهتي في الشعب من حديث أبى أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواء أيضا أطول منه وفيه « لمن صاحب اليمين أمير على صاحب الهمال » وليس فيه : أنه يأمم صاحب الممال بإلقاء السيئة حتى يلني من حسناته وأحدة ، ولم أجد لذلك أسلا .

⁽١) حديث أنس « لذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه » فقال أعرابي : فإن تاب عنه ؟ قال « محى عنه » قال : فإن عاد ؟ .. الحديث . وفيه « لن الله لا يمل من التوبة حتى على العبد من الاستنفار » الحديث أخرجه البيهق في الشعب بافظ: فقال : يارسول الله لم أذنبت ذنبا . قال « استنفر ربك » قال : فأستنفر ثم أعود . قال « قإذا عدت فاستنفر ربك » ثلاث مهات أو أربها . قال : فاستنفر ربك حتى يسكون الشيطان هو المسجور المحسور » وفيه أبو بدر يسار بن الحسم المصرى منسكر الحديث . وروى أيضا من حديث عقبة بن عامي : أحدنا يذنب ؟ قال « يسكنب عليه » قال: ثم بستففر وبترب ؟ قال « ينفر له وبتاب عليه » قال: فيهود . الحديث وقيه « لا يمل الله حتى علوا » وليس في الحديثين قوله في أخره « فإذا هم العبد محسنة فلم يصلها كتهاالله عنده حسنه كاملة ، فإن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه « فن هم محسنة فلم يصلها كتهاالله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبها الله عيده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » زاد مسلم في رواية « أو محاها الله ولايهلك على الله إلا هالك » ولهما نحوه من حديث أبي هريرة .

⁽٢) حديث : جاء رجل فقال : يارسول الله لمنى لا أسوم الا الصهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى الا الحس لاأزيد عليها ، وايس لله في مالى صدقة ولاحتج ولانطوع ... الحديث تقدم . (٣) حديث أنس الطويل : قال أعرابي : يارسول الله، من يلى حساب الحاق ؟ قال د الله تبارك وتعالى ، فقال هو بنفسه ؟ قال د الم ، فتبسم الأعرابي .. الحديث ، لم أجدله أسلا .

⁽٤) حديث ه المؤمن أفضل من الكعبة ، أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ه ماأعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخيرا » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحصى ضعفه أبو حام ووثقه ابن حبان ، وقد تقدم .

طاهر (۱) ، و ، المؤمن أكرم على الله تعالى من الملاهكة (۲) ، وفي الحبر , خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (۲) ، . وفي خبر آخر , يقول الله عز وجل : إنما خلقت الحلق ليربجوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم (٤) ، وفي حديث أي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه (۱) ، وفي الحبر المشهور ، إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الحلق : إن رحمتي تغلب غضبي (۱) ، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال ، من قال لا إله إلا الله الم المسالة (۱) ، و ، و ، من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (۱) ، و ، و ، لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان (۱۱) ، وفي خبر آخر ، لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (۱) ، و ، و ، لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان (۱۱) ، وفي خبر آخر أن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال ، أندرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام : قم في البحث بعث النار من ذرّبتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد في البحث بعث الناس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، مالكم لا تعملون ، فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ماحدثتنا بهذا ؟ فقال ، كم أنتم في الأهم؟ أين تاويل وثاريث ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لا يحصيها إلا الله تعالى ، إنها أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود ، وكالرقة في ذراع الدارة (۱۱) ، فاظر كيف كان الخوف يسوق الحاق بسياط الحوف ويقودهم بأزمة في حلادة في ذراع الدارة وقودهم بأزمة في حلادة في ذراع الدارة وقودهم بأزمة في خلادة من خلادة في ذراع الدارة ومن يشتغل بيوف يسوق الحاق بسائر الأمم كالشعرة البيضاء في حالاتها به والم وقودهم بأزمة في خدودهم ويقودهم بأزمة في خدودهم بأزمة في خدودهم بأزمة في الأمراء الدوف يسوق الحاق بيد والمراء المؤرد والمؤردة ويقودهم بأزمة المؤردة ويسول الله ويودهم بأزمة في الرودة المؤردة السائرة ويسول الله ويودهم بأزمة في الرودة ويودهم بأزمة المؤردة ويسول الله ويسول الله ويسول الله ويسول الله ويودهم بأزمة ويسول الله ويسول ا

⁽١) حديث « المؤمن طيب طاهر » لم أجده بهذا اللفظ ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لاينجس » .

⁽۲) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائسكة » أخرجه ابن ماجه منرواية أبي المهزم يزبد بن سفيان عن أبي هريرة بافظ «المؤمن أكرم على الله من بعض الملائسكة» وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهق في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (۳) حديث « خلق الله من قصل رحمته سوطا يسوق به عباده لمل الجنة » لم أجده هسكذا ، وبنى عنه مارواه البخارى من حديث أبي هريرة « عجب ربنا من قوم يجاء بهم لملى الجنة في السلاسل » .

^(؛) حديث ﴿ قَالَ اللَّهُ لَمُ عَا خُلَفَ الْجُنُوا عَلَى وَلَمْ أَخَلَتُهُمْ لِأَرْجُ عَلَيْهُمْ ﴾ لم أقف له على أصل .

^(°) حديث أبى سميد « ماخلق الله شيئا لملا جمل له ماينلبه وجمل رحمته تنلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولابمجهول .

⁽٦) حديث ﴿ إِنْ اللَّهُ كُتِّبِ عَلَى نَفْسَهُ بَنْفُسَهُ قَبِلُ أَنْ يَخْلُقُ الْجَلِقُ : إِنْ رَحْق تَغْلُب غَضِي ﴾ متفقعليه من حديث أبي هرير: ، (٧) حديث معاذ وألس « من قال لا أنه ألا الله دخل الجنة » أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ « من مات يصهد . » وتقدم من حديث معاذ ، وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ « من مات بِمهد . . . « وقد تقدم منحديثمعاذ، ومن حديث أنس أيضًا ، وتقدم في الأذكار . (٨) حديث « من كان آخر كلامه لالله الله لم عسه النار » أخرجه أبو داود والحماكم وصحه من حديث معاذ بلفظ ددخل الجة ، . (٩) حديث د من لق الله لايصرك به شيئا حرمت عليه النار، أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لماذ « مامن عبد يصهد أن لالله لملا الله وأن عجداعبد،ورسوله لملاحر مهاللت على الدار » وزاد البخاري. « صادقا من قلبه » وفي رواية له « من اني الله لايمسرك به شيئا دخل الجنة » وروام أحمد من حديث معاذ بالهظ «جمله الله في الجنة» والذبائي من حديث أبي عمرة الالصاري في أثناء حديث فقال « أنه بد أن لاله إلا الله وأشهداً ني رسول الله لايلق الله عبد يؤمن لهما الا حجب عن الناريوم النيامة » . ﴿ (١٠) حديث ﴿ لايدخلها من في قلبه وزن ذرة من لميمان ﴾ أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء « من شهد أن لالله لملا الله حرمه الله على النار ، وديه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان ﴿ أَنِّي لَأَعْلِمَ كُلِّهَ لَا يَعْرِفُهُا عَبِدَ حَمًّا مِن قَلْبِهِ لَا حَرِمَ عَلَى النّارِ ﴾ قال عمر بن الحطاب : هي كلة الإخلاس ، ولمسنا ده صحيب وأحكن هذا ونحوه شاذ خالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعه من الموحدين النار ولمخراجهم بالشفاعة ، لعملامق في النار من في قلبه ذرة من لميمـان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وفيه ﴿ فَنْ وَجِدْمٌ فِي قَلْبِهُ مِثْقَالَ ذَرَّةُ مِنْ لمِيمـان فأخرجوم » وقال مسلم «من خير» بدل همن لمميان» . (١١) حديث « لوعلم السكافر سعة رحمة لله ماأيس من جنته أحد » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٢) حديث : لما نلا (لانزلزلةالساعة شيء عظيم) قال • أتدرون أي يوم هذا ٢ ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صميح . قنت : هو منرواية الحسن البصريءن عمراز ولم يسمم منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سميد .

الرجاء إلى الله تعالى ، إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن مناقضا للاؤل ولكن ذكر في الأؤل ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجا. ذكر تمام الامر ، فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة ، وإن لم يراع ذلككار مايفسد بوعظه أكثر بمـا يصلحه ، وفي الخبر ، لو لم تذنبوا لحلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم (١) ، وفي لفظ آخر ، لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم ، وفي الحبر , لو لم تذنبوا لحشيت عليكم ماهو شر من الذوب قيل : وما هو ؟ قال : العجب ٢٠، ، وقال صلى الله عليه وسلم . والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن،منالوالدة الشفيقة بولدها (٣) ، وفي الحبر , ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ، حتى إن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه (١) ، وفي الخبر . إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعاوتسعين رحمةوأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق، فتحنّ الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها . فإذا كان يومالقيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض. قال: فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك(٠) ، وفي الخبر دمامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه منالنار، قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال . ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برخمته (٦) ، وقال عليه أفضل الصلا: والسلام . اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنَّى اختبأت شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي أترونها للطيمين المتقين بل هي للمتلوثين المخلطين (٨) ، وقال عليه الصلاة والسلام . بعثت بالحنيفية السمحة السهلة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطنى . أحب أن يعلم أهل الكتابين أنّ في ديننــا سماحة (١٠٠ ، ويدل على معنا. استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم ﴿ وَلا تحمل علينا إصرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ وروى محمد بن الحنفية عن على رضي الله تعالى عنهما أنه قال . لما يزل قوله تعالى ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال . يا جبريل ، وما الصفح الجميل ،؟ قال عليه السلام : . إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال . يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه ، فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم،فبعثالله تعالى

⁽۱) حديث « لولم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فينفر لهم » . وفي لفظ « لذهب بسكم ... الحديث ، أخرجه وسلم من حديث أبي أيوب ، واللفظ الثانى من حديث أبي هريرة قرببا منه . (۲) حديث « لولم تذنبوا لحشيت عليسكم ماهو شرمن الذنوب » قبل ماهو ؟ قال «المجب» أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء ، والبهتي في الشعب من حديث أنس ، وتقدم في ذم السكبر والعجب (٣) حديث « والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالده الشفيقة بولدها » وتفق عليه من حديث عمر بنحوه .

⁽٤) حديث و لينفرن الله تمالى يوم الفيامة منفرة ماخطرت قط على قلب أحد ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظان بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضيف . (٥) حديث « ان لله تمالى مائة رحمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . أبي هريرة . (٦) حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

⁽٧) حديث « امملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله » تقدم أيضا .
(٨) حديث « انى اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر ،ن أمنى ... الحديث » أخرجه الشيخان من حديث أبي هر برة « لسكل نبي دعوة واني خبأت دعوتي شفاعة لأمتى » . ورواه مسلم من حديث ألس » والترمذي من حديثه ، وصححه ، وابن ماجه من حديث أبى ء وساعتي لأهل الكبائر من أمتى » ولابن ماجه من حديث أبى موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر «خيرت بين الشفاعة و بين أن يدخل نصف أمتى الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكنى ، أثرونها للمتقين ... الحديث » وفيه من لم يسم .

ان يدخل نصف المتى المجلمة ، فاخبرت السماعة لا تهم اعتم وا حتى ما دوم بعدات الله السمالة » ولا والعابر انى (٩) حديث « بعثت بالحنيفية السملة » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله « السملة » ولا والعابر انى مديث ابن عباس « أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة » وفيه تحمد بن اسحق رواه بالعنمنة .

⁽١٠) حديث و أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة ، رواه أبو عبيد في غريب الحديث ، وأحد .

إلىهماميكا ثيل عليه السلام وقال: إن ربكما يقر تركماالسلام ويقول ؛ كيف أعاتب من عفوت عنه ؛ هذا ما لايشبه كرى ١١١ والآخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى. وأما الآثار : فقد قال على كرّم الله و جهه : منأذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ، ومن أذنب ذنبا فعوةبعليه في الدنيافالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة وقال الثورى : ماأحب أن يجعل حسابي إلى أبوى لأني أعـلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائسكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتبُ محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كانمسرفاعلىنفسه فرفع يديه يدءوو يقول يارب حجبت الملائسكة صوته ، وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة ؛ يار بي ، قاله الله تعالى : حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى ، قد علم عبدى أنه ايس له رب يغفر له الذنوب غيرى ، أشهدكم أنى قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : خلالى الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوقفت َفالملتزم عندالباب فقلت . ماربا عصمني حتى لا أعصيك أبدا ، فهتف بي هاتف من البيت : يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لـكان يطير في ملكوت الساوات ولكن الله تعدالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعدالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين . و اتى مالك بن دينار أبانا فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، إنى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كسامك هذا من الفرح . وفي حديث ربعي بن حراشَءن أخيه ـ وكان من خيار التابعين ، وهو بمن تـكلم بعد الموت ـ قال : لمـا مات آخى سجى بثوبه وألقيناه على نعشه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وربى غيرغضان، وإنى رأيت الامر أيسر بما تظنون فلا تفتروا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه .

وفى الحديث أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا فى الله تعالى ، فسكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره ، فسكان يقول : دعنى وربى ، أبعثت على رقيبا ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحد أن يحظر رحتى على عبادى ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذى نفسى بيده لقد تسكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته (٢) .

وروى أيضا أن لصاكان يقطع الطريق فى بنى إسرائيل أربعين سنة ، فتر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الحواريين ، فقال اللص فى نفسه : هذا نبى الله يمرّ وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيا للحوارى ويقول فى نفسه : مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد . قال : وأحس الحوارى به ، فقال فى نفسه : هذا يمشى إلى جانبى ، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشى بجنبة فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة

⁽۱) حديث عمد بن الحنفية عن على ؛ لما نزل قوله تعالى (فاصفح الصفح الجيل) قال : « ياجبريل وما الصفح الجيل ؟ » قال : لذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ... الحديث ، أخرجه ابن حمدويه فى تفسيره موقوقا على على يختصرا ، قال : الرضا بنيرعتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي لمسناده لفطر . (٢) حديث « ان رجلين من بني اسرائيل تواخيا في الله عزوجل فسكان أحدها يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا ،.. الحديث » رواء أبو داود من جديث أبي عريرة بإسناد جيد .

والسلام . قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالها ، أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه ، فأخسرهما بذلك وضم اللص إليه فى سياحته وجعله من حواريبه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الانبياء كان ساجدا فوطى عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته ، قال: فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبافقال ﴿ اذهب فلن يغفرالله لك ﴾ فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على فى عبادى ، إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿ ليس لك من الآمر شى. ﴾ الآية ، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام (١)

وروى فى الآثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة ، قال : فاذا أدخــلا الجنة رفع أحــدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله ،

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الحائف . فمكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعمالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما (٢) ، وقال ، إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الاعلى ؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء (٢) ، .

وقال بكر بن سليم الصوّاف . دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : لا أدرى ما أقول لسكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لسكم فى حساب ، ثم مابرحنا حتى أنمضناه .

وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته : يكاد رجائى لك من الدنوب يغلب رجائى إياك مع الاعسال ؛ لانى أعتمد فى الاعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآدة معروف ، وأجدنى فى الدنوب أعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

وقيل إن بحوسيًا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفتك ؛ فمرّ المجوسي ،

⁽۱) حدیث ابن عباس : کان یقنت علی المشرکین و یلمنهم فی صلاته ، فزل قوله تعالی (ایس ای من الأمر شی ه) فترال الدعاء علیهم ... الحدیث ابن عمر أنه کان اذا رفع رأسه من الرکوع فی الرکمة الأخیرة من الفجر یقول دالهم المن فلانا و فلاناو فلاناو فلانا و فلاناو فلاناو فلانا و فلاناو فلان و الحدیث بن هشام و صفوان بن أمیة و زاد و فتاب تنایهم فأسلموا فحدن اسلامهم » و فلا حسن غریب میسیم و فلا حسن غریب میسیم .

⁽٢) حديث « سلوا الله الدرجات العلى فإعما تسألون كريما » لم أجدر بهذا الخفظ . وللترمذي من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل » وقال : حكذا روى حاد بن واقد وليس بالحافظ .

⁽٣) حديث د أذا سألتم الله فأعظموا الرغبة وأسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لايتماظمه شيء » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة د أذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغلرلمان شئت ، وأسكن ليعزم وليمظمالرغبة ، فإن الله عزوجل لايتماظمه شيء أعطاه » والبخارى من حديث أبي هريرة في أثناء حديث د فإذا سألتم الله فاسألوم الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ورواه الترمذي من حديث معاذ وهبادة بن الصامت .

فأوحى الله تعالى اليه : يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبه بين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه ؛ فقال له المجوسى ما السبب فيها بدا لك ؟ فذكر له ؛ فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الاستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد، فقال له : كيف حالك ؟ فقال وجدنا الامر أهون بمـا توهمنا .

ورأى بعضهمأبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لاتوصف ، فقال له : يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى برى .

وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كائن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول ؛ أين العلماء؟ قال : لجاءوا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسأنا : قال : فأعاد السؤال كائه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت : أما أنا فليس في صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه ، فقال : اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل: كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه و دفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشترى شيئا من الفواكم للمجلس، فتر الغلام بباب بجاس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول: من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع الغلام إليه الدراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك ؟ فقال: لى سيد أريد أن أتخلص منه، فدعا منصور وقال: الآخرى. قال: أن يخلف الله على دراهمي، فدعا، ثم قال! الآخرى، قال: أن يتفر الله لى ولسيدى ولك الآخرى، قال: أن يتفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم أبطأت؟ فقص عليه القصة. قال: وبم دعا، فقال: سألت لنفسي العتق، فقال له: اذهب فأنت حرد، قال: وأيش الثاني؟ قال: أن يخلف الله على الدراهم، قال: الكأربعة آلاف درهم، وأيش الشالث؟ قال: أن يتوب الله عايك. قال تببت إلى الله تمالى. قال: وأيش الرابع؟ قال: أن يغفر الله لى ولك والقوم، قال. هذا الواحد ليس إلى، فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول أن يغفر الله لى ولك والمقوم، قال. هذا الواحد ليس إلى، فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول أن يغفر الله ما كان إليك، أفترى أنى لا أفعل ما إلى، قد غفرت لك والمغلام ولمنصور بن عمار والقوم الحاضرين أجمين.

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقني قال: رأيت الملائة من الرجال وامرأة يحملون جنازة ، قال: فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت ، فقلت المرأة: من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى . قلت ولم يمكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمر . قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : عنشا ، قال فرحتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة واليسابا ، قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البحد وعليه اليباب بيض لجمدل يتشكرنى ، فقلت من أنت ؟ فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحنى ربى باحتقار الناس إراى .

وقال إبراهيم الاطروش: كنما قعودا ببغمداد مع معروف الكرخى على دجلة ، إذ مر أحمداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون ، فقالوا لمعروف أما تراهم يعصون الله بجماهرين ، ادع الله عليهم ، فرفع يديه وقال إلهى كما فرّحتهم فى الدنيما ففرّحهم فى الآخرة ، فقمال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم 1 فقمال : إذا فرّحهم فى الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول فى دعائه: يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحـانك ما أحلمك وعزتك إنك لتمصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك ياربنا لاتغضب .

فهذه هى الاسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب إلحائفين والآيسين ، فأما الحمق المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ماسنورده فى أسباب الحنوف فإنّ أكثر الناس لا يصلح إلا على الحنوف ، كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الحشونة فى الكلام . وأما ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا .

الشطر الثاني من الكتاب: في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخرف والرجاء ، وبياندوا الحفوف ، وبيان معنى سوء الحاتمة ، وبيان أحوال الحائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أنَّ الحَوْف عبارة عن تألمالقلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فىالاستقبال ، وقد ظهر هذا فيهيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصـار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفـات إلى المستقبل فلم يكنله خوف ولارجاء بل صار حاله أعلى منالخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعانالنفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطى حيث قال : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبــد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبتى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف ؛ وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدةالمحبوببخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكنا الآن إنمــا نشكلم في أوا†ل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه وذلك كمن حنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا ويجوّز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قرة علمه بالاسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقردا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلةوحسنة تمحر أثر جنايته عند الملك ، فالعملم بتظاهر هذه الاسباب سبب لفؤة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الحنوف ، وقد يكون الحنوف لا عن سبب جناية قارفها الحنائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وإن كان افتراسه بالاختيــار . وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه ، كوف من وقع فى مجرى سيل أو جوار حريق فإنَّ الماءيخاف لانه بطبعه بجبول علىالسيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق ؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الحتوف ، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يبكون لمعرفة الله تعمالي ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية منالعبد بمقارفةالمعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه ﴿ لايستلَّا عايفعلوهم يسئلون ﴾ فتكون ترة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليهوآلهوسلم ,أنا أخوفكم لله (١) ، وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جـلال الحنوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما فىالبدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء ، وقدتنشق به المرارة فيفضى إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكفها عن المماصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما **ف**رط واستعدادا للستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك مايخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئًا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيللذىالنون : متى يكونالعبد عائفاً : قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام . وأما فىالصفات.فبأن يقمع الشهوات *و*يكدّر اللذات فتصير المعــاصي الحبوبة عنده مُـكروهة ، كما يصير العسل مكروهــا عنــد من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستـكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يعدير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره ولايكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والصنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والـكلمات، ويكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار لايدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لامتسع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الحوف واستولى عليه ، وهكذا كانحال جماعة من الصحابة والتابعين وقرّة المراقبة والمحماسبة والمجاهدة بحسب قرّة الحنوف الذي هو تألم القلب واحتراقه ، وقوة الحوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها.ن الاخطار والاهوال ، وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الاعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً ، فإن زادت قوَّنه كف عما يتطرّق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لايتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريبه إلى ما لا يرببه وقد يحمله على أن يتركما لابأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق ف التقوى ، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لايبني مالا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنهــا تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيةا ، ويدخل في الصــدق النقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة من الامتناع عن مقتضي الشهوات خاصة ؛ فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدّد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كفءن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لانه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميما ، وورا. السم الصديق والمقرّب، وتجرى الرّبة الآخرة مما قبلهـا مجرى الآخص من الاعم ؛ فإذا ذكرت الآخص فقد ذكرت الـكل ، كما أنك تقول : الإنسان إما عربي وإما عجمي ، والعربي إماةرشيأوغيره ، والقرشي[ماهاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علوى وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه ، فكذلك إذا فلت صدّيق فقد قلت : إنه تق وورع وعفيف، فلا ينبغي أن تظنّ أن كثَّرة هذه الآسامي تدلُّ على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عايك كما اختلط

⁽۱) حدیث « أنا أخوفسكم لله » أخرجه البخاری من حدیث أنس « والله انی لأخشاكم فة وأنقاكم له » وللشبخیز من حدیث عائشة « والله انی لأعلمهم بافة وأشدهم له خشیة » .

على من طلب المعانى من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعانى ، فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوفوما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

ِ اعلم أن الحوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فسكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد ! وهو غلط ، بَل الحَوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والاصلح للبهيمة أن لاتخلو عن سوط وكذا الصي ، ولكن ذلك لايدل على أنَّ المبالغة في الضرب محمودة ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط ؛ فأما الفاصر منه فهوالذي يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية منالقرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سببهائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها إلى المقصـد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الحوف ، بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك بما قد عز وجوده الآن ؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت ، لا ، كفرت ، وإن قلت ، نعم ، كذبت ، وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهوحديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمي خوفًا . وأما المفرط فإنه الذي يقوى وبجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنرط ، وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل ، وقد يخرج الحوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ؛ فالمراد من الحوف ماهو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أس، ولوعرف لم يكن خائفا لآن المخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لايقدر على دفعه ؛ فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدى ، وإنمـا المحمود في نفسـه وذاته هو العـلم والقـدرة ، وكل مايحـوز أن يوصـف الله تعـالي به وما لا يجوز وصف الله تعمالي به فليس بـكمال في ذاته ، وأنمـا يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ،كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لانه أهون من ألم المرص والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخرف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها ، وإنمــا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوفالمفرط المفضى إلى القنوط أوأحد هذه الامور ، فكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم ، وفائدة الحنوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة إلى الله تعمالي ، وكلذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فمكل مايقدح في هذه الأسباب فهو مذموم . * فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ! فاعلم أنّ معنىكونه شهيدا أنَّ لهرتبة بسبب موته من الحوف كان لاينالهــا لومات في ذلك الوقت لابسنب الحوف ، فهوبالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليسبفضيلة ، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترقيق درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولو لاهذا لمكانت رتبة صبي يقتل أو بجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبى أو ولى يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغى أن يظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعمل ؛ فمكل ما أبطل العمر أوالعقل أو الصحة التى يتعمل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر ! كاكانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين ، فإذن الحوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذي لا يريد في حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي المكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يشمر درجات الصديقين : وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعمل حتى لا يبتى لغير الله تعالى فيه متسع ؛ فهذا أقصى ما يحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محمودا لمما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين لللازمين للجوع أياما كشيرة : احفظوا عقوله كم فإنه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى مايخاف منه

اعلم أن الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمسكروه أما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لآنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لآدائها إلى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها إلى الموت ، فلابدّ لـكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائمنين يختلف فيها يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره : كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتهام حقوق آلله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدِّلها بالقساوة . أو خوف الميلءن الاستقامة ، أوخوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المـألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي أتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أوخوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم : أوخوف انكشاف غوائل طاعانه حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب ، أوخوف تبعات الناسعنده في الغيبة والحيانة والغش و إضمار السوء ، أوخوف ما لايدرى أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه . أو خوف الحتم له عندالموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة التي سبقت له في الازل . فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة : وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف مناطلاع الله تعالى علىسريرته يشتغل بتطهير قلبه عنالوساوس ، وهكذا إلىبقية الأقسام . وأغلبهذه المخاوفعلي اليقينخوف الحاتمة ، فإن الامر فيه مخطر ، وأعلى الانسام وأدلها على كال المعرفة خوف السابقة ؛ لأنَّ الحائمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كشيرة ، فالحاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والحاتف من الحاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حتهما بتوقييع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بمد ، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه

عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملكوكيفيته وأنه ماالذي خطرله في حال التوقيع من رحمةأوغضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ماهو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الازلى الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى مايظهر في الآبد؛ وإليه أشار الني صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمني ثم قال : ، هذا كتاب الله كـتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فهم ولاينقص ، ثم قبض كفه اليسرى وقال ، هذا كتابالله كستب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لايزاد فهم ولاينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة . وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق نافة ، السعيد من سعد بقضاء الله ، والشق من شقى بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم (١) ! وهذا كانقسام ألحائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته ، و إلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لامحالة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين ، وأماالآخر فهو في عرصة الغرور والأمن ، إنواظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصدّيقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تمالى ، وكلمن عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية ؛ بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولو لا أنه مخوف في نفسه لمــا سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها ، فإن تيسبر أسماب الممصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولاسبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصي قد قضي عليه بالمعصية شاء أم أبي ، وكذا المطبع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أباجهل في أسفل سافلين منغير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله ، فإنّ من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة و بعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا ، والذي عصى عصى لانه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا ، فليت شعرى ماالذيأوجب إكرام هذاو تخصيصه تسليط إرادة الطاعات عليه ، وماالذيأوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ و إذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الازلى من غير جناية ولاو سيلة فالخوف بمن يقضي بمـا يشاء ويحكم بمـا يربد حزم عندكل عاقل ، ووراء هذا المعني سر القدر لايجوز إفشاؤه ولا يمكنأن تفهم الخوف منه فيصفاته جلجلاله إلامثال لولا إذنالشرع لم يستجرئ علىذكره ذو بصيرة، فقد جاءفي الخبر: إن الله تعمالي أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود خفي كما تخاف السبع الضارى ٢١ . فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإنَّ الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لاهله . والحاصل أن السبح يخاف لالجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبرهوهيبته ، ولأنه يفعلمايفعل ولايبالى ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخسمن أن يلتفت إليك حياكنت أوميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك بملة عنده علىوتيرة واحدة ، إذ لايقدح

⁽۱) حديث و هذاكتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث عبد الله المنعمرو بن العاس وقال: حسن صحيح غريب . (۲) حديث و ان الله تعالى أوحى الى داود: ياداود ، خفني كا يخاف السبم المنارى ، لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد بايراده أبه من الإسرائيليات ، قانه عبر عنه بقوله: جاه في الحبر ، وكثيرا ما يعبد بذك عن الإسرائيليات التي هي غير مم فوعة

ذلك في عالم سبعيته وماهو موصوف به من قدرته وسطوته ، ولقه المثل الأعلى ، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله ، هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى التار ولا أبالى و يكفيك من موجبات الهمية والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة . الطبقة الثانية من الخاتمفين : أن يتثمل في أنفسهم ماهو الممكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدته ، أوسؤال منكر ونكير ، أوعذاب القبر، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير ، أو الحوف من الخرف من المنار وأغلالها وأهوالها ، أو الحوف من الحرمان عن الجندار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات ، أو الحوف من الحجاب عن الله تعالى وموف المراق والحجاب عن الله تعالى وهو في في العارفين وما قبل لا المحالة المعروف الفراق والحجاب عن الله تعالى وموف العارفين وما قبل ذلك هوخوف العاملين والسالحين والواهدين وكافة العالمين ، ومن لم تدكل معرفته ولم تنفت خوف العارفين و المعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب من المدونة المجاب من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لايصدق به لأنه لايعرف إلالذة البطن من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لايصدق به لأنه لايعرف إلالذة المارفين من أن يشرحه له غيره ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، وألم هذه الأقسام يرجع خوف الخاتمين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والاخبار .

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة ، إذ لامقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لاوصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ، ولا تحصل الحجبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كا تنقمع بنار الحوف ؛ فالحوف هوالنار المحرفة الشهوات ؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي و يحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الحوف كا سبق ، وكيف لا يكون الحرف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الاعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلني .

وأما بطريق الانتباس من الآيات والآخبار فما ورد فى فضيلة الحنوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان ، وقال الله تعالى (وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وصفهم بالعملم لحشيتهم . وقال عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الحرف ، لأنّ الحوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الحائفون

فإنّ لهم الرفيق الآعلى لا يشاركون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الآعلى ، وذلك لانهم العلماءوالعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لمـا خيرًا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول . أسألك الرفيق الأعلى "" ، فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخنى ما ورد في فضائلهما ، حتى إنّ العافب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعمالي والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و آله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى ﴿ إِن يَنَالُ اللهُ لحومها ولا دماؤها ولكن بناله التقوى منكم ﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقنضى الحوف -كاً سبق ـ ولذلك قال تعالى ﴿ إِن أَكُرُ مُكُمَّ عَنْدُ اللَّهُ أَتَقَاكُم ﴾ ولذلك أوصى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ﴿ ولقد وصينا الذينَ أوتوا الكتاب من قبلكم و إياكم أن آ تقوا الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ وَعَافُونَ إِنْ كُنتُم مؤمنين ﴾ فأس ما لمنه في وأوجيه وشرطه في الإيمان . فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه يحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى دوإذا جمع الله الأؤلمن والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيها الناس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسبا وجعلتم نسباً ، فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم ، قلت ﴿ إِنْ أَكْرِمُكُمْ عَنْدُ اللَّهُ أَتْقَاكُمْ ﴾ وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فاليوم أضع نسبكم وأرَفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع القوم لواءفيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام . رأس الحُكمة مخافة الله (٣) ، وقال عليـه الصلاة والسلام لابن مسعود ، إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (١) ، وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وقال يحي بن معاذ : ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفوكثعلب بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لايبتي أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإنى أستحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهـذه الآساى ، وكذلك ما ورد فى فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال (سيذكر من يخشى)

⁽۱) حديث: لما خير في مهض موته كان يقول و أسأك الرفيق الأعلى » متفق عليه منحديث عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيبه و لمه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير » فلما نزل به ورأسه في حجرى غدى عليه ثم أفاق فأشخص بيصره إلى سقف البيت ثم قال و اللهم الرفيق الأعلى » فعلت أنه لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان محدثنا وهو صحيبه ... الحديث . (۲) حديث و لذا جم الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقساهم كايسمه أدناهم في عيل المناس المن قداً مصداليد كم منذ خلقت كم الحيوم هذا فأسترا الح البوم ، إنما على أعماله في أتناسير مقتصرا على آخره لمن جعلت السبا ... الحديث » أخرجه العابراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثملي في أنته سير مقتصرا على آخره ولي جعلت السبا ... الحديث » من حديث أبي هريمة .

⁽٣) حديث « رأس الحسكة مخافة الله » رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق ، والبيهق في الشب ، وضعفه من حديث ابن مسعود ، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامي ولايصح أيضاً .

⁽٤) حديث « لمن أردت أن تلقاني فأكثر من الحوف بعدى ٤٠ قاله لابن مسعود : لم أقف له على أصل . (٢١ --- لنعياء علوم الدين --- ٤)

وقال تعالى ﴿ وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنْتَانَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم , قال الله عز وجل : وعزتى لا أجمـع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمنى في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافتي في الدنيا أمنته يوم القيامة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم . من خاف الله تعالى خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوّفه الله من كل شيء (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أَتُمَـكُمْ عَقَلَا أَشَدُّكُمْ خُوفًا لله تعالى ، وأحسنكم فيها أمر الله تعالى مهونهي عنه نظرًا (١٣) . وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف الناركما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضا : ينبغي أن بكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضريريقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لآنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع المالكين . وقيل ليحيي بن معاذ من آمن الحلق غدا؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لاتجد آلحوف حتى تأكل الحلال.وقيل للحسن، بأبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أفواما يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير ا فقال : والله إنك إن تخالط أفواما يخوّفونك حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أفواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف. وقال أبو سليمان الدار انى رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب . وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يارسول الله ﴿ الذين يؤتُونَ مَا آتُوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال , لا ، بل الرجل يصوم و يصلي و يتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (١١) . والتشديدات الواردة في الامن من مكر الله وعذابه لاتنحصر ، وكل ذلك ثناء على الحنوف ، لانّ مذمةالشيءثناءعلى صده الذي ينفيه ، وضدّ الخوف الامن ، كما أن ضدّ الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الآمن على فضيلة الخوف المضاد لهبل نقول ؛ كل ماوردفي فضل الرجاء فهودليل على فضل الخوف لانهما متلازمان ، فإنَّ كل من رجا محبوبًا فلا بدَّ وأن يخافُ فوته ، فإن كانلايخافُ فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما علىالآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولايلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بمـا هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لايرجى ولايخاف ؛ فإذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ؛ وتقديرعدمه يوجع القلبوهوالخوف ، والتقديران يتقابلان لاعالة إذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحــد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا ، فيـكمون ذلك سببغلبة أحدُهماعلى الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخنى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى · ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغُهَا وَرَهُمُا ﴾ وقال عزوحل ﴿ يَدْعُونَ رَبُّهُمْ خُوفًا وَطَمْعًا ﴾ ولذلك عبر العرب عن الخرف

⁽۱) حديث و لاأجم على عبدى خودين ولاأجم له أماين ، أخرجه ابن حبان في صميحه ، والبيهق في الشعب من حديث أبي هر يرة ، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخالفين من رواية الحسن مهسلا .

ربي مريرد ، وروده بن ميمود في موسد وبن بل معنيا في مدينه الله الشيخ ابن حبان في كتاب النواب من حديث أبي أمامة (٢) حديث و من خاف الله خافه كل شيء ... الحديث » رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب النواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل » وقد تقدم .

⁽٣) حديث ﴿ أَيْمَـكُم عَمْلًا أَشْدَكُم لِلَّهُ خُوطًا ... الحديث ﴾ لم أفف له على أصل ؛ ولم يصبح في فضل المقل شيء .

⁽٤) حديث عائشة : فأن بارسول الله (الذين يؤتون ما آنوا وفلوبهم وجلة) هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال « ٧٠٠٠ الحديث » رواء الترمذى وإن ماجه والحاكم وقال صيح الإسناد . قات : بلمنقطم بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن الرحمن بن حارم عن أبي هر برة .

بالرجاء ، فقال تعالى ﴿ مالسكم لاترحون نقه وقارا ﴾ أى لاتخافون ، وكثيرا ماورد في القرآن الرجاء بمعني النحرف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه ، بل أقول : كل مادردفي فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى ﴿ فليضحكوا فليلاوليبكواكثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ وقال عز وجل ﴿ أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم و مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تمالى ثم قصيب شيئًا من حرّ وجهه إلا حرّمه الله على النار (١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم و إذا أفشعر قلب المؤمن من خشية الله تعالى حقيقت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها (١٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم و لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حقيعود اللبن في الضرع (١٢) ، وقال على الله عنه إلى الله أيدخل أحد من أمتك وليسعك بيتك وا بك على خطيقتك (١٤) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله أيدخل أحد من أمتك من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهر يقت في سبيل الله سبحانه وتعالى (١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم و مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهر يقت في سبيل الله سبحانه وتعالى (١١) ، وقال صلى الله عنه أن تصير الدموع دما والاضراس من قطرة دمع من غشية الله عليه وسلم و سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله ، وذكر منهم و رجلا ذكر الله جراً (١١) ، وقال صلى الله ففاضت عيناه (١١) ،

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتاك.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول . بَلغنى أن النـــار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لويملم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه .

وقال أبوسليمان الداراني رحمه الله : ما تغرغرت عين بمـاثها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولاذلة يوم القيامة ،

⁽۱) حدیث « مامن مؤمن یخرج من عینه دمه و الن کانت مثل رأس الذباب ... الحدیث » أخرجه الطبرانی والبیهتی ف الشعب من حدیث ابن مسمود بسند ضعیف . (۲) حدیث « اذا اقشعر جلد المؤمن من خشیه الله محات عنا ذنوبه .. الحدیث » أخرجه الطبرانی والبیهتی فیه من حدیث العباس بسند ضعیف . (۳) حدیث « لایلج النار عبد بکی من خشیه المه .. الحدیث » أخرجه الترمذی و قال : حدن صحیح » و اللمائی و ابن ماجه من حدیث أبی هریره .

⁽١) حديث قال عقبة بن عاصم : ما النجاة بارسول الله ؟ قال « أمسك عابك اسانك ... الحديث ، أقدم .

⁽ه) حدیث عائشة : قلت أیدخل الجنة أحد من أمتك بنیر حساب ؟ قال « اسم من ذكر ذلوبه فیكی » لم أقضاله على أصل ، (۲) حدیث « مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشیة الله ... الجدیث » أخرجه البرمذى من حدیث أبى أمامة وقال : حسن غریب ، وقد تقدم . (۷) حدیث « اللهم ارزقنی عبنین هطالتین بدفیان القلب بذروف الدم .. الجدیث » أخرجه العابرانی فی السكنیم فی الحلیة من حدیث این عمر بإسناد حسن ، ورواه الحسین المروزى فرزیاداته على الزهد والم قائق لابن المبرك من روایة سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر « الله » وذكر الدارقطني في الملل أن من قال فیه « عن أبیه » والم المبارك من رائه سالم بن عبد الله الحاربي وایس بابن عمر انهى » وماذكره من أنه سالم المحاربي هو الذى يدل عليه كلام البخارى في التاريخ وسلم في السكني وابن أبي حام عن أبيه وأبي أحدالحاكم في الراوى له عن سالم عبد الله أبو سالم بن عبد الله بن عبد من حدیث « سبعة بظلهم الله في ظله . . ، الحدیث مطبق عليه من حدیث أبي حریرة ، وقد تقدم .

فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ، ولو أن رجلا بكى فى أمة ماعذبت تلك الامة . وقال أبو سلبمان البكاء من الحنوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الاحبار رضى الله عنه . والذى نفسى بيده ؛ لأن أبكى من خشيةًالله حتى تسيل دموعى علىوجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رمنى الله عنهما . لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدّن بألف دينار . وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القاوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننامن حديث الدنيا فنسيت ماكنا عليه عندرسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ، ثم تذكرت ماكنا فيه فقلت في نفسى . قد نافقت حيث تحوّل عنى ماكنت فيه من الحنوف والرقة ، فحرجت وجعلت أنادى ، نافق حنظلة ، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال .كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله عليه وسلم ومنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ماكنا عندك عليه . فقال صلى الله عليه وسلم و ياحنظلة لو أنك ياحنظلة ساعة وساعة (۱۱) ، وياحنظلة لو أنك كنتم أبدا على تلك الحالة لصالحت كم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم ؛ ولكن ياحنظلة ساعة وساعة (۱۱) ، فإذن كل ماورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الآمن فهو دلالة على فضل الحوف ؛ لآن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أنّ الآخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليها فيعتريه شك في أن الافضل أيها ، وقول القائل : الخبر أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل : الخبر أفضل أم الماء ؟ وجوابه أن يقال : الخبر أفضل للجائع ، والماء أفضل للمطشان ، فإن اجتمعا فظر إلى الآغلب : فإن كان الجوع أغلب فالخبر أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لآن كل ما يراد لمقصود فله ينظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب داء الآمن من مكر الله تعملل والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الخالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويحوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبر أفضل من السكنجبين مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبر أكثر فهو أفضل ، فبهذا الموجاء أفضل لابه مستق من بحر الرحمة ، ومستق الخوف من بحر الرحمة ، ومستق الخوف من بحر الرحمة ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى مايقتضي اللطف والرحمة كانت الحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات الله تعالى الصفات النه قدالى السفات الى تعتضى العنف فلا تمازجه المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات النه قالمها الناق العنف فلا تمازجه المحبة عاله بالعبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات النه قدت العلمة . وأما الخوف فستنده الالتفات الى الصفات النه قالم العلمة . وأما الخوف فستنده الالتفات الحبة .

⁽١) حديث حنفالة : كنا عند رسول الله على الله عليه وسلم فوعظنا ... الحديث ، وفيه «نافقحنظلة الحديث »وفيه « واكن ياحنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم مختصرا ،

وعلى الجملة في يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الآصلح لا لفظ الآفضل فنقول: أكثر الخلق النحوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لآجل غلبة المعاصى. فأما التق الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لووزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلاً. وروى أنّ علياكرم الله وجهه قال المعض ولده: يابنى خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الآرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الآرض غفرها لك، ولذلك قال عمر رضى الله عنه: لونودى ليدخل الناركل الناس الارجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وله نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالها مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل النقاوم والنساوى ؟ فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه ؟ فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أمروا بدخول الناركان ذلك دليلا على اغتراره.

ه فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لاينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجا. الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا يذبغي أن تكون أحوال المتقين ! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والامثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهي مانحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الارض ونقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهوا. وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها ، وإنمــا مثال مسألتنا بذر لم بجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهي في بلاد ليس يُدري أتبكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه بجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه ، والبذر في مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة ، والارض القلب ـ وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الحنى والنفاق والرياء وخفايا الآخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال ، وذلك بما لايتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض منالاسباب مالا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله ، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك بما لم يجرّب مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرّب ، فمن عرف حقائق هذه الامور فإن كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لامحالة كا سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابدين ، وإنكان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاؤه فلا ، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئًا ، إذ كان قد خصهرسول اللهصلىالله عليه وسلم بعلم المنافقين(١) ، فن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفاياالنفاق والشرك الخني ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فن أين بأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الحاتمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم إنَّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لاينتي بينه وبين الجنة إلا شبر ١٢١ . . وفي رواية ﴿ إِلا قدر فواق

⁽١) حديث : أن حديثة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حديثة « في أصحابي اتنا عصر منافقا » تمسامه « لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الحديث » .

⁽٢) حديث ه لمن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمين سنة حتى لأيبق بينه وبين الجنة الا شهر ، وفي رواية « الاقدرفواق =

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وقدر فواق الناقة لايحتمل عملا بالجوارح إيما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء ، فكيف بؤمن ذلك ؟ فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة الاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أنى عليهم فقال تعالى (يدعون ربهم خوفا وطمعاً) وقال عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) وأين مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالحلق الموجودة في هذا الزمان كاهم الاصلح لهم غلبة الحوف ، بشرط أنّ لايخرجهم مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالحلق الموجودة في هذا الزمان كاهم الاصلح لهم غلبة الحوف ، بشرط أنّ لايخرجهم لى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك بباللتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في المعاصى فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكذر جميع الشهوات ويز عج القلب عن الركون في الحمود ، دون حديث النفس الذي لايؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب القنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الحنوف غرق فى بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ، ومن عبده بالحنوف والرجاء استقام فى محجةالادّ كار .

وقال مكحول الدمشق : من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد .

فإذن لابد من الجمع بين هذه الامور ، وغلبة الحوف هو الاصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت ، فلات الموت ، فلات الحول الموت اللوت اللوت الله المحال على المعمل ، لان الحوف جار بجرى السوط الباعث على العسمل وقد انقضى وقت العمل ، فللشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الحوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه ، ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا إلا يحبأ لله تعالى ليكون بحبا للقاء الله تعالى أحب الله لقاء ه ، والرجاء تقارنه المحبق فن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشمر المعرفة المحبة ، فن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه والقدوام بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه عظم سراوره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتذت مخته و عنابه ، فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب : فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن الجمعة لجميع الحاب ، فوته خروج من الجنة وحيارلة بينه وبين مايشتهيه ، ولا يختى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه ، ولا يختى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه ، فإذا لم يكن له محبوب صوى لذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن الحبوب فالدنيا إذن سجنه ، لا السجن عبارة عن البقمة المائمة المائمة المعمون عن الإسترواح إلى محابه ، فوته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن وخلاص من السجن وخل بينه وبين محبوبه بلا مانع و لا مكذر ، فهذا أول ماياتماه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والمقاب فضلا عما أعده الله لمباده الصالحين بما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولاخطر على قلب بشر ، وفضلا عما أعده الله لمذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إلها من على قلب بشر ، وفضلا عما أعده الله تمال استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إلها من على على على معرفة من الشواب والعمائوا المهام المرفقة على المنودة ورضوا بها واطمأنوا المها ملى على على المرفقة والدنيا على المنود على المنابع والعمائوا المهام على عابه موته من الثواب والعمائوا المها المنابع المنابع المنابع المعرفة على المنابع المعرفة على المنابع المعرفة على المعرف

⁼ ناقة ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « از الرجل ليعمل الزمن العلويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار » والعبرار والعبراني في الأوسط « سبعين سنة » واسناده حسن . والشيخين في أثناء حديث لان مسمود « ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايسكون ببنه وبينها الا ذراع ... الحديث » ايس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولاذكر « شبر » ولا « فواق ناقة » .

الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزى والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سليل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع الملائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالاولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال والمهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد (١) ، والفرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لانه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لانه أحرق لنار الشهوات وأقم لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ولا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (٢) ، وقال تعالى و أنا عند ظن عبدى في فليظن بى ماشاه به ولما حضرت سليان التيمى الوفاة قال لابنه عابى عبد للوت: الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله برجونه . وقال أحمد بن خبل رضى الله تعمل عنه لابنه عند الموت: اذكر لى الاخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعمل إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله تعمل إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حبني إلى عبادى . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلائي وفعائى، فإذن غاية السعادة أن يموت مجبا لله تعمل إلى بعض الصالحين أبا سلمان الداراني في المنام وهو يطير ، فلذنيا كلها كالسجن الممافرة بالمونة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تعسير الدنيا كلها كالسجن المماف المنا ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سلمان الداراني في المنام وهو يطير ، فلذنيا كلها كالسجن الماف ، قالما ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سلمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ، قالما ، قالما و من حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذي به يستحلب حال الخوف

اعلم أن ماذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هوكاف في هذا الفرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجندة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ؛ والنار قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ؛ والنار قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء ؛ والنار قد حفت الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله قمالي والفكر فيه على الدوام، ويؤدى دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كال المعرفة ، ويؤدى كال المعرفة والآنس إلى الحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في المعرفة ، ويؤدى كال المعرفة والرباء ، ولا بمدهما مقام سوى الصبر ، وبه الجاهدة والتجرد لله ظاهرا و باطا، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا الحديد و الكرفة ، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقين عتلفين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربماكان لا يخاف، وربما مقار، فإذا نظر الصبي إلى أبيه ليأخذها ويلمب بها ، ولكن إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربماكان لا يخاف، وربما مقار، فإذا نظر الصبي إلى أبيه ليأخذه الميا

⁽۱) حديث « اللهم ارزتني حبك وحب من أحبك . . . الحديث » أخرجه الثرمذي من حديث مماذ ، وتقدم في الأذكار والدعوات . (۲) حديث ولايمو ن أسدكم الأوهو يحسِن الغان بربه » أخرجه مسلم من حديث جابر ، وقد تقدم .

وهو ترتَّعد فرائصه ومحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب؛ فخوف الآب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه رقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإبمــانه بمجرّدالتقليد لآنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لايخاف إلا من سبب بخوف في نفسه ، فيعلم أنّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ۽ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عز وجل ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وأما الأوّل فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمـان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضدفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإيما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يومالقيامة وأصناف العذاب في الآخرة ، وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين وبجالستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فانت المشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير ، وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ﴿ إنمـا يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصي ربمـا يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لابيه ، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار ؛ فإذن من ارتق إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا في مخالبه لايحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبي ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفنيكا تخاف السبع الضارى . ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أمه يفعل مايشا. ولا يبالى ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جربمة سالفة ، بل صفته ماترجمه قوله تعالى : هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطبيع شاء أم أبي ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبي ، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة ، فإن كان أبعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أوّل لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عـبر صلى الله عليه وسلم إذ قال, احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما ، فحج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذي خلفك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائمكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها تبيان كل شيء وقرّبك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربدين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وعصىَ آدم ربه فغوى ﴾ قال نعم . قال : أفنلومني على

أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال صلى الله عليـه وسلم ، فحج آدم موسى (١) ، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ، ومن سمع هذا فأمن به وصدّق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لـكل واحد من الفريقين خوف؛ فإن كلُّ عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمى اتفاقا ، وإناضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا ، والواقع في عنالب السبع لوكملت معرفته لكان لايخاف السبع ؛ لأنَّ السبع مسخر : إن سلط عليه الجوع افترس ، وإنَّ سلط عليه الغفلة خلى وترك ، فإنمــا يخاف خالق السبــع وخالق صفاته ، فلست أقول مثال الحوف من الله تعالى الحوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أنَّ الحوف من السبع هو عين الحوف من الله تعالى ، لأنَّ المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أنَّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعـالى خلق|أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لمكلّ واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلى إلى ما خلق له ، فخلق الجنــة وخلق لها أهلا سخروا لاسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق آلنار وخلق لها أهلا سخروا لاسبابها شاءوا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالعرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسهاع الاخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخاتفين العارفين وأفوالهم ، وينسب عقولهم ومناصهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى في أن الافتداء بهم أولى لانهم الانبياء والاولياء والعلساء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والاغبياء . أما رسولنا صلى الله عليمه وسلم فهو سيد الأوَّلين والآخرين (٢) وكان أشدَّ الناس خوفًا (٣) حتى روى أنه كان يصلي على طفل: فني رواية أنه سمع في دعائه يقول واللهم قه عذاب القبر وعذاب النــار (١) ، وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلًا يقول : هنيثًا لك ، عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال دما يدريك أنه كذلك ، والله إنى رسول الله ، وما أدرى ما يصنع بي ا إن الله خلق الجنة وخلق لهـا أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم (٠) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظمون وكان من المهاجرين الآولين لما قالت أم سلمة : هنيثا لك الجنة، فمكانت تقول أمسلمة بعد ذلك: والله لاأزكى أحدا بعد عثمان (٦) ، وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه

⁽۱) حدیث د احتج آدم وموسی عند ربهما ، فحج آدم موسی ۱۰۰۰ لحدیث ، أخرجه مسلم س حدیث أبی در برة ، وهو متلق علیه بألفاظ أخر .

⁽٤) حديث انه كان يصلى على طفل فسم فى دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وهذاب النار » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم سلى على سبى أو صبية وقال « لوكان أحد نجا من شمة القبر لنجا هذا السبى » واختلف فى اسناده ، فرواه فى السكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أفلت أحد من شمة القبر لأفلت هذا السبى » (ه) حديث: انه سمى قائلة تقول لطفل مات: هنيئا فى عصفور من عصافير الجنة ، فنضب وقال المهريك ، الحديث ، أخرجه عسلم من حذيث عائمة قالت: "توفى سبى فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، من الحديث و ما يدريك ، الحديث ، أخرجه وليس فيه فنضب ، وقد تقدم ، (٦) حديث: لما توفى هنمان بن مظمول قالت أم سلمة : هنيئالك الجنة ، الحديث ، أخرجه البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكر مك الله ، قال «ومايدريك الجديث » وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة ،

وسلم ولا أبي الذي ولدني ، قال : فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علىومناقبه ، وروى ف-ديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيثًا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وقتلت في سبيل الله فقـال صلى الله عليـه وسـلم ﴿ وَمَا يَدْرَيْكُ الْمُلَّهُ كَانَ يَسْكُلُم بمَا لا ينفعه ويمنع مالايضره (١) ﴾ وفي حديث آخر . أنه دخل صلىالله عليه وسلم على بعض أصحابه و هو عليل فسمع امرأة تقول : هنيثًا لك الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم . من هذه المتألية على الله تمالى ؟ . فقال المريض : هي أم يارسول الله ، فقال « وما يدريك ، لعل فلاناكان يتكلم بمــا لا يعنيه ويبخل بمــالا يغنيه (^{۲)} ، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتني هود وأخواتها (١٦) ، سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقــال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ﴿ أَلَا بَعْدًا لَعَادَ قُومُ هُودٌ ﴾ ﴿ أَلَا بَعْدًا لَهُودٍ ﴾ ﴿ أَلَا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذْ لوشاء لآني كل نفس هداها وفي سورة الواقعة ﴿ ليس لُوقعتها كاذبة ، خافضة رأفعة ﴾ أي جف القلم بمــا هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة : إما خافعنة قوماكانوا مرفوعين في الدنيا ، وإمارافعة قوماكانوا مخفوضين في الدنيا . وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعمالي ﴿ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما احضرت ﴾ وفي عم يتساءلون ﴿ يوم ينظر المرم ما قدّمت يداه ﴾ الآية ، وقوله تعمالي ﴿ لايتمكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صُوابًا﴾ والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعمالي ﴿ وَإِنَّى لَغَفَارَ لَمْنَ نَابِ وَآمَنَ وَعَمَلُ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ لـكان كافياً ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العُبِد عن آحادها ، وأشدّ منه قوله تعالى ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ وقوله تعمالي ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ وقوله تعمالي ﴿ سنفرغ لـكم أيه الثقلان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ أَفَأَمَنُوا مكر الله ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد ﴾ وقوله تعمالي ﴿ يَوْمُ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنُ وَقُدا ﴾ الآيتين . وقوله تعمالي ﴿ وَإِنْ مَنْكُمُ إِلَّا وَارْدُهَا ﴾ الآية وقوله ﴿ اعملوا ماشتتم ﴾ الآية : وقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نرد له في حرثه ﴾ الآية . وقوله ﴿ فن يعمل مثقال ذرَّهُ خيراً يره ﴾ الآيتين . وقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل ﴾ الآية . وكذلك قوله تعمالي ﴿ والعصر إن الإنسان لني خسر ﴾ إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحسران، وإنماكان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم لانهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الحاسرون ﴾ حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفامن الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك؟ (١٤) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لاوقوف لهما علىغاية الامورلم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكا ، ابتلاء وامتحانا لهما ومكر ا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما

⁽۱) حدیث: لمن رجلا من أهل الصفة استمهد فقالت أمه : هنیئا للی یا بنی الجنة . رواه البیهتی فی الشعب ، لملا أنه قال فقالت أمه : هنیئا للی المبینة ، وقد تقدم فی ذم المال والبخل فقالت أمه : هنیئا للی المبینة ، وقد تقدم فی ذم المال والبخل مع اختلاف . . . (۲) حدیث : دخل علی بعض أصما به وهو علیل فسم اصرأة تقول : هنیئا له الجنة . . . الحدیث ، تقدم أیضا ، (۳) حدیث ه شیبتی هود و أخواتها . . . الحدیث ، أخرجه التره ذی وحدیه ، والحاکم و صححه من حدیث ابن عباس ، وهو فی اله مائل من حدیث أبی جحیفة . وقد تقدم فی کتاب السماع . (۱) حدیث : أنه و جبربل سلی الله علیهما و سلم بکیا خوفا من الله غلیهما و سلم بکیا خوفا من شاه بن شاه بن فی شهر السنة من حدیث عمر ، ورویناه فی مجلس من أمالي أبی سعید النقاش . بسند ضعیف

كما أنَّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم لمــا وضع في المنجنيق قال : حسبي الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فـكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال ﴿ وَإِبْرَاهِيمِ الذِّي وَفَى ﴾ أي بموجب قوله : حسبي الله ، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله علبه وسلم حيث قال ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغي ، قال لاتخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ ومع هذا لما ألق السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة ؛ إذا لم يأمن مكر الله والتبس الامر عليه حتى جدّد عليه الامن وقيل له ﴿ لا تَخِف إنك أنت الاعلى ﴾ ولمـا ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليـه وســلم . اللهم إن تُهلك مذه العصابة لم ببق على وجه الأرض أحد يعبدك (١) ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك ، فكان مقام الصدّيق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكانمقام رسولالله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لايصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعانى صفاته التي يعبر عن بعض مايصدر عنها بالمكر ؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لامحالة ، ولذلك قال المسيم صلى الله عليه وسلم لماقيل له ﴿ أَأَنت قلت للناس اتخذوني وأى إلهين من دونُ الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كـنت قلته فقد علمته تعلم مانى نفسى ولا أعلم مانى نفسك ﴾ وقال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية ، فوض الامر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالسكلية من البين ، لعله بأنه ليس له من الامر شيء وأن الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولاحدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبري هي ارتباط أمرك بمشيئة من لايبالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك عن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والإمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب علمهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ﴿ وَلُو شَنَّنَا لَآتِينَا كُلُّ نَفْسَ هَدَاهَا وَلَكُنَّ حَقَّ القول مَنْ لَأَمْلَانَّ جَهُمْ مِنَ الْجَنَّة والنَّاسَ أَجَمَّينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لاملان جهنم ﴾ الآية ؛ فكيف لايخاف ماحق من القول في الازل ولا يطمع في تداركه ولوكان الامر أنفا لكانت الاطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خنى السابقة من جلى الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته منالدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة ، إذكل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهر. وباطنه على الله مقبلاً : كان هذا يقتضي تخفيف الحوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ؛ ولكن خطر الحاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الحنوف إشعالا ولا يمكنها منالانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشدّ تقلبا من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل ﴿ إِنَّ عذاب ربهم غير مأمُّونَ ﴾ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الآمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلومهم بروح الرجاءلاحترقت قلوبهم من الرالخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسبـاب الغفلة رحمة على عوام الحلق من وجه ؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوبُ . قال بعض العسارفين : لوحالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين

⁽۱) حديث قال يوم بدر داللهم لمن تهلك هذه المصابة لم يبق على وجه الأرض أحد بعبدك » : أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ د اللهم لن شأت لم تعبد بعد اليوم ... الحديث » .

سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لانى لا أدرى ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام ، لانى لا أدرى ما يعرض لقلبي بين باب الدار والموت على الإسلام ، لانى لا أدرى ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار ، وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلاسابه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال (وقارمهم وجلة) .

ولما احتضر سفيان جعل يبكى ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبى أبكى لوعلمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألق الله بأمشال الجبال من الحطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتنى الوفاة فاقمد عند رأسى ، فإن رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفة قه .

وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر

وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب بى إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات .

وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصى ، ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر .

وروى فى أخبار الانبياء أنّ نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى الميه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقرّة إيمانهم من سوء الحاتمة فكيف لايخافه الضعفاء .

ولسوء الحاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن ؛ لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلى بماطلعت عليه الشمس وماعنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم ، أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اكتمن خان ، وإذا خاصم فجر (۱) ، وفي لفظ آخر ، وإذا عاهد غدر ، .

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إنّ من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعانى

⁽١) حديث د أربع من كن فيه فهو منافق ٠٠ الحديث ، متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرووةم في قواعد المقائد.

بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكر بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبرة، فكيف الظن بزماننا 1 حتى قال حذيفة رضي الله تعسسالي عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير بها منافقا إنى لاسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات (١١ . وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ؛ إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر (٢٦) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره منالناس ماتأتى مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣١ . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج ماضرا أكنت تتكلم ؛ا تكلمت به ؟ قال : لا . قال : كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ئ) . وأشدَ من ذلك ما روى أنّ نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظررنه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (··) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتى على القلب ساعة يمتليُّ بالإيمان حتى لايكون للنفاقفيهمغرز لمبرة ، ويأتى عليه ساءة يمتلئ بالنفاق حتى لايكون للايمان فيه مغرز إبرة ، فقد عرفت بهذا أنَّ خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأنَّ سببه أمرَ ر تتقدَّمه : منها البدع . ومنها المعاصي ، ومنها النفاق ، و متى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ! وإن ظنَّ أنه خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهر منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إنى أخاف على نفسي النفاق ، فقال : لوكنت منافقًا لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خاتفا منهما ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم • العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بق لا يدري ما الله قاض فيه ، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ١٦ م، والله المستعان .

بيان معنى سوء الخاتمة

ه فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة ، فما معنى سوء الحاتمة ؟ فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الآخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ماغلب على

⁽١) حديث حذيفة : لمن كان الرجل ليتكلم بالمسكلم بالمسكلة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا . . الحديث ، أخرجه أخد من حديث حذيفة ، وقد تفدم في قواعد العقائد .

⁽۲) حديث أسحاب رسول الله على الله عليه وسلم و لذكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ... الحديث ، أخرجه البخارى من حديث ألس وأحمد ، والبزار من حديث أبي سعيد ، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرس وصح اسناده و وتقدم في الله وقد ... الحديث ، والبزار من عديث أبي سعيد ، وأحمد والحاكم المقدولية على القولون ... الحديث ، واه أحمد والعلبراني ، وقد تقدم في قواعد المقائد . (٤) حديث سهم ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقم فيه فقال : أرأيت لوكان الحجاج حاضرا ... الحديث ، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج . (٥) حديث : لمن نفراقدد واعند باب حذيفة ينتظرونه ، فسكانوا يتكامون في شيء من شأنه ، فلمسا خرج سكتوا ... الحديث ، لمأجد له أصلا . ر٦) حديث ه العبد المؤمن بين عافتين : بين أجل قد مضى ... الحديث ، أخرجه البيهتي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله هليه وسلم ، وقد تقدم في ذم الدنيا : ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولهه في مسند الفردوس

القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أسر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبق في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب زل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه ؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار : جزيامؤمن فإن نورك أطفأ لهي ، فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالاس مخطر ، لأن المرء يموت على ماعاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى القلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه ، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال ؛ فلا مطمع في عمل ولا مطلع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدة مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال الموت في النار ، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين .

« فإن قلت : فحا ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فحا باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة ؟ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الابصار ماصحت به الاخبار وهو : أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (۱) وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم (۱) ، كا وردت به الاخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نول به البلاء إن كان قد شقى بسوء الحاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر (۱) والتعذيب بعده (۱) ، ثم المناقشة في الحساب (۱) والافتضاح على ملا من الاشهاد في القيامة (۱) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط (۱) وهو لى جملة الاحوال معذب إلا أن يتغمده الاخبار ، فلا يزال الشتى مترددا في جميح أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الاحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحته ، ولا تظنن أن محل الايمان لاياكله التراب ، بل التراب ياكل جميع الجوارح وببددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت الوكانة العناد باله المقبرة .

⁽۱) حديث ه القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب » وتقدم فى الأذكار . (۲) حديث ه أمه بله بله الممذب سبعون بابا من الجنعيم » لم أجد له أسلا . (۳) حديث سؤال منكر ونسكير عند الوضع فى القبر: تقدم فى قواعد المقائد . (٤) حديث هذاب القبر: تقدم فيه : (٥) حديث المناقمة فى المساب: تقدم فيه . (٢) حديث الافتصال على ملاً الأشهاد فى القيامة : رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر بإستاد جيد و من انتنى من ولده ليفضعه فى الدنيا فضعه الله على رءوس الأشهاد » وفى الصحيحين من حديث ابن عمر حواما السكافر والمافق فى الضفاء من حديث الفضيل بن عياض فينادى بهم على رءوس الحلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » والطبرانى والعقيل فى الضفاء من حديث الفضيل بن عياض ه فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » وهو حديث طويل منسكر . (٧) حديث خطر الصراط : تقدم فى قواعد المقائد (٨) حديث مول الزبانية أخرجه الطبرانى من حديث ألس « الزبانية يوم القيامة أسرع لل فسقه حملة القرآن منها لمل عبدة الأوثان والنبران » قال صاحب الميزان : حديث منسكر . وووى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم همضلافي خرنة جهم ما يين المعرق والمغرب .

* فإن قات : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ أسباب هـذه الأمور لايمكن إحصارُها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى بجامعها : أما الحتم على الشك والجخود فينحصر سببه في شيئين :

(أحدهما) يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال : كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جداً ، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعنى مُذهبا فأقول إنه بدعة ؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيــه ، بل أعنى بالبدعة : أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خــلاف ماهو عليمه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر ، وإما أخذاً بالتقليد بمن هذا حاله ؛ فإذا قربالموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بمـا فيه ربمـا يشكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منـه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ؛ فهما بطل عنده ماكان اعتقده وقدكان قاطعًا به متيقنًا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد محاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أنَّ كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق في إيمــانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون ا نكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها ، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمـــانفقد ختممله بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى ﴿ وَبِدَا لَهُمْ مِن اللهُ مَالم يكونُوا يحتسبون﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبتُكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وكما أنه ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشخال الدنيا عن القاب فكذلك ينكشف فيسكرات الموت بعض الامور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المــانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مانى اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ماهى عليه ، فيكون مثل هذه الحال سبها للكشف ، ويكون الكشف سبب الشُّك في بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئًا على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظرا بالرأى والمعقول ، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لايكني لدفع هذا الخطر ، بل لاينجيمنه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عنهذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمــانا بحملا راسخاً كالاعراب والسوادية وسائر الموام الذين لم يخوضوا فىالبحث والنظر ولم يشرعوافىالكلام استقلالا ولاصغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاو يلهم المختلقة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله (١). ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخومن في الكلام والتفتيش عن هذه الاممور ، وأمروا الحلق أن يقتصروا على أن يؤمنواً بماأنزلالةعزوجلجميماً وبكلماجاممنالظواهر معاعتقاده نفىالتشبيه ، ومنعوهم، الحنوض في التأويل لاً في المخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثودة ومسالكهوعرة ، والمقول عندركجلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القبلوب بما جبات عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببصناعة عقر لهم مصطرب ومتعارض ، والقلوب لما ألق إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعصيات الثائرة بين الحلق مسامير مؤكدة للمقائد الموروثة أو المأخرذة بحسن الفان من المملين في أول الاثم، ثم الطباع بحب المدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة ، فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناسف قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كلجاهل منهم على

⁽١) عديث ه أكثر أهل الجنة الله » أخرجه البرار من حديث أنس ؟ وقد تقدم .

أن يدعى الكال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين الميهم، وتأكد ذلك بطول الآلف فيهم، فانسد بالكلية طريق الحلاص عليهم، فكانت سلامة الحلق فيأن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم: ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان، ويظن أنماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ ولتعلن نبأه بعد حين ﴾ وينبغى أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ولم تخف سوء ماياتي به القدر وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاص في البحث ، فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببصاعة عقولهم إما مع الادلة التي حرّروها في تعصباتهم أو دون الادلة ، فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص ، وكل خائص في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المحكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبرة وذلك هو الكبريت الاحر ، وإني يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الحطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الاسباب المخطرة في سوء الحائمة .

(وأما السبب الثاني) فهو ضعف الإيمان في الأصل ، تم استيلاء حبالدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حبالدنيا ، فيصير بحيث لا يـق في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفةالنفس والعدول عن طريقالشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطني مافيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفًا لمـا يبدو من استشمار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، وبرىذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ماقدر عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أنَّ الذي يحب ولده حباً ضعيفًا إذا أخــذ ولده أمراله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً ، فإن الْفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسرِ م وهلك هلاكا مؤبداً ، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركرن إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا و إن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى ، إذ لا يحبه إلا من عرفه ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ قُلُ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأَبناؤُكُم وإخوانكم وأزواجكم وعشير تكم وأموال اقترفتموهاوتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من اللهورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فإذن كل من فارقتِه روحه في حالة خطرة الإنكار علىالله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ؟ فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخنى مايستحقه من الخزى والنكال ، وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعمل قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعا في لقائه ، فلا يخنى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرّد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الحاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار ، فلها أيضا سبيان :

(أحدهما)كثرة المعاصي وإن قرى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي ، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهواتورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة . وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعودذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الاكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الاكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟ فربمـا تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصيةمن المعاصي ، فيتقيدبها قلبه ويصير محجوبا عنالة تعالى ، فالذي لايقارف الذنب إلاالفية بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنبـا أصلا فهو بعيد جدا عن هــذا الخطر ، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطرعظيم في حقه جدا ، ونعرّف هذا بمثال : وهوأنه لايخني عليك أنالإنسان يرى في منامه جملة من الاحوال التي عهدها طول عمره ، حتى إنه لا يرى إلا ما يائل مشاهدته في اليقظة ، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لايري صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فىاليقظة ، ولو بق كذلك مدة لمـــا رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثم لايخني أن الذيقضي عمره في الفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر بمـا يراهالتاجر الذي قضي عمره في التجارة ، والتاجر يرى من الاحوال المتعلقة بالتجارة وأسبامها أكثر بمــا يراه الطبيب والفقه ؟ لانه إنما يظهر في حال النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الاسباب، والموتشبيه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره في القلبطولالإلف، فطولالإلف بالمعاصيوالطاعات أيضا مرجح ، وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلف سبب لان تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث رجي له الخلاص منها ، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى فمرف بعضها ولا فعرف بعضها ، كما أنا فعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه لما بالمشابهة ولمما بالمصنادة ولمما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلىجميل فيتذكر جميلاً آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فيأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مم إنسان فيتذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الخاطر منشيء إلىشي،ولايدري وجه منــاسبته له ، وإنمــا يكون ذلك بواسطة وواسطتين ، مثل أن ينتقل من شيء أن ، ومنه إلى شيء ثالث ، ثم ينسي الثاني ، ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبينالثاني مناسبة وبينالثاني والاول مناسبة ، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا ـ والعلم عندالله .. من كانت الحياطة أكثر أشغساله ، فإنك تراه يومي إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بهما ويبسل أصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمدّ يده إلى المقراض ، (٢٣ --- لخياء علوم الدين --- ١

ومن أراد أن بكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عنَّ الشر عدَّة وذخيرة لحسالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرم على ماعاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند المؤت كلمتي الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغولاالنفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت . وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألا نورا ، فلايكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليهـا ، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش ؛ فربمــا يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيــامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف ، وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن النـائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبَّوة ، فإذا رجع سوء الخــاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاكليا وإنكان لطول الإلف فيه تأثير ٬ فبهذا عظم خوف العــارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لوأراد الإنسان أن لابرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كــثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغـالب مناسبة ما يظهر في النوم لمـا غلب في اليقظة ، حتى سمعت الشبخ أبا على الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد اشيخه وأن لايكمون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسامه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناما لي وقلت : رأيتك قلت لي كذا ؛ فقلت : لم ذاك ؟ قال : فهجر ني شهرا و لم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال ؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف مايغلب في اليقظة على قلبه ؛ فهـذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعـاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، وقد ظهر لك بهذا أنَّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ؛ فإن كنت تعــلم أنّ ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الحوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الانبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحــد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أنَّ أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الآخير الذي عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إنى لاأعجب بمن هلك كيف هلك ، ولـكني أعجب بمن نجا كيف نجا ! ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائدكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجــا هذا من دنيــا فسد فيها خيارنا . وكان الثورى يوما يبكي فقيل له علام تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبـكي على الإسلام . وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة في حقهأبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدّ اضطرابًا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم النطامًا من أمواج البحر، وإنمــا المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الرجل ليعمــل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبتى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب (١) , ولا يتسع

⁽١) حديث • أن الرجل ايعمل بعمل أهل الجنة خسين سنة ... الحديث ، تقدم .

فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة ، بل هى الخواطر التى تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبى فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا : سوء الحياتمة ولاجل هذا الحظر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة . وأما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنياوالاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائما دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذى بايعه الله به ، إذ قال تعالى ﴿ إن الله الشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ والبائم راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ؛ وبحرد حب العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب فى بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والعنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من مذا حاله وإن قتل في المدركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كا دلت عليه الاخبار (۱) .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدةالمعاصى ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوَّف وتقول : سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنف اسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قابك في كل قطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيهاروحك ، هذا مادمت في يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الآثر . واعلم قطعاأنه لايغلب عند النوم على قلبك إلا ماكان قبل النوم غالبًا عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ماكان غالبًا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ماغلب على قلبك في نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لاينامالعبد إلاعلىماغلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا بموت المرم إلا على ماعاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقق قطعا ويقينا أنّ الموت والبعث حالتان من أخوالك كما أن النوم واليقظة حالتــان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطرعظيم ، فكيف إذا لم تفدل . والناس كلهم هلكي إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والبـاقى كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك ، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ،

⁽۱) حدیث « المفتول فی الحرب إذا كان قصده النلبة والننيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الفهادة » متفق عليه من حدیث أبی موسی الأشعری « إن رجلا قال : يارسول الله ، الرجل يقاتل المننم ، والرجل يقاتل الذكر ، والرجل يقاتل ليری مكانه ، فن فی سبيل الله ؟ فقال «من قاتل لتسكون كلة الله می العلیا فهو فی سبیل الله » وفی روایة : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حية ويقاتل رياد . وفی رواية غضها .

إذ لافرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرور تان في الجبلة ، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك ، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعمالي كمقصدك من قضاء حاجتك ، فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور : من مأكولك في وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتني في اليوم والليلة بمرة واحد فيواظب على الصوم ، وأما قدره فبأن لايزيد على ثلث البطن ، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بمـا يتفق ، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مثونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهات وأمكنك أن لاتاكل إلامن حله ، فإنّ الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات ، وأماملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة ؛ فـكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة يدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبمة ، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك ؛ فكل ماحصل مقصود اللباس إن لم تكنف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده . بلكنت بمن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكــذلك المسكن إن اكنفيت بمقصوده كفتك السماءسقفا والارضمستقرا ؛ فإن غلبك حر أوبرد فعليك بالمساجد ، فإن طلبت مسكمنا خاصاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك ، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلًا بينك وبين الابصار ، ومن السقف سوىكونه دافعا للامطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورّطت في مهواة يبعد رقيك منها ، وهكذا جميـع ضرورات أمورك إناقتصرتعليها تفرّغتله وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك ، وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلـكك ؛ فاقبل هـذه النصيحة بمن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعـلم أنّ متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير ، فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الحاتمة كفاية في تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الحائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أنَّ عقل الآنبياء والاولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعمالي لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك ، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم : لم اشتدّ بهم الحوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يضعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط منشيا عليه وبعضهم يخرّ ميتا إلى الارض ، ولا غرو إن كان ذلك لايؤثر في قلبك فإن قاوب الغافلين مثل الحجارة أوأشد قسوة ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةُ لما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الآنهار وإنَّ منها لما يشقق فيخرج منه المـاء وإن منها لمـا يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت عائشة رضى الله عنها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله (١) . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية فى سورة الواقعة فصعق (٢) ، وقال تعالى ﴿ وخرّ موسى صعقا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

⁽١) حديث عالشة : كان لمذا تغير الهواء وهبت ربح عاسفة تغير وجهه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عائشة .

⁽۲) حديث : قرأ فيسورة الحاقة فصدق ، المعروف فيما يروى من هذه النصة أنه قرى عنده (أن لدينا أنسكالاوجيدها وطماما ذا غسة وعذابا أليما) فصلق ، كارواه ابن عدى والبيهق في الشعب مرسلا ، وهكذاذ كره المصنف على الصواب في كتاب السماع كانقدم

عليه السلام بالأبطح فصدق (۱) . وروىأنه عليهالسلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجل (۲) . وقال صلى الله عليه وسلم و ما جاء في جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار (۱) ، وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكا ثيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يارب ، ما نأمن مكرك ؛ فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لاتأمنا مكرى ،

وعن محمد بن المنكدر قال: لمـا خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت. وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل. مالى لا أرى ميكائيل يضحك؟. فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل نذ خلقت النار (٤٠).

ويقال: إن لله تعدالى ملائمكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها . وقال ابن عمر رضى الله عنهما: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار ، لجعل يلتقط من النمر ويأكل ، فقدال ، ، يا ابن عمر ، مالك لا تأكل: , فقلت : يا رسول الله لا أشتهيه ، فقدال ، لكنى أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لاعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم ؟ ، قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم ؟ ، قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نرلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله لم يأمركم بكنز المدال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد (°) ، .

وقال أبو الدرداء ؛ كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه

وقال بجاهد: بكى داودعليه السلام أربدين يو ما ساجدا لايرفع رأسه حتى نبت المرعى من دمرعه وحتى غطى رأسه ، فنودى: ياداود أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسق؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه ، ثم أنول إلله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يارب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته ، قال: وكان يؤتى بالقدح المئاه فإذا

⁽۱) حدیث : انه رأی صورة جبریل بالأبطح فصمق : أخرجه البزار من حدیث ابن عباس بسند جید : سأل النبی سلی الله علیه وسلم جبریل أن یراه فی صورته ۲ فقال : ادع ربك ، قدعا ربه فطلع علیه من قبل المصرف لجعل یرتفع ویسیر ، قلما رآه صفق . وول الصحیحین عن عائشة : رأی جبریل فی صورته مراتبن ولها عن ابن مسمود : رأی جبریل له ستمائة جناح .

⁽۲) حديث : كان اذا دخل في المملاة سم لمصدر. أزير كأزيز المرجل . , واه أ و داود والترمذي في العمائل ، والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير ، وتقدم في كتاب السماع . (٣) حديث ، ماجاً في جبريل قط الا وهو ترتمد فرائصه من الجبار ، لم أجد هذا الافظ . وروى أبو العين في كتاب العظمة عن ابن سباس قال: ان حبريل عليه السلام يوم الفيامة لقائم بين يدى الجبار وتعالى ترتمد فرائصه فرقا من عذاب الله ... الحديث ، وفيه زمبل بن سماك الحنف يحتاج الى معرفته .

⁽¹⁾ حديث أنس أنه سلى الله عليه وسلم قال لجبربل « مالى لاأرى ميكائبل يضعك » فقال: ماضحك ميكائيل منذ خلقت الدار. رواه أحمد وابن أبى الدنيا في كتاب الحائفين من رواية تابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث تابت مرسلا ، وورد ذلك أيضا في حق اسرافيل. رواه البهبق في الشعب ، وفي حق جبريل رواه ابن أبى الدنياف كتاب الحائفين .

⁽٠) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الألصار لجمل يلتقط من النمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه فى التفسير والبيهتي فى الزهد من ولالية رجل لم يسم عن ابن عمر ، قال البيهتي : هذا اسناد مجهول، والجراح بن منهال ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض الفدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السهاء حتى مات حياء من الله عز وجل ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضافت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى ، سبحانك إلهى أتيت أطباء عبادك ليدادوا خطيئى فكلهم عليك يدلنى ، فبؤسا للقانطين من رحمتك .

وقالاالفضيل ؛ بلغني أنَّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فو ثب صارخاواضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجموا لاأريدكم ، إنما أريدكل بكا. علىخطيئته فلايستقبلني إلا البكا. ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يُعاتب في كمثرة البكاء فيقول ، دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهي بح صوتى ف صفاء أصوات الصديقين . وروى أنه عليه السلام لمـا طال بكاؤه والم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتدّ غمه ، فقال : يارب أماترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهيوسيدى كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبوركف المساء الجارى عنجريه وسكن هبوب الريح وأظلنى الطير على رأسىوأنست الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيدى فمـا هذه الوحشة التي بيني وبينك , فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، ياداود آدم خلق من خلق خلقته بيدى ونفخت فيهمن روحي وأسجدت له ملائكي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى ، وشكا لمالوحدة فزوجته حواء أمتى وأسكنته جنتى ، عصالى فطردته عن جوارى عريانا ذليلا ، ياداود اسمع مني والحق أقول : أطعتنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحى بن أنىكثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولايشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج لهالمنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادىبصوت يستقرىالبلاد وماحولها من الغياض والآكاموالجبال والبرارىوالصوامع والبيع، فينادى فيها: ألا منأراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن ،وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرا تيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبسكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنارفتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت منكل نوع طَائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاء قد مزقت المستمعين كل عزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ في الدعاء ، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك 1 قال فيخرّ داودمغشيا عليه ، فإذا نظر سلمان إلى ماأصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياينادى ألا من كان له مع داود حميم أوقريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهمذكر الجنة والنارفكانت المرأة تأتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار ، يامن قتله خوف الله ثممإذا أفاق داود قامووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضيان أنت علىداو دولا يزال بناجي ربه، فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شمير َ فيقول : يا أبناه تقق بهذا على ماتريد ، فيأكل من

ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشى . خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم ، فخرج فأربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا ف عشرة آلاف ، قال : وكان لهجاريتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الحوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فسموت .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، وفظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنضهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه فتر بصبيان يلعبون ، فقالواله : يايجي ، هلم بنالنلعب فقال : إنى لم أخاق العب ، قال : فأتى أبويه فسأ لهماأن يدرعاه الشعر ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويسبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، غرج ولزم أطواد الارض وغيران الشعاب ، غرج أبواه فى طلمه فأدركاه على بحيرة الاردن وقد أنقع رجليه فى المساء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أبن مكانى منك ، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك المساء ففعل وكفر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فسكان إذا قام يصلى بكى حتى يسكى معه الشجر والمدر ، ويبكن كريا عليه السلام أبسكائه حتى يغمى عليه ، فلم يزل يسكى حتى خرقت دموعه لحم ختي به فعمدت إلى قطعى لبود فألصقتهما على خدية ، فكان إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين أنت أليه أمه فعمدت إلى قطعى لبود فألصقتهما على خدية ، فكان إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أن أنهذ للى أنها له ذكريا يوما . يابني إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقز عيناى بك ، فقال يحي ، ياأبت إن جبريل الراحمين ، فقال له زكريا يوما . يابني إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقز عيناى بك ، فقال يحي ، ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبر فى أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلاكل بسكاء . فقالى ذكريا عليه السلام : يابنى فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحراريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقه ويباعدان من الدنيا . بحق أقول لـكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الـكلاب في طلب الفردوس قليل .

وقيل: كان الحليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلافى ميل، فيأتيه جبريل فيقول له: ربك يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول ياجبريل إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى ، فهذه أحوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله وفعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال اطائر ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشراً . وقال أبو ذرّ رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت إنى إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أنى كنت نسيا منسيا .

وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مفشيا عليـه ، فكان يعاد أياما . وأخذ يوما تبنة من الارص فقال باليتني كنت هذه التبنة ، ياليتني لم أك شيئا مذكوراً ، باليتني كنت نسيا منسيا ، ياليتنى لم تلدنى أى . وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتتى الله لم يصنع مايريد ، ولو لا يوم القيامة لسكان غير ماترون . ولمسا قرأ عمر رضى الله عنه ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ خرّ مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إنّ عذاب ربك لواقع * ماله من دافع ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال على كرّم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأبت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمأر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثا صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأن بالقوم باتوا غافاين ، ثم قام ، فارؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رماداً تنسفني الرباح في يوم عاصف ،

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لمى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ اصفرلونه ، فيقولون له أهله : ماهذا الذى يعتادك عندالوضوء؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقرم ؟

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لمــا نرى منخونه وجزعه .

وقرأ مضر القارئ يوما ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . . . الآية ﴾ فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لاعصيتك جهدى ابدآ ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان المسور بن مخرمة لايقوى أن يسمع شيئا من القرآن : لشدّة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ه ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ فقال أنا من المجرمين ولست •ن المتقين ، أحد على القول أيها القارئ ، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة .

وقرئ عند يحيى البكاء ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعادمن أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينها أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: ياربكم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أماكان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكى ؛ فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسي صارخا أقول : ثـكلت مالـكا أمه .

وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفةوالناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى المحترفة ، حتى إذا كادتالشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السهاء وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت ، ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون : كيف نفرح والموت من ورائمنا ، والقبر أمامنا ، والقبامة وعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا . ومتر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس ؛ فقال له الحسن : يافتى ، هل مردت بالصراط ؟ قال : لا . قال : لا . قال : لا . قال : لا . قال فا دوى ذلك الفتى بعدها ضاحكا . ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبـد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميـه , فيقال له : لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنمـا جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم ينطلقوا بى إلى ربى كما ينطلق

ولان مال بن ديمار . الله عمل إذا أن سع إنزان من يتيدري ديموي م يستو. بي من دب عالم الآبق إلى سيده .

وقال حاتم الاصم : لاتغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنسة وقد الى آدم عليه السلام فيها مالتى : ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده الى مااتى 1 ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا الى 1 ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطنى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه 1

وقال السرى : إنى لانظر إلى أننى كل يوم مرات مخافة أن يكمون قد اسود وجهى . وقال أبو حفص منــذ أر بعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إنى اجترأت البارحة على الله سألته الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها: يابنى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً ، وكانك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك ! فقال: يا أماه ، ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنو بى فقتنى وقال: وعزتى وجلالى لاغفرت لك

وقال الفضيل: إنى لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقرّباً ولا عبداً صالحاً ، أليس هؤلاً. يعاينون يوم القيامة ، إنمــا أغبط من لم يخلق .

وروى : أن فتى من الانصار دخلته خشية النار ، فكان يبكىحتى حبسه ذلك فى البيت ، فجاء النبى على الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا ، فقال صلى الله عايه وسلم . جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده (١) ،

وروى عن ابن أبى ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أى لم تلدنى ، فقالت له أمه : ياميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك : هداك إلى الإسلام ، قال : أجل ولسكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها ،

وقيل لفرقد السبخى : أخبرنا بأعجب شىء بلغك عن بنى إسرائيل ا فقال : بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا فى يوم واحد .

وكان عطاء السلمى من الحائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له في مرضه : ألا تشتهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة : إنه مارفع رأسه إلى السهاء ولا ضحك

⁽۱) حديث : أن فتى من الألصار دخلته خشية من النار حتى حبـه خوفه فى البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فى الحائمين من حديث من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .
(۲ عليه علوم الدين ـ ٤)

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق فى بطنه فتق ، وكان يمس جسده فى بعض الليلة خافة أن يكون قدمسخ . وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال : هذا من أجلى يصيبهم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وقال عطاء : خر جنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصاون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تو زمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم فى رءوسهم ولصقت جاودهم على عظامهم و بقيت العروق كأنها الآو تار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطييخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فبيناهم يمشون إذ مر أحد بمكان فرتم مغشيا عليه ، فجلس أصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد و جبينه ير شم عرقا ، فبيناهم يمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره ؟ فقال : إنى ذكرت أنى كنت عصيت الله فى ذلك المكان .

وقال صالح المرى: قرأت على رجل من المتعبدين ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النــار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ فصعق ثم أفاق فقال: زدنى ياصالح فإنى أجد غمـا ، فقرأت ﴿ كلمــا أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فها ﴾ فخر ميتا .

وروى أن زرارة بن أبى أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ﴿ فَإِذَا نَقَرَ فَى النَافُورِ ﴾ خرّ مغشياعليه ، فحمل ميتا . ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال : عظني يا يزيد : فقال يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت ، فبكى ثم قال : زدنى ، قال : ياأمير المؤمنين ليس بينكوبين آدم أب إلاميت ، فبكى ثم قال : زدنى بايزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، فخرّ مغشيا عليه .

وقال ميمون بن مهران : لمـا نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ جَهُمَ لمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأمه وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه (١) .

ورأى داود الطائىامرأة تبكى علىرأس قبر ولدها وهى تقول : يا ابناه ، ليت شعرى أى خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصعق داود وسقط مكانه .

وقيل : مرض سفيان الثورى فعرض دليله على طبيب ذى فقال : هذارجل قطع الخوفكبده ، ثم جاءوجس عروقه ثم قال : ماعلمت أن فى الملة الحنيفية مثله .

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح على با با من الخوف ، ففتح فخفت على عقلى؛ فقلت : يارب على قدر ما أطيق ، فسكن قاي .

وقال عبد الله بن عمروبن العاص : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكرا ، فوالذى نفسى بيده لويعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صونه ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، لوتعلمون ما أعلم لضحكم قليلا ولبكيتم كثيرا (٢٠) ،

وقال العنبرى: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عيساض فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكى ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم اليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغربق، إنما هذا زمان: احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

⁽۱) حديث ميمون بن مهران : لمما نزلت هذه الآية (وأن جهنم لموحدهم أجمين) صاح سلمان الفارسي : لم أنف له على أسل (۲) حديث ه لو تملمون ما أعلم لفسحكم قليلا وابسكيتم كشيرا » تفدم في قواعد المقائد .

وروّى الفضيل يوماوهو يمشى ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : لا أدرى ، وكان يمشى والهـامن الحوف .

وقال ذرّ بن عمر لابيه عمر بن ذر : ما بال المشكلمين يتكلمون فلايبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ، فقال : يابنى ليست النائحة الشكلى كالنائحة المستأجرة .

وحكى أنّ قوماً وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا : ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال : قرحة بجدها الحائفون في قلومهم قالوا : وما هي ؟ قال : روعة النداء بالعرض على الله عز وجل .

وكان الخوّاص يبكي ويقول في مناجاته : قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني .

وقال صالح المرى: قدم علينا ابن السهاك مرة فقال: أرنى شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل في بدض الآحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا ، فقرأت عليه (إذ الآغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ه في الحيم ثم في الناريسجرون) فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فذهبنا واستأذنا على الماه على حاله ، وذهبنا إلى آخر فدخانا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه ، فذهبنا واستأذنا على الله من فقال: ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت ﴿ ذلك لمن خاف مقاى وخاف وعيد ﴾ فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس ، فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه : ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا . فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا ، فدخلنا فإذا مين ويمك الله على عليه على بيمر بسلامنا ، فقلت بصوت عال : ألا إنّ للخلن غدا مقاما ، فقال الشيخ : بين يدى من ويمك ! ثم بتى مبوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه وحى انقطع ذلك الصوت ، فقالت امرأته : اخرجوا فإنكم لاتنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ؟ فإذا ثلائة قد أفاقوا ، وثلاثة فد لحقوا بالله تعالى ، وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلماكان بعد ثلث مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلماكان بعد ثلث مهوتا متحيرا لا يؤدى

وكان يزيد بن الاسود يرى أنه من الابدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنا أبدا ، فما رۋى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا أبدا ، فما رۋى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله .

وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلغنى أنك لم تضحك قط ا فقال . كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصمت والزبانية قد أعدت .

وقال رجل للحسن: يا أباسعيد كيف أصبحت ؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالى ؟ ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة ؟ على أى حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالى أشذ من حالهم.

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها : فرقدت فاستبكت فى منامها ، ثم انتهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى والله رأيت عجبا ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جى ، بالصراط ووضع على متنها ، فقال : هيه ، قالت : فجى بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفا به الصراط ، فهوى إلى جهنم فقال عر هيه ، قالت : ثم جى ، بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفا به الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جى ، بسليان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفا به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جى ، بلك والله ياأمير المؤمنين : فصاح عمر وحقالة عليه صيحة خر مغشيا عليه ،

فقامت إليه لجعلت تنادى فى أذنه : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيتك والله قد نجوت ! إنى رأيتك والله قد نجوت ! قال : وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه . ويحكى أنّ أويسا القرنى رحمهالله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه ، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون بجنون بجنون .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إنَّ المؤمن لايسكن روعه حتى يترك جسر جهنم ورا.ه .

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طير ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألفعام ، ياليتنى كنت ذلك الرجل ، و إنما قال ذلك لحوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ما ضحك أربعين سنة ؛ قال : وكنت إذا رأيته قاعدا كمأنه أسير قد قدّم لتضرب عنقه ، وإذا تمكلم كمأنه يعاين الآخرة فيخبرعن مشاهدتها ، فإذا سكت كمأن النار تسعربين عينيه . وعوتب في شدّة حزنه وخوفه فقال : ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض ما يكره فقتني فقال : اذهب فلا غفرت لك ؛ فأنا أعمل في غير معتمل .

وعن ابن السماك قال: وعظت يوما فى بحلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم مكلمة ماكنا نبالى أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هى رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الحنائفين طول الحلو دين إما فى الجنة أو فى النار. ثم غاب عنى ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأنيته أعوده فقلت: يا أخى ما الذى أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الحنائفين طول الحلودين إما فى الجنة أو فى النار. قال: ثم مات رحمه الله فرأيته فى المنام فقلت: يا أخى ما فعل الله بك؟ قال بالكلمة.

فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس الخوف بكمثرة الدنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكمشرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تحرّكنا ، ولا مشاهدة أحوال الحائفين تخرّفنا ، ولا خطر الحاتمة يزعجنا ؛ فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجود ،أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحربك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

ومن العجائب أما إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا ، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نتق بعنهان الله لنسا ولا نجلس في بيوتنا فنقول : اللهم ارزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول (وإن ليس للإنسان إلاماسعي) (ولا ينزنكم بالله الغرور) (يا أبها الإنسان ما غرك بربك الكريم) ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، في هذه إلا يحنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجيرنا ، فنسأل الله تعالى غرورنا وأمانينا ، بل نسأله أن يشؤق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لايجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فضكون بمن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا؛ علامة للخذلان أعظم من هذا ؛ فنسأل الله تعمالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفعنله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإن القابل من هذا يصادف القلب القابل فيكنى ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الحولاف وكان من خيار العباد _ أنه رآه على باب بيت المقدس ولقفا كهيئة المحزون من شدة الولاما يكاديرة أدمه من كثر ة البكاء، فقال عيسى : لما رأيته هالني منظره ، فقلت : أبها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك ، فقال : با أخى بماذا أوصيك، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خاتف حذر يخاف أن يغفل فتفتر سه السباع أويسهو فتنه ما المطالون . ثم ولى وتركنى فقلت : لو زدتنى شيئا عسى أن ينفعنى ؟ فقال الظمآن يحزيه من الماء أيسره ، وقدصدق فإن القلب الصافى يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والموام فلا ينبغى أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق ؟ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأبواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والسكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهى الني بأصناف السباع وأبواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والسكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهى الني وضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانبها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات منكناب إحياء علوم الدين

النيك المنالج الجنيا

المحد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من هيبته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قله بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الحدمة بالندة والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والسكال ، ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتحتال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الحزى وضربت في قالب الذكال ، وهي متلفلة بجلبابها لتخني قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لاتجدئ معهم بالخلف في مراعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والآنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبنف لمما فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد منها للهروية والمهارة والسلام على سيدنا محمد منها عربة المناد والمال نبياء وعلى آله خير آل .

(أما بعد) فإنّ الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها صل من صل ، وبحكرها زل من زل ، فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات ، فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تسكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، ولما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ، ولمكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الإعامة على الفوز والنجاة ، ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأفسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر وشطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشطر الأول من الكتاب فىالفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء ، وبيان فضيلة الفقير على الغنى ، وبيان أدب فضيلة الفقير على الغنى ، وبيان أدب الفقير فى فقره ، وبيان أدب فى قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا ، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لآنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانى الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا غنى واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ هذا معنى الفقر مطلقا ، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المحلق بل الفقر من المال على الحصوص ، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لان حاجاته لاحصر لها . ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط ، فنقول : كل فاقد المال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميزها ومخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهي العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المـال لـكرهه وتأذى به وهرب من أحــذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد .

(الثانية) أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولايكرهه كراهة يتآذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

(الثالثة) أن يكون وجود الممال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع مافيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أوهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

(الخامسة) أن يكون مافقده من الممال مضطرًا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًا كيفها كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاها الزهد والاضطرار إن الضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهدكما سيأتي بيانه ، ووراء هذه الاحوال الخسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المـال وفقده ؛ فإن وجـده لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كاكان حال عائشة رضي الله تعالى عنهــا إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها : ما استطعت فيها فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، فن هـذا حاله لوكانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لافي يد نفسه ، فسلا يفرق بين أن تـكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هـذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المـال ووجوده جميعا ، وليفهم من هـذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المـال في يده ، وإنمـا هو هو غني عن دخول المـال في يده لاعن بقائه ، فهو إذن فقير من وجه ، وأما هـذا الشخص فهو غنى عن دخول المـال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه . وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول في يده ، فغناه إلى العمرم أميل ، فهو إلى الغني الذي هو وصف الله تعالى أفرب ، وإنمــاقرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لابقرب المكان ، واكمنا لانسمي صاحبهذه الحالة غنيا بل مستغنيا ، ليبتي الغني اسما لمن له الغني المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المــال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبق استغناؤهالذيزين الله به قلبه ، فإنّ القلبالمقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حرّ ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرقفهو محتاج إلى دوامهذا العتق ، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّبة في أوقات متقاربة ، لانها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليـه مع هذا الكال الابجاز 1.

واعلم أن الزهد درجة هي كال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المةربين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن السكاره للدنيا مشغول بالدنيا ، كا أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بمما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لابعد بينك وبينالله تعالى حي بكون البعد حجابا، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السهاوات والارض حجابا بينك وبينه ، فلاحجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك في كذلك لا تزال محجوبا عنه ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله ، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق الى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة الى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكا أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكال في أن لايلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لايجتمع في القلب حبان

في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة ؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عنالله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلةو تتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحجمشغولين بركوب الناقة وعلمها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل السكعبة والآخر مستدبر لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذير جي له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لايخرج منها حتى يفتقر إلىالاشتغال بالدابة في الوصول إليها ءفلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولاوصول إليه إلا يدفع العائق ، ولذلك قال أبو سلمان الداراني رحمه الله : منزهدفي الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة ، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة ؛ فبين أنَّ سلوك طريق الآخرة وراء الزهدكما أن سلوك طريق الحبح وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمهافهوغاية الكمال ، وإنأريد بهالرغبة في عدمها فهو كال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى ، بل الحمال في حق الممال أن يستوى عندك الممال والمماء ، وكثرة المماء في جوارك لاتؤذيك بأن تكون على شاطي البحر ، ولاقلته تؤذيك إلا في قدرالضرورة ، معأن المـالـعـتاج إليه كما أن المـاءعـتاج إليه فلا يكون قلبك مشغو لابالفرار عن جوار الماء الكثير ولاببغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأستى منه عباد الله بقدر الحاجة ولاأبخل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المــال ؛ لأن الحبر والمــاءواحدفي الحاجة ، وإنمــا الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم : علمت أنقدر حاجتكمن الخبز يأتيك لامحالة مادمت حياكما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسيأتى بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بندينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الركوة التى أهديتها لى فإن العدق يوسوس لى أن اللص قد أخذها ، قال أبو سايمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية: قدزاده فى الدنبا ما غلبه من أخذها ، فبين أنّ كراهية كون الركوة فى بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان .

فإن قلت : فما بال الانبياء والاولياء هربوا من المالونفروا منه كلالنفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القربوالروايا يدبرونه مع أنفسهم ، بلركوه في الانهار والآبار والبرارى للمحتاجين إليه ، لاأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الارض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر رعمر رضى الله عنهما فأخذوها ووضعرها في مواضعا وما هربوا منها (۱۱) ، إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر ، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن محاف

⁽¹⁾ حديث ؛ لمن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضموها في مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم في أداب المعبشة من هنه البخارى تعليقا بجزوما به من حديث ألس : أنى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به ، غرج رسول الله صلى الله عليه وسلم المل الصلاة ولم يلتفت المليه ، فلما تضي الملاة باء لجلس المله ، فقاما كان يرى أحدا الا أعطاه . ووصله عمر بن محمد البحيرى في صحيحه من هذا الوجه . وفي الصحيحين من حديث عمرو ابن هوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الألصار بقدومه ... المديث ، ولهما من حديث جامر ؛ لوجاء نا مال البحرين أعمليتك هكذا ثلاثا ، فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمم أبو بكر مناديا فيادى : من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدنى ، فينا لى ثلاثا .

أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كال ؟ وهذا حكم جميع الحلق ، لأن كلهم ضعفاه إلا الانبياء والاولياء ، وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكال ولكن أظهر الفرار والنفار نرولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك ؛ إذ لو اقتدوا به في الاخذ له لكال ولاه الكال ولكن أطهر الفرار والنفار نرولا إلى درجة الضعفاء في أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده المناز الروها فيهلكون ، والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء ، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاما رتبة المستفى ثم الراهد ثم الراض ثم القانع ثم الحروس . وأما المضطر فيتصور في حقب المناز المدوالرض والتناعة ودرجه تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال ، واسم الفقير يطلق على هذه الحسة . أما تسمية المستفى فقيراً فلاوجه لها بهذا المعنى ، بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة ، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ؛ فانه أحق باسم العبد من الغافلين . وإن كان اسم العبد عاما الخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى رسول الله عليه وسلم و أعوذ بك من الفقر (١١) ، وقوله عليه السلام و كاد الفقر أن يكون كفراً (٢٠) رسول الله عليه والذي استماذ منه ، والفقر أن يكون كفراً (٢٠) ، بالمسكذة والذاة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم و على كل عبد مصطفى من أهل بالمسكذة والذاة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم و على كل عبد مصطفى من أهل الأرض والساء .

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية .وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لايستطيعون ضربا في الارض ﴾ ساق الكلام في معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .

وأما الآخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه وأى الناس خدير؟ وفقالوا: موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله. فقال و نعم الرجل هذا وليس به وقالوا: فن خدير الناس يارسول الله؟ قال وفقير يعطى جهده (أ) ووقال صلى الله عليه وسلم ولبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا (أ) وقال صلى الله عليه وسلم وإن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال (1) وفي الحبر المشهور ويدخل فقراء أمتي الجنبة قبل أغنيائها بخمسائة عام (٧) وفي حديث آخر

⁽١) حديث ﴿ أَعُودُ بِكَ مِنْ الْفَقْرِ ﴾ تقدم في الأذكار والدعوات .

⁽۲) حديث ه كاد الفقر أن يسكون كفرا ، تقدم في ذم الحسد . (٣) حديث ه الهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا » رواه الترمذي من حديث ألى سعيد وقد تقدم . (٤) حديث ابن عمر أنه سليالة عليه وسلم قال لأصحابه : أى الناس خبر ؟ فقالوا . موسر من المسال يعطى حق القدمن فسه وماله . فقال : لهم الرجل هذا وليس به قالوا : فن خير الناس ؟ قال : فقير يعدلي جهده ، أخرجه أبو منصور الديلي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث : قال لبلا ه الق الله فقيرا ولائقه غنيا » أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال . ورواه العلبراني من حديث أبي سعيد بلفظ ه مت فقيرا ولاتحت غنيا » وكلاما ضعيف .

⁽٦) حديث و لمن يحب الفقير المتعلف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم .

⁽٧) حديث « يدخل فقراء أمق الجنة قبل أغنيائهم بحمسمائة عام» أخرجه الترمذي من حديث أبي حريرة وقال : حسن صحيح

« بأربعين خريفا (١) ، أي أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحريص علىالغني الحربص ، والتقدير بخمسهائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهدعلي الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجاتالفقر يعرّفكبالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد، إذهذه نسبة الاربعين إلى خمسمائة ، ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق ، بل لايستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحـق فإنه لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ، وهـذا كقوله صلى الله عليه وسلم . الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة (٢) ، فإنه تقدير تحقيق لا محالة ، لكن ليس في قوة غيره أن يعرفعلة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به الني ويفارق به غيره ، و هو يختص بأنواع من الخواص : أحــدها أن يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لاكما يعلمه غـيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقـين والتحقيق والـكشف. والثانى: أن له في نفسه صفة بها تتم له الافعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرةوإن كانت القدرة والمقدورجميعاً من فعل الله تمالي . والثالث . أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع أن له صفة بها يدرك ماسيكون فى الغيب إما فى اليقظة أو فى المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء وبعلم انقسام كل واحد منها إلى أفسام ، وربمــا يمكننا أن نقسمها إلى أربعينوإلى خمسين وإلى ستنن ، ويمكننا أيضاً أن نتكاف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها واكمن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخدين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم بجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصــل انقسامها ، وذلك لايرشدنا إلى معرفة علة التقدير ، فكذلك فعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسهائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الانفاق ، وحاشا منصب النبَّوة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا ﴿ خير هذه الامة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها (٣) , وقال صلى الله عليه وسلم , إن لي حرفتين اثمنتين فمن أحبهما فقد أحبى ومن أبغضهما فقد أبغضني : الفقر والجهاد (١٤) ، وروىأر جبريل عليه السلام نزل على رسولالله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد . إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول . أنحبأن أجمل هذه الجبالذهبا (٠٠).

⁽۱) حدیث دخولهم قبلهم أربه بن خریفا : أخرجه مسلم من حدیث عبدالله بن عمرو ، الا أنه قال : فقراء المهاجرین ، والترمذی من حدیث ابن حدیث بابر والس . (۲) حدیث « الرؤیا الصالحة جزء من ستة وأربه بن جزءا من النبوة » أخرجه البخاری من حدیث ابن سعید » ورواه هو و مسلم من حدیث أیی هریم ، و عبادة بن الصامت وأنس بافظ « رؤیا المؤمن جزء ... الحدیث » وقد تقدم . (۳) حدیث « خیر الأمة فقراؤها » وأسرعها تضجما فی الجنة ضعفاؤها » لم أجد له أسلا . (۱) حدیث ان لم حرفتین اتنین .. الحدیث » وقیه « النقر و الجهاد » لم أجد له أسلا . . الحدیث » وقیه « النقر و الجهاد » لم أجد له أسلا . . الحدیث » هذا ملفق من حدیثین و بقول : أنجمل هذه الجهال ذهبا ... الحدیث » وقد المفق من حدیثین فروی النرمذی من حدیث آبی أمامة « عرض علی ربی لیجمل لی بطحاء مکن ذهبا » قات : لابارب » و اسکن أشبع یوما و أجوع بوما » الحدیث » وقد تقدم فی ذم الدنیا .

و تكون معك أينهاكنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليـه وســلم ثم قال . ياجبريل ، إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له ، فقال له جبريل : يامحمد ثبتك الله بالقول الثابت

وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرف سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال: يانائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ماتريد منى ؟ إنى قد تركت الدنيا لاملها ، فقال له فنم إذن ياحبيبي .

ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهومتزر بعباءة، فقال : يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه : ياموسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنياكلها .

وعن أبى رافع أنه قال: ورد عارسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يحد عنده مايصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر وقال ، قلله يقول الك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقا إلى هلال رجب ، قال فأتيته فقال : لا والله إلا برهن ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال ، أما والله إنى لامين في أهل السهاء أمين في أهل الارض ولو باعنى أو أسلفنى لاديت إليه ، اذهب بدرعى هذا إليه فارهنه ، فلما خرجت نزلت هذه الآية (ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١١) ﴾ الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٢) ، وقال كعب الاحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا وشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراسانى: من نبى من الآنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا، فقال: بسم الله وألى الشبكة فلم يخرج فيها من الحيتان ماكان يتقاعس من كثرتها. فلم يخرج فيها من الحيتان ماكان يتقاعس من كثرتها. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يارب.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم واطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ، وفي لله أخر و فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ، وفي لله أخر و فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن ؟ فقيل شغلهن الاحران الذهب والزعفران (ئ) ، وقال صلى الله عليه وسلم و تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥) ، وفي الخبر و آخر الانبياء دخو لا الجنة سليان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخو لا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناء (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة زحفا (١) ، وسلم دخو لا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناء (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة زحفا (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة وحفا (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة وحفولا (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة و حفولا (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة و حفولا (١) ، وفي حديث آخر و رأيته يدخل الجنة و حديث المؤلفة و حديث الم

⁽۱) حدیث أبی رافع : ورد علی رسول الله صلی الله علیه وسلم ضیف فلم یجد عنده مایصلحه ، فأرسلنی لمل رجل من یهود خیبر ... الحدیث فی نزول قوله تمالی (ولاتمدن عینیك لمل مامتمنا به أزواجاً منهم ، أخرجه الطبرانی بسند ضعیف .

⁽۲) حدیث د الفقر أزین بالمؤمن من العذار الحسن علی خد الفرس » رواه الطبرانی من حدیث شداد بن أوس بسند ضعیف والمعروف أنه من کلام عبد الرحمن بن زیاد بن ألمم ، رواه ابن عدی فی السکامل هکذا (۳) حدیث د مناصبح منسم معافی فی جسمه ... الحدیث أخرجه الترمذی وقد تقدم (٤) حدیث د اطلعت فی النار فرأیث أکثر أهلها النساء ... الحدیث تقدم فی آدامیه النسکاح مع الزیادة التی فی آخره ، (۵) حدیث د تحفق المؤمن فی الدنیا الفقر » رواه محدیث نفیف العبرازی فی شرف انفقر » وارواه أبو منصور أیضافیه من حدیث شرف انفقر ، و آبو منصور أیضافیه من حدیث ابن عمر بسند ضعیف جدا ، (۲) حدیث د آخر الألبیاء دخولا الجنة سلیان . الحدیث » تقدم ، وهو فی الأوسط الطبرانی با با المناد فرد ، وفیه نسکارة ، (۷) حدیث ، رأیته یعنی عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعیف ،

وقال المسيح صلى الله عليـه وسلم بشدة يدخل الغني الجنة .

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى 'ته عليه وسلم قال . إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا (١) . .

وفي الخبر ، إذا رأيت الفقر مقب لا فقل مرحبا بشعبار الصالحين ، وإذا رأيت الغني مقب لا فقل ذنب عمر بنه عليت عقوبته (٢) ، .

وقال موسى عليه السلام: يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال . كل فقير فقير ؛ فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر .

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إنى لاحب المسكنة وأبغض النجاء ، وكان أحب الاسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم النبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون ، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذرّ وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رمنى الله عنهم أجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لانهم شكوا إليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتذ ذلك على الاغنياء منهم الافرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم بحلس واحد ؛ فنزل عليه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يعنى الاغنياء إلى قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤ من ومن شاء فليكفر (٢) ﴾ الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم والأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) يعنى ابن مكتوم ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى (١٤) ﴾ يعنى هذا الشريف .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ديوتى بالعبديوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فن أطعمك فى أوكساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك ، والناس يومئد قد ألجهم العرقى فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٠٠) ،

⁽١) حديث ه لذا أحب الله عبدا ابتلاء ٠٠. الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الحولاني .

⁽٢) حديث ه لمذا رأيت الفقر مقبلا فقل مهجبا بشمار الصالحين ، ولمذا رأيت النني مقبلا فقل ذنب بمجات عقوبته » أخرجه أبو مصور الديلى في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ه أوحى الله تسال إلى موسى عليه السلام . ياموسى . . » فذكره بزيادة في أوله ، ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كمب الأحبار غير مم فوع بإسناد ضعيف .

⁽٣) حديث: قال سادات العرب وأغنياؤهم النبي صلى الله عليه وسلم . اجعل لنايوما ولهم يوما ... الحديث في نزول قوله تعالى (واصير نفسك مع الدن يدعون ربهم ...) الآية ، تقدم من حديث خباب ، وايس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ربحهم لمذا عرفوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان . (٤) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى (عبس وتولى) أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت : ورجاله رجال الصحيح من أشراف قريب الدنيا ، فيقول وعرتى وجلالى مازويت =

وقال عليه السلام وأكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الآيادى فإن لهم دولة ، قالوا : يارسول الله ، وما دولتهم ؟ قال وإذا كان يوم القيامة قيل لهم افظروا من أطمعكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فحذوا بيده ثم المضوا به إلى الجنة (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم و دخلت الجنة فسمعت حركة أماى فنظرت فإذا بلال ، وفظرت في أعلاها فإذا فقراء أمني وأولادهم ، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الآغنياء والنساء قليل ؛ فقلت يارب ما شأنهم ؟ قال : أما النساء فأصرتهن الآحران الذهب والحرير ، وأما الآغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أصابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكى ، فقلت : ما خلفك عنى ؟ قال : يارسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظنفت أنى لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالى (۱) ، فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة الخصوصين بأنهم من أهل الجنة (۱) ، وهو من الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و الا من قال بالمال هكذا وهكذا (۱) ، ومع هذا فقد استضر بالغني إلى هذا الحدة .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فـلم ير له شيئًا فقال : لو قسم نور هذا على أهـل الأرض لوسعهم (٠٠) . .

وقال صلى ألله عليه وسلم . ألا أخبركم بملوك أمل الجنة ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمر بن لا يؤبه له لو أقسم على الله لا بره (٦) ، .

وقال عمران بن حصين ؛ كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال ، يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فقل الله فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت فعم بأبى أنت وأى يا رسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السلام عليكم ، أأدخل ؟ ، فقالت : ادخل يارسول الله ، قال ، أنا و من معى ؟ ، قالت : و من معك يا رسول الله ؟ قال ، عمران ، فقالت فاطمة : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة . قال ، اصنعى بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى قد واربته فكيف برأسى ؟ فألق إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال ، شدى على رأسك ، ثم أذنت له فدخل فقال

⁻ عنك الدنيا لهرانك على، الحديث أخرجه أبوالشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعف ويقول الله عزوجل يوم النيامة أدنوا مبى أحبائى ، كتفول الملائك : ومن أحباؤك ؟ ويقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه فيقول : أما لمني لم أزو الدنياه : كم لحوان كان بسكم على ولسكن أردت بذلك أن أضعف لسكم كرامتي البوم ، ، فتعلوا على ماشئتم اليوم ، ، ، الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعم في الحلبة ، وسيأتي في الحديث الذي بعده .

⁽¹⁾ حديث « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة ... الحديث » أخرجه أبو نعبم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف « اتخذوا عند الفقراء أيادى ، فإن لهم دولة يوم القيامة ، فإذا كان يوم الفيامة نادى مناد : سيروا لملى الفقراء ، فيعتذر لمايهم كما يعتذر أحدكم لملى أخيه فى الدنيا .

⁽٢) حديث « دخلت الجنة قسمت حركة أمامى ، فنظرت فإذا بلال ، ونظرت المأعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ... الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه ، وقسة بلال في الصحيح من طريق آخر .

⁽٣) حديث : لمن عبد الرحن بن عوف أحد المعتبرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأرسة من حديث سعيد بن زيد ، قال الترمذى : حسن صحيح . (٤) حديث « لا من قال بالمال هكذا و هكذا » متفق عليه من حديث أبى ذر في أتناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل نقير ولم ير له شيئا فقال « لوقسم نور هذا على أهل الأرس لوسمهم » في أتناء حديث تقدم . (٢) حديث « ألا أخبركم عن ماوك الحنيث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل « ملوك » وقد تقدم » ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ « ألا أخبركم عن مساوك الجنة . . الحديث » دون قوله « أهمر أشعث » .

والسلام عليكم يا ابغتاه ، كيف أصبحت ؟ , قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال و لا تجزعى يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لا كرم على الله منك ، ولو سألت ربى الاطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها وأبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، قالت . فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ قال و آسيه سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من قصب الا أذى فيها و الا صخب و الا نصب ، ثم قال لها و اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيداً في الآخرة (١) .

وروى عن على كرم الله وجهه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال , إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتسكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والحيانة من ولاة الاحكام ، والشوكة من الاعداء (١٦) » .

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حبسا أو قال أشدّ حسابا من ذى الدرهم. وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عاس بألف دينار، فجاء حزينا كثيبا فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدّ من ذلك، ثم قال: أرينى درعك الحلق فشقه وجعله صررا وفرقه، ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة، ثم قال: شعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ويدخل فقراء أمتى الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام، حتى إن الرجل من الاغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج ١٦٠ م.

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها نريد .

وقيل : جاء فقير إلى بجلس الثورى رحمه الله فقال له : تخط ، لو كنت غنيا لمما قربتك ، وكان الاغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الاغنياء · وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه في بحلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه في بجلس الثورى رحمه الله .

وقال بعض الحكاء: مسكين ابن آدم لو خاف من النــاركما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ، ولو رغب في الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعــا ،ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك بجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين .

وفي الاخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام . احذرأنأمقتك فتسقط

⁽۱) حديث عمران بن حصين . كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم مترلة وجاه ، فقال « ياعمران ، لمن لك عندنا مترلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة ؟ الحديث » تقدم (۲) حديث « لذا أبنض الناس فقراءهم وأظهر واعمارة الدنيان . . الحديث » أخرجه أبو منصور الدبلي بإسناد فيه جهالة ، وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عام « يدخل فقراه المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسهائة عام . . الحديث » وفى أوله قصة أن عمر بهث لمل سعيد بألف دينار لجاء كثيبا حزينا وفرقها ، وقد روى أحمد فى الزهد القصة لملا أنه قال « تسمين عاما » وفى لمسناده يزيد بن أبي زياد تسكلم فيه ، وفى رواية له « بأربهين سنة » وأما دخولهم قبلهم بخمسهائة عام فهو عند النرمذي من حديث أبي هريرة وصحيحه ، وقد تقدم .

من عيني فأصب الدنيا عليك صبا.

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرّق مائه ألف درهم فى يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامروغيرهما ، وإنّ درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية : لواشتريت لكبدرهم لحما تفطرين عليه ا وكانت صائمة ، فقالت : لوذكر تينى لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الاغنياء ، ولاتنزعى درعك حتى ترقعيه (١) ،

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليهأن يقبلها ، فألح عليهالرجل ، فقال له إبراهيم : أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لاأفعل ذلك أبدا ــ رضى الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثراب فقركم وإلا فلا (۱) ، فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : أنّ الحريض لاثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أنّ له تواباكما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ، ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله ، فتلك الكراهة هى التي تحبط ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إِنَّ لَـكُلُّ شَيْءَ مَفْتَاحًا ومَفْتَاحُ الْجُنّةَ حَبِ الْمُسَاكِينِ وَالْفَقْرَاءُ لَصِبْرِهُم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة (٤) ، .

وروى عن على كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القائع برزقه الراضي عن الله تعالى (°) « . وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا (°) » وقال « مامن أحد غنى ولافقير إلا وديوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا (۷) » وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون ، وقال صلى الله عليه وسلم « لاأحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (۸) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتى من خلق ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانمون بعطائى الراضوان بقدرى ،

⁽١) حديث : فال امائشة « لمنأردت اللحوق بى قطيك بعيش الفقراء ، ولماك ومجالسة الأهنياء ...الحديث ، أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه نحوا من حديثها ، وقد تقدم .

 ⁽۲) حدیث د طوبی لمن هدی للاسلام و کان عیمه کفافا و قنع به » رواه مسلم ، وقد تقدم .
 (۳) حدیث د یامه عبر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبکم .. الحدیث » رواه أبو منصور الدیلی فی مسند الفردوس من حدیث .
 آبی در برة ، و هو ضعیف جدا ، فیه أحمد بن الحسن بن أبان المصری متهم بالکذب و وضع الحدیث .

⁽٤) حديث « لمن لحكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجلة حب المساكن ... الحديث » رواه الدارقطني في غرائب مالك ، وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق ، وابن عدى في السكامل ، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .

⁽ه) حديث « أحب السباد الى الله الفقير القالم برزقه الراضى عن الله » لم أجده بهذا اللفظ ، وتفدم عند ابن ماجه حديث « لمن الله يحب الفقير المتعفف » (٦) حديث « الهيم اجمل رزق آل محمد كفاظ » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بلفظ « قوتا » وقد تفدم (٧) حديث « مامن أحد غني ولافقير لملا وديوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا » متفق عليه بلفظ « قوتا » من حديث أنس ، وقد تقدم (٨) حديث « لاأحد أفضل من الفقير لمذاكان راضيا » لم أجده بهذا اللهظ

أدخلوهم الجنة . فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس فى الحساب يترددون (١) ، فهذا فى القافع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فعنله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة ، ولايخنى أنّ القناعة يضادها الطمع . وقـد قال عمر رضى الله تعالى عنه : إن الطمع فقر واليأس غنى ، وإنه من يتُس عما فى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضى الله تعــالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابنآدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : مامن أحمد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان فى همدم عمره ثم لايحزنه ذلك ، ويع ابن آدم ماينفع مال بزيد وعمر ينقص .

وقيل لبلمض الحسكماء : ما الغني ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بمسا يكفيك .

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؛ فبينها هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجثني به ، فلما قام جاءبه إليه ، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال نعم . قال فشبعت؟ قال نعم ، قال شمنمت طيبا؟ قال نعم . فقال إبراهيم في نفسه ، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر .

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا ، فقال له : ياعبدالله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالمساء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعمالى ثم لم يصدّقوه ، ثم قرأ ﴿ وَفَى السَّمَاءُ رَزَقَكُم وماتوعدون ، فورب السَّمَاءُ والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وكان أبو ذرّ رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فأتته امرأته فقالت له : اتجلس بين هؤلاء؟ والله مافى البيت هفة ولاسفة ، فقال : ياهذه ، إن بين أيدينا عقبة كثودا لاينجو منها إلاكل مخف ، فرجعت وهى راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقراب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له .

وقيل لبعض الحـكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس بما في أيدى الناس .

وروى أنّ الله عزوجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة : ياابن آدم ، لو كانت الدنياكلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك .

وقد قبل في القناعة :

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس واقنع بيأس فإن العز في اليـاس واستغنءن كل ذي قربي وذي رحم إن الغني من استغنى عن الناس

⁽۱) حديث « يقول الله يوم القيامة : أين صفوتى من خاتى ؟ فتقول الملائسكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقوله : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

ياجامعاً مانعـاً والدهر يرمقـه مقـدرا أى باب منـه يغلقـه مفكرا كيف تأتيه منيتـه أغاديا أم بها يسرى فتطرقه جمعت مالا بقل لىهل جمعت له ياجامـع المـال أياماً تفرّقـه المال عندك يخزون لوارئه ما المـال مالك إلا يوم تنفقه أرفه ببال فتى يغدو على ثقـة أنّ الذى قسم الارزاق يرزقه فالعرض منه مصـون مايدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقـه إن القنـاعة من يحلل بسـاحتها لم يبق فى ظلهـا هم يؤرقـه

بيان فضيلة الفقر على الغني

اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في هذا ، فذهب الجنيد والحقواص والآكثرون إلى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء . الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة ، وقد ذكر نا ذاك في كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر _ ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والاحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل .

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الآخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بدّ فيه من تفضيل فنتول إنما يتصدور الشك فى مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على إمساك المال (والثانى) فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخنى أنّ الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير المحريص ، أما الآول فر بما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ، لانهما تساويا فى ضعف الحرص على الممال ، والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفةير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان فى مباح فلا بتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ماروى فى الخبر : أنّ الفقراء شكوا لمل رسول الله صلى الله تمالى عليه وسلم سبق الآغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فعلهم كلمات فى التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ماناله الآغنياء ، فتعلم الآغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال عليه السلام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١١) » .

وقد استشهد ابن عطاء أيضا لمساسئل عن ذلك فقال: الغنى أفضل لآنه وصف الحق، أما دليسله الآول ففيه نظر ؟ لآن الحنبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى ، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: بعث الفقراء رسولا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إلى رسول الفقراء إليك ؛ فقال و مرحبابك وبمن جثب من عندهم قوم أحبهم ، قال: قالوا يارسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالحسير يحجون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم وبلغ عنى ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم وبلغ عنى

⁽۱) حدیث . شسکی الفقراء لمل رسول الله صلی الله علیه وسلم سبق الأغنیاء بالحیرات والصدقات ... الحدیث ، وف آخر : فقال « ذلك فضل الله یؤئیه من بشاء » متفق علیه من حدیث أبی هریرة نحوه . (۲۱ --- لمحیاء علوم الدین --- ،)

الفقراء أنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ايست اللاغنياء : أما خصلة واحدة : فإن فىالجنة غرفا ينظر إلها أهل الجنة كما ينظر أهل الارض إلى نجوم السهاء ، لايدخلها إلا نبي فقير ، أو شهيدفقير ، أومؤمنفقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسهاتة عام ، والثالثة : إذا قال الغني : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيهاءشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البركلها ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : رضينا رضينا (١) فهذا يدل على أنّ قوله « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، أى مزيد ثو ابالفقر ا.علىذكرهم . وأماقوله : إنَّالغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترىأنالله تعالى غنى بالاسباب والاعراض ، فانقطع ولم ينطق ، وأجاب آخرون فقالوا : إنَّ التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أنَّ الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لاينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيها روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم . الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته ٢٦٠ . . وقال سهل : حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى ؛ فنهذاا لجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكايات قاصرة لا تبعد منــاقضتها ، إذكا يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فـكذلك يناقض قول منذمالغنى لأنه وصف، للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد ، وليس لاحد أن يفضلالغفلة على العلم ، فكشفالغطاء عن هذا هو ماذكرناه في كتاب الصبر : وهو أن ما لايراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاب إلى مقصوده ، إذ به يظهر فعنله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعسالي ، ولاالفقر مطلو بالعينه لكن لأنَّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه ، وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما ، وكم من فقيرشغلهالفقر وصرفه عنالمقصد ، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوكسبيل المعرفة معالشو اغل غير بمكن ، والفقر قد يكون من الشواغلكما الغني قد يكون من الشواغل ، و إنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب ، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق أكثر ، وربما يكرن شغله في الوصال أكثر ، والدنيا معشوقةالغافلين ، المحروم منهامشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ؛ فإذن إن فرضت فارغين عن حب المـــال بحيث صار المــــــال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد ، إذكل واحد غير متمتع إلا بقدر الحساجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده ، إذ الجالع يسلك سبيل المرت لاسبيل المعرفة . وإن أخذت الاس باعتبار الاكبر فالفقير عن الخطر أبعد ؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لايقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عهم: بلينابفتنةالضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهـذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشـاذ الفذ الذي لا يوجد في الاعصـار الكثيرة إلا نادرا.

⁽۱) حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء لل رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا: لن الأغنياء ذهبوا بالجنة يمعبون ولا نقدر عليه ... الحديث ، وفيه « بلغ عنى الفقراء أن لمن سبر واحتسب منسكم ثلاث خصال ايست للاغنياء . . . الحديث » لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف في هذا المعنى مارواه ابنماجه من حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين الى رسولهالله سلى الله عليه وسلم مافضل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال « يامعه بر الفقراء ألا أشهركم ان فقراء المؤمنين يدخلون الجنا قبل أغنيائهم بنصف يوم خسهائة عام » ولمسناده ضعيف . (۲) حديث « قال الله تمالى : السكبرياء ردائى والعظمة الزارى » تقدم في العالم وغيره .

ولماكان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر ـــ والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ــ زجرالشرع عن الغنى وذمه ، وفعنل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم .

وقال بعض العلماء: تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان.

وفى الخبر ﴿ إِنَّ لَكُلُّ أَمَّةً عِملًا وعجل هذه الآمة الدينار والدرهم (١١ ، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام رالأولياء ؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فعنل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول للدنيا ﴿ إليك عني (٢٠ ﴾ إذكانت تتمثل له بزينتها . وكان على كرم الله وجهه يقول : ياصفراء غرى غيرى ، ويابيصاء غرىغيرى ، وذلك لاستشماره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بهالولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الغني المطلق ، إذقال عليه الصلاة والسلام و ليس الغي عن كثرة العرض إنما الغي غي النفس ١٣٠ ، وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصاح لكافة الحلق فقد المـال وإن تصدّقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لانهم لا ينفكون في القدرة على المـال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرةعليها واستشعار راحة في بذلهــا ، وكل ذلك يورث الآنس بهذاالعالم ، وبقدرماياً نس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ؟ وبقدر ما يأنس بصفة منصفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن'حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافي القلبءن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوىالله تعالى وكان مؤمنا بالله الصرف لامحالة إلىالله ، إذ لاينصور قلب فارغ ، وليسفى الوجود إلا الله تعالى وغيره ، فن أقبل على غيره فقد تجانى عنه ومن أقبل عليه تجانى عنغيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافية عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون سطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه مها ، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبهما بالمـال فقط ، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما ، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور ، فإنّ الغني ربمــا يظنّ أنه منقطع القلب عن المـال ، ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لايشعر به ، وإنمـا يشعر به إذا فقده ، فليجرّب نفسه بتفريقه أوإذا سرق منه ، فإن وجد لقله إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكم من رجل باع سريةله لظله أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنه فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأنّ العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الاغنياء إلا الانبياءوالاولياء ، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيدًا فلنطلق القول بأنَّ الفقر أصلح لـكافة الخلق وأفضل ، لأنَّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته ، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لاعيامها بل ليتأكد بها الآنس بالمذكور ، ولا يكون تأثيرها في إثارة الآنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرِها في قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك .

⁽١) حديث « لكل أمة عجل ، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم » رواه أبو منصور الدياس من طربق أبي عبد الرحن السلمى من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة . (٧) حديث : كان يقول الدنيا « الملك عنى .. الحديث » رواه الحاكم مع اختلاف . وقد تقدم . (٣) حديث « ليس النني عن كثرة العرض ،. الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ٤٠وقد تقدم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لايقدر عليها : أفضل من عبادة غنى ألفعام .

وعن العنحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئًا يشتهيه فصبر واحتسب ،كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضربي العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولاخبز فادع الله لىف ذلك الوقت ، فإنّ دَعَامُكُ أفْصَلُ مِن دَعَانَى . وكان يقول : مثل الغني المتعبد مثل روضة على منهلة ، ومثل الفقير المتعبدمثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء وقد قال أبربكرالصدّيق رضي الله عنه : اللهم إني أسألكالذل عندالنصف من نفسي ، والزَّمد فيها جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المـال أصلح من وجوده هذا ، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبدالرحمنبنعوف عنالجنة إذكان مشغولا بالحسابكا رآه رسول الله صلى الله عايه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أنّ لي حانوتا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينــارا وأتصدّق بها في سبيل الله تعــالي : قيل : وما تكره ؟ قال : سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الاغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراءراحة النفسوفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الاغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب، وماذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كانالعبد غنياعن وجود المــال وعدمه جميعاً بأن يستوى عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقراً إلى بقائه فلا يصاهى غناه غنى الله تعالى ، لأن الله تعالى غنى بذاته لا بمــا يتصوّر زواله والمــال يتصوّر زواله بأن يسرق ، وماذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صميح في ذم غني يريد بقاء المــال ، وما ذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح ، بل العلم من صفاته وهو أفضلشيء للعبد ، بل منتهى العبدأن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون أوصافاً له : أي يكون له من كل واحد نصيب ، وأما التكبر فلايليق بالعبد ، فإن الذكبر على من لايستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى ، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على السكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيلرق به نعم قديراد بالتسكير الزهووالصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى ، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كلُّ شيءوأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد مأمور به بأنه يطلبأعلى المراتب إن قدرعليه ، ولكن بالاستحقاقكا هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الـكافر ، والمطبيع أكبر من العاصى ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعـالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفعنيلة في حقه ، إلا أنه لاسبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكونوكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوَّرَ أن يعلم الشيء على ماهو به كان العلم كالا في حقه لانه نى صفات الله تعالى ، ولمساكانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا فى حقه إذ ليسمن أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التى لا ضرر فيها هى التى تتصوّر فى العبد من صفات الله تعالى ، فلا جرم هو منتهى الفعنيلة وبه فضل الانهياء والاولياء والعلماء ، فإذن لو استوى عنده وجود المسال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوء الغنى الذى يوصف به الله سبحانه وتعالى فهوفضيلة، أماالغنى بوجود المال فلافضيلة فيه أصلا، فهذا بيان نسبة حال الفقير القافع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثانى في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

وانفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لابدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه لحال الوجود أفضل ، لأنّ الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لايقدرعلىالفكروالذكر إلاقدرةمدخولة بشغل ؛ والمكنى هو القادر ، ولذلك قال صلى الله عليه بوسلم . اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا ، وقال . كادالفقر أن يكون كفرا ، أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه ، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوبقدرالحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لانهما استويا في الحرص وحب المال ، واستويا ف أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أنكلواحد منهما ليس يتعرَّض لمعصَّية بسبب الفقر والغني ؛ ولكن افترةا في أنَّ الواجد يأنس بمــا وجده فيتأكد حبه فيقلبه ِ ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتـكمون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغى الخلاص منه ، ومهما استوت الأموركاها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركونا إلى الدنيا ؛ فحاله أشدّ لامحالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ رَوْحَ القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنك مفارقه (١) ، وهذا تنبيه علىأن فراق المحبوب شديد ، فينبغي أنتجب من لا يفارقك وهو الله تعالى ، ولا تجب ما يفارقك وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنياكرهت لقاءالله تعالى،فيكون قدومك بالموت على ما تـكرهه ، وُفراقك لمـا تحبه ؛ وكل من فارق محبوبا فيـكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لهـا وإنكان حريصا عليها ، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لـكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما غني مثلغنيعائشةرضي الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيداً له ؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم ؛ والثانى الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيهبوجه من الوجو والاإذا كان وجوده يبتى حياته ثم يستعين بقوّته وحيانه على الـكفر والمعاصى ؛ ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ؛ فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا ؛ فهذا تفصيل القول في الغني والفقر . ويبتى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المــال ليس له هم سواه ، وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المــال ، ولم بكن تفجعه بفقدالمال لو فقده كتفجع الفقير بفقهره ، فهذا في محل النظر ، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قرّة تفجعها لفقدالمال وقربهما بقدر ضعف تفجعها بفقده ؛ والعلم عند الله تعالى فيه .

⁽١) حديث « لمن روح القدس نفث في روهيي أحبب من أحببت فإنك منارقه » تقدم .

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أنَّ للفقير آدا با في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها .

فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارها فعل تعالى من حيث إنه فعله _ وإن كان كارها للفقر _ كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام و لا كارها للفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام ، يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا ، الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام ، يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا ، وأرفع من هـ أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه وأرفع من هـ ذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به ، وأرفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوا الم الغنى ، ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف . وقد قال على كرم الله وجهه : إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطبيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته - إذا كان عقوبة _ أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود ، بل المحمود الذى لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقروير منى لعلمه بشمرته ، إذ قيل ، ما أعطى عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ويستر أنه يستره فني الحديث و إن الله تعالى إن يستره المعلم المتعلم المتعلم المتعلم المتعلم المتعلم المتعلم المتعلم عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر .

وأما فى الأعمال فأدبه: أن لا يتواضع لعنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرّم الله وجهه : ماأحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل ، فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثورى رحمه الله : إذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم أنه مراء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الاغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطمت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغى أن لايسكت عن ذكر الحق مدا هنة للاغنياء وطمعاً فى العطاء .

وأما أدبه فى أفعاله : فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهدالمقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، درهم من الصدقة أفعنل عند الله من مائة ألف درهم ، قيل : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال ، أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب المدرهم أفضل من صاحب المدائة ألف (١١) ، وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباق وفى الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين (والثانية) أن يدخر لاربعين يوما فإن مازاد عليه داخل في طول الامل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

⁽¹⁾ حديث زيد بنأسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف » قبل : وكيف يارسسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مأنة ألف . . • الحديث ، أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة متصلا ، وقد تقدم فى الزكاة ، ولاأصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا .

ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوما . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم الذي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الاقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيها جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى ، وغرضه في الآخذ .

أما نفس المــال فينبغى أن يـكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطى فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والذكر والرباء والسمعة إما على النجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض .

أما الأول _ وهو الهديه _ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ولكن ينبغى ان لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها بما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ؛ فقد أهدى إلى رسول الله على الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقطور دالكبش (٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٢) ، وقال ولقد هممت أن الأتهب إلامن قرشى أو ثقني أو أفصارى أو دوسى (٤) ، وفعل هذا جماعة من التابعين . وجاءت إلى فتح الموصلى صرة فيها خمسين درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال و من أناه رزق من غير مسألة فرده فأنما يرده على الله (حل كيسا منتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها . وكان الحسن يوى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس بجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لتي الله عن قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من وم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم المنيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه و يعرض عليه غيرهم المثين فلا يأخذها وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبر في بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبر في بعضهم إذا أعطاء صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبر في

⁽١) حديث أن قبول الهدية سنة : تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .

⁽٢) حديث : أُمَدى إلى النبي سلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد السكبش . أخرجه أحمد في أثناء حديث لبملى بن سرة : وأهدت إليه كبيبين وشيئاً من سمن وأقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « خذ الأقط والسمن وأحد السكبشين ورد عليها الآخر » ولمسناد. جيد . وقال وكيم : سرة عن يعلى بن سمة عن أبيه .

⁽٣) حديث : كان يقبل من بمن الناس ويرد على بمن رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة « وايم الله لاأفبل بعد يومي هذا من أحد هدية الا أن يمكون مهاجريا ... الحديث » فيه محمد بن لمسحق ورواه بالمنعنة .

⁽٤) حديث « لقد همت أن لاأتهب آلا من قرش أو تقنى أو أنصارى أو دوسى » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال: روى من غير وجه عن أبي هريرة ، قلت: ورجاله ثقات . (٥) حديث عطاء مرسلا « من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فإنما يرد على الله عزوجل » لم أجده مرسلا هكذا ، ولأحمد وأبى يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهي « من بلنه معروف من أخيه من غير مسئلة ولالمشراف نفس فلبقبله ولايرده فإنما هو رزق ساقه الله عزوجل لمليه » ولاحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة « من آثاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عبر مصرف ولاسائل غذه ، الحديث » ،

حتى آخذه وإلا فلا ، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين . وقال بشر : ماسأ لتأحداقط شيئا إلا سريا السقطى لانه قد صح عندى زهذه فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على ما يحب . وجاء خراسانى إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال : أفرقه على الفقراء، فقال : ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال : ما أريد أن تنفقه فى الحل والبقل بل فى الحلاوات والعليبات ، فقبل ذلك منه ، فقال الحراسانى : ما أجد فى بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد : ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك .

الثانى: أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وقدذكر نا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة ، فينبغى أن يرد عليه قصدهالفاسد ولا يقبله ، إذيكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول : لو علمت أنهم لايذكرون ذلك افتخارا به لآخذت وعوتب بعضهم فى رد ماكان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لآنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم .

وأما غرضه في الآخذ فيذبني أن ينظر: أهو محتاج إليه فيا لابد منه أو هو مستفن عنه ، فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكر ناهافي المعطى فالأفضل له الآخذ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ، من أناه شيء من هذا المال من غير سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من أناه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنماهو رزق ساقه القاليه (١) ، وفي لفظ آخر ، فلايرده ، . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال أحمد : السرى : يا أحمد ، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الآخذ ، فقال له أحمد : أعد على ماقلت ! فأعاده ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لآن عندى قوت شهر ، فاحبسه لى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلى ، وقد قال بعض العلماء غلو : إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو الشكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لآخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك بحض اتباع الهوى ، وكل فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لآخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك بحض اتباع الهوى ، وكل فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لآخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك بحض اتباع الهوى ، وكل فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك بحض اتباع الهوى ، وكل أن يأخذ في الملانية ويرد في السر ، أو يأخذ في العلانية ويوصل إلى من هو أحوج منه ، أن يأخذ في العلانية ؛ وقد ذكرنا هل الافضل إظهار النهار الخهار المالهار الخهار النهار العالمال المن هو أحوج منه ، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية ؛ وقد ذكرنا هل الافضل إلى عن هو أحوج منه ،

⁽۱) حدیث « ما المعلی من سمة بأعظم أجرا من الآخذ لذا كان محتاجاً » رواه الطبرانی من حدیث ابن عمر ، وقد تقدم في الزكاه . (۲) حدیث « من أتاه شیء من هذا المال من هیر مسئنة ولااستصراف فإنما هو رزق ساقه الله لمالیه » وفي لفظ آخر « فلا برده » تقدما قبل هذا بحدیث .

الاخذ أوإخفاؤه ؟ في كتاب أسرارالزكاة مع جملة منأحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمدبن حنبل عر قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله ، فإنماكان لاستغنائه عنه ،إذكان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإنّ في ذلك آفات وأخطارا ، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيده الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى درآهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خني : أنا جائم كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيها ترى يامن يرى ولا يرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي ؛ لا أجد لدراهمي موضعا أحسن من هذا ؟ ِهُمَاتِهَا إليه ، فنظر إليهائم أخذ منهاخمسة درائم وقال : أربعة ثمن متزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثة فلاحاجة في إلىالباقي فرده . قال : فرأيته الليلة الثانية وعليه متزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلى فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعاكل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال . هذا كله قد أعطانيه فرهدت فيه وآخذ منأيدي الخلق لأنّ هذه أئقال وفتنة ، وذلكالمباد فيه رحمة وفعمة ، والمقصود منهذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلا. وفتنة لينظر الله إليك ماذا نعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى ﴿ إِنَا جَعَلْنَا مَاعَلَى الْأَرْضَ زَيْنَةً لِمَا لَنْبَلُوهُمْ أَيْهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم . لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صابه ، وثوب يواري عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب (١١) ، فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيها زاد عليه إن لم تعصالة متعرض للحساب، وإن عصيتالله فأنت متعرَّض للعقاب . ومن الاختبار أيضاً : أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرُّبا إلى الله تعالى وكسراً لصفة النفس فتأتيك عفرًا صفوا لنمتحن بها قرّة عقلك ، فالأولىالامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لهافي نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها دلا يمكن قهرها ، فرّد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولايقدر عليه إلا الصدّيقون : وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ مازاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادربه إلى الصرف إليهم ولاتدّخره ، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربمـا يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك. ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بألله لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إفراضه على بصيرة ، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضي من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ وَمَن قَدْرَ عَلَيْهُ رَزَّتُهُ فَلَيْنَفُقَ ۖ بمــاً آتاه الله ﴾ قيل معناه : ليبع أحد ثوبيه . وقيل معناه : فليستقرض بجاهه، فذلك بما آتاه الله ، وقال بعضهم : إن لله تعالى عباداً ينفقون على فدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظنّ بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بمسأله لثلاث طوائف: الاقوياء، والاسخياء، والاغنياء، فقيل: منهؤلاء؟ فقال: أما الاقوياءفهم أمل

⁽۱) حدیث و لاحق لاین آدم لمالا فی نلاث : طمام یقیم صلبه ، وثوب یواری عورته ، وبیت یکنه فما زاد فهو حساب » آخرجه اللترمذی من حدیث عثمان بن عفان وقال « وجانب الحبز والمساء » بدل قولا « طمام یقیم صلبه» وقال صحیح . (۲۷ ــ لمحیاء علوم اله یق ـــ ٤)

التوكل على الله تعالى ، وأما الاسخياء فهم أهل حسن الظان بالله تعالى ، وأما الاغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى ، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المالوفى المعطى فليأخذه ، وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لامن المعطى ؛ لأنّ المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى والإرادات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل ما تدة حسنة ، فلما قعد قال لاصحابه : إن هذا الرجل يقول : من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعاى عليه حرام ، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة ، فقال صاحب المنزل لشقيق : ماقصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم ، وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزق هكذا على أيدى بنى إسرائيل يغديني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائى ، أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فبهم . فلا ينرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس (١) ، وفى الحديث « ردوا السائل ولو بظلف بحرق (٢) ، ولو كان السؤال حراما مطلقاً لمنا جاز إعانة المتعدّى على عدوانه والإعطاء إعانة ، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الاصل وإنما يساح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بد فهو حرام ، وإنما قلنا إن الاصل فيه التحريم لانه لاينفك عن ثلاثة أمور محرمة .

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لسكان سؤاله تشنيعاً على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة .

(الثانى) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليــه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الحلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لعنرورة، وفىالسؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول .

(انثالث) أنه لاينفك عن إيذاء المسئول غالبا ؛ لانه ربما لانسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو ريا. فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء، فنى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم ، مسألة والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها(٢) ، فانظر كيف سهاها فاحشة ، ولا يخنى أن الفاحشة إنما تباح

⁽¹⁾ حديث ه السائل حتى وأن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث الحسين بن على ، ومن حديث على ، وفي الأول يمل بن أبي يحبى جهله أبو حاتم ووتقه ا ن حبان ، وفي اثاني شيخ لم يسم ، وسكت عليما أبو داود ، وماذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أه بلنه من أحمد بن حبل قال : أرامة أحاديث تدور في الأسواق ايس لها أصل منها ه السائل ولوبطانف عرف » رواه فأنه لا يصبح عن أحمد ، فقد أخرج حديث الحسين بن على في مسنده . (٢) حديث ه ردوا السائل ولوبطانف بحرف » رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، والذائي والهنظ له من حديث أم مجبد . وقال ابن عبد البر . حديث مضمل ب . (٣) حديث ه مسئلة الناس من الفواحش ، وما أحل الله من الفواحش غيرها ه لم أجد له أصلا .

الضرورة كما يباح شرب الخر لمن غص بلقمة وهو لايجد غيره . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سَأَلُ عَنْ غَنْ فَإِنْمَـا يستكثر من جمر جهنم (١) ، , ومن سأل وله مايغنيه جا. يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم ، وفي لفظ آخر وكانت مسألئه خدوشاً وكدوحا في وجهه (٢) ، وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبايـم رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية . ولا تسألوا الماس شيئًا(٣) ، وكان صلى الله عايه وسلم بأمركثيراً بالتعفف عن السؤالويقول .من سألنا أعطيناه؛ومناستغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا (؛) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير، قالوا : ومنك يارسول الله ؟ قال . ومنى (٥) ، وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال : ألم أقللكعشالرجل؟ قال : قد عشيته ، فنظر عمر فإذا تحت يد، مخلاه مملوءة خبزا فقال : لست سائلاو لكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثر هابين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرّة وقال: لاتعد. ولولا أنّ سؤاله كان حرامًا لمـا ضربه ولا أخـذ مخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنة العنيق الحوصلة يستبعد هذا منفعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه ، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين اللهومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يملمأنّ المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلكولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغيرطريق شرعها نبي الله ، وهمات وإنذلك أيضاً معصية ، بل الفقه الذي لاح لهفيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئًا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذ لايعرف أصحابه بأعيانهم ، فبق مالالامالك له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ، وبتنزل أخذ السائل مع إظهارا لحاجة كاذبا كأخذالملوى بقوله إنى علوى وهو كاذب . فإنه لايملك ما يأخذه ، كأخذ الصوفى الصالح الذي يعطى لصــلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها الممطى لما أعطاه ـــ وقد ذكرنا في مواضعأن ما أخذوه على هذا الوجّه لايملكونه وهوحرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه .. فاستدل بفعل عمر رضيالله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قررناه في مواضع ، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعـلم أن الشيء . إما أن يكون مضطراً إليـه ، أو محتاجا إليه حاجة

⁽۱) حديث « من سأل عن غنى فإنمها يستكثر من جمر جهنم ... الحديث » رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية متتصرا على ماذكر منه وتقدم فى الزكاة ، ولمسلم من حديث أبى هريرة « من يسأل الناس أموالهم تسكثراً فإنمها يسأل الحنظلية متتصرا على ماذكر منه وتقدم فى الزكاة ، ولمسلم من حديث مسمود بن عمر «ولايزال العبد يسأل وهوغنى حتى يخلق وجهه » وفى لمسناده لين جمرا ... الحديث ابن عمر « مابزال الرجل يسأل الماس حتى بأتى يوم القيامة وابس على وجهه مزعة لحم » ولمسناده جبد .

⁽۲) حديث « من سأل وله مايننيه كانت مسئلته خدوشا وكدوحا في وجهه » رواه أصحاب الدين من حديث ابن مسهود » وتقدم في الزكاة (٣) حديث : بايم قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلة خفية «ولاتسألوا الماس شيئاً » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجمي (٤) حديث « من سألها أعطيناه ومن استنى أغناه افلة ومن لم يسألنا فهو أحب لملينا » أخرجه ابن أبي الدنيا في الفناعة ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الحدري ، وفيا حصن بن هلال لم أرمن تسكلم فيه ، وباقيم ثقات . (٥) حديث « استنفوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير ... الحديث » أخرجه البرار والطبراني من حديث ابن عباس « استنفوا عن الداس ولو بشوس السواك ، ولمسناده صحيح ، وله في حديث « فتعففوا ولو بحزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : ومافل من السؤال ... الح ،

مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستغنى عنه ؛ فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس.مه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحاً ، والمسئول منه بكونه راضياً في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب ، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان -

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف ، وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة لانها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للاولى ولايسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقالليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقة ولكن يشق على ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إنشاء الله تعالى.

وأما الحاجة الحفيفة فمثل سؤال قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لاجل الادم وهو واجد للخبز ، وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المستول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لاتصلح لان تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيءمن ذلك فهو مباح مع الكراهة .

ه فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الحلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق لمياني وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به عن حدّ الشكوى ، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لاينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخى الذي قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح وجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك ، فإن الذل لازم للمنة لا محالة . وأما الإبذاء فسبيل الخلاص عنه أن لايمين شخصا بالسؤال بعينه بل يلتى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة ، وإن كان في القوم شخص مرموق لولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويسكون الآحب إليه في الباطن الحلاص لو قدر عليه من غير الملامة ، وأسكون الآحب إليه في الباطن الحلاص لو قدر عليه من غير الملامة ، وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فيفبغي أن لايصرح بل يعرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التغافل إن أراد ، فإذا لم يتغافل معالقدرة عليه فذلك رغبته وأنه غير متأذ به ، وينبغي أن بسأل من لايستحيا منه لو رده أو تغافل عنه أن الحياء من السائل يؤذى كما أن الرماء مع غير السائل يؤذى .

ه فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة ، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لافرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الحشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام ، وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء ، ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضى به وقد قال صليالله

عليه وسلم و إيما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر (۱) ، فإن هذه ضرورة القضاء في فصل الحصومات ، إذلا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الآحوال ، فاضطروا إلى الحسكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن العبرورة دعت إليه ، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالالسنة عند سائر الحسكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملك بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه ، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته ، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورئته ، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه و بالسؤال الذي حصل به الآذى .

• فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا ؟ فأفول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فماكانوا يأخذون من أحد شيئًا أصلا فسكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج|لمال من يده فأنا أعينه على ما يحب ، و إنمــا عظم النكبير في السؤال وتأكد الامر بالتعفف لهذا ، لأنّ الآذي إنما يحل بضرورة : وهو أن يَكُون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غيركراهة وأذى ، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة ، فـكان الامتناع طريق الورعين،ومنأرباب القلوب من كَان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الاحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لايأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ بمـا يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول اللهصلي الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والآفط ، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لايكون إلا عن رغبة ، ولكن قد تكون رغبته طمعا فى جاء أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك ، فأما السؤال فقدامتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين : أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الانبياء في موضع الضرورة : سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثـاني : السؤال من الاصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بنير سؤال واستئذان ، لأنّ أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم ، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على مايريدونه وإلا فسكانوا يستغنون عن السؤال، وحذ إباحة السؤال أن تعلم أنَّ المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك ، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ، ويتصدى للسائل حالة لايشك فيها فى الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك فى الكراهة ، ويعلم ذلك بقرينة الاحوال ، فالاخذ في الحالة الاولى حلال طاق ، وفي الثانية سحت ، ويتردد بين الحالتين أحوالٌ يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم ، وليبدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وإدراك ذلك بقرائن الآ-وال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة ترامى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة ، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله

⁽١) حديث ﴿ إِنَّمَا نَحْسَكُمُ بِالنَّفَاهِرِ وَاللَّهُ يَتُولَى السَّرَائْرِ ﴾ لم أجد له أسلا ، وكذا قال الزي لمنا سئل هنه .

صلى الله عليه وسلم ، إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه (١) ، وقد أوتى جوامع السكلم ، لآن من لاكسبلهولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أبدى الناس ، وان أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما ، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة ، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو موزئك ، فإذن بعيد أن يجتمع الورع مع الاكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عن سواه عنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر ، صريح في التحريم ، والكن حدّ الغنيمشكلو تقدير معسير ، وايس إليناوضع المقادير ، بل يستدركذلك بالتو قيف ، وقدورد في الحديث واستغنوا بغني الله تعالى عن غيره . قالوا : وما هو قال : غداء يوم وعشاء ليلة (٢١ ، وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحانا (١٣) ، وورد فى لفظ آخر « أربعون درهما ، ومهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار فيلبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإنّ الحق في نفسه لايكون إلا واحدا والتقدير ممتنع ، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقرل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، وبيت يكنه نما زاد فهو حساب ، فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الاجناس والمقادير والاوقات ، فأما الاجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لايقدر على المشى وكمذلك ما يحرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداسوأماالثاني من كلجنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعًا ، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكني فيه الحزف ، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع علىأخس أجناسه مالم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولوكان من الشعير . والادم على الدوام فضلة ، وقطعة بالـكلية إضرار ، فني طلبه في بعض الاحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة ، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عنظهر غنى ، وأما بالإضافة إلى الاوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شكفيه فأما سؤاله المستقبل فهذا له ثلاث درجات (إحداها) ما يحتاج إليه في غد (والثانية) ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . (والثالثة) ما يحتاج إليه في السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يَكفيه له ولعياله إن كان له عيال

(١) حديث ه لمن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، نقدم .

⁽٢) حديث « استننوا بفق الله » قالمرا : وماهو ؟ قال « غداء يوم وعشاء ايلة » تقدم فى الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يغنيه ؟ قال « ما يندبه أو يمشيه » ولأحمد من حديث على بإساد حسن : قالوا وما ظهر غنى ؟ قال « عشاء ليلته» وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة (٣) حديث « من سأل وله خسون درها أوعدلها من الذى فقد سأل الحافا » وفي لفظ آخر « أربعون درها » تقدما في الزكاة .

لسنه فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينول التقدير بخمسين درهما فى الحديث ، فإن خمسة دنانير تمكنى المنفرد فى السنة إذا اقتصد ، أما المعيل فر بما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لانه مستغن فى الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينول الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر . وإن كان يفوته فرصة السؤال في يك عاجزا عما يعينه ، فإن كان يفوته فرصة السؤال المناء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خارجاع على الضرورة عاجزا عما يعينه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفاوكان مالا جلهالسؤال خارجاع على الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الإضطرار وخوف الفوت وتراخى المذة التي فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتى بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك الكوليالك بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك الكوليالك وقال عزوجل فر الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، وقد قال تعالى في السنة أشده مومنون أن والسؤال من الفتشاء ، والله عدكم مغفرة منه وفضلا أو والسؤال من الفت المن ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراه السنة ، وكلاهما مباحان فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطرال الآمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن النوفيق بلطفه وكرمه وطرال الآمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن النوفيق بلطفه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رَحمه الله يقول الفقراه ثلاثة : فقيرلايسأل وإن أعطىلايأخذ ، فهذا معالروحانيين في عليين. وفقير لايسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخى لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا ـ وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت ياأستاذ .

فإذن درجات أرباب الآحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرق من حصيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقى قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الآحوال قد تغلبهم حالة تقتمنى أن يكون السؤال من يدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النورى رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأنيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فإنّ النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنمـا سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لايضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم . يد المعطى هي العليا (١١) ، فقال بعضهم : يد المعطى هي يدالآخذ للمال لانه يعطى الثواب والقدر له لالما يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن ما أن درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه ، فقلت في نفسي : إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به بجهو لا وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلىالنورى فقال : هات الميزان ، فوزنما تةدرهم وقال : ردها عليه وقل له : أنا لاأقبل منك أنتشيئا وأخذمازادعلى المـاثة قال : فزادتعجي ، فسألته فقال . الجنيدرجلحكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه : وزن المـائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل ، فأخذت ماكان لله تبارك وتعالى ورددت ماجعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال : أخذماله وردمالنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل وإحدمنهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الاسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإفبال على الله تعسالي بكنه الهمة ، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكركون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحدر جلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقدوصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أوسلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلي القلوبالضعيفة وأتباعالشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجملنا من الراسخين في العلم القائلين ﴿ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الآلباب ﴾ .

الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والآثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لانأبواب الإيمان كلهاكما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل ، وكأن القول اظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه ، وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب في حال يجرى بجرى المشعر ، والعمل بجرى من الحال بجرى المثرة ، فلنذكر الحال مع كلاطرفيه من العلم والعمل : أما الحال فنعني بها مايسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنمسا عدل إلى غيره لرغبته

⁽١) حديث ﴿ يَدَ الْمُعْلَى مِي العَلْمِا ﴾ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

في غيره ؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول|ليه يسمى رغبة وحبا ، فإذن يستدعى حال الزهد مرغوبًا عنه ومرغوبًا فيه هو خير من المرغوب عنه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضًا مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لايسمي زاهدا ، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهــه لايسمي زاهدا ، وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة ، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لايقدم على البيع إلاوالمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيهوحبًا ، ولذلك قال الله تعمالي ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ معنماه باعوه ، فقمد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ؛ وكان ذلكعندهمأحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض ، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإنكان هو للبيل في وضع اللسان . ولما كان الزهد رغبة عن عبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الاحب محال ، والذي يرغب عن كل ماسوي الله تعالى حتىالفراديس ولايحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيـا البعض دون البعض كالذي يترك المـال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل و لا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، ودرجته في الزهاددرجة من يتوب عن بعض المعاصي في التامبين ، وهو زهد صحيح ، كما أنَّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة ، فإن النوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والرهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعضكاً لا يبعد ذلك في المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لايسمي زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات ، فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا ، وكما يشترط في المرغوب فيهأن يكون خيرا عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه ، فإن ترك ما لايقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يازاهد ، فقال · الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففياذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحـال فهو العلم بـكون المتروك حقيرا بالإضـافة إلى المأخوذ كعلم التساجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزولاالرغبةعن المبيع ، فكذلك من عرف أنَّ ما عند الله باق وأنَّ الآخرة خير وأبق ، أي لذاتها خير في أنفسهاوأبق ،كما تكون الجوآهر خيرًا وأبق من الثلج مثلاً . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللال ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لايزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لافناء له ، فبقدرةوةاليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تةوى الرغبة في البيمع والمعاملة ، حتى إنَّ من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ﴿ فَاسْتَبْشُرُوا بِبِيمَاكُمُ الذي بايعتم به ﴾ فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر : وهو أن الآخرة (٢٧ -- لمناء علوم الدين -- ١)

خير وأبق وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدنيا ، إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلا. الشهوة في الحال علمه وكونه مقهورا في يد الشيطان ، و إما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبق معه إلا الحسرة بعد الفوت : وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعــالى ﴿ وَلِ مَتَاعَ الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشــارة بقوله عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلــكم ثواب الله خير ﴾ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمماوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه : اللهم أرنى الدنياكما تراها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم . لاتقل هكذا ، ولـكن قل : أرنى الدنياكما أريتها الصالحين من عبادك (١١) ، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخاوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ماهو خير له ، ولايتصور أن يرى باتعالفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى -شرات الارض مثلاً ، لانه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس ، والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى ، فكا أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكاية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّمانها وعلائقها ، فبخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمز ؛ فإذا وفي بشرط الجانبين في الآخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به ؛ فإن الذي بايعه بهذا البييع وفي بالمهـد ، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد بمن يو ثق بصدقه وقدرته ووفائه بالمهد ، وما دام بمسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ، ولذلك لم يصف الله تعمالي إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ وعزموا على إبعاده كماعزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عنــد التسليم والبيع ، فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج : فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيادونالبعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقطولست زاهدا مطلفاً ، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منكالزهد ، لأن ما لايقدر عليه لايقوى على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإلك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكم من ظان بنفسه كراهة المماصي عند تمذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوف من الخلق وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها ، أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة ، فإذا وفت بما وعدت على الدوام معانتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ، ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر ، فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ماترك فقط وذلك عند القدرة. قال ابن أبي ليلي لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحداثك صدا

⁽۱) حدیث : قال رجل : اللهم أرنى الدنیا كما تراها ، فقال له « لانقل هـكذا ، ولـكن قل : أرنى الدنیا كما أریتها الصالحین من عبادك » ذكره صاحب الفردوس مختصرا « اللهم أرنى الدنیا كما تریها صالح عبادك » من حدیث أبي الفصیر ولم يخرجه وله.

لانفني في مسألة إلا رد علينا _ يعني أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أدرى أهو ابن الحائك أمهاهو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبثه لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَا كُتَبِّنَا عَلَيْهُمْ أَنَ اقْتَلُوا أَنْفُسُكُمْ أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم (١) ﴾ . قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت منهم ـــ يعني من القليل . قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يويد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة (٢١ ﴾ . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتَّقة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لامدخل لشيء منه في العبادات ؛ وإنمـا الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاســــة الآخرة ؛ فأماكل نوع من الترك فإنه يتصور من لايؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهدا ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من المــال ، وكما أن ترك المــال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد ، فـكذلك تركه طمعافىالذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لمـافي حفظ المال من المشقة والعناء . والحاجة إلى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهدأصلا ، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم لها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون آنسا بغير الله ومحباً لما سوى الله ، ويكون مشركا ف حب الله تعالىغيره . أو تركمها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فرك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربةالجنة ، وترك التمتع بالسرارى والنسران طمعاً فيالحور العين ، وترك التفرّج في البسانين طمعاً في بسانين الجنة وأشجارها ،وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً فى زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طعماً فى فواكه الجنة وخوفا من أن يقالله ﴿ أَذَهُ بَمْ طَيَّاتُكُمْ فَ حَيَاتُكُمُ الدُّنيا ﴾ فما ترفجيع ذلك ماوعد به في الجنة على ماتيسر له في الدنيا عفوا صفوا لملمه بأن مانى الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها في الآخرة أصلا .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ فحرج على قومه فى زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وجاء فى التفسير على الزهد فى الدنيا . وقال عز وجل ﴿ إنا جملنا ما على الأرض زينة لما لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : معناه أيهم أزهد فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الاعمال . وقال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من فصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ والاتحدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبق ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فوصف الكفار بذلك ، ففهومه أنّ المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهوأن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا ،

⁽۱) حديث قال المسلمون . لمنا نحب ربنا ولو علمنا في أى شيء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ وَلُو أَنَا كَتَبَنَا عَلِيهِمِ أَنَّ اللَّهِ اللَّهِ أَنَا اللَّهِ عَلَى أَسَلَى مَا عَلَى أَنْ اللَّهِ عَلَى أَسَلَى . ﴿ ٢﴾ حديث ابن مسعود . ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منسكم من يريد الدنيا ﴾ الآية أخرجه البيهتي في دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الآخبار : فما ورد منها في ذم الدنياكثير ، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنى بالزهد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرّق عليه ضيعته وجعلفقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ماكتبله. ومن أصبح وهمه الآخرةجمع الله له همه وحفظ عليمه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة (١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم . إذا رأيتم العبد وقــد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقترموا منه فإنه بلق الحكمة (١٣) ، وقال تعالى ﴿ وَمِنْ يَوْتَ الْحَكَمَةُ فَقَدَ أُوتَى خيراً كثيرا ﴾ ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان ، قلنا يارسول الله وما محموم القلب؟ قال . التق النتى الذي لاغل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد ، قلنا : يارسول الله ، فن على أثره ؟ قال . الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ٣٠ ، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم د إن أردت أن يحبك الله فاز هد في الدنيا (؟) ، فجمل الزهد سببا للمحبة ، فن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضا أن من محب الدنيا متعرّض لبغض الله تعالى وفي خرمن طريق أمل البيت ، الزهد والورع يجولان فىالقلوبكل ليلة ، فإن صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أفاما فيه وإلا ارتحلا (٠٠ » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا قال ﴿ وَمَا حَقَيْقَةَ ۚ إِمَانِكُ ؟ . قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عنــدى حجرها وذهبها ، وكا في بالجنــة والنار ، وكأ ني بعر ش ربي بارزا ، فقال صلى الله عايــه وسلم عرفت فالرم عبد نور الله قلبه بالإيمان (٦) ، فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليـه وسـلم إذ قال : عبد نوّر الله قلبه بالإيمـان . ولمـا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى ﴿ فَن يُردالله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقيل له : ماهذاالشرح ؟ قال . إن النور إذا دخل في القلب ا نشرح له الصدر وانفسح ، قيل يارسول الله . وهل لذلك من علامة؟ قال , نعم ، التجافي عن دار الغرور ؛ والإنابة إلى دار الخـلود ، والاستعداد للموت قبـل نزوله (٧٪ ، فانظر كيف جمل الزهد شرطاً للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور ؟ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ استحيوا من الله حق الحياء، قالوا : إمّا لنستحي منه تعالى ، فقال . ليس كذلك تبنون مالا تسكنون . وتجمعون مالا تأكلون(^) . فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولمنا قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال. وما علامة إيمنانكم؟ ، فذكروا

⁽۱) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أصره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث ألمن بسند ضعيف نحوه .

⁽۲) حديث ه لمذا رأيم العبد قد أوتى صمما وزهدا في الدنيا فانتربوا منه فإنه ياني الحسكمة ، رواه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضف (۳) حديث : قلنا بارسول الله وماكوم القاب ؟ قال ه التق النق ... الحديث ، رواه ابن ماجه بإسناد محميح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله : بارسول الله فن على أثره ، وقد تقدم ، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الحرائطي في مكارم الأخلاق (٤) حديث ه لمن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ، رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سمد الحرائطي في مكارم الأخلاق (٥) حديث ه الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة ، فإن صادفا قلبانيه الإيمسان والحياء أقاما فيه ولا ارتحلا » لم أجدله أصلا ، (١) حديث : لما قالله حارثه : أنا مؤمن حقا ، فقال ه وما حقيقة لم يحسانك ... الحديث » أخرجه البذار من حديث ألمس ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديث ضميف .

⁽٧) حديث : سئل عن قوله تمالى (فمن يرد الله أن يهديه) ... الحديث • أخرجه الحاكم ، وقد تقدم .

⁽٨) حديث و استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث ، رواء العابراني من حديث أمالوليد بنت عمر بن المطاب بإسناد ضعيف

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهاتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام. إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكُّلون ولا تبنوا مالا تسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون (١) . فجعل الزهد تكلة لإيمامهم . وقال جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . من جاء بلا إله إلا الله لايخلط بها غـيرها وجبت له الجنــة ، فقام إليــه على كرّم الله وجهه ، فقال : بأنى أنت وأى يارسول الله مالا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا فسره لنا ، فقال ﴿ حب الدنيا طلبا لهـا واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون عمل الجباءة ، فن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت لها لجنة(١٢ ٪. وفي الحبر و السخاممن اليقين ولا يدخل النار موةن ، والبخل من الشك و لا يدخل الجنة من شك (٣) . . وقال أيضاً . السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناسقريب من النار (١٤) ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وروى عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال , من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرّفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام (٠) ، وروىأنه صلى الله عليه وسلم مرفى أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عنـدهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا العشار عطلت ﴾ قال : فأعرض عنها رسُّول الله صلى ألله تعالى عليه وسلم وغض بصره، فقيل له : يارسولَ الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها ؟ فقال . قد نهاني الله عن ذلك ، ثم تلا قرله تعالى ﴿ وَلَا تَمَدَنَ عَيْنِيكَ إِلَى مَامَتَعْنَابِهِ ﴾ الآية (١) وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله؛ ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع ؛ فنمال ياعائشة ؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شتتمن الارض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ ياعائشة إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد ؛ ياعائشة إن الله لم يرض لاولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصير عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كافهم ؛ فقال ﴿ فاصبركما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلَّا بالله ١٧١ . . وروى عن عمر رضي الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها .

⁽۱) حدیث : لما قدم علیه بمن الونود قالوا: لمنامؤمنون. قال ه وماعلامة لمیماندیم . الحدیث » رواه الحطیب وابن عساکر فی تاریخهما بإسناد ضعیف من حدیث جابر . (۲) حدیث جابر ه من جاء بلا لمله لملا الله لایخلط معها شیئاً وجبت له الجنة » لم أره من حدیث جابر ، وقد رواه الترمذی الحسکیم فی النوادر من حدیث زبد بن أرقم بإسناد ضعیف . (۳) حدیث السخاه من الیفین ولایدخل النار موقن ... الحدیث » فرکره صاحب الفردوس من حدیث آبی الدرداه ولم یخرجه ولده فی مسنده .

⁽٤) حديث « السخى قريب من الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .
(٥) حديث أبى ذر « من زهد الدنيا أدخل الله الحسكة قلبه ... الحديث » لم أره من حديث أبى ذر ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا من حديث سقوان بن سلم مرسلا ، ولابن عدى فى السكامل من حديث أبى موسى الأشعرى « من زهد فى الدنيا أربعين يوما وأخلس فيها العبادة أجرى الله ينابيم الحسكة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكر ، وقال الدهي بأطل: ورواه أبو الشبخ فى كتاب التواب وأبو لعبم فى الحلية مختصرا من حديث أبى أيوب » من أخلس فله » وكلها ضعيفة .

⁽٦) حديث من فى أسماً به بسفار من النوق - غل . . الحديث ، وفيه : ثم تلا قوله تمالى (ولا تمدن عبنيك) الآية : لم أجدله أصلا (٧) حديث مسروق عن عائشة قات بإرسول الله ، ألا تستعلم ربك فيعادك ، قالت وبكبت لما رأيت به من الجوع ... الحديث . وفيه « ياعائشة ، لمن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل لا المعبر ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحن السلمي من رواية عباد بن عباد من مجاله عن الشعبي عن مسروق مختصرا « ياعائشة لمن الله المرض من أولى الدزم من الرسل لملا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لملا أن كلفني ما كلفهم ، فقال تمالى (قاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) ومجالد مختلف في الاحتجاج به .

البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : ياحفصة ، الست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال المستدك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبرة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبرة كذا كذا سنة لم بشبح من التمروهو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وتبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطمام على دون ذلك أووضع على الآرض ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثلية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال ، منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها بائنتين كاكتم تثنونها ، ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة في ايخرج به إلى الصلاة حق قبف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله ، من بنى ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر غرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقدعقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول بيلغ الآخر غرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقدعقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول عبل عرده وأنه قال : كان لى صاحبان سلمك غير طرية هما سلك بى طريق غير طريقهما ، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك همهما عيشهما الرغيد .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال . لقد كان الانبيا. قبلى يبتلى أحدهم بالفقر فلايلبس إلا العباءة ، وإن كان أحدهم ليبتلي بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم (١٢) . .

وعن ابن عباس عن النبي صلىالله عليه وسلم قال : لمـا ورد موسى عليه السلام ما. مدين كانت خضرة البقل ترى ف بطنه من الهزال ؛ فهذا ماكان قد اختاره أنبيا. الله ورسله وهم أعرف خلقالله بالله وبطريق الفوز في الآخرة . وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لمـا نزل قوله تعـالي ﴿ والذين يكـنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

⁽١) حديث: أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حقصة: البس ابن الثياب إذا قدمت عليك الوقود ... الحديث بعلوله ، وفيه: ناشدتك الله هل تعلين كذا: يذكرها ما كان عليه النبي سلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى ... الخ . لم أجده هكذا بحوعا في حديث ، وهو مفر في هدة أحاديث ؛ فروى البزار من حديث عمر ان بن حصين قال : ماشيح رسول الله سلى الله عليه وسلم وأهله فداء وعشاء من خبر شعير حتى اتى ربه ، وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك الحديث ، والمترمذى من حديث عالمة قالت : ماأشيم من طعام فأشاء أن أبكه الا بكيلا بكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق رسول الله عليه وسلم الدينة عليه وسلم المناء أن أبكه الا بيكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق رسول الله عليه وسلم المدينة من طدام تلات ليال تباعا حتى قبض . والبيخارى من حديث أنس : كان لاياً كل على خوان ... الحديث ، وتقدم في آداب المدينة من طدام تلات ليال بما على من حديث أنها المسالمة : أنها كانت فراش النبي سلى الله عليه وسلم ؟ مسح نشنبه فينام وتقدما أن الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ مسح نشنبه فينام وتقدما أن الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتخل له الدقيق ولم يكن له وتقدما في آداب المدينة . وقال : لا نم يحري بهذا الفيظ الا بهذا الإسناد . قال يولس بن بكبر : قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى وغيره . ولابن ماجه من حديث عباد والمناء المناء المناء المناء المناء المناء عليها واحتملت على مافيها . قلت : فيه سعيد بن يسمد الحدوى : كان الأنباء يبهل أحده في أثناء حديث عبادة في النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وانكان أحدهم المؤمل المه عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وانكان أحدهم المؤمل المناء .. . إسناد صعيح في أثناء حديث أوله : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وانكان أحدهم أوله المناء المدين على المؤمل الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وانكان أحدهم المؤمل ال

فى سبيل الله ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ، تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم ، فقلنا : يارسولالله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة ، فأى شىء ندخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكراوزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته (۱) ، .

وفى حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . من آثر الدنيـا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث . هما لايفارق قلبه أبدا وفقرا لايستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا (١٢) . .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يستـكل العبد الإيمـان حتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف ؛ وحتى بكون قلةالشيء أحب إليه من كثرته (٢٠) » .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يانبي الله لو أمرتنا أن نبنى بيتا نعبد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على المساء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على المساء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟ .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ، إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحدك وأثنى عليك ، .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ياجبريل ، والذى بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هذة من السياء أفظعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمر الله القيامة أن تقوم ؟ « قال : لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثى بمفاتيات الأرض وأرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامه زمرذا و ياقوتا و ذهبا و فضة فعلت ، وإن شئت نبيا عبدا . فأوما إليه جبريل أن تواضع لله فقال « نبيا عبدا ، ثلاثا(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم . إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه (٠٠ . .

⁽۱) حديث عمر : لمسائرل قوله تعالى (والذين يسكدون الذهب والفضة) الآية ، قال «تبا لله ينار والدرهم ... الحديث» وفيه : فأى شيء لدخر ٢ أخرجه الترمذي وابن ماجه وتقدم في الذكاح دون قوله « تبا للدينار و لدرهم، والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان ، ولم عا فال المصنف لمنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أي المسال بتخذ ٢ كما في رواية ابن ماجه ، وكما رواه الزار من حديث ابن عباس ،

⁽۲) حدیث حذیفة و من آثر الدنیا على الآخرة ابتلاه الله بنلاث. . الحدیث » لم أجده من سدیث حذیفة ، أخرجه الطبرانی من حدیث ابن مسعود بسند حسن : من أشرق فی قاب حب الدنیا القاط منها بشلات : شقاء لاینفد عناه ، وحرس لایبلغ غناه ، وأمل لایبلغ منتهاه ، و فی آخره زیادة . (۳) حدیث و لایستکمل عبد الإیمان حتی یکون أن لایمرف أحب لملیه من أن یمرف ، وحتی یکون قلته أحب إلیه من گرته » لم أجد له لمسنادا ، و ذکره صاحب القردوس من روایة علی بن أبى طلحة مرسلا و لایستکمل عبد الإیمان قد الله من گرته ، وحتی یکون أن یعرف فی ذات الله أحب لملیه من أن یعرف فی غرات الله أحب لملیه من أن یعرف فی غرات الله أحب له من گرته ، وحتی یکون أن یعرف فی ذات الله أحب لملیه من أن روایته عنه مرسلة ، فالحدیث اذن معمل . (٤) حدیث ابن عباس : خرج رسول القصلی الله علیه وسلم ذات یوم وجبریل معه فصمد علی السفا ، . الحدیث فرول لمسرافیل . وقوله : لمن أحببت أن أسیر معك جبال بهامة زمرذاویا قوتا و ذهباو فضة . . الحدیث تقدم مختصرا . (۵) حدیث و اذا أراد الله بسدخیرا زحده فی الدنیا و رغبه فی الآخرة و صعره بدیوب بفسه » رواه و منه فی الایلی فی مسند الفردوس دول قوله و و رغبه فی الآخرة و معره بدیوب بفسه » رواه أبومنه و الدیلی فی مسند الفردوس دول قوله و و رغبه فی الآخرة » و زاد و فقهه فی الدین » و اسناده ضیف .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل . ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدى الناس يحبك الناس (١) . . وقال صلوات الله عليه ، من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا (٢) ، وقال

صلى الله عليه وسلم « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لهــا عن الشهوات ، ومن ترقب

الموت ترك اللذات ، ومن زهد فالدنيا هانت عليه المصيبات (٣) ، .

ويروى عن نبينًا وعن المسيح عليهما السلام ، أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهر أوَّل العبـادة ، والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء (؛) ، وإيراد جميع الاخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حها لايمكن ، فإنَّ الانبياء مابعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار ؛ فقد جاء في الآثر : لاتزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا مانقص من دنياهم . وفي لفظ آخر : مالم يؤثروا صفقة دنياهم علىدينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لاإله إلاالله قال الله تعالى : كذبتم، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الاعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا منكم

وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد .

وقال بلال بن سعد : كني به ذنبا أنّ الله تعـالي يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فها .

وقال رجل لسفيان : أشتهي أن أرى عالمـا زاهدا ، فقال : ويحك : تلك ضالة لاتوجد .

وقال وهب بن منبه : إنَّ للجنة تمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوَّابون يقولون : وعزة ربنا لابدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة ٠

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله .

وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلىالفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون علىها ، فلسا هرمتذبحوها لاجلأن ينتفعوا بجلدها ،كذلك أنتمأردتم ذبحىعلى كبرسني ، موتوا يا أملى جوعا خير لسكم من أن تذبحوا فضيلا ا

وقال عبيدبن عميرة كان المسيمح ابن مريم عليه السلاميلبس الشعر ويأكل الشجر ، وليس له ولديموت ولابيت يخربولايةخر لغد ، أينها أدركه المساء نام ،

وقالت امرأة أبى حازم لابى حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطمام والثياب والحطب ا

⁽٢) حديث دمن أرادأن يؤتيه الله علما بنير تملم وهدى بنير (١) حديث دازمد فالدنيا يمبكالة ... المديث، تقدم . هداية فليزهد في الدنيا ، لم أجد له أصلا . ﴿ ٣) حديث «من اشتاق الى الجنة سارع المالخيرات . . . الحديث ، رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث على ن أبي طالب . ﴿ ﴿) حديث وأربع لايدركن الا بتعب : الصمت وهو أوله المبادة ... الحديث، رواه الطيراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم ،

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بدّ ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك .

وقال ابراهيم ابن أدهم: قد حجبت قلوبنا يثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليةين حتى ترفع هذه الحجب:الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سروت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين الجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا .

وقال بعض الساف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم . إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (۱) . فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثورى يقول: الدنيا دار التواء لآ دار استواء، ودار ترج لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

وقال سهل : لايخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعرى ، والفقر والذل .

وقال الحسن البصرى: أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كنانوا يفرحون بشى من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شى منها أدبر، ولهى كمانت فى أعينهم أهون من الراب: كان أحدهم يميش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يحمل ببنه وبين الأرض شيئا، ولا أس من فى بيته بصنمة طمام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم كانواإذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم زالوا على ذلك، ووالله ماسلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ؛ وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أنّ الزهد فى نفسه بتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث: (الدرجة الأولى) وهي السفلي منها : أن يزهد فى الدنيا وهو لها هشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهذا يسمى المتزهد ، وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أو لانفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه فى الطاعات لا فى الصبر على مافارقه ، والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير ، (الدرجة الثانية) : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذى يترك درهما لا جل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار عليه ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كا يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجاً بنفسه و بزهده ، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان (الدرجة الثالثة) وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أنّ الدنيا لاشى وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أنّ الدنيا لاشى وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أنّ الدنيا لاشى وهمى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أنّ الدنيا لاشى و

^{. (}١) حديث و أن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا ... الحديث ، تقدم .

فيكون كن ترك خزفه وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو السكال فى الزهد . وسببه كال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أنّ تارك الحزفة بالجوهرة امن من طلب الإقالة فى البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لابى موسى عبد الرحيم : فى أى شىء تشكلم ؟ قال : فى الزهد ، قال : فى أى شىء ؟ قال فى الدنيا : فنفض يده وقال : ظنفت أنه يتكلم فى شىء ، والدنيا لاشىء ، إيش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منه من باب الملك كلب على بابه فألق إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه و دخل الباب و نال القرب عند الملك حتى نفذاً من في جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقدناله ؟ فالشيطان كاب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلنتها في حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبق الفلها في المعدة ، ثم تنتهى إلى النتن والقذر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى مايسلم لكل شخص منها وإن عمر مائه سنة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، إذ لا نسبة للمنتاهي الى ملا نباية له ، والدنيا متناهية على القرب ، ولو كانت تنادى أنف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الآبد ، فيكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكذرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الآبد ، فإذن لا نسبة لها إلى نعيم الآبد ، فيكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكذرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الآبد ، فإذن لا نسبة لها إلى نعيم الآبد ، فيكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكذرة غير صافية ، فهذا تفاوت درجات الواهد إلى زهده إلى القصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ، فهذا تفاوت درجاتها لها درجات ، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب يزهده بقدر الثفاته إلى زهده .

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: (الدرجة السفلي) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدى العبد من الأهوال كا وردت به الأخبار، إذ فيها وإن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) وفهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا ، فإن الحلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . (الدرجة الثانية) أن يزهد رغبة في ثواب الله و فحيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم و فعيم سر مد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا ياتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستفرق الهم بالله تعالى ؛ وهو الموحد الحقيق الذي لا يطلب غير الله تعالى ؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخني ، وهذا زهد

⁽۱) حديث ه ان الرجل ليونف في الجماب حتى لو وردت مائة بهير عطاشا على عرقه اصدرت رواه ، أخرجه أحمد من حديث ابن هباس ه التني مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ... الحديث ، وقيه : « الى حبست بهدك محبسا فظيما كريها ماوسلت اليك حتى سال مني العرق ما لوورده أانب بهير أكلة حمن اصدرت عنه رواه ، وفيه دريد غير منسوب يحتاج الى معرفته عالى أحمد : حديثه مثله .

المحبين وهم العارفون لآنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه ، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور الدين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الإشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الآرض ورقاب الحلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللغب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لآن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنسه فقسد كثرت فيسه الاقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الاقسام وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال في الدرجةالاولى : فهو كل ماسوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حَتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية : أن يرهد في كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمـال والجاهوغيرها . وفيالدرجة الثالثة : أن يزهد في المـال والجاه وأسبأبهما إذ إلهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاء إذا لأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أنَّ معنى المــال ملك الاعيان والقدرة علمها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيسكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر ألله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال ﴿ زين للناس حبالشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسترمة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم رده في آية أخرى إلى خمسه فقال عزوجل ﴿ اعلموا أنمـا الحياة الدنيا لعب ولهر وزينة وتفاخر بينـكم وتـكاثر في الاموال والاولاد ﴾ ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ﴿ وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ ثم رد السكل إلى واحد في موضع آخر فقال ﴿ وَمِنْ النَّفْسُ عَنِ الْمُوى فَإِنَّ الْجُنَّةُ هِي الْمُلُوى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميسع حظوظ النَّفس في الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه . وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنَّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنمـا يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لامحالة ، لانه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد البقتع الدائم بإرادة البقاء ؛ فإنّ من أراد شيئا أراد دوامه ، ولامعنى لحب الحياة إلاحب دوام ماهو موجود أو يمكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ، ولذلك لماكتب عليهم القتال (قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) فقال تعالى (قل متاع الدنيا قليل) أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة وبهادرون إليه مهادرة الظمآن إلى المهاء البارد حرصا على نصرة دين الله دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة وبهادرون إليه مهادرة الظمآن إلى المهاء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل رتبه الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إنّ خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للبوت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموات موت العجائز ، فلما مات عدّعلى جسده ثما نمائة ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأما المنافقون ، ففرّوا ،ن الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ﴿ إنّ الموت الذين تفرّون منه فامه ملاقيكم ﴾ فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى في ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الآبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أنَّ ما ذكره المتـكلمون في حدَّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بمض أقسامه فذكر كلُّ واحد منهم ما رآه غالبًا على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعسالي : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاء خاصة . وقال قاسم الجوعي : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف، فبقدر ماتملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهرات على الاكثر وهي المهيجة لاكثر الشهوات . وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو الفناعة ، وهذا إشارة إلى المـال خاصة . وقال الثورى : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله ، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهواتكالها . وقال أويس : إذا خرجالزاهد يطلب ذهب الزهد عنه ، وماقصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكلشرطا في الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون ، وهو إشارة إلى الرزق وقال أهل الحديث : حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول ، والزهد إنميا هو أتباع العلم ولزوم السنة ، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاء في الدنيا فهو صحيح ، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاء خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات ، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها ، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن : الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال ، هذا أفضل مني ، فذهب إلى أنَّ الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى ننى الجاه والعجب وهو بعض أنسام الزهد . وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا بمن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الآذي وترك الشهوات وأكل الحبر من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفى الزمد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نرفى نقلها فائدة ، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآما مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق فى نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه ، فقد وثن بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم افتصروا لا لقصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم لاقتصار حاجته ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة للمفته الناه مى مقام العبد فى نفسه والاحوال تختلف ، فلا جرم الاقوال الخبرة عنها تختلف ، وأما الحق فى نفسه

فلا يكون إلا واحدا ولا يتصوّر أن يختلف، وإنمـا الجامع من هذه الآقاويل الـكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل: ما قاله أبو سلمان الداراني إذ قال: سممنا في الزهد كلاما كشيرا، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوّج أو سافر في طلب المعيشة أوكتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدًا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ﴿ إِلَّا مِن أَتَى الله بِقَابِ سَلِّيمٍ ﴾ فقال : هو القلب الذي ليسَ فيه غير الله تعالى وقال : إنمــا زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه ؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض : هو الزهد في الحرام . والنفل: هو الزهد في الحلال . والسلامة : هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ، إذ قيل لمـالك بن أنس ؛ ما الزهد؟ قال : التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا مايتركه فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لمــا تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإنّ ذلك لايطلع عليه إلا سماسرة العلماء ، بلالاحوال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لانتناهي، فن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان : أماكنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك ؟ قال : وماالذي تجدد ؟ قال : توسدك الحجر أى تنعمت برفع رأسك عن الارض في النوم ، فرمي الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك . وروى عن يحيي بن زكريا ءايهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس ، فسألته أمه أن يلبس مُكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحبي ، آثرت على الدنيا ، فبـكى ونزع الصوف وعاد إلى ماكان عليه . وقال أحد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس في قوصرة . وجلس عيسي عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط ، فإذن درّجات الزهد ظاهرا وباطنا لاحصر لها ، وأقل درجاته : الزهد ف كل شبهة ومحظور . وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لافي الشبهة والمحظور ، فليس ذلك من درجاته في شيء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلايتصوّر الزهد الآن .

• فإن قلت : مهما كان الصحيح مو أن الزهة ترك ماسوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الآكل والشرب واللبس وغالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أنّ معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإفبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولايتصوّر ذلك إلا مع البقاء ، ولابقاء إلا بضروريات النفس ؛ فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تمكن مشتغلا بغير الله ؛ فإنّ مالايتوصل إلى الشيء إلا به فهو مهه ؛ فالمشتفل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحبح ليس معرضا عن الحبح ، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحبح ، ولاغرض لك في تنعم ناقتك باللذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسيربك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تمكون في صيانة بدنك عن الجوع والمطش المهلك بالآكل والشرب ، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن ، فتقصر على قدر العرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على علاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد ، وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالآكل عند الجوع ؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قديسترمج بذلك فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قديسترمج بذلك

ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفا إليه ؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الاسحار وصوت الاطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب مرضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لايضره ، ولقد كان في الخائمين من طلب موضعاً لايصيبه نيه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فيكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شافا فمذته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد ، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لا نفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضولو إلى مهم ؛ فالفضول كالخيل المستومة مثلا . إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالآكل والشرب ، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضرورى ، والمهم أيضا يتطرق إليه فضول فى مقداره وجنسه وأوقاته، فلابد من بيانوجه الزهدفيه ، والمهمات ستة أمور : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنكح ، والمال . والجاه يطلب لاغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكر نامعنى الجاهوسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من رابع المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

(الأول المطعم) ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ؛ فأما طوله فبالإضافة إلىجملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به ، وأماعرضه فني مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلابقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بمــا تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يدّخرلشهر أوأربعين يوما .(الدرجة الثالثة) أن يدّخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محالٌ ؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الامل جدًا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسبولم يرض لنفسه الاخز من أيدى الناس، كداود الطائى فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة ؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلىالمقدار ، وأقل درجاته فىاليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد: وهو ماقدره الله تعـالى فى إطعام المسكين فى الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من لزهد فى البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ، ولو الخبر من النخالة ، وأوسطه خبر الشعير والذرة ، وأعلاه خبر البر غير منخول ، فإذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأماالادم: فأقله الملح أو البقل والحل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الادهان أي دهن كان ، وأعلاه اللحمأي لحم كان ، وذلك في الاسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الاسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلا ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله فياليوم والليلة مرة وهوأن يكون صائمًا ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه أن ينتهى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أوأسبوعاً وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه فى ربع المهلكات ، ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم فى كيفية زهدهم فى المطاعم وتركهم الآدم :

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها: فيم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالاسودين التمر والماء (١) . وهذا ترك اللحم والمرقة والادم .

وقال الحسن: كان رسيول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الارض. ويقول وإنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد، وأجلس كما تجلس العبيد (١) ،

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لـكم ، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الدكلاب كثير .

وقال الفضيل ماشيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ٣٠١

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بنى إسرائيل، عليكم بالمـا القراح والبقل البرى وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف في المطعم والمشرب في دبع المهلكات فلا نعيده.

ولما أنى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال د أما إنى أست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى (٤) ، ٠

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اعزلوا عنى حسابها . وقد قال يحيى ابن معاذ الرازى ب الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجمه ، والخلوة بجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ؛ والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

(المهم الثانى) الملبس. وأقل درجته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة. وهو كساء يتغطى به. وأوسطه: قيص وقلنسوة ونعلان وأعلاه. أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو بجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لايكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيع. فإذا صار صاحب قميصين وستراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار. أما الجنس فأقله المسوح

⁽۱) حديث عائشة : كانت تأتى أربمون المة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتى على آل كلد الشهر ما يرى فى بيت من بيوته دخان ... الحديث . وفى رواية له : ما يوقد فيه بنار . ولأحمد : كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوته نار . وفى رواية له : تلانة أهلة .

⁽٢) حديث الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحار الحديث ، تقدم دون قوله « أيمـــا أنا عبد » فإنه ليس من حديث الحسن ، انمـــا هو من حديث عائشة وقد تقدم .

⁽٣) حديث : ماشبع رسول الله سلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبر البر ، تقدم .

⁽١) حديث : لما أتى أمل قباء أتوه بصربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ... الحديث ، تقدم "

الحثينة وأوسطه الصوف الحثين وأعلاه القطن الغليظ . وأمامن حيث الوقت ، فأقصاه مايستر سنة ، وأقله ماييق يوما ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه ما يتهاسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبق أكثر من سنة خروج إلى طول الأملوهو مضاد للزهد ، وإلاإذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه ؛ فن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان مجما للدنيا ، ولينظر فيه إلى أحوال الانبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (١١) وقال صلى الله عليه وسلم ولاأنام بليل أبدا على دئار أبدا ، ولاأركب على مأثور أبدا ، ولا املاً جوفي من طعام أبدا فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نظر إلى هدى رسول الله عليه الله عليه وسلم في الأسود (٣٠ . وفي الخبر « ما من عبد لبس ثوب ينظر إلى أبدا على الله عنه عنه عنه وسلم فلينظر إلى عمر و بن الاسود (٣٠ . وفي الخبر « ما من عبد لبس ثوب بأربعة دراهم . (٥)

وكانت قيمة ثوبيه عشرة (٦) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا (٢) واشترى سراويل بثلاثة دراهم (١٠) . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف (١) وكانت تسمى حلة لانها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر : كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زبات (١٠٠) . ولبس وسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه أصحابه يلمسونه ويقولون

⁽١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . رواء الشيخان وقد تقدم في آداب المبيشة ، (٢) حديث « ان الله يحب المتبذل لايبالي ما لبس » لم أجد له أصلا .

⁽٣) حديث عمر « من سره أن ينظر الى هدى رسول الله سلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد دون بإسناد جيد دون عديث أبى ذر بإسناد جيد دون بإسناد جيد دون كان هنده حبيا » . (٥) حديث . اشترى رسول الله سلى الله عليه وسلم ثوبا بأربمة دراهم . أخرجه أبو يملى من حديث أبى هريرة ، قال دخلت يوما الدوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لجلس الى البرازين فاشترى سراوبل بأربمة دراهم ... الحديث ، واسناده ضعيف ...

⁽٦) حدیث :کان قیمهٔ ثوبیه عشرهٔ دراهم، لم أجده • (۷) حدیث :کان ازاره أربعهٔ أذرع ولصفا • أخرجه أبو الشیخ فی کتاب أخلاق رسول الله صلی الله علیه وسلم من روایهٔ عروهٔ بن الزمیر ممسلا :کان رداه رسول الله صلی الله علیه وسلم أذرع ، وهرضه ذراهان واصف • • • الحدیث ، وقیه این لهیمهٔ • وفی طبقات ابن سعد من حدیث الی هریره :کان له ازار من نسیج عمان طوله أربعهٔ أذرع وشبر فی ذراعین وشبر ، وقیه محمد بن عمر الواقدی •

⁽٨) حديث : اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم نقدم عند أبى يعلى ، وشراؤه السراويل منه أسحاب السنن من حديث سويد بن قيس لملا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذي : حسن صحيح .

⁽٩) حديث : كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربماكان يلبس بردين يمانين أو سحولين من هذه النلاظ ، تقدم في أداب وأخلاق النبوة لبسه الشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة فتي الصحيحين من حديث البراء : رأيته في حلة حراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج لمل الحرورية وهليه أحسن مايكون من حال المجن وقال : رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يسكون من الحلل . وفي الصحيحين من حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدم الزار غليظ بما يصنع بالمجن ، وتقدم في آداب المدينة . ولأبي داود والترمذي والمسائي من حديث قدامة السكلابي : وهليه حاة حبرة أبي رمثة : وعليه بردان أخضران ، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي . وقابرار من حديث قدامة السكلابي : وهليه حاة حبرة وفيه عريف بن الراهم لابعرف ، قاله الذهبي .

أَ (١٠) حَدَيثُ : كَانَ قَيْصَهُ كَأَنَهُ قَيْمِن زُيَّاتَ * أَخْرَجُهُ الترمذي من حديث أَلْسَ بِسند ضعيف : كان يكثروهن رأسه وتسريح لحبته حتى كأن تُوبه تُوب زيات . (١١) حديث : لبس يوما واحدا تُوباسيراءمن سندس قيمته مائتا درهم اهداءله المهواس م نزعه ، . . الحديث .

وارسولالله أنول عليك هذا من الجنة تعجبا _ وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجلمن المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنمــا لبسه أولا تأكيدا للتحريم ، كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه (١١ فحرم لبسه على الرجال ، وكما قال لعائشة في شأن بريرة . اشترطي لاهلها الولاء (١٦) ، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرَّمه ، وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرَّمها لتأكيد أس النكاح (٦٦) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم ، فلما سلم قال : شغلى النظر إلى هذه ، اذهبوا بها إلى أن جهم وا تتونى بأنبجانيته (١) يعني كساءه ، فاختار لبس الكساء علىالثوب الناعم ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصليفيه ، فلما سلم قال . أعيدوا الشراك الحلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة ، ولبس خاتما من ذهب و نظر إليه على المنبر نظرة فرى به فقال و شغلي هذا عنكم ، نظرة إليه و نظرة إليكم (٠٠ ، وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة فعلين جديدين ؛ فأعجبه حسنهما ، فحر ساجدا وقال . أعجبني حسنهما فتواضعت لرق خشية أن يمقتني ، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (٦) . وعن سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جُبَّة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سودا. فلما لبسما قال , انظروا ما أحسنها ! ماألينها ! ، قال : فقام إليه أعراق فقال يا رسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئًا لم يبخل به ، قال : فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فمات صلىالله عليه وسلم وهي في المحاكة (١) . وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحيوعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بكى وقال . يافاطمة ؛ تجزعي مرارة الدنيا لنعيم الابد ، فأنزل الله عليه ﴿ ولسرف يعطيك ربك فترضى (٨) ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ مِن خيار أمنى فيها أنبأ في اللَّا الْآعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ، ويبكون سرا من خوف عذابه ، مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة ، يابسون الحلقان ويتبعون الرهبان ؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش (١) فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه ، إذ قال « من أحبني فليستن بسنتي (١٠) ، وقال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالاواجذ(١١١) ، وقال تعمالي ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تَحْبُونَ اللَّهُ فَاتْبَعُونَى يُحْبُبُكُمُ اللَّهُ ﴾ وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خامة وقال . إن أردت اللحرق بى فإباك وبجالسة الاغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعيه(١٢) ، وعدّ على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم .

⁽۱) حدیث: ابس یوما خاتما من ذهب نم نزعه . متفق علیه وقد تقدم . (۲) حدیثقال لمائشة فی شأن بریرة « اشترطی لأهلها ٥٠٠ الحدیث ، متفق علیه من حدیثها . (۳) حدیث : أباح المتمة ثلانا ثم حرمها ، أخرجه مسلمهن حدیث سلمة بن الأكوع . (۱) حدیث : صلی فی خیصة لما علم ۲۰۰۰ الحدیث ، متفق علیه ، وقد تقدم فی الصلاة ،

⁽٥) حديث: ابس خاتمــا فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال د شغلني هذا عنــكم ٠٠٠ الحديث ، تغدم ٠

⁽٦) حديث : احتذى لعلين جديد في عليه حسنهما ١٠٠٠ الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت لرسول الله سل الله عليه وسلم حبة صوف من سوف أيمار ١٠٠٠ الحديث ، رواه أبو داود الطيالسي والعابراني من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمرأن يحاك له أخرى ، فهي عند الطبراني فقط ، وفيه زمعة بن سالح ضميف ، ويقع في كثير من نسخ الإحياء : سيار بن سعد ومو غلط . (٨) حديث بابر : دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحي ١٠٠ الحديث ، أخرجه أبو كر بنلال في مكارم الأخلاق مباها د ضعيف . (٩) حديث لن من خيار أمني فيها آنا في الله الأعلى قوما يضعكون جهرا من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سمرا من خوف عذا به ١٠٠٠ الحديث ، تقدم ، وهو عند الحاكم والبيهتي في الشعب وضعفه .

⁽١٠) حديث « من أحبى فليستسن بسنتي » تقدم فى النسكاح · (١١) حديث « عليسكم بسنتي وسنة الحلفاء الراشدين · · · المديث » رواء أبو داود والترمذى وسمحه ، وابن ماجه من حديث العرباض بن سادية · (١٢) حديث قال لعائشة « لمن أردت الحديث » رواء أبو داود والترمذى وقال غريب ، والحاكم وسمحه من حديث عائشة ، وقد تقدم · المحوق بى فاياك ومجالسة الأغنياء » أخرجه المترمذى وقال غريب ، والحاكم وسمحه من حديث عائشة ، وقد تقدم · المحموق بي فاياك ومجالسة الأغنياء » أخرجه المترمذى وقال غريب ، والحاكم وسمحه من حديث عائشة ، وقد تقدم · المحموق بين ا

واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الحسلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحديثه الذي كساني هذا من رياشه . وقال الثوري وغيره : ألبس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال ، وكان يقول : إن الفقير ليمرُّ بي وأنا أصلى فأدعه يجوز ، ويمرُّ بي واحــد من أبناء الدنيا وعليه مــذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز . وقال بعضهم قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شـــــرمة ؛ خير ثياني ماخدمني وشرها ماخدمته . وقال بعض السلف: البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها وهو مايطلب لينه ، وثوب الناس وهو مايطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينـه . وكان جمهور العلماء من الغابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الحواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومنزر تحته ، وربمـا يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف : أوّل النسك الزي ، وفي الحبر و البذاذة من الإيمان، وفي الحبر و من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في تخاصالياقوت ، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل لأوليائي لايلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائيكما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال : انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ـــ وكانعليه ثياب رقاق، وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبى ذرّ فى برته ، فجعل يتكلم فى الزهد ، فوضع أبى ذرّ راحته على فيه وجعل يضرط به ، فغضب ابن عامر ، فشكام إلى عمر فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرّم الله وجهه : إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوالـالناس ليقتدى بهم الغني، ولا يزرى بالفقير فقره . ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم . ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال. إن لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين (١) ، ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشمت حافيا فقيلله : أنت الأمير وتفعل هذا ؟ فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتني أحيانًا (٢) . وقال على لعمر رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع . وقال عمر : اخشوشنوا و إياكم وزى العجم كسرى وقيصر ، وقال على كرم الله وجهه : من تزيا بزى قوم فهو منهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنّ من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدّقون في الكلام (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم . أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولاجناح عليه فيما بينه وبينالكعبين ، وما أسفل من ذلك فني النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطرا (ا) ، وقال أبو سليمان الداراني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لايلبس الشعر من أمتى **إلا مراء أو أحمق ⁽⁰⁾ ، وقال الاو**زاعى : لباسالصوف فى السفر سنة ، وفى الحضر بدعة . ودخل محمد بن واسع

⁽١) حديث : نهى عن التنعم وقال د إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين ، أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وقد تقدم .

⁽٢) حديث فضالة بن عبيد : نها نا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتني أحيانا . أخرجه أبو داود بإسناد جبد . (٣) حديث « لمن من شرار أمتى الدين غذوا بالنعيم ... الحديث » رواء الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف « سيكون رجال من أمتى يأكلون الوان الطعام ... الحديث » وآخره « أولئك شرار أمتى » وقد تقدم .

⁽¹⁾ حديث « ازرة المؤمن الى أنصاف ساقيه ... الحديث » رواه ، الى وأبو داود والنسائى وابن حبان،من حديث أبى سميد ورواه أيضاً النسائى من حديث أبى هريرة قال محمد بن يحيى الدهلى : كلا الحديثين محفوظ .

⁽٥) حديث أبي سليمان « لايلبس الشعر من أمتى الآ مراء أو أحمق ، لم أجد له أسنادا .

على فتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف ؛ فقال له فتيبة : مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت فقال : أكلك ولاتجيبني ا فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، أو فقراً فأشكو ربى . وقال أبو سليان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه : أن وار عورتك من الأرض ، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين ا فاذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتى عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسي رضى الله عنه : مالك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال وما للعبد والثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى . أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى . وقال الحسن لفرقد السبخى : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الاكسية نفاقا . وقال يحي بن معين : أرأيت أبا معاوية الاسود وهو يلتقط الحرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها ، فقلت : إنك تكسى خيرا من هذا ا فقال : ماضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ، لجعل يحي اين معين يحدث بها ويبكى .

﴿ المهم الثالث ﴾ المسكن ، وللزهـ د ، فيـ ه أيضا ثلاث درجات (أعـ لاها) أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة . (وأوسطها)أن يطلب موضعا خاصا لنفسمه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو مايشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة ، فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإنطلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع المقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ للزهد في المسكن ؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجضُّ أو القصب أو بالطين أو بالآجر ، واختــلاف قدر ، بالسـعة والضيق ، واختــلاف طوله بالإضافة إلى الاوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجراً أو مستعاراً ، والزهد مدخل في جميع ذلك . وبالجمله كلمايرادالضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وماجاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الاعين والاذى، وأقلالدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهوالفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيــــد من الزهد جدًّا ، وقد قيل : أوَّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز : كف دروز الثياب فإنهاكانت تشل شلا والتشييد : هو البنيان بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) . وقدجاء في الحبر دياتي على الناس زمان يوشون ثيابهمكا توشى البرود البمانية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليــة كان قد علا بها (٢١). ومن عليه السلام بجلبذة معلاة فقال ولمن هذه ؟ ، قالوا لفلان ، فلما جامه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كماكان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه صلى الله عليمه وسلم فأخسر ، فذهب فهدمها ؛ فمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها . فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير ٣٠

⁽¹⁾ حديث : كانت النياب تفل شلا وكانوا ببنون بالسعف والجريد . أماشل الثياب من غيركف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع مافضل عن الأسابع من غيركف وقال . هكذا رأيت وسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما البناء فني الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة : فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ... الحديث ، ولهما من حديث أبي سميد : كان المسجد على عريش فوكف المسجد ، (٢) حديث : أمم العباسأن يهدم علية له كان قدعلاها . رواه الطبراني من رواية أبي المالية أن العباس بني غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اهدمها ... الحديث » وهو منقطع .

⁽٣) حدیث : من مجنبذة مملاة فقال و لمن هسذه ٢ ، فقالوا : لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض هنه ... الحدیث . أخرجه أبو داود من حدیث أنس بإسناد جید بلفظ : فرأی قبة مصرفة الحدیث ، والجنبذة القبة .

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ولم يضع لبنة على لبنـة ولا قصـبة على قصـبة (١١ وقال النبي صلى الله عليه وسلم . إذا أراد الله بعبد شرآ أهلك ماله في المساء والطين (٢) ، وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا ، فقال , ماهذا ؟ , قلنا خِص لنا قد وهي فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك(٣) ، واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قصب ، فقيل له : لو بنيت ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت.وقال الحسن دخلناعلىصفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كممن رجل قدمات وهذا قائم علىحاله. وغال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ من بني فوق مايكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة (١٤) . وفي الحبر وكل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفقه في المهاء والطين ١٠٠، وفي قوله تعالى ﴿ تَلْكُ الدار الآخرة نجملها للذين لايريدون علوا فى الارض ولا فسادا ﴾ إنه الرياسة والتطاول فى البنيان . وقال صلى الله عليه وسسلم كل بنا. وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حرّ أو برد (٦) . وقال صلى الله عليه وسلمللرجل|لذى شكا إليه ضيق منزله , اتسع في السياء (^{۱۷)} ، أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر ، فكبر وقال : ماكنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون ؛ يعني قول فرعونُ ﴿ فَأُوقِدُ لَى يَاهَامَانَ عَلَى الطَّينَ ﴾ يعني به الآجر ، ويقال : إنَّ فرعونَ هو أوَّل مِن بني له بالجص والآجر ،وأوَّل من عمله ِهامان ، ثم تبعهما الجبابرة،وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعضاً الامصارفقال:أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف، ثم رأيته من رهص، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن، فسكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خير من أصحاب اللبن . وكان من السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البذيان ، وكان منهم من إذا حيج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن : كتت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف. وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناسلا شيدوا فالنظر إليه معين عليه . وقال الفضيل : إنىلم أعجب بمن بني وترك ، ولكن أعجب بمن نظر إليهولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون|الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين ، يصلون إلى قبلتـكم ويموتون على غير دينـكم .

⁽۱) حديث الحسن : مات رسول الله صلى الله عايه وسسلم ولم يضع لبنة على لبنة . · . الحديث ، رواه ابن حيان فى الثقات ، وأبو لعيم فى الحلبة هكذا مهسلا . واطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة ، من سأل عنى أوسره أن ينظر الى فاينظر لمل أشعث شاحب مشهر لم يضع لبنة على لبنة . . الحديث ، ولمسناده ضعيف .

⁽۲) حديث « لَذَا أَرَادَ الله بِعبد شرا أَمَاكَ مَالُهُ فَي المَـاءُ والطَّيْنِ » رواه أَبُو داود من حديث عائشة بإسناد جيد « خضرله في الطين واللمن حتى يبني » . (٣) حديث عبد الله بن عمر : من علينا رسول الله صليه وسلمونحن المالج خصااناند ومي الحديث . رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .

⁽٤) حديث و من بن قوق مايكفيه كان يوم القيامة أن عمله هرواه الطبراني من حديث ابن مسمود بإساد فيه اير وانقطاع (٥) حديث وكل نفقة العبد يؤجر عليهم لملا ماأنفقه في المساء والطبن » رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ : لملا في البناء . . (٦) حديث وكل بناه وبال على صاحبه لملا ما أكن من حر أو برد » رواه أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ و لملا مالا » يسني مالابد منه .

⁽٧) حديث قال قرجل الذى شسكى اليه ضيق منزله « اتسم فى السماء » قال المصنف : أى فى الجنة . رواه أبو داو دفى المراسبل من رواية اليسم بن المنبرة قال : شكى خالد بن الوليد فذكره ، وقسد وصله الطبرانى فقال عن اليسم بن المنبرة عن أبيه عن خالد ابن الوليد ، لملا أنه قال : ارفع إلى السماء واسأل الله السمة ، وفى لمسناده اين .

(المهم الرابع) أثاث البيت ، وللزهد فيه أيضا درجات (أعلاها) حال عيسي المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه، فرمي بالمشط،ورأى آخر يشرب منالنهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود ، فإذا استغنى عنه فهو و مال في الدنيا والآخرة . ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الحزف في كل ما يكني فيه الحزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعددكل حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس ، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول،ولينظر إلى سيرة رسولالله صلىالله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقدقالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف (١) . وقال الفضيل : ما كان فراش رسولالله صلىالله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف (٢) . وروى : أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر ، فقالُ له النبي صلى الله عليه وسلم . ما لذي أبكاك يا ابن الخطاب؟ ، قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم . أما ترضى يا عمر أن تىكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ، قال: بلي يارسول الله؟ قال . فذلك كذلك (٣) . ودخل رجل على أبي ذر لجمل يقلب بصر منى بيته فقال: ياأباذر، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الآثاث فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لابد لك من متاع ما دمت ههنا ، فقال : إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضىالله عنهما قال له : مامعك من الدنيا ؟ فقال : معى عصاى أتوكأ علمها وأفتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابي أحمل فيه طعامی ، ومعی قصعتی آکل فیها وأغسل فیها رأسی وثوبی ، ومعی مطهرتی أحمل فیها شرابی وطهوری للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي ، فقال عمر : صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلهـا ستر وفي يديها قلبين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكى ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال . من أجل التستر والسوارين ، فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : قد تصدّقت بها فضعهما حيث ترى ، فقال واذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة ، فباع القلبين بدرهمين ولصف وتصدّق بها عليهم ، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال . بأنى أنت قد أحسنت (١) ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على بأب عائشة سترا فهتكم

⁽۱) حديث عائمة : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف ، رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحبح ، وابن ماجه . (۲) حديث : ماكان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف ، رواه البرمذى فى الديمائل من حديث حفصة بقصة العباءة ، وقد تقدم ، ومن حديث عائمة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه . (۳) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نام على سرير صممول بصريط النخل لجلس قرأى أثر المصريط في جنبه . . . الحديث ، متعفى عليه من حديثه ، وقد تقدم .

⁽٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطبة فرأى على منزلها سترا وفى بديها قلين من فضة فرجع . . . الحديث، لم أره بحوط ولأبى داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد : أنه صلى الله عليه وسسلم جاء فوضع بديه على هضادتى الباب فرأى القرام قد ضرب فى ناحية البيت فرجم ، فقالت فاطمة الى : أنظر فأرجعه . الحديث رواه النسائى من حديث ثوبان باسناد جيد قال : ===

وقال «كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلى به إلى آل فلان (۱) ، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثغية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لهما « أعيدى العباءة الحلقة و نحى هذا الفراش عنى قد أسهر في الليلة (۲) ، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل ، قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينهذ حتى سمعت غطيطه ثم قال « ماظن محمد بربه لو اتى الله وهذه عنده (۲) ، وقال الحسن : أدركت سبعين من الاخيار مالاحدهم إلا ثوبه وماوضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط : كان إذا أراد النوم باشر الارض مجسمه وجعل ثوبه فوقه .

⁼⁼ جاءت ابنة هبيرة لملى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب . . الحديث . وفيه : أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب . وأنه خرج ولم يقمد ، فأممات بالسلسلة فبيعت فاشترت بشنها عبد فأعتفته ، فلما سمع قال « الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار » .

⁽۱) حديث: رأى على بأب عائشة سترا فهتسكه ... الحديث . أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائي في السكبرى من حديثها .
(۲) حديث : فرشته عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان ينام على عباءة مثنية ... الحديث ، رواها بن حبار في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الألصار فرأت فراش رسول الله عليه وسلم عباءة مثنية فالملقت فبعث لملى بغراش حثوه سوف ، فدخل على رسول الله سلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا... الحديث ، وفيه : أنه أمرها برده ثلاث ممات فردته ، وفيه بجالد بن سعيد مختلف فيه ، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الديمائل .

⁽٣) حديث: أتنه دنانير خمسة أوستة عشاء فبيتها فسهر ليله .. الحديث ، وفيه « ماظن محمد بربه لولني الله وهذه هنده كا أخرجه أحمد من حديث عائشة باسناه حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه « بإعائشة ، مافعلت بالذهب » فجاء ما بين الخسة الله الممانية الى النسعة لجمل يفليها بيده ويقول « ماظن محمد .. الحديث » وزاد « انفقها » وفرواية : سبعة أوتسعة دنانير ، وله من حديث أم سلمة باسناد سحيح : دخل على وسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاهم الوجه ، قالت : فحسبت ذلك من وجع ، فقلت: يابي الله ، مالك شاهم الوجه ؟ قال « من أجسل الدنانير السبعة التي أتثنا أمس أحسينا وهي في خصم الفراش » وفي رواية « أمسينا ولم انفقها » (٤) حديث : كان لايشناه كثرة النسوة ولااشتنال القلب باسلاحهن والإنفاق عليهن ، تقدم في النكاح

كثرة النسوان ، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أوجمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك .

قال أبو سلمان : الزهد في النساء : أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب للمريد المبتدىأن لايشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والتزوّج . وقال : أحب للصوف أن لايكتب ولايقرأ لانه أجمع لهمه ؛ فإذا ظهر أن لذة النـكاح كلذة الاكل فــا شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا .

(المهم السادس) مايكون وسيلة إلى هذه الخسة ، وهو المـال والجاه : أما الجاه فعناه ملك القلوب بطلب بحل فيها ليتوصُّل به إلى الاستعانة في الأغراض والاعمال ، وكل من لايقدر علىالقيام بنفسه في جميع حاجته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاء لاعمالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن لهعنده عولوقدر لم يقم بخدمته ، وقيام القدروالمحل في القلوب هو الجاه ؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها ، ومن حام حول الحي يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم ، فأما النفع فيغني عنه المال فإنّ من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر ، وإنمـا يحتاج إلى الجاه فى قلّب من يخدّم بغير أجرة ، وأما دفع الضر فيحتاج لاجله إلى الجاه في بلد لايكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له فى قلوبهم أو محل لهعند السلطان ، وقدرالحاجة فيه لاينضبطلاسها إذا انضم إليه الخوف وسوَّم الظن بالعواقب ، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أنَّ لايسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الآذي ولوكان بين الكفار، فكيف بين المسلمين ، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهامكاذبة ، إذمن طلب الجاء أيضا لمبخل عن أذى في بعض الإحوال ، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فإذن طلب المحلفالقلوب لارخصة فيه أصلا ، واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المـال فهو ضرورى في المعيشة أعنى القليل منه ، فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام ، هذا شرط الزهد ؛ فإنجاوز ذلك إلى , مايكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً ، وإنكانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين ف التوكل فأمسك منها مقدار مايكني ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهـذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل مايفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفا. الزهاد ، فإن شرط التوكلف الزهد كاشرطه أويس القرنى رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنــا : إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ماوعد للزاهدِين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لايناله ، وإلا فاسم الزهد قد لايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والسكثرة ، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيّل ، وقد قال أبو سليمان : لاينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء : معناهأن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولايلزمه . كل ذلك في عياله ، نعم لاينبغي أن يجيبهم أيضا فيا يخرج عن حدّا لاعتدال ، وليتعلم من وسول الله صلى الله عليه وسلم: إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله غليها بسبب ستر وقلبين ، لأنّ ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذاً مايضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس بمحذور ، بل الرائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فيا يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قائلا فهو مضر ، وما يقرب من العنرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً لكنه قليل الضرر والسم يحظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، ومابينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنميا يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنميا يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى مالايريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا محالة . والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئًا فلم يقرضه ، فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سَأَلَت خليلك لاعطاك، فقال: يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئًا ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فإذن قدر الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضاكذلك يعرفه من يخبر أحوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المـال وجمعه وحفظه واحنمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يُسلم لورثته فيأكلونه ، ورجمًا يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكونهو معينالهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الحزوج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بمــا يشتهيه-تي تنظاهر عليه السلاسل فيقيده المبال والجاه والاهل والولد وشماتة الاعبداء ومراءاة الاصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الحروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لايقدر على قطعها ، ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في ملاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة . فتبق السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فانته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنمــا ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصًا به لابطريق السراية إليه من غيره ، فهذا أوّل عذاب يلقاء قبل مايراً من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله نعالى ، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى ﴿ كَلا إنهم عن ربهم بومَّذ لمحجوبون ه ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت الملاوة إليه ؟ فنسألُ الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا مانفث في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له : أحبب من أحببت فإنك مفارقه (١) . وفي معنى ماذكرناه من المثاّل قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله وانباعه هوى نفسه إهلاك دود القر نفسه : رفضوا الدنيا بالسكلية ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليسكم . وف لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشدّ فرحا منسكم بالحصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم بجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا

⁽١) حديث : نفث في روعه أحبب من أحبب فانكَ مقارقه ، تقدم .

ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبى ، فن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفانا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ . وقال تعالى ﴿ فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ه ذلك ميلغهم من العلم ﴾ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العسل ، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملنى معك في سياحتك ، فقال: أخرج مالكوالحقنى . فقال : لا أستطيع ، فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغنى الجنة _ أو قال بشدة ، وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق ؛ يا باغى الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلقا وأعط بمسكا تلفا . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الحشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لاباب له ،وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لابدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لابد من الزهد في الممال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهدمع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة عكما قال الحقواص في وصف المدعين إذقال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يمقون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لثلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقر امفيحتقر وافيه طوا كا تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذ كن بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجنوا إلى الضايق ، وكل مؤلاء أكاة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم ، فهم ماثلون إلى الدنيا متبعون الهوى . فهذا كله كلام الحواص رحمه الله ؛ فإذن معرفة الزهد أم مشكل ، بل حال الزهد على الدنيا متبعون الهوى . فهذا كله كلام الحواص رحمه الله ؛ فإذن معرفة الزهد أم مشكل ، بل حال الزهد على الواهد مشكل .

ويذبنى أن يموّل فى باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بمسا آتاكم) بل ينبغى أن يكون بالصدّ من ذلك : وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فالأوّل علامة الزهد فى المال والثانى علامة الزهد فى الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو الفلب عن حلاوة المحبة إما محبة الله المنيا وإما محبة الله ، وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، فالماء إذا دخل خرج المواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بنيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال : إلى الآنس بالله ؛ فأما الآنس بالدنيا و بالله فلا يجتمعان .

وقد قال أمل المعرفة : إذا تملق الإيمـان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمـان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد فى دعاء آدم عليهالسلام :
(٣١ ـ احياء علوم الدين ـ ٤)

اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلى .

وقال أبو سليان : من شغل بنفسه شغل عن الناس _ وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه _ وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بدّ وأن يكون فى أحـــد هذين المقامين ، ومقامه الآول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا .

قال ابن أبى الحوارى: قلت لأبى سليمان: أكان داود الطائى زاهدا؟ قال: لعم . قلت: قد بلغى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن ببلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية ، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه و آخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجراكما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجرئ على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه وإذا لا يتعاظمه شى م فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتبادا على الجود المجاوز لكل كمال .

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لغلبة الآنس بالله . ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لامحالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها .

وقيل : علامته أن يترك الدنياكما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا .

وقال يحيى بن معاذ . علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تـكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف عســـلم من أعلام الزهد فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سرى : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال النصرا باذي : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ: علامة الرهد ثلاث: عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلارياسة. وقال أيضا الزاهدلة يسعطك الحل والحردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر . وقال له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ، فأما مالم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعر هاويخرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السرى : مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشركله فى بيت وجعل مفتاحه حبالدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهـــد لايتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

المناعزاتين

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . الرافع السهاء بغيرعماد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذى صرف أعين ذوى القلوب والآلباب ، عن ملاحظة الوسائط والآسباب إلى مسبب الآسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداء والاعتمام على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الحلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرّة إلا إلى الله خلقها ، ومامن دابة إلا على الله وزماء ؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا ؛ حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليماكثيرا .

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الاسباب والاعتباد عايها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالسكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع ، والاعتباد على الاسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغاس فى غرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه بتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الحفاء فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الحفاء الاسماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الاول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى .

بيان فضيلة التوكل

أمامن الآيات ، فقد قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الله يجب المتوكلين ﴾ وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه و محبه ومراعيه : فقد فاز الفوز العظيم ، فإنّ المحبوب لايعذب ولا يبمد ولا يحجب . وقال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ فطالب الكفاية من غيره والنارك للتوكل : هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى ﴿ هل أنى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا ﴾ وقال عزوجل ﴿ ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز حكم ﴾ أى عزيز لايذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذبحنابه والتجأ إلى

ذمامه وحماه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الذَّبِن تَدَّعُونَ مِن دُونَ الله عباد أَمْثَالُكُم ﴾ بين أنّ كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر . حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الذِّنِ تَعبدُونَ مِن دُونَ الله لايملكُونَ لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدُوه ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وكل ماذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الاغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الآخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتى قد ملاوا السهل والجبل فأعجبتني كترتهم وهيأتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت ؛ نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يارسول الله ، قال الذبن لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتركلون ، فقام عكاشة وقال . يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال رسول الله عليه وآله وسلم ، سبقك بها اجعله منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم ، سبقك بها عكاشة (۱۱) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ، لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزق كم كايرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا (۲) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ، من انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها (۲) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ، من مرهأن يسكر نأغى حيث لا يحتسب : ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها (۲) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ، من من مأن يكر نأغى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه (۱) ، ويروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال ، قوموا إلى الصلاة ، ويقول ، بهذا أمرنى ربى عز وجل ، قال عز وجل ﴿ وأم أهلك بالصلاة واصطبر علها ﴾ (۱۰) الآية . وقال صلى الله عليه واكتوى (۱) » .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقدرى إلى النار بالمنجنيق: ألك حاجة ؟ قال: أما لملك فلا ، وفاء بقوله حسى الله وفعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ايرمى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِبرَاهِيمِ الذي وَفَ ﴾ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: ياداود ، مامن عبد يعتصم بي دون خلق فتكيده السموات والارض الا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار . فقيد قال سعيد بن جبير : لدغتني عقرب فأقسمت على أنسترتين ، فناولت الراقي يدى الني لم تلدغ .

من التوكل ، وقال النسائي : مانوكل من اكتوى أو استرق .

⁽١) حديث ان مسمود و أربت الأمم في الموسم فرأيت أمتى قد الأوا السهل والجبل . . . المديث ، رواه ابن منهم بإساد حسن ، وانهق عليه الشيخان من حديث ابن عباس .

⁽٣) حديث ه لوأنسكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقسكم كما يرزق الطير ... الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وصحاء من حديث عمر ، وقد نقدم (٣) حديث من انقطم لملى الله كفاء الله كل مؤنة . الحديث ، أخرجه العابراني في الصنير وابنا إلى الدنيا ، ومن طريقه البيهق في الشعث تسكلم فيه أبرحام الدنيا ، وفيه لم براهيم بن الأشعث تسكلم فيه أبرحام (٤) حديث ه من سره أن يسكون أغني الناس فليسكن عما عند الله أو تق منه بما في يدم » رواه الحساكم والبيهق في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

⁽ه) حدیث: کان لمذا أساب أهله خساسة قال ه قوموا لملى السلاة » ویقوله ه بهذا أمرنی ربی » قال تمالی (وأمر أهلك بالسلاة واسطبر علیها) رواه الطبرانی فی الأوسط من حدیث محدین حمزة عن عبد الله بن سلام قاله : کان النبی سلی الله علیه و سلم لمذا نزل بأهله الشبق أمراهم بالسلانه ثم قرأ هذه الآبة . و محمد بن حزة بن یوسف بن عبد الله بن سلام لا بحا ذکروا له روایته عن أبه عن جده فیبهد سماعه من جد أبهه . (٦) حدیث ه لم یتوکل من استرقی واکتوی » أخرجه الترهذی وحسنه والنه أن قال : أو من حدیث المنبرة بن شمة ، وقال الترهذی ه من اکتوت أواسترق فقد بری ا

وقرأ الخوّاص قوله تعالى ﴿ وتوكل على الحي الذي لايموت ﴾ إلى آخر ، فقال : ماينبغي للعبد بعد هذه الآية أن بلجاً إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء في منامه : من وثنى بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ : في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنَّ الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سارب من أين يطعمني ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم ؛ متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لاتفتظم الا بعلم وحال وعمل ، والتُوكل كذلك ينتظم من ـ علم هو الآصل و ـ عمل ـ هو الثمرة و ـ حال ـ هو المراد باسم التوكل .

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيمانا في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إيما نحتاج منها إلى مانبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك (لاإله إلا الله وحده لاشريك له) والإيمان بالقدرة التي يترجمه قولك (لااله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك (وله الحد) فن قال (لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير منى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول ، وهو من عام المكاشفة ؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متملق بالاعمال بواسطة الاحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لانتعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة ،

للتوحيد أربع مرا تب، وينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر. وإلى قشر القشر. ولمثل ذلك تقريبا إلى الافهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين، وله لب، وللب دهن هو لب اللب، فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين. والثانية: أن يصدق بمعني اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد الدوام. والثالثة: أن يشاهدذك بطريق المكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار. والرابعة: أن لايرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، لانه من حيث لايرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستفرقا بالتوحيد كان فانيا عن تفسه في توحيده، بمعني أنه في عن رؤية نفسه والحلق ؛ فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن في توحيده، بعني أنه في عن رؤية نفسه والحلق ؛ فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان. والثاني موحد بمعني أنه معتقد بقله مفهوم لفظه وقلبه عال عن التكذيب بما العقد عليه ولم تعنوف عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تعنوف

بالمعاصي عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بهـا دفع حيلة التخليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمىمتكلما ، وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته . والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحــدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لانه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإنَّ تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذلم يفارق المتكلم العامى في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هـذه العقـدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى البكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ؛ فالآول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلي ، والثالث كاللب ، والرابع كالمدهن المستخرج من اللب . وكما أنَّ القشرة العليا من الجوز لاخير فيها بل إن أكل فهو مرَّ المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك في البيت ضيق المسكان فلا يصلح إلا أن يترك مدّة على الجوز الصون ثم سرى به عنه فكذلك التوحيد بمجرّد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كشير الضرر مذموم الظـاهر والبـاطن ؛ لـكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلي إلى وقت الموت : والقشرة السفلي هي القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبق لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلي ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بهاحطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعمالي ﴿ فَن يَرِدُ اللَّهِ أَنْ يَهِدِيهِ يَشْرَحُ صَدْرُهُ لَلْإِسْلَامُ ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أَفَن شرح الله صدره الإسلام فهو عل نور من ربه ﴾ وكما أنَّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافه إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

ه فإن قلت . كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السهام والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهى كثيرة : فكيف يكون الكثير واحداً ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المسكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر مايسكسر سورة استبعادك بمكن . وهو أنّ الشيء قد بكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بو احد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة في تفريق وكأنه في عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة في تفريق وكانه في عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة في تفريق وكانه في عين الجمع ، والملتف إلى الكثرة في مقرقه ، فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحدمن .

الاعتبارات واحد , وباعتبارات أخر سواه كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لايطابق الغرض ولكته ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثره في حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا السكلام ترك الإنسكار والجمعود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبياكان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك . وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الحاطف وهو الآكثر ، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الحواص بدور في الاسفار فقال : فيهذا أنت ؟ فقال : أدور في الاسفار لاصح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكاين ، فقال الحسين : قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فهذه فأين الفناء في التوحيد ؟ فكأن الحقواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

ه فإن قلت : فلا بدّ لهـذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه ا فأقول : أما الرابــع فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أيضا مبنيا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأوّل وهو النفاق فواضح وأماالثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عمومالمسلمين ، وطريق تأكيده بالـكلام ودفع حيلالمبتدعة فيه مذكور في عالم السكلام ، وقد ذكرنا في كتاب الافتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبني عليهالتوكل ، فلنذكر منه القدرالذي يرتبطالتوكل به دون تفصيله الذيلايحتمله أمثالهذا الكتاب . وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعمالي ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغني وفقر إلى غير ذلك بمـاً ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزوجل لاشريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بلكان منه خوفك وإليه رجاؤك ومه ثقتك وعليه السكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدّك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات , أما الالتفات إلى الجمادات فسكاعتبادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمسائه ، وعلى الغيمف نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها : وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الامور ، ولذلك قال تعمالي ﴿ فَإِذَا رَكُبُوا فِي الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلسا نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لو لا استوا. الربح لمـا نجونا . ومن انكشف له أمر العالمكا هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء والهواء لايتحرّك بنفسه مالم يحرّك عرّك ، وكذلك محرّك ، ومكذا إلى أن ينتهى إلى الحرك الأوّل الذي لامحرّك له ولاهو متحرك في نفسه عزوجل؛ فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كـتب التوقيـع يقول . لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أنّ القلم لاحكم له ف نفسه وإنمـا مو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلاالـكاتب ، بل ربمـا يدهشه فرح النجاةوشكر الملك والسكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الـكاتب ، بل هذا تمثيل في جقك لاعتقادك أنّ الملك

الموقع هو السكاتب الترقيع ، والحق أنّ الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمِيتَ وَاكْنَ الله رَمَى ﴾ فإذا انكشف لَكَ أنّ جميع ماني السموات والارض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبًا وأيس عن مرج توحيدك بهذًا الشرك ، فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكلمن الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذي يحزرقبتك بسيفه وهو قادر عليكإن شاءحزن رقبتكو إن شاء عفاعنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لاترى القلم لانه مسخر فكيف لا ترى الـكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الاكثرون إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون السكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاءكون القلم مسخرا ، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلظ النمله مثلا لو كانت تدب على الـكاغد فترى رأس القلم يستود الـكاغد ، ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليدفغلطت وظنت أنّ القلم هو المسؤد للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم أضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعمالي صدره الإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء المكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعمالي في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعـــالي وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تشكلم بلا حرف ولا صوت لايسمعه الذين هم عنالسمع معزلون ، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لايجاوز بالاصوات ، فإنّ الحارشريك فيه ، ولاقدر لمسايشارك فيه الهائم ، وإنمسا أريدبه سمعايدرك له كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي .

فإن قلت : فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لى كيفية فطقها وأنها كيف نطقت و بماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أنّ لدكل ذرة في السباوات والارض مع أرباب القلوب مناجاة في السر ، وذلك بما لا ينحصر ولا يتناهي ، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لانهاية له (قل لو كان البحر مدادا لدكلات ربي لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر اؤم ، بل صدور الاحرار قبور الاسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار ملك قد نوجي بخفاياه فنادي بسره على ملامن الحانى ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم ، لو تعلمون ما أعلم اضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (١١) ، لم كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولايضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢١) ولما قال ، إذا ذكر النجوم بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولايضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢١) ، ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض فأمسكوا ، وإذا ذكر العجوم الملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نعان (أحدهما) الاسرار (١١) . فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نعان (أحدهما) استحالة إفشاءالسر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم استحالة إفشاءالسر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم استحالة إفشاءالسر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم استحالة إفشاءالسر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم استحالة إفساء المنال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم استحالة إفساء كله و النهاية ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم المنال ا

⁽۱) حديث « لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة (۲) حديث النهى عن لمفشاء سرالقدر: رواء ابن عدى وأبو لعيم فى الحلية من حديث ابن عمر « القدر سر الله فلا تفشوا لله عزوجل سره » لفظ أبى لعيم » وقال ابن عدى « لاتسكلموا فى القدر قابه سر الله الحديث » وهو ضعيف ، وقد تقدم .

 ⁽٦) حديث « لذا ذكر النجوم فأسكوا ، ولذا ذكر القدر فأسكوا الحديث ، أخرجه العابراني وابن حبان في الضعفاء ،
 وتقدم في العلم (١) حديث : أنه خس حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ ونرد كلاتها إلى الحروف والاصوات وإن لم تكن حروفًا وأصوانًا ، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعـالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد : ما أنصفتني في هذه المقالة 1 فإني ماسؤدت وجهي بنفسي ولسكن سل الحبر فإنه كان بحموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا ! فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك ؟ فقال : ما أنصفتني فإنى كنت في الحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على الفلم بطمعه الفاسد ، واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبتدنيكما ترى على ساحة بيضا. ، فالسؤال عليه لاعلى 1 فقال صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطامه فقال : سل اليد والاصابع فإنى كنت قصبا نابتا على شط الامهار متنزها بين خضرة الاشجار ، فجاءتي اليد بسكين فنحت عنى قشرى ومزقت عنى ايابى وافتلعتنى من أصلى وفصلت بين أبابيبي ، ثم برتنى وشقت رأسى ، ثم غستنى في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، فتنج عنى وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدواتها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ماأنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرّك بنفسه ؟ وإنمـا أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني ، وتجول بي في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لايتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى فإنى مركب أزعجي من ركبني ، فقال صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع عنك لومي ومعانبتي ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لاذنب له، وكيف خنى عليك أسرى ؟ وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التَّحريك ، وماكنت أحرَّكها ولا استسخرها ، بلكنت نائمة ساكنة نوما ظنَّ الظانون بي أني ميتة أو معدومة ، لاني ماكنت أتحرك ولا أحرِّك حتى جاءنى موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني ، فـكانت ليقرّة على مساعدته ، ولم تـكن لي قوّة على يخالفته ، وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ماكان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيي ، فقال : صدقت ، ثم سأل الإرادة ما الذي جرَّأك على هذه القــدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت الإرادة : لا تعجل على فلعل لنــا عذرا وأنت تلوم ، فإن ما انتهضت بنفسى ولــكس أنهضت وما انبعثت ولــكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكة قبل مجيئه ولـكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولاأدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لـكني أدرى أني في دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكمالعادل أوالظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما ، بل لايبقىل معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة ، لعمرى مادام هو في النردد مع نفسه والنحير في حكمه ، فأنا ساكنة ليكن مع استشعار وانتظار لحكمه ،فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لِتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ، (٣٢ -- إخياء علوم الدين -- ٤)

فإنى كما قال القائل:

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت، وأفبل على العلم والعقل والقلب مطالبًا لهم ومعاتبًا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة ، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي وأكن أشعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني ، فسل القلم عني لأنَّ الحنط لايكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعتم السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعي في هذا الطريق وكـثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لماكنت أسمع كلاما مقبولا لا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال: فأما قولك: إن خط ونقش، وإنمــا خطى قلم فلست أفهمه فإني لا أعلم قلمــا إلا من القصب، ولا لوحا إلا من الحديد أو الحشب، ولاخطأ إلا بالحبر، ولأسراجا إلا من النار، وإنى لاسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئًا : أسمع جعجمة ولا أرى طحنا : فقال له القلم : إن صدقت فيها قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليهاكثيرة : فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فمكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أنَّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكرت وهو ورائى ؛ فإذا جاوزتنى اننهيت إلى منازله وفيه المهـا.ة الفيـح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت؛ لأنَّ عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الآرض والمساء ، فلا هي في حدّ اضطراب المساء ، ولا مى فى حدّ سكون الأرض وثبوتها ، وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى في عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على المساء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتمتع ؛ وإن كنت لا تقدر على المشى على المساء فانصرف فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يـق بين يديك لملا المـاء الصافى، وأوّل عالم الماكوت مشاهدة القلم الذي يكنب به العلم فيلوح القلب وحصول اليقين الذي يمشى به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسي عليه السلام « لو ازداد يقبنا لمثى على الهواء (١) ، لما قيل له إنه كان يمشى على المماء ، فقال السائل : قد تحييت في أمرى واستشعر قلبي خوفا بمسا وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أملا؟ فهل لذلك من علاَّمة ؟ قال : نعم ، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدَّقه نحوَّى فإن ظهر لك القلمالذي بهأكتب في لوح القلب فيشبه أن تـكمون أملا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

⁽١) حديث : قبل له ان عيسي يمشي على المساء ، قال ه لو ازداد يقينا لمبني على الهواء ، تقدم .

الاكرم ه الذي عـلم بالقلم ه عـــــلم الإنسان مالم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فوالله ما أرى قصبا ولا خشبًا ، ولا أعلم قلما إلاكذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت أنّ متاعالبيت يشبه رب البيت ، أما علمت أنّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذرات ، فكذلك لا تشبه يده الآيدى ولا قُلمه الاقلام ولاكلام، سائر الـكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الآيدى ، ولا قلمه من قصب ،ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رُقم ورسم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا مكذا فيا أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلا. ولا إلى هؤلاء ، فكيف نوهت ذاته وصفائه تعالى عن الاجسام وصفاتها ؟ ونوهت كلامه عن معانى الحروف والاصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم . إن الله خلق آدم على صورته ، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا ، كما يقال : كن بهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزما صرفا ومقدّسا فحلا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدّس طوى ، واستمع بسر قلبك لمـا يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سراد؟ات العرش تنادى بمـا نودى به موسى ﴿ إِنَّى أَنَا رَبُّكُ ﴾ فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشديه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدّة غضبه على نفسه لمــا رآها بمين النقص ، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يسكاد يعني، ولو لم تمسسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القــلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ؛ ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوامني قلوب البشر كامِم أصناف العلوم ، وكأن له في كل قلب رأسا ولا رأس له ، فقضي منه العجب وقال : فعم الرفيق العلم ، لجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القـــــلم ؛ فإنى أراه قلماً لا كالأقلام ؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقاى عنـدك ومرادّتى لك ، وأما عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العسلوم ماتبعث به الإرادات إلى إشخاص القـدر وصرفها إلى المقـدورات ؟ فقال : أو قد نسيت مارأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال ؛ فجوابي مثله جوابه.قال : كيف وأنت لاتشبهه ؟ قال القبلم : أما سمعت أنَّ الله تعمال خلق آدم على صورته ؟ قال فعم . قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فاني في قبضته ، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر ؛ فلا فرق بين القسلم الإلهي وقلم الآدى في معنى التسخير ، وإنمــا الفرق في ظاهر الصورة . فقال : فمن يمــين الملك ؟ فقال القــلم : أما سمعت قوله تعــالى ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ؟ قال : نعم . قال : والأفلام أيضا في قبضة يمينه هوالذي يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم ولايجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لاتحوى مجلدات كثيرة عشر عشــير وصــفه ، والجــلة فيــه أنه يمين لاكالإيمــان ، ويد لا كالآيدى ، وأصبع لا كالاصابع ؛ فرأى القلم محرًكا في قبضته ، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقسلم ؟ فقال : جوابي مثل ماسمته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحسوالة على القدرة ، إذ اليـد لاحكم لهــا في نفسها وإنمــا

محرّكها القدرة لامحالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لاعلى الصفات ، وعنــد هذا كاد أن يريخ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة ﴿ لايستُل عما يفعل وهم يستلون ﴾ فغشيته هيبنة الحضرة ، فحسر صعقا يضطرب في غشيته ، فلما أفاق قال : سبحانك ماأ عظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليكوآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك و برضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأنضرع إليكوأبتهل بين يديك، فأقول : اشرح لى صدرى لاعرفك واحلل عقدة من لساني لاثني عليك ؛ فنودى من وراء الحجاب ؛ إياك أن تطمع في الثناء وتزيد علىسيد الأنبياء ، بل إرجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه ، وماقاله لك فقله ؛ فإنه مازادفي هذه الحضرة على أن قال . سبحانك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١١) ، فقال . لملمى ' إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك ، فنودى : إباك أن تتخطى رقاب الصديقين، فارجع إلى الصديق الأكبر فافتد به ؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم ، أماسمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فيكفيك نصيبًا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا؛ فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبايه وقال لليمين والقلم والعسلم والإرادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذرى فإبي كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد والكلرداخل دهشة ، فمـا كان إنـكارى عليـكم إلا عن قصور وجهـل ، والآن قد صـح عنـدى عـذركم وانـكشف لى أنّ المنفرد بالملك والملكوت والمنزة والجميروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون في قبضته وهو الأوَّل والآخر والظاهر والباطن ؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استربعد منسه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؛ فالأولليس بآخر، والظاهر ليس بباطن ؛ فقال : هوالأوَّل بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنه م لابزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلب بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، فهذا كان توحيـد السالكين لطريق التوحيـد في الفعل : أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد .

ه فإن قلت : قد انتهى همذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا عملاج له إلا أن يقال له : إنسكارك لعالم الملكوت كإنسكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الجنس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لانها لاندرك بالحواس الجنس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الجنس ، فإن قال : وأنا منهم فإنى لا أهتمدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الجنس ، فإن قال : وأنا منهم فإنى لا أهتمدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الجنس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال : إنسكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الجنس كإنكار السوفسطائية للحواس الجنس ، فإنهم قالوا ؛ مانراه لانثق به ، فلملنا نراه فى المنام . فإن قال . وأنا من جملتهم فإنى شاك أيضا فى

⁽١) حديث و سبحالك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، تقدم .

المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه، فيترك أياماقلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء: هذا حكم الجاحد. وأما الذى لايجحد ولكن لايفهم، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نول فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة، فإدا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه ؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن في عالم الشهادة أيضاً توحيدا، إذ يعلم كل أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأه يرين، فيقال له على حدّ عقله . إله العالم واحد والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلمة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق مارآه في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد النوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقولهم ، ولذلك نول القرآن بلسان العرب على حدّ عادتهم في المحاورة ،

ه فإن قلت : فمثل هذا الترحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ؟ فأفول : فعم ؛ فإن الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الاحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزاول غالباً ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلفتها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا ، كما أن الذى يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عنيد طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا يحينا عنيد طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون ما أنت قاض أيديكم وأرجلكم من خلاف) بل ﴿ قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فافض ما أنت قاض أيما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ فإن البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما فظروا إلى بجل السامرى وسمدوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهم ولاله يحل السامرى وسمدوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهم ولاه يكل المنامري والتضاد في عالم الشهادة كثير ، وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافا وتضادا أصلا .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أنّ الوسائط والآسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟ فاعلم أنه لوكان مع هذايشاءإن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يردأن يشاء ، لسكان هذا من لة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل مايشاءإذا شاء إن يشأ أم لم يمنأ فليست المشيئة إليه ، إذ لوكانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غيرنهاية ، وإذا لم تنكن إليه المشيئة فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها افصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لهسا إلى المخافة الحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث طرورة في القلب . فهذا ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا افصراف

القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع

فإن قلت: فهذا جبر محض والجبرينافضالاختيار، وأنت لاتنكر الاختيار فكيف يكون بجبورا مختارا؟فأقول: لو انكشف الغطاء لمرفت أنه في عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار .فكيف يفهم هذا من لايفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكرمتطفلا وتابعا فإنّ هذا الكتاب لم نقصدبه إلا علم المعاملة، ولكني أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه، إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق المساء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق فىالمساء والتنفس والسكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكما تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عمها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للمـاء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ، ونسمى تنفسهفعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا ، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لآنه مهما وتف على وجه المـاء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الحزق بعد التخطي ضروريا ، والتنفس في معناه فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفسكنسبة انخراق المـاء إلى ثقل البدن؛ فهماكان الثقل موجودا وجد الانخراق بعد، وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست|ليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الاجفان اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الاجفان اضطرارا فعل إرادى ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، ولوأراد أن يترك ذلك لم يقدرعليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقدالتحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً . وأما الثالث ـ وهو الاختيار ـ فهو مظنة الالتباسكالكتابة والنطق ، وهوالذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة لا يشاء ، ؛ فيظن من هذا أنَّ الأمر إليه , وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه : أنَّ الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك ، والاشياء تنقسم إلىماتحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تعير وتردد ، وإلى ماقد يتردد العقل فيه ؛ فالذى نقطع به من غير تردد أن من بقصد عينك مثلا بإبرة أوبدنك بسيف ، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلاجرم تنبعث الإرادة بالعلم . والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الاجفان بالدفع ، وحركة اليدبدفع السيف والكن من غيرروية وفسكرة ، ويسكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى أنه موافق أم لافيحتاج إلى روية فكر حتى يتميز أن الحنير في الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خيرالتحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية فكر ، فانبعثت الإرادة ههناكما تنبعث لدفع السيف والسنان؛ فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنه خير سميت هـذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ، ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهوظهور خيرية الفعل في حقه ، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية ، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيماله في إدراكه توقف ، وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدمالقدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقدا لإرادة الداعية المشخصةللقدرة وإنمـا فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحسن بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا لهفلا يمكنه مع قؤة الأعضاء أن يقتل نفسه إلاإذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق ؛ فإنّ العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن تردده بين شر الشرين ؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لاميل فيه ولاصارف منه انبعت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرى بنفسه من السطح مثلا وإن مهلكا ولايبالى ولايمكنه أن لايرى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرى فوقفت أعضاؤه فسلا يمكنه أن يرى نفسه ولا تنبعت له داعية ألبتة ، لان داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة ، والمكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لايدرى ، فإنما هو محل وبحرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فيكلا ولا ، فإذن معنى كونه بجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ، ومعنى كونه مختارا أنه على لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فإذاهو مجبور بين المغرلتين فإنه جبر على الإحراق مثلا جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا المختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى المنات لايمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لايليق بهذا العلم ويطول الذول فيه ،

ه فإن قلت : فهل تقول إنالعلم ولدالإرادة ، والإرادةولدت القدرة ، والقدرةولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدّم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله تعالى ، وإن أبيت ذلك فما معني ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرةالازلية ، وهو الاصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والـكافة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية إرادة إلا بعد علم ولاعلم إلا بعد حياة ولاحياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لايجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب، ولكن بعض الشروط ربمـا ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المـكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدّم متقدّم ولايتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لـكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل الجانين ــ تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجُنِّ وَالْإِنْسُ إِلَالْيُعْبِدُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ﴾ فسكل مابين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لايتصور أن يكون إلاكما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لايوصف بكونه مقدورا ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلالفقدشرطالحياة ، ولاتتأخر عنها الإرادة بعدالعلم إلا لفقدشرط العلم ،وكلذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس في شيء منذلك لعب واتفاق ، بلكل ذلك بمكة وتدبير ، وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالاً يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن

نقدر إنسانا محدثا قدانغمس في المساء إلى رقبته ، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان المساء هو الرافع و هو ملاق الده فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للقدورات متعلقة بها ملاقاة المساء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كا لا يحصل رفع الحدث بالمساء انتظارا للشرط و هو غسل الوجه ، فإذا وضع الواقف في المساء وجهه على المساء على المساء في سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أنّ الجدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لا نه حدث عقيبه ، إذ يقول : كان المساء ملاقيا ولم يكن رافعا والمساء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه المناء الملاق لها لابغسل الوجه ، والمساء لم يتغير واليد لم تتغير ولإيدث فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا يذبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الإرادة والمناء لم يتغير واليد لم تتغير ولي والميدة فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا يذبغي أن تفهم صدور المقدرات عالمة لك جميع ذلك فيهما أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم الم كاشفات ، فلذترك جميع ذلك والا تفادر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات النوحيد، واستيفاء والاعتماد ، ولم نقدر على اللسان ؛ وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ؛ وما أعز حقيقته وله عند العلماء وما أخذ مؤلف عند غيره .

ه فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع : ومعنى التوحيد : أن لافاعل إلا الله تعالى ؛ ومعنى الشرع إثبات الافعال للعباد ؛ فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذاكان للفاعل معني واحد، وإنكان له معنيان ويكون الاسم بحملا مرددا بينها لم يتناقض ، كما يقال : قتل الامير فلاما ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الامير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ، فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بمد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المملول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفهاكان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا ؛ لأنَّ الفتل ارتبط بقدرتها ولكن على وجهين مختلفين ، فلذلك سمى فملا لها ، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ، ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تمالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال الله تعالى في الموت ﴿ قُلْ يَتُوفًا كُمُ مَلَكُ الْمُوتَ ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ الله يَتُوفَى الْأَنْفُسُ حَيْنُ مُوتُهَا ﴾ وقال تعالى ﴿ أَفُرْأُ يَتَّم ما تحرثون ﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى ﴿ أَمَا صِبِنَا المَاءُ صِبَا ثُمُ شَقَقَنَا الْأَرْضُ شَقًا فَأَنْبَنَنَا فَيِهَا حَبَا وَعَنِبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وكان النافخ جبريل عليهُ السلام ، وكما قال تعالى ﴿ فإذا قرأناه فانبسع قرآنه ﴾ قيل فى النفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين

الفتل ، بل صرح وقال تعالى ﴿ فَلَمْ تَفْتَلُوهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ قَتْلُهُم ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَا رَمِيتَ إِذَا رَمِيتَ وَلَكُنَ اللَّهُ رمى ﴾ وهو جَمَّع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناًه : وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رمّيت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ﴿ الذي عـلم بالقـلم عـلم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن عــلم القرآن ﴾ وقال ﴿ علمه البيان ﴾ وقال ﴿ ثم إنَّ علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ أَفْرَايْتِمْ مَا تَمْنُونَ ؟ أَأْنَتُمْ تَخْلَقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْحَالَقُونَ ﴾ ثم قال رَسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام , إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصوّرها جسدا ، فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوّج ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك (١) ، وفي لفظ آخر ، ويصوّر الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة . . وقد قال بعض السلف : إنَّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الاجساد،، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم،ولذلك سمى روحاً ، وماذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحسكم به دون النقل تخمين مجرّد ، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الادلة والآيات في الأرض والسموات، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة ، فـكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالىكا قال بعضهم : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي كما عرفت ربى ، وهو معنى تموله تعالى ﴿ أو لم يـكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ، فني الحبر . أنّ ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الاحياء ، وقال ملك الحياة . أنا أحي المرتى ، فأوحى الله تعمل إليهما : كونا على عملكا وما سخرتكا له من الصنع ، وأنا المميت والمحيى لا يميت ولا يحبي سواى ١٢١ ، فإذن الفعل يستعمل على وجوه يختلفة فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم المذى ناوله التمرة . خذها ، لو لم تأتهـا لاتتك ١٣١ . أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أنَّ التمرة لا تأنَّى على الوجه الذي يأتَى الإنسان إليها ، وكذلك لما قال الناتب: أتوب إلى الله تعالى ولا أنوب إلى محمد، فقال صلى الله عليه وسلم . عرف الحق لاهله(١٠) . فـكل من أضاف الـكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير فى كلامه ، وللتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجها ، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولـكن ظن أنَّ الإنسان مخترع بقدرته فساه فاعلا محركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أنَّ نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الامير فإنه بجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد ، فلما انكشف الحق لاهله عرفوا أنّ الاس بالعكس

⁽۱) حدیث: وسف ملك الأرحام أنه بدخسل الرحم فیأخذ النطقة بده ثم یصورها جسدا . . الحدیث ، رواه البرار وان عدی می حدیث عائشة و ان الله تبارك وتعالی حین برید أن یخاق الحق یعث ملسكا فیدخل الرحم فیقول : یارب ماذا . . . الحدیث » وفی آخره و فا من شیء الا وهو یخاق معه فی الرحم » وفی سده جهالة . وقال ابن عدی : انه منسكر ، وأسله متفق علیه من حدیث ابن مسمود بنجوه . (۲) حدیث و ان ملك الموت والحیاة تناظرا اتفال ملك الموت : أنا أمیت الأحیاه ، وقال ملك الحیات » لم أجد له أسلا . . الحدیث » لم أجد له أسلا . . الحدیث : قال الذی ناوله الحرة و خذما لو لم تأنها الأبتك » أخرجه ابن حبان فی کتاب روشة المقلاء من روایة هذیل ابن شرحبیل ، ووسله العلبرانی عن هذیل عن ابن عمر ورجاله رجال السحیح ، (۱) حدیث انه قال لذی قال أبوبه المی الله عد و عرف الحق الأهله » تقدم فی الزكان .

وقالوا: إنّ الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز : أى تتجوّز به عما وضعه اللغوى له ، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا أو اتفاقا صدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال وأصدق بيت قاله الشاعر قول ابيد : ه ألا كل شيء ما خلا الله باطل ه (١) ، أي كل ما لا قوام له بنفسه _ و إنما قوامه بغيره _ فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه ، فإذن لاحق بالحقيقة إلى الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء ، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواه باطل ، وإذاك قال سهل : ياه سكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا : كن الآن كا لم تكن فإنه اليوم كا كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الـكل جبر ، فمـا معنى الثواب والعقاب والغضب والرمنا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه ف كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذي رأينا الرمن إليه من التوحيدُ الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمــان بالرحمة والحــكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الاسباب ، والإيمــان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الاسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المـكاشفين فيه تطول ، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه . وهو أن يصدّق تصديقا يقينيا لاضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لوخلق الخلق كالهم على عقل أعقلهم وعــلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عددُ جميعهم علما وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الامور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرَّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أسهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحسكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحامه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منها ذرّة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غني أو نفع عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعمالي من السموات والأرض ـ إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ـ ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمــان وكفر وطاعة ومعصية ، فــكله عدل محض لاجور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي ، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لسكان عجزا يناقض الإلهية ، بلكل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره ، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة ، وكما أن فداء أرواح الإنسبأرواحالبها مم وتسليطهم على ذبحهاليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين المدل، فكذلك تفخيم النعم علىسكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء

⁽¹⁾ حديث « أسدق بيت فالته العرب بيت لسيد : ﴿ أَلَا كُلُّ شَيءَ مَاخَلًا اللَّهَ بَاطُلُ ﴿ مَتَفَقَ عَامِهُ مَن حديث أَبِي هُرَيْرَةً بالمَظُ * قاله الفاعر » وفي رواية لمسلم « أشعر كله تـكامت بها العرب » .

أهل الإيمان بأعل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لايعرف المكامل ، ولو لا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإنّ الكالم والنقص يظهر بالإضافة ، فقتضى الجود والحسكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكما أن قطح الد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لانه فذاء كامل بناقص ، فكذلك الآمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فسكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الآمراج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الاكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أنّ الحنير والشر مقضى به ، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأسء ، بلكل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المراهز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تمالي وحسبنا الله و نعم الوكيل .

الشطر الثانى من الكتاب ف أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حالالتوكل ، وبيانماقاله الشيوخىحةالتوكل ، وبيانالتوكلڧالىكسبللمنفرد والمعيل ، وبيانالتوكل بقدر الادخار وبيان التوكل ڧدفع المضار ، وبيان التوكل ڧ إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته .

بيار حال التوكل

قد ذكرنا أنّ مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم •

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته ، وقد أكثر الحائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم ، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهلالتصوّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف النطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان أى فؤضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكول إليه وكيلا ، ويسمى المفوض إليه متسكلا عليه ومتوكلا عليه مها اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا ، فالتوكل عبارة عن اعتباد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولاوا ثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليمرف بها مو اقع التلبيس حتى لا يخني عليه من غوامض الحيل شيء أصلا . وأما القدرة والمقورة فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنمه الحوف أو الجن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم فهى أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل مااستجرأ القلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم مواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر

عليه فى حقه من المجهود ، فإنّ قدرته لاتغنى دون العناية به إذا كان لايهمه أمرهولا يبالى به ظفر خصمه أو لميظفر هلك به حقه أو لم يهلك ؛ فإن كان شاكا في الاربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه في هذه الاربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بق منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوتة وّة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون في الفرّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، قلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتا لاينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لاضعف فيه ، كما لوكان الوكيل والد المركل وهو الذي يسمى لجمع الحلال والحرام لاجله ، فإنه يحصل له يقين عنتهي الشفقة والمناية ، فتصير خصلةو احدة من الخصال الاربعةقطعية ، وكذلك سائرًا لخصال يتصوّر أن يحصلالقطع به ، وذلك بطول المهارسة والتمجر بةوتواثر الاخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقدرهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت في نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمــام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمــام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراءمنتهي قدرته قدرة ولاوراء منتهي علمه علم ولا وراء منتهي عنايته بكورحمته لك عناية ورحمة ، اتـكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقرّته ، فإنه لاحول ولا قرّة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإنّ الحول عبارة عن الحركة ،والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الاربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه والزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين ، فإنّ من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ، ولو كلف العاقل أن يديت مع الميت في قبر أوفراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا بكونه ميتا وأنه جماد في الحال وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأمه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسدا وإنكان قادرًا عليه، ومع أنه لايشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعه الميت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات ، وذلك جبن في القلب و هو نوع ضعيف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه و إن قل ، وقد يقوى فيصير مرضاحتي يخافِ أن يبيت في البيت وحدم مع إغلاق الباب وإحكامه ، وإذن لايتم التوكل إلا بقرة الفلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء أخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كماقال تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ أَو لَمْ تَوْمَنَ قَالَ بَلَّى وَلَكُنَ لِيطُمَّنَ قَلْبِي ﴾ فالنمس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الحيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ؛ وذلك لا يكون في البداية أصلا.وكم من مطمئن لايقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإنّ اليهو دى مطمئن القلب إلى تهوَّده ، وكذا النصراني و لا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظنُّ وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من دبهم الهدى وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه ، فإذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الاسباب التي تضاد حال التوكل . كما أنَّ ضعف اليقين با لخصال الاربعة أحد الاسباب ، وإذا اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله تمالى ؛ وقد قيل : مكتوب في التوراة :ملعون من ثقته إنسان مثله ، وقد قال صلى الله عليهوسلم

. من استعر بالعبيد أذله الله تعالى (١) . وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلا فاعلمأن تلك الحالة لها في القرّة والصدف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ماذكرناه: وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الثانية) وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لايعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سُواها ولا يعتمد إلا إماها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمرفي غيبتها كانأول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر في قلب أمـه فإنها مفزعه ، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذيله ، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصي لو طواب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان باله إلى الله عز وجل و نظره إليه واعتباده عليه كانم به كما يكاف الصي بأمه فيكون متوكلا حقا : فانّ الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس بلتفت قلبه إلى التوكلوحقيقته ، بل|لى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن نوكله لان له التفاتا إلى توكله وشعورا به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ،وإلىهذ الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه ؟ قال: ترك الأماني . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لايعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهي أعلاها : أن يكون بين يدى الله تمالي في حركانه وسكنانه مشـل الميت بين يدى الغاسـل لايفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحرَكه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالام تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله ، وإن لم يسألهما اللبن فالام تفاتحه وتسقيه ، وهمذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل بمـا يسئل ، فـكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثاني لايقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنمــا يقتضي ترك السؤال من غيره فقط .

ه فإن قلت: فهذه الأحوال هـل يتصور وجودها. فاعـلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عـزيز نادر، والمقام الثانى والثالث أعـزها، والأول أفرب إلى الإمكان، ثم إذا وجـد الثالث والثانى فداومه أبعـد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوّة والاسباب طبع وانقباضه عارض، كما إن انبساط الدم إلى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض. والوجـل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من سـتر البشرة، فإن البشرة مستر رقيق تراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالسكلية عن ملاحظة الحـول والقوّة وسائر الاسـباب الظاهرة لا يدوم، وأما المقـام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يو ما وبو مين، والاول يشبه صفرة مريض استحكم مرضـه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يرول.

⁽¹⁾ حديث « من اعتر بالمبيد أذله الله ، أخرجه العقيل فى الضعفاء ، وأبو لعيم فى الحلية من حديث عمر ، أورده العقيل فى ترجة عبد الله بن تبد الله الأموى وقال : لايتابم على حديثه ، وقد ذكره ابن حبان فى النقات وقال : يخالف فى روايته .

ه فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير و تعلق بالاسباب في هذه الاحوال ؟ فاعلم إنَّ المقام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة بافية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفي كل تدبير إلا من حيث الفرع إلى الله بالدعا. والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الاول لاينني أصـل التدبير والاختيار ولكن ينني بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غدير الوكيل ولكن لايترك الندبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عـرفه من عادته وسننه دون صريح إشارته ، فأما الذي يعــرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتـكلم إلا في حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره ، بل من تمــام توكله عليهأن يفعل مارسمه له ؛ إذ لو لم يكن متوكلا عايسه ولا معتمداً له في قوله لمما حضر ؛ فقوله وأما المعملوم من عادته واطراد سننه : فهو أن يعلم من عادته أن لايحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه : أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها : وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته ؛ فإذن لايستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ، ولو ترك شيئًا من ذلك كان نقصًا في توكله فسكيف يكون فعمله نقصًا فيه ، نعم بعمد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعمه ناظراً إلى محاجتمه فقد يلمتهمي إلى المقام الشاني والثالث في حضوره حتى يبق كالمهموت المنتظر لايفرع إلى حوله وقوته إذ لم يبـق له حول ولا قوّة ، وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته ، وقد انتهـي نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما بجرى ، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فىالتوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأنّ كل تدبير وعمل لايجوز آيضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الاعمال ، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوَّته في الحضور والإحضار لايناقض التوكل لانه يعلم أنه لولا الوكيل لـكان حضوره وإحضاره باطلا و تعبأ محضا بلا جدوى ؛ فإذن لايصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوَّته بل من حيث إنَّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجته ، وعرَّفه ذلك بإشارته وسنته ، فإذن لاحول ولا قوة إلا بالوكيل، إلا أن هـذه الكلمة لايكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوّة كما سبق في التوحيـد وهو الذي جعلهما مفيـدين إذ جعلهما شرطا لمـا سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذن لاحول ولا قزة إلا بالله حقاً وصدقا ، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الاخبار فيمن يقول لاحول ولا قوة إلا بالله (١١) ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطي هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثو ابها إلى كلمة (لاإله إلا الله) وثو ابها كنسبة معنى إحداهما إلى الآخرى ، إذ في هذه الكلمة إضافة إلى شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل اليه ، فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين ، فكذلك لهذ. الكلمة ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين ، وإلى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم . من قال لا إله إلا الله

⁽١) أحاديث ثواب قول لاحول ولاتوة لملا بالله : تقدمت في المدعوات .

صادقًا من قلبه مخلصًا وجبت له الجنسة (١) ، وحيث أطلق من غير الصـدق والإخلاص أراد بالمطلق هـذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والم إد به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لاينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حـديث والكنه حديث نفس، وإنمـا الصدق والإخلاص وراءهما، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون، فعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لاتنتهي إلا بالملك ، أما ترى أن الله سبحانه لمنا ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ﴿ عَلَى سرر مُوصُونَةُ مُتَكُثُينَ عَليها متقابلين ﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين ، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك ، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ، ولوكان لهذه اللذات قدر لمــا وسعت على البهائم ولما رفعت علما درجة الملائكة ، أفترى أنّ أحوال البهائم ــ وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالمــاء والأشجار وأمناني المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد ـ أعلى وألذ وأشرف وأجـدر بأن تكون عند ذوى الـكمال مغبوطة _ من أحوال الملائمكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين ، هيمات هيمات ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو بكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمارعلي.درجة جبر بل عاليه السلام ا وليس يخني أنّ شبه كل شيء منجذب إليه ، وأنّ النفسالتي نزوعها إلىصنعة الآساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالاساكفه أشبه في جوهره منه بالكتاب ، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة ، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿ أُولَتُكُ كَالَانْعَامُ بِلَ هُمْ أَصْلَ ﴾ وإنما كانوا أضل لان الانعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان فني قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكمال . وإذا كان هـذا كلاما ممترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لاحول ولاقوة إلا بالله) وإن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

ه فإن قلت : ليس فى قولك (لاحولولاقوة إلابالله) إلا نسبة شيئين إلى الله ، فلوقال قائل ، السهاموالارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لان الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولامساواة بين الدرجتين ولاينظر إلى عظم السهاء والارضوصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا ، فليست الامور بعظم الاشخاص بل كل على يفهم أن الارض والسهاء ليستا منجهة الآدميين بلهما من خلق الله تعالى ، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة بمن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره ، فهى مهلكة مخطرة ومن لة عظيمة هلك فيها الغافلون إذا تبتوا لانفسهم أمرا وهو شرك فى التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى ، فن جاوزهذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لاحول ولافرة إلا بالله ، وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان (إحداهما) النظر

⁽۱) حدیث د من قال لاله لملا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة » رواه الطبرانی من حدیث زید بن أرقم ، وأبویمل من حدیث أنی هربرة ، وقد تقدم .

إلى السهاء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر إلى اختيارا لحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه السكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها ، فإذاً رجع حال التوكل إلىالتبرى من الحول والقوة والتوكل علىالواحد الحق ، وسيتضم عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ماقاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئًا منها لايخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الآحوال ، فقد قال أبو موسى الديلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والآفاعى عن يمينك ويسارك ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : فعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فما ذكره أبو موسى فهوخبر عن أجل أصوال التوكل وهو العمل المتوكل وهو المعلم الثائث ، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العمل الذي هو من أصول التوكل وهو العمل بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا في المقام الأقول من التوكل ؛ فقد احرز أبو بكر رضى الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات "لها أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله الحيات "لها له عليه وسلم لافي حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لاس يرجع إلى نفسه ، والنظر في هذا المهوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لاحول للحيات ولا قوة لها إلا بالله ، فإن احترز لم بكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصرى عن التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب، فخلع الأرباب إشسارة إلى علم التوحيد، وقطع الاسباب[شارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كاناللفظ يتضمنه فقيل له: زدنا ا فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية، وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط.

وسئل حمدون القصار عن التوكل؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبق دينك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لانيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك ، وهذا إشارة إلى مجرّد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقددورات أسبابا خفية سوى هـذه الاسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل؟ فقال: التعلق بالله تعالى فى كل حال ، فقال السائل: زدنى 1 فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأقول عام للمقامات الثلاث ، والثانى إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة ؟ فقال: أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سببا يفضى إلى سبب وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إذ أداد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم برمعه غيره ،

⁽١) حديث : لمن أبا بكر سد منافذ الحيات في الدار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم . تقدم .

وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز .

وقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثانى ، فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلىفزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو على الدقاق . التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتنى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحسكم بتبم الوعد ، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شىء من ذلك ؛ وللشيوخ في النوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلا نطولها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل ، فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم بورث الحال ، والحال يثمر الاعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن و ترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرفة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل نكشف الغطاء عنه ونقو ل إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعى العبد باحتياره إما أن يمكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ ناوع هو مرجود عنده كالاذخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

(الفن الأوّل : في جاب النافع) فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث در جات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

(الدرجة الأولى) المقطوع به ، وذلك مثل الاسباب التى ارتبطت المسبات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لايختاف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه و تقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعى وحركة وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الحنز ، أو يخلق في الحبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى مدتك : فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تررع الارض وطمعت في أن يخلق الله تعدالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مربم عليها السلام : فيكل ذلك جنون وأمثال هذا بما يكثر ولا يمكن إحصاؤه ، أليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العسلم : فهو أن تعلم أن الله تعمالى خلق الطعام واليد والاسنمان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحمال فهو أن يكون سكون قلبك واعتبادك على فعل الله تعمالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحمال وتفلج ؟ وكيف تعور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقاك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقاك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقاك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقاك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى يصور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى خوت المعالى وربما على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى ويول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى خوت المعالى خوت العمام ، وربما يسلط الله على المدر المعالى وربما على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى خوت وربما على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى حدد المعالى وربما على حدد المعالى وربما المعالى والمعالى وربما على حدد المعالى وربما على حدد المعالى وربما المعالى والمعالى وربما على حدد المعالى وربما تعدد المعالى والمعالى وربما المعالى والمعالى وربما المعالى والمعالى والمعالى والمعالى والمعالى والمعالى والمع

من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرّق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه زلمتعول ، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمدّ اليــد فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الاسباب التي ليست متبقنة ولكن الغالب أنّ المسببات لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطا في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزادكما سبق، ولكن فعل ذلك جائز. وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص.

يه فإن قلت : فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلمكة . فاعلم أنّ ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسؤاها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يُصير عنه بلا ضيق قلب وتشوّش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التقوت مالحشيش ومايتفق من الأشياء الحسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لايخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاء آدى أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزئ به فيحيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين . والدليل عليه أنّ الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول : هذا لايقدح في التوكل . وسببه أنه علم أنَّ البوادي لايتكون المــاء فيها علىوجه الأرض، وما جرت سنة الله تعسالي بصعود المساء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البواديكما يغلب وجود الحشيش ، والمـاء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات والمطشه فى كل يوم أو يومين مرة ؛ فإنّ المسافر مع حرِّ ارة الحركة لايصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربمــا يتخرِّق فتنكشف عُورته ولايوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبا عندكل صلاة ، ولايقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء بما يوجد في البوادي ، فكل مافي معنى هذه الاربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به ، لانه محتمل أن لايتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أنّ يتحرّك الطعام ممضوعًا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان واسكن الثاني في معنى الأوّل ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه ، كما روى أنّ زاهدا من الزهاد فارق الامصار وأقام في سفح جبل سبما وقال : لا أسأل أحدا شيئًا حتى يأتيني ربي برزق ، فقعد سبعة فسكاد يموت ولم يأته رزق ، فقال : بارب إن أحييتني فائتني برزق الذي قسمت لي وإلا فافبضني إليك ، فأوحىالله جل ذكره إليه . وعرتى لاأرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقعد بينالناس . فدخل المصروقعد،. لجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعـالي إليه . أردت أن تذهب حكمتي برهدك في الدنيا 1 أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذن التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعسالى والعمل بموجب سنة الله تعمالى مع الاتـكال على الله عز وجل دون الأسباب لايناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكن الاسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الحفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب.

فإن قلت: ما قولك في الفعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحر ام لانه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لمبكن مهلكانفسه فهذا كيفكان لمبكن مهلكانفسه حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأنيه الرزق من حيث لايحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق ، ولكن لوأغلق بابالبيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد إليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على المرت : فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب ، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله ، فهو أفضل ، وهو من مقامات التوكل ؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه ، فإنَّ الرزق يأتيه لا محالة ، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء : وهو أنَّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه ، كا لو هرب من الموت لأدركه ، وأنه لو سأل الله تعمالي أن لايرزقه لما استجاب وكان عاصياً ، ولقال له : ياجاهل ، كيف أخلقك ولا أرزقك ؟ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : اختلف الناس فى كل شيء إلا فى الرزق والآجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا بميت إلا الله تعمالي . وقال صلى الله عليه وسلم . لو توكلتم على الله حق توكله لرزقمكم كا برزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال (١١) ﴾ وقال عيسىعليه السلام : انظروا إلى الطير لاتزرع ولاتحصد ولاتدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الانعام كيف قيض الله تعمالي لهما هذا الحق للرزق. وقال أبويعقوب السوسي: المتوكلون تجرىأرزاقهم علىأيدي العباد بلا تعب مهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم في رزق الله تعمالي ، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال ، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، وبعضهم بالمتهان كالصناع ، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده و لا يرون الواسطة (الدرجة الثالثة) ملابسة الاسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتسابووجوهه ، وذلك يخرج بالـكلية عن درجات التوكل كلها ، وهوالذي فيهالناس كلهم : أعنىمن يكتسب بالحيلالدقيقة اكتسابا مباحاً لمـال مباح ، فأما أخذ الشهة أو اكتساب بطريق فيه شهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والانكال على الاسباب ، فلا يخنى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الاسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل فسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الصارّ ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لايكتسبون ولا يسكنون الامصار ولا يأخذون من أحد شيئًا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الاسباب ، وأمثال هذه الاسباب التي يوثق بها في المسببات بمـا يكثر فلا يمـكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل : إنه ترك التدبيروقال : إنَّ الله خلق الحلقولم يحجبهم عن نفسه ، و إنما حجابهم بتدبيرهم ، ولعله أراد به استنباط الاسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية ، فإذن قد ظهر أن الاسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى مالا يخرج ، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون ، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الانكال على مسبب الاسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات

⁽۱) حديث « لو توكاتم على افة حق توكله ... الحديث » وزاد في آخر. « ولزاات بدعائكم الجبال » وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة ، فرواها الإمام محد من لسمر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين الوعرقم افة حق معرفته لمشيتم على البحور ولزاات بدعائسكم الجبال » ورواه الببهتي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله « لمشيتم على البحور » وقال : هذا منقطم .

فالتركل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا ، والمنوكلون في ملابسة هذه الاسباب على ثلاثة مقامات :

(الآوَل) مقام الحَواص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فرقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، فإن الذي يحمل الزاد قد يَفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا ، فذلك بمكن مع الزاد كا أنه بمكن مع فقده .

(المقام الثانى) أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ولكنه فى القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ، لكنه أيضا متوكل لآنه تارك للكسب والآسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الآسباب الخفية ، ولكنه بالقعود فى الأمصار متعرض لآسباب الرزق ، فإن ذاك من الآسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا خرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه و بضاعته ، فإن ذلك ربما يهلمكم الله تعالىجميعه في لحظة ، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميــــع ذلك رئيسير أسبابه له ، بل برى كسبه وبضاعته وكمايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع ، فلا يكون نظره إلى الغلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرّك؟ وإلى ماذا يميل؟ وبم يحكم؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع ؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته ، والدليل على أن الكسب لاينانى حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط والضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصدّيق رضي الله عنه لما بويمع بالخلافة أصبح آخذا الاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبؤة ؟ فقال : لاتشغلونى عن عيالى فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق في مقام التوكل ! فمن أولى بهذا المقام منه ؟ فدل على أنه كان متوكلا لاباعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكنساب ومدبر الاسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكنفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولايصح التوكل إلا مـع الزهد في الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد ـ وهوشيخ الجنيد رحمة الله عليهمًا وكان من المنوكلين : أخفيت التوكل عثرين سنة وما فارقت السوق : كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولاأبيت منه دانها ولاأستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لايتكلم في التوكل بحضرته وكان يقوّل: أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالحروج للطلب لم يصح معه التوكل إلاعلى ضعف ، ولكن يقوى بالحال رالعلم ، كتوكل المكتسب ؛ وإن لم يسألو ا بل قنعوا بمـا يحمل

إليهم فهذا أقوى فى توكلهم ، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق . ولايكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

ه فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد فى ببته ، أو يخرج و يكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر و ذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لاتستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه في علم اليب و يستشرف إلى الناس فالكسب أول ، لان استشراف القلب فالقمود له أولى ، وإن كان يضطرب قلبه فى البيت و يستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لان استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وماكان المتوكلون يأخذون ماتستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عماكان استأجره عليه ، فرده ، فلما ولى قال له أحمد : الحقه وأعطه فإنه يقبل ، فلحقه وأعطاه فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال : كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر الى عبد فى العطاء أوخاف اعتباد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب مارآه فى أسفاره : رأيت الحضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى إليه فيكون نقصا فى توكلى ، فإذن المكتسبإذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتباده على بضاعته وكفايته كان متركلا .

* فإن قلت : فا علامة عدم انكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرقت بضاعته أوخسرت تجارته أو تعرق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأ نينته ولم يضطرب قلبه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا ، فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البعادي كاتبه قال : بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل : تركها لما نوهت باسمه وقصد لاجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله ، كاكان لسفيان خمسون دينارا يتجرفها ، فلما مات عياله فرقها .

ه فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولايسكن إليها وهو يه لم أنّ الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أنّ الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأنّ الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أنّ الله لا يفعل به إلا مافيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لهساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يوت جوعا ، فينبغى أن يعتقد أنّ الموت جوعا خيرله فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البصاعة وعدمها ، فنى الخبر ، إنّ العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لمكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كثيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه : من سبقنى ؟ من فينظر الله تعالى إلى من أمور سبح عنيا أو فقيرا : فإنى دهانى ؟ وماهى إلا رحمة رحمه الله بها (١) ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا : فإنى

⁽١) حديث « لمن العبد ليهم من الديل بأمر من أمور التجارة بمسا لو فعله لسكان فيه هلاكه فينظر الله لمليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ... الحديث » أخرجه أبو تديم في الحلية من حديث ابن هباس بإسناد ضعيف جدا تحوه ، لا أنه قال « لمن العبد ليصرف على حاجة من حابات الدنيا ... الحديث » بنحوه .

لا أدرى أيهما خير لى ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لاحد بن أبى الحوارى: لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التركل المبارك فإنى ماشمست منه رائحة ، هدا كلامه مع علق قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته ، ولعسله أراد إدراك أفصاه ، وما لم يكل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغي وموت وحياة فهو خير له يما يتمناه العبد: لم يكمل حال التوكل ؛ فبناه التوكل على قوة الإيمان بهذه الامور -كاسبق - وكذا سائر مقامات الدين من الاقوال والاعمال تنبني على أصولها من الإيمان . وبالجلة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التكسب فقد طعن على التوحيد .

* فإن قلت: فهل من دوا. ينتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الاسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى فى تيسير الاسباب الحفية ؟ فأقول: فعم ، هو أن تعرف أنّ سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقينالله تعالى : قال الله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأسركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فإن الإنسان بطبعه مشغرف بسماع تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالمكلية ، بل رؤية الرزق من الاسباب الحفية أيضا تبطل التوكل ، فقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لمكان أفضل اك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال فى الرابعة : يهودى فى جوار المسجد تد ضمن لى كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا فى ضمانه فعدكوفك فى المسجد خير لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة للى صليتها خلفك ثم أجيبك .

وينفع حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الحفية : أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا ، كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم ، فقيل له : ما أعجب مارأيت منه ؟ فقال : بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : ياحذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو مارأي الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس ، فجئت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحم، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معني ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا بارى مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال : اخرج و لا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أوّل من يلقاك ، فحرجت فأول من لفيني كان رجلا على بغلة . فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال : هذا نصرانى ، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يجىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأفطع البصرى: جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا، لحدثانى نفسى بالحروج فرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها، فوجدت فى قلبى منها وحشة وكأن قائلا يقول لى: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بهاودخلت المسجدوقعدت، فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قطرة وقال : هذه لك، فقلت كيف خصصتنى بها ؟ قال: اعلم أناكنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق، فنذرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين، وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإدا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقات رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم، وقد قبلتها، ثم قلت فى نفسى ؛ رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى.

وقال ممشاد الدينورى ، كان على دين فاشتغل قلبي بسببه ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يُقول : يابخيل ، أخسذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الاخذ وعلينا المطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما .

وحكى عن بنان الحمال قال: كنت فى طريق مكة أجىء من مصر ومعىزاد؛ فجاءتنى امرأة وقالت لى : يابنان، أنت حمال نحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لايرزفك، قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل، فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى : أحمله حتى يجىء صاحبه فربما يعطينى شيئًا فأرده عليه، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يجىء صاحبه فآخذ منه شيئًا ١ ثم رمت لى شيئًا من الدراهم وقالت : أنفقها، فاكنفيت بها إلى قريب مكة .

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يجىء النفير فنشترى مايوافق ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها . بكم هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة .

وقيل: كان فى الزمان الآول رجل فى سفر ومعه قرص فقال: إن أكاته مت، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال: إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبتى الفرص عنده.

وقال أبو سعيد الحراز: دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فأقة ، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أني سكنت والمتكات على غيره وآليت أن لاأدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة واريت جسدي فيها إلى صدري ، فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا : يا أهـل المرحلة ، إن تله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه ، لجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية .

وروى أنّ رجلاً لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقائل يقول : ياهذا هاجرت إلى عمس أو إلى الله تعالى؟ اذهب فتملم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هوقد اعتزل واشتغل بالمبادة ، فجاءه عمر فقال له . إنى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عنى؟ فقال : إنى قرأت القرآن فاغناني

عن عمر وآل عمر ، فقال عمر . رحمك الله في الذي وجدت فيه ، فقال وجدت فيه ﴿ وَفَى السَّمَاءُ رَزَقَـكُمْ وَمَا توعدون ﴾ فقلت رزق فى السَّمَاءُ وأما أطلبه فى الآرض ، فبكى عمر وقال ، صدقت ، فـكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه ،

وقال أبو حمزة الخراسانى: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشى فى الطريق إذ وقعت فى بتر فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث ، فما استتممت هذا الحاطر حتى مربر أس البتر رجلان، فقال أحدهما اللآخر تعالى حتى نست رأس هذا البئر اثلا يقع فيه أحد ، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البتر ، فهممت أن أصبح فقلت فى نفسى : إلى من أصبيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساءة إذ أنا بشىء جاء وكشف عن رأس البتر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بى فى همهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلقت به فأخر جنى ، فإذا هو سبع ، فتر وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة أليس هذا أحسن ، نجيناك من التلف بالتلف ، فشيت وأبا أقول :

نهانى حياتى منك أن أكشف الهوى وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف الطفت فى أمرى فأبديت شاهدى إلى غائبى واللطف يدرك باللطف تراميت لى بالغيب حتى كأنما تبشرنى بالغيب أنك فى الكف أراك وبى من هيبتى لك وحشة فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف وتحيى عبا أنت فى الحب حتفه وذا بجب كون الحياه مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع بمـا يكثر ، وإذا قوى الإيمـان به والضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غيرضيق صدر ، وقوى الإيمـان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه : تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحمكه يفارق المنفرد ، لأنّ المنفرد لايصح توكاه إلا بأمربن (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جملتها : أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه ، علم الله وزقه الموت والجوع ، وهو إن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة ، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة ، وأنّ هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كمذا قضى وقدّر له ، فبهذا يتم التوكل للمنفرد ، ولا يجوز تمكيف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرّر عندهم الإيمان بالتوحيد وأنّ الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن انفق ذلك نادرا ، وكذاسائر أبواب الإيمان ، فإذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث ، كتوكل أني بركر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب ، فأما دخول البوادي ونرك الديال نوكلا في حقهم أو القمود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام ، وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم ، بل التعقيق أنه لافرق بينه وبين عياله، في حقهم ونفسه أيضاعيال عنده ، ولا يجوز له التوكل ، ولذلك روى أن المزاب النخشي نظر إلى صوفي مدّيده وينطرب عليه قابه و متشوش عليه عباد، لم يجز له التوكل ، ولذلك روى أنّ المزاب النخشي نظر إلى صوفي مدّيده وينطرب عليه قابه و متشوش عليه عباد، لم يحز له التوكل ، ولذلك روى أنّ المزاب النخشي نظر إلى صوفي مدّيده إلى قشر بطبخ ليا كله بمد الملائة أيام . فقال له ، لا يصلح لمك التصوف . . الزم السوق أي لا تصوف ما توكل .

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خسة أيام : أمَّا جاتع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب ، فإذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله ؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد : وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتباد على الصبر على الجوع مدّة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لاتخلو عن حشيش وما يجرى مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الآذي ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الإسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك ذلك من الاسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدّوا تلك أسبايا ، وذلك لضعف إيمــانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الآذى فى الدنيا لأجل الآخرة واستيلا. الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لابحاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب، فإن العاجز عن الاضطراب لم يحاوزه رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعمل رزقه من اللبن الذي لايحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدرّ له اللبن اللطيف في ثدى الام هند انفصاله على حسب حاجته ، أفكانهذا بحيلة الطفل أوبحيلة الام ! وإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجرنه بعد البلوغ جهل محض لانه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الآم أو الآب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل البلدكافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كانالمشفق عليه واحدا والآنالمشفق عليهألف وزيادة ، وقد كانوا لايشفقون عليه لانهم رأوه في كفالة الام والاب وهو مشفق خاص فما رأوه محناجا ، ولو رأوه يتيها لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه ، فما رؤى إلى الآن في سنى الخصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص، والله تعمالي كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلمادا ينبغي أن يشتغل قلمه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الام أقوى وأحظى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجمرعها مايفيد الغرض ، فـكم من يتيم قد يسر الله تعـالى له حالًا هو أحسن من حال من له أب وأم ! فينجبر ضعف شفقة الآحاد بَكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حست يقول:

جرى قلم القضاء بمـا يكون فسيان التحرّك والسكون جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين (٣٥ ــ لمياء علوم الدين ــ ٤) ه فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغقادر على الكسب فلايلتفتون[ليه ويقولون: هو مثلنا فليجتهد لنفسه ؟ فأقول: إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإنّ التوكل من مقامات الدين يستعان به على التفرّغ لله تعــالى ؛ فمــا للبطال والتوكل ؟ وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لايلومونه في ترك السكسب ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما رؤى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعسالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ولا برى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه ، فإن من كان لله تعـــالى كان الله عز وجل له ، ومناشتغل بالله عزوجل ألتي اللهحبه في قلوب الناس وسخر له القلوبكما سخر قلب الإم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت . فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الاسباب لا إلى الاسباب ، فعم مادبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلووالطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لامحالة ، وقد يقع ذلك أيضا في بمض الاحوال لكرن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعباده الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة ، والغالب أنه يصلأ كثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لابحصل بغير اصطراب، وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب و إنما يحصلنادرا، وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب: فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لايطمأن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لايحاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب؛ فإذا انكشفت هذه الامور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ماقاله الحسن البصري رحمهالة إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي ٬ وأن حبة بدينار . وقالوهيب بنالورد : لو كانت السهاء تحاسا والارض رصاصا واهتممت برزق لظننت أني مشرك ؛ فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أنّ التوكل مقيام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإباك أن تجمع بين الإفلاسين : الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمــان به علما ؛ فإذن عليك بالقناعة بالنزر القليــل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لامحالة وإن فررت منــه ، وعنــد ذلك على الله أن يبعث إليك رزةك على يدى من لاتحتسب، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قرله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتُقَ اللَّهُ يَجْمُلُ له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحـم الطير ولذائذ الاطعمة ؛ فمـا ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول الكل من اشتغل بالضامن واطمأنّ إلى ضهانه ؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الاسباب الحفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لاتحصى و بحاريه لايهتدى إليها، وذلك لأن ظهوره على الارض وسببه في السهاء . قال الله تعالى ﴿ وَفِي السَّهَاءُ رَزَّقَكُمْ وَمَا تُوعدُونَ ﴾ وأسرار السماء لايطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال : إن علمتم في أي موضع هو فاطابوه . قالوا : نسأل الله . قال : إن علمتم أنه بنساكم فذكروه ، فقالوا : ندخــل البيت ونتركل وننظر مايكون ، فقال : التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى

الحرّاز : كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتني أن أسأل الله صيراً ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيع من أتانا ويسألنا على الإقتار جهداً كأنا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أنّ من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمأن النفس أيداً واثفا بالله عزوجل؛ فإنَّ أسو أحماله أن يموت، ولابدأن يأتيه الموتكما يأتى من ليسمطمئنا فإذن تمــام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب، والذي ضمن رزق القانمين بهذه الاسباب الى دبرها صادق ، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بمــا يرد عليك من الارزاق العجيبة الني لم تـكن في ظنك وحسابك، ولاتـكن في توكلك منتظراً الاسباب بل لمسبب الاسباب ، كما لا نكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم ، والمحرِّكُ الآول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط وكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الامصار وهو خامل. وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعاممة وأحدة كيفكان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أصعافه ، فتركه التوكل وأهمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أةوى من دحول الامصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قسيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقسِم لان شرطهم القناعة والعالم القافع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لايأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن: فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الآخذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بمايعطيه أولى لانه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ، ومن نظر إلى مجارىسنة الله تعالى علم أنّ الرزق ليس على قدر الاسباب ، ولذلك سأل بعض الاكاسرة حكمًا عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحق لظن أنّ العقل رزق صاحبه : فلما رأوا خـلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال الشاعر:

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ملكن إذن من جهلهن البهائم

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالاسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الحلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبر وأمرهم أن يعطوا بعضهم وغيفين وغيفين وبعضهم وغيفا وغيتهدوا فى أن لايغفلوا عن واحد منهم ، وأس مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن بوصلوا اليكم طعامكم : فن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخد وغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لهقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإنى أختصه بخلعة سفية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن ثبت فى مكانه ولكنه اخدند وغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ، ومن أخطأه غلمانى فنا أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان

ولا قائلا ايته أوصل إلى رغيفا فإنى غدا أستوزره وأفوض ملكى إليه فانقسمالسؤال إلىأربمة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتو المل العقو بة الموعودة ؛ وقالوا : من اليوم إلى غد فرج ا ونحن الآن جائمون فبادروا إلى الغلمان فـآذوهموأخُذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فالميعادالمذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركو االتعلق بالغلمان خوفالعقوبةولكنأ خذوارغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة ومافازوا بالخلعة ، وقسم قالوا : إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لايخطئونا ولسكن تأخذ إذا أعطونا رغيفاواحداونقنعبه ؛ فلعلنانفوز بالخلعةففازوا بالخلعة؛وقسمرا بع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين العلمان وقالوا : إن اتبدونا وأعطونا قنعنا برغيف واحمد ، وإن أخطأونا قاسينا شدّة الجوع الليلة ، فلملنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عنــد الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذ اتبعهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا ، وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور أن اختق ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طولاالتفتيش ، فباتوا في جوع شديد، فقال اثنار منهم : ليتنا تعرَّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر، وسكتالثالث إلىالصباح فغال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميدان هو الحياة في الدنيا ، وباب الميــدان الموت ، والميعــاد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوحد بالشهادة المتوكل إذا مات جائما راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة · لأنّ الشهدا. أحيا. عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هوالمعتدىڧالاسباب ، والغلمان المسخرون هم الاسباب، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الامصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والاسباب تتبعهم والرزق بأتيهم إلا على سبيل الندور ، فإن مات واحد منهم جائما راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هــذه الاقسام الاربعة ، ولمل من كل مائة تعلق بالاسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الامصار متعرّضين للسبب بمجرّد حضورهم واشتهارهم ، وساح في البوادي اللائة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك في الاعصار السالفة ، وأما الآن فالتارك للاسباب لاينتهي إلى واحد منعشرة آلاف.

(الفن الثانى في التعرض لأسباب الادخار) فن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار الملائة أحوال (الاولى) أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فياكل إن كان جائما، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق المباقى في الحال ، ولا يأخذه ولا يذخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية. فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا (الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل: أن يدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلا ؛ وقد قيل. لا يدخر من الحيوانات إلائلائة: الفأرة، والنملة، وابنآدم (الحالة الثالثة) أن يدخر لاربعين يوما فما دونها، فهذا: هل يوجب حرمانه من المقام المحمرد المرعود في الآخرة للمتوكلين؟ المنتخر لاربعين يوما في فرج عن حد التوكل، وذهب الحواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج المتلف أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يريد على الأربعين أيل أبه يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الاربعين أيفنا، وهذا اختلاف لامدى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل، أحتلاف لامدى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلكالرتبة لها بداية فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلكالرتبة لها بداية

ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحب البيين ، ثم أصحاب البمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعالى درجات أصحاب العين تلاصق أســـافل درجات الســـابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا ؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم لا بقصر الامل ؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإنّ ذلك كالممتنع وجوده ؛ أما النباس فمتف وتون في طول الامل وقصره ، وأقل درجات الامل يوم وليلة فما دونه من الساعلت ، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لاحصر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من ثمهر أقرب إلى المقصود بمن يؤمل سنة ، وتقييده بأرب بن لاجل ميعاد موسى عليه السلام : بعيد ؛ فإنَّ تلك الواتعة ما قصد بها بيسان مقدار مارخص الأمل فيسه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لايتم إلا بعد أربعين بوما لسر جرت به وبأمثاله سنــة الله تعــالى في تدريج الامور ، كما قال عليه السلام . إنّ الله خر طينة آدم بيده أربعين صباحا ١١) ، لأنّ استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدّة مبلغها ماذكر ، فإذن ماوراء السنة لايذخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الاسباب، فهو خارج عن مقــام التوكل غير واثق بلمحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الاسباب، فإنّ أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تذكرر بتكرّر السنين غالباً ، ومن ادخر لافل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمسل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرئبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل، فالأفضل أن لايذخر أصلاً ، وإن ضعف قلمه فكليا قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقــد روى في الفقير ا الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه د إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية ، قلنا : وما هي يارسول الله ؟ قال . كان صوّاما قوّاما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتــاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء اشتائه ، ثم قال صلى الله تعالى عليه وــلم ، بلأفلماأوتيتم|ليقينوعزيمة الصبر "" ، الحديث ، وليس السكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدرام في معنى ذلك ، فإنّ ادخاره لاينقص الدرجة ، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لاينزعج قلبه بتركالادخارولاتستشرف نفسه إلى أيدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيسل الحق ، فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والهكر فالادخار له أولى ، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفزغ قلبه إلا به فذلك له أولى ، لان المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور مايشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيافيءينهاغيرمحذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهــل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التجار بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجـاتهم في انصراف تلوبهم عن الدنيا إلى الله تعــالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصوابالضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أنَّ صواب القوى ترك الادخار ،

⁽۱) حديث « شمر طينة آدم بيد. أرجين صباحاً » رواه أبو منصور الدياسي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وبعو باطل .

⁽٢) حديث : أنه قال في حق الفقير الذي أص عليا أو أسامة فنسله وكفنه ببردته : أنه يبث يوم الفيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر . . . الحديث . وفي آخره « من أفل ماأوتيتم اليقين وعزيمة العمبر » لم أجد له أصلا ، وتفدم آخر الحديث قبل هذا .

وهذا كله حكم المنفرد؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جـــــبرا لضعفهم وتسكينا لقلومهم ، وأدخار أكثر منذلك مبطلللتوكل ، لأنّ الاسباب تتكرّر عند تكرّرالسنين ؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوّة النوكل ، فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الاسباب الظاهرة . وقد ادخر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعيـاله قرت سنة (١) ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لغد ، (٢) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبر ادخرهاليفطر عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم . أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم . إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ (١) ، اقتداء بسيد المتركلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان تصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول . مايدريني لعلى لا أبلغه (٠) ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لو اخر لم ينقص ذلك من توكله إذكان لا يثق بمــا ادخره ، و لكنه عليه السلام ترك ذلك تعلما للاقوياء من أمته ، فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته ، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر : ﴿ إِنَّ الله تعمالي يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه (٦) ﴿ تطييبا لقاوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ، فسأ أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم عليه اختلاف أصنافهم ودرجاتهم ، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم , فتشوا ثوبه ، فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم , كيتان (١) . . وقد كان غيره من المسلمين بموت ويخالف أموالا ولا يقول ذلك في حقه ، وهـذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعــالى ﴿ تَكُوى بهما جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وذلك إذاكان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس (والثانى) أن لايكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه ، وذلك لا يكون عن تلبيس ، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص بقدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ الفلب عن المذخر ليس من ضرورته بطلان التوكل ، فيشهد له ماروى عن بشر . قال الحسين المغازلي من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار ، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال : وما رأيته قامٍ لاحد غيره ، قال : ودفع إلى كفا من دراهم وقال : اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب ، وما قال لى قط

⁽۱) حدیث : ادخر امیاله قوت سنة ، متفق علیه ، وتقدم فی الزکاة . (۲) حدیث : نهیی أم أیمن وغیرها أن تدخرشیئاً لغد : تقدم نهیه لأم أیمن وغیرها . (۳) حدیث : نهی بلالا عن الادخار وقال ه أتفق بلالاولاتخش من ذی العرش اقلالا ، رواه الجزار من حدیث ان هممود و أبی هریرة و بلال : دخل هلیه النبی سلی الله علیه وسدلم وعنده سبر من نمر ، فقال دفات ، وروی أبو یعل والطبرانی فی الأوسط حدیث أبی هریرة ، وکلها ضمیفة . وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبر ، فلم أره

⁽¹⁾ حديث قال لبلال « لمذا سئلت فلاتمنع ، ولذا أعطبت فلا تخبأ » رواء الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة .
(٥) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول « مايدربني لعلى لاأبلنه » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٦) حديث « إن الله يحب أن تؤتي رخمه ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني والسيرق من حديث أم عمر وقد تقدم . (٧) حديث أبي أمامة : توني بعن أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة لزاره ، فقال صلى الله عليه وسلم «كيتان » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

مثل ذلك ، قال : فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا وبتي منالطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ، فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : فعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

(الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرّض للخوف) اعلم أنّ الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا ؛ أما في النفس فـكالنوم في الارض المسبعة أو في بجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنسكسر ، فسكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة ، فعم تنقسم هذه الاسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة ، وإلى موهومة فتركالموهوم منهامن شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفّع الضرر نسبة الكي والرقية ؛ فإنّ الكي والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور الإزالة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة ، والم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع ، وكذلك كل مانى معناها من الاسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجاً لقرة الحرارة من الباطن ربمــا يـكون من قبيل التعمق في الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الـكي بخلاف الجبة ، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشني فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى ﴿ فَاتَّخَذَهُ وَكَيْلًا وَاصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ وقال تدالي ﴿ وَلَنْصَارَنَ عَلَى مَا أَ ذَيْتُمُونًا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتُوكُلُ الْمُتُوكُلُونَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودع أَذَاهُم وتُوكُلُ على الله ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبركما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وقال تعــالى ﴿ فعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وهذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحياتوالسباع والعقارب ، فترك نفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعانته على الدين ، وترتب الاسباب ههنا كرّ تبها في الكسب وجلب المنافع فلانطول بالإعادة ، وكذلك في الاسباب الدافعة عن المـال ، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعــالى إما قطما وإما ظنا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله . اعقلها وتوكل (١١) . وقال تعـالى ﴿ حَدُوا حَدْرَكُم ﴾ وقال فى كيفية صلاة الحوف ﴿ وَلِيأَحَدُوا أَسَلَحْتُهُم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قرّة ومن رباط الخيل ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ فأسر بعبادي ليلا ﴾ ` والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الاعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الاعداء دفعا للضرر (٢) ، وأخذ السلاح في الصلاة فليسدافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي النوكل تركه . ه فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الاسد يده على كتفه ولم يتحرّك . فأقول : وقد حكى عن

جماعة أنهم ركبوا الاسد وسخروه فلا يلبغي أن يغرّك ذلك المقام ؛ فإنه وإن كان صحيحًا في نفسه فلا يصلح للاقتداء

⁽١) حديث « اعتلها وتوكل » أخرجه الترمذي من حديث أنس ، قال يمبي النطان : منكر . ورواه ابن خزيمة في التوكل ، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جبد و قيدها . . (٢) حديث : اختني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفيا للضرر ، تقدم في قصة اختفائه في النار عند لمرادة الهجرة .

بطريق النعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيح فى الـكرامات وليس ذلك ثبرطا فى التوكل ، وفيه أسرار لا يقف علم علمها من لم ينته إليها .

* فإن قلت: وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ . فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو معك فى إهابك يسمى الغضب ، فلايزال يعضك ويعض غيرك ، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الاسد الذى هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخرا لك من كلب البوادى ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك ، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع فى استسخار الكلب الظاهر .

* فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدق وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأى اعتبار يكون متوكلا فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال ، فأما العلم فهوأن يعلم أن اللصإن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلابدفع الله تعـالى إياه ؛ فـكم من بأب يغلق و لاينفع ، وكم من بدير يمقلويموتأويفلت ، وكرمن آخذسلاحه يقتلأويغلب ؛ فلاتتكل علىهذه الأسبابأصلابل علىمسبب الاسباب ، كما ضربناالمثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر و أحضر السجل فلايتسكل على نفسه وسجله بل يتسكل على كفاية الوكيل و قوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضيا بمـا يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول: اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك ، فإني لا أدرى أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجمها ، أو عاربة ووديعة فتستردها ، ولا أدرى أنه رزق أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفها قضيت فأنا راضٌ به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الاسباب ، فلا ثقه إلا بك يامسبب الاسباب ؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمةجديدة من الله تعالى ، وإن لم يجده بلوجده مسروقاً نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أوفرحا بذلك عالمـا أنه ما أخذ الله تـــالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صع مقامه في التوكل وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ووجد قرق الصبر فقد بان له أنه ماكان صادقاً في دعوى التوكل؛ لأنَّ التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد إلا بمن لايتأسف على مافات من الدنيا ولا يفرح بمـا يأتى ، بل يـكون على العكس منه ، فكيف يصح له التركل ؟ فعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فيالطاب والتجسس ، وإن لم يقدر على ذلك حتى أذى بقلبه وأظهر الشكوي بلسانه واستقصى الطلب ببدنه ، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى ؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لايصدّق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها ؛ فإنها خدّاعة أمارة بالسوء مدعية للخير .

ه فإن قلت: هكيف يكون المتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول: المتوكل لايخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإماء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدق وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت، وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده، وإنما ذلك فى

المـأكول وفى كل مال زائد على قدرالضربرة ؛ لأنّ سنة الله جاربة بوصول الحير إلى الفقراء المتوكلين فى زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة فى كل يوم ولافى كل أسبوع، والحروج عن سنةالله عز وجل ليس شرطا فى التوكل، ولذلك كان الحقواص يأخذ فى السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الواد، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الامرين.

« فإن قلت : فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ مناعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لايشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإنكان أمسكه لانه يشتهيه لحاجته آليه فكيف لايتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين مايشتهيه ؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذكان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ، ولو لا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه ،فاستدل على ذلك بتيسير الله عزوجل وحسن الظنّ بالله تعمالي مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلي بَفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر ؛ فلمــا أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به ،فيقول: لولا أنَّالله عز وجل علم أنَّ الحنيرة كانت لى في وجودها إلى الآن والحنيرةلي الآن في عدمها لمـا أخذها مني ، فبمثلهــذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن ، إذبه يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ،بل من حيث إنه يسرها مسبب الاسباب عناية وتلطفا ، وهو كالمريض بين يدى الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أنَّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لمـا قرَّبه إلى ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أنَّ الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه ، وكمل من لا يعتقد لطف الله تعمالي ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلاً . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب ، فإنه لا يدرى أي الاسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ؛ فإني لا أدرى أيهما خير لي ؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لايسرق فإمه لايدري أبهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان 1 وكم من غني يبتلي بوافعة لأجل غناه يقول ياليتي كنت فقيرا ا

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب فى متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصى فى أسباب الحفظ كالنماسك من الجيران الحفظ مع الغلق ، و مجمعه أغلاقا كثيرة ؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول : لو لا السكلاب ما شددته أيضا (الثانى) أن لا يترك فى البيت متاعا يحرّض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك الما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال : خذها لا حاجة لى إليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس إلى العدق أن اللص يأخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق : ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليان : هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهدنى الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما يضطر إلى تركه فى البيت ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذه السارق فهو منه فى حل أو فى سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (إحداهما) أن يسكون فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (إحداهما) أن يسكون

ماله مانعا من المعصية ، فإنه ربحا يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقدزال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل (والثانية) أن لايظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوى دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح المسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم و المصرأخاك ظالما أو مظلوما (۱) ، ونصر الظالم ؛ أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه إعدام الظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه النية لاتضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الآزلى . ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعائة درهم الآنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الآجر أيضا ، كاروى عن رسول الله صلى الله تعلله وان لم يولد له من ذلك الجاع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (۱) ، لانه ليس أمر الولد إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه ، فلو خلق لـكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل ، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل ، وإن قبسله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، الان الملك الايرول بمجرد تلك النية ، ولكنه في سبيل الله عز وجل ، وإن قبسله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، الان الملك الايرول بمجرد تلك النية ، ولكنه في سبيل الله عز وجل ، وإن قبسله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، الان الملك الايرول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير عبوب عند المتركاين .

وقد روى أنّ ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال . فى سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركمتين لجاء، رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنّ ناقتك فى مكان كذا فلبس لعله وقام ، ثم قال : استغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها 1 فقال : إنى كنت قلت فى سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى وأدخلنى الجنة وعرض على منازلى فيها فرأيتها ، قال: وهو مع ذلك كثيب حزين ! فقات: قد غفر لك و دخلت الجنة وأنت حزين ! فتنفس الصعداء ثم قال: فعم إنى لاأزال حزينا إلى يوم القيامة. قلت: ولم ؟ قال إنى لمما رأيت منازلى فى الجنة رفعت لى مقامات فى عليين ما رأيت مثلها فيها رأيت ، ففر حت بها ، فلما هممت بدخولها نادى منادى من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هى لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لى كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل الامضينا لك .

وحكى عن بعض العباد بمسكة أنه كان نائمنا إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له ، فحمله من البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان من ما معه ، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب ، فأبي وقال خذه حلالا طيبا ، فماكنت لاعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنه وجعل يصره صررا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء .

فهكذا كانت أخلاق السلف ، وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر ، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات

⁽۱) حديث « الصر أخاك ظالمـا أو مظاوما » متفق عليه من حذيث ألس ، وقد تقدم . (۲) حديث « من ترك المزل وأثر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجد له أصلا .

أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالآخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات ، وبطل زهده ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فيها أصيب به ؛ فنى الحبر ، من دعا على ظالمه فقد انتصر (۱) . . وحكى أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائمًا يصلى ، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه ، فجاءه قوم يعزونه فقال : أما إنى قد كنت رأيته وهو يخله : قيل : ومامنعك أن تزجره ؟ قال : كنت فيها هو أحب إلى من ذلك _ يعنى الصلاة _ فجعلوا يدعون عاليه فقال : لاتفعلوا وقولوا خيرا فإنى قد جعائها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شىء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ! قال : ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل : أرأيت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولاأنظر إليه لانى كنت قد أحللته له .

وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ماظلمنى أحد ، ثم قال : إنما ظلم نفسه ، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال : لانغرق فى شتمه ، فإنّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .

وفى الخبر ، إنّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يمكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى الظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم (٢٠) ، (السادس) أن يغتم لاجل السارق وعصيانه وتعرّضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصافى دينه ، فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين .

وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن ، فقال : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لاوالله و لـكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولاتكون له حجة ،

وقيل لبعظهم : ادع على من ظلمك ، فقال : إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه ، فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

(الفن الرابع : في السعى في إزالة الضرر كداواة المرض وأمثاله) اعلم أنّ الاسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبر المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الاسباب الظاهرة في الطب ، وإلى موهوم كالمكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين ، وأقواها المكي ، وبايه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتهاد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الاسباب وأما المدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله في بعض الاحرال وفي بعض الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يمكون أفضل من فعله في بعض الاحرال وفي بعض الاشخاص فهي على درجة بين الدرجةين ، ويدل على أنّ التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه الاشخاص فهي على درجة بين الدرجةين ، ويدل على أنّ التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه

 ⁽١) حديث « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » تقدم . (٣) حديث « لمن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حق يكون بمقدار ماظلمه ثم يبق للظالم عليه مطالبة ٠٠٠ الحديث » تقدم ،

وسلم وقوله وأمره به ؛ أما فوله فقد قال صلى الله عليه وسلم ، مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام (۱) ، يعنى المرت . وقال عليه السلام ، تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء (۲) ، . وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال : ، هي من قدر الله (۱) ، وفي الحبر المشهور ، مامررت بملا من الملائكة إلا قالوا مرامتك بالحجامة (۱) ، وفي الحديث أنه أمر بها وقال ، احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لايتبيغ بكم الدم فيقتلكم (۱) ، فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لافرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع ، من احتجم ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع ، من احتجم من الشهر كان له دواء من داء سنة (۱) ، وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية (۱) ، وقال لمن هذا ، يعنى الرطب ، وكل من هذا فإنه أوفق لك (۱۱) ، وقال لملى رضى الله تعالى عنه وكان رمد الدين ، لا أكل من هذا ، يعنى الرطب ، وكل من هذا فإنه أوفق لك (۱۱) ، يعنى سلمةا قد طبخ بدقيق شعير ، وقال لصهيب وقد رآه يأكل التر وهو وجم الدين ، تأكل تمرأوأنت أرمد ، فقال : سلمةا قد طبخ بدقيق شعير ، وقال لصهيب وقد رآه يأكل التر وهو وجم الدين ، تأكل تمرأوأنت أرمد ، فقال : المنا المكى . ، وأن آكل من الجانب الآخر ، كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (۱۲) قيل : السنا المكى .

⁽۱) حدیث « مامن داء الا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام » رواه أحمدواله ابرانی من حدیث ابن ه ، و دون قوله « الا السام » و هو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله « عرفه . . ، الى آخر » و السناده حسن » و القرمذى و صححه من حدیث أسامة بن شریك « الا الهرم » و الطبرانی فی الأوسط و البزار من حدیث أبی سسعید الخدرى و الطبرانی فی السكبیر من حدیث ابن عباس و سندها ضعیف ، و البخارى من حدیث أبی هریرة « ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء » و السلم من حدیث أسامة « اسكل داء دواء » . (۲) حدیث « تداووا عباد الله . . » رواه الترمذى و صححه » و ابن ماجه و اللفظ له من حدیث أسامة ابن شریك . (۳) حدیث : سئل عن الدواء و الرق هل یرد من قدر الله فقال « هی من قدر الله . . . » أخرجه الترمذى و ابن ماجه من حدیث أبی خزامه ، و و الله عن أبی خزامه عن أبی خزامه عن أبی خزامه عن أبی خزامه من حدیث الله من حدیث الله من حدیث أبی من الدواء و الترمذى من حدیث ابن مسعود و قال حسن غریب ، و رواه ابن ماجه من حدیث أس بسند ضعیف . (ه) حدیث « احتجموا لسبع عمرة و تسع عمرة و لحدی و عدر بن . . الحدیث » آخر جه البزار من حدیث أبی بسند ضعیف . . (ه) حدیث « و وقعه الترمذی با فظ د ان خیر ما محتجمون فیه سبع عمرة . . الحدیث » دون ذكر التبیخ ، و قال الزار : ان طریقه المتقدمه أحسن من هذا الطریق ، و لابن ماجه من حدیث ألس بسند ضعیف . . و الما الزار : ان طریقه المتقدمة أحسن من هذا الطریق ، و لابن ماجه من حدیث ألس بسند می مدیث أراد الحجامة فایت حدیث المحبر ، و قال الزار : ان طریقه المتقدمة أحسن من هذا الطریق ، و لابن ماجه من حدیث ألس بسند همر . . الحدیث » .

⁽٣) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عصرة من المصهر كان له دواء من داءسنة » رواه العلبراني من حديث معقل بن يسار ، وابن حبان في الضعفاء من حديث ألس واسنادها واحد اختلف على راويه في الصحابي ، وكلاما فيه زين العمى وهو ضيف . . . (٧) حديث أمهه بالمتداوى المبير واحد من الصحابة . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حبن سألوه « تداووا ... الحديث » وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده . . (٨) حديث: قطع عرقا لسعد ابن هعاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : رمى سعد في أكله غسمه النبي صلى الله عليه وسلم ببده بمشقص . . ، الحديث . (٩) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة ، رواه العلبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ، ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . . (١٠) حديث قال امل وكان رمدا « لاتأكل من هذا . ، . الحديث » رواه أبو داود والترمذي وقال : حدن غريب ، وابن ماجه من حديث أم المنذر . . (١١) حديث قال لصهيب وقدرآه يأكل المحروه و وجم العبن « تأكل تمرا وأنت رمد . . الحديث » تقدم في آفات اللسان . . (١١) حديث من طريق أهل البيت أمكان يكهدلكل لبلة وعميم عل شهر ويصرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدى من حديث عائشة وقال : إنه منسكر ، وفيه سيف بن محمد كذبه أحد بن حنبل ويميي بن معين .

وتداوی صلی الله علیه وسلم غیر مرة من العقرب وغیرها (۱۱ ، وروی أنه كان إذا نزل علیه الوحی صدع رأسه فكان یغلفه بالحناء (۱۲ ، وفی خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل علیها حناء ، وقد جعل علی قرحة خرجت به قرابا (۱۳) ، وما روی فی تداویه وأمره بذلك كثیر خارج عن الحصر ، وقد صنف فی ذلك كتاب وسمی طب النبی صلی الله علیه وسلم . و ذكر بعض العلماء فی الإسرائیلیات ، أن موسی علیه السلام اعتل بعلة فدخل علیه بنو إسرائیل فعر فوا علته ؛ فقالوا له : لو تداویت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتداوی حتی یعافینی هو من غیردوا ، فطالت علته فقالوا له : إن دوا مده العلة معروف مجرب ، وإنا نتداوی به فنبرا ، فقال : لا أتداوی ، وأقامت علته ، فأو حی الله تعالی إلیه : وعزتی و جلالی لا ابرأتك حتی تتداوی بما ذكروه لك ، فقال لهم : داوونی بما ذكرتم ، فداووه فبرا ، فأوجس فی نفسه من ذلك ، فأو حی الله تعالی إلیه : أردت أن تبطل حكتی بتوكلك علی من أو دع العقافیر منافع الاشیاء غیری ؟ .

وروى فى خبر آخر أنّ نبيا من الانبياء عليهم السلام شكاعلة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض.وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن فإن فيهما القوّة ، قيل هو الضعف عن الجماع .

وقد روى أنّ قوما شكوا إلى نبيهم قبيح أولادهم ، فأوحى الله تعلى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفر جل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقدكانوا يطعمون الحبلى السفر جل، والنفساء الرطب .

فهذا تبين أن مسبب الاسباب أجرى سنته بربط المسببات بالاسباب إظهاراً للحكة ، والادوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب ، فسكما أن الحبز دواء الجوع والمساء دواء العطش فالسكتجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين (أحدها) أن معالجة الجوع والعطش بالمساء والحبز جلى واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الحواص ، فن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالاول (والثانى) أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب فى المزاج ربمها يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربمها يفقت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال ، وأماز والعطش فلا يستدعى سوى المساء شروطاكثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب المعلم فلا يستدعى سوى المساء أبدا ينحصر فى هذين الشيئين ، وإلا فالمسبب بتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بته بير مسبب الاسباب وتسخيره ، وترتيبه بحكم حكمته وكال قدرته ، فلا يضر المتوكل استعاله مع النظر إلى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء ؛ فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : منى الداء والدواء ؟ فقال أرزاقهم ويطيبون نفوس يارب ، بمن الداء والدواء ؟ فقال تعالى : منى . قال : فما يصنع الاطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس يارب ، بمن الداء والدواء ؟ فقال تعالى : منى . قال : فما يصنع الاطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس

⁽۱) حديث أنه تداوى غير ممة من المقرب وغيرها ، رواءالطبرانى بإسناد حسن من حديث جبة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فدعى عليه فرقاه اناس ... الحديث ، وله فى الأوسط من رواية سسعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن ألس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتسكى تقمع كفا من شدونيز ويشرب عليه ماه وعسلا ، ولأبي يهل والعابرانى فى السكبير من حديث عبد الله بن جمفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم ، وفيه جابر الجمنى ضفه الجمهور ،

⁽۲) حديث : كان لذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فينالمه بالحناء ، أخرجه البزار وابن عدى فى السكامل من حديث أبي هريرة ، وقد اختلف فى لمسناده على الأحوس بن حكم : كان لذا خرجت به قرحة جعل عليها حناه ، رواه الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذى : غريب . (٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة : كان لذا استسكى الإلسان الهىء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ، ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابته بالأرش ثم رفعها وقال « يسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا » .

عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى ؛ فإذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال ، كما سبق فى فنونالأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه .

والحجامة وشرب المسهل وستى المبردات للمحرور . وأما الكى فلوكان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة والمجامة وشرب المسهل وستى المبردات للمحرور . وأما الكى فلوكان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الاتراك والاعراب ؛ فهذا من الاسباب الموهرمة كالرقى ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احراق النار فى الحال مع الاستغناء عنه فإنه مامن وجع يمالج بالكى إلا وله دواء يغى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية معالاستغناء عنه ، مخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يستمسدها غيرها ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى (١) . وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروى أن عران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع ، فلم يزالوا به وعزم عليه الاس حتى اكتوى ، فكان يقول . كنت أرى نوراً وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة ، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى ، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأناب الكرمني الله بها قد ردها الله تعالى على ! بعد أن كان أخبره بفقدها ؛ فإذن الكى وما يحرى بحراه هو الذى كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى على ! بعد أن كان أخبره بفقدها ؛ فإذن الكى وما يحرى بحراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لايناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لاينحصرون ، ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر ، فربما يظن أنّ ذلك نقصان ، لأنه لوكان كالا لتركه رسول الله صلى الله عليمه وسلم ، إذ لايكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله .

وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال : إنى فعال لمسا أريد . وقيل لابى الدرداء فى مرضه : ماتشتكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهسى ؟ قال : مغفرة ربى قالوا ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى

وقيل لابنذر وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ؟ قال : إنى عنهما مشغول ؛ فقيل : لوسأ لت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال : أسأله فيما هو أهم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له لو تداويت ؟ فقال : قد هممت ثمم ذكرتعادا وثمود وأصحابالرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطباء ، فهلك المداوى والمدواى ، ولم تغن الرق شيئا .

وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواءوغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله .

⁽۱) حدیث : نهی رسول الله صلی الله علیه و سلم عن السکی دون الرق ، رواه البخاری من حدیث ابن عباس « وأنهی أمتی عن السکی » وفی الصحیحین من حدیث عائمة : رخس رسول الله صلی الله علیه و سلم فی الرقیة من کل ذی حمة .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله و ينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضحوجه الجمعبين فعلرسولالله صلىالله عليهوسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن لترك التداوى أسباباً (السبب الآول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لاينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث : إنما هنّ أختاك ، وإنما كان لهما أخت واحدة ولسكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليـه وســلم تداوى وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله ، وعليه يدلكلام ألدذرً إذ قال : إنَّ عنهما مشغول . وكلامألىالدرداء إذ قال : إنميا أشتكي ذنوبي ، فكان تألم قلبيه خوفًا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هيذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع ، فلايكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعاً من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحي القيوم ، فقيل : إنمـا سألناك عن القوام؟ فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء؟ قال: الغذاء هو الذكر. قيل: سألناك عن طعمة الجسد؟ قال: مالك وللجسد. دع من تولاه أولا يتولاه آخرا: إذا دخل عليـه علة فرده إلى صافعـه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانِّمها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تـكون العلة منهنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النف, جار بحرى الـكي والرقية ، فيتركه المتوكل، وإليه يشير قول الربيعبن خشم إذ قال : ذكرت عاداً وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى . أي أن الدواء غير موثوق به ، وهذاً قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عنــد المريض كذلك لقلة بمــارســته للطب وقلة تجربتــه له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك في أنَّ الطبيب المجرِّب أشدُّ اعتقادًا في الآدوية من غيره ، فتكون الثقةوالظنَّ بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد ، هذا مستندهم لأنه يـتى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح في بمضالادوية عندمن عرف صناعة الطب ، غير صحيح في البعض ، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الـكل نظرا واحداً ، فيرى التداوى تعمقاً في الاسباب كالـكي والرق ، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعمالي ، أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلي العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدّد عليه البلاء . وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) ، وفي الحبر . إنّ الله تعالى يجرّب عبده بالبلاء كما يجرّب أحدكم ذهبه بالنار

⁽١) حديث ه نحى معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل .. الحديث ، رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبنى وقاس وقال : صحيح على شرط الشبخين .

فنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يزبد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا ١١١ ، وفي حديث من طريق أهل البيت . إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم . تحبون أن تكونوا كالحر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون (٣) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه ، تجد المؤمن أصح شيء قلبا وأمرضه جسما ، وتجدالمنافق أصح شيء جسما وأمرضه قلما ، فلم عظم الثناء علىالمرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها و لا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضي بحكم الله تعالى ويعلم أنّ الحق أغاب على قلبه من أن يشغله المرضّ عنه ، وإنمسا يمنع المرض جوارحه ، وعلموا أنّ صلاتهم قعودا مثلًا مع الصبر علىقضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة، فني الخبر , إن الله تعالى يقول لملائكته : اكنبوا لعبدى صالح ماكان يعمله فإنه في وثاقي إن أطاقته أبدلته لحماخيرا من لحه ودما خيرا من دمه ، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي (١٤) ، وقال صلى الله عليمه وسلم . أفضل الإعمال ما أكرهت عليه النفوس (٠) ، فقيل : معناه مادخل عليه من الامراض والمصائب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أَنْ تَكُرُهُوا شَيْئًا وَهُو خَيْرُ لَـكُمْ ﴾ وكان سهل يقول : ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفَرائض أفضل من التداوى لاجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها ، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوّة والصلاة قائمًا ،وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ، ومن لم يدخل في شيء فهو أفصل ، لأنه إن أخذ شيئًا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه؟و من لم يأخذ فلاسؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصر بين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأنّ ذرّة من أعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلاإذا كان ألمه غالبًا مدهشًا . وقال سهل رحمه الله علل الاجسام رحمة الله وعلل القلوب عقوبة .

السبب الحامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم . لا تزال الحي والمليلة بالعبد حتى يمشى على الارض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة ١٦ ، وفي الحبر . حمى يوم كفارة سنة (١) ، فقيل بالعبد حتى يمشى على الإنسان المثانة وستون مفصلا فتدخل الحمى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل

⁽¹⁾ حديث « لمن الله تسالى مجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحسدكم ذهبه ٠٠٠ الحديث » رواه العلبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : لن الله لمذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث ، ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده في مسنده ، وللعلبرانى من حديث أبى عنبة « لذ أراد الله بعبد خيرا ابتلاه ، ولذا ابتلاه افتناه لايترك له مالا ولا ولدا » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تحبون أن تسكونوا كالحر الضالة لا يحرمنون ولاتسقيون » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأحاد والمثاني ، وأبو لديم وابن عبد الله فى الصحابة ، والبيهتى فى الشمب من حديث أبى فاطمة ، وهو صدر حديث ه لمن الرجل تسكون له المزلة عند الله ... الحديث ، وقد تقدم . (٤) حديث « لمن الله يقول للملائكة: اكتبوا لهبدى صاح ماكان يممل فإنه فى وثاق ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » تقدم ولم أجده مرافوعا .

⁽٦) حديث « لاتزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة ، أخرجه أبو إملى وابن هدى من حديث أبى الدرداء نحوه وقال « الصداع » بدل « الحمى » وللطبرانى فى الأوسط من حديث ألى الدرداء تحوه وقال « الصداع » بدل « الحمى » وللطبرانى فى الأوسط من حديث ألى « مثل المريض لذا صبح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السهاء تقع فى صفائها ولونها » وأسالبده ضعيفة . (٧) حديث السي يوم كفارة سنة » رواد القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

الم كفارة يوم. ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الدنوب بالحيى به سأل زيد بن أبت ربه عز وجل أن لايزال عموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لاتزايلهم (۱) ولما قال صلى الله عليه وسلم ، من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة (۲) ، قال فلقد كان من الانصار من يتمنى العمى ، وقال عيسى عليه السلام ، لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه ، وروى أنّ موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال : يارب ارحمه فقال : كيف أرحمه فيما به أرحمه ـ أى به أكفر ذنو به _ وازيد فى درجاته .

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدّة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفله والبطر والطغيان، أو طول الآمل والتسويف في تدارك الفائت و تأخير الخيرات، فإنّ الصحة عبارة عن قرّة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصى، وأقلها أن تدعو إلى التنعم في المباحات، وهو تصنيع الآوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبه بالآمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أوقلة أو زلة. وقد روى وأن الله تعالى يقول: الفقر سجني والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلق ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصى ، فقد قال بعض العارفين لإنسان: كيف كنت بعدى؟ قال: في عافية ، قال: إن كنت لم تعصى الله عور وجل فأنت في عافية و إن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية؟ ماعوفى من عصى الله وقال على كرم الله عز وجل فأنت في عافية و إن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية؟ ماعوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد : ماهذا الذي أظهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد غهو لنا عيد .

وقال تعالى ﴿ من بعد ماأراكم ماتحبون ﴾ قيل العوافى ﴿ إِن الإِنسان ليطفى أن رآه استغنى ﴾ وكذلك إذا استغنى بالعافية ، لأنه لبث أربعائة سنة لم يصدع استغنى بالعافية ، قال بمضهم : إنما قال فرعون : أما ربكم الأعلى لطول العافية ، لأنه لبث أربعائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ـ لعنه الله ـ ولو أخدته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم ، أكثروا من ذكر هاذم اللذات (٢) ، وقيل : الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف .

وقال تعالى ﴿ أُولا يرون أَنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرّتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون ﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بهما . ويقمال : إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت : ياغافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجعب .

(٣) حدیث و أكثروا ذكر هاذم اللذات ، أخرجه الترمذي وقال : حسن فریب ، والنسائي و ابن ماجه من حدیث أبی هریرة وقد تقدم .

⁽١) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالجمى سأل زيد بن ثابت أن لا بزال محوما ... الحديث ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله : أرأيت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال « كفارات » قال أبى : وأن قات ؟ قال « فإن شوكه فا فوقها » قال : فدعا أبى أن لايفارقه الوعك حتى بموت ... الحديث ، والطبراني في الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال : بارسول الله ، ماجزاه الحمى ؟ قال : تعمرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب هليه عرق ، فقال : اللهم لمني أسالك حمى لا يمني خروج في سبيك ولاخروجا لمل بيتك ولا لمسجد نبيك . . . الحديث ، والإسناد بجهول ، قاله على بن المدين . (٢) حديث « من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجزة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فاقد كان في الأنصار من بتمني العمى .

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال. وقالوا: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يرقع روعة أو يصاب ببلية حتى روى أنّ عمار بن ياسر تزقج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عرض عليه امرأة لحكى من وصفها حتى هم أن يتزقجها ، فقيل وإنها مامرضت قط ، فقال لاحاجة لى فيها (١) ﴾ . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ماأعرفه ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم ، إليك عنى •ن أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (١) ، لأنه ورد في الخبر « الحمى حظ كل مؤمن من النار (١) ، .

وفى حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقــال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٤) ، وفى لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحزنه ، ولا شك فىأنذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها إذ رأوا الانفسهم مزيدا فيها لامن حث رأوا التداوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ؟ .

بيان الرد على من قال : ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء؟ فيقال : ينبغى أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عندتببغ الدم .

فإن قيل : إنّ ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدع الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإنقال : وذلك أيضاشر طالتوكل ؟ فيقال : يلمبغى أن لا يزبل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الاسباب سبحانه و تعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون ، فإنهم لم قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الحبر أن به مو تا عظيما و وباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لاندخل على الوباء فنلق بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائمة أخرى : بل ندخل ونتوكل ولا نهر بمن قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كن قال الله تعالى فيهم ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون فى رأيه : أنفر من قدر الله تعالى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لاحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة : والآخرى بجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن عائما حفاله أصبحوا جاء واعا بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبدالر حمن بن عوف ليسأله عن رأيه _ وكان غائما _ فلما أصبحوا جاء

⁽۱) : حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وسفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : فإنها ما مرضت قط ، فقال « لاحاجة لى فيها » أخرجه أحمد من حديث أنس بنجوه بإسناد جيد . (۲) حديث : ذكر رسول الله سلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ، ما أعرفه ؟ فقال « لايك عنى ، . الحديث » رواه أبو داود من حديث عام، البرام أخى الحضر بنجوه ، وفي لمسناده من لم يسم . (٣) حديث « الحمي حظ كل مؤمن من النار » رواه البزار من حديث عائشة ، وأحمد من حديث أبى أمامة والطبراني في الأوسط من حديث أنس ، وأبو متصور الديلي في مسند الفردوس من حديث أن مسود ، وحديث أنس ضعيف وبانيها حسان . (١) حديث أنس وعائشة : قبل يارسول الله ، حمل يمكون من المسهداء يوم الفياعة غيرهم ؟ فقال « لمم من ذكر الموت كل يوم عصرين ممرة » لم أنف له على لمسناد .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه ياأمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه (١) ، ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمدالله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟ .

ه فإن قلت : فـلم نهى عن الخروج من البـلد الذي فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك النوكل في أمثال هذا مباح ، وهذا لايدل علىالمقصود ، ولكن الذي ينقــدح فيه ــ والعلم عنــد الله تعالى ــ أن الهواء لا يضر من حيث إنه يُلاقى ظــاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الاحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلايظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن ، فالخروج من البلد لايخلص غالبًا من الآثر الذي استحكم من قبل ، ولكن يتوهما لخلاص فيصير هذامن جنس الموهومات كالرق والطيرة وغيرهما ، ولوتجرّ دهذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه ، ولكن صار منهيا عنه لأنه الضاف إليه أمر آخر وهو أنه لورخص الأصحاء في الحروج لمابق في البلد إلا المرضى الذين أفعدهم الطاعون فانكسرت قلومهم وفقدو االمتعهدين ، ولم يـ ق فى البلدمن يسقيهم الماءو يطعمهم الطعام وهم يعجرونءن ماشر تهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيا في إهلاكهم تحقيقا ، وخلاصهم منتظر كاأن خلاص الاصحاء منتظر ؛ فلو أفاموا الم تسكن الإفامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعابالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتـكى منه عضو تداعى إليّه سائر أعضـائه . فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لولم يبق بالبلد إلا مطعونون وأفتقروا إلى المتعهدين وقدمُ عليهم قوم فربمــاكانُ ينقدح استحباب الدخول مهنا لأجل الإعانه ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعضِ الاخبار بالفرار من الزحف ٢١) لأنّ فيه كسرًا لقلوب بقية المسلمين وسعيا في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الاخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه ، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنمـا شرف العلم وفضيلته لآجل ذلك .

فإن قلت: فني ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل؟ فنقول: فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليسكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الادوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرق، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع؛ فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى، وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلكان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذكان حاله يقتضى أن تكون

 ⁽١) حديث عبد الرجن بن عوف « لذا سمم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ... الحديث » وفي أوله قصة خروج عمر والناس لما الجامية وأنه بانهم أن بالشام وباء ... الحديث ، رواه الدخارى . (٢) حديث تشبيه الفرارمن الطاعون بالفار من الزحف: رواه أحمد من حديث ما لشمة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضميف ، وقد تقدم .

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدما ، فإنه لم يصكن له نظر فى الاحوال إلا إلى مسبب الاسباب ، ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كا أنّ الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له ولن كانت كالا فهى أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب المحل من الحرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده ، وكان لا يمسكه لتعليم الحلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرّه الدينيا وقد عرضت عليه خزان الارض فأنى أن يقبلها (۱) فكذلك يستوى عنده مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعبال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لامته فيها تمس إليه حاجتهم مع أنه لاضرر فيه بخلاف ادخار الاموال فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه ، والمؤمن فى غالب الامن لا يقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تمالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا و لا الحبر مشبعا ، فحكم التداوى فى مقصوده كنكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستمانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بلمض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في الموكل إلا ترك المومرات كالكي والرق فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتبان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لآن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتبانه أسلم عن الآفات .

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأوّل: أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى. فقدكان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه، وكان أحمدبن حنبل يخبر بأمراض بجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فى .

الثانى: أن يصف لغير الطبيب وكان بمن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدّث به كايتحدّث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ،

الثالث: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعمالى ، وذلك يحسن بمن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قبل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت؟ قال : بشر" ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسالم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه

⁽١) حديث : أنه هرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ، ولفظه : عرضت عليه مفاتيح خزائن السهاء وكأوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم . لقد سألت الله تعـالى البلاء فسل الله العافية (١) . .

فهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعمالي حرام ـكا ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ـ ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم والمكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربمـا يوهم الشكاية ، ولأنه ربمـا يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجودمن العلة ، ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء ، وقد قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل فى مدنى قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ لاشكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السّلام : ماالذي أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الآحزان 1 فأوحى الله تعالى إليه . تفرّغت لشكواي إلى عبادي ، فقال : يارب أتوب إليك : وروى عن طاوس وبجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنينه في مرضه ، وكانوا ا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكرى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه ، فجعل الآنين حظه منه .

وفى الخبر ، إذا مرض العبد أوحى الله تعمالي إلى الملكين الظرا ما يقول لعوّاده فإن حمد الله وأثني بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون (٢) , وإنماكره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في المكلام ، فمكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتهي أن أمرض بلا عوّاد ، وقال : لا أكره العلة إلا لاجل العواد . رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى : كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا . والله سنحانه وتعالى الموفق .

كتاب المحمة والشوق والآنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

لينيك للفالعَز العَيْنَ

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته ، وصفى أسراهم من ملاحظة غير حضرته ، ثمم استخلصها للمسكوف على بساط عزته ، ثمم تجلى لهم بأسمائه وصفانه حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم

⁽١) حديث : مراض على فسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : الهم صبرتى على البلاء ، فقال د ألفد سألت الله البلاء فسل الله العافية » تقدم مع اختلاف . ﴿ ٢) حديث ﴿ لَمَا مَنْ السِّد أُوسَى اللَّه لمل الملسكين انظرا ما يقول لمواده ... الحديث » تقدم .

كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته، فكما اهترت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش مااغبر فى وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى فى بحر معرفته ، ومحترقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأثمته ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً ،

أما بعد: فان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك الحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والآنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل الحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدّماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القاوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لامعنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فحال إلا مع الجنس والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الآنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الاس .

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لامستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، ثم بيان السبب في قصور الآفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى المعبد ، ثم القول في علامات محبة الله تعالى ، ثم بيان معنى الآنس ، ثم القول في علامات محبة الدبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الآنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الآنس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان خقيقته ، ثم بيان أنّ الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصى، ثم بيان حكايات وكمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أنّ الآمة بحمدة على أنّ الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بدّ وأن يتقدّم الحب ثم بعد ذلك بطبيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى (والذين آمنوا أشد حبالله) وهو دليل على إثبات الحب لا إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلى : يارسول الله ما الإيمان ؟ قال و أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما (١) ، وفي حديث آخر و لا يؤمن أحد كم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما (١) ، وفي حديث آخر و لا يؤمن أحب إليه من أهله وماله والناس أجمع بين (١) ، وفي رواية و ومن

⁽۱) حدیث أبی رزین المفیل : أنه قال پارسول الله ما الإیمان ؟ قال « أن یکون الله ورسوله أحب الیك مما سواها » معنی علیه من أخرجه أحمد بزیادة في أوله . (۲) حدیث « لایؤمن أحدكم حتی یکون الله ورسوله أحب الیه مما سواها » معنی علیه من حدیث أنس بلفظ ، لایجد أحد حلاوة الإیمان حتی أكون أحب الیه من أهله وماله » وذكره بزیادة . (۳) حدیث « لایؤمن المبد حتی أكون أحب الیه من أهله وماله والماس أجمین » وفي روایة « ومن نفسه » متفق علیه من حدیث أنس ، والانظلسلم م هون قوله « ومن نفسه » متفق علیه من حدیث أنس ، والانظلسلم م هون قوله « ومن نفسه » فقال البخارى « من والده وولده » وله من حدیث عبد الله بن هشام : قال عمر یارسول الله لأنت أحب الله من كل شیء الا نفسى » فقال « لاوالذى نفسى بیده حتی أكون أحب الیك من نفسك » فقال « الآن یاعمر » ،

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال ، أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياى (۱) ، ويروى أنّ رجلا قال : يارسول الله إنى أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم «استعد للفقر ، فقال إنى أحب الله تعالى ، فقال استعد للبلاء (۲) ، وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، انظر والله هذا الرجل الذي نؤر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون (۲) ، •

وفي الخبر المشهور . إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبايكره لقاء حبيبه ؟ فقال ياملك الموت الآن فاقبض (١) ، وهــذا لايحده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء الزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه واللهم ارزقى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد (۱۰) و وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله متى الساعة ؟ قال وما أعددت لها وفقال: ما أعددت لهما كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والمر مع من أحب (۱۱) وقال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن: من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنياز هد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الدارانى: إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفرقد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحو لا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحو لا وتغييراً كان وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلب فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يحد البرد . وعن سرى السقطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فأينهم ينادون يا أولياء الله هدوا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

⁽١) حديث و أحبوا الله لما ينذوكم به من اممه ، الحديث . أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حدن غريب .

⁽٢) حديث لمن رجلا قال يارسول الله لمنى أحبك ، فغال « استعد للفقر ... الحديث » أخرجه الترمذى منحديث عبد الله بن منفل بلفظ « فأعد للفقر تجفافا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : لظر النبي صلى القعليه وسلم لملى مصعب بن عمير مقبلا وعليه لمعاب كبش قد تنطق به ... الحديث ، أخرجه أبو تعيم في الحلية بإسناد حسن .

⁽٤) حديث : أن أبراهم قال لملك الموت أذ جاء أيتبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ... الحديث ، أم أجد له أميلا .

⁽ه) حدیث « اقهم ارزنی حبك وحب من محبك . . . الحدیث » تقدم . (٦) حدیث قال أعرابی بارسول الله می الساعة ؟ قال « ماأعددت لها . . الحدیث » متفق علیه من حدیث أنس ومن حدیث أبی موسی وابن مسعود بنجوه .

موقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهى تحسره فى الدنيا وترقحه فى الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذبوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده يلسى مادونه فكيف لطفه ؟ وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب فبحق عليك كن لى عباً . وقال يحيى بن معاذ : إلمى عباً . وقال يحيى بن معاذ : إلمى عباً . وقال يحيى بن معاذ : إلمى المقيم بفنائك مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتنى إليك وسربلتنى بمعرفتك وأمكنتنى من لطفك ونقلتنى فى الآحوال وفليتنى فى الأعال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقينى من حياضك وتهمانى فى رياضك ملازما لام ك ومشغوفا بقولك، ولما طر شار بى ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لانى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد فى حب الله تعالى من الآخبار والآثار مالا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض في تحقيق معناه فالمشتغل به .

بيان حقيقة الحبة وأسبامها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أنّ المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبسة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسسابها ، ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى :

فأول ماينبغى أن يتحقق ؛ أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا مايدرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جمادبل هو من خاصية الحى المدرك . ثم المدركات في انقسامها تقسم إلى ما يو افق طبع المدرك و يلائمه ويلذه ، وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى مالايؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل مافي إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف فهو محبوب عند المدرك ، ومافي إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذن كل لديد محبوب عندا الملتذبه ، ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه ، ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لابد من معرفته والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لابد من معرفته فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولحل واحد منها لذة في بعض المدركات ، ولطبع بسبب تاك اللذة ميل فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولحل واحد منها لذة في بعض المدركات ، وللطبع بسبب تاك اللذة ميل المستلذة ، ولذة الأذن في النغات الطبع المطبع الميامة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة الذي في الطبع ، ولذة اللمس في الماين والنعومة .

ولماكانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة ، أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعل قرّة عينى فى الصلاة (١١) ، فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ؛ بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهن إلا للبصر واللمس دون

⁽۱) حديث «حبب لملى من دنياكم ثلاث : الطيب ٬ والنساء ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخس ، بل حس سادس مظنته القلب لايدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخس _ حتى يفال إن الله تعمل لايدرك بالحواس ولا يتمثل فى الحنيال فلا يحب _ فإذن قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز بهمن الحس السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالفلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهيهات ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشت إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السلم والدقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى مانى إدراكه لذة _ كا سيأتى تفصيله _ فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا .

(الاصل الثالث) أنّ الإنسان لا يخنى أنه يحب نفسه ولا يخنى أنه قد يحب غيره لاجل نفسه ، وهل يتصوّر أن يحب الإنسان غيره يندا له لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته لا لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته الداته مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته ، والحق أنّ ذلك متصوّر وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأفسامها ، وبيانه أن المحبوب الاول عند كل حى : نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، وفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأى شيء أثم ملاءمة من نفسه ودرام وجوده وأى شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل ، لا لمجرّد ما يخافه بعد المرت ولا لمجرّد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غيرثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهالذلك ، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة ، ومهما كان مبتلى بلاء فحبو به زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم مقوت بيلاء فحبوب وكان الناقص فاقد الكال ، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه ، والهلاك والعدم مقوت في الصفات ، وكال الوجود كانه عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه ، والهلاك والعدم مقوت في الصفات ، وكال الوجود كانه مقوت في أمل الذات ووجود صفات السكال محبوب ، كا أن دوام أصل الوجود محبوب ، وهذه غريزة في الطباع محكم سنة الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تعدلى (ولن تجد لسنة الله تعدلى (ولن تجد لسنة الله تعدلى (ولن تجد لسنة الله تعديل) .

فإذن المحبوب الآول الإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضاءه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه . فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لآن كال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمسال محبوب لآنه أيضا آلة في دوام الوجود وكاله بها ، وكاله وكذا سائر الاسباب . فالإنسان يحب هذه الاشياء لا لاعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكاله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لاجله لآنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لمسا عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا فيم لو خير بين قنله وقتل ولده - وكان طبعه باقيا على اعتداله - آثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ، وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكال نفسه فإنه يرى نفسه كثيرا بهم قو با بسبهم متجملا بكالهم ، فإن العشيرة والمال والاسباب الحارجة كالجناح المكل نفسه فإنه يرى نفسه كثيرا بهم قو با بسبهم متجملا بكالهم ، فإن العشيرة والمال والاسباب الحارجة كالجناح المكل للإنسان ، وكال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذن المحبوب الاول عند كل حى ذاته وكال ذاته ودوام الدين - ،

ذلك كله ، والمكروه عنده ضدّ ذلك فهذا هو أوّل الاسباب .

السبب الثانى: الإحسان، فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل لفاجر على يدا فيحبه قلى (١) ، إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرارا لايستطاع دفعه، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الآجنى الذى لاقرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الآول، فإن المحسن من أمد بلك والمعونة وسائر الاسباب الموصلة إلى دوام الوجوده وهي عين الكال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب يكون سببا في دوام صحة الاعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب يجوب لالذائه بل لانه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب للانها من المحبوب لذاته والدنانير محبوب المدلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوب المراب عبوب والدنانير عبوبة المناقب من أحب الطعام . فإذن يرجم الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجم إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا با أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لوزال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الريادة والنقصان محسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينسال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيق البالغ الذي يو ثق مدوامه ، وذلك كب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عندمدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل تضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والحضرة والماء الجارى محبوب لاليشرب الماء وتؤكل الحضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الحضرة والماء الجارى ٢٠ والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الاسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراك عن لذة ، ولا أحد يشكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فإن ثابت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله جميل بحب الجمال ٢٠٠٠ .

(الامل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال؛ اعلم أن المحبوس في مضيق الحيالات والمحسوسات ربمها يظن أنه الامعنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك بمه الوصف من جمال شخص الإنسان، فإنّ الحسن الاغلب على الحلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم

⁽۱) حديث « الهم لاتجمل لسكافر على بدا فيحبه قاي » رواه أبو منصور الديامي في مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع ، وقد تقدم . (۲) حديث : كان يسجبه الخضرة والحساء الجارى ... أخرجه أبو لعبم في العلب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي ملى الله عليه وسلم كان يجب أن ينظر الى الحضرة والى الماء الجارى ، وإسناده ضعيف . (٣) حديث « إن الله جبل يحب الجمال » رواه مسلم في أنناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الاشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا ملة نا مقدر فلا يتصوّر حسنه م يكن في إدراكه لذة فلم يكن بحروبا. وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الحاقة وامتزاج البياض بالحرة. فإنا نقولهذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الاشياء إن لم يمكن الحسن إلا في الصورة ؟ ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والآذن تستلذ استماع النخات الحسنة الطيبة. وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الاشياء ؟ فلا بد من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء فلا بد من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء فلا بد من المحسن خاله اللائق به الممكن له ، فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وإن كان الحين بعضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ماحضر ، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ماحضر ، فالفرس الحسن كل ماجمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن عدو و تيسر كر وفر عليه ، والخط الحسن كل ماجمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف الذي يليق به . فلا يحسن الانسان بمايحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصرت ، ولا تحسن الأوانى عليق به . فلا يحسن الانسان بمايحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصرت ، ولا تحسن الأوانى

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لاتنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؟ فاعلم أنّ الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنمــا الاخلاق الجميلة يراد بها العــلم والعقل والعفة والشجاعةوالتكوى والكرم والمروءة وسائر خلالالخير ، وشيء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخسبل يدرك بنور البصيرة البـاطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأنَّ الامركذلك أنَّ الطباع بحبولة على حبَّ الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حبِّ الصحابة رضى الله تعمالي عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى أنَّ الرجل قد يجاوز به حبيه لصاحب مذهب حيَّد العشق فيحمله ذلك على أن تنفق جميع ماله في نصرة مذهب والذب عنيه ويخساطر بروحه في قتسال من يطعن في إمامه ومتبوعه . فيكم من دم أريق في نصرة أرباب المـذاهب ، وليت شعرى من يحب الشافعي مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته البـاطنة لالصورته الظـاهرة ، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مـع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العــلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهــاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم ، وهذه أمور جميلة لايدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها . وكذلك من يحب أبا بكر الصدّيقُ رضي الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره . فِعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضي الله تعمالي عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وش.كله إذكل ذلك زال وتبدّل وانعدم ، ولكن بق ماكان الصدّيق به صديقا وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة ، فحكان

الحب بافيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم-قائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير بتشعب على هذينالوصفين ، وهماغيرمدركين بالحس، ومحلهما من جملة البدن جرَّم لايتجرأ فهو المحبوب بالحقيقة . وليس للجرَّم الذي لايتجرأ صورة وشـكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبر با لأجله فإذن الجمال موجود فى السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهي الآخلاق الحميدة والفضائلاالشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصي الخلي وطبعه إذ أردنا أن نحبب إليه غائبًا أو حاضرًا حيًّا أو ميتًا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والـكرم والعلم وسائرالخصال الحيدة . فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه و لم يقدر أن لايحبه ، فهل غلب الصحابة رضي الله تعــــالى عنهم . وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لاتدرك بالحواس ؟ بل لمــا وصف الناس حاتمــا بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وايس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى الحبين لبعد المزار ونأى الديار . فإذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى الحجب، لأن كل جمال و حسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة و باطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنه ؛ فن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولايلتذبها ولايحبها ولا يميل لمليها ، ومنكانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة ، فشتان بينمن يحب نقشامصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الحامس : المناسبة الحفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لابسبب جمال أوحظ والكن بمجرّد تناسب الارواح كما قال صلىالله عليه وسلم ، فما تمار فر منها ائتلف وماتناكر منها اختلف (١) ، وقدحققنا ذلك فى كتاب آداب الصحية عندذ كرالحب فالله فليطلب منه لانه أيضامن عجائب أسباب الحب فإذن ترجي أقسام الحبالي خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه . وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على قائه ودفع المهلسكات عنه . وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس و إن لم يكن محسنا إليه . وحبه لسكل ما هو جميل في ذاته ؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد تضاءف الحب لا محالة ، كما لوكان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الحلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالدكان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتـكون نوّة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قرّة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أفصى درجات السكال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات . فلقبين الآن أن هذه الاسباب كلها لايتصوّر كالهــا واجتهاعها إلا في حق الله تعــالى فلا يستحق الحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعمالي .

بيان أن المستحق للمحية هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعـالي ، وحب الرسول

⁽١) حديث « فما تمارف منها التلف » أخرجه مسلم من خديث أبي هريرة ، وقد تقدم في آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تدالى ، وكذلك حب العلماء والاتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب المحبوب محبوب ، وكلذلك يرجع إلى حب الاصل فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الاسباب الحنسة التي ذكرناها ، ونهين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى عملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى عملتها والمعالم عن ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو بجاز محض لا حقيقة له ، ومهما ثبت ذلك المكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حبالله تعالى تحقيقا ، وبان أن التحقيق مقتصى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى .

فأما السبب الاوّل : وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصوّر أن ينفك عنها ، وهذا يقنّضي غاية المحبة لله تعالى فإن منعرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنمـا وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخترع الموجد له وهو المبتى له وهو المسكمل لوجوده بخلق صفات السكمال وخلق الاسباب الموصلة إليه ذوخلق الهداية إلى استعال الاسباب ، وإلافالعبد من حيثذاته لاوجود لهمن ذاته ، بلهو محق وعدم صرف لولا فضلالله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالنُّـكيل لخلفته . وبالجلة فايس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به . فإن أحب العارف ذاته ووجود ذانه مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوّما لغيره ، فإن كان لايحبه فهو لجمله بنفسه وبربه ، والحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بالعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرفالدنيا زهد فيها . وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولايحب ربه الذي به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلي بحرّ الشمس لماكان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بهـا قوام الظل، وكل مافي الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإنَّ الـكلُّ من آثار قدرته ، ووجود الـكلُّ تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظلُّ تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيـح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أنّ النور أثر السَّمس وفائض منها وموجود بهاً، وهو خطأمحض إدا انكشف لارباب القلوب انكشافا أظهر منمشاهدة الابصارأن النور حاصل من قدرةالله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفه ،كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتهـا أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، واكمن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق . فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ، إن عرف ذلك كذلك، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر فظره على شهراته ومحسوسانه ، وهوعالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التنعم بهوالاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم ،

وأما السبب الثاني : وهو حبه من أحسن عليه فراساه بمـاله ولاطفه بـكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته

وقمع أعداءه وقام بدفع شر الاشرار عنهوانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده . وهذا بعينه يقتضي أن لايحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنّ الحسن إلىــه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها إذ ايس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعمالي ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نَعْمَةُ اللَّهُ لَا تَحْصُوهَا ﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه في كتتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أنَّ الإحسان من الناس غير متصوَّر إلا بالمجاز ، وإنما الحسن هو إلله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيهاكيف تشاء فإنك تظن أنّ هذا الإحسان منه ، وهو غلط فإنه إنمـا تم . إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المـال إليك ، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألق فى نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورًا مضطرًا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بهـا إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرارا مجرى المها. في جريان المهاء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الام ، فإنه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لانه لا يبذل ماله إلا لغرض له البذل إما آجل وهو الثراب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قاوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أنَّ الإنسان لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصــل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المــال ، وقد استسخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لمـا نول عن ماله لاجلك أصلا ألبتة . فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين .

(أحدهما) أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار بجرى خازن الأمير فإنه لايرى محسنا بتسليم خلعة الآمير إلى من خلع عليه ، لآنه من جهة الآمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على بخالفته ، ولو خلاه الآمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألق في نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك ، (والشائى) أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب بما بذله ، فكما لايعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عبنده بما بذله ، فكما لايعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عبنده بما بذله ، فكما لا الموض أن يكون عينا متدولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الآموال والآعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل ، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فإنه يتمالى عن الآغراض فلفظ الجبود والإحسان فى حق غيره كذب والطول والامتنان ، فان كان فى الطبع حب الحسن فينبغى أن لايجب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان والطول والامتنان ، فان كان فى الطبع حب الحسن فينبغى أن لايجب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان والطول والامتنان ، فان كان فى الطبع حب الحسن فينبغى أن لايجب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان

من غـيره محال فهو المستحق لهـذه المحبـة وحده ، وأما غـيره فيستحق المحبـة على الإنسان بشرط الجهـل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن فى نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه وهد أيضا موجود فى الطباع . فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الارض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد فى قلبك تفر قة بينهما إذ تجد فى القلب ميلا إلى الاول وهو الحب ، ونفرة عن التانى وهو البغض، مع أنك آيس من خير الاول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما : فهذا حب الحسن من حيث إنه محسن فقط لامن حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعلى بل يقتضى أن لايحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق ؛ أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكيلهم بالاعضاء والاسباب التي هى فى مظان حاجاتهم بالمزايا والزوائد التي هى فى مظان حي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضرورى منالاً عضاء: الرأس والقلب والكبد، ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل. ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولاضرورة.

ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الإنسان . الماء والغذاء .ومثال الحاجة : الدواء واللحموالفواكه ومثال المزايا والزوائد : خضرة الاشجار وحسن أشكال الأنوار والازهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التي لاتنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الاقسام الثلاثة موجردة لكل حيوان بل لكل نبات بللكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذن هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهده العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال لالحظ ينال من وراء إدراك الجمال: فقد بينا أن ذلك بحبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبائم، والثاني يختص بدركة أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لايعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهدة حب الانبياء والعلماء وذوى الممكارم السنية والاخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الاعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لايدرك. فعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القاب عليه مال القلب إليه فأحبه، فن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبم إلا لحسن ماظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الافعال إذ الافعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلماكان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل ، وكذا المقدور كاماكان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك ما يقار به ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فإذن جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثانى) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخدير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يحب الانبياء والعلماء والحلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى .

أما العلم: فأين علم الأقراين والآخرين من عسلم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الحلق كلهم فقال عز وجل ﴿ وماأ و تيم من العلم الا قليلا ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسياء على أن يحيطوا بعلمه وحكته في تفصيل خلق نهلة أو بموضة لم يطلموا على عشر عشير ذلك ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ والقدر اليسير الذي علمه الحلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في نفسه ونينة وكالا للمرصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة الى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الاجهل ويترك الاعلم وإن كان الاجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم الحلائق وأجهلهم ، لأن الاعلم لا يفضل الاجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الحلائن كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الحلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهى أيضاكال والعجز نقص ، فكل كال وبهاء وعظمة وبحد واستيلاء فإنه عبوب وإدراكه لذيذ ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاء ها على الأقران فيصادف في قابه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرّد لذة السباع فصلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به وإنه نوع كال ، فانسب الآن قدرة الخلق كانهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الاشخاص قرة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهر هم للشهوات وأقمهم لخبائث النفس وأجمعهم القدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره حمد مامنتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لابملك لنفسه مونا ولاحياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفما ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها على ذرة منها و وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ما هو قادر عليه من نفسه وغيره على المنها و حيواناتها و جيما أجزائها ، فلاقدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه و غيره من الحيوانات لاهاكم ، فليس للعبد على أبه والمكن له من ذلك . ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقرى شخص من الحيوانات لاهاكم ، فليس للعبد

قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إنا مكنا له فى الأرض) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وما عليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولافتور فى اختراعها ، فلاقدرة ولاقادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكال قدرته فلا يستحق الحب بكال القدرة سواه أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والنقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والآنبياء والصديقون وإن كانوا منزمين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك والقدّوس ذى الجلال والإكرام

وأماكل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بلكونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطراهو عين العيب والنقص فالسكال لله وحده وليس الخيره كال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المفدور أن ينعم بمنتهى السكال على غيره فإن منتهى السكال أقل درجانه أن لايكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالسكال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم المسكا شفات فلا نطق بذكره . فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكال غيره و تنزه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ماهو أشد منه نقصانا ، كا أنّ للفرس كالا بالإضافة إلى الماس . وأصل النقص شامل للسكل و إنما يتفاوتون فى درجات النقصان .

فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لاند له ، الفرد الذي لاضد له ، الصمد الذي لامنازع له ، الغني الذي لاحاجة له ، القادر الذي يفعل مايشاء ، ويحكم ما يريد لاراد لحسكه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض ، القاهر الذي لايخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطئمه رقاب القياصرة ، الازلى الذي لاأول لوجوده ، الابدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لايحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والارض ، عالق الجاد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، والمتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكبال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه ، كافال سيد الانبياء معرفة الدارفين الاعتراف بالمجز عن معرفته ومنتهى نبقة الانبياء الإفرار بالقصور عن وصفه ، كافال سيد الانبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمين ولا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك (۱۱) ، وقال سيد الصديقين رضى طلوات الله عليه وعليهم أجمين ولا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك (۱۱) ، وقال سيد الصديقين رضى فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله بجازا ؟ أيذكر أن هذه الاوصاف من أوصاف الجال فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله بجازا ؟ أيذكر أن هذه الاوصاف من أوصاف الجال

⁽١) حديث « الأحمى الله عايك أنت كما أثنيت على نفسك ، تقدم .

والمحامد ونعوت السكال والمحاسن أن ينكركون الله تعسالى موصوفا بها أو ينكر كون السكال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله و جلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهونوفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ؛ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لآن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعسالي إلى داود عليه السلام: إنّ أود الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن أيعطى الربوبية حقها . وفي الزبور: من أظلم بمن عبدنى لجنة أونار لولم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع . ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قبد نحلوا فقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم : إنى لاستحى أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وفي الخبر «لايكونن أحدكم كالاجير السوء إن لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وفي الخبر «لايكونن أحدكم كالاجير السوء إن لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، و.

وأما السبب الحامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لآن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل. ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غيرنوعه، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الآخبار والآثار كما استقصيناه في باب الآخرة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فلمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفياحتي لايطلع عليه كاترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه الذي صلى الله عليه وسلم إذ قال والأرواح جنود بجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف، فالتعارف هو التناسب، والنناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة في الصوروالاشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لايجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطربق إذا استكلوا شرط السلوك.

فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عزوجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله والبر والإحسان حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات النى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان والمطف وإفاضة الحير والرحمة على الحلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريمة . فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لابمعنى طلب القرب بالمسكان بل بالصفات .

وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الحاصة التى اختص بها الآدى فهى التى يوى اليها قوله تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حدّ عقول الحاق . وأوضح من ذلك قوله تعالى (فإذا سرّيته ونفخت فيه من روحى) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى (إنا جعلناك خليفة فى الارض) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمن قوله صلى الله

⁽١) حديث • لايكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ، لم أجد له أصلا .

عليه وآله وسلم ، إنّ الله خلق آدم على صورته (١) ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام ، مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده (١) ، وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى ، لا يزال يتقرّب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت معه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به (١) ، وهذا موضع بجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين بهاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لمم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الانجاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون . ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لا زلت أنزل من ودادك منزلا تتحيير الالباب عنـد نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبتى أصوله حتى تشققت قدماه وتو رّمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا . فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لاني أدناها ، فيكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق البصائر حب الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور أن يحب غير لمساركه إياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب وغض من كاله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يو جد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والدكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك أمكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق - إذاً لاصل المحبة - وادكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه السكريم وأنه لايتصور أن لايؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولسكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأس من الامور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت التشنى والانتقام فلا جرم لنتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت التحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستهاع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى فر شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطئة وقد تسمى

⁽۱) حدیث « إن الله خلق آدم علی صورته » تقدم . (۲) حدیثقوله تمالی و مرسنت فلم تمدنی ، نقال : وکیف ذاك! قال : مرس فلان . . . الحدیث » تقدم . (۳) حدیث قوله تمالی « لایزال یتقرب العبد إلی بالنوافل حتی أحبه . . . الحدیث » أخرجه البخاری من حدیث أبی هریرة وقد تقدم .

نور الإيمـان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأساى فإنّ الإصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظنّ أن الاختلاف واقع في المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التي ليست متخيلة ولا محسوسة ، كإدراكه خلق العالم أوافتقاره إلىخالق قديم مدبرحكم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقلُ بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلَّا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم ، وهذه الغريزة خلقت ليملم بها حقائق الآموركالها فقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها . كما أن مقتضى سائر الغرائر هو لذتها ﴿ وليس يخنى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن المذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به ، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّى بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة . فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لايطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفّات الربوبية وهي منتهي الـكمال ، ولذلك يرتاح الطبيع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الحلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعمالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاء طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أوحائك ، فإن اطلع على أسرار الوزبر وتدبيره وماهو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ منعلمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ وحبه له أكثر لان الدته فيه أعظم . فهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ماهو الآجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعرى هل في الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الآشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والبكال والجال والهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصغب الواصفين؟ فإن كنت لاتشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الامور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها ؟ وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالهــا وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أنّ العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعمالي وبصفائه وأفعاله وتدبيره في مملكته ــ من منتهي عرشه إلى تخوم الارضين ــ فيذبغي أن يعلم أنّ لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهواتوالغضب ولذة سائرالحواس الخس ، فإنّ اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذةالمعرفة للذةالرياسة . وهي مختلفة بالضعف والقوّة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال . وإنمــا تعرف أقوى

اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطر بج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أنّ لذة الغلبة في البسطر بج أقوى عنده من لذة الأكل . فيعلم به أنّ لذة الغلبة في البسطر بج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيا صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للانف ولا الأذن ولا للس ولا للذوق ، والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الـكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة الفوت أياما كثيرة : فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من الطعو مات الطيبة. فعم النافص الذي لم تـكل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذي ما تت قوا ه الباطنة كالمعتو ه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أنّ لذة الرياسة والكرامه أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصباو العته فلذة معرفة الله تعسالي ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الحلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿ فلا تعلم نفس ما أخنى لهم من قرّة أعين ﴾ وأنه أعدّ لهم مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وهذا الآن لايعرفه إلا من ذاق اللذتين جميما ، فإنه لامحالة يؤثر التبتل والتفرّد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات النيلا يتصوّر الحلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لابدّ من إتيانه مهما أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام بملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات متسعة المتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث النقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض برتع في رياضها ويقطف من ثمارهـا ويـكرع من حياضهاوهو آمن منانقطاعها ، إذ ثمـار هذه الجنة غيرمقطوعة ولا بمنوعة ، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعــالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنمــا الموت يغير أحوالهــا ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمهافلا . ﴿ وَلَا تَحْسَبُنَ الَّذِينَ قَتَلُوا فَي سَبَيْلُ اللَّهِ أَمُوانًا بِلَ أَحْيَاءً عَنْدُ رَبِّهُم يُرزقُونَ فَرَحَيْنَ بَمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مَن فَضَّلُهُ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية . ولا تظنن أنَّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإنالعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الحبر , إنّ الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلىالدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يرام من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لمـا يرونه من علو درجة العلماء (١١ ».

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالبة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والارض . وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم

⁽۱) حديث « ان الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة إلى الدنيا ليفتل مرة أخرى ... الحديث » متفق عليه من حديث ألس وقد تقدم ، وليس فيه « وان الشهداء يتمنون أن يسكونوا غاماء ... الحديث»

وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله و المكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نالرتبه المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له لان القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللهب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لانه فقد الصفة التي بها تدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبتى إلا أن يقال هذه اللذة ، ولمكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبتى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقدا ستخشقوا رائحة هذه اللذة معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره ، وهذا بما لايدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر يفيك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الاشاء وأنه لا لذة في قها .

ولهذا قال أبو سليمان الدارانى: إن قه عبادا ليس يشغلهم عن اقه خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخى له ؛ أخبرنى يا أبا محفوظ أى شىء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الحاق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شىء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتي مشغوفا بطلب الرب تسالى فقد ألها هذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فمل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدى الله تعملى يأكلان ويشربان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتي في الآكل والشرب فأعطانى النظر إليه . وعن على بنالموفق قال : رأيت في النوم كأنى ادخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على ما مدة و ملكان عن يمينه وشماله يلقانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا ، قال : ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص بيصره ينظر إلى الله تمالى لايطرف ، فقات لرضوان : من هذا؟ قال : معروف في سرادق العرش رجلا قد شخوا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الكزي عبد الله لا خوفا من ناره ولا حبا لجنته فا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : بنغسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : بنغسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته حبا له وشوقاليه وقالت في مدن الحبة نظا :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لانك أهل لذاكا فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لمــا هو أهل له : الحب لجاله وجلاله الذي انكشف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى . أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر (١) ، وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلى أثقل من الجبال لآن النداء يكون من وراء حجاب ؛ وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة ؛ أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أوكفرا . فمقصد العارفين كأهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ماأخني لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلبمستغرقا بنعيمها ، فلو ألقي فىالنار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لسكال نعيمه وبلوغة الغاية التي ليس فوقهاً غاية ، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعـالى وماله صورة ولا شكل؟ وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المفرقة بالشهوات المخةلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت لقلسى أهواء مفررقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي فصار بحسدتي من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي تركت للنباس دنيــــاهم ودينهــــم شـــــفلا بذكرك يا دينى ودنيــائى

ولذلك قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الآكل والشرب والنـكاح ، فإنّ الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق فى لذتهم ما نذكره : وهو أن الصبى فى أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثيباب وركوب . الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتسكائر ، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى﴿ اعلموا أنمــا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينـكم وتـكاثر ﴾ الآية . ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدُّرك بها لذة معرفة الله تمالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الآخير ، إذ يظهر حب اللعب في سنّ التمييز ، وحب النساء والزينة في سنّ البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا وكما أن الصي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة ؛ فكذلكالرؤساء يضحكون على من يترك الرّياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ﴾ .

⁽١) حديث قال صلى اقة عايه وسلم حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت . . . الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال ؛ كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى مالا يدخل في الخيال ، كذات الله تعملى وكل ما ليس بحسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولمكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقمة بينهما ، ولا ترجع التفرقية إلى اختلاف بين الصورتين لآن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أثم المكشافا ووضوحا ، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء ؛ فإنه لا تفسارق إحدى الحالتين الآخرى إلا في مزيد الانكشاف . فإذن الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكال لإدراك الخيالوهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لآنه غاية الكشف لا لآنه في العين ، بل لوخلقالله هذا الإدراك السمى رؤية .

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضا في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداهما) أولى (والثانية) استكال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرقى ، فيسمى الثاني أيضا بالإضافة إلى الأول ، هماهدة ولقاء ورؤية . وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غايه الكشف ، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويحرف حجابا بين البصر والمرقى ، ولا بدّ من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تمالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غاب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لاتنتهى إلى المساهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الحيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الابصار . والقول في سبب كونها حجابا يطول و لا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام (لن تراني) وقال تعالى (لاندركه الابصار) أى في الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١١ . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فنها ما تراكم عليه الحبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التركية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، فيقها وأقصاها في حق المؤمنين ـ كما وردت به الاخبار ـ سبعة المؤف سنة (٣)

⁽۱) حديث: أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيم ، هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ، فني الصحيحين : أنها قالت من حديث أبي ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فال « نوراني أراء » وذهب ابن عباس وأكثر العلماء الى انبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد : مازلت له مسكرا ، وقال ابن خرعة : في القلب من صحمة اسناده شيء ، من أن في رواية الأحمد في حديث أبي ذر ه رأيته نورا ابي أراه » ورجال اسنادها رجال الصحيح . (٢) حديث أبي هريرة « انجال المسكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة » أخرجه النرمذي الحسكم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة « انجال الشفاعة يوم القيامة لمن عمل السكبائر من أمتى ٠٠٠ الحديث » وفيه « وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم الفيامة وذلك سبعة آلاف سنة » واسناده ضعيف .

هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما ، وإن قلت ، ولذلك قال الله تعمالي ﴿ وَإِنْ مَنْكُمُ إِلَّا وَاردهما كَانَ عَلَى ربك حتماً مقضياً ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النبار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكل الله تطهيرها وتركيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ماوعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره وواني استحقاق الجنة ـ وذلك وقت مهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول ـ فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لايرهق وجهه غــبرة ولا قترة لأنَّ فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علم كانكشــاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ماتخيله . وهذه المشــاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فإذن الرؤية حق ، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك بمــا يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا ، بلكما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة ، فتراه في الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينهـا هي التي تستـكمل فتبلغ كال\الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يسكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربناه من المثال في استسكمال الحيال بالرؤية . فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضـا جهة وصورة لانها هي بعينها لانفترق منها إلا في زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا فيزيادةالكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ إذ تمـام النور لا.يؤثر إلا ف زيادة الكشف ، ولهذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العـارفون في الدنيا ، لأن المعرفـة هي البـذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً ، ومن لانواة في أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ؟ ولمساكانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام . إن الله يتجلى للناس عامة ولابي بكر عاصة (١١) ، فلا ينبغي أن يظنّ أنّ غير أبيبكر عن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجد. أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشير. إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لامحالة بتجل انفردبه ، وكما أنك ترى في الدنيامن يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ؛ وترى من يؤثر لذة العلم وانتكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الامور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيــا ما وصفنا من إيثار لذه العــلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنــكوح والمطعوم والمشروب؛ وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لمنا قيل لرابعة : ماتقولين في الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه

⁽۱) حديث « ان الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة » أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان الدارقطني أن الدارقطني رواه عن المحامل عن على بن عبدة وقال الدارقطني ان على بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشني وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائمة .
(• • ســـ إحياء علوم الدين - • •)

في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرم إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به ؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهى ، فن لا يشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به . فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته ؛ فأصل السعادات هى المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لاينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها ؟ فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعملل لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كالها لانسبة لها أصلا إلى لذة المقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا لذة استنشاق روائح الاطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا لذة اللس باليد إلى لذة الوقاع .

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول: لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الاجمل أكل لا محالة . (والثاني) كال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه . (والثالث) كال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذذاه بإدراكه على قرب من غير ستر وعندكال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مم التبحرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذا لحائف المذعور أو المربض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات .

فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنسع انسكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل فلبه ، فهو فى هذه الحالة لإيخلو عن الذة مامن مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذبات وبتى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بانخ أقصى الغابات ، فافظر كيف تتضاء فى اللاة حتى لا يبتى للاولى إليها نسبة يعتد بها ، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة ، فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغالبه، والمقارب والزنابير مثال الشهوات المنسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والفروالحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس فى المدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملا الاعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل والحب عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشترشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الاحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل و تعظم لذته بحيث يسكاد القلب يتفطر لعظمته ، واسكن يكون ذلك فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل و تعظم لذته بحيث يسكاد القلب يتفطر لعظمته ، واسكن يكون ذلك

كالبرق الحاطف وقلما يدوم ؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه ، وهذه ضرورة دانمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنماالهيش عيش الآخرة ﴿ وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يمكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكال في المعرفة فإنّ المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال ، فسكلاكثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم ، كا أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله على الله عليه وسلم وأفضل السعادات طول العمر في طاعة الله ١١ ، لأنّ المعرفة إنما تكل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائن الدنيا والتجرد الطلب ، ويستدعى ذلك زمانا لا محالة ، فن أحب الموت أحبه لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغالم لمنتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لانه فن أحب الموت أحبه لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغالم منتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لانه وحبه عند أهل المعرفة باها المعروراي نفسه مقصرا عما تحتمله قوّته لوعم ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت ، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة ، فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة ، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى الحبة ، ومعنى العشق فإنه الحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان ، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان .

ه فإن قلت : فهذه الرؤيا محلها القلب أو الدين في الآخرة ؟ فاعلم أنّ الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهى رؤية معشرقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جهته ، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواه كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له ، والحق فيه أنّ القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الامرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (٢) والحق ماظهر الاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أنذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر، وسائر الالفاظ الواردة في الشرع بحرى على ظاهره ، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعمالي أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعـالى

اعلم أن أسعد الحلق حالاً في الآخرة أقواهم حبالله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعمالي ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نديم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه 1 وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآبادمن

⁽۱) حديث « أفضل السادات طول العدر في طاعة الله » أخرجه ابراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيمة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي على الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العدر في طاعة الله » ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في سحبته ولأحمد من حديث جابر « ان من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » والترمذي من حديث أبي بكرة : أن رجلا قال يارسول الله أي الناس خير ؟ قال ه من طال عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم ، (٢) حديث « رؤية الله في الآخرة حقيقة » متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن الناس فالوايار سول الله هل مرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون في رؤية القمر ايلة البدر ... الحديث » .

غير منغص ومكذر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع 1 إلا أن هذا النعيم على قدر قوّة الحبفكلما ازدادت المحية ازدادت اللذة ، وإنمـا يكتسب العبد حب الله تعـالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لاينفك عن أصل المعرفة ، وأما قرّة الحبواستيلاؤه حتى ينتهي إلىالاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ،فأنَّ القلب مثل الإنا. لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه المـام ﴿ ما جعل الله لرجل من قابين في جوفه ﴾ وكمال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الحل المصبوب فيه ، وإلى هــذا التفريد والتجريدالإشارة بقوله تعمالي ﴿ قل الله ثم ذرهم فخوضهم ﴾ وبقؤله تعالى ﴿ إنالذين قالوا ربناالله ممما ستقاموا ﴾ بل هو معنى قولك . لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فسكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بمـا يحبه . ولذلك قال الله تعـالى ﴿ أَرَأُ يَتَ مِن اتَّخَذَ إلَمُهُ هُواهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم . أبغض إله عبد في الارض الهوى ، ولذلك قال عليه السلام . من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة (١) ، ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيبكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب ، فما حال من ليسله إلامحبوب واحدوقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروّح بالامن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوّة حب الدنياو منه حب الأهل والمسأل والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الاسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرّص لنقصان حب الله تعــالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولايؤتى أحد من الدنيا شيئًا إلاوينقص بقدره منالآخرة بالضرورة ، كما أنه لايقربالإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قاب ضرتها ، فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إلهما بزمام الجنوف والرجاء . فمـا ذكرناهاممن المقامات كالتوبة والصبروالزهد والخوفوالرجاء هيمقدمات ليكتسببها أحدركني المحبة وهوتخلية القلب عن غيراله ، وأقرله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الحوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما . ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غيرالله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فسكل ذلكمقدمات تطهير القلب وهو أحمد ركني المحبة . وإليمه الإشارة بقوله عليمه السلام ، الطهور شطر الإيمان ٢١ ، كما ذكرناه في أولكتاب الطهارة.

(السبب الثانى) لقرة الحجة « قوةمعرفة الله تعسالىوا تساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهيرالقلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى جرى وضع البذر فى الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى . شم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الدكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال ﴿ ضرب الله مثلا كلمة

⁽۱) حدیث « من قال لا آله آلا آلة مخلصا دخل الحنة » تقدم . (۲) حدیث « العلهور شطر الإیمان » أخرجه مسلم حدیث أبی ماقك من الأشسری وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السهام ﴾ وإليها الإشارة بقوله تعالى (إليه يصعد المكلم الطيب) أى المعرفة و والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالمادم وإنما العمل الصالح كاله فى تطهير القلب أولا من الدنيا ثم إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد العمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته اليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة و هو علم المسكا شفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المجبة بالضرورة ، كا أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر أ الصافى والذكر الدائم والجدّ البالغ فى الطلب والنظر المستمرّ فى الله تعالى وفى صفاته و فى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أقل معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . وإلى (الضعفاء) ويكون أقل معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . وإلى الأقل الإشاره بقوله تعالى ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لاإله إلاهو ﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى ولولا ربى لما عرفت ربى ، وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى نة ين لهم أنه الحق ﴾ الآية ويقوله عز وجل ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والآرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذى خلق السموات والآرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ثرى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ثرى من فطور ثم ارجع البصر كرتاين ينقلب إليك البصر خاساً وهو حسير ﴾ وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين وهو الاوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالقدير والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت: كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما مايستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الحلق فهو غامض ، والسكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الحلق فلا فائدة فى إيراده فى السكسب ، وأما الطريق الاسهل الادنى فأكثره غير خارج عن حد الافهام ؛ وإنما قصرت الافهام عنه لإعراضها عن التدر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمسافع من ذكرهذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الحارجة عن الحصر والهاية ، إذ مامن ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الارضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كال قدرة الله تعمال وكال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك بمما لا يتناهى في المحاوم في الفهاس فى بحارعلوم في النبحر مدادا لسكليات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلسات ربى كا فالحوض فيه الغباس فى بحارعلوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمن إلى مثال واحد على الإيجساز ليقع التنبيه لجنسه فنقول:

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتسكلم فيها ولنترك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها ، فأقل المخلوقات هو الارض وما عليها _ أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات _ فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على مأترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الارض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى

فلكها الذي هي مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لهـا إليه وهي في السهاء الرابعة ، وهي صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الـكرسي كحلقة في فلاة ، والـكرسي فيالعرش كذلك . فهذا فظر إلى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الارض كلها بالإضافة إليها ! بل ما أصغر الارض بالإضافة إلى البحار ! فقد قال رسول الله حصلي الله عليه وسلم . الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض (١) . ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الارضءن المـاء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الارض ، ثم الظر إلى الآدى المخلوق من التراب ـ الذي هوجزء من الارض ـ وإلى ..اثر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الارض، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى بجراه ، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فالظر كيف خلقه الله تعـالى على شـكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات! إذ خلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الاعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ؟ ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات ، وركب فيهما من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والمـاسكة والهاضمة ماركب في سائر الحيوانات ، هذا في شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هدا. الله تعالى إلى غذائه وعرّفه أنّ غذاء. دم الإنسان ثم انظركيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس ا وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحدمنها ا ثم كيف قوّا. حتى يغرز فيه الحرطوم 1 وكيف علمه المص والتجرّع للدم 1 وكيف خلق الحرطوم مع دقته بجرّفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ! ثم كيف عرّفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ا وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المصويهربا ثم إذا سكنت اليد يعود 1 ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصدهمع صغر حجم وجهه

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الاجفان لصغره وكانت الاجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ـ خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه . وأما الإنسنان والحيوان الكبير فجاق للجعوان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الاهداب ، وخلق الاهداب السود لتجمع ضوء الدين وآمين على الإبصار وتحسن صورة الدين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الاهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار ، وأماالبموض فحلق لهما حدةتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدن ، الغبار ولا يمنع الإبصار ، وأماالبموض فحلق المسراج لان بصره ضعيف فهى تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كرة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلابزال يطلبالضوء ويرى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى ويرى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ، إذ تلوح للادى أنوار الشهوات من حيث في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ، إذ تلوح للادى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولايدرى أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلايزال يرى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك ظاهر صورتها ولايدرى أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلايزال يرى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك

⁽¹⁾ حديث • الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض » لم أجد له أصلا .

هلاكا مؤبدا ، فليت كان جهل الآدى كجهل الفراش ؛ فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال والآدى يبقى فى النار أبد الآباد أو مدّة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول ، إنى مسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش (١) ، فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنعالة تعالى فى أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الاقرلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته ، فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تمالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أحرها فى تناولها الآزهار والآنوارواحترازهاعن النجاسات والافذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخسا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تمالى له أميرها من المعدل والإلصافى بينها ـ حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ماوقع منها على نجاسة ـ لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الاشكال الشكل المستس ، فلا تبنى بيئا أوسع الاشكال وأحواها : المستديرة وما يقرب منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير اولا مربعا ولا مخمل بل مستسل المستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة أون الاشكال المستديرة البقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الاشكال المستديرة بقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الاشكال المستديرة بم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المستس ، وهذه خاصية هذه الشمكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهناً بعيشه ، فسبحانه ماأعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه ا

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإنّ القدر الذى بلغه فهمنا القياصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لميا أحاط به علمنيا إلى ما أحاط به العلمياء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ماعرفه الحلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى ، فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملمكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيــا ، إذ الاشياء إنمــا تتفاوت بتفاوت أسبابهــا ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

⁽۱) حدیث د انی بمسك محجزکم عن النار وأنتم تهافتون فیها تهافت الفراش » متفق علیه من حدیث أبی هریرة د مثلی ومثل أمق كمثل رجل استوقد نارا لجملت الدواب والفراش یقمن فأنا آخذ محجزکم وأنتم تفتحمون فیه » لفظ مسلم واقتصر البخاری علی أوله ولمسلم من حدیث جابر د وأنا آخذ بحجزکم وأنتم تفلتون من یدی » .

والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوهما وحفظوهما ، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الارباب ، وربمها لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم و تصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب البمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الاصناف الثلاثة في قوله تعالى ﴿ فأما إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنة فعيم ﴾ الآية . فإن كنت لاتفهم الامور إلا بالامثلة فانضرب لتفاوّت الحب مثالا فنقول: أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي ــ رخمه الله ــ الفقها.منهم والعوام ، لانهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، واكن العامى يعرف علمه بحملا والفقيه يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشدّ ، فإنّ من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال إليه قلبه ، فإنرأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعرفيحبه ، فإذاسمم من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامى قد يسمعأن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدرى مافي النصنيف فيكونله معرفة بحملة ويكون له بحسبه ميل بحمل ، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويعتقده: وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض ــ مثلا ــ من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبهفيزداد له حباً ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصافع وجلاله ، وازداد به معرفة إ وله حباً . وبحر هذه المعرفة _ أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى _ بحر لاساحلله ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ، وبما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الاسباب الخسة التي ذكرناها للحب ، فإنّ من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسمان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعاء . وأما من يحبه لذاته ولانه مستحق للحب بسبب كاله وجماله وبجده وعظمته فإنه لايتفاوت حبه بتفاوتالإحسان إليه . فهذاوأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة . والتفاوت في المحبةهو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى ﴿ وَلَلَّاخِرَةَ أَكُبُرُ دُرْجَاتُ وَأَكْبُرُ تَفْضَيْلًا ﴾ .

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يفتضى أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسبلها على العقول ، وترى الأمر بالضدّ من ذلك ، فلا بدّ من بيان السبب فيه ، وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لاتفهمه إلا بشال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة لا نعرف والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات

لاتحس بشى. من الحواس الخس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظر الم كلمانى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ، ووجودالله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواه وجوهر وعرض ، بل أول شماهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قاوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الاشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخس ثم مدركاننا بالعقل والبصيرة ـ وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع مانى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومديرها ومصرفها وعركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته ، والموجودات المدركة لا حصر لهما ، فإن كانت حياة المكاتب في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ؟ إذكل ذرة فإنها تنادى بلسان في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ؟ إذكل ذرة فإنها تنادى بلسان عالمانا واثتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شمورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجرائنا الظاهرة والباطنة ، أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبرت المقول ودهشت عن إدراكه . فاينه نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كالم يوق في الوجود شيء مدرك وعسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبرت المقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخنى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذاكا أنّ الحفاش يبصر بالليلولايبصر بالنهار، لا لحفاء النهارواستتاره ولكن لشدة ظهوره ما يتناهى وضوحه ، وهذاكا أنّ الحفاش يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا برى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفاته ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختنى عن البصائر والابصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاه ذلك بسبب الظهور ، فإن الاشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لاضد له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الاشياء فدل بمضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الاس . ومثاله بور الشمس المشرق على الارض ، فإنا فعلم أنه عرض من الاعراض يحدث في الارض ويزول عند غيبة الشمس ، فلوكانت الشمس دائمة الإشراق لاغروب لها لكنا نظن أنه لاهيئة في الاجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإنا لا نشاهد في الاسود إلا السواد وفي الابياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وماكنا فطلع عليه لولا عدمه إلابمسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير عقلفة في الظلام والنور ، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظهر الأمور وبه ظهرت الاشياء كالها ، ولوكان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك أظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كالها ، ولوكان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك

والملكوت ، ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولوكان بعض الآشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ،ولكن دلالته عامة في الآشياء على نسقواحد، ووجوده دائم في الآحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدّة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعمالي ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله . وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الافعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الافعال إلا ويرى فيهالفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ،كن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المضنف . وكل العالم تصنيف الله تعـالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عار فا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذي لابرى إلا الله ، بل لاينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدا لله ، فهذا الذي يقال فيه إله فني في التوحيد وإنه فني عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهمما لا يعنيهم . فهذاهو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعمالي ، وأنضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عنمد فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريرة العقل قليلا قليلا وهومستغرق الهم شهواته وقدأنس بمدركانه ومحسوساته وألفهافسقط وقعها عنقلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أونبا تاغريا أوفعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجبها انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال « سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المـألوفة وكالها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الآنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامنة بصره إلى السهاء والأرض وا؟ تجمار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن يذبهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها .

فهذا وأمثاله من الاسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسمة ، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة . فهذا سر هذا الامر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخنى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا لكن بطنت بمما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصوّر الشوق إلا إلى محبوب ونحن نشبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرّا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الاخبار والآثار . أما الاعتبار فيكنى في إثباته ماسبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه ف غيبته

لاعالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لايطلب . ولكن بيامه أنّ الشوق لا يتصوّر إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فأما مالايدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإنّ من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه ولا يتصوّر أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكاله لا يشتاق إليه ، وكال الإدراك بالروّية فن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصوّر أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لاينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنقول مثلا: من غاب عنه معشوقه وبق فى قابه خياله فيشتاق إلى استكال حياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قابه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية ، فعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكال رؤيته ، وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الصوء عليه (والثانى) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط .

والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ماا تضح للعارفين من الأمور الإلهية — وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنفصات ، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التنجلي ولا يتكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهي محبوب العارفين . فهذا أحد نوعي الشوق وهو استسكال الوضوح فيها اتضح الضاحا ما (الثاني) أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبق أمور لانهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويسمل لكل عبد من المعلومات أكثر بما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيا لم يحصل بمن المعلومات التي لم يعرفها أصلا ، لامعرفة واضحة ولامعرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولايتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهمن المشتاقين فقال : قلت ذات يوم ؛ يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطى ذلك فقد أضربى القلق ، قال : فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال. يالم براهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ماأقول فاغفر لى وعلمنى ماأقول ، فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر فمائك . فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة .

وأما الشوق الثانى فيشبه : أن لايكون له نهاية لافى الدنيا ولافى الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تمالى وصفاته وحكمته وأفعاله ماهو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لانهاية له . ولا يزال العبد عالما بأنه بتى من الجمال والجلال مالم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لاسيا من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدا لآباد ،

و تكون لذة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل : وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيا لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبذول فيبكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرًا على الدوام . وقوله سبحانه وتعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتم لنا نورنا) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النورمهما ترقدمن الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكال والإشراق ، فيكون هو المراد بتامه . وقوله تعالى (افظرونا نقتبس من نوركم .. قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) يدل على أن الانوار لابد وأن يترود أصلها في الدنيا ثم يرداد في الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدّد نور فلا ، والحسكم في هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزبدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الآخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : واللهم إلى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لفاتمك (۱) ، وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية _ يعنى فى التوراة _ فقال : يقول الله تعالى ؛ طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقائم لاشد شوقا . قال : ومكتوت إلى جانها ؛ من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن عليه السلام : إن الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أطبنى ، ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من ألس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختار فى ومطبع لمن أطاعنى ، ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من فلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لابتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى و من طلب غيرى لم يجدنى ؛ فأرفضوا ياأهل الأرض ما أننم عليه من غرورها وهلمرا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، واكنسوا بى أوانسكم فأرفضوا ياأهل الأرض ما أننم عليه من غرورها وهلمرا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجد صغبى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى و نعمتها بجلالى .

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حدوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم . هتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلاكل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجونى بكلاى وتملقوا إلى بإنعاى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين فائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كا أخبر عنهم ، والثانية : لو كانت السموات والارض وما فيها فى موازينهم لاستقلانها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ؛ ياداود إلى كم تذكر الجنة ولاتسألني الشوق إلى ،

⁽١) حديث : أنه كان يقول في دعائه « اللهم اني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد الديش بعد الموت . . . الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات .

قال: يارب من المشتاقون إليك ؟ قال: إن المشتاقين إلى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإن لاحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لى ، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المستاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الارض ، ياداود إنى خاتمت قلوب المشتافين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدّثي ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الارض وقطعت من قلوبهم طريتًا ينظرون به إلى يزدادون في كل يوم شوقًا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : ياداود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول ، فإذا أتيتهم فأقرئهم متى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عزوجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرّقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جثتكم لابلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحو. وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الارض ، فقال داود : إنى رسولَ الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لـكم ألا تسألون ماجة ؟ ألا تنادوني أسمع صوتـكم وكلامكم فإنـكم أحبائي وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فكل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عز، ذكرك فيها مضي من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيد أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لاحاً جة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطقة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفيجترئ على الـكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك ؟ وطلبتنا الدنق من نورك . وقال الآخر : كلت السنةنا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ؛ وفُرْغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما مي النظر إلى وجهك . وقالو الآخر : كيف يجترئ العبـد على ســــيـده ؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجمودك _ فهمب لنا نورا نرتمدي به في الظلمات من أطبهاق السموات وقال آخر : ندعوك أن تقبـل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمـام نعمتك فيها وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنافى شي. منخلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك وقال\آخر : أسألكمن بينهم أن تعمى عيىعن النظر إلىالمدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيءدونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منـكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فإنى كاشف الحجاب فيما بيني وبينـكم حتى تنظروا لل نوري وجلالي . فقال دارد : يارب بم نالوا هذامنك ؟ قال : بحسنالظن والكفعن الدنيا وأهلها والحلوات في ومِناجاتهم لى وإنّ هذا منزل لا ينالهإلا من رفض الدنيا وأهلهاوام يشتغل بشيء منذكرها وفرّغ قلبه لي واختارني على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ تفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهى ، إن مرض مرضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به باداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولمأحبها إليه لا يفتر عن الاشتغال بى ، يستعجلني القدوم وأنا أكرهأن أميته لانه موضع نظرى من بين خلق لا يرى غيرى ولا أرى غيره ، فلو رأيته يادواد وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفا وعبادة ، وعزتي وجلالي ياداود لاقعدته في الفردوس ولا شفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا .

وفى أخبار داود أيضا . قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى ماضركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون الوبكم ، وما ضركم مازويت عنـكم من الدنيا إذا بسطت دينى لـكم ، وما ضركم مسخطة الحلق إذا التمستم رضائى. وفي أخبار داود أيضا: إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تح ني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنّ حي وحبها لايجتمعان في قلب . ياداود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أماما استبان لك نمــا وافق محبتى فتمسك به ، وأماما أشكل عليك فقلدنيه حمّا على أنى أسارع إلى سياس:ك وتقو بمك وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإنى قد حلفت على نفسي أنى لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته إلفاء كنفه بين يدى وأنه لا غنى به عنى . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإنى قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إلى لاتضاد عملك فتكون متعنيا ولا. ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حدًا فليس لهـا غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة منى حدًّا ، ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلق نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعنى بين عينيك وانظر إلى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابى عنها فإنى حلفت بعزتى وجلالى لاأفتحثوابى لعبد دخل في طاعتي للتجربة والنسويف ، تواضع لمن تعلمه ولاتطاول علىالمريدين ، فلو علم أهل محبتي منز لةالمريدين عندى لـكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود لان تخرج مريدامن سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادواد تمسك بكلاى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محنتي لا تؤيس عبادي من رحمتي ، اقطع شهوتك لـ فإنمــا أمحت الشهوات لضعفة خلق مابال الأقوياء أن ينالوا الشهواتفإنها تنقص حلاوة مناجاتي ، وإنميا عقوبةالأقوياء عندي في موضع التناول أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى فإنى لم أرض الدنيا لحبيبي ونرهته عنها . ياداود لاتجعل بيني وبينك عالمـــا' يحجبك بسكره عن محبتي ، أو لئك قطاع الطريق على عبادى المريدين ، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإفطار فإنّ محبتي للصوم إدمانه . ياداود تحبب إلى بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنمـا أداريك مداراة لنقرى على ثواق إذا مننت عليك به وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفق بهم وشوق إلى ترك معاصيهم لمـانّوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبّى . ياداود هذه إرادتي فى المدبرين عنى فـكيف إرادتي فى المقبلين على يا دارد أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجل مايكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الآخبار ونظائرها بما لا يحصى تدل على إثبات الحبة والشوق والآنس، وإنما تحقيق معناها ينكشف بمنا سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بدّ من معرفة مدى ذلك ، ولنقدم الشواهد على مجبته فقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ثم تلا ﴿ إِنَ الله يحب التوابين ﴾ ١١ ، ومعناه أنه إذا أحب تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ﴿ قل إِن كَثْنَم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَ الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب ١٠٠ ، وقال رسول الله صلى الله على الله عليه وسلم ﴿ إِنَ الله تعالى لايزال العبد يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به عليه السلام ﴿ قال الله تعالى لايزال العبد يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ١٠١ ، الحديث وقال زيدبن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى ببلغ من حبه له أن يقول ؛ اعمل ماشدت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ الحبة خارج عن الحصر .

وقد ذكرنا أنّ محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقعد بينا أنّ الإحسان موافق النفس ، والجمال موافق أيضاً ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ، بل الآساى كالها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غيرالله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى إن اسم ، الوجود ، الذى هو أعم الآسماء اشتراكا لايشمل الحالق والحلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لايكون مساويا للوجود المتبوع . وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لاحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لحلقه ، وهذا التباعد فى سائر الاسامى أظهر كالعلم والإرادة

⁽۱) حدیث أنس ه اذا أحب الله عبدالم یضره ذنب والنائب من الذنب كمن لاذنب له » ذكره صاحب الفردوس ولم یخرجه ولده فی مسنده وروی ابن ماجه الشهل الثانی من حدیث ابن مسمود و تقدم فی التوبة . (۲) حدیث ان الله یعلی الدنیامن یحب ومن لایحب . . الحدیث » أخرجه الما كم وصبح اسناده والبیهتی فی الشعب من حدیث ابن مسمود . (۳) حدیث « من تواضع لله رفته الله ومن تسكیر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » أخرجه ابن ماجه من حدیث أبی سعید بإسناد حسن دون قوله « ومن أكثر . . . إلى آخره » ورواه أبو يعلی وأحمد بهذه الزیادة وقیه ابن لهیمة . (٤) حدیث « قال الله تقال المبد یتقرب الی بالنوافل حتی أحبه . . . الحدیث » أخرجه البخاری من حدیث أبی هریرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لايشبه فيه الخالق الحلق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الآساى أو لاللخلق فإن الحلق أسبق إلى العقول والآفهام من الحالق ، فكان استعالها في حق الحالق بطريق الاستعارة والتجوّز والنقل . والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فانها مايوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلتذ بنيله ، وهذا محال على النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما وجلال مكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولايتصور تجدّده ولازواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد المينى عبره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد المينى رحمه الله تعلى لما قرئ عليه قوله تعالى ﴿ يحبم ويحبونه ﴾ فقال بحق يحبم فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره ، فن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الالفاظ في حبه لمباده فهو وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الالفاظ في حبه لمباده فهو وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الالفاظ في حبه لمباده فهو طرق حيذ الهد من الوك به في الآزل ، فحبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الإرادة الآزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق حيذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحبجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب للقتضي له كما قال تعالى و لم الله وارتفاع الحبجاب عن قابه وحصوله في درجة القرب من ربه ، فيكل ذلك فعل الله تعالى و لطفه الصفاء باطنه وارتفاع الحبجاب عن قابه وحصوله في درجة القرب من ربه ، فيكل ذلك فعل الله تعالى و لطفه به فهو هعني حبه .

ولايفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد ية تب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو لبهي أسباب طعامه وشرابه ، فيقال ؛ لن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقر ب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الاخلاق المرضية والحصال الحيدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لاغرض له فيه أصلا ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الحصال الحيدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الحصال الحيدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحبب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لايسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدّد القرب ، فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعلى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الاخلاق التي مى الاخلاق الإلمية ، فهو قرب بالصفة لابالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير ، فريما يظن بجذا أن القرب لما تجدّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى ، الايرال في نعوت السكال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الاشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحرّكهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرّك الآخر فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر ، بل القرب فى الصفات أيضاً كذلك ، فإنّ التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كال العلم وجماله والاستاذ واقف فى كال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرّك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا

في التغيير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والاستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب ، فكل صمار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الامور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال نه وقرب كل ولحد من الله تعالى بقدر كماله . فعم قد يقدر التلبيذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال ، فإمه لانهاية لكماله ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة ، شم درجات العمل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا السكمال الذى هو مفلس عنــه فافد له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلنذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس فيم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم . إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه ، قيل : وما اقتناه ؟ قال ، لم يترك له أهلا ولا مالا (١١ ، فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام : لم لاتشترى حمارا فتركبه ؟ فقال : أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحار . وفي الخبر ﴿ إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر احتباه فإن رضى اصطفاه (٢١) وقال بعض العلماء : إذا رأيتك تحبه ورأيته ببتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك . وقال بعض المريدين الاستاذه : قد طولعت بشيء من المحبة ، فقال : يابني هل ابتلاك بمحبوب سواء في آثرت عليه إياه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله وسلم . إذ أحب الله تعالى عبدا جعل له واعظا من نفسه وزا جرا من قليه يأمره وينهاه (٣) وقد قال , إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه (١٤) ، فأخص علاماته حبه لله تعالى فإن ذلك يدل على حب الله تعالى له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمسدر لامره والمزين لاخلاف والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والسكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته. فهذا وأمثاله هو علامة حبالله للعبد. فلنذكر الآن علامة محبة العبدلله تعالى فإنها أيضا من علامات حب الله تعالى للعبد.

القول في علامات محبة العبدلة تعالى

اعلم أنَّ الحبة يدَّعيهاكل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان

⁽١) حديث د اذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الحولاني وقد تقدم ـ

⁽۲) حديث « اذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده ، (۳) حديث « اذا أحب الله عبدا جمل له واعظا من نفسه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ « اذا أراد الله بعبد خيرا » ، (٤) حديث و اذا أراد الله بعبد خيرا » ، (٤) حديث و اذا أراد الله بعبد مخيرا بصره بعبوب نفسه » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث ألمى بزيادة فيه بإسناد ضميف ، بعبد مخيرا بصره بعبوب نفسه » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من حديث ألمى بزيادة فيه بإسناد ضميف ،

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يمتحنهـا بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة . والمحبة شجرة طسة أصلهاً ثابت وفرعها في السماء وثمـارها تظهر في القلب واللسـان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفائضـة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنهــا حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ،، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محبــا الموت غــير فارّ منه ، فإنّ المحبّ لابثقل عايه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وآله وسلم , من أحب لفاء الله أحب الله لقاءه (١) ، وقال حذيفة عند الموت : حبيبجاءعلى فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدّم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب الفتل في سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى ﴿ إِنْ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبي. ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يُكن غائب أبغض إليك من الموت وان تعجزه . و بروى عن إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال : حدَّثني أبي أنَّ عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فالوا في ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يارب إنى أقسمت عليك إذا لقيت العدق غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنني وأذنى ويبقر بطني ، فإذا لقيتك غدا قلت ياعبدالله منجدع أنفك وأذنك ، فأقول ؛ فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط (٢) قال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوّله . وقد كانالثوري وبشر الحافي بقولان ؛ لا يكره الموت إلا مربب ، لأنّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد : أنحب الموت ؟ فكأنه ثوقف فقال لو كنت صادقًا لأحببته ، وتلا قوله تعالى ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فقال الرجل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم . لا يتمنين أحدكم الموت (٣) ، فقال : إنما قالهالضر نول به لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت: من لايحب الموت فهل بتصوّر أن يكون محبا لله ؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيك والتأسف على فراق الاهل والمال والولد ، وهذا ينافى كال حب الله تعالى لانّ الحب السكامل هوالذى يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الاهل والولد شائمة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإنّ الناس متفاوتون في الحب ، ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سلم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحته إياها

⁽¹⁾ حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة . (٢) حديث اسحق من سعد ابن أبي وفاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جعش قال له يوم أحد ، الاندعو الله ؟ فلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جعش فقال : يارب ابي أقسم عليك إذا لفيت العدو غدا فقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرد ، أقاتله فيك ويفاتلني ويجدع أنني وأذني ، الجديث » أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو لعيم في الحلية واسناده جيد . (٣) حديث « لايتدنين أحدكم الموت لفسر نزل به . . الحديث » متفق عليه من حديث ألس وقد تقدم .

و إنى لاعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهي أختك وهومو لاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم (١) ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قابه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نويمه بلقاء الله عند المقدوم عليه على قدر حبه ، وعذا به بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثانى للكراهة: فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الحبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كايهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن الدوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كال الحب أصلا ، وعلامته الدوب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ماأحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويحتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقرّبا إليه بالنوافل وطالبا عنده منها الدرجات كما يطلب المحب من يد القرب فى قلب محبوبه. وقد وصف الله تعمالى المحبين بالإيثار فقال (يحبون من هاجر إليهم ولا يحدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة) ومن بقى مستقرًا على متابعة الموى فحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل:

أريد وصالهويريد هجرى فأثرك ما أريد لمسا يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهرى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت و تروج بهايوسف عليه السلام انفردت عنه و تخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، ف كان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوّفت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين ، فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلى طريقا إليه فطاعة لامر الله تعالى ، فعندها سكنت إليه . فإذن من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع لو كان حبك صادقا الاطعته إن الحب لمن محب مطيع

وفي هذا المعنى قبل أيضا :

وأثرك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عزوجلصارحبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى : وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبةالله كماقال تعالى (يحبهم ويحبونه) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدة ه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته .

⁽١) حديث أبي حذيفة بن عتبة : أنه لمسا زوج أخته فاطمة من سالم مولاه فاتبته قريش في ذلك . وفيه : فقال سمحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم » لم أره من حديث حذيفة وروى أبو الله عليه الله عنه الله عنه من حديث عمر » أن سالما يحب الله حقا من قلبه » وفي رواية له «إن سالمما شديد الحب لله عزوجل له عنه ما عداد عروجل له عبد الله بن لهيمة ،

ولذلك قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَعَلُّمْ بَأَعْدَائُكُمْ وَكُنَّى بِاللَّهِ وَلَيَّا وَكُنَّى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة وبأكل مايضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ماروى أن نعيان كان يؤتى به رسول الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتمكها إلى أن أنى به يوما لحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به رسول الله عليه وآله وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم و لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله (١١) ، فلم عضرجه بالمعصية عن المحبة فيم تخرجه المعصية عن كال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى . وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أتحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : فم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس فى الجنة فيم أعلى من فعم أهل المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى لايفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئًا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله ؛ حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإنّ من يحب إنسانا يحب كلب محلته . فالحبة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كل مايكننف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب فإنّ من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لانه كلامه ، فلم بجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لانهم خلقه ، فكيف لايحب القرآن والرسول وعباد اللهالصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال تعالى ﴿ قُلُ إِنْ كُنتُمْ تَحْبُونَ اللَّهُ فَاتَّبْعُونَى يَحْبُبُكُمُ الله ﴾ وقال رسول الله صلى الله عايه وسلم و أحبوا الله لما ينذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى ٢١١ ، وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال : فسمعت قائلًا يقول في المنام ؛ إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت مافيه من لطيف عتابي ، قال : فانتبهت وقد أشرب في قلى محبة القرآن فماودت إلى حالى . وقال النمسعود : لاينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان بحب القرآن فهو يحب الله عزوجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال ٣٠ ل - رحمة الله تعالى عايه _ علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب أنله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب الني صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بنض الدنيا ، وعلامة بنض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد وينتنم هد. الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاةالله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بنأدهم وقد نزل من الجبل : من أين أفبلت ؟

⁽۱) حدیث : أتی بنمیان یوما لحده فلمنه رجل قال : ماأكثر مایؤتی به ۲ فقال « لاتلمنه فارنه یحب الله ورسوله » أخرجه البغاری وقد تقدم . (۲) حدیث « أحبوا الله لمساً بنذوكم به من نسه ... الحدیث » تقدم .

فقال : من الآنس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لاتستأنس[لي أحد من خلقي ، فإني إنما أقطع عني رجلين رجل استبطأ تُوا بي فانقطع ورجلا نسيني فرضي بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلىنفسهوان أدعه في الَّدنيا حيران، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفي قصة برخ ـ وهو العبد الاسود الذي استسق به موسى عليه السلام ـ أنّ الله تعالى قال لموسىعليه السلام : إنّ برخا فعم العبد هو لى إلا أنَّ فيه عيبًا ، قال : يارب وماعيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الاسحار فيسكن إليه ومن أحبى لم يُسكن إلى شيء وروى أنَّ عابدًا عبد الله تعالى في غيضة دهرا طويلًا فنغار إلى طأثر وقد ،شش في شجرة يأوى إليها ويصفر عندها ، فقال : لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال : ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لاحطنك درجة لاتنالهــا بشيء منعملك أبدا . فإذن علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الحلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الآنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلنةالمناجاة ، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه ، وقدانتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فسلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الحلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا مالم تكرّر على معه مرارا ، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه . فالمحب من لايطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا و تطمئن فلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبي بكر : الحب لايسأم من حديث حبيبه وأوحى انه تعـالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادّعي محبتي إذا جنه الليلنام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذاموجود لمنطلبي . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدت فقدوصلت . وقال يحيى بن معاذ ؛ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضاً : من لم تـكن فِيه ثلاث خصال فليس بمحب ؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الحلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لايتأسف على مايفوته بما سوى الله عزوجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين : إن قه عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذكان ملك مليكهم تاما ، وماشاء كان ، فياكان لهم فهو واصل إليهم وما فانهم فيحسن تدبيره لهم . وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالمتناب ، ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى و بمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون مفوته سببا المتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا الا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل المكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا مافيه خيرته ، ويذكر قوله (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لمكم) .

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولايستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة . ثم تنعمت به

عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والد، وب بشهوة تفتر بدنه ولاتفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لايدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله مااشتنى محب لله من طاعته ولوحل بعظيم الوسائل . فحكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإن العاشق لا يستثقل السعى في هوى معشوقه و يستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الاشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لا عالة ماهو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض المحبين ـ وقدكان المكسل ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض المحبين ـ وقدكان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ "ما كان سبب حالك هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبو به وهو يقول : أنا والله أحبك بقلمي كله وأنت معرض عنى بوجهك كله ! فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق على ؟ قال : ياسيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقلت : هذا خلق الحلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحياً بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كلمن يقارف شيئاً بمــا يكرهه كما قال الله تعالى ﴿ أشداء على الـكفار رحماء بينهم ﴾ ولا تأخذه لومة لائم ولايصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياء، إذ قال الذين يكلفون بحي كما يـكلف الصي بالشيء ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره ، ويغضبون لمحارمه كما يغضبالنمر إذا حرد فإنه لايبالي قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإنّ الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإنهام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكي ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لايملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدّة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقرّبين كما قال تعالى في الأبرار ﴿ إنّ الأبرار لني نعيم ﴾ ثم قال ﴿ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقرّبون ﴾ فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقرّبين. والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كا أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ﴿ إِن كِنَابِ الأبرار لَقِي علين ﴾ ثم قال ﴿ يَشْهِدُهُ الْمُقْرِّبُونَ ﴾ فَـكَانَ أَمَارَةُ عَلَو كَتَابِهِمُ أَنَّهُ ارْتَفْعُ إِلَى حَيْثُ يَشْهِدُهُ المُقْرِّبُونَ ، وَكَا أَنَّ الْأَبْرَارِ يَجْدُونَ المُزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يـكون حالهم في الآخرة ﴿ ماخلقـكم ولابشكم إلا كنفس واحدة . كما بدأنا أوَّل خلق نعيده ﴾ وكما قال تعالى ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أى وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في ح. ٩ وأعماله ﴿ فَن يَعْمُلُ مُثْقَالُ ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرُهُ وَمِن يَعْمُلُ مُثْقَالُ ذَوَّةً شَرًا يَرُهُ ۖ وَإِنْ اللَّهُ لَايْغَيْرُ مَابِقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مابأنفسهم _ إن الله لايظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها _ وإنكان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكني بناحاسبين ﴾ فن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور ؛ مكن من الجنة ليتبرّ أ منهاحيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان ؛ فهناك تنتهي لذته في الآخرة لأنه إنمــا يعطي كل إنسان في المحبة ماتشتهيه نفسه وُتُلَذَ عَيْنَهُ . وَمَنَ كَانَ مُقَصَدُهُ رَبِ الدَّارِ وَمَالِكَ الْمَلْكُ وَلَمْ يَعْلَبُ عَلَيْهِ إِلاَحْبُهُ بِالإِخْلاصُوالصَدَق : أَنْزِل ﴿ فَمُقَعَدُ

صدق عند مليك مقتدر ﴾ فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان والمقرّبون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب (۱) ، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال (وما أدراكماعليون) كا قال تعالى ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾

ومنها أن يكون في حبه خائفًا متضائلًا تحت الهيبة والتعظم ، وقديظنَ أنَّ الحوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يو جب الهيبة كما أن إدراك الجال يو جب الحب ولخصوص المحبين مخاوف ف مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض يخارفهم أشدّمن بعض ، فأولما خوف الإعراض ، وأشدّمنه خوف الحجاب ، وأشدّ منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هو دهو الذي شيب سيد الحبين (٢) إذ سمع قوله تعالى (ألا بعدا لمُود - ألا بعدا لمدين كما بعدت تمود) وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإناقدمنا أن درجات الفرب لانهاية لهــا وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قرباً ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنَ اسْتُوى يُومَاهُ فَهُو مَغْبُونَ وَمَنَ كَانَ يُومُه شرا مِن أُمْسُهُ فهو ملعون (٣) ، وكذلك قال عليه السلام . إنه ليغان على قلى في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (١٤) ، وإنماكان استغفاره من القدم الأوّل فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثاني ، ويكونذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب ، كاروى أنَّ الله تعالى يقول : إنْ أَدْنُهَمَا أَصْنَعُ بِالْعَالَمُ إِذَا آثر شهوات الدَّنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبةالمعموم ، فأما الخصوص فيحجهم عن المزيد بجرَّد الدعوى والعجب والركون إلى ماظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الحنى النَّى لايقدر علىالاحتراز منه إلا ذوو الاقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لايدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن أدهم قائلًا يقول وهو في سياحة كل شيء منك مغفو ر سوى الإعراض عنا وكان على الجبل:

قـــد وهبنا لك ما فا ت فهب لنا مافات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يالمبراهيم كن عدا فكنت عدا واسترحت .

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولايتسلى إلا بلطف جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سببرجعته . والسلويدخل عليه من حيث لايشمر كاقد يدخل عليه الحب من حيث لايشمر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوّة البشر الاطلاع عليها، فإذا

⁽۱) حديث « أكثر أمل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » أخرجه البرارمن حديث أنس بسند ضعيف متنصرا على الشطر الأول ، وقد تقدم ٬ والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحوارى، ولعله أدرج فيه .

⁽٢) حديث « شيبتني هود » أخرجه النرمذي وقد تقدم غير حمة . (٤) حديث « من استوى يوماه فهو منبون و من كان يومه شرا من أمسه فهو ملمون » لاأعلم هذا لملا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يارسول الله أوسني ، فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهي في الزهد . (٤) حديث « لمه لينان على قابي » متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله المكر به واستدراجه أخنى عنه ماورد عليه من السبلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلية الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والسان ، وكما أنَّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرَّحمة والحكمة ، فن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدّمات المكر والشقاءوالحرمان. ثمخوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوامالذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها . وظهو ر هذه الاسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلىمقام المقت _ نعوذ بالله منه _ وملازمة الخوف لهذه الامو روشدة الحذرمنها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئا خاف لا محالة فقده فلا مخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبدالله تعمالي بمحبة من غير خوف دلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيجاش ، ومن عبده من طريق المحبةوالخوفأحبه الله تعالى فقرَّبه ومكنه وعلمه ، فالحجب لايخلو عن خوف والخيائف لايخيلو عن محية ، ولكن الذي غلبت علميه المحسة حتى السع فيها ولم يكن له من الحوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين ، وكان شوب الحوف يسكن قليلاً من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستوات المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنمــا الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب. فقد روى في بعض الأخبار : أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعمالي أن يرزقه ذرّة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبتي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرّة بعضها ، فأوحى الله تعالى آليه إنما أعطيناه جزءًا من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألوني شيئًا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته ، فقسمت ذرّة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ماأصابه من ذلك ، فقال : سبحانك ياأحكم الحاكين أنقصه بما أعطيته ! فأذهب الله عنه جملة الجزء، وبتي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء منذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرى بعيد عن الآحرار منهم والعبيد غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد لقد عزت معانيه وجلت عن الابصار إلا للشهيد يرى الاعياد في الاوقات تجرى له في كل يوم ألف عيد وللاحباب أفراح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبيانا يشير بهـا إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهــاره. وهي هذه الابيات:

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم لحلوا بقرب المساجد المتفضل عراصا بقرب الله فى ظل قدسه تجول بها أرواحهم وتنقسل مواردهم فيها على المر والنهى ومصدرهم عنها لمساهو أكمل

ونی حلل التوحید تمشی وترفل وما کتمه أولی لدیه وأعـدل وأبدل منـه ماأری الحق یبدل وأمنع منه ما أری المنع یفضل إلی أهله فی السر والصون أجمل

تروح بعز مفرد من صفاته ومن بعد هـذا ماندق صفاته سأكتم من علمى به ما يصونه وأعطى عباد الله منه حقوقهم على أن للرحمن سرا يصونه

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهر هامن انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعبارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الاسواق والمعايش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الالسنة والاقلام عن كثير بما انتشر من العلوم ، ولكن لله تمالى فيها هو شرفى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكما ، ولا منتهى لحكمته كما لاغاية لقدرته .

ومنهاكتان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيا للحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولآنه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا . فعم قد يمكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه و تضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول :

وقالوا: قريب، قلت: ماأنا صافع بقرب شعاع الشمس لوكان في حجرى؟ فمالى منه غير ذكر بخياطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى ا والعاجز عنه يقول:

يخنى فيبسدى الدمع أسراره ويظهسر الوجمد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف ي.كتم؟

وقد قال بمض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد : من يمكثر التعريض به فى كل شىء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو عقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه _ عن كان يذكر المحبة _ فرآه مبتلى ببلاء فقال : لا يحبه من وجد الم ضره ا فقال الرجل: لكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات و إظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أنّ المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما المذموم التظاهر بها لمما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن ينم على حبه الحنى أفعاله وأحواله دون أفواله وأفعاله ، وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولاإلى إظهار الفعل المماله وأحواله دون أفواله وأفعاله ، وينبغى أن يسكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب المدال على الحب ، بل ينبغى أن يسكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب المدال على الحب ، بل ينبغى أن يسكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع عام الدين — ٤٠)

وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل: إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ماصنعت يمينك . فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فافطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له محبون صغاروكبار وعقلا. و بحانين ا فهذا الذي رأيته من بحانينهم . و بما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن المحب إن كان عارفا و و عرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ـ لاستنكف من نفسه و من إظهار حبه و علم قطما أنه من أخس المحبين في بملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطافة حتى ظنفت أن لى عند الله شيئا ، فذ كر أشياء من مكاشفات أن السموات في قصة طويلة قال في آخرها : فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت : عبده أنق من الحبون لله عز و جل فعبده ههنا منذ ثلثهائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه و لا ذكر نا عيره ، قال : فاستحييت من أعمالى فوه بها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس السانه عن التظاهر بالدعوى . فعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وترددانه ؛ كما حكى عن الجنيد أبه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دوا ، ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طبيب حاذق ، فأخذ فارورة مائة فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرنه ، فتبسم قال : قاتله الله ما أبصره ! قلت : يا أستاذ وتبين المحبة في البول ! قال : فعم ، وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول : ما أيبس جلدى على عظمى ولاسل جسمى إلاحبه ! ثم غشى عليه ، وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته ،

ومنها . الآنس والرضا_كا سيأتى .

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الآخلاق ثمرة الحب، ومالا يشمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الآخلاق. نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه. والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين، ولذلك قال الجنيد: الناس في محبة الله قدال عام وخاص، فالعوام بالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتسكر على قدر النعم والإحسان؛ فأما الحاصة فنالوا الحجبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكة والتفرد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسني لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحب لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم الحبة بذلك لانه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس وهو مع ذلك يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه ، وكان سهل إذا تمكلم مع إنسان قال : يخلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه ، وكان سهل إذا تمكلم مع إنسان قال : يا دوست - أي يا حبيب - فقيل له : قد لا يمكون حبيبا فيكيف تقول هذا ؟ فقال في أذن القائل سرا : لا يخلو يا أن يكون مؤمنا أو منافقا فهو حبيب إبليس : وقد

قال أبو تراب التخشى ـ في علامات المحبة ـ أبيانا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل منهـــا تنعمه بمر بلائه فالمنع منسه عطية مقبولة ومن الدلائل أي ترى من عزمه ومن الدلائل أن يرى متبسها ومن الدلائل أن برى متفهما ومن الدلائل أن يرى متقشفا

ولديه من تحف الحبيب وسائل وسروره فی کل ما هو فاعمل والفقر إكرام وير عاجل طوع الحبيب وإن ألح العاذل والقلب فيه من الحبيب بلابل المكلام من محظى لديه السائل متحفظا من كل ما هو قائل

وقال یحی بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا في خرقتين على شطوط الساحل ومن الدلائل حزنه ونحيبه جوف الظلام ف له من عاذل ومن الدلائل أن تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فعمل فاضل ومن الدلائل زهده فیا بری ومن الدلائل أن تراه باكيا أن قد رآه على قبيت فعائل ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى المليك العادل ومن الدلائل أن تراه راضيا بمليكه في كل حكم نازل ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الشاكل

من دار ذل والنعيم الزائل

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرناأن الانسوالخرف والشوق من آثار المحبة ، إلاأن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من ورا. حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب والزعج لهوهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة فىالانزعاج شوقاوهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليهالفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بمـا هو حاصل من الكشفوكان نظره مقصورًا على مطالعة الجال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ؛ استبشر القلب بمــا بلاحظه فيسمى استبشاره أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزول والبعد ثألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً . وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالآنس معناه استبشار القاب فرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرّد عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمهولدته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيلله: أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنمـا الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بمـا ناله غير ملتفت إلى مابق في الإمكان من مزايا الألطاف.

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلاف الانفراد والخلوة ، كما حكى أنّ إبراهيم بنأدهم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الآنس بالله ، وذلك لأن الآنس بالله يلازمه النوحش من غير الله ، بل كل ما يعرق عن الحلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لماكله ربه مكث دمرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحبكاء في دعائه : يامن آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقالهاته عز وجل لداود عليه السلام : كن لى مشتاقا وبي متأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت ؛ بتركى مالا يعنينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، فقلت ياراهب ما أقل ما تجده في الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الآنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم فصارهما واحد في الطاعة ، وقال بعض الحسكاء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ؟ عجباللقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟ .

فإن قلت: فما علامة الآنس؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كنفرد فى جماعة وبجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعدوية الذكر ، كاقال على كرّم الله وجهه فى وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الآمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الآعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الآنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى انكار الآنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب ، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأ الرضا فغير متصوّر . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الملا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل فى الحيال من طريق الدين قشر بحرد ووراء ه اللب المطلوب ، فن لم يصل من الجوز إلا إلى قشر ه يظن أنّ الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

الآنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال والآنسون رجال كلهم نجب وكالهم صفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غابة الأنس

اعلم أن الآنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ولم ينفصه خوف التغير والحجاب فإنه بشر نوعاً من الانبساط فى الآقوال والآفعال والمناجاة مع الله قسالى ، وقد يسكون منسكر الصورة لمسا فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل من أقم فى مقام الآنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والسكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الاسود الذي أمر الله تعـالي كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسق لبني إسرائيل ؛

بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم في سبعين ألفا ، فأوحىالله عز وجل إليه :كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنو بهم سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينها موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ،فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا . فخرج فقال في كلامه : ماهذا من فعالك و لاهذا من حلمك؟ وما الذي دالك أ فقصت عليك عيو نك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ماعندك أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ الستكنت غفارا قبل خلق الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك متنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال :فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أ نصفني ؟ فهم موسى عليه السلاميه ، فأوحى الله تعالى إليه : إن برخا يضحكي كل يوم اللاث مرات . وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبتى في وسطها خص لم يحتر ق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص ، قال : فأتى بشيخ فقال ؛ ياشيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال : إنى أفسمب على ربى عزوجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه ؛ إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم ، دنسة ثيابهم لوأقسموا على الله لابرهم (١) ، قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخراص لجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة : انظر لاتحترق بالنار ، فقال : إنى أقسمت على ربى عز وجلأن لايحرقني بالنار ، قال : فاعزم على النار أن تطفأ ، قال ؛ فمزم عليها فطفئت . وكانأبو حفص يمشىذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له أبو حفص : ماأصابك؟ فقال : صل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لاأخطو خطوة مالم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره في الوقت ومرّ أبو حفص رحمه الله .

فهذا وأمثاله بجرى لذوى الآنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الآنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة لوسمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيدفى أحوالهم بذلك . وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهـــو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه تاهوا برؤيتــه عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاء عن العبد بمسا يغضب به على غيره مهما اختاف مقامهما ، فنى القرآن تنبيهات على هـذه الممانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرآن تنبيهات لاولى البصائر والابصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبسار ، فإنمسا هى عند ذوى الاعتبار من الاسماء .

فأول القصص . قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأباس عن رحمته ،وقيل إنهمن المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ .

⁽۱) حديث الحسن عن أبي موسى « يكون في أمتى قوم همئة ر،وسهم دنسة ثبابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وســــلم في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان ، فقال ﴿ وأما من جاءك يسمى وهو يخشى فأنت عنده تلهى ﴾ وقال في الآخر ﴿ أمامن استغنى فأنت له تصدى ﴾ وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليه كم وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ حتى قال ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ .

فكذلك الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فن انبساط الآنس قول موسى عليه السلام (إن هي إلا فتنتك تصل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له (اذهب إلى فرعون) فقال (ولهم على ذنب) وقوله (إني أخاف أنّ بكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) وقوله (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغي) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الآدب لآن الذي أقيم مقام الآنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت _ في ظلمات ثلاث _ ونودى عليه إلى يوم القيامة (لولا أن تداركه فعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) . قال الحسن : العراء هو القيامة ، ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لمسا سبق فى الآزل من التفاضل والتفاوت فى المسمة بين العباد ، وقد قال تسالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد قال ﴿ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ وهذا انبساط منه لمسا شاهد من اللطف فى مقام الآنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أفيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال (وسلام عليه).

وافظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء: قد عددت من أوّل قوله تعمال (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يحتمع فى المكلمة الواحدة الثلاث والأربع .. فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل محى من ديوان النبوّة ا وكذلك كانبلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسر فين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه . فقد روى أنّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن عالمنك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لاتركنه مثلة لمن معهونكالا بعده ، فلما دخل أصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعمالى إليه عثرج حتى علا كثيبا من رمل ، ثم وفع رأسه ويديه نحو السهاء وقال : إلمى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوبإن لم تتب على وكيف أستمصم ؟ إن لم تعصمى لاعودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفى الخبر: إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أنكان أشنى على الهلكة كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك قد أهلكت فى دونه أمة من الآمم . فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الآزلية .

وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل ، فما فى القرآن شىء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﴿ قل هو الله أحدالله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ وتارة يتعرف إليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوّة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول ﴿ ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العاد ـ ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

ولايعدو القرآن هذه الافسام الثلاثة وهي : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده : ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال ، من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (۱) ، لان منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور ، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ ولم يلا أو لا يلا) ولا يكون في ولا يكون في در جته وإن لم يكن أصلا له ولا يكون حاصلا من هو مثله . ودل عليه قوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تمالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وجملته تفصيل قول « لا إله إلا الله ، فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه والتسوا غرائبه ففيه علم الاولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كاماته فيكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار المهرآن معبأة في طي القصص والأخبار ، فكن حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخر فة الحارجة عنه .. فهذا ما أردنا ذكره من معني الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتمالي أعلم .

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وماورد في فضيلنه

ا علم أنّ الرضائمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الآكثرين ، ومايدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن عليه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين ، ققد أنكر منكرون تصوّر الرضايما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال د المهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) ، فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ،

⁽۱) حديث ه من قرأ سورة الإخلاس فقد قرأ تلث القرآن » أخرجه أحمد من حديث أبى بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبى سعيد وسلم من حديث أبى الدرداء نحوه . (۲) حديث دعائهلابن عباس « المهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم .

ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيها يخالف الهوى ، ثم نذكر مايظنّ أنه من تمــام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصى .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومنهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كا رفع ذكره فرق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمذكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكا أنّ مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفى الحديث ، إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك (١) ، فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب بما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما امروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال الله تعالى (ولدينا مربد) قال بعض المفسرين : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى (فلا تعلم نفس ماأخنى لهم من قرة أعين) والثالثة : يقول الله تعالى : إنى عنكم راض فيكونذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى (ورضوان من الله تعالى و من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو فذلك قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو فذلك قوله الله تعالى وهو

وأما من الأخبار: فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ، ما أنتم ، فقالوا: مؤمنون فقال ، ما علامة إيمانكم ، فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال ، مؤمنون ورب الكعبة (٢) ، وفي خبر آخر أنه قال ، حكاء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء (٢) ، وفي الحبر ، طوبي لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل (٥) ، وقال أيضاً ، إذا أحبالله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه ، وقال أيضاً ، إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى

⁽۱) حديث » لمن الله يتجلى المؤمنين فيقول ساونى فيقولون رضائ » أخرجه البرار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لبر وفيه « فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقته عمل وعدى وأعمت عليهم لهمتى وهدذا محل إكرامى فسلونى فيسألونه الرضا ... الحديث » ورجاله رجال الصحيح فيسألونه الرضا ... الحديث » ورجاله رجال الصحيح (۲) حديث : سأل طائفة من أصحابه م ماأنم » فقالوا : مؤمنون فقال « ماعلامة لم يمانه على الحديث ، تقدم .

⁽٣) حدیث : أمانال فی حدیث آخر « حکماء علماء کادوا من فقههم أن یکونوا آنبیاء » نقدم أیضا . (٤) حدیث « طوبی لمن هدی للاسلام وکان رزقه کفافا ورضی به » أخرجه الترمذی من حدیث نضالة بن عبید بافظ « وقنع » وقال صحیت وقد تقدم (٥) حدیث « من رضی من الله بالقابل من الرزق رضی منه بالقلبل من العمل » رویناه فی أمالی المحامل بإساد ضعیف می حدیث علی بن أبی طالب ومن طریق المحامل رواه أبو منصور الدیلی فی مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : مارأينا حسابا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : مارأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : مارأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من أمة محدصلي الله عليه وسلم ، فتقول : ناشدنا كم الله حدثونا ما كانت أعماله في الدنيا ، فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير بما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لهم هذا (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٢) ، .

وفى أخبار مرسى عليه السلام ؛ إنّ بنى إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضىبه عنا ، فقال موسى عليه السلام . إلهى قد سمعت ماقالوا ، فقال : ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال د من أحب أن يعلم ماله عند الله عزوجل فلينظر ما لله عزوجل عنده ، فإنّ الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه (٢) ،

وفى أخبار داود عليه السلام ؛ ما لأوليائىوالهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ، ياداودإنّ محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون .

وروى أنّ موسى عليه السلام قال: يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره ، قال: يارب دلنى عليه ، قال: فإنّ رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام: أى رب أى خلقك أحب إليك ؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى ، قال . فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال: من يستخيرنى فى الآمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ماهوأشد من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال و أنا الله لاإله إلا أما من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى (٤) ، ومثله فى الشدة قوله تعالى فيها أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى (٥) ، وفى الحبر المشهور و يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن قال لم وكيف (١٦) ، .

وفى الاخبار السالفة أن نبيا من الانبياء شكا إلى الله عزوجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ماأراد ، ثم أوحى الله تعمللي إليه كم تشكو ، هكذا كان بدؤك عندى في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

⁽۱) حديث « لذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنعة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها » رواه ان حبان في الضفاء وأبو عبد الرحم السلى من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حيد بن على القيسى سافطهاف والحديث منسكر كالف الفرآن ، وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره . (۲) حديث « أعطوا الله الرضا من فلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » تقدم . (٣) جديث « من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ، • • الحديث » أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بله طلا من لم يصبر على بلائي . • الحديث أخرجه الطبراني في المكبير وابن حبان في الضفاء من حديث أبي هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس رباسواى » » ولمسناده ضعيف . (ه) حديث « قال الله تعالى قدرت المقادير و دبرت التدبير وأحكمت الصنع فن رضى فله الرضا • • • الحديث » ولمسناده ضعيف . (١) حديث « يقول الله خافت الحير والصر فعاوبي لمن خلفته الخير وأخر بت الحديث » ولمسناده ضعيف . (١) حديث « يقول الله خافت الحير والصر فعاوبي لمن خلفته الخير وأجد ميثاق النبيين . . . الحديث » ولمسناده ضعيف . (١) حديث « يقول الله خافت الحير والصر فعاوبي لمن خلفته الخير وأجر بت الحديث » ولمسناده ضعيف . (١) حديث « يقول الله خافت الحير والصر فعاوبي لمن خلفته الخير وأجر بت الحديث » ولمسناده ضعيف . (١) حديث « يقول الله خافت الحير والصر فعاوبي لمن خلفته الخير والمدر فعاوبي لمن خلفته الخير وأجر بت الحديث بلي يديه . . الحديث » أخرجه أبن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف .

والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ماقترته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ماتريد فوق ما أربد ، وعزق وجلالي لئن تاجلج هذا في صدرك مرة أخرى لا محونك من ديوان النبرة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون _ يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه _ فقال له بعض ولده : ياأبت ! أماترى ما يصنع هذا بك لونهيته عن هذا ! فقال : يابني إلى رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الموان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني مالا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لافعلته ، ولافي شيء لم أفعله لم لافعلته ، ولاقال في شيء كمان ليته لم يكن ، ولافي شيء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصمني يخاص من أهله يقول دعوه لو قضى شيء لمكان (١١) . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ؛ ياداود إنك تريد وأريد وإنما يكون ماأريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أقعبتك فيا تريد ثم لايكون إلا ما أريد .

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أوّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : مابق لى سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : مايقضى الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دوا . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبى رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والحل و لا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عزوجل وقال عبد الله بن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل الى قرحة فى رجل محمد بن واسع . فقال : إنى لارحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لا شكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عينى .

وروى فى الإسرائيليات ؛ أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام : فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها ، فسكان يبيت قائمها وتبيت نائمة ويظل صائمها وتظل مفطرة . فقال : أما لك عمل غير مارأيت ؟ فقالت : ماهو والله إلا مارأيت لاأعرف غيره ، فلم يزل يقول : تذكرى ، حتى قالت : خصيلة واحدة هى فى ؛ إن كنت فى شدة لم أنمن أن أكون فى رخاه ، وإن كنت فى مرض لم أنمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه رخصيلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يمجز عنها العباد .

وعن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى فى السهاء قضاء أحب من أهل الآرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمسان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه . ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء . وقال الثورى وما عندرابعة : اللهم ارض عنى ، فقالت : أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال ؛ أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعى : فمنى يكون العبد راضياعن الله

⁽١) حديث أنس : خدمت النبي سلى الله عليه وسلم فما قال لى لدى. فعلته لم فعلته . . . الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوىعنده المنعوالعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبى الحوارى : قال أبو سليمان الدارانى إن الله عزوجل من كر مه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت : وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الحلقان يرضى عنه مولاه قلمت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم . إن الله عز وجل عسكمته وجلاله جمل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط ١١٠ م.

بيان حقيقة الرضا وتصوره فما يخالف الهوى

اعلم أنّ من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر ؟ فإنما أنّ من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصوّر الحب فه تعالى واستغراق الهم به فلا يخنى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالآلم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله : الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لايحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذي يحجم أد يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لآن القلب إذا صار مستغرقا بأس من الآمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك لا يشعر به . وكل ذلك لآن القلب إذا صار مستغرقا بأس من الآمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ا فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشسغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الآلم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كا يتصور تضاعف الآلم ، وكا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لايقاس به جمال ولا جلال ، فن ينكشف له شيء منه فقد يهره بحث يدهش ويغشي عليه فلا يحس بمايجرى عليه فقد روى أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أز الت عن قلي مرارة وجعه . وكان سهل رحه الله به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في نقال : اما تحدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أز الت عن قلي مرارة وجعه . وكان سهل رحه الله تمالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في نقال : اما تحدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة نقال : اما تحدين الوجع ؟ فقالت ؛ لن لذة نقال : اما تحديد منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في المقال : اما تحديد المرب ضرب الحبيب لا يوجع !

(وأما الوجه الثانى) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له - أعنى بعقله - وإن كان كارها بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم ، وكذلك كل من يسافر في طاب الربح يدرك مشقة السفر وجعله راضيا بها . ومهما أصابه بلية من الله يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان

⁽١) حديث « لمن الله بحكمته وجلاله جمل الروح والفرح في الرضا ٠٠٠ الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسمود لملا أنه قال « بقسطه » وقد تقدم .

يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عايه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاء لا لمنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الحلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فا هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيا بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين الحسيسة التي تغلط فيما ترى كبيرا ، فترى الصغير كبيرا والسكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فن أين كبيرا ، فترى الصغير كبيرا والسكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح بحيلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلى الابدى الذي لامنتهى لـكاله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت ؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم .

فقد قال شقيق البلخى : من يرى واب الشدة لا يشتهى الخرج منها ؟ وقال الجنيد : سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا ، قلت وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ـ ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحارث : مردت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته فقلت له : لم ضربت؟ فقال لاني عاشق ، فقلت له ولم سكت ؟ قال لان معشوقى كان بحداثى ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت الى المعشوق الأكبر ا قال فرعق زعقة خر ميتا . وقال يحي بن معاذ الرازى ـ رحمه الله تحالى _ إذا نظر ألمل الجنة إلى الله تعالى ثمائمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظل الجنة إلى الله تعالى ثمائمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظلك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جاله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى بحذوم بجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعته في حجرى وأنا أردد الحكام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني إربا إربا ما ازددت له الاحبا ؟ قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . وقال أبو عمر و محمد بن الاشعث إن أطل مصر مكشوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانو ا إذا جاءوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك و هو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك . وقال سعيد بن يحيي رأيت بالبصرة في خان عطاء بن أمدمة وهو يقول :

ثم بقر بالمدية بطنه وخرّ ميتا ، فسألت عنه وعن أمره فقيل لى إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه بوما واحدا . ويروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل دلنى على أعبـد أهل الارض ؟ فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الامل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدّ سروراً أبدا منه ، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر : إنمـاكان حزني رحمةله ، فلما وقع أمر الله رضينا به . وقال مسروق . كان رجل بالبادية له كلب وحمار ودبك ، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكاب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يحكونُ خيرًا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل :عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الحكلب بمد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقُوا هم ، قال : وإنمـا أخذوا أولئك لماكان عندهم منأصوات السكلاب والحمير والدبكة ، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوا نات كما قدّره الله تعالى . فإذن من عرف خنيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . ويروى أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجُذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني بمسأ ابتلي به كثيرًا من خلقه ، فقال له عيسي : يا هذا أي شي. من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال : ياروح الله أنا خير بمن لم يجمل الله في قلبه ماجمل في قلبي من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك، فنساوله يده فإذا هو أحسن النساس وجها وأفضلهم هيئة ا وقد أذهب الله عنه ماكان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه . وقطع عروة بن الزبير رجله ... من ركبته _ من أكلة خرجتها تم قال : الحدلله الذي أخذ منى واحدة وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة • وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغني مطيتان ما أبالي أيتهما ركبت ؟ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر وإن كان الغني فإن فيه البذل. وقال أنوسليمان الداراني : قلت قد نلت من كل مقام حالا إلاالرضا فمالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر : هل نلت غايةالرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الحلائق على إلى الجنة ثم ملاً بي جهنم ـ تحلة لقسمه وبدلا من خليقته ـ لاحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه . وهذا كلام من علم أنَّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقى إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار . واستيلاء هذه الحالة غير محـال في نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنــا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف الحروم أحوال الاقوياء ويظنّ أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنــه الأوليـاء . وقال الروذبارى : قلت لابى عبد الله بن الجـلاء الدمشتى : قول فلان ؛ وددت أنَّ جسـدى قرض بالمقاريض وأن هذا الحلق أطاعوه ؛ ما معناه ؟ فقال : ياهذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإنكان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشى عليه . وقد كان عمران بن الحصين قسد استسقى بطنــه فبتى ملقى على ظهره اللاثين سنة لا يقوم ولا يقعــد ــ قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته _ فدخل عاليه مطرف وأخره الدلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحمالة العظيمة 1 قال: لانبك فإنّ أحبه إلى الله تعمالي أحبه إلى ! ثم قال: أحدَّثك شيبًا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم على حتى أموت ، إنَّ الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بمقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ١ فن يشاهد هذا في بلائه كيف لايكون راضيابه ؟ قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثو با ملتى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقــالت له امرأنه : أهلى فداؤك ما نطعمك . ما نسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعماما ولا أسيغ شرا با منذكذا ، فذكر أياما ، وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءهااناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعوله ، فيدعو لهذا ولهذا ـ وكان بجاب الدعرة ـ قاله عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعرّفت إليه فعر فني وقال : أنت قارئًاهل مكة ؟ قلت : نعم، فذكر قصة قال في آخرهما : فقلت له : ياعم أنت تدعو للنماس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ! فتبسّم وقال : يابني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف لهُ خبر ، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعتراضي عايه فيها قضي أشدّ على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيا فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة _ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب _ فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشيء كان ، ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لـكان أحب إلى من أن أفول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصده فقال له : ياحبيي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال أنست به ؟ قال : لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعيم ، قال لولا أنى أستحيى منك لاخرتك بأن معاملتك خسين سنة مدخولة ! ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعدُّ في طبقات أصحاب اليمين ، لأن من بدك منه في أعمــال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمـه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقــد جمع بين يديه حجارة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا محبرك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محهتي إن صدقتم فاصبروا على بلائى ا

وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران؟

وقال بمض عباد أهل الشام كلمكم يلتى الله عز وجل مصدّقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بهاشلل ظل يواريها ؛ يعنى بذلك أنّ الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسرى ، احترق السوق وما احترق دكانك ا فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحسكايات عرفت قطعا أن الرضا بمسا يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهماكان ذلك بمكنا في حب الحلق وحظوظهم كان بمكنا في حق حب الله تعمللي وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالآلم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . (والثاني) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألذ الآشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه . كما قيل :

وهذا يمكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ؛ فالقياس والتجربة والمشاهدة

دالة على وجوده ، فلا ينبغى أن ينكره من فقده من نفسه ! لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرطحبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

وقد روى عن عمر و بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقة عند صديق لى ، وكان معنا فتي يتعشق جارية مننية ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا ولا سما عاشق إذا لم يجد مشتكي

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدتى أفتأذنين لى أن أموت ا فقالت : مت راشدا ا قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقاً بكم صبى وهو بتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبى وقال له : إلى متى ذا النفاق الذى تظهر لى ؟ فقال : قد علم الله أنى صادق فيما أورده ، حتى لو قلت لى مت لمت ، فقال : إن كنت صادقاً فمت ، قال : فتنحى الرجل وغمض عينيه فرجد ميتا . وقال سمنون المحب : كان فى جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ! قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك ـ آه . وحكى عن محمد ابن عبدالله البغدادى قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فليمت هكذا ﴿ لا خير في عشق بلا موت ا

ثم رمى بنفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لان البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أو فى من كل جمال ، بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذى فقد السمع ينكر لذة الآلحان والنفات الموزونة ، فالذى فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لامظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عرب مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى إزالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لابناقضه أيضا . وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام - على مانقناه فى كتاب الدعوات ـ تدل عليه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا . وقد أننى الله تعالى على بعض عباده بقوله (ويدعوننا رغبا ورهبا) وأما إنكار المعاصى وكراهتها وعدم الرضا بهافقد تعبد الله به عباده و ذمهم على الرضا به فقال (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) وقال تعالى (رضوا بأخيات يكونوا مع الحوالف وطبع على قلوبهم) وفى الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضى به فكأنه قدفعله ، وفى الحديث « الدال على الشركفاعله أنه وفى الخبر « لوأن عبدا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان وقيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به وفى الخبر « لوأن عبدا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان

⁽¹⁾ حديث والدال على الشركفاعله ، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا .

شريكا فى قتله (۱) ، وقد أمر الله تعمالى بالحمد والمنافسة فى الحيرات وتوقى الشرور فقال تعمالى ﴿ وَفَى ذَلِكَ فَل فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لاحمد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها فى الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق (۲) ، وفى لفظ آخر ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتانى الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل ،

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والآخبار لا يحصى مثل قوله تعمللي (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أوليماء من دون المؤمنين) وقال تعمللي (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) وفي الخبر و إن الله تعالى أخذالميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن أن ، وقال عليه السلام و المرء مع من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة (٥٠) ، وقال عليه السلام و أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله أنه أنه أنه والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المذكر ؛ فلا نعيده ،

فإن قلت : فقد وردت الآيات والآخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ^{۱۷} فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى ، وكيف فهو محال وهو قادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في واحد ؟ فاعلم أنهذا عما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قرم حتى أوا السكوت عن المشكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الحلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من عدق وجه ؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه ، فتكر ، موته من حيث إنه عدق عدوك وترضاء من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليا للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث أنه كسبه ووصفه وعلامة كونه بمقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بثال :

⁽۱) حدیث دلوان رجلا قتل بالمشرق ورضی نقته آخر فی المنه کان شریکا فی قتله » لم أجد له أسلا بهذا اللهظ ولا بن عدی من حدیث أبی هریره « من حضر معصیة ف کر مها ف کا عما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها ف کا عما حضرها » و تقدم فی کمتاب الأمن بالمعروف . (۲) حدیث « لا سد لملا فی انتین ... الحدیث » آخر جه البخاری من حدیث أبی هریرة و مسلم من حدیث ابن مسمود وقد تقدم فی العلم . (۳) حدیث «ان الله أخذ المیثاق علی کل مؤمن أن بهنس کل منافق ۱۰۰ الحدیث لم محدیث ابن مسمود وقد تقدم فی العلم . (۳) حدیث « المرافی من حدیث المعرافی من حدیث جابر « من أحب قوما علی أعمالهم حصر فی زمن تهم » زاد ابن عدی العلم المعرافی من حدیث بایر « من أحب قوما علی أعمالهم حصر فی زمن تهم » زاد ابن عدی « یوم القیامة » وفی طریقه المعامل بن مجمی التیمی ضعیف .

⁽٦) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبنض في الله » رواه أحمد وتقدم في آداب الصحية . (٧) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص « من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عزوجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « ارض بمساقسم الله في تسكن أغنى الناس » وحديث « لن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا » وتقدم في حديث الاستخارة « واقدر لى الخير حيث كان ثم رضني به » وحديث « من رضي من الله بالقليل من الرزقي رضى منه بالقليل من العدل وحديث » أسألك الرضا بالقليل من الحديث » وغير ذلك .

فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدى محبيه . إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني ، وأنصب فيه معيارًا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى . حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا لى ، فـكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوًى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة ـ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك و تدبيركوفعلك وإرادتك ! وأماشتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن بصبر ولايشتم ، ولكنه كان مرادك منه ۽ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لـُكان ذلك نقصا ما في تدبيرك وتعويقا في مرادك ، وأناكاره لفوات مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك إذكان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضربولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لامن حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لآنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدَّوه عدوًا . وأما بغضه للهُ فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك ، فهر بمقوت عندى لمفته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضاً عندى مكروه من حيث أنه وصفهوكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى . وإنمـا التناقضأن يقول : هومنحيث إنه مرادك مرضىومن حيث إنه مرادك مكروه ، وأما إذا كَان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ، ويشهد لذلك كل مايكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لاتحصى .

فإذن تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ويحرّه الحب إلى فعل المعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ؛ ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى ااشتم . ومقت الله تعمل لم نشمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره تعمل لم نشمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعمل ذلك بكل عبد من عبيده _ أعنى تسليط دواعى المعصية عليه _ يدل على أنه سقت مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد يحب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته _ وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته و يخالفته _ فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا و مطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

بهذا يتقرر جميع ماوردت به الآخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تصالى من حيث إنه قضاء الله عزوجل . وهذا كله يستمد من سر القدر ـ الذى لارخصة فى إفشائه ـ وهو أن الشر والحبير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والحبير مراد مرضى به . فن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنهماجميما منه ـ من غير افتراق فى الرضا والكراهة ـ فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب

الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم . القدر سر الله فلا تفشوه (١) ، وذلك يتعلق بعلم المسكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيا تعبد به الحلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعمالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعمالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمففرة والعصمة من المعاصى وسائرا لأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعمل ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواثر مزايا اللطف . كا أن حمل الكوز وشرب المهاء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعمالى في العطش ، وشرب المهاء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فيكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعمالى وأمر به . وقد ذكرنا أن النمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعمالى لايناقض التوكل ـ واستقصيناه في كتاب التوكل ـ فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم المؤلمار البلاء في معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لايناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعمالى أن لايقول هذا يوم حار ـ أى في معرض الشكاية ـ وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصافع ، والمكل من صنع الله تعملى . وقول الفائل : الفقر بلاء ومحمد غنيا أو فقيرا فإنى يسلم القدبير لمدره والمملكة لممالكها ويقول ماقاله عمر رضى الله عنه ؛ لاأ بالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإنى يسلم القدبير لمدره والمملكة لممالكها ويقول ماقاله عمر رضى الله عنه ؛ لاأ بالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإنى لادرى أمهما خير لى .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لايقدح في الرضا

اعلم أنّ الصعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسسلم عن الحروج من بلد ظهر به الطاعون ١١ يدل على النهى عن الحروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لآن كل واحده نهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهى عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لوفتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء وبتى فيه المرضى مهملين لامتعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ، ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاخبار بالفرار من الزحف (١) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف ـ وقد ذكر نا حكم ذلك في من الزحف (١) ولو كان ذلك للفرار من الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لابد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصى والاسباب التي تدعو إليها ـ لاجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة . في زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فيها رأيت بلدا شرا من بغداد اقبل ؛ وكيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصفر فيه معصية الله . ولمسا قدم خراسان قيل له : كيف قبل ؛ وكيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصفر فيه معصية الله . ولمسا قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصفر فيه معصية الله . ولميا قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : مارأيت بها إلاشرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ا ولاينبغي أن تظن أن ذلك

⁽¹⁾ حديث « القدر سر الله فلا تفهوم » أخرجه أبو لديم في الحاية من حديث ابن عمر وابن عدى في الـــكامل من حديث عائشة وكلاما ضميف .

⁽٢) حديث : النهى عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم في آداب السفر . (٣) حديث : أنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من الغيبة ؛ لأنه لم يتعرّض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة ـ وقد كان مقامه ببغداد ـ يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدّق بستة عشر دينار لسكل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراق جماعة : كعمر بن عبد العزيز وكعب الآحبار . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ؟ بلغنى أن مامن أحد يسكن العراق إلا قيض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشروفيه الداءالعضال . وقدقيل : قسم الخير عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفى متدرع بعباءة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال : أينا أحدهم فى زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال فى عش أين تسكن ؟ فقال : بغداد : فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال فى عش الظلمة ؟ وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في أدل الصبيان بناكان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى 1 قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم البلد آثر فى نفسى 1 قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير .

فهذا يدل على أنّ من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلا عذر له فى المقام بها ، بل ينبغى أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُن أَرْضَ الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذن ليس فى شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق إلامن حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هى فى نفسها فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء فى الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لحدمة المولى ، ورجل قال لاأختار شيئا بل أرضى بما اختارها لله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط ، فقال الثورى كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أنى مت ، فقال له يوسف لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكنى لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعلى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لاأختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثورى بين عينيه وقال روحانية ورب الكمبة .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحب متعوب . وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة ؟ فقال أناكل السبعة . وكان يقول إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلا ، قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لانى رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له بلغنا أنك ترى الحضر عليه السلام ؟ فتبسم وقال ليس العجب بمن يرى الحضر ولكن العجب بمن يريد الحضر أن يراه فيحتجب عنه 1 وحكى عن الحضر عليه السلام أنه قال ماحدثت نفسى يوما قط أنه لم يبق ولى لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأني يزيد البسطاى مرة حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال ويلكم لايصلح لكم أن تعلموا ذلك ! قيل فحدثنا بأشد بجاهدتك لنفسك في الله تعالى ، فقال وهذا أيضاً لايجوز أن أطلعكم عليه . قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك ، فقال نعم ، دعوت نفسي إلى الله لجمحت على فعرمت عليها أن لاأشرب المـاء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك · ويحكى عن يحيي بن معاذ أنه رأى أبايزيد ـ في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر _ مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لايطرف ، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إنّ قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على المساء والمشي في الهواء فرضوا بذلُّك وإني أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الارض فرضوا بذلك وإنى أعوذبك منذلك ،وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الارض فرضوا بذلك وإنَّى أعوذبك من ذلك ، حتى عدَّ نيفًا وعشرين مقامًا من كرامات الاولياء ، ثُمُّ التفت فرآنى فقال: يحبي ! قلت: نعم ياسيدى ، فقـال: مذ متى أنت ههنا؟ قات: منذ حين ، فسكت ، فقات: ياسيدى حدَّثنى بشيء فقال : أحدَّثك بما يصلح لك ، أدخلني في الفلك الاسفل فدوّرني في الملكوت السفلي وأراني الارضين وماتحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوى فطوف في في السموات وأراني مافيها من الجنـــان إلى العرش، أوقفني بين يديه فقــال : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت : ياسيدي مارأيت شيئـــا استحسنته فأسأ الكاياه 1 فقال : أنت عبدى حقا تعبدني لاجلي صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت : ياسيدى لم لا سألته المعرفة به ؟ وقد قال لك ملك الملوك سلني ماشَّت ، قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت ويلك 1 غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه . وحكى أنّ أبا ترابالتخشيي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقيال له أبو تراب يوما لورأيت أبا يزيد؟ فقال : إنى عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله , لو رأيت أما يزيد ، هاج وجد المريد فقال : ويحك ما أصنع بأني يزيد قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد ؟ قال أبو تراب : فهاج طبعي ولم ألملك نفسي ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أنترى الله سبعين مرة 1 قال : فبهت الفتي من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ماقلت ، فقال : احملني إليه ، فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل تنتظره ليخرج إلينا من الغيضة ـ وكان يأوى إلى غيضة فيهــا سباع ـ قال : فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقات للفتى : هذا أبو يزيد فالظر إليه ! فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركنــاه فإذا هو ميت ، فتماونا على دفنه فقلت لابي يزيد: ياسيدي نظره إليك فتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في فلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآمًا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله ، لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع إلى سهل إخوابه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إنَّ لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ؛ ولكن لايفعلون ، قيل لم ؟ قال لانهم لايحبون مالا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لايستطاع ذكرها ، حتى قال : ولو سألوه أن لايقيم الساعة لم يقمها . وهذه أمور بمكنة في أنفسهافين لم يحظ بشيء منها ، فلا يذبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عميموعجائب الملك والملكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطنى لاغاية له . ولذلك كان أبو بزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ماورا. ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة ، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل ، وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال ، وقيل لى : انظر إليهن ، قال : فسجدت وغمضت عينى فى سجردى لئلا أنظر إليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك الاحاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى .

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق بجال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد بجاوزة عقبات ونيبل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الحلق عن جميع الاعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الحلق بستر الحال حتى يبق متحصنا بحصن الحول : فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الاتقياء من الناس . وبعد تصفية القاب عن كورة الالتفات إلى الحلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى بجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والحبث وهو لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرقى فيها عند ظهورجوهرها، وإنكار ذلك غاية الجهل والصلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا راو من مبادى الطريق ، كا قيل المبشر : بأى شيء بلغت هذه المذرلة ؟ قال : كنت أكاتم الله تعالى حالى . همناه : أسأله أن يكتم على ويخنى أمرى ، وروى أنه رأى الحضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت زدنى ، قال وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الحلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال عليك . فقيل معناه سترها عن الحلق ، فقال تعالى مرة أن يربى إباه ليه لمنى شيئا كان أهم الأشياء على ، قال أم أيته فليكن فرأيته فما غلب على همى ولا همتى إلا أن قلت له ياأبا العباس علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الحليقة فلم يكن فرأيته فما غلب على همى ولا همتى إلا أن قلت له ياأبا العباس علمى كشيف سترك وحط على سرادقات حجك لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل اللهم أسبل على كشيف سترك وحط على سرادقات حجك واجملى في مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك ، قال ثم غاب فلم أه ولم أشتق إليه بعدذلك ، فازلت أقرل هذه الكلمات في كل يوم ، فحكى أنه صار يحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم السقوطه عندهم وكان الصبيان يلمبون به حفيكان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى ، فني أمثال هؤ لاء ينبغى أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقبات قال تعالى أوليان تعديد وسلم ، وخيرة الله تعالى على أولياته تأني الايوبه كان قال تعالى أوليان تعدد وعمرين لايؤبه له لم قال تعالى أوليان تعدد أن المراق الله على وسلم ، وب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله تعلى الله المراق الله على الله المراق المراق الله على الله المراق الله على أولياته المراق الله المراق الله المراق الله المراق الله على أوليان العبون لايؤبه له لو أقسم على الله المراق الله الله المراق الله المراق الله المراق الله على الهراق الله المراق الله المراق الله المراق الله المراق الله على الله اللهم الله المراق المراق اللهم الله المراق المراق المراق المراق اللهم المراق المراق المراق المراق المراق المراق اللهم الله على اللهم المراق المراق المراق المراق المراق المراق المراق ا

⁽¹⁾ حديث « رب أشعثُ أغبر ذي طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها المشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس مغزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته ، فتل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لاهله ، فمن لايقدر أن يمكون من أولياء الله فليكن عبا لاولياء الله مؤمنا ببعض أن يحشر مع من أحب ، ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الورع ؟ بهم فعسى أن يحشر مع من أحب ، ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الورع ؟ قالوا في التراب ، ولقد انتهى المريدون لولاية الله قالوا في التراب ، فقال بحق أقول لم كم لا تنبت الحكمة إلا في فلب مثل التراب ، ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعلى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والحسة ، حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيددعاه ورجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة السكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرى عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة السكل يطرد فينطرد ثم يدعى فيرى في خلام فيعود ، ولو رددتني خسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لاجبت . وعنه أيضا أنه قال نولت في محلة فعرفت في وجعلت أمنى قليلا قليلا . فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحام فسكت نفسي .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الحلق ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى انفسه محبوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحبجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق بجاس أبى يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثملائين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثا تقسنة وقت ليلها ماوجدت من هذا ذرة ا قال : ولم ؟ قال : لانك محبوب بنفسك ، قال فلهذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل ليلها ماوجدت من هذا ذرة ا قال : ولم ؟ قال : لا تفكر على حتى أعمل ، قال : اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتور بعباه قوعلق في عنقك مخلاة ممومة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صفحنى وانزع هذا اللباس واتور بعباه قوعلق في عنقك مخلاة ممومة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ا تقول لى مثل هذا ا فقال أبو يزيد : قولك ، سبحانالله ، شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ! فقال : هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره ! فقال : ابتدئ بهذا قبل كل عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ! فقال : هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره ! فقال : ابتدئ بهذا قبل كل شهد ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجى من هذا المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا ، فاقل درجات الصحة نفسه ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجى من هذا المدرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا .

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع فقد قال صلىالله

عليه وآله وسلم . لايستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أنلايعر فأحب من أن يعرف (١) ، وقد قال عليه السلام و ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لايخاف في الله لومة لائم ولايرائي بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا "، وقال عليه السلام . لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذارضي لم يدخله رضاء في باطل ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له ٣٠) ، وفي حديث آخر . ثلاث من أوتبهن فقد أولى مثل ما أوتي آل داود : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغني والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية (١٠) ، فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لاولى الإيمان فالعجب بمن يدّعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرّة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمــان؛ وفي الآخبار أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض انبيائه : إنما اتخذ لحلتي من لايفتر عن ذكرىولايكونله هم غيرى ولا يؤثر على شيئًا من خلق وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما . فن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحدّ فمن أين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمسكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراءكال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له . ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه , إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي وأعطاني مثل إعـــان كل من آمن به من ولد آدم (٠٠) ، وفي حديث آخر و إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيُّد دخل الجنة ، فقال أبو بكر ؛ بارسول الله هل في منها خلق فقال ، كلها فيك يا أبا بكر وحبها إلى الله تعمالي السخاء 🗥 ، وقال عليه السلام . رأيت ميزانا دلى من السهاء فوضعت في كفة ووضعت أمتى في كفة فرجحت بهم و وضع أبو بكر في كُفة وجيء بأمتى فوضعت في كفة فرجح بهم (٧) ، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال , لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (١٠) يعني نفسه .

من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

متفق عليه وقد تقدم.

(٧) حديث و لوكنت متخذا من الناس خليلا لأنخذت أبابكر خايلا ... الحديث »

⁽۱) ه حديث لا يستنكل عبد الإيمان حتى يكون قلة الهيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن لايمرف أحب اليه من أن يمرف » ذكره صاحب القردوس من حديث على بن أبي طلعة ، وعلى هذا فهو معضل فعلى بن أبي طلعة أيما سهم من التابعين ولم أجد له أسلا. (۲) حديث ه ثلاث من كن فيه استنكل المصاب الذروس من حديث أبي هريرة وقيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنساني وونقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد . (۳) حديث ه لايكل المعان العبد حتى يكون فيه خلاث خصال : المذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق .. الحديث أخرجه الطبراني في الصنير بلفظ ه ثلاث من أخلاق الإيمان » ولسناده ضعيف . (٤) حديث و ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود : المدل في الرحا والنصب » غريب بهذا الفظ، والمروف و ثلاث منجيات » فذكر هن بنحوه وقد الديلي في مسند الفردوس من رواية المارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف . (١) حديث فان لله تعالى الديلي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف . (٢) حديث أن مراوعا من الله الله خلق من المنهة عشر وثائمانة خلق من جاء مخلق منها مع ما الحديث ، الحديث أن مراوعا من الله الله تدخل الجنة » ومن حديث أنس مراوعا من الله الله شريعة وثلاثة عمر شريعة وفيه وفي السكدير من رواية المنيرة بن عبد الرحن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بافظه الإيمان والمبار من حديث عنها بن عبان بن عفان بن عفان و لمن الله الله وسعة عمر شريعة ... الحديث » وليس فيها كاما تدرش الدوال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة .

ولغيره:

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقال غيره: دوام الذكر، وقال غيره إيثار المحبوب وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدنيا، وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرّضوا لها. وقال بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه و تمتنع الآلسن عن عبارته، وقال الجنيد؛ حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة، وقال: كل محبة تسكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة، وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله، وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب؛ فقال: العارف إن تمكم هلك، وقال الشبلي رحمه الله:

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم يا رافع النوم عن جفونى أنت بما مر بى عليم عبستان يقولذكرت إلى وهل أنسى فأذكر مانسيت أموت إذا ذكر تك ثم أحيا ولولاحسن ظنى ما حييت فأحيا بالمنى وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت شربت الحبكأسابعدكأس فانفد الشرب ومارويت؟ فليت خياله نصب لعينى الفان قصرت في نظرى عييت فليت خياله نصب لعينى المناهدية

وقالت رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعمالي : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملانه من حي وتوليته بحفظي . وقيل : تكلم سمنون يوما في الحجة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمـات · وقال إبراهيم بن أدهم : إلهي إنك تعلم أنَّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتنيمن محمتك وآنستي لذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك ، وقال السرىرحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والاحق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إنى لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عليه السلام عن أفضل الاعمال فقال : الرضا عن الله تعمالي والحب له . وقال أبو يزيد : الحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة : إنمـا يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لايبق فيك شيء راجع منك إليك ، وقيل المحبة قربالفلب من المحبوب بالاستبشار والفرح. وقال الخوّاص: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات. وسئل سهل عن الحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه . وقيل معاملة المحب على أربع منازل ؟ على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم ، وأفضلها التعظيم والمحبة لأنَّ هانين المنزلتين ببقيان مع أهل الجنة في الجنةو يرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجـل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليـه ، وإذا وجد حلاوة الإنبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة : وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول ـ وهي باكية والدُّموع على خدها جارية .. والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعمالي وحبا للقائه ، قال

فقلت لهما ؛ فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا ولكن لحي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعـالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظـارى لهم ورفق بهم وشوق إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين على فكيف إرادتي في المقبلين على ، يا داود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عبدى إذا رجع إلى : وقال أبو خالد الصفار لتى نبي من الانبياء عابدًا فقال له ؛ إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الانبياء فعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن فعمل على المجبة والشوق · وقالاالشبلي رحمهالله : أوحىالله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين، وجنتي للمطيعين . وزيارتي للمشتافين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليـه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدّق قوله من أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جدّ في مسيره . وكان الحقواص رحمـه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه كمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بسكى يونس عليــه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أفعد ، وقال وعزتك وجلالك لوكان بيني وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا مني إليك. وعن على بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال . المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كلزىوالحزن رفيق والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخرى والزهد حرفتي واليقين قوتى والصدق شفيعي والطاعة حبى والجهاد خلقي وقزة عيني في الصلاة (١) ، وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنود بجندة فأرواح العــارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاذرا إلى الله تعمالي ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الغمافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللـكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والموى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحماجات ، فهذا القدركاف فى شرح المحبة والآنس والشوق والرضا ، فلنقتصر عليمه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والآنس، يتاوه كتاب النية والإخلاص والصدق.

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به أيمان الموقنين ، ونؤر بوحدانيته إقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله

⁽¹⁾ حديث على : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المرفة رأس مالى والمقل أصل دبني ... الحديث » ذكرة القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له لمسنادا .

إلا انه رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائدكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ فما نه إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الاغنياء عن شركة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد: فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكى إلا المخاصون ، والمخاصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغيير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق مباء ، وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل لجعاناه هباء منثورا ﴾ وليت شعرى كيف يصحح غير الله مشوبا مغمورا ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أوكيف نيته من لا يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أوكيف تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلنا العبد يقعلم النية أولا لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلنا العبد إلى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معانى الصدق والإخلاص فى ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) في حقيقة النية ومعناها .

(الباب الثانى) فى الإخلاص وحقائقه .

(الباب الثالث) في الصدق وحقيقته .

الباب الأوّل في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيرا من العمل ، وبيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى (ولانطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى بريدون وجهه) والمراد بثلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم ، إنما الاعمال بالنيات ولـكل امرئ ما نوى فن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم «أكثر شهدا مأمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته (۲) ، وقال تعمالي (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) فجمل النية سبب التوفيق . وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الله تعمالي لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (۲) ، وإنما نظر إلى القلوب لانها مظنة النية : وقال صلى الله عليه وسلم وأنّ العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة في صحف محتمة فتلق بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة والمناهد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة في صحف محتمة فتلق بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة

⁽۱) حديث و لم بما الأعمال بالنيات ... الحديث ، متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم . (۲) حديث « أكثر شهداء أمنى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته ، أخرجه أحمد من حديث ابن مسمود وفيه عبد الله بن لهيمة . (٣) حديث و لمن الله لاينظر الى سوركم وأموالسكم . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فإنه لم يرد بمـا فنها وجهي ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يممل شيئًا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم . الناس أربعة : رجل أتاه الله عز وجل علمـا ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آناني الله تعـالي مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آناه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آناني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سيواء (٢١) ، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه . وكذلك في حديث أنس بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال . إن يالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولاوطئنا موطئا يغيظ الكفار ولاأنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخصة إلا شركونا فذلك وهم بالمدينة ! . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال ، حبسهم العذر فشركوا بحسن النية (٣) ، وفي حديث ابن مسعود . من هاجر يبتغي شيئا فهوله ، فهاجر رجل فتزوّج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس (١٤) ، وكذلك جاء في الخبر . إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحار (٠٠) ، لأنه قاتل رجلالياخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته . وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم , من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله مانوی (۱) ، وقال أبي : استمنت رجلاً يغزو معى فقال : لا حتى تجعل لى جعلاً ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال . ليس له من دنياه وآخرته إلا ماجعلت له (٧) ، وروى في الإسرائيليات ، أن رجلا مربكثيان من رمل في جاعة فقال في نفسه : لو كان هذاالرمل طعاما لقسمته بين الناس ، فأوحى الله تعالى لما نديهم أن قل له إن الله تعمالي قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب مالوكان طعاما فتصدَّقت به ، وقد ورد في أخبار كثيرة . من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٨) ، وفي حديث عبد الله بن عمرو . من كانت الدنيا نيته جعل الله فقر. بين عينيه وفارقها أرغب مايكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يحون فيها (١) ، وفي حديث أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيدا. فقلت : يارسول الله يكون فيهم المكره والآجير فقال « يحشرون على نياتهم (١٠) وقال عمر رضي الله

⁽۱) حدیث « لمن العبد لیممل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... ملدیث » أخرجه الدارقطنی منحدیث أنس بإسناد حسن (۲) حدیث « الناس أربعة : رجل آناه الله علما و ملا ... الحدیث » أخرجه ابن ماجه من حدیث أبی كبشة الأعاری بسند جید بلفظ « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحدیث » وقد تقدم ورواه الترمذی بزیادة وفیه « و انما الدنیا لأربعة نفر ... الحدیث » وقال حسن صحیح .

⁽٣) حديث ألس « أن بالمدينة أقواما ماقطمنا واديا ... الحديث » أخرجه البخارى مختصرا وأبو داود . (٤) حديث ابن مسمود » من هاجر ببتنى شيئا فهو له » هاجر رجل فتروج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : أخرجه الطبراني بإسناد جيد . (٥) حديث و لن رجلا قتل في سببل الله في الن في المناب ، ولا على الموسولات ، ولا على الله أبو لمسحق الفراوى في السنن من وجه مرسل . (٦) حديث « من غزا وهو لا ينوى لا عقالا فله مانوى » أخرجه النساني من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة ، (٧) حديث أبي : استعنت رجلا ينزو معى فقال لاحتى تجمل لى جعلا لجملت له فذكرت ذلك النبي سلى الله عليه وسلم في المناب في مسند الشاميين ولا من داود من حديث يملى بن أمية أنه استأجر أجيرا النزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي صلى الله عليه وسلم و ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة الا دنانيره التي سمى » . (٨) حديث « من هم محسنة فلم يسملها كتبت له حسنة » متفق عليه وقد تقدم . (٩) حديث عبد الله بن عمرو « من كانت الدنيا نبيته جمل الله فقره بين عبليه . الحديث ، أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله « وفارقها أرغب مايكون فيها » ودون قوله « وفارقها أزهد مايكون فيها » ودون قوله « وفارقها أزهد مايكون فيها » وفيه أجده من حديث عبد الله بن عمروا ، (١٠) حديث أم سلمة إن في الجيش الذي يخسف بهم « يحصرون على نباتهم » أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم .

عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إنما يقتتل المقتتلون على النيات (١) ، وقال عليه السلام ، إذا التق الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على سراتهم فلان يقاتل للدنيافلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألافلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فن قاتل لتكون كلمة الله هى العايما فهو فى سبيل الله (١) ، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، يبعث كل عبد على ما مات عليه (٣) ، وفى حديث الاحنف عن أبى بكرة ، إذا التق المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يارسول الله هذا القاتل فى بال المفتول ؟ قال ، لانه أراد قتل صاحبه (١) ، وفى حديث أبى هريرة ، من تزوّج امرأة على صداق وهو لاينوى أداءه فهو زان ، ومن ادان دينا وهو لاينوى قضاءه فهو سارق (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (١) ، .

وأمَّا الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الاعمال أداء ما افترض الله تعمالي والزرع عما حرّم الله تعمالي وصدق النية فيما عند الله تعمالي . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره. وقال بمض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائى : البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثورى : كانوا يتعلمون النية للعملكا تتعلمون العمل. وقال بعض العلمـاء اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوى الحير فأنت بخير . وكان بمض المريدين يطوف على العلماء يقول من بدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لاأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإنّ الهأم بعمل الخيركعامله . وكذلك قال بعض السلف وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ولمنّ ذنو بكم أخنى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لـكم مابين ذلك. وقال عيسي عليه السلام طوبي لعين نامت ولاتهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ يبكى ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقال الحسن إنمـا خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فـكثيره قليل . وقال بلال بن سعد إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه ، فإن توزع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك

⁽۱) حديث و لمحما ينتتل المقتنلون علىالنيات » أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الإخلاس والنية من حديث عمر بإسناد ضميف بلفظ و لم عما يبث » ورويناه في فوائد عمام بلفظ و لم عما يبعث المسلمون على النبات » ولابن ماجه من حديث أبي هريرة و لم عما يعث الناس على نياتهم » وفيه ليث بن أبي سلم مختلف فيه .

⁽۲) حديث « أذا التن الصفان نزلت الملائكة تمكتب الحاق على مراتبهم: فلان يقاتل الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوظا على ابن مسمود وآخر الحديث مرفوع فني الصحيحين من حديث أبي موسى « من قاتل لتسكون كلة الله مى الدليا ألهو في سبيل الله » ، (۱) حديث جابر « يبعث كل عبد على مامات عليه » رواه مسلم . (۱) حديث الأحنف عن أبي بكرة « اذا التني المسلمان بسيفيهما فالفائل والمقتول في الدار» متفق عليه . (۱) حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى أداء مفهو زان » أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة : الدين ، دون ذكر : الصداق . (۲) حديث « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ... الحديث » أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب المسلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلا .

فإذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

بيان حقيقة النية

اعلم أنَّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم ، وعمل (العلم) يقدمه لاته أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لانه ثمرته وفرعه ، وذلك لان كل عمل أعنى كل حركة وسكونُ اختياري فإنه لايتم إلابثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان مالايعلمه فلابذ وأن يعلم ، ولايعمل مالم يرد فلابدُّ من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقاً للغرض إمافي الحال أوفى المـ آل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك الشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لايبصر الغذاء ولا يعرفه لايمـكنه أن بتناول ، ومن لايبصرالنار لايمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة ـ وليس ذلكمن غرضنا _ ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلايكفيه ذلك للتناولمالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ، إذا المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعيةالحركة إليه ، فحلق الله تعمالي له الميل والرغبة والإرادة ـ وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ـ ثم ذلك لايكـفيه فـكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ؟ فخلقت له القدرة والاعضاء المتحرَّكَة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرُّكُ إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظرالعلم والمعرفة أوالظن ُوالاعتقاد وهوأن يقوى فينفسه كون الشيءموافقًا له ، فإذا جزمت المعرفةبأنَّ الشيء موافقولابد وأن يفعل ، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتنحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرداة تابعة لحـكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإمافي المــآل . فالمحرّك الآوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوى ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الاعضاء هو العمل ، إلا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد ، وإذا كان براعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو أنفرد لـكان مليا بإنهاض القدرة ، وقد يـكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتباع ؟ وقد يـكون أحدهما كافيا لولاالآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام : فلنذكر لـكلواحد مثالا واسما .

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه ، فلا من عج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارًا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فاننهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها ، إخلاصا ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته .

وأما الثانى: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من الفقرة كان كافيا في الحمل لو انفرد . ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيقضيهالفقره وقرابته ، وعلمأنه لو لافقره لمكان يقضيها بمجرّدالقرابة وأنه لو لاقرابته لمكان يقضيها بمجرّدالفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غي فيرغب ، في قضاء حاجته ، و فقيراً جنبي فيرغب أيضافيه . وكذلك من أمره الطبيب برك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لولم يكن يوم عرفة لمكان يترك الطعام حمية ، ولو لاالحمية لمكان يترك الطعام حمية ، ولو لاالحمية لكان يترك لاجل أنه يوم عرفة ، وقدا جتمعا جمعافاً قدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الآول ، فلنسم هذا ، مرافقة للبواعث والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولمكل قوى مجمر عهما على إنهاض القدرة ، ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا ينفرد أحدهما به ، ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، تم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع ويقصده الآجني الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر ، وكذلك الرجل يتصدّق بين يدى الناس لغر ض الثواب ولغرض الثناه ، ويمكون بحيث لوكان منفردا لمكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء ، ولوكان الطالب فاسقا لا ثواب في النصرة عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرياء على العطاء ، ولوكان الطالب فاسقا لا ثواب في النصرة عليه لكان لا يبعثه عمرة المحدد أوراء على العطاء ، ولوكان الطالب فاسقا لا ثواب في النصرة عليه لكان الوكان مفردا لمكان لا يعثه عمرة عمرا أورثا بمجموعهما تحريك القلب . ولفسم هذا الجنس و مشاركة ،

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثانى لا يستقل. ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحل، ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه. ومثاله فى غرضنا أن يكون للإنسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فانفق أن حضرفى وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله، وعلم أنّ عمله لولم يكن طاعة لم يكن مجرد الرباء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية. ولنسم هذا الجنس، المعاونة،

فالباعث الثانى إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسنذ كر حكمها فى باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فإنّ العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل . إنما الاعمال بالنيات ، لانها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع :

بيان سر قوله صلى الله عاليه وسلم ﴿ نية المؤمن خير من عمله ١١ ،

اعلم أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل ظاهر، ولعمل السر في فضل و هذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح أنّ الذية تدوم إلى آخر العمل والاعمال لاتدوم وهو ضعيف، لانّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك فإن نيه أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والاعمال تدوم، والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إنّ معناه أنّ النية بمجرّدها خير من العمل بمجرّده دون النية ، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لاخير فيه أصلا، والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الحير، بل المعنى أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الحيرات وكان العمل من جملة الحيرات ولكن النية أكثر من أثر العمل،

⁽۱) حديث « نية المؤمن خير من عمله » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سمعه ومن حديث النواس بن سمعان ، وكلاما ضعيف ،

فمناه : نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ؛ فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيرا ومترحجة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال : الحنبز خير من الفاكهة ، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنَّ للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأنَّ الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة ، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له . فالآنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، وأن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير ماثلا إلى الخير مريدًا له نافرا عن الشر مبغضا له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنَّ سعادته في الآخرة منوطة مها ، كما بميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما . وإذا حصل أصل الميل بالمعرف فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإنّ المواظية على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلكِ الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها . فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفًا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسةوالاعمال|لمطلوبة|لذلك تأكيدميله ورسخ وعسر عليه النزوع ، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربمــا زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفًا ، لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضي ميله لكان ذلك كقطع القرت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي. وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الآخروية والصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرَّغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأنَّ بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الاعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون، إلاأنّ القلب هو الاصل المتبوع فكأنه الامير والراعى والجوارح كالحدم والرعايا والاتباع فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم د إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لهما سائر الجسد (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام ، اللهم أصلح الراعي والرعية (٢) ، وأراد بالراعي القلب وقال الله تعمالي ﴿ لَنْ يَنَالُ لَحُومُهَا وَلَا دَمَاؤُهَا وَلَكُنْ يَنَالُهُ التَّقُوى

⁽١) حديث و لمن في الجسد مضفة لمذا صلحت صلح سائر الجسد » متفق عليه من حديث النمان بن بهير وقد تقدم .

⁽٢) حديث د اللهم أصاح الراعن والرعبة » تقدم ولم أجده .

منكم ﴾ وهي صفة القلب . فن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لانها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له .

وغرضنا من الاعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لآنه متمكن من نفس المقصود ، و مذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر و تداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لآن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الآثر إلى المعدة ، فما يلاق عين المعدة فهو خير وأنفع .

فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والارض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب ، فإن من يجد فى نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصور هابصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة فى قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا _ لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال ؛ العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص منه يسمى باطلا ، فيقال ؛ العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص منه الرياء الى هى من الميل إلى الدنيا . فهذا وجه كون النية خير من العمل .

وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، لآن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات ، وإبما الإبمام بالعمل يزيدها تأكيدا ، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فر لن ينال الله لحومها ولا دماؤها واكن يناله التقوى منكم ﴾ والتقوى ههنا صفة القلب ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم ، إن قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا ، _ كما تقدّم ذكره _ لأن قلويهم فى صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة وإعلاء كما الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وإبما فارقوع بالأبدان لعوائق تخص الاسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات . ومهذه المعانى تفهم جميع الاحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فاعر ضماعلها لينكشف لك أسرارها فلا فطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفسكر وذكروغير ذلك بما لايتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه ــ فهي ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .

(القسم الآول) المعاصى ، وهي لاتتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام . إنما الاعمال بالنيات ، فيظن أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غير ، أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام ؟ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لاتؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية . بل قصده الخير بالشر _ على خلاف مقتضى الشرع _ شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خير ؟ هيهات ، بل المرقب لذلك على القلب خنى الشهوة وباطن الهوى ؟ فإنّ القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستهالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم منا لجهل الخيل القيل : ياأبا محمد هل تعرف يشيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كاقال ، لأنّ الجهل بالجهل بلست ورأس العلم : الله بالكلية بنفسه أمه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطبيع الله تعالى به العلم ، والشعر ورأس العلم : العلم بالعلم ، فن يظن بالكلية بنفسه أمه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطبيع الله تعالى به العلم ، والشعود أنّ من العلم النافع من العلم المناق الشتخل بما أنّ من قصد الحير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة المتعلم ، وقد قال الله سبحانه ﴿ فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يعذر الجاهل على الجهل ، ولا يحل الجهل ، ولا يحله ، ولا العالم أن يسكت على علمه (۱) ، .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام نقرب العلماء السوء بتعليم العلم السفهاء والآشرار ؟ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على عماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه النماس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتاى والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق القدمالى ، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويقبع الحوى ويقبعاعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله تعالى ، ثم قد ينتشر ذلك العلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، فياشر واتباع الهوى ، ويتسلمل ذلك ، ووبال جميعه برجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المساحى من أقواله وأفصاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبق آثار شره منتشرة في العمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا من يقول ، إنما الاعمل بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا من قاطع طريق وما قصدت به إلا أن يستعين به على الحنير . وإنمسما حب الرياسة والاستنباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قامد وأحد له خيلا وأسبابا يستعين به على الحنير . ويقول إنما أردت البذل والسخاء والنخاق بأخلاق الله الجميلة ، واشعرات ، فإن يو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصى . وقعد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الاخلاق إلى الله تعالى على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الاخلاق إلى الله تعالى على من تقرب إليه الما من تقرب إليه أله الما قال من تقرب إليه أله الما عليه وسلم ، إن قه تعالى ثائم المناه حقل من تقرب إليه أله الما قالم من تقرب إليه أله الما الله تعالى عليه وسلم ، إن قه تعالى ثائم المنه المع أن السخاء هو أمين المناه المه ولى الله صرفه الى المناه صلى الله تعالى عليه وسلم ، إن قه تعالى ثائم أن قائم من قائم وسرفه إلى قطع العرب من تقرب إلى المناه على المن الله على على المناه على أن المناه على أن المناه على المناه على أن المناه على المناه على أن المناه أله المناه على المناه على المناه على المناه على المناه على أن المناه على المناه على المناه على أن المناه على أن المناه على المناه المناه على المناه على المناه على المناه على المناه المناه على المناه على المناه على المناه على المناه على ا

⁽۱) حديث « لايمذر الجاهل على الجهل ولايحل للجاهل أن يسكت على جهله . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السنى وأبو لعيم في رياضة المتملمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله « لايمذر الجاهل على الجهل » وقال « لاينبني » بدل « ولا على » وقد تقدم في العلم .

⁽ ۲۷ - إحياء علوم الدين - ٤)

بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ١١ ، فليت شعرى لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستمين بالسلاح على الشر فيذبغى أن يسمى فى سلب سلاحه لاأن يمدّه بغيره ؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى الحن لإيرال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلورأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن بالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل ، يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعرد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يمكلمه ، فلم يزل يسأله عن تضيره عليه وهو لا يذكره ، حتى قال . بلغنى أنك طينت عائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم . فه كذا كانت مراقبة الساف الا يتنب على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيبالسة والأكام الراسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التى لاتشتمل على التحذير من الدنيسا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء إلها ، بل هى العلوم التى تتعلق بالحلق ويتوصل بها إلى جع الحطام والنجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء إلها ، بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جع الحطام والتنبع الناس والتقدم على الآخرة والدعاء إلها ، بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جع الحطام والتنبع الناس والتقدم على الآخرة والدعاء إلها .

فإذن قوله عليه السلام . إنما الأعمال بالنيات ، بختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى ؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

(القسم الثانى) الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل : فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لاغير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذكل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها (٢) ، كما ورد به الخبر .

ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين (أقرلها) أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث تال ، من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يمكرم زائره ١٦٠ ، (وثانيما) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره فى الصلاة وهومعنى قوله تعالى (ورابطوا) وثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والاحضاء عن الحركات والترددات ، فإنّ الاعتكاف كف ـ وهو فى مهنى

⁽¹⁾ حديث « لمن قة تلمّائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها لمليه السنخاء » تقدم في كتاب المحبة والشوق . (٢) حديث : تضعيف الحسنة بعشر أمثالها ، تقدم . (٣) حديث « من قمد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور لم كرام زائره » أخرجه ابن حبان في الضفاء من حديث سلمان وللسهتي في الشعب تحوه من دواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة .

الصوم ـ وهو نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رهبانية أمتى القعود في المساجد (١) ، (ورابعها) عكوف الهم على الله ولاوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وخامسها) النجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كا روى في الحبر ، من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى (١) ، (وسادسها) أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أخافي الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامنها) أن يترك الذبوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله مايقتضي هتك الحرمة ، وقد قال الحسن بن على رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا في الله ، أو رحمة مستنزلة ، أو علما مستظرفا ، أو كامة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردى ، أو يترك الذبوب خشية أو حياء .

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كشيرة ، وإنما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جدّه فى طلب الحنير وتشمره له وتفكر فيهــــه . فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات .

(القسم الثالث) المباحات: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشو به كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم وحلالها حساب وحرامها عقاب (١) . وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال و إنّ العبد ليسال يوم الفيامة عن كل شيء حتى عن كل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه (١٤) ، وفي خر آخر و من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة ، فاستعال الطيب مباح ولكن لابد فيه من نبة .

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله ؟ فاعلم أنّ من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخربكثرة الممال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ،أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولامور أخرى لاتحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة إلا القصد الأول وهوالتلذذ والتنعم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلاأنه يستل عنه ، ومن

⁽¹⁾ حدیث و رهبانیة أمني العقود فی المساجد ، لم أجد له أصلا . (۲) حدیث و من غدالل المسجد بذكر الله أو یذکر به كان كالحجاهد فی سبیل الله تمالی ، هو معروف من قول كعب الأحبار رویناه فی جزء ابن طوق و قطبرانی فی السكبیر من حدیث أبی أمامة و من غدا لمل المسجد لایرید الا أن يتملم خیرا أو یمله كان له كأجر ساج تاما حجه ، واسناده جید و فی الصحیحین من حدیث أبی حریرة و من غدا لمل المسجد أو راح أعد الله له فی الجنه نزلا كلما غدا أو راح ، (۳) حدیث و حلالها حساب وحرامها عذاب ، تقدم ، (۱) حدیث معاذ و لمن الصد لیسأل بوم القیامة عن كل شیء حتی عن كمل عینیه و عن فتات الهماین بأسبیه و عن لمسه ثوب أخیه ، لم أجد له لسنادا ،

نوقش الحساب عذب. ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسرا ما بأن يستعجل مايفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (۱) ، وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائمة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند بجاورته بروائحه ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريمة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريمة فيعصون الله بسببه ، فن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاجتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قبل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعـالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عـدواً بغير عـلم) أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصدبه معالجة دماغه الذيدبه فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله ، فهذا وأمثاله من النيـات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لما قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إلى أستحب أن يسكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونوى ودخولى إلى الخلاء ، وكل ذلك بما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعاً بأكله ونكاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير بمتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل إلى ديوانه حسنانه ، ولينوى ذلك بسكرته عن الجواب . فنى الخبر ، إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول : يارب هذه أعمال فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنبر ، إن العبد ليوافى القيامة بحسنات فيها حتى الدخل الجنال لو خلصت له لدخل المنه فياقى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من المنال الجبال لو خلصت له لدخل المخلة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته وقي طالبون فيقول الله تعالى القوا عليه من حسناته حتى لا يبق له حسنة ، فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته وبق طالبون فيقول الله تعالى القوا عليه من

⁽۱) حديث « لمن لبس النياب الحسنة يوم الجمة سنة » أخرجه أبو داود والحاكم وصحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمة ومس من طيب لمن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث » ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن سلام « ماعلي أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمة سوى ثوبي مهنته » وفي لمسناده اختلاف وفي الصحيحين : أن عمر رأى حلة صيراء عند باب المسجد فقال يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث » . (٢)حديث « ان العبد ليحاسب فنبطل أعماله لدخول الآفه فيها حتى يستوجب النار ثم يذعبر له من الأعمال الحسنة مايستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه « هذه أعمال الذين اغتابوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلي في مسند الفردوس من طريق أبي لعيم من حديث شيث بن سعد الملوى مختصرا « ان العبد ليلق كتابه يوم الفياءة هنتمرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال عسا اغتابك الناس وأنت لانشعر » وفيه ان لهيعة .

سيآتهم ثم صكوا له صكا إلى النسار (١١) ، وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإنّ الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أثر به من حائط جار لى فتحرّ جت ثم قلت : تراب وما تراب! فتربته فهتف في هاتف : سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقي غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول ؛ بيني وبينك الله 1 فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول بلي أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوق 1

فهذا وأمثاله من الآخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا تقصد ، وما الذي تنسال به من الدنيا ، وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لاباعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ، ثمراقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خنى لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدّموا له رغيفا ـ إذكان لا يأكل إلا من كسب يده ـ فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أنّ الحير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إلى الرغيف لا تقوى به على عملهم ، فلو أكانم معى لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك المدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائص وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فماكلني حتى لعق أصابعه ثم قال : لولا أنى أخذته بدين لاحببت أن تأكل منه ، وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم نعليه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أعاه لما يكره لوعله . فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الاعمال فلا بقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية توقف فإنّ النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أنّ الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم و إنما الاعمال بالنيات ، فيقول فى نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرّس لله أو آكل لله . ويظنّ ذلك نية وهيهات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ماظهر لهما أنّ فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا .

والميل إذا لم يكن لايمكن اختراءه واكتسابه بمجرّدالإرادة ، بل ذلك كقولالشبعان : نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي ، فذلك محال . بل لاطريق إلى اكتساب

⁽١) حديث د ان العبد ليواني القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وفيه دوياً تي قد ظلم هذا وشتم هذا ... الحديث، تقدم مع اختلاف

صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك بماقدم يقدر عليه وقد لايقدرعليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفدل إجابة المغرض الباعث الموافق النفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك بما لايقدر على اعتقاده فى كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقرى منه وذلك لايمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لهما أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالاشخاص وبالاحوال وبالاعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا فى الولد دينا ولادنيا لايمكنه أن يواقع على نية الولد بل لايمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هى إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوى الولد ؟ وإذا لم يغلب على قلمه أن إقامة سنة النكاح ١١٠ اتباعا لرسول الله على فيه وسلم يعظم فضالها لايمكن أن ينوى بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقوى أو لا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بالشرع عن خلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية . نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أو لا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه المؤنة وطول النعب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب الولد من مقل المؤنة وطول النعب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب العتد طاعة لهدا الولد عن الغالب على القلب كان ناويا ، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره فى نفسه ويردده فى قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا المتنع بناعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نيسة ، حتى إن ابن سيربن لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال: ليس تحضرنى نية ، ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت: أجىء بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثمقال : نعم ، فقيل له في ذلك فقال : كان لى في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى ، ومات حماد بن سليان ب وكان أحد علماء أهل الكوفة وقيل للثورى : ألانشهد جنازته ؟ فقال : لو كان لى نية لفعلت ، وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت ، وكان طاوس لا يحدّث إلابنية ، وكان يسئل أن يحدّث فلا يحدّث ، ولايسئل في بتدث أن داود بن الحبر في المقبل له في ذلك قال . أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت ، وحكى أن داود بن الحبر لما سنف : كتاب العقل ، جاءه أحد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر أنما فطلب نية لعيادة فانتفعت ، قال أحمد : فرده على حتى أنظر فيه بالمين الى فظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا فقد انتفعت به ، وقيل لطاوس : ادع لنا ! فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فيا وبنه مهران فلما انهى إلى باب داره الصرفت فقال ابنه : ألا تمرض عليه العشاء ؟ قال : ليس من نيتى .

وهذا لآن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية ، وكانوا لايرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتدكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وعلموا أن النية ليست هى قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعاث القاب يحرى بحرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر في بعض

⁽١) حديث « ان النسكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » نقدم في آداب النسكاح .

الاوقات وقد تتمذر في بعضها . فعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الاحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه ما كل بالجلة إلى أصل الحير فيفيعث إلى التفاصيل غالباً . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لايتيسر له في الفرائض إلابجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربمـا تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلًا عمن يتعاطاها . ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتق النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتمظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المـألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ـكالاجير السوء ـ ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوى الالباب فإنهـا لاتجاوز ذكر الله تعالى والفـكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تبكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنصمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين بمن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ! بل أشدٌ ، فإن التفاوت بين جمالُ حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيرًا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الـكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوء النساء ، فعمي أكثر القلوب عن ابصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء بأنها لاتشعر به أصلا ولاتلتفت اليه ، ولوكان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ﴿ وَلا بِرَالُونَ مُختَلِّفَينَ .. كُلُّ حزب بما لديهم فرحون _ ولذلك خلقهم ﴾ . حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام فقال له : كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني ، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك و تعال إلى . ورؤى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقها . ، فإنا نقول : من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لآن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون فلك أفضل . ومثل أن يمكون له نية فى الاكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات فى المستقبل وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم والصلاة فالاكل والشرب والنوم هو الافضل له . بل لو مل العبادة

لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعملم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إنى لاستجم نفسى بشىء من اللهو فيمكون ذلك عونا لى على الحق . وقال على كرم الله وجهه : رقحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت . وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر فى الطب وإنما يبتغى به أن يعيد أقرلاقوته ليحتمل المعالجة بالضد ، والحاذق فى لعب الشطر بج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس بجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيمكز عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على اطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى للريد أن يضمر إنكارا على ما يرا ممن شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغى أن يقف عند حدة بصيرته وما لا يفههمه من أحوالها يسلمه لها إلى أن يسكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا لله الدين الحالص ﴾ وقال تعالى ﴿ الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ الله وقال النبي صلى الله عليه وسلم عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ زلت فيمن يعمل لله ويحبأن يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله (١١) ، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما فصر الله عن وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم (٢) ، وعن الحسن قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجله ، يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى (١١) ، وقال على بن أبي طالب كرمالله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتمواللقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل ، أخلص العمل يجزك منه القليل (١٤) ، وقال عليه السلام ، ما من عبد يخلص لله العمل أرب ين بو ما إلا ظهر ت ينابيه الحكة من قله على السانه (١٥) ،

الباب الثاني في الإخلاص

⁽۱) حدیث ه ثلاث لاینل علیمن قلب رجل مسلم: اخلاص العمل لله » أخرجه الترمذی و صححه من حدیث النمان بن بشیر .

(۲) حدیث مصعب بن سعد عن أبیه : أبه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله علیه وسلم فقال النبي صلى الله علیه وسلم ها علیه وسلم ها فقال النبی الله قلب من أحببت من عادی » رویناه فی جزء من مسلملات القروینی مسلملا یقول كل واحد من روانه : سألت فلاما عن الإخلاص فقال وهو من روایه أحمد بن عطاء فرعه من عبد الواحد بن زید عن حذیفة عن النبی صلى الله علیه وسلم عن جبریل عن الله تمالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاما متروك و ما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيری في الرسالة من حدیث على بن أبي طالب بسند وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاما متروك و ما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيری في الرسالة من حدیث على بن أبي طالب بسند ضعیف . (٤) حدیث أنه قال لماذه أخلص العمل مجزك منه القابل » أخرجه أبو هنصور الدیامی في مسندالفر دوس من حدیث مماذ واسناده منقطم . (٥) حدیث هماه عبد يخاص لله أربعين و ما من أب على منه الم وقد نقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام وأول من يسئل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيم علمت فيقول: يارب كنت أقوم آماء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك. ورجل آماه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول: يارب كنت أقصد قبل آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول، يارب أس بالجهاد فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك، قال أبو هريرة، ثم خبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذى وقال ويا أبا هريرة أركك أولى خلق تسعر ما رجهم بهم يوم القيامة (۱)، فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه ترهق ثم قال: صدق الله إذ قال ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية

وفي الإسرائيليات أن عابدًا كان يعبد الله دهرا طويلًا فجاءه قوم فقالوا : إنَّ ههنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عائقه وقصد الشجرِة ليقطعها ، فاستقبله إبليس.ف صورةشيخ فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة ، قال : وماأنت وذاك ! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك ! فقال : إنّ هذا من عبادتي ، قال : فإني لا أنركك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابدفطرحه إلى الارض وقعد على صدره فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلمك ، فقام عنه فقال إبليس : ياهذا إنَّ الله تعالى قدأسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ! وما تعبدها أنت وماعليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فىأقاليم الأرض ولوشاءلبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ! فقال العابد لا بدّ لى من قطعها ، فنابذه للقتـال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له : هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال . وما هو؟ قال : أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك إنمـا أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عنالناس! قال: نعم ، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل لبلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولايضرهم قطعهاشيئا ولاينفع إخرانك المؤمنين قطعك إيامًا ! فتفكر العابد فيها قال وقال : صدق الشيخ ا لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ، ثم أصبحاليوم الثالث ومابعده فلم ير شيئًا . فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها ، قال : فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوَّل مرة فقال : همات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال : لتنهين عن مذا الامر أو لاذبحنك ؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به ، قال : يا هذا غلبتني فحل عني وأخبرني كيف غلبتك أو لا وغلبتني الآن؟ فقال : لانك غضبت أو ل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك ، وهذه المرة غصبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

^{ُ (}١) حديث ه أول من يسئل يوم القيامة ثلاثه : رجل آناه الله العلم ... الحديث » قد تقدم . (١) حديث ه أول من يسئل يوم القيامة ثلاثه : رجل آناه الله لله على الحياء علوم الدين سـ ٤)

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم الخلصين ﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ، ولذلك كان معروف الـكرخي رحمه الله تعـالي يضرب نفسه ويقول · يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : المخاص من يكتم حسناته كما يكتم سيئانه . وقال سليمان : طوبي لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنه إلى أبى موسى الاشعرى : من خلصت نيته كفاء الله تعمالي ما بين. وبين الناس ، وكتب بعض الاولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوبالسختياني ، تخليص النيات على العال أشدّعليهم منجميع الاعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صني له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطنها من طريق وحتى هزة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات ، وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته في كِفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لى فيمته مائة دينار فمـا رأيت له نوابا فقلت : موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها ؟ فقيل لى : إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لمـا قيل لك : قدمات ، قلت ؛ في لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولوقلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال : وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني فظرهم إلى فوجدت ذلك لا على ولا لى . قال سفيان ــ لمــا سمع هذا ــ ما أحسن حاله ؟ إذلم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضما فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فـكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معمه ، فدعا الله تعـالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هـذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا : أن أطلقوا الحرّة فقد وجديا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائمًا مع أبي عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمرَّ به بعض إخوانه من الابدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا ، فمرّ كالسحاب يمسم الأرضحتي غاب عن عيني ، فقلت لابي عبيد: ماقال لك ؟ فقال : سألني أنأحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهلافعلت ؟ قال : ليس لى في الحج نية وقدنويت أناتمم هذه الارض العشية فأخاف إن حججب معه لاجله تعرّضت لمقت الله تعالى ، لاني أدخل في عمل الله شيئًا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة . ويروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة ، فأملى عليه ، خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلانٌ في سبيل الله ، ثم نظر إلى وقال ؛ اكتب فلان خرح تاجرا ، فقات . الله الله في أمرى ا ما خرجت أنجر وما معى تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت : لا تكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى ؟ فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بمــا يرى . وقال سرى السقطى رحمه الله تعــالى : لآن تصلى ركمتين في خلوة تخلصهما خيرلك من أن تكتب سبعين حديثًا أوسبعائة بعلو وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الإخلاص عزيز . ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا . أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطا. الاعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الحلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إنّ لله عبادا عقلوا فلما عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البرأجم . وقال المجد بن سعيد المروزى : الآمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل وتخلص فها تعمل . فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، غإذا صفا عن شوبه و خلص عنه سمى خالصا ، ويسمى الفعل المصنى المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى فر من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمترج به ، والإخلاص بضاده الإشراك ، فن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية . والشرك ـ منه خني ومنه جلى وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب فحله القلب وإنما يكون ذلك في القصودوالنيات ، وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فهما كان الباعث واحد على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى ، فن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كا أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه بجرد الرياء فهو معرض المهلكات ـ وأفل أموره ما ورده والمأموره ما ورده المهلكات ـ وأفل أموره ما ورده و الخر من د إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام : يامرائي يا عنادع يامشرك ياكافر (١) ، .

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبدالميتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أوليهرب عن عدق له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما . أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها . أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه له ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الاطهاع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلاة الحديث أو متكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وأفرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا . أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أويتبرد . أو عتمل ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أويتبرد . أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل ليقطع إبرامه فى الدوال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشع هو التقرب إلى الله أله المنقل ليقعل ليدون في الحديد ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى المنقل المناه المناه الله المن المناه وينظر إليه المناه المن فلك ليدر فى بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فيهما كان باعثه هو التقرب إلى المنقل المناه الكراء المناه الكناه المناه ا

⁽۱) حدیث : « ان المراقی بدعی یوم الفیامة : یامهائی پایخادع ۰۰۰ الحدیث » أخرجه ابن أبی الدنیا فی کتاب السنة والإخلاص وقد تقدم ۰

والكنَّ انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقدخر جعمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى و تطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى , أنا أغنىالشركاء عن الشركة ، وبالجلة ، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قلأم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعلْ منأفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الاجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا . وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القاب عن هذه الشوائب ، بل الحالص هو الذي لاباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخني شدّة الأمر على صـــاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضــــافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ــ وبالجلة ؛ فإما أن يهكون الباعث النفسى مثلاالباعثالديني أوأقوى منه أو أضعف ، ولـكل واحد حكم آخر ـكا سنذكره ـ وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوا ثب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه . وهذا الاكل والشرب أيضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لآنه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لوكني شر الجوع حتى لايحتاج إلى الاكل فلا يبتى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يـكونلههم|لا الله تعالى . فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالصالعمل صحيح النية في جمين حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذي يغلب على نفسه : الدنيا والعاق والرياسة _ وبالجلة غيرالله _ فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبـاداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا . فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيـا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لآنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الاوّل لاني تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أنّ نظر الناس إلى في الصف الأوّل كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لاأشمر . وهذادقيقغامض قلما تسلم الاعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون يرون حسناتهم كالها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ﴿ وَبِدَا لَمْمُ مِنَ اللَّهُ مَالَمُ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ـ وَبِدَا لَهُمْ سَيْئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قُلُ هُلُ نَنْبُسُكُمْ بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وأشد الخلق تعرضـا لهذه الفتنة العلماء ، فإن البـاعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحد والثنــاء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين اشسكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لايخليه ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لواتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده . وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لوكان ذلك لكان مذموما ، لان انقياده للحق وتسليمه الآمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الحلق مع مافيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالآمر . فا بال العلماء لايفر حون بمثل ذلك ؟ المجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالآمر . فا بال العلماء لايفر حون بمثل ذلك ؟ بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان بحض الجهل والذرور ، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان بحض الجهل والذرور ، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل وطال اشتغاله بامتحانها ، فعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذالنادروالفردالفذ وهو المستنى فى قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فليسكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق و إلا التحق وهو المستنى في قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فليسكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق و إلا التحق

بيان أقاويل الشيوخ فى الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالنفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعرّض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركانه لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض ، وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل : أى شيء أشدُ على النفس؟ فقال: الإخلاص إذ أيس لها فيه نصيب وقال رويم : آلإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين . وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا . والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنــة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلبحظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الالباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لايتحرَّك الإنسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدَّعي البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق ، ولسكنالقوم إنمــا أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرَّد المعرفة والناجاة والنظر إلى و جه الله تمالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعدّه الناس حظا بل يتمجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه ؛ الحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره · وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط . وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص مااستتر عن الحلق وصفا عن العلائق . وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الحلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجرّد نني الرباء . وكذلك قول الحوّاص : من شرب من كماس الرباسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسي عليه السلام : ما الحالص من الاعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعمالي لا يحب أن يحمده عليه أحد . وهذا أيضا تدرّض لترك الرباء وإنما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رباء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقبل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها . وهذا هو البيان المكامل والاقاويل في هذا كشيرة ولا فائدة في تمكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

و إنمـا البيان الشافى بيان سيد الأوّلين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال . أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) . أى لاتعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذا إلمارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خنى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجسسلاء إلا بمشال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً .

فنقول ؛ الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ا فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ؛ وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخنى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطبيع الشيطان فيها ولا يلتفت لم يليه ويستمر في صلاته كاكان . فيأتيه في معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك وبتأسى بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ا وهدا أغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الحشوع وحسن العبادة خيرا لا ينخدع بالاول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الحشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الحلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ؟ فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه

⁽۱) حديث : سئل عن الإخلاس نقال ه أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أصرت » لم أره بهذا اللفظ والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثانى قات : يارسول الله حدثنى بأص أعتصم به قال ه قل ربى الله ثم استام » وحوعند مسلم بلفظ : قل فى الإسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال ه قل آمنت بالله ثم استقم » .

فأما هـذا فمحض النفاق والتلبيس ، فن اقتدى به أثيب عليـه وأما هو فيطالب بتلبيسه و يعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به .

الدرجة الثالثة: وهي أدق بما قبلها ، أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الحلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الحلوة مثل صلاته في الملا ، ويستحيى من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الحلوة ويحسن صلانه على الوجه الذي يرتضيه في الملا ، ويصلى في الملا أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته في الحلوة لتحسن في الملا فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاته في الحلوة والملا إلى الحلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الحلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيى من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الحلا وهذا من المكايد الحفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخنى ۽ أن ينظر إليه الناسُ وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لاجلهم ، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر في عظمة الله تعالى وجلالهومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظنأنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لوكان لنظره إلى جلاله لـكانتُ هذ. الخطرة تلازمه في الحلموة ولكان لايختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر بمــا يألفه في الحلوة كما يألفه في الملاً ، ولايكون حضور الغير هو السبب في حضور الحاطركما لايكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الحنى من الرياء ، وهذا الشرك أخنى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السودا. في الليلة الظلماء على الصخرة الصهاء (١) ، كما ورد في الحبر ، و لا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، و إلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لايغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه سنن فيأدقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خني لارتباط نظر الحلق بها ولاستثناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ، ويحكون انبعاث القلب باطنا لهــا لاجل تلكالشهوة الحفية ، أو مشوبة بهاشوبايخرجءن حدّ الإخلاص بسببه ، ومالا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتعـكف في مسجد معمور نظيف حسن العارة يأنس إليه الطبيع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتـكاف، وقد يكون الحرّك الخفيف سره هو الإنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوا 1ب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهبله درجات متفاوتة . فنها مايغلب ومنها ما يقل لـكن يسهل دركه . ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرًا.

⁽¹⁾ حديث « الشرك أخنى ف قلب ابن آدم من دبيب الملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة ، تقدم في العلم وفي ذم الجاء والرياء .

ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار الممقره واستدارته وهو "مغشوش زائف فى نفسه، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرالغيي، فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم، ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الاعمال الايمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل.

ببان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أنَّ العمل إذا لم يكن خالصًا لوجه الله تعالى بل امترج به شوب من الرياء أوحظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك مل يقتضي ثوا با أم يقتضي عقابا أم لايقتضي شيئًا أصلا فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذي لم يردبه إلا الرياء فهو عليه قطعادهو سبب المقت والعقاب . وأما الخالصاوجه الله تعالىفهوسبب الثوابوإنمــاالنظر في المشوب، وظاهر الاخبارتدل على أنه لاثواب له (١) ، وليس تخلوالاخبارعن تعارضفيه . والذي ينقدح لمافيه ـ والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قرّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مصر ومفض للعقاب. نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرباء ولم يمتزج به شائبة التقرّب. وإن كانقصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى ﴿ فَن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ولقوله تعالى ﴿ إِنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبًا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقربة القصد الفاسد . وكشف الفطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنمـا غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنمـا قوتها بالعمل على وفقها . فإذا اجتمت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرّب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قرّته ، فيكون بعد تناولها كأنه لم يتناولها ، وإن كان أحدهما غالبًا لم يخل الغالب عن أثر ، فـكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الحير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة الفلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبرا مع مايبعده شبرا فقد عاد إلى ماكان

⁽۱) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المهوب لأتواب له قال : وليس تخلو الأخبار عن تمارض رواه أبو داود من حديث أبي هريرة : أن رجلا قال يارسول الله رجل يبتنى الجهاد في سبيل الله وهو يبتنى هرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاأجر له ... الحديث » وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال ه لاشيء له » فأعادها به فأعادها به ثلاث مرات به يقول ه لا شيء له » ثم قال « لمن الله للايقبل من الممل إلا ماكان خالصا وابتنى به وجهه » وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة : الرجل إممل العمل فيسره فإذا اطلم عليه أنجبه قال ه له أجران أجر السر وأجر الملانية » وقد تقدم في ذم الجاء والرباء .

فلم بكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل بما يقربه شبرين والآخر ببعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقدقال النبي صلى الله عليه وسلم ، أتبع السيئة الحسنة تمحها (۱) ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الامة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . لهم يمكن أن يقال : إنما بثاب على أعمال الحبح عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولمكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو الحرّك الأصلى وكان غرض التجارة كالمين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن أواب ما . وعندى : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تمكثر فيها النفائم وبين جهة لاغنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالمكلية ثواب جهادم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلى والمزعج القوى هو إعلاء كلة الله تمالى المغنيمة أصلا ؛ فإن هذا على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب . نعم لايساوى ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ؛ فإن هذا الاتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والآخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للنواب ، وفى معناه شوب طلب الننيمة والنجارة وساتر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدّق ـ فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت (فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا سالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (١٦ وقد قصد الآجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ه أدنى الرياء شرك (١٦) ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال لمن أشرك فى عمله خذ أجرك عن عملت له (١٤) ، وروى عن عبادة ، أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الآغنياء عن الشركة من عمل لى عملا فأشرك معى غيرى ودعت نصيبي لشريكي ، وروى أبوموسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل شحية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم فى سبيل الله فقال صلى الله عليه فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملا دفتى راحلته ورقا . وقال ابن مسمود رضى الله تعاقل رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم ، من قاتل لتكون كلمة الله فهو له (١٦) ، ؟ فنقول : هذه الاحاديث لا تنافى ماذكرناه بل المرادبها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله ، من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا ، وكان ذلك هر الاغلب على همه وقدذكرناه أن الدنيا وعدوان لا لان طلب الدنيا حرام ولكن طلها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له دن مد موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له

⁽¹⁾ حديث « أتبع السبئة الحسنة بمحها ، تعدم فى رياضة النفس وفى التوبة . (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين : أن رجلا سأل النبي سلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف ــ أو قال يتصدق ــ فيحب أن مجمد ويؤجر فعرات (فن كان يرجو لفاء ربه) أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب السنة والحا كم محره من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم فى ذم الجاء والرياء ،

⁽٣) حدیث معاذ « أدنی الریاء شرك » أخرجه الطبرانی والحاكم وتقدم . (١) حدیث أبی هر یرة « یقال لمن أشرك فی محمله خذ أجرك بمن هملت له » تقدم فیه من حدیث محود بن لبید بنعوه وتقدم فیه حدیث أبی مربرة « من عمل عملاأ شرك فیه ممی غیری تركته و شریكه » و فی روایة ماقت فی الموطأ « فهو له كله » . (ه) حدیث أبی موسی « من قاتل استكون كلة الله می الملیا فهو فی سبیل الله » تقدم فیه . (٦) حدیث ابن مسمود « من هاجر یبتنی شیئاً من الدنیا فهو له » تقدم فیه .

ولاعليه ، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا في خطر فإنه لايدري أي الامرين أغلب على قصده فربمـا يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فَنَ كَانَ يُرْجُو لَقَاءُ رَبِّهِ فَلَيْعُمَل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها النساقط ، ويجوز أن يقال أيضاً : منصب الشهادة لاينال إلا بالإخلاص في الغزو . وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى بجرّد الغزو ـ وإن لم يكن غنيمة ـ وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والآخرى فقيرة فمـال إلى جهة الأغنياء _ لإعلاء كلمة الله وللغنيمة _ لاثواب له على غزوه البتة ، ونعوذ بالله أن يكون الامركذلك فإن هـذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لاينفك الإنسان عنها إلا على الندور ، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب ، فأما أن يكون في إحباطه فلا ، نعم الإنسان فيه على خطرعظيم لانه ربمـا يظن أن الباعث الاقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الاغلب على سرُّه الحظ النفسي ، وذلك نما يخني غاية الحفاء . فلا يحصل الآجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعدكال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تـكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه إلله : لاأعتد بمـا ظهر من عملي . وقال عبد العزيز بن أبي رؤاد . جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفي من نصيب الله ، ليته لا لى ولا على . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهي بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لايفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله فتـكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما _ يريد إخلاص الحركات ـ فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سميد : لاتفعل إذ الإخلاص لايقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث : في الصدق و فضيلته وحقيقته فضيلة الصدق

قال الله تمالى ﴿ رَجَالُ صَدَّوَا مَاعَاهُدُوا الله عَلَيْهِ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليسكذب حتى يكتب عند الله كذابا (١) ، ويكنى فى فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الآنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقا نبيا ﴾ وقال

الباب الثالث في العندق

⁽١) حديث ه لمن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث ، متفق عليه من حديث أبن مسمود وقد تقدم .

﴿ واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال ابن عباس : أربع من كنّ فيهفقد ربح ؛ الصدقوالحياء وحسن الخلقوالشكر. وقال بشر ان الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال أبو عبدالله الرملي رأيت منصورا الدينوري فالمنام فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبيح ماتوجه به الكذب . وقال أبوسليمان : اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكم : مارأيت صادقا 1 فقال له : لوكنت صادقا لعرفت الصادةين . وعن محمد بن على الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان ، على الحقوالصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثورى في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمُ القيامَةُ تَرَى الذينَ كَذَبُوا على الله وجوههم مسودة ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعـالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته . وصاح رجل في مجلس الشبلي ورى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السَّلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاثخصال أنها إذا صحتففيها النجاة ـ ولايتم بعضها إلاببعض ـ الإسلام الحالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيبالمطعم . وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاكان صلحاء بني إسرائيليجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها : لاكنزأنفع من العلم ، ولامال أربح من الحلم ، ولاحسب أوضع منالغضب ، ولاقرين أزين من العمل ، ولارفيق أشين من الجهل، ولاشرف أعز من التقوى ، ولاكرم أوفى من ترك الهوى ، ولاعمل أفضل منالفكر ، ولاحسنة أعلىمن الصبر ، ولاسيئة أخزى من الكبر ، ولادواء ألين من الرفق ، ولاداء أوجع من الخرق ، ولارسول أعدل من الحق ، ولادليل أنصح من الصدق ، ولافقر أذل من الطمع ، ولاغنى أشَّقي من الجمع ، ولاحياة أطيب من الصحة ، ولامعيشة أهنأ من العفة ، ولاعبادةأحسن منالخشوع ، ولازهدخير منالقنوع ، ولاحارس أحفظمن الصمت ، ولاغائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوزاق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيها بينك وبين الحلق . وقيل لذى النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل: ما أصل هذا الآمر الذي نحن عليه ؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل: زدنا ، فقال: التق والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السكال فقال د قول الحق والعمل بالصدق (۱۱) ، وعن الجنيد في قوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال : يسأل الصادقين عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

سان حقيقة الصدق ومعناه ومراتيه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ،

⁽١) حديث ابن عباس : سئل عن السكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ ،

وصدق فى الوقاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لآنه مبالغة فى الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شىء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . (الصدق الآول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلافى الإخبار أو فيها يتضمن الإخبار وينبه عليه ، والحبر إماأن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوقاء بالوعد والحلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ الفاظه فلا يشكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الاشياء على خلاف ما هى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالان :

(أحدهما) الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل : في المعاريض مندوحة عن الـكمذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك بما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوالوق تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى بجراهم وفي الحذر عنااظلمة وفيقتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شيء منذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر وزى بغير. (١) . وذلك كى لا ينتهي الحبر إلى الاعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا (٢١ ، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومنكان له زوجتان ، ومنكان في مصالح الحرب. والصدق ههنا يتحوّل إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية و إرادة الخير ، فهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادنه صار صادقا وصديقًا كيفها كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكى عن بعضهم ، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في دار. فقال لزوجته : خطى بأصبعك دائرة وضعى الاصبح على الدائرة وقولى ليس هو ههنا ، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدق وأفهم الظالمأنه ليس في الدار . فالكال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظوعن المعاريض أيضا إلاعند الضرورة (والسكال الثاني) أن يراعي معنىالصدق في الفاظه التي يناجي بها ربه كقوله ﴿ وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض ﴾ فإنّ قلبه إنكان منصرفا عن الله تعــالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ وقوله : أنا عبدالله ، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ، ولو طواب يوم القيامة بالصدق في قوله ، أنا عبد الله ، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أوعبدا لدنيا أوعبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله . وكل ماتقيد العبدبه فهو عبدله كما قال عيسى عليه السلام: ياعبيد الدنيا 1 وقال نبينا صلى الله عليه وسلم . تمس عبد الدينار تمس عبدالدرهم وعبدا لحلة وعبد الخيصة(٣) ، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له .

و إنما العبد الحق ـ لله عز وجل ـ من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرّا مطلقا ، فإذا تقدّمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

⁽۱) حدیث : کان لذا أراد سفرا وری بغیره : متفق علیه من حدیث کعب بن مالك . (۲) حدیث « لیس بکاذب من أصلح بین الناس . . . الحدیث » متفق علیه من حدیث أم کلئوم بنت عقبة بن أبی معیط وقد تقدم . (۳) حدیث « تسس عبد الدینار . . . الحدیث » أخرجه البخاری من حدیث أبی هریرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرّا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرّا ، وصار مفقودا لنفسه موجودالسيده ومولاه إن حرّكة تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض ، بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادمًا ولا صديقًا : فهذا هو معنى الصدق فى القول .

(الصدق الثانى) في النية والإرادة الويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعمالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسنمى كاذبا ـ كا روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعمالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) _ فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد ، وكذلك قول الله تعمالى (والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ، وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يمتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه ، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه . إن رزقني الله مالا تصدّفت بجميعه _ أو بشطره ، أو إن لقيت عدوًا في سبيل الله تعمل قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، ولن أعطاني الله تعملي ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كايقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهمالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة ، فقد بطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هوالذي تصادف عزيمته في الحيرات المنازم ألم على قوم فيهم أبو بكر _ رضى الله وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر _ رضى الله عنه _ فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والحبة الصادقة بأنه لايتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه ، وأكد خلك عما ذكره من القتل .

ومراتب الصدّيقين فى العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدّم، ولو ذكرله حديث القتل لم ينقض عزمه، بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكركانت حياته أحب من حياة أبى بكر الصدّيق.

(الصدَّق الرابع) في الوفاء بالعزم ، فإنَّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم

⁽١) و حديث الثلانة : حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت ... الحديث ، تقدم .

والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكنوهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعـالى ﴿ رَجَالِ صَدَقُوا مَا عَاهِدُوا الله عليه ﴾ فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لأن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ماأصنع ! قال : فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال . ياأبا عمرو إلى أين ؟ فقال : واها لريح الجنة ! إنى أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمـانون مابين رمية وضربة وطمنة فقالت أخته بنت النضر : ماعرفت أخى إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رَجَالَ صَدَّقُوا مَا عَاهِدُوا الله عليه ﴾ (١١ ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير _ وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر ﴾ (٢) وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمـان لتي العدة فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا .ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ـ قال الراوى : فلاأدرى قلنسوة عمر أوقلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . و ورجل جيد الإيمـان إذا لتى العدق فكأنمـا يضرب وجههبشوك الطلح أتاه سهمعاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئًا لتي العدَّق فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف علىنفسه لتى العدة فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة (٣) ، وقال بجاهد : رجلان خرجاً على ملاً من الناس قمود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدّقن فبخلوا به فنزلت ﴿ وَمَهُم مِن عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدَّقن ولنكونن من الصالحين ﴾ وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آنانا من فضله لنصدَّقن ولنكونن من الصالحين فلمــا آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلومهم إلى يوم يلقونه بمـا أخلفوا الله ما وعدوه وبمـاكانوا يـكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقاً . وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث ، فإنّ الناس قد تُسخو بالعزم ثم تكيح عند الوفاء اشدّته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب . ولذلك استثنى عمررضي الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرَب عنتي أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلاأن تسوّل لى نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن لاني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم . وقال أبو سعيد الحرّاز : رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لي : صدقت ، وعرجا إلى الساء .

(الصدق الخامس) في الاعمال ، وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لايتصف هو به ، لا بأن يترك الاعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لان

⁽۱) حدیث أنس: أن عمه أنس بن النضر لم بشهد بدرا مع رسول الله صلى الله علیه وسلم ... الحدیث. في قتاله بأحد حتی قتل فوجه في جسمه بضع و عانون من بین زمیة وضربة وطعنة و نزول (رجال صدقوا) الآیة أخرجه الترمذی و قال حسن صحیح والنسائی في السكبری وهو عند البخاری مختصرا ان هذه الآیة نزلت في أنس بن النضر . (۲) حدیث: وقف على مصعب بن عمیر وقد سقط على وجهه یوم أحد وقرأ هذه الآیة . أخرجه أبو اميم في الحلية من رواية عبيد بن عمیر مرسلا . (۳) حدیث فضالة بن عبید عن عمر بن الحطاب و الشهداء أربعة : رجل مؤمن جید الإیمسان ... الحدیث ، أخرجه الترمذی وقال حسن .

المراثى هو الذى يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الاعمال وكذلك قد يمثى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولامرائيا إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أوخيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلايظن به الخير بسبب ظاهره في كون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة (١١) . وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبدوعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الحور . وأنشدوا .

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز" في الدارين واستوجب الثنا فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكدّ والعنا فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه المردود لايقتضى المنا

وقال عطية بن عبدالغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهيالله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار. وقال عبد الواحدبن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أثرك الناس له، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة وببكى. وقال أبو يعقوب النهر جورى: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لهما مباد بنطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه، كما يقال : فلان صدق الفتال . ويقال : هذا هو الحنوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى (إنما لمؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله (أولئك هم الصادقون) وقال تعالى (ولسكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إلى قوله (أولئك الذين صدقوا) وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له : سألناك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية "

ولنضرب للخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلقعليهالاسم ،

⁽۱) حديث ه الديم اجمل سريرتىخيرا من علانينى ... الحديث، تقدم ولم أحده . (۲) حديث أبىذر :سألته عنالإيمان فقرأ قوله تمالى (ولسكن البر من آمن بافة واليوم الآخر) لمل قوله (أولئك الدين صدقوا) رواه محمد بن نصر المروزى فى تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له استادا .

ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذا خاف ، سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتمد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لاينتفع بهأهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة النعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كلذلك خوفًا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ولايظهر عليه شيء من ذلك عندجريان معصية عليه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . لم أرمثل النار نام هاربها ولامثل الجنة نام طالبها (١) ، فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غابة لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لـكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف و إماقوى ، فإذا قوى سمىصادقا فيه . فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لهـا ولذلك قال الني صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام • أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك ، فقال لا تطيق ذلك قال ، بل أرنى ، فواعده البقيع في ليلة مقمرة مغشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال الني صلى الله عليه وسلم . ماظننت أن أحدا من خلق الله هكذا ، قال : وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلي وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (٢) يعني كالعصفور الصغير ، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسواكذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هوالصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . مررت ليلةأسرى و جبريل بالملا الاعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى (١٣) . يعني الكسا. الذي يلق على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانرا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمــان حتى تنظر الناس كلهم حتى في دين الله . وقال مطرف : مامن الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بمض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، لايملغ عبد حقيقة الإيمـان حتى ينظر إلى الناس كالآباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (١٤) ، فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كَان صادقًا في الجميع فهو الصديق حقًا . قال سعد بن مماذ : ثلاثه أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ؛ ماصليت صلاة منذ أسلمت لحدَّثت نفسي حتى أفرغ منها ، ولاشيعت جنازة فحدَّثت نفسى بَغير ماهي قائلة وماهو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وماسمعت رسُّول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ماظننت أنّ هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام . فهذا صدق في هذه الأمور ، وكم قوم من جلة الصحابة قد ادوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ؟ فهذه مي درجات الصدق ومعانيه , والـكلمات المـأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لانتعرَّض إلا لآحاد مذه المُعَانَى نعم قد قال أبو بكر الورّاق : الصدق اللائة ؛ صدقَ التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لمامة المؤمنين قال الله تعالى ﴿ والذين آمَـٰوا بالله ورسله أو لئك هم الصدّيقون ﴾ وصدقالطاعة لاهل العلم

⁽۱) حديث « لم أر مثل النار نام هاربها الحديث » تقدم . (۲) حديث : قال لجبربل « أحبأن أراك في صورتك التي مي صورتك » قفال : لاتطبق ذلك ... الحديث . تقدم في كتاب الرجاء والحوف أخصر من هذا ، والذي ثبت في الصحيح أنه أي جبريل في صورته مرتين . (۳) حديث « مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالما الأعلى كالحلس البائل من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بناصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهتي في دلائل النوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهتي ورواه حماد بنسلة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عطارد وهذا مرسل . (٤) حديث « لا ببلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر الى الناس كالأباعر في جنب الله تم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير » لم أجد له أصلا في حديث مراوع .

والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض ـ وكل همذا يدور على ماذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الاقسام ـ وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لاتختار على الله غيره كا لم يختر عليك غيرك فقال تعالى (هو اجتباكم) وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام : إنى إذا أحببت عبدا ابتليته ببلابا لاتقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا ، وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلق خذلته ولاأبالى . فإذن من علامات الصدق كتبان المصائب والطاعات جميدا وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقية والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

يني النياليِّز النين

الحمد لله القائم على كل نفس بماكسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض تحركت أوسكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن من معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيها قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لو لا لوومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لو لا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لحابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستفر قت رحمته الحلائق في الدنيا والآخرة وغرت ، فينفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشمت ، وبتأييده و فصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفمت ، وبلطف عنايته تقرجح كفة الحسنات إذا والصلاة والابعاد والإدناء والإسعاد والإسقاء والمسلة والسلام على محمد سيد الانبياء وعلى آله سادة الاصفياء وعلى أصحابه قادة الانتياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكنى بنا حاسين ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين بما فيه ويةولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاما ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميما فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومثذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعملم فن يعمل مثقال ذرة خيرايره ومن يعمل مثقال ذرة شرايره ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجدكل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحدوه ﴾ فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون ما في أنفسكم فاحدوه) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لمم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون ما في أنفسكم فاحدوه) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لمم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون ما في أنفسكم فاحدوه)

في الحساب ويطالبون بمثانيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الاخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الانفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقله ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الحزى والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطه فقال عزمن قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمحاقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمحاقبة، ثم بالمحالبة وفضيلتها وتفصيل الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومهاقبة ويتبعه عند الحسران المعاتبة والمعاقبة. فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومهاقبة ويتبعه عند الحسران المعاتبة والمعاقبة.

المقام الأول من المرابطة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستمين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحامبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لآن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالاعمال الصالحة . والعقل يستمين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستمين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصما منازعا بجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا فيوظف أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف علمها الوظائف ويشرط عليها الوظائف ويشرط عليها اللامر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مرافبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يرمنها إلا الحيانة وتضييع رأس المال كالعبد الحائن إذا خلاله الجؤ وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس وانفر دبلمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه فأرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نحيم العقي ، ثم كيفها كانت فصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير الايدوم خير من خير لا يدوم ، لان الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بتى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشدّ الغم عندى في سرور لليقن عنه صاحبه انتقالا

لحتم على كل ذى حرم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والنضييق عليها فى حركاتها وسكمناتها وخطراتها وخطواتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لهما يمكن أن يشترى بهاكنز من الكنوزلا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقباض هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة إلى مايجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل . فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كا أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالى بضاعة إلا العمر ومهما فى فقد فى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلى الله فيه وانساً فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماوا حدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبى وانساً فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماوا حدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبى

أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمي يانفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الجبر ، أبه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتسح له منها خزانة فيراها علوه ق نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والدرور والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار وهني الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لوقسم على أهل الجنة لتنفص عليهم نعيمها ويفتسح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نقها ويفتسح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسومه (١١) ، وهي الساعة التي نام فيها أو أشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وساحات الدنيا فيتحسر على خوها و بناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي لمل الكسل والمدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبني عندك حسرة لاتفارقك وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هب أن المسيء قد عني عنه أليس قد فاته ثواب الحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعملى (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) فهذه وسيته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنف لهما وصية في أعضائه السبعة وهي العين والآذن واللسان والبطن والفرج واليسد والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبهما تتم أعمال هذه التجارة . وإنّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تتعين تلك الآبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الآعضاء ، فيوصيها بحفظهاعن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ،أو إلى عورة مسلم،أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإنّ الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الحكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيمه تجارتها وربحها ؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لاسيا اللسان والبطن (أما اللسان) فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الحلق والأطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والماراة فى السكلام وغير ذلك ـ بما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله _ مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاحذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لايحرك الملسان طول النهار إلا فى الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (وأما البطن) فيسكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال

كتاب المحاسبة والمراقبة

⁽١) حديث « ينصر للعبدكل يوم وليلة أربع وعصرون خرانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها بملوءة من حسنانه ... » الحديث بطوله لم أجدله أصلا .

واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة . ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر بما نالته بشهواتها . هكذا يشرط عليها فى جميع الاعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تخنى معاصى الاعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تشكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لهما تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لهما بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعوَّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعهااستغني عن المشارطة فيها ، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجمة إلى تجديد المشارطة فيها بقي ، ولكن لا يخلوكل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيءً من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقمة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها ،فعليه أن يشترط علىنفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد: فإن النفس بالطبع متمزدة عنالطا عات مستمصية عن العبو دية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذكر فإنَّ الذكرى تنفع الوَّ منين ﴾ فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعسد العمل وتارة قبلهُ للتحذير قال الله تعمالي ﴿ واعلموا أنَّ الله يعلم ماني أنفسكم فاحذروه ﴾ وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظرفيما بين يدى العبد فينهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال أنه تعمالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صَرِبْتُمْ فِي سَدِيلُ اللَّهُ فَتَبِينُوا ﴾ وقال تعمالي ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنوا إن جامكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خُلقنا الإنسان ونعـلم ما تُوسوس به نفسه ﴾ ذكر ذلك تحذيرا وتذبيها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت: أنه عليهالسلام قال لرجل سألهأن يوصيه ويعظه . إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه ١١١ . . وقال بعض الحسكاء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكشر من مكث خفة الشهوة وقال لقان ؛ إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شدّاد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال والسكيس من دان نفسه وعمل لمسا بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمني على الله ١٢١ . دان نفسه : أي حاسبها . ويوم الدين : يوم الحساب . وقوله ﴿ أَتُنَا لَمُدَيِّنُونَ ﴾ أي لمحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبـل أن توزنوا وتهيئوا للمرض الاكبر . وكتب إلى أن موسى الأشعرى : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة . وقال لكعب : كيفتجدهافكنابالة؟قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاه بالدرّة وقال : [لا من حاسب نفسه ، فقال كعب : ياأمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة مايينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذقال :من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور أوْلا وقدّرها ونظر فيها وندبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

المرابطة الثانية : المراقبة -

إذا أومى الإنسان نفسه وشرط عليها ماذكرناه فلا يبق إلا المراقبة لهسا عند الحنومن في الاعمال وملاحظانها

⁽١) حديث عبادة بن الصامت و اذا أردت أمها فتدبر عائبته ... الحديث ، تقدم .

⁽٢) حديث و الكيس من دان نفسه وحمل لمسا بعد الموت ١٠٠٠ الحديث ، تقدم .

بالعين السكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقية ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال , أن تعبد الله كأنك ترا. (١) , وقال عليمه السلام ، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (١٠ ، وقد قال تعالى ﴿ أَفْنِ هُو قَاتُم عَلَى كُل نفس بمنا كسبت ﴾ وقال تعمالي ﴿ أَلَمْ يَعْلُمْ بَأَنَّ اللَّهُ يَرَى ﴾ وقال الله تعمالي ﴿ إِنَّ اللَّهُ كَانَ عليه كم رقيبًا ﴾ وقال تعمالي ﴿ وَالَّذِينَ مَمْ لَامَانَاتُهُمْ وَعَهْدُمُ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتُهُمْ قَائْمُونَ ﴾ وقال أن المارك لرجل : راقب الله تعالى ؛ فسأله عن تفسيره فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبًا على فلا أبالى بغيره . وقال أبو عثمان المغرى : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطا. : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الاوقات . وقال الجريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين ؛ أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائمــا . وقال أبو عثمان : قالـلى أبو خفص ، إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغزنك اجتهاعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان بكرمه ويقدّمه فقال لهبعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك ؛ قال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حي في يَده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجمد موضعًا لابراني فيه أحد إذالته مطلع على في كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك أن تسكرم . وحكى أنّ زليخا لمـا خات بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لهـا فقال يوسف: مالك؟ أنستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار 1 وحكى عن بعض الاحداث أنه راود جارية عننفسهافقالت له : ألا تستحيى ؟ فقال : بمن أستحي و ما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت : فأين مكوكبها ؟ وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد: [ممايتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل : وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة ، قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل و إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إنى لاهم بعذاب أهل الارض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسي عن المراقبة فقال : أولما عـلم القلب بقرب الله تعالى . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة . ويروى أنَّ الله تعالى قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن على الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لاتنقطع نعمه عنك ، واجعلطاعتك لمن لانستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لاتخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين الفلب بشيء أفضل ولاأشرف من علم العبد بأنَّ الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمنخشي ربه ﴾ فقال معناه : ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده . وسئل ذوالنون : بم يسال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه مهوومراقبة الله تعالىفي السروالعلانية وانتظار الموتبالتأهب

⁽١) حديث : سأل جبريل عن الإحسان نقال ه أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « اعبد الله كألك تراه ٠٠٠ الحديث » تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن. قل على رقيب ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على : عظى ، فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه براك لقدا جتر أت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لايراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثورى عليك بالمراقبة بمن لا تخنى عليه خافية ، وعليك بالرجاء بمن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر بمن يملك العقوبة وقال فرقد السنجى إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعملى . وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الحطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال إلى مملوك ، فقال قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال فأين الله ؟ قال فبكى عمر رضى الله عند من الآخرة .

بيان حقيقة المرافبةودرجاتها

اعلم أن حقيفة المراقبة هي ملاحظة الرقيب والصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشهرها نوع من المعرفة ، وتشمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه . وأما المعرفة التي تشمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر عالم بالسرائر رقيب على اعمال العباد قائم على كل نفس بماكسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا _ أعنى أنها خلت عن الشك _ ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ؛ فرب علم لاشك فيه لايغلب على القلب كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب فرب علم لاشك فيه لايغلب على القلب كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب الستجرت القلب إلى مراعاة جانب اليين ، فراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستفرقا علاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا ببق فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا، وهذا مراقبة لانطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب. أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد بل يستد الرعية من ملك كلبة الراعى، والقلب هو الراعى، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جادية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الحلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لاصمم به وقد يمتر على ابنه مثلا فلا يكلمه، حتى كان به ضهم يحرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى محركنى ولانستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الآرمن ، حتى إن خدم الملك قدلا يحسون عما يحرى عليه في بحالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص

الرجل في الفكر فيه ويمشي فربمـا بجاوز الموضع الذي قصده وينسي الشغل الذي نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلارجلا سيدخل عليكم -الساعة 1 فماكان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحــد بن زيد : من أين جثت ياعتبة ؟ فقال من موضع كذا _ وكان طريقه على السوق _ فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقــال : مارأيت أحدا . ويروى عن يحيي بن زكريا عليهما السلام : أنه مز بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحـــد جالس بعيدا منهم ، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله تعالى أشهى 1 فقلت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى 1 فقلت : من سبق من هؤلاء؟ فقال : من غفراته له ، فقلت : أينالطريق ؟ فأشار نحو السهاء وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدةالله تعالى لايشكلم إلا منه ولايسمع إلافيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرُّك إلا بمـا هو فيه . ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شي. فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا ، فعكانت إذا أزادت الصيد رابطت رأسًا لجحرًلاتتحرَّكُ لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي على الروذباري فقال لي عيسي بن يونس المصري ـ المعروف بالزاهد ـ إن في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إلىهما نظرة لعلك تستفيد منهما ؟ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان وفي وسطى خرقة وليس على كنفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين تاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمم الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتمــا على السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بق من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا ؛ قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي ، فلماكان وقت العصر قلت : عظني ا فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة ، فيقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئًا ولا شربًا ، فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ولايعظك بلسان قوله ، والسلام ؛ قم عنا 1 فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب الهين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الاحوال والاعمال، إنها مع ممارسة الاعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لاتدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أوكبير من الاكابر فيستغرقك التمظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه فهكذا تختلف مرا تب العباد في مراقبة الله تعمالي .

ومن كانفي هذمالدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركانه وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، ولهفه إ نظران: نظرقبلالعمل، ونظرفي العمل (أماقبل العمل) فلينظران ماظهر لهو تحرك بفعله خاطره أهولله خاصةاوهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشفله ذلك بنورالحق، فإذكان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرَّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدَّرة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف في بداية الامور إلى حدّ البيان واجب محتوم لامحيص لاحد عنه ، فإنفي الحبر : إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركانه و إن صفرت اللائة دو اوين: الديوانالاول؛ لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث: لمن؟ (١) ومعنى. لم ،أيلم فعلتهذا أكان عليك أن تفعله لمو لاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمو لاه سئل عن الدبو انالثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكما لايدرك قدره ورقته وصفته إلابعلم فيقالله : كيففعلت أبعلم محقق أمبحهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له . لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاء بقولك . لا إله إلا الله ، فيكون أجرك علىالله ؟ أولمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه ؟ أم عملته لننال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ؟ امعملته بسهو وغفلة فقدسقط أجركوحبط عملكوخابسميك ؟ و إنعملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابي إذكنت عبدا لى تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيرى أماسمعتني أقول ﴿ إنالذين تدعوں من دون الله عباد أمثالكم _ إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتَّغُوا عند الله الرزق واعبدوم) ويمك أماسمعتني أقول ﴿ أَلَا لَهُ الدِّينِ الحالصِ ﴾ فإذا عرف العبدأنه بصدد هذه المطالبات والتو بيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليـكن الجواب صوابا ، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرُّك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ . إن الرجل ليسئل عن كمل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه (١) ، وقال الحسن ، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعمالي عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضي وإن كان لغيره تأخر . وقال في حديث سعد حين أوصاء سلمـان . اتق الله عند هماك إذاهممت (١) ، وقال محمدبن على : إنَّ المؤمن وقاف متأنَّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظر الاوَّل في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمءرفة الحقيفة بأسرار الاعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فتى لم يعرف نفسه وربه وعدة • إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله و يرضاه فى نيته وهمته وفسكرته وسكونه وحركته ، فلايسلم في هذه المراقبة . بل الاكثرون يرتسكبون الجهل فيما يسكرهه الله تعالى وهم يحسنون أنهم يحسنون صنعا ، ولاتظان أنَّ الجاهل بمـا يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات 1 بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم

⁽۱) حديث « ينصر العبد في كل حركة من حركاته وان سنرت ثلاثة دواوين : الأول لم · والثاني كيف . والثالث لمن » لم أنف له على أصل .

^{. (}٢) حديث : قال لماذ ه ان الرجل ليسأل عن كل عينيه ٠٠٠ الحديث ، تقدم في الذي قبله . (٣) حديث سعد حين أوصاء سلمان أن : اتني الله عند همك اذا هممت ، أخرجه أحمد والحاكم وصمحه ومذا القدر منه موتوف وأوله مرفوع تقدم .

أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان. مواضع الغرور فيتق ذلك ، والجاهل لايعرفه فكيف يحترز منه ؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتةً ، فنعوذ بالله من الجهلوالغفلة فهو رأسكل شقاوة وأساس كل خسران . فحكم الله تعمالي على كل عبد أن يراقب نفسه عند ممه بالفعل وسعيه. بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أوهو لهوىالنفس فيتقيه ويزجر القلبءن الفكر فيه وعن الهم به ، فإنّ الخطوة الأولى فىالباطل إذا لمتدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الاقل وهو الخاطر فإن جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى ، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضىء بنور علماء الدين ، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لانسأل عنى عالمنا أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشرء والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعـالى ، فإن مستضاء أنوار الفلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرُها وأقبل على عدَّوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا ؟ فلتكن همة المريد أوّلا فيأحكام العلم ، أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل المكامل عند مجوم الشهوات "" ، جمع بين الأمر بن وهما متلازمان حقا فمن ليسله عقلوازع عنالشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات . ولذلك قال عليه السلام ، من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٢٠) ، فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدي به حتى يعمد إلى محوه ومحقة بمقارفة الذنوب ، ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست في هذه الاعصار ، فإنّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الحلق في الخصومات الثائرة فى اتبساع الشهوات وقالوا هذا هو الفِقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدبن عن جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدنيـا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن الفلوب ليتفرّغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيــا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفي الخبر . أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت "" ، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان نمن وصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال . فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك مخاصة نفسك وكل من خاص في شبه بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ وَلَا تَفْتُ مَا لِيسَالُكُ بِهِ عَلَم (أَ) ﴾ وقوله عَليه السلام . إما كم والظن فإنّ الظن أكذب الحديث (٠٠ ، وأراد به ظنا بغيردليل كايستفتى بعض العوام قلبه فيها أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الآمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضى الله آمالى عنه : اللهم أرنى الحق حقا وارزقني اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولاتجعله متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسي عليمه

السلام . الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فسكله إلى عالمه (١) ، وقد كان من دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . اللهم إنى أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم (١) ، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده (وكان فضل الله عليك عظيما) وأراد به العلم وقال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (إن علينا للهدى) وقال (وعلى الله قصد السبيل) .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن النوفيق التوقف عند الحيرة ، وفحم طارد الهم اليقين ، وعافية الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، فعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرا النقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه وزرق يطلبك فإن لم تأته أناك ، وإن كنت جازعا على ماأصيب بما في يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوء فوت مالم يكن السدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قال صلى الله عليه وسلم ، ثلاث من كن فيه استكل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يرائي بشيء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهماللدنيا والآخر الآخرة مقل الذيرة المي نقد أن يكون ماحا ولمكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم ، من حسن إسلام المرء تركه ما لايمنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم ، من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه نه أن . .

النظر الثانى للمرقبة عند الشروع فى العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويمكل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا الملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الآدب. فإن كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى إلله عليه وسلم ﴿ خير المجالس مااستقبل به القبلة (٥٠) ﴾ ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام . فينام على اليد اليمني مستقبل القبلة مع سسائر الآداب التي ذكرناها في موضعها _ ف كل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعانه لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذن لايخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الآدب وحراستها عن الآفات .

⁽٢) حديث • قال عيسي الأمور ثلاثة ... الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

⁽٢) حديث د اللهم لنى أعوذ بك أن أفول فى الدين بنيرعلم » لم أجده . (٣) حديث د ثلاث من كن فيه استدكمل لم يمانه لا يخاف فى الله لومة لائم . . . الحديث » أخرجه أبو منصور الدياسى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

⁽٤) حديث « من حسن لمسلام المرء تركه مالايمنيه » تقدم . (٥) حديث « خير الحجالس م'استقبل به القبلة » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم ،

وإنكان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر .

وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الآدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بليسة لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أوندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولمكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه في جميع أوقاته في هذه الافسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يتنمس أفضل الاعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهومغبون ، والارباح تنال عبرايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لاتعب فيهاعلى العبد كيفها انقضت في مشقة أو رفاهية . وساعة مستقبلة لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راهنة ينبغى أن يحاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة الثانية الستوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلمله آخر أنفاسه وهو لايدرى ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون جميع أحواله مقصورة أنفاسه فينبغى أن يكون جميع أحواله مقصورة على مارواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث : ترود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم (١) ، وما روى عنه أيضا فى معناه ، وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم (١) ، وما روى عنه أيضا فى معناه ، وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات على هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب فإن في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الاعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من المجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لاسبسابه ، وخلق الشهوات البساعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ـكما فصلنا بعضه فى كتساب الشكر ـ وهذا مقام ذوى الآلباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنهولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الحالق ، فتسكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات الحبين ، إذ الحب إذارأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله فى النظر منه إلى

⁽۱) حدیث أبی ذر « لایکون المؤمن ظاعنا لما فی ثلاث: تزود لمعاد ... الحدیث، أخرجه أحمدوابن حبان والحاكم وصححه أنه صلی الله علیه وسلم قال لمه فی صحف موسی وقد تقدم . (۲) حدیث « وعلی العاقل أن یکون له ثلاث ساعات: ساعة یناجی قیما ربه ... الحدیث » وحی بحیة حدیث أبی ذر الذی قبله .

الصائع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على مافاتهم منه ويفرحون بما حضرهممن جملته، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن فقد ذم الله، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسيسلم « لانسبوا الدهر فإن الله هو الدهر (۱)، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيها ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الاصول.

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ﴾ وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الاعمال ، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزيوها قبل أن توزيوا ، وفي الخبر : أنه عليه السلام جاه و رجل فقال يا رسول الله أوصنى فقال و أمستوص أنت ؟ ، فقال فيم ، قال و إذا هممت بأمر فتدبر عافيته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه ، وفي الخبر و ينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلمكم تفلحون ﴾ والتوبة فظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنى الاستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة (٢) وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وعن عمر رضى الله عنه ۽ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟ وعن ميمون ابن مهران أنه قال لايكون العبد من المنقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة رضى الله تعلى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز على من عمر ، فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبى طلحة حين شغله الطائر في صلاته ـ فتدبر ذلك ـ فجل حافطه صدقة لله ترسا و رجاء للموض عما فاته (٢) ،

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حرمة من حطب فقيل له ياأبا يوسف قد كان فى بنيك وغلبانك مايكفونك هذا، فقال أردت أن أجرّب نفسى هل تذكره ؟ وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر من غير محاسبة مم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا ؟ والله لاأعذر بهذا والله لاأعود لهذا أبدا إن شاء الله ا وقال أنس بن مالك سمت عمر بن الخطاب رضي الله تعمالي عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ وهو في الحائط ؟ عمر

⁽١) حديث « لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أخرجه مسلم منحديث أبى هريرة . (٢) حديث « إنى لأستنفرالله وأثومه لمليه فى اليوم مائة ممرة » تقدم غير ممرة . (٣) حديث أبى طلحة : حين شغله الطائر عن صلاته لجمل حديقته صدقة · تقدم غير ممرة .

ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ ا والله المتقين الله أو ليمذبنك . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللؤامة ﴾ قال : لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ؛ ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلى ؟ ماذا أردت بشربى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك من دينار رحم الله تعالى ذكان قائدا وهذا من معاتبة النفس كا سيأتى فى ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كا سيأتى فى موضعه ، وقال معمون بن مهران : التق أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شميح . وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسى في الخاراكل من رقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى يانفس أى شيء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا ا قلت : فأنت في الامنية فاعملى . وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول ؛ وحم الله أمرأ حاسب نفسه قبل أن يصيرا لحساب إلى غيره ، رحم الله أمرأ أخذ بعنان علم فنظر ماذا يريدبه رحم الله امرأ فظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه ، فيا زال يقول حتى أبكاني . وحكى صاحب للاحنف ابن قيس قال : كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : ياحنيف ماحمك على ماصنعت يوم كذا ؟ ماحمك على ماصنعت يوم كذا ؟ .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أنّ العبدكما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ـكما يفعل التجار فيالدنيا معالشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فانهم لـكانت الخيرة لهم فى فواته 1 ولو حصل ذلك لهم فلا يـتى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق ندوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المـال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضهانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمارة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فِإن أداها على وجهها شكر الله تعـالى عليه ورغما في مثلها ، وإنّ فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداما ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به مافرط كما يصنع الناجر بشريكه ـ وكما أنه يفتش في حساب الدنيسا عن الحبّة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا ينبن فى شيء منها فينبغي أن يتتى غبينة النفسومكرهافإنهاخذاعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تـكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعودهوأ كلهوشربهونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف جموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباق على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كايكتب الباق الذي على شربكه على قلبه وفي جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستونى منه الديون . أما بعضها : فبالغرامة والضمان ، وبعضها : برد عينه وبعضها

بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة على نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه ؛ فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون الف يوم وخمسائة يوم ، فصرخ وقال ياويلتي ألق الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ا فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم خرّ مفشيا عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الاعلى ا فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ؛ ولورى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك في أحصاه الله ونسوه في .

المرابطة الرابعة ف معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلاينبغي أن يهماها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بهـا نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب ملاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شهة بشهوة نفس بنبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلىغير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العبادكلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها شمندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زمانا طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاعتنن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إلبها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريدأن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيدرجله إلى الصومعة قال: همات هيهات ! رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود في صومعتي لا يحكون والله ذلك أبدا ! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره. ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكربي يقول : أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة ياردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا لحدّثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن المــاء أوأدخل الحمام ولاأعني علىنفسي فقلت : واعجبا أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والنأخر ا آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ١ وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس، ويحكي أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليهاغزوان ، فرفع يدهفلطم عينه حتى بقرتوقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة امرأة لجعل على نفسه أن لايشرَ بالماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عمالايعنيك ؟ لاعاقبنك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا : إنه نائم ، فقال : أنوم هذه الساعة ! هذاوقت نوم ؟ ثم ولي منصرفا فأتبعناه رسولا وقلناله: ألا نوقظه لك 1 فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئًا ، أدركته وهويدخل المقابر وهويعاتب نفسه ويقولم: أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء ! وما يدريك أنّ هذا ليسوقت

نوم؟ تشكلمين بمالا تعلمين؟ أما إن لله على عهدا لا أنقضه أبدا ا لا أوسدك الارض لنوم حولا إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سوأة لك أما تستحين اكم توبخين ؟ وعن غيك لاتنتهين ؟ قال : وجعل يبكي وهو لايشعر بمكاني، فلما رأيتذلك الصرفت وتركته . ويحكى عنتميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ؛ فقام سنة لمينم فيها ، عقوبة للذي صنع . وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال : الطلقرجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ فالرمضاء فكان يقول لنفسه : ذَوق ! ونار جهنم أشدّ حرّا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينها هو كذلك إذ أبصّرالني صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتني نفسي ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم , ألم يكن لك بدّ من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهي الله بك الملائكة ، ثم قال لاصحابه ، تزوّدوامن أخيكم ، فجعل الرجل يقول له :يافلان ادع لى 1 يافلان ادع لى فقال 1 النبي صلى الله عليه وسلم . عمهم ، فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل الذي صلى الله عليه وسلميقول . اللهم سدّده ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم (١١) وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيفأعطيها شهواتها ؟ ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات ـ وهو في بيته على التراب ـ فقال : ياداود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعنوهب بنمنية : أن رجلا تعبد زماما ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاياً كل في كل ببت إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجم إلى نفسه وقال : منك أتيت لو كان فيك خير لاعطيت حاجتك ! فنزل إليه ملكوقال : ياابن آدم ؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضي الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا فحضر العدو ، فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أماى وهو يخاطب نفسه ويقول : أينفسي ألم أشهد مشهد كذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى ؛ أهلكوعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لاعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك ! فقلت لارمقنهاليوم ، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فسكان في أوائلهم ، ثم إنالعدو حمل على الناسفانكشفوا فسكان في موضعه ، حتى انكشفوا مراتو هو ثابت يقاتل ، فو الله مازال ذاك دأ به حتى رأ يته صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر منستين طعنة . وقدذكر نا حديث أبي طلحة : لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم ؟ وعن مجمع : أنه رفع رأسه إلى السطع فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الاحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فـكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئًا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه : ويحك 1 إنمــا أريد بك الحير . ورأى محمد بن بشرداود الطائي، وهو يأكل عند إفطاره خبرًا بغير ملح! فقال له : لو أكلته بملح! فقال : إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحاً مادام في الدنيا .

فكذا كانت عقوبة أولى الحزم لانفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لحرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل

⁽۱) حديث طلعة : الطلق رجل ذات يوم فلزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا ٠٠٠ الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسة النفس من رواية ليث بن أبي سلم عنه وهذا منقطع أو مرسل ، ولا أدرى من طلعة هذا .

نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أنالعيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فيذبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فانته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحبج ماشيا أو التصدق بجميع ماله . كلذلك مر ابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسى لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبير معالجتها ؟ فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين (۱) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله بحتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة فظرت إلى أحوال محد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يحتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السباع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة اثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ا فعوذ بالله تعالى من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف الجتهدين وفضائلهم مايحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى (٢) ، قال الحسن : أجهدتهم العبادة ! قال الله تعالى ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ قال الحسن : يعملون ماعلوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طوبى لمن طال عمره وحسن عمله (٢) ، ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته : ما بال عبادى بحتمدين ، فيقولون : إلهما خوفتهم شيئا فخافوه وشوقتهم إلى شى مفاشتاقوا إليه ! فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لمكانوا أشد اجتهادا ، وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت

⁽¹⁾ الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاس « من قام بعصر آبات لم يكتب من النافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من الفا تتين ، ومن قام بألف آية كتب من المفتطرين » وله والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد سحيح « رحمالله رجلا قام من الليل فعليكم بقيام الليل في المناف عبد المناف ال

⁽۲) حدیث « رحم الله أقواما تحسبهم مرضی و ما بمرضی » لم أجد له أصلا فی حدیث مرفوع لااسكن رواه أحمد فی الزهد موقوظا علی علی فى كلام له قال فیه : ینظر لمایهم الناظر فیقول مرضی و ما بالقوم من مرض . (۳) حدیث « طوبی لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبرانی من حدیث عبد الله بن بصر وفیه بقیة رواه بصیغة «عن » وهومدلس والترمذی من حدیث أبی بكرة « خبر الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن " صحیح وقد تقدم

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أنبل ، ولا يتأسفون علىشيءمنهاأدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطثونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الارض شيئا قط ، وأدركتهم عاماين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، إذا علوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذاعملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن ينفرها لهم ، والله مازالواكذلك وعلى ذلك ووالله ماسلموا من الذنوب ولانجوا إلا بالمغفرة . ويمكى أنَّ قومًا دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمرله : يافتي ماالذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : ياأمير المؤمنين أسقام وأمراض ، فقال : سألتك بالله إلا صدقتني ! فقال : ياأمير المؤمنين ذقت حلارة الدنيا فرجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عند ذهبها وحجرهما ، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي ، وقليل حقيركل ما أنا فيه في جنب ثوابالله وعقابه . وقال أنو فعيم : كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الحبر فقيل له في ذلك فقــال : بين.مدخ الحبر وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إنّ في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال : يا ابن أخى إن لى في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يبكر هون فضو ل النظر كايبكر هون فضو ل الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة 1 فقيلله في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى ، فكل من نظر بغير اعتبـــار كتبت عليـــه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وسافاه منتفختان من طول الصلاة ! وقالت : والله إن كنت لاجلس خلفه فأبكى رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر، والسجودية في جوف الليل، وبجالسة أقوام ينتقون أطايب البكلام كما ينتق أطايب الثمر وكان الآسود بن يزبد بجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لمرتعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان بصوم حتى بخضر جسده ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالاً له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا ؟ فقال : إنما أنا عبد ملوك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض الجمهدين يصلى كل يوم ألف ركعة ، حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتىي ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ا عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ا بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك 1 وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فمكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لاحد أن يصلي لك في تبره فائذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى ا أتت عليه ثمــان وتسعون سنة مارۋى مضطجعًا إلا في علة الموت . وقال الحارث بن سعد : مرّ قوم براهب فرأوا مايصنع بنفسمه من شدّة اجتهاده ، فكلموه في ذلك فقال : وما هـذا عند مايراد بالخلق من ملافاة الاموال وهم غافلون ، قد اعتىكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم ؟ فبكي القوم عن آخرهم. وعن أن محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم والإيستند إلى عمودولاإلى حائط ولم يمدّ رجليه ، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتىكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعانى علىظاهرى ، فأطرق السكتانى ومشى مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصليفر أيته قدمة كفيه (٢٥ - إحياء علوم الدين - ١)

يبكى ـ حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه _ فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطهـا صفرة ا فقلت : ولم بالله يافتح بكيت الدم؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله ماأخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع؟ فقال : على تخلني عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لى الدموع ؟ قال : فرأيته بعد موته في المنام فقلت : ماصنع الله بك؟ قال : غفر لي ، فقلت له : فماذا صنع في دمرعك ؟ فقال : قربني ربي عز وجل وقال لى : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت : يارب على تخلني عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا ؟ فقلت على دموعى أن لا تصح لى ، فقال لى يافتح ما أردت بهذاكله ، وعزتى وجلالى لقدصعدحافظاكأربدين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة . وقيل إنّ قوما أرادوا سفرا لحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الـاس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السهاء ، فعلم القوم ما أراد ، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت بجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الحلق غدا عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم ، فقالوا أوصنا ، فقال تزودوا. على قدر سفركم فإنّ خير الزاد مابلغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال باهذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعهائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر في حسابه وعقابه فنهـــاره صـــائم وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فيكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ا فقلت ياراهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه ؟ فقال ياأخي لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل.ن رمى بها عن قلبه و تاب إلىالله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقرّبه من ربه . وقيل الداود الطائى لو سرحت لحيتك فقيال إنى إذن لفارغ . وكان فيحيى الليل كله في سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لايتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك ا قال الرفق أطلب 1 دعيني أتعب قليلا وأتنعم طويلاً وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً . وكان سفيان اثوري يقول عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يجمد القوم التتي . وقال عبد الله بن داود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لاينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسـه قومى يا مأوى كل شر 1 فلـ.ا ضعف اقتصر على خسمائة ، ثم كان يبـكى ويقول ذهب لصفـعـلى . وكانت ابنـة الربيسع بن خشم تقول له ياأبت مالى أرى الذاس ينـامون وأنت لا تذام؟ فيقول ياابنتـاه إنّ أباك يخـاف قالت : فن هو حتى نطاب أمـله فيعفو عنـك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيــه لرحموك وعفوا عنـك ، فيقول : ياأماه هي نفسي . وعن عمر ـ ابن أخت بشر بن الحارث ـ قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لامي ، ياأحتى جوفى وخواصرى تضرب على، فقـالت له أي يا أخى أتأذن لى حتى أصـلح لك قليــل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ! فقال لهما ويحك ! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى إيش

أةو ل له ، فبكت أي وبكي معهما وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أي : ياأخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي بما أرى بك ا فسمعته يقول لها وأنا فليت أى لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديما على . قال عمر وكانت أي تركي عليه الليلوالنهار . وقال الربيع . أتيت أويسا فوجدته جالسا حتى صلى الفجر ، ثم جلس فجلست فقلت لاأشغله عن التسبيح فمكث مُكانه حتىصلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إنى أعوذ بك من عين نوّامة ومن بطن لا تشبيع ا فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال ياأبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض؟ فقال وما لاويس أن لايكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غيرنائم . وقالأحمدبن حرب ياعجبًا لمن يعرف أنَّ الجنة تزين فوقه وأنَّ النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابنأدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فو ثب إلى الصلاة ولم يحدث وضو.ا فحاك ذلك فى صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مصطجعا ثم لم تجدّد الوضوء فقال كنت الليلكله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أوديةالنارأحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البنساني أدركت رجالاكان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لايضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لايعلمبه أهاءوقيل كان ورد سمنون في كل يوم خسمائة ركعة . وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردى في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة ـ شك الراوى ، وكان منصور بنالمعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إنّ حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لاتسكت لعلك يابني أصبت نفسا لعلك قنلت قتيلا؟ فيقول ياأمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي ، وقيل لعامر ابن عبدالله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمروكان يقول مارأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهـــار قال أذهب حرّالنار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمدالقوم السرى . وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولانهار . ويروى عن رجل من أصحاب على بن أ بي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلمــا سلم انفتـل عن يمينه وعليه كــآبة فـكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلىالله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئـــا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد بأتوا لله سجدا وقيساما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجبساههم وكانوا إذا ذكروا الله مادواكما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين ـ يعنىمن كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوّف به نفسه وكان يقول لنفسه قوى فوالله لازحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لامني فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولىبالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وســلم أن يستمأثروا به دونناكلا وألله لنزاحهم عليــه زحاما

حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سايم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتباء اضطجع على السطح ليضربه العرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليهـا ، فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحي ، وهي تقرأ ﴿ فَمْنَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابِالسموم ﴾ وتبكيوتدعو وتردد الآية ، فقمت حتى مللت وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما وردعليناعبدالرحن ابن الاسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث بحول بيني وبين قيام الليل . وقال على بن أبي طالب كرّم الله وجهه : سيا الصالحين صفرة الالوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذيول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين ، وقيل للحسن : ما بال المنهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال ، لانهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بنءبدالقيس بقول: المي خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني و لا تعلمني ، و خلقت معي عدة او جعلته يجري مني بجري الدم وجعلته يرانى ولاأراه، ثم قلت لى : استمسك ، إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى ؟ إلهى فى الدنيا الهموم والآحزان و فى الآخرة العقاب يرالحساب فأين الراحة والفرخ؟ وقالجعفر بن محمد : كان عتبةالغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ، ثُمَّ وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال . لاتنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ماكان فيه بين الصيحتين حتى صاح ! وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب ـ وكان له أهل وبنات ـ وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون أكل هـذا الليل ترقدون ا أفلا تقومون فترجلون ؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته ؛ عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحسكاء : إنَّ لله عبادا أقم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الحلق والآمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفًا. اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة ، فهم بين الحتلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لايمكن واصفا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم الظاهر مناديل ، مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهـذه طريقة لايالمخ إليها بالتكاف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينها أ ما أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علاوإذا تلك الجبال تجيبه لها دوىعال فاتبعت الصوت فإذا أنابروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿ يُوم تَجْدُ كُلُّ نَفْسُ مَاعَلْتُ مِنْ خَيْرُ مُحْسَرًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ الله نفسه ﴾ قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرَّمنشيا عليه ، فقلت : وا أسفاه هـذا لشقائي . ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام المكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراضالغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الحائفين وإليك

فزعت آ مال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال مالي وللدنيا وماللدنيا ومالى ؟ عليك يادنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك ! إلى محبيك فاذهى ! وإيام فاخدعي ! ثم قال : أين القرون المساضية وأهل الدمور السالفة ، في التراب يبلون ، وعلىالزمان يفنون ، فناديته : ياعبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك ! فقال · وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ؟ وبقيت آثامه؟ ثم قَال : أنت لها ولـكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخرّ مغشياً عليه ! فقلت : قد خرّجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم افاق وهو يقول: من أنا ، ماخطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ! وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك ا فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك ا وتثق به إلا كلمتني ا فقال : عليك بـكلام منينفعك كلامه ، ودع كلام من أو بقتهذنوبه ، إنى لني هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عونا على ليخرجني بمـا أنا فيه غيرك ؟ فإليك عني يامخدوع فقد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلى ! وأنا أء ذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل على رحمته . قال :فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا ! فانصرفت وتركته . وقال بعضالصالحين : بينها أناأسير في مسير لى إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى : ياهذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجه فاتبعته فسمعته وهو يقول ﴿ كُلُّ نَفْسَ ذَائْفَةُ المُوتَ ﴾ اللهم بارك لى فى الموت ، إ فقلت : وَفَيهَا بَعِد الموت ، فَقَال : من أيقن بمـا بعد الموَّت شمر منزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقرّ ، ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوء بيض وجهى بالنظر إليك واملاً قلي من المحبةُلك وأجرنى منذلك التوبيخ غدا عندك فقدآن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلك لم يسعني أجلى ولولا عفوك لم ينبسط. فيها عندك أملى ، ثم مضى وتركني . وقد أنشدوا في مذا المعنى :

تراه بقمة أو بطن وادى
يكدر تقلها صفو الرقاد
فدعوته: أغثى ياعمادى
كثير الصفح عن زلل العباد
لذا أقبلن في حال حسان
يسيح إلى مكان من مكان
ويظهر في العبادة بالأماني
وذكر بالفؤاد وباللسان
يبشر بالنجاة من الموان

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ينوح على معاص فاضحات فإن هاجت مخاوفه وزادت فأنت بما ألافيسه عليم ألذ من التلذذ بالغوانى منيب فر من أهل ومال ليخمل ذكره ويعيش فردا تلذذه التلاوة أين ولى وعند الموت يأتيه بشير

فيدرك ما أراد وما تمنى

وقيل أيضا :

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له : قد أجهدت نفسك 1 فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل سبعة آلافسنة ، فقال : كم مقداريوم القيامة ؟ فقيل : خمسون ألف نة ، فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ؟ يعنى أنك لوعشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا ، فكيف وعمر لدقصير والآخرة لاغاية لها؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس و مراقبتها . فهما بمتردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قدعز الآن وجود مثلهم ولوقدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجمع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الافتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحدكماء وذو والبصائر فى الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولاترض لها أن تنخرط فى سلك الحق و تقنع بالتشبه بالاغبياء و تؤثر مخالفة العقلاء .

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقويا. لايطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لهـا: يانفس لاتستنكني أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ! ولنذكر الآن نبذة من أحوال الجتهدات؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت علمها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي قد غارت النجومونامت العيون وغلقتالملوك أبوابها وخلاكل حبيب بحبيبه وهذا مقاى ببن يديك . ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهي هذا الليل قد أدبر و هذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا أم رددتها على فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ماأبقيتني ، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لمـاوقع في نفسي من جودك وكرمك . ويروى عن عجزة أنهاكانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصرفإذا . كان في السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجي الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهي أسألك لا بغيرك أن تجملني في أوّل زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقى بعبادكالصالحين فأنتأرحم الرحماء وأعظم العظاء وأكرم الكرماءياكريم ، ثم تخرسا حدة فيسمع لهاوجبة ثم لاتزال تدعو وتبكى إلى الفجر . وقال يحيىبن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرىماتصنع منالنياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لى : لوأتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك ، قال فأتينافقلت لها : لورفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدبن ؟ قال فبكت ثم قالت والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لاتبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأني لي بالبكاء وأني لي بالبكاء . فلم تول تردد . وأني لي بالبكاء ، حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في مناى كأني أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبواجم ، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها 1 فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختى والله ، قالت فبينها أنا كذلك إذ أقبل بهـا على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت؛ يا أخي أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقني بك؟ قالت فتبسمت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين ألزى الحزن قلبك وقدى محبة الله على هواك و لايضر لـُـمتى مـت. وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جني فانتهت فالتمسنها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي نقول بحبك لي إلا ماغفرت لي ذنو بي ، فقلت لها لا نقولي بحبك لى ولكن قولى بحبي لك ، فقالت : يامولاى بحبه لى أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا المرأة من أهل الين يقال لها سرية فنزلت في بعض

ديارنا ، قال : فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع قال : فأشرف علمها فما رآها تصنع شيئيا غير أنها لا ترة طرفها عن السهاء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لهـا حسنة وكل بلائك عندما جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب علىمعاصيك فلتة بعدفلتة أتراها نظن أنكلاترى فعالها وأنت عليم خبير وأنت علىكل شيء قدير وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت؟ غير فزعة منى ، فقلت : رجل غريب ، فقالت : ياهذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الذي أبكاك ؟ فقلت : قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه ، قالت : فإن كنت صادقًا فلم بُكيت ؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يُبكى؟ قالت لا ، قلت وَلَم ذاك ؟ قالت لان البكاء راحة القلب، فسكت متعجبًا من قولهًا . وقال أحمد بن على استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إنى أعوذ بك بمن جاء يشغلني عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا علمها فقلنا لها يا أمة الله ادعى لنا ، فقالت جعل الله قرامكم في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فمكان لاينظر إلى السماه ، فحانت منه نظرة فحر مغشيا عليه فأصابه فتق في بطنه ، فياليت عفيرة إذار فعت رأسها لم تعص 1 وياليتها إذا عصت لم تعد 1 وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعي جارية حبشية 🖰 فا حتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت لاتبرحى حتى أنصرف إليك ، قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع ، فالصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت يامولاي لاتعجل على إنك أجلستني في موضع لم أرفيه ذاكرا لله تعسالي فخفت أن يخسف بذلك الموضع ! فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرّة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران ، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما . وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لهـا بريرة ، تعبدت وكانت كشيرة القراءة في المصحف ، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حنى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعدلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يابر برة كيف أصبحت 1 قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها ماهذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطوُّل من هذا ؟ ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير مانحن فيه وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسَى ، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلى حتى تصبح : وقال أبوسليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلىالسحر فلساكان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا . وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لايخيب لديك أمل الآملين ولايبطل عندك شوق المشتاقين ، إلمي إن كان دناً أجلى ولم يقربني منك عمل فقد جدلت الاعتراف بالذنبوسائل عللي ؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإنعذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لهـــا وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد بمـاتي

ولقد رجوت ممن تولاتی فی حیاتی بإحسانه أن یسعفی عند بماتی بغفرانه ، إلهی كیف أیاس من حسن نظرك بعد بماتی ولم تولی إلا الجمیل فی حیاتی ، إلهی إن كانت ذنوبی قد أخافتنی فإن محبی لك قد أجارتنی فترل من أمری ما أنت أهله وعد بفضاك علی من غره جهله ، إلهی لو أردت إهانتی لما هدیتنی ولو أردت فضیحتی لم تسترنی فتعنی بماله هدیتنی وأدم لی مابه سترتنی ، إلهی ماأظنك تردنی فی حاجة أفنیت فیها عمری ، إلهی لو لا ماقارفت من الدنوب ما خفت عقابك ، ولولا ماعرفت من كرمك مارجوت ثوابك ، وقال الخواص : دخلنا علی رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتی اسودت و بكت حتی عیت و صلت حتی أقعدت _ وكانت تصلی قاعدة فسلمنا علیها ثم ذكرناها شیئاً من العفو لیهون علیها الامر ، قال : فشهقت ثم قالت : علمی بنفسی قرح فؤادی وكلم كبدی والله لو ددت أن الله لم يخلقنی ولم ألك شیئاً مذكورا ، ثم أقبلت علی صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطلع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويريد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن قطع أكثر من في الارض يضاوك على سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيا ذكر ناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزبداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب و حلية الاولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين الك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدّتناك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيا همفه وعليه ؛ فلا يجرى عليك للما يجرى عليك لو مجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم بأخذوا حدرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقدرت أنت تركين موافقتهم و تسخيه في صفيعهم و تأخذين حذرك مماحداك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وهل يختلج في نفسك : أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم المصيبة إذا عمت ولا مل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل وماهيمة حيث قالوا (إنا وجدنا آباه نا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وطها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها و تعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المر ابطة السادسة : في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الحير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل الفهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس المؤامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولابوعظ نفسك واضية مرضية ، ملا تفعلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولابوعظ نفسك أوحى الله تمال إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن العظت فعظ الناس إلا فاستحى منى ، وقال تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وسبياك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتهاو أنهاأ بداتتمور بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستشكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يانفس ماأعظم جهلك تدعين الحكة

والذكاء والفطنة وأنت أشدُّ الناس غباوة وحمقًا 1 أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريباً ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت ؟ أما تعلين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لايأتي في شي. دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت لجأة فإن لم يكن الموت لجأة فيسكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدّين الموت وهو أفرب إليك من كل قريب؟ أما تتدرين قوله تعالى ﴿ اقترب للنماس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلمبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فـــا أعظمكفرك وإنكان مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتكوأةل حياءك، ويحك بانفس لو واجهك عبد من عبيدك بلأخ من إخوانك بمــا تـكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشــديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيمات هيهات ا جرى نفسك ا إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحام أو قرى أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغاثه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فسلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تـكلينه إلى كرم الله تعـالي ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بمـا لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غمير سمعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا 1 وقد عزفت أنسنةالله لا تبديل لهــا وأن رب الآخرة والدنياواحد وأن ليس للإنسان إلاماسعي . ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدّعين الإيمــان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها ﴾ وقال فى أمر الآخرة ﴿ وَأَنْ لَيْسَ الْإِنْسَانَ إِلَّا مَاسَعَى ﴾ فقد تَكَفُلُ لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تشكالبين على طلبها تسكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر 1 ما هذا من علامات الإيمـان؟ لوكان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ وبحك يانفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ا أنحسبين أنك تتركين سدى ا ألم تكونى نطفة من منى ينى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فيها أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه عا ذا خلقك؛ من نطفة خلقك فقدّرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله . ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فالك لاتأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركنه وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في توبك عقربا لرميت ثموبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الانبياء والعلماء والحكاء وكافة

الاولياء أقل عندك من قول صي من جملة الاغبياء ! أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذه أفعال العقلاء ! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فمإذا أمنت استعجال الآجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر علىقطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لوسافر رجل ليتفقه فىالغربة فأقام فيهاسنين متعطلا بطالاً يمد نفسه بالتفقه في السنة الاخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعمالي إ ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المبافع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهـذا محال وجوده ، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين : غدا غدا ؛ فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدنه ؟ أماعلت أن الغد الذيجاء وصار يوما كان له حكم الامسلابل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ؛ لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها . فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرمومن|التعذيب تهذيب الديب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فى أشد غباوتكوأ قبح اعتذارك المان كنت اعظرة في ذلك فاطلى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد و ماقولك ولامطمع في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنت باغرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات . وماقولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب برك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربة طول عره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فا مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ايتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثاثة يوم وحميح عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته . وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر النار في دركات جهنم فن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خنى أو لحق جلى . أما الكفر الحنى : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلى : فاعتمادك على كرم الله تعمل وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ـ مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبر أوحة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها واستغنائه عن عبادتك ـ مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبر أوحة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها واستغنائه عن عبادتك ـ مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبر أوحة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها

من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل ـ وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ، الـكيس من دان نفسه وعمل لمـا بعد الموت ، والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، .

ويحك يانفس لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالانفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى الآخرة على قدر بقائك فيها ، يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والـكسوة والحطبوجميـع الاسباب، ولاتتكلين فىذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإمه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهر ر جهنم أخف بردا وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟كلا أن يكونهذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات 1 كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنــار وسائر الاسباب فلا يندفع حرّ النــار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراه الحطب والجبة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك وبجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عنالعالمين . ويحك يانفس انزعى عنجهاك وقيسى آخرتك بدنياك ﴿ فَمَا خَلْفَكُم ولا بعشكم إلا كنفس واحدة ﴾ و ﴿ كَا بِدَأَنَا أَوَّلُ خَلَقَ لَعَيْدُهُ ﴾ و ﴿ كَا بِدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فمسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فينفسك مؤدتها ، فاحسى أنك غافلة عن عقابالله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فها أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لامحالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أممن الحقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها إلابجاز وكل ما فيها لايصحب الجتازين بها بعدالموت ، ولذلك قال سيد البشر صلىالله عليه وسلم . إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ماشئت فإنك مجزى به وعش ماشئت فإنك ميت (١٦) . . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنمـا يستـكمُر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدرى ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مصواكيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون : يبنى كل واحد قصرا مرفوعا المحهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الارض فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا . أمانستحيين يانفس منمساعدة هؤلاء الحتى علىحماقتهم ، واحسىأنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنمـا تميلين بالطبـع إلى التشبه والاقتداء فقيسي عقل الانبياء والعلماء

⁽١) حديث « لن روح القدس نفث في روعي أحبب من من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تفدم في العلم وغيره .

والحكاء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيـا واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يانفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهرطغيانك ، عجبًا لك كيف تعمين عنهذه الأمورالواضحة الجليلة ! ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عنفهمها ، أو ما تتفكرين أنالجاه لامعني له إلاميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الارض سج. لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد بمن على وجه الأرض بمن عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يستى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ف ﴿ عَلَ تَحْسَ مَهُم مِن أَحد أُوتَسَمَع لَهُم ركزا ﴾ فكيف تبيعين يانفس مايه في أبد الآباد بما لايبق أكثر من خسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك الشرق والغربحتي أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك! لأسباب كيف ويأبي إدبارك وشقاو تك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاعن محلتك؟ فإن كنت يانفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهاك وعمى بصير تك فالك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزما عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ؟ أم مالك لاتزهدين في قليلها بعد أنزهد فيك كثيرهاومالك تفرحين بدنيا إن ساءدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الاخساء ١ فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكونى في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمق الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! فبادرى ومحك يا نفس فقد أشرفت على الملاك وأفترب الموت وورد النذر فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أنّ الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الاكبر. بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أنَّ عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجمة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيمين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخاق وتبارزن الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الحلق ولا تستحيين من الحالق ؟ وبحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارّة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أنَّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن النــاس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك 1 ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيــه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربخ في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعنالله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المماصي 1 ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويمك يا نفس أتشتغلين مع هـذه الخطابا بعارة دنيـاك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبوركيفكانوا جمعواكثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويمك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أنظنين أنهمدعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمركُ منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ا أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراق أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الالوان وكلح الوجره وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البـكاء؟ والعجب كل العجب مـك يا نفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة ومن فطننك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فـكم من مستقبل يوما لا يستـكمله وكم من مؤمل لغد لايبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟ فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمر. في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظرى يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدّى للسؤال جوايا وللجواب صوايا واعملي بقية عمرك في أيام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، اعملي قبـل أن لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل أن تخرجى منهـا على الاضطرار ولا تفرحي بمـا يساعدك من زهرات الدنيـا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لايشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح , يلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيـا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ، ولا تكونى بمن يعجز عن شكر ماأوتى ، ويبتغى الزيادةفيا بقى ، وينهىالناسولاينتهى ، واعلمى يانفس أنه ليس للدبن عوض ولا للإِمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر . فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النَّصيحة فإنَّ من أعرض عن الموعظة فقــد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل ف المواظبة على الصيام ، فإن لم يول فبقلة المخالطة والـكلام ، فإن لم تول فبصلة الأرحام واللطف بالايتام ، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الدنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار فقد خلق آلله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك بجال للوعظ فاقنطى من نفسك _ والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك _ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فاظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بهـا وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت ـــ فمستقى الدمع من بحر الرحمة ـ فقد بق فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاءواستعيني بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الاكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأولامنجا إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرعواخشعى في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لآنه يرحم المتضرع الذايل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة

المضطرّ ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به برّ رموف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولى يا أرحم الراحمين يارحمن يارحيم ياحليم ياعظيم ياكريم أنا المذنب المصر أنا الجرى. الذي لاأقلم أنا المهادي الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فمجل إغاثتي وفرجي وأرنى آئار رحمتك وأذفني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عظمتك يا أرحم الراحين . اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبه لمــا أهبط اللهآدم من الجنة إلى الارض مكث لارقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كثيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ماهذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال : ياربعظمت مصيبتي وأحاطت فخطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفيدار الشقاءبعدالسعادة وفيدارالنصب بعدالراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دارالزوال بعدالقرار ونىدارا لموت والفناءبعد الخلودوالبقاءفكيف لاأبكى على خطيئني ؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك دارى وخصصتك بكرا متى وحذر تك سخطى، ألم أخلقك بيدى ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمرى ونسيت عهدىو تعرضت لسخطى فوعزتى وجلالى لو ملات الارض رجالاكلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لانزلتهم منازل العاصين.فبكيآدم عليهالسلام عند ذلك المتائة عام . وكان عبيدالله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله : إلهي أنا الذي كلماطال عمرى زادت ذنوبي أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فىطلبأخرى!واعبيدا. إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ! واعبيدا. قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لاتقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت في بعض الليالى بالكوفة عابدًا يناجى ربهوهو يقول ياربوعزتك ماأرد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتكمتمرض ولالنظرك مستخف ولكن سؤلت لى نفسي وأعاني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخي على فعصيتك بجهليوخا الفتك بفعلى؛ فمن عذا بك الآن من يستنقذنى أو بحبل من أعتصم إنقطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للشقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي كلما كبرت سيكثر تذنو بي ويليكلماطال عمرى كثرت معاصى فإلى متى أتوب وإلى منى أعود؟ أما أنْ لى أن أستحى من ربى 1 .

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنمها مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكر

وهو الكتاب الناسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

المنالج النالج المنابع

الحمد لله الذى لم يقدّر لانتهاء عزته نحوا ولافطرا ، ولم يجمل لمراقى أقدام الاوهام ومرى سهام الافهام إلى حى عظمته بحرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهترت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجال صبرا صبرا ، ثم قبل لها أجيلي فى ذل العبودية منك فكرا لانك لو تفكرت فى حفاتك أمرا فانظرى فى فكرا لانك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعلى وأياديه كيف توالت عليك تقرى ، وجددى لكل نعمة منهاذكرا وشكرا، وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، فإن الما وطيا ونشرا ، وأياناً وكفرا ، وعرفانا وتكرا ، فإن جاوزت النظر فى الافعال إلى النظر فى المنات فقد حاولت أمرا إمرا ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّطافة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخرا ، صلاة تبق لنما فى عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم كيرا .

أما بعد: فقد وردت السنة بأن ، تفكر ساعة خير من عبادة سنة (۱) ، وكثر الحث في كتاب الله تعمالي على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخنى أنّ الفكر هو مفتاح الآنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده وبحراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفياذا يتفكر ولمساذا يتفكروما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لممرة تستفاد منه ؟ فإن كان لئمرة فما تلك المئرة أهى من العلوم أو من الاحوال أومنها جميعا؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر . ثم حقيقة التفكر وثمرته ، ثم مجارى الفكر ومسارحه ،

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لاتحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكر، ن فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنّ قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال الذي صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى

كتاب الفكر

(۱) حديث « تفسكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مستد الفردوس من حديث أنس بلفظ « ثمانين سنة » ولسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » . خلق الله ولاتتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره (١) ، وعن الني صلىالله عليه وسلم : أنه خرج على قومذات يوم وهم يتفكرون فقال . مالـكم لا تتكلمون ؟ ، فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل قال . فكذلك فافعلوا ، تفكروا في خلقه و لاتتفكر وافيه فإنّ بهذا المغرب أرضا بيضاء ورها بياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوما بهاخلق منخلقالله عزوجل لم يعصوا الله طرفة عين، قالوا: يارسو لـ الله فأين الشيطان منهم ؟ قال. ما يدرون خلق الشيطان أُم لا قالوا : من ولد آدم ؟ قال ﴿ لا يدرون خلق آدم أم لا ٣٠ ، وعن عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضيالله عنها فكلمتنا وبيننا وبينهاحجاب فقالت : ياعبيد مايمنعكمن زيارتنا ؟ قال : قولرسولالله صلى الله عليه وسلم . زر غبا تزدد حبا ، قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شي. رأيته منرسول الله صلىالله عليهوسلم قال : فبكت وقالت كل أمره كان عجبا ، أنان في ليلتي حتى مس جلده جلدى ثم قال . ذريني أتعبد لربي عزوجل ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك ومَا تأخر ؟ فقال . ويحك يابلال ومايمنعني أنَّ أبكي وقد أنزلالة تعالى على في هذهالليلة ﴿ إِنَّ فَخَلَقَالسَّمُواتُ وَالْأَرْضُواخَتَلَافَ الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ﴾ ثم قال . ويل لمن قرأها ولميتفكرً فيها ٣٠، فقيل للاوزاعي ماغاية التفكر فهن قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع أنّ رجلًا من أهل البصرة ركب إلى أم ذرّ - بعد موت أبي ذرّ -فَسَأَلُمَا عَنْ عَبَادة أَبِي ذَرّ فقالت كَان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بتول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فني كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ؛ ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال ذيم ، من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فإنه مثلى . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو ، وفى قوله تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ قال أمنع قلومهم التفكر فى أمرى . وعن أبى سعيدى الخدرى قال قال رسول الله صلى الله على وسلم ، أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يارسؤل الله وما حظها من العبادة ؟ قال ، النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائمه (٤) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقرقهم فى الدنيا عيش ولم تقرقهم فى الدنيا عيش ولم تقرقه فى الدنيا عين ، وكان لقان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول يالقان إنك تديم الجلوس وحدك فاد

⁽¹⁾ حديث ابن عباس: لمن قوما تفسكروا في اقة عزوجل فقال البي صلى الله عليه وسلم و تفسكروا في خاق الله ولاتتفسكروا في الله فإنسكم لن تقدروا قدره ، أخرجه أبو ندم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأسبهاني في البرغيب والترهيب من وجه آخر أسح منه ، ورواه الطبراني في الأوسط والبهتي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك . (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفسكرون فقال ومالسكم لاتتسكلمون ، فقالوا ، تقسكر في خلق الله ... الحديث هطاه : انطاقت أنا وعبيد بن عشمر في خلق الله ... الحديث ه رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٣) حديث عطاه : انطاقت أنا وعبيد بن عبر الحلى الله عائمة المحديث ... المحديث في تزول (لمن في خلق السموات والأرض) وقال « وبل لمن قرأها ولم يتفسكر فيها » تقدم في الصبر والفكر وأنه في صحيحان حيان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاه . (٤) حديث أبي سعيد الحدرى « أعطوا أعيد كم حظها من المبادة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشبخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقان : إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز ؛ الفكرة في فعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن على ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت ! قال : الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذماب عمرى وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سلَّيمان : عرَّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر . وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب ، وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الحنوف . وقال ابن عباس : التفكر في الحنير يدعو إلىالعمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه · ويروىأنّ الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أقبل كلام كل حكيم ولسكن أنظر إلى ممه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إنَّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعمالي على سطح في ليلة قراء ، فتفكر في ملكوتالسموات والارضوهو ينظر إلى الساءويبكي حتى وقع في دار جارله ، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص ، فلم ا نظر إلى داود رجم ووضع السيف وقال ، من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظنلة عز وجل ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبي ان رزقه . وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . وقالأيضا صحة النظر في الامور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأى سلامة من التفريط والندم: والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكاء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع (إحداها) الحكة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها في الشهوة . (والثالثة) القرّة وقوامها في الغضب ، ﴿ وَالرَّابِعَةُ ﴾ العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل العلساء في ألفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها.

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستشمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وإراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان (أحدهما) ان يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقاده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الآس فيميل بعمله إلى لميثار الآخرة اعتمادا على بجرّد قوله ، وهذا يسمى تقليدا ولايسمى معرفة . (والطريق الثانى) أن يعرف أنّ الآبق أولى بالإيثار ، ولا يمكن شم يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن

فإحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ولفارا ولفارا (١٥٠ – إحياء عليم الدين – ١)

وتأملا وتدبرا. أما التدبر والتأملوالتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر؛ فهى مختلفة المعانى وإن كان أصل المسمى واحد؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شىء واحدولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل علىالسيف من حيث هوقاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: الذكر ، لا اسم: الاعتبار . وأما النظر والتفكر: فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر ، وفائدة وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب ارسخ ولا تنمحى عن القلب . وفائدة التفكر: تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتهادى النتاج وتنهادى العلوم ويتهادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت . أوبالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف الى جما تستثمر العلوم ، كالذى لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعالها وتأليفها وإبقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها .

ومعرفة طربق الاستعال والاستثبار تارة تكون بنور إلهى فىالقلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ـ وذلك عزيز جدا ـ وقد تكون بالتعلم والمارسة وهو الآكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة بمارسته لصناعة التعبير فى الإيراد. فكم من إنسان بعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الآبق أولى بالإيثار وأن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين المتوصل فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين المتوصل بمعرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر: فهى العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة . العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأنّ الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ، ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى الجاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وإنّ أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فثاله ماذكرناه من أمر الآخرة ، فإنّ الفكر بعرّ فنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا

في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال ، إذكان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبةفها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فههنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب (وثانيتها) التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . (والثالثه) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . (والرابعة) تغير حال القلب عماكان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح القلب بحسب ما يتجدد له من الحال .

فكا يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضىء مها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفة بن المحرفة بن المعرفة التبعث النار فيرى ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كا يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا، فيفيعث نور المعرفة كا تنبعث النار فيرى من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذن ثمرة الفكر: العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر وبحاربه وأنه فياذا يتفكر لم يقدر عليه لأن بحارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. فعم نحن نجتهد في ضبط عاربه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك عبر عالم على علوم، تلك العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة. فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة. فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر.

بيار مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر بتعلق بالدين وقد بجرى فيما بتعلق بغير الدين ، وإيمـا غرضنا ما بتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . وفعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى ؛ فجميع أفـكار العبد : إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هـذين القسمين . وما يتعلق بالعبد : إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى ، أو فيما هو مكروه ، ولاحاجة إلى الفكر في غيرهذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى : إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكم وملكوته وجميع ما فى السموات والارض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الاقسام بمثال ، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر في معشوقه ۽ فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مصعفا للذة ومقويا لمحبته . وإن تفكر فى نفسه ؛ فيكون فكره فى صفاته النى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو فى الصفات التى تقرّبه منه وتحبيه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر فى شىء خارج عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حدّ العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ؛ ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره . فمحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهماكان تفكره محصورا فى هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى الحجة أصلا . فلنبدأ بالقسم الاؤل وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعمل المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحد بما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصى . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب ـ وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات .

والمعاصى: تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور (الأول) التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر (والثاني) التفكر في أنه إن كان مكروها في المحروم هل هو متصف به في الحال فيتركك في أنه إن كان مكروها في الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركك أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قارفه فيا مضى من الاحوال فيحتاح إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الاقسام زادت بجارى الفكر في الاقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات . فلنذكر في كلنوع مثالا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(النوع الآول: المعاصى) ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالآمس فيتداركها بالنرك والندم ؟ أو هو متعرّض لها فى نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر في اللسان ويقول إنه متمرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمهاراة والمهازحة والحنوض فيها لا يعنى ، إلى غير ذلك من المسكاره ، فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لايتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس الاصالحا تقيا ينكر عليه مهما تمكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له : فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز .

ويتفكر في سمعه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهى عن المنكر ؛

فهما كان ذلك فيتفكر في بطنه ؛ أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فإن ذلك مكروه عند الله ومقوى للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أوالشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائغة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (1) كما ورد الخبر به .

فهكذا يتفكر في أعضائه فني هذا الفدر كفاية عن الاستقصاء . فهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها .

وأما النوع الثانى: وهو الطاعات فينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف بؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فمقول مثلا:

إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى و تنظر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجر مبذلك عن معصيته فلم لا أفعله ؟

وكذلك يقول فى سمعه : إنى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءةوذكر ، فمالى أعطله وقد أفعم الله على به وأودعنيه لاشكره؟ فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟

وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول: إنى قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عنأحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة،وكلكلة طيبة فإنها صدقة .

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أنصدق بالمـال الفلاني فإنى مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأما إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المــال .

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنيط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حنى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

(وأما النوع الثالث: فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات: وهى استيلاء الشهوة والفضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظنوالغفلة والفروروغيرذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قابه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ، كاكان الاولون يحربون به أنفسهم. وإذا ادعت الحلم تعرض لفضب يناله من غيره مم يحربها فى كظم الغيظ وكذلك فى سائر الصفات. وهذا تفكر فى أنة هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ذكر ناها

⁽١) حديث و لمن الله لايقبل صلاء عبد في ثوبه درهم حرام ، أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

فى ربع المهلكات،فإذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الاسباب التى تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة .

كالو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عمل ببدنى وجارحتى وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على ، فهو الذى خلقنى وخلق جارحتى وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرّك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى ؟ فإذا أحس فى نفسه بالمكبر قرر على نفسه مافيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت ، وكمن كافر فى الحال يموت مقربا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكمن مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الحاتمة ؟

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر فى أن هذه صفة البهائم ، ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كال ذلك من صفات اللهوصفات الملائكة كالعلم والقدرة ، ولما اقصف به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد ، وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ، ثم يتفكر فى طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب . فن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما فى هذه الكتب .

(وأما النوع الرابع : وهو المنجيات) فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعاء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضعله . وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرناأسبا به وعلاماته . فليتفكر العبدكل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى ؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يشمرها إلا أفكار . فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فبها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قابه. ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشِرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينبعث له حال الندم . وإذا أرادأن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه _ على ماشرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالعذلك . وإذا أراد حال المحبة والشوق : فليتفكر في جلالالله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه ـكما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر ـ وإذا أرادحال الخوف : فلينظر أولا في ذنوبه الظاهرةوالباطنة ، ثم لينظرفي الموت وسكراته ، ثم فيمابعده منسؤال منكرونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ، ثم نى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم نى هول المحشر عند جمع الحلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير ، ثم في الصراط ودقته وحدّته . ثم في خطر الآمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أهوالالقيامة فىقلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبيعَ صور الزبانية الموكاين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدَّلوا جلودا غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن عجزجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا ، إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها . وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء : فلينظر إلى الجنة و نعيمها وأشجارها وأسهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم .

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الآحوال كتابًا مفردا يستمان به على تفصيل الفكر ، أمابذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآنبالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والاحوالوفيه شفاء للعالمين ، وفيهمايورث الخوف والرجاءوالصبر والشكر والمحبة والشوق وسائرالأحوال ، وفيهما يزجرعن سائر الصفات المذمومة ، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكرفيها مرة بعدأخرى ولومائة مرة ! فقراءة آية بتفكروفهم خيرمن ختمة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف في التأمل فيها ولوليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمةمنها أسرارا لاتنحصر ولايوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم (١١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطم فها نظره طول عمره . وشرحآحًاد الآيات والاخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم . إن روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك بجرىبه (٢) ، فإن مذ. الـكلمات جامعة حكم الاوّلين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية .

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملةوصفات العبد من حيثهي محبوبة عندالله تعالى أومكروهة . والمبتدئ ينبغى أن يكون مستغرق الوقت في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة والمقامات الشريفه وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أنهذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين وهو التنعم بالفكر فيجلال الله تعالىوجماله واستغراقالقلب بحيث يفني عن نفسه ، أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرقالهم بالمحبوب ؛كالعاشقالمستهتر عندلقا. الحبيب فإنهلا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الحرَّاص يدور فىالبوادى فلقيه الحسينبن منصور وقال : فيم أنت؟ قال : أدور في البوادى أصلح حالى فىالتوكل ، فقال الحسين : أفنيت عمر ك فى عمران باطنك فأين الفناء فىالتوحيد ؟ فالفناء فىالواحد الحق هو غاية مقصد الطالمين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الحروج عن العدّة فى النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى بجرى تهيئة المرأة وجهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرها ، في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجايا لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لايتحرك إلا خوفًا من الضرب وطمعا في الاجرة فدونك وإنعاب البدن بالاعمال الظاهرة ، فإنّ بينك و بين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الاعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوم آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعــالى وأحوالك المقرّبة إليه سبحانه وتعــالى . بلكل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها

⁽۱) حدیث : أنه صلی الله علیه وسلم أوتی جوامع السكلم . تقدم . (۲) حدیث د لمن روح القدس نفث فی روعی : أحب من أحبت فإنك مقارنه . . . الحدیث » تقدم غیر مه، .

جملة الصفات المهلـكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليهاكل يوم .

وبكفيه من المهلمكات النظر في عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهي : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المسال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الدوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعاء ، واعتدال الحوف الرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الاعمال ، وحسن الحلق مع الحلق ، وحب الله تعالى ، والحشوع له .

فهذه عشرون خصلة ؛ عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فهماكني من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ؛ فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباق ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة ؛ كأ كل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمرا. والثناء على النفس ، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الحلق في ترك الاس بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنّ أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جلة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعارة القلب وتطهيره . بلكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها . مثاله : العالم الورع ، فإنه لايخلو فى غالب الامر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لاينجو منها الاالصديقون ، فإنه إنكانكلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والنزين والتصنع ، وذلك من المهلكات . وإنّ ردكلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يردكلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إنّ غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو برد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهماكان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإبراد ، حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المشكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الالفاظ والتـكاف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلبإعلاء لدين الله . فإن كان فرحه بحسن ألفاظه و ثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشدّ فرحا واستبشارا بمن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة ، وربمـا ينتهى الأمر بأحل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء ، فيشق على أحدم أن يختلف بعض تلامــذته إلى غيره وإن كان يعــلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منــه في دينــه . وكل ذلك رشح الصفات المهلـكات المستُكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجَّاة منها وهو مغرور فيها ، وإنمــا ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له في سلامة العوام .

فن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخول والمدافعة للفتاوى مهما سئل.

فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تمبالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى . وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعدهذا ينبغى أن يتتى شياطين الإنس إذا قالوا لاتفعل هذا ؛ فإن هذا الباب لوفتح لاندرست العلوم من بين الحاق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام فإن الدين معتفن عنى ، فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ، ولومت لاتهدم أركان الإسلام فإن الدين مستفن عنى ، وأما أنا فلست مستفنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداه ذلك إلى اندراس العلم غيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لوحبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلق يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتفال بطلب العلم . فالعلم لايندرس مادام الشيطان يحبب إلى الحلق الرياسة ، والشيطان لايفتر عن عمله إلى يوم القيامة . بل ينتهض للنشر العلم أقوام لانصيب لمم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم (١١) . ولان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (١٦) ، فلا ينبغى أن يفتر العالم بهذه التبيسات فيشتفل بمخالطة الحلق حى يتربى فى قله حب الجاه والشام فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم ، حب الجاه والمال فى دين المره المسلم ١١) ، ولاينقلع حب الجاه من القلب زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال فى دين المره المسلم ١١) ، ولاينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعترال عن الناس والهرب من مخالطة م ورككل ما يزيد جاهه فى قاربهم .

فايكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى . فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيها يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لورآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا : إن هؤلاء لايؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ا فإن من عافي شيئا هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه : وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي وتحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها . فلم يحصل لنا من ممرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال الوكان هذا مذموما لمكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتناكنا كالعوام إذا متنا مات معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة الني تعرضنا لها لو تفكرنا . فنسأل الله قعالى أن يصلحنا ويصلح بها ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه بجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولايتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لايثبت ولايدوم ، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولاطريق له في كال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهده الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشؤشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على

 ⁽١) حديث « لمن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » تقدم .
 (٢) حديث « لمن الله يؤيدهذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » تقدم .
 (٢) حديث » تقدم .
 (٣) حديث « حب المسال والجاء ينبت النفاق في القلب . • الحديث » تقدم .

⁽٤) حديث ه ماذئبان جالمان أرسلا في زريبة غنم ... الحديث ، تقدم .

لدغ العقارب والحيات . فهذا القدركاف في التنبيه على بجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمسكروهة عنه ربه تعالى .

(القسم الثاني) الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه . وفيه مقامان : المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا بمـا منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولاتفكروا في ذات الله ، وذلك لأنّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مَّد البصر إليه _ إلا الصدّيقون ثم لايطيقون دوام النظر . بل سائر الجلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لايطيقه ألبتة، بل يختني نهارا وإنميا يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصدّيقين كال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولايطيق دوامه ، ويخشى على بصره لوأدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لايتعرَّض لمجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإنَّ أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذي ديرج به بعض العلماء وهو : أنَّ الله تعالى مقدِّس عن المسكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولاخارجه ولاه, متصل بالعالم ولاهو منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنـكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويدوعين وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم . فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمق من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندى لاوصف الإله ! اظنّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء . وهـذا لأن الإنسان لايعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فـكل مالايساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسًا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حق الله _ تمالى وتقدّس _ حتى يفهم العظمة . بل لوكان للذباب عقل وقيل له ليس لخالفك جناحان ولايد ولارجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال : كيف يكون خالق أنقص مني ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لايقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لايكون له مثلها وهو خالق ومصورى ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هــذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبياته : لاتخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عني بمـا يفهمون .

ولماكان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته خطر امن هذا الوجه اقتضى أدب الشرح وصلاح الحلق أن لا يتعرض لجارى الفكر فيه ، لكنا فعدل إلى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله وبجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فإنها تدل على جلاله وكبرياته وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته . فينظر إلى صفانه من آثار صفانه ، فإنا لا نطبق النظر إلى صفانه كا أنا نطبق النظر إلى الآرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لآن نور الآرض من آثار نور الشمس ، والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ماوإن كان لايقوم مقام النظر فى نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لاظلمة أشد من العدم ولانور أظهر من الوجود . ووجود الآشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام

نور الاجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى برى الشمس فيه و بمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولانهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الافعال . . فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم ، تفكروا فى خلق الله ولاتتفكروا فى ذات الله تعالى ، .

بيان كيفية النفكر في خلق الله تعالى

الحلم أن كل مانى الوجود بما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الدرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير بمكن لآنه لوكان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره . ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكرفيها وكم من الموجودات التي لانعلمها كا قال الله تعالى (و بخلق مالانعلمون _ سبحان الذي خلق الازواج كلها بما تنبت الارض ومن أنفسهم وبما لايعلمون ﴾ وقال (وننشئكم فيها لانعلمون ﴾ وإلى (مايعرف أصلها وجملتها ، ولايعرف تفصيلها) فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها. وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر أما الذي لاندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ، وبحال الفكر في هذه الاشياء بما يضيق ويغمض . فلنعدل إلى الافرب إلى الافهام وهي المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والارض ومابينهما فالسموات مشاهدة بمافيها من فالسموات مشاهدة بمكواكبها وشمسها وقرها وحيوانها ونبانها ، ومابين السهاء والارض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هي الاجناس المشاهدة من السموات والارض ومابينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينفسم إلى أفسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفانه وهيآ ته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك بجال الفكر . فلا تتحرّك ذرّة في السموات والارض من جماد ولانبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى ﴿ إِن فَي خَلَقَ السَّمُواتِ وَالْأَرْضُ وَاخْتَلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهِ اللَّهِ اللَّهُ للللَّهُ اللَّهُ اللَّاللَّاللَّلْمُ اللَّهُ اللّاللَّا اللَّهُ اللَّاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّل

(فن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة _ وأقرب شي وإليك نفسك _وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الاعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بهاكيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال (قتل الإنسان ماأكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقده ، ثم إذا شاء أفسره) وقال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنقشرون) وقال تعالى

﴿ أَلَمْ يَكُ نَطَفَةُ مِن مِنَى بَمِ كَانَ عَلَقَةَ فَخْلَقَ فَسَوَى ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلَقُكُمْ مِن ما مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه مِن فطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان مِن نطفة أمشاج ﴾ ثم ذكر :كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان مِن سهد للله مِن طين ، ثم جعلناه فطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ الآية .

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه ، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والتراثب وكيف جمع بين الذكر والآنثي وألتي الألفة والحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟ .

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نميا وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والاوتار واللحم ؟ ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق : الاعضاء الظاهرة ، فدور الرأس وشق السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ؟ ثم كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرثة والرحم والمثانة والامعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ا ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضاء بأقسام أخر ؛ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وميثة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطاء العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف مانى آحاد هذه الاعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الاعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من فطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدّرها بمقادير محتلفة وأشكال مختلفة فنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق و ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفى العظم زوائد عارجة منه وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشسكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولو لا المفاصل لتمذر علمه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من حسة وخمسين عظها محتلفة الاشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس -كما تراه ـ فنها سنة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الاعلى ، والنفية هي الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الانياب والاضراس والثنايا : ثم حمل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجتوفات مستديرات ، فيها تحريفات

وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرينخرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصمص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك . وبحموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الاطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لانه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة عالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم افظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فحلق في بدن الإنسان خمسهائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لونقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مختوص . وأمر الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر بجال في آحاد هذه الاجزاء ، ثم في جملة البدن فيكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة في السموات وكواكبها وماحكته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتهاع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكة وحكم بل هي أحكم ضورها وتفاوت مشارقها ومغاربها والمنها رفع سمكها فسؤاها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ك .

قارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لواجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أوبصرا أوعقلا أوقدرة أوعلما أوروحا أويخلقوا فيها عظها أوعرقا أوعصبا أوجلدا أوشعراهل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو فظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان اعظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن الصورة إنما تحت بالصبغ والقدلم واليد وبالقدرة وبالدلم وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من مناك الصورة إنما العسبة والقدلم واليد وبالقدرة وبالدلم وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من

فعل النقاش و لا خلقه بل هو من خلق غيره ، و إنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيسكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترىالنطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الاصلابوالتراثب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزبن ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها بجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة . وخلق لهـا الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعًا لحواسهًا ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الآفذاء عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليهاً . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوَّطها بصدفة الآذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجمل فيها تحر يفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدبفيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم . ثم رفع الانف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتحمنخريه وأودع فيه حاسه الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب . وزيَّن الفم بالاسنان لنكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدَّد رموسها وبيض لونهــا ، ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدرّ المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدّ منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيمات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسبها الاصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعضالناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص. فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء الما الدم ، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها . والمكلية تخدمها بجذب المائية عنها ، ثم تخرجه في طريق الصفراء عنها . والمكلية تخدمها بخدب المائية عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل : والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولها لتمتذ إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الاصابع الحس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الاربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الاربع وتفاوت الاربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد القبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها مايريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت بحرفة له . مغلق الاظفار على رموسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي تم خلق الاظفار على رموسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي

لا تتناولها الآنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذى هو أخس الآعضاء لوعدمه الإنسان وظهر به حكة لدكان أعجز الحلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتذ إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث، ولوكشف الغطاء والغشاء وامتذ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته ا فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

ثم انظر مع كال قدرته إلى تمـام رحمته فإنه لمـا ضاق الرحم عن الصبى لمـاكبركيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بمـا يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدى ؟ ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ، ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان إلى تمـام الحولين لانه في الحولين لايتغذى إلا باللبن في فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللئات اللينة المثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه ، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لمكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظركيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتمكامل ، فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ؛ إماكفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعمالى ﴿ هُلُ أَنَى عَلَى الإنسان حين من الدهر لم يمكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إناهديناه السبيل إما شاكرا وإماكفورا ﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب من يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه 1 ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته 1 ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صائعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره بحلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب بجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالفك وأنت غافل عن ذلك مشغول بطنك وفرجك ولا قدرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فينام ، وتشتهى فتجامع ، وتغضب فتقاتل ، والبهائم كاها تشاركك في معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والارض وعجائب الأفاق والانفس ؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين ، وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير ،

إذ لا قدرة للمهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض الني هي مقرّك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات ، أماالارض : فن آياته أن خلق الارض فراشاو مهادا وسلك فيها سبلا لجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكها ، وجعلها قارّة لا تشحرك ، وأرسى فيها الجبال أو تادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والآرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلو لا فامشوا في مناكبا ﴾ وقال تعالى ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وقد أكثر في كتابه العزيز بمن ذكر الأرض المتفكر في عجائها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كتابا المتوافي مناكبا ﴾ وقال تعالى ﴿ المناحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كتاباء وأموانا كم ،

فانظر إلى الارض وهي ميتة فإذا أنول عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسأل الانهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكم كثيرة لانحصي مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارابيح ، يفضل بعض في الاكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإن قلت : إنّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها؟ فمني كان في النواة بخلة مطوّقة لعناقيدالرطب؟ و متى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة . ثم افظر إلى أرض البوادى و فتش ظاهرها و باطنها فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنول عليها المناء اهترت و ربت وأنبتت من كارزوج بهيج الوانا مختلفة و نباتا متشابها و غير متشابه ، ثم لحكل واحد طعم و ربح ولون و شكل يخالف الآخر فافظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها و كثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أو دع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟ فهذا النبات يعذى و هذا يقوى و هذا وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يستحل وهذا إنا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يستحيل دما وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يستحيل دما وهذا يقوى البشر يفتر وهذا ينقى وهذا يقوى وهذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنجل تؤبر والكرم عنا الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا الذبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنجل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والمدغل ، و بعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض و بعضه بغرس الاغصان يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والمدغل ، و بعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض و بعضه بغرس الاغصان و بعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض و بعضه بغرس الاغصان و بعضه يركب في الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعة ومنافعه وأحواله و عجائبه لانقضت الايام في وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : فنى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فأنظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لاينطبع كالفيروزوج واللعل ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأوانى والآلات والنقود والحلى منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ا فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها بحيث يحتمع فيها الماء الصافى من المطر ، فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليمكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذي ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ .

(ومن آيانه) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى مايشي . وانقسام مايمشي : إلى مايمشي على رجلين ، وإلى مايمشي على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجؤ وإلى وحوش البر والبهائم الاهلية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها ، وكيف يمكن أن يستقصي ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت ـ وهي من صغار الحيوانات ـ في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فنرى العنسكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدرا ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلق اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسبًا هندسيًا ، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض و يحكم العقد على موضع النقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجمل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيدبادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فِيها بخيط آخر وبق منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله . وما من حيوان صغير ولاكبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم؟ أفيشك: و بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا بشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الحالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنمـا سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة . فعم إذا رأى حيوا با غريبا ولو دودا تجدّد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجمه ١ والإنسان أعجب الحيوا بات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الانعامالتي ألفها ونظر إلى أشـكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقه وأكانا لهبر فى ظعنهم وإقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لافدامهم وجعل (١٠ - لحياء علوم الدين - ١)

ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلابعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الامور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وندبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل بما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته .

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض ، التي هي قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض. ، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والارض بالإضافة إلى المساء كجزيرة صغيرة في نحر عظيم وبقية الارض مستورة بالمساء قال النبي صلى الله عليه وسلم « الارض في البحر كالاصطبل في الارض (١١) ، فانسب اصطبلا إلى جميع الارض. واعلم أن الارض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الارض ومافيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب مافيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب مانشاهده على وجه الارض ، كما أن سعته أضعاف سعة الارض ، ولعظم البحركان فيه من الحيوانات العظام ماترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فريمـا تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أنها حيوان . وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أوطير أو بقر أو إنسان إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لايمهد لها نظير فى البر : وقد ذكرت أوصافها فى بجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله الأواؤ ودوره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإيما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ماعداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ا ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرّف الملاحين مواود الرياح ومهابها ومواقيتها . ولايستقصى على الجلة عجائب صنعالله في البحر في بجلدات . وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر ا وهو كيفية قطره الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الاجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سربع القبول التقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربةماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا في أخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ا فالعجب من الآدى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر وينفل عن نعمة الله في شربة ماء في احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيافها ا فتأمل في عجائب المياء والآنهار والآبار والبحار ففيها مقمع للفكر وبحال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارشها معربة عن كال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغاتها قائلة لكل ذى لب ، أما تراني وترى صورتي وتركبي معربة عن كال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغاتها قائلة لكل ذى لب ، أما تراني وترى صورتي وتركبي

⁽١) حديث ، الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض ، تقدم ولم أجده .

وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى ؟ أنظن أنى كونت نفسى أوخلقى أحد من جنسى ؟ أو ماتستحي أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الإلهى الذى لاتدرك الابصارذاته ولاحركته ولااقصاله بمحل الخط . ثم ينفك قلبك عن جلالة صافعه .

وتقول النطقة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون : توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ، فينفش النقاش حدقتى وأجفانى وجبهتى وخدى وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولاترى داخل النطفة نقاشا ولاخارجها ، ولاداخل الرحم ولاخارجه ، ولاخبر منها للام ولا للاب ولا للنطفة ولا الرحم ! قما هذا النقاش بأعجب بمما فشاهده ينقش بالفلم صورة عجيبة لو نظرت إليها سرة أو سرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة و باطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة النطفة ومن غير اتصال بها لامن داخل ولامن خارج ؟ فإن كنت لاتتعجب من هذه العجائب ولاتفهم بها أنّ الذى صوّر ونقش وقدر لانظير له ولايساويه نقاش ولا مصوّر ، كما أنّ نقشه وصنعه لايساويه نقش وصنع _ فبين الفاعلين من المباينة والتباعد مابين الفعلين _ فإن كنت لا تتعجب من هذا البيان جدير بأن تتعجب من كل عجب ؟ فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من أنتبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسمد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرّات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الحلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكه ولا معقب لقضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السهاء وعدب الأرض : يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولايرى بالمين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد والطيور علقة فى جو السهاء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كا تسبح حبوانات البحر ، فإذا حرّك الله الهواء وجعله ربحا هابة فإن شاء جعله نشرابين يدى رحمته كا قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرياح لا المحلقة من فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد النهاء ، وإن شاء جعله عذا با على العصاة من خليقته كا قال تصالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ربحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء ، قالرق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغسه ﴾ فى المهاء في يعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه المهاء ، وكذلك كل بحوف فيه هواء لايغوص فى مع اطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعمالى السفن على وجه المهاء ، وكذلك كل بحوف فيه هواء لايغوص فى المهاء قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالذى يقع فى بشر فيتعلق بذيل رجل قوى بمتنع عن الهوى فى البشر . فالسفينة بمقعرها تنشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى المهاء ١ فسبحان من على المركب فالمسفينة بمقعرها تنشبث من عبر علاقة تشاهد وعقدة تشد .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من النيوم والرعود والبروق والامطار والثاوج والشهب والصواعق ؛ فهى عجائب مابين السهاء والارض ، وقد آشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ ومَا خَلَقنَا السَّمُواتُ وَالارض ومابينهما لاعبين ﴾ وهذا هو الذي بينهما . وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ والسحابالمسخر بين السماء والارض ﴾ وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظمن هذه الجملة إلاأن ترى المطربعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة ١ فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملاالاعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة والظر ببصير تك الباطنة لترى عجا ثب باطنها وغرا ثب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكرفيه إذلامطمع في استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جوصاف لاكدورة فيه وكيف يخلقهالله تعالى إذا شاً. ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسكله فى جو السهاء إلى أن يأذن الله في إرسال المـاء وتقطيع القشرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش المـاء على الارض ويرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ولاتتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطربق الذي رسم لهـا لاتعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولايتأخر المتقدّم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الاقلون والآخرون على أن يخلقوامنها قطرة أويعرفوا عددماينزل منهانىبلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولمكل حيوان فها من طيرُ ووحش وجميع الحشرات والدواب ، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلمي لابدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقف الفلاق 1 هذا مع مافى العقاد البرد الصلب من المساء اللطيف وفي تناثر الثاوج كالقطن المندوف من العجائب التي لاتحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالاحد من الخلق فيه شرك ولامدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته ، فيقول الجاهل المغرور إنمــا ينزل المــاءلانه تقيل بطبعه وإنمــاهذا سبب نزوله ، ويظنُّ أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : مامعني الطبيع وما الذي خلقه ؟ ومن الذي خلق المساء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى المساء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الانجحار شيئًا فشيئًا بحيث لابرى و لايشاهدحتي ينتشر في جميع أطراف الاوراق، فيغذى كل جزء من كل ورقة، ويجرى إليها في تجاويف عروق شعرية صغاو يروىمنه العرق الذي هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلكالدرقالكبير المندودف طول الورقة عروقصغار _ فـكأن الكبير نهر وما الشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرَج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرضالورقة .. فيصل المــاء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبق طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان المـاء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب في ا الذي سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى عالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت فلم لايحال عليه من أوَّل الامر؟ فنهاية الجامل بداية العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السعوات والأرض ومافيها من السكواكب: وهو الامركله، ومن أدرك السكل وفاته عجامجب السعوات فقد فانه السكل تحقيقا. فالارض والبحار والهواءوكل جسم سوى السعوات بالإضافة إلى السعوات قطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السعوات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى ﴿ والسماء ذات البروج ـ والسماء والطارق ـ والسماء

ذات الحبك _ والسهاء وما بناها ﴾ وكقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ وكقرله تعالى ﴿ فلاأقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ وقوله تعالى ﴿ والنجم إذا هوى _ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظم ﴾ فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الاؤلون والآخرون _ وما أقسم الله بها _ فا ظلك بما أقسم الله به وأحال الارزاق عليه وأصافها إليه فقال تعالى ﴿ وفي السهاء رزف كم وما توعدون ﴾ وأثني على المفكرين فيه فقال ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والارض ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويل لمن قرأ هذه الآية شم مسح بها سبلته (۱) ، أي تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال ﴿ وجعلنا السهاء سقفا محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال ﴿ وجعلنا السهاء سقفا محفوظا ﴾ وقال سبحانه ﴿ وبنينا فوق كم سبعا شدادا ﴾ وقال ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السهاء بناها رقع سمكها فسواها ﴾ فافظر إلى الملكوت الترى عجائب العز والجبروت . ولا تظنن أن منى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر أليه فترى زرقة السهاء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هوالمراد فلمه تعالى أبراهيم بقوله ﴿ وكذلك نرى أبراهيم ملكوت السموات والارض ﴾ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملكوالشهادة ، وماغاب عن الإبصار فيعبر عنه بالغيب والممكوت ، والله تعالى عالم النيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو ﴿ عالم الهيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلامن ارتضى من رسول ﴾ .

فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى يفتح لك أبو اب السهاء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر من الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلى ربى . وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون إلا بعد بجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التي هي مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السها والارض ، ثم السموات السبع بكواكها ، ثم المكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين ثم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والارض وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة طاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك ؛ تدعى معرفة ربك و تقول : قد عرفته وعرفت خلقه ففياذا أتفكر إلى ماذا ألطام ؟

فارفع الآن رأسك إلى السهاء وانظر فيها وفى كواكها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام ـ من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير في سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب ـ وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة المعلم والمعلم والأنسان ، ومامن صورة فى الأرض الا ولها مثال فى السهاء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدّة سنة ، ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب

⁽١) حديث و ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سيلته ، أي قوله تعالى ﴿ وَيَنْفُسَكُرُونَ فَي خَلَقَ السمواتُ والأرضُ ﴾ تقدم.

بسيرآخر سخرها له خالقها ولو لاطاوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت و لا طبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدرام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فافطر كيف جعل الله الليل الباسا والنوم سبانا والنهار معاشا ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل و إدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وافظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السهاء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والحريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السهاء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السهاء المستره المساء ومسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السهاء اشتد القيظ وإذا كانت فيها بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجرائها ، وإنماهذا تنبيه على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجلة أنه مامن كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة ، وأمرالسها ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ثم فوضعه من السهاء ، وقربه من وسط السهاء وبعده ، وقربه من الكواكب التي يمنهما في بحضه وبعده وقس على ذكر ناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جرء الاوفيه حكة بل حكم كثيرة ، وأمر السهاء عنه من بلا لا نسبة لعالم الآرض إلى عالم السهاء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه . وقس التفاوت الذي بينهما في أن يدركها و يدور بجوانبها ، وقداتفتي الناظرون على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفاوستين مرة ، وفي الأخبار مائة وعشمين مرة مثل الأرض ، مائة ونيفاوستين مرة ، وفي الأخبار مائة وعشمين مرة مثل الأرض ، مائة وعشمين مرة مثل الأرض ، وأبذا تعرف ارتفاعها و بعدها ؛ إذ للبعد صارت ترى صفارا ولذلك أشار الله تعالى المائم الما

وفى الآخبار: أن مابين كل سمام إلى الآخرى مسيرة خمسمائة عام (٣) فإذا كان مقدرا كوكبواحد مثل الآرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فصلاعن أن تدرك سرعتها، لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الآرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الآرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه. وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هل زالت الشمس ؟ ، فقال: لا ... نعم، فقال « كيف تقول لا ... نعم ، فقال: من حين قلت لاإلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام (٣) فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثلبت صورتها مع السع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الآرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لعين مع صغرها حتى تجلس على الآرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارثها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمدتر ونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم لا تنظر إليها بل انظر إلى بارثها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمدتر ونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم لا تنظر إليها بل انظر إلى بارثها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمدتر ونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

⁽۱) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حبن غربت نقال ه فى نار الله الحالمية لولا مانزعها من أمهالله لأحلكت ماعلى الأرض» وللعابرانى فى السكبير من حديث أبى أمامة « وكل بالهمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء لالا أحرقته » ،

⁽۲) حدیث « بین کل سماء المی سماء خسمائه عام » أخرجه الترمذی من روایة الحسن عن أبی هر برة وقال غرب ، قال و بروی عن أبوب و بولس بن عبید وعلی بن زید قالوا و لم یسم الحسن من أبی هر برة ، ورواه أبو الشیخ فی العظمة من روایة أبی نصرة عن أبی ذر ، (۳) حدیث : أنه قال لجبر بل « مل زالت الشمس؟ » هن أبی ذر ورجاله اتفال : کیف تقول لا ۲۰۰ لم ؟ فقال : من حین قلت : لا ، إلی أن قلت : لم ، سارت الشمس مسیرة خسمائة عام » لم أجد له أسلا .

كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منكأنك تدخل بيت غنى فتراه مزرققا بالصبغ بمؤها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وقصف حسنه طول عمرك ا وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدّث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه افماهذاالبيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت 1 ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذىانفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربكوبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملًا بطنك ، ولاتقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أوماثة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خباتث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لانفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وند يكون في بلدك من أغنيا. اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك . وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الدخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها ، فأما حال القصروالملك ألذى فى القصر فهى بمعول عنه وعنالتفكر فيه،بللاقدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائهاوبيتها إلى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته، فلا تعرف من السماء إلا ماتعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ماتعرف النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانعفيه،وأماأنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوتوتعرف من عجائبه ما الحلق غافلون عنه . ولنقبض عنان الـكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعماراطويلة لم نقدر على شرح،ماتفضل الله تعمالى علينا بمعرفته ، وكلماعرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ماعرفة جملة العلماء والأولياء ، وماعرفوه قايل نزر حقير بالإضافة إلىماعرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ماعرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وماعرفه الانبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائك المقربون كإسرافيل وجبربل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علمالله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمّى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب . فسبحان من عرّف عباده ماعرّف ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وَمَا أُوتَيْتُمْ مَنَ العَلْمُ لِلْا قَلْيُلا ﴾ .

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر في الجلق لا يحالة معرفة الحالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنعالله تعالى كانت معرفتك بحلاله وعظمته أتم . وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصفيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيا واحتراما ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره بريده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له في نفسك . فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصفيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر مارزق. فلنقتصر على ماذكرناه ولنصف إلى هذا مافصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنافي ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا. وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه و يكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. ومامن ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصرا النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الصلال، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب الناسع من ربع المنجيات والحمدلله وحده وصلواته على محمدوآ له وسلامه ، يتلوه كتابذكر الموت وما بعده ، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذي لم ترل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن صياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمزغ في التراب ، ومن ألس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا, وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للانقياء وموعدا في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للاشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى بوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والآرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسلما كثيرا .

أما بعد . فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبرمقرة وبطن الارض مستقرّه والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده أن لا يتكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولااستعداد إلا لاجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلاحوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قربب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الكيس من دان نفسه وعمل

1 معد الموت (۱) ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلاعند تجدّد ذكره على القلب ، ولايتجدّد ذكره إلاعند التذكر يالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ، ونحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بتى من العمر إلا القليل والحلق عنه غافلون (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

الشطر الأول

فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الآول) في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثانى) في ذكر طول الآمل وقصره . (الباب الثالث) في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . (الباب الرابع) في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . (الباب الخامس) في كلام المحتضرين من الخلفاء والآمراء والصالحين . (الباب السادس) في أفاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاء الميت في القبر إلى نفخة الصور (الباب الثامن) فيها عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

البـاب الأول: في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الدين قال الله فيهم (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملافيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون) ثم الناس : إما منهمك ، وإما تائب مبتدئ ، أوعارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزبده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والحشية فيني بنهام التوبة و وبها يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل بمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كرامة الموت والها يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم ، من كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢٠) ، فإن هذا ليس يكره الموت ولفاء يدخل هذا تحت قوله صلى الله لقصوره و تقصيره ، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سراه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت وابحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار وبالما العلين . كاروى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جميئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار وب العلين . كاروى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم العلمين . كاروى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم العلمين . كاروى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت ومابعده

⁽١) حديث « السكيس من دان نفسه وعمل لمما بعد الموت » تقدم غير حمة . الباب الآول : في ذكر الموت والترغيب فيه

أن الفقر أحب إلى من الذي والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الآشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال فني ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت النجافي عن الدنيا إذ ينغص عليه فعيمه ويكدر عليه صفولاته ، وكل ما يكذر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

بيان فضل ذكر الموت كيفها كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و أكثروا من ذكر هاذم اللذات (۱) ، ومعناه نفصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تحمل وقال صلى الله عليه وسلم و لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا (۱۱) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال و فعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة (۱۱) ، وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أنّ ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والففلة عن الموت ندعو الانهماك في شهوات الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم و تحفة المؤمن الموت (۱۱) ، وإنما قال هذا الآن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداهمه شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة في حقه . وقال صلى الله عليه وسلم و الموت كفارة لمحكل مسلم (۱۱) ، وأراد بهذا : المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من السانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدلس من المعاصى إلا باللم والصغائر ، فالموت يطهر ومنها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائمين ولم يتدلس من المعاصى إلا باللم والصغائر ، فالموت يطهر منها ويكفرها بعد اجتنابه فقال وسول الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك عنه قال رسول الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك عنه قال رسول الله عليه وسلم ويزهد في الدنيا (۱۱) ، وقال الله عليه الله عليه وسلم وكنى بالموت واعظا (۱۱) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولل المسجد فإذا قوم يتحتش و ويضحكون ، فقال و اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلون الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحتشون ويضحكون ، فقال و اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلون

⁽¹⁾ حديث « أكثروا من ذكرهاذم الذات » أخرجه النرمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (۲) حديث « لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ما أكاتم منها سمينا » أخرجه الببهتى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم . (۳) حديث ، قالت عائشة هل محشر مع الشهداء أحد 1 قال « نهم من ذكر الموت فى البوم و لليلة عصرين ممة » تقدم . (۱) حديث « تحقة المؤمن الموت » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والعابراني والحاكم من حديث » بديث عبد الله بن عمر ممسلا بسند حسن «

⁽ه) حديث و الموت كفارة لسكل مسلم » أخرجه أبونهم في الحلية والبيهق في الشعب والحطيب في التاريخ من حديث ألس قال ان العربي في سراج المربدين أنه حسن صحيح وضفه ابن الجوزى وقد جمت طرقه في جزء . (٦) حديث عطاء الخراساني : مر الني سلى الله عليه وسلم عجلس قد استعلاه الضحك فقال و دونوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت فإنه الدنيا في الموت فإنه أمالى الجلال من حديث أنس ولا يصبح . (٧) حديث أنس و أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضميف جدا . (٨) حديث و كني بالموت مفرق » يحمس الدوب ويزهد في الدنيا » أخرجه ابن أبي الدنيا في المروالدة من أخرجه الحارث بن أبي أساءة في مستده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضميف ، ورواه ابن أبي الدنيا في المروالدة من رواية أبي عبد الرحن الحبل مرسلا . (٩) حديث وكني بالموت واعظا » أخرجه العابراني والبيهق في الشعب من حديث عمار رواية أبي عبد الرحن الحبل مرسلا . (٩) حديث وكني بالموت واعظا » أخرجه العابراني والبيهق في المرحد .

ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (١١) ، وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال ، كيف ذكر صاحبكم للموت؟ ، قالوا : ماكنا نسكاد نسمعه يذكر المرت ١ قال ، فإن صاحبكم ليس هنالك (٢١) ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم _ عاشر عشرة _ فقال رجل من الانصار : من أكيس الناس وأكرم الناس بارسول الله ؟ فقال ، أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة (٢١) ، .

أما الآثار ؛ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا . وقال الربيــع بن خشم . ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت ، وكان يقول : لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربي سلا . وكتُب بعض الحكاء إلى رجل من إخوانه : يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمني فيها الموت فلا نجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه . وكان عمر بن عبد العزيز بجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأنّ بيناً يديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي : شيئان قطعًا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأنَّ قائلًا يقول ـ في وسط مسجد البصرة ـ قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين . وقال أشعث : كنا ندخل علىالحسن فإنمـا هو النار وأمرالآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعمال عنها : إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبافقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها لجاءت تشكر عائشة رضي الله عبها . وكان عيسي عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عافلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا . وقال عمر بن عبدالعزيز لبعض العلماء: عظني ؛ فقال : لست أوَّل خليفة تموت ؟ قال ؛ زدني ، قال : ليسمن آبائك أحد إلىآدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكي عمر لذلك وكان الربيع بنخشيم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلى ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه • وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبوسليمان الداراني : قلت لام هرون ، أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لوعصيت آدميا ما اشتهيت لفاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

بيــان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت ها1ل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل

⁽١) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لمل المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال و اذكروا الموت ... الحديث ، أخرجه إن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضيف . (١) حديث : ذكر عند رسوله الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحدنوا الثناء عليه فقال وكيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث » أخرجه ابن أبي الحنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن منول فذكره بلاغا بزيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أثبت النبي صلى الله عليه وسلم _ عاشرعهرة _ فقال رجل من الأنصار : من أكبس الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكاله بإسناد جيد .

شىء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإمه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن بؤثر فيه وعندذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مصوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم وبجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله ، وكيفية موته وتوهم صورته ، ونذكر نشاطه وتردده و تأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله . وأمه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله . وأمه كيف كان ينطق وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج ينطق وقد أكل الدود لسانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج المي عشر سنين . في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنبار ، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلنه كففلتهم وستكون عاقبته كافبتهم .

قال أبو الدردا. رضى الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألاترون أنسكم تجهزرن كل يوم غادياً أو رائماً إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الارض قد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع الاسباب .

فلازمة هذه الافسكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكرالموت فىالقلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعدله ويتجانى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فىالتحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال ، أنه لا بدله من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لو لا الموت لكنت بك مسرورا ولو لا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته ،

الباب الشاني

في طول الامل وفضيلة قصر الامل ، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيالة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر ، إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالمساء وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدرى مااسمك غدا ١١١ وروى على كرّم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال ، إن أشد ماأخاف عليكم خصلتان . اتباع الهوى وطول الأمل فأنه الحب للدنيا ، ثم قال ، ألاإن الله تعملى الدنيامن فأما اتباع الموى فإنه يصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ، ثم قال ، ألاإن الله يم وإذا أحب عبدا أعطاء الإيمان ، ألاإن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين و لا تكونوا

الباب الثاني في طول الأمل

⁽١) حديث : قال لعبد الله بن عمر « لذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ... الحديث » أخرجه ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث «كن في الدتياكأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل (١١) ، وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله صلىالله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال وأيها الناس أما تستحون من الله ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال وتجمعون مالا تأكلون وتأملونمالاتدركون وتبنون مالا تسكنون ٢١) ، وقال أبو سعيدا لخدرى : اشترىأسامة بنزيد منزيد ابن ثابت وليدة بمائة دينار ـ إلى شهر ـ فسمعت رسولالله صلىاللهعليهوسلم يقول . ألاتعجبون منأسامةالمشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلاظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أفيض ، ولا لفمت لقمة إلا ظننت أبىلاأسيغها حتى أغصبها من الموت ، ثم قال , يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي ببده ﴿ إن ماتوعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ (٣) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنرسول الله صلى الله عليه و-لم كان يخرج يهر يقالماء فيتمسخ بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن المساء منك قريب فيقول ، ما يدريني لعلى لاأبلغه 🕮 ، وروى أنه صلى الله عليه وسلمأخذ ثلاثة أعراد فغرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال ،هل تدرون ما هذا ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ، هذا الإنسان وهذا الآجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل (٠٠) ، وقال عليه السلام , مثل ابن آدم و إلى جنبه تسع و تسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم (٢٠، قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإنَّ أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظرا الأمل. قال عبدالله خط لنــا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعاً ، وخط وسطه خطا ، وخطخطوطا إلى جنب الحط ، وخطخطا حارجاً وقال . أندرون ما هذا ؟ . قلنا الله ورسوله أعلم ، قال . هذا الإنسان ــ للخط الذي فيالوسط ــ وهذا الاجل ـ عيط به ، وهذه الاعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الامل ـ يعني الخط الخط الخارج (١) ، وقال أنس : قال رسولالله صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن آدم ويتي معه اثنتان الحرص والأمل (١) « وفى رواية . وتشب معه اثنتان الحرص على المـال والحرص على العمر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وســلم

⁽¹⁾ حديث على « لمن أشد ماأخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث » بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جار بنجوه وكلاها ضعيف . (٢) حديث أم المنذر « أبها الناس أما تستجبون من الله تعالى » قالوا : وماذاك يارسول الله ؟ قال « تجمعون مالاتأكلون . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أبى سعيد : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار _ إلى شهر _ فسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ألانمجون من أسامة . . الحديث اخرجه ابن أبى الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مستد الشامين وأبو لهم في الحلية والبيهي في الشعب بند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قرب فيقول « مايدريني لعلى لاأبلنه » أخرجه ابن المبارك في الزحد وابن أبى الدنيا في قصر الأمل والإرار بسند ضعيف .

⁽ه) حديث: أنه أخذ ثلاثة أعواد فنرز عودا بين يديه ... الحديث ، أخرجا أحمد وابن أبى الدنيا في قصر الأمل والخفظ له والمهر.زى في الأمثال من رواية أبى المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدرى ولمسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا ، (٦) حديث: مثل ابن آدم ولمل جنبه تسم و تسعون منية ، الحمديث اخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن ، (٧) حديث ابن مسعود : خط أنا رسول الله على القة عليه وسلم خطا مربط وخط وسطه خطا ، الحمديث عبد الله على المحديث أنس : يهرم ابن آدم ويتقمعه انتان: الحرس والأمل على العمر » ورواه مسلم بلنظ اثناني وابن أبي الدنيا في الصر الأمل وفي رواية « ويشب معه انتان : الحرس على العمر » ورواه مسلم بلنظ اثناني وابن أبي الدنيا في الصر الأمل بالنظ الأول بإسناد صحيح ،

« نجا أول هذه الآمة باليقين والزهد ويهاك آخر هذه الآمة بالبخل والآمل !! ، وقيل بينها عيسى عليه السلام بهاس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الآرض ، فقال عيسى ؛ اللهما بزع منه الآمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى عن ذلك فقال : بينها أما أعمل إذقالت فلبث ساعة ، فقال عيسى عن ذلك فقال : بينها أما أعمل إذقالت لى نفسى ؛ إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ا فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى : والله لابد لله من ما بقيت ، فقمت إلى مسحاتى . وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكلم يحب أن يدخل الجنة ؟ ، قالوا : نعم يا رسول الله قال ، قصروا من الآمل و ثبتوا آجاله بين أبصار كم واستحيوا من الله حق الحياء " ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه ، اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ، "

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ؟ ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة مانه:أوا بعيشولاقامت بينهم الاسواق . وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشي المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغي أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحن : إنما عمرت الدنيـــا بقلة عقول أهلهـا ، وقال سلمـان الفارسي رضى الله عنه . ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني ، مؤمل الدنيــا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحكُمل.مفيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتي حتى أبكتني ، فراق الاحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول للطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بى أو إلى النسار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبيأوف بعد مرته في المنام فقلت : أي الاعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الامل . وقالالثوري : الزهد في الدنياقصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبَّاءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الآمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب، ثم دعا ربه فرد عليه الآمل، فرجع إلى الطعام والشراب، وقيل للحسن: ياأبا سعيد ألاتغسل قميصك ؟ فقال الامر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائمكم . وقال بعضهم أناكر جل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تصرب عنقه . وقال داود الطائى : لوأملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيماً ، وكيف أؤملذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ وحكى أنهجاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني ـ وفي طَرف كسائه شيء مصرور ـ فقال لهاستاذه : إيش هذا معك ؟فقال: لوزات دفعها إلى أخ لىوقال : أحب أن تفطر عليها ، فقال باشقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبق إلى الليل لاكلمتك أبداً ، قال : فأغلق في وجهى الباب ودخل . وقال عمرين عبد العزيزفي خطبته : إن لكل سفر زادالامحالة فتز ودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونواكن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولايطوان عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله مابسط. أمل من لايدرى لعله لايصبح بعد مسائه ولايمسى بعد صباحه ، وربماكانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا ، وإنمـا تقرّ عين من

⁽۱) حديث « نجأ أول هذه الأمة بالبقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيمة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ،

⁽٢) حديث الحسن « أكلسكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : بعم يارسول الله قال « تصروا من الأمل ١٠٠٠ الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه مكذا من حديث الحسن مرسلا . (٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : الهم أبي أعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه الهم أبي أعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي لمصناده ضعف وجهالة ولا أدرى من حوشب ..

وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لايداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمركم بمـا لاأنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغني والفقر والموازين فيه منصوبة ، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما . وكتب رجل إلى أخ له : أمابعد ؛ فإن الدنيا-لم والآخرة يقظة والمتوسط بينهماالموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام . وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء في جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام .. قبل أن يخطى ً . أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبى يقول ، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غيرسقم ، أبها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدّة ، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ماقد تقدّم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون ، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترثون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك و لا كثرة احتشادك ، أماعلمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا فظر لنفسه قبل رول الموت ، وقال أبوزكريا التيمي : بينها سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أني مجحر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بتي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنمـا يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليومالقيامة قبل الحسرة والندامة ، فبكى سليمان بكاء شديدا ، وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ، سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذي لاإله إلا هو أما بعد فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير في قرار باطن الأرض بعدظاهرها فيأتيك منكر ونكيرفيقعدانكوبنتهرانك فإن يكن الله معك فلا يأس ولا وحشة ولافافة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تباغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الارضمن أهلهاوالسموات منسكانها فباحت الاسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فمكم من مفتضح ومستور وكم من هالكوناج وكممن معذبومرحوم ، فياليت شعرى ماحالى وحالك يومئذ فني هذا ما هدم اللذاتُوأسلي عنالشهوات وقصرعن الأمل وأيقظ النائمينوحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهمامن قلوبالمتقين ، فإنمــا نحن به وله والسلام وخطب عمر بن عبد العزيز ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن المُم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فحابوشتي غدا عبدأخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجُنته التي عرضها السموات والارض ، و إنما يكون الامان غدا لمن خاف واتتي وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسمادة ، ألا ترون أنسكم في أسلاب الهالسكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنسكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عزوجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضمونه فى بطن صدع من الارض غير موسد ولايمهد ،

قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب، وايم اللهإني لاقول مقالتي هذه ولاأعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر بما أعلم من نفسي ، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله . ووضع كه على وجهه وجعل ببكى حتى بلت دموعه لحيته وماعاد إلى مجلسه حتىمات . وقال القعقاع بن حكمم : قداستعددت للموت منذ اللائين سنة فلو أتاني ماأحببت الخيرشي. عنشي. . وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجدًا لكوفة يقول : أنافي هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ماأس ته بشيءولانهيته عن شيء ، ولالي على أحد شيء ولا لاحد عندي شيء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن على الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفةوخرج فيهاداود الطائي فانتبذفقعد ناحيةوهي تدفن ، لجئت فقعدت قريبًا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أملهضعف عمله وكل ماهوآت قريب واعلم باأخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشتوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على مايخلفون ويفرحون بمــا يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند الفضاة يختصمون ، وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمدين أبي توبة فقال لي تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بـ كم هذه الصلاة لم أصل بـ كم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى فعوذ بالله من طول الامل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فسكم من عامر موثن عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظمن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد النقوى ، إنمـا الدنياكني، ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصافعه ومغناه ، إن الدنيا لاتسر بقدر ماتضر إنها تسر قليلا وتحزن طويلاً . وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته : أين الوضاء الحسنة وجومهم المعجبون بشبابهم؟ أينالملوك الذينبنوا المدائن وحصنرهابالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلنات الفبور الوجا الوحا ثم النجا النجا ا

ببان السبب في طول الامل وعلاجه

اعلم أنَّ طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدا ، الوق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوحمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاعلى هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه ، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال : الآيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الصنيعة ، أو ترجع من هذه السفرة، أو شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه العدو الذي يشمت بك فلا يزال تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلن بإنمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج

يؤخر يوما بمد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لايحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لايدرى أنّ الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخا ، ويظنّ أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها .

فيا قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، أحبب من أحبب ت أحبب ت فإنك مفارقه (١) . .

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يموّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدّوا لسكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ، ولايدرى أنّ ذلك غير بعيد ، ولو وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أنّ الموت يكون بين يديه ولايقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدا يظن أنه يشيع جنازته ، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد ولم اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدرى فتسويفه جهل محض .

وإذا عرفت أنَّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الآولين والآخرين علاجه ؟ ولاعلاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير وفإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الآرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكذر منعص ، فكيف يفرح بها أويترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الافران والاشكال وأبهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعلما فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان مفرور ابطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا . فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ؟ وكيف تتفتت عظامها ؟ وليتفكر ان الدود يبدأ بحدقته اليمني أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

⁽۱) حديث « أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث ، تقدم غير صرة .
(۱) حديث « أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث ، تقدم غير صرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الاكبر . فأمثال هذه الافكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أنّ الناس فى ذلك يتفاوتون ؛ فنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهوالذى يحب الدنيا حباشديدا قال رسول الله على الله عليه وسلم والشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم (١١) ، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ماوراءها فلا يقدّر لنفسه وجودا فى عام قابل ، ولكن هذا يستعد فى الصيف الشتاء وفى الشتاء الصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ، ومنهم من يرجع أمله بأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولا فى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا انهاره وأما الغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد فإن يكن غد من الجالكم فستأتى فيه أرزافكم مع أجالكم وإن لم يكن من أجالكم فلا تهتموا الآجال غيركم . ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كال نبيا صلى الله عليه وسلم وإعبد الله إذا أصبحت فلاتحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلاتحدث نفسك بالساء وإذا أمسيت فلاتحدث نفسك بالساء ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهوينتظره ، وهذا الإنسان هوالذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الاسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلا فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الاسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلا وينتفت يمينا وشمالا فقائل : ما هذا؟ قال : أنظر ملك الموت من أى جهة يأتيني .

فهذه مرا اب الناس ولحكل درجات عندالله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فر إن الله لا يظلم مثقال ذرة ـ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لن فرغ القلب عن الفد وما يكون فيه . فثل هذا إذا مات سعد وغم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فلموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن فلموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لمكل نفس أمهلت فيه .

⁽١) حديث « الفييخ شاب في حب الدنيا وأن التفت ترقوناه من السكبر لالا الدين انقوا وقليل ماهم » لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أفي هريرة « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال » . (٢) حديث سؤاله لماذ عن حقيقة لم يحاله فقسال : ماخطوت خطوة لالا ظننت أنى لاأتبعها أخرى » أخرجه أبو تسيم في الحلية من حديث أس وهو ضعف .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعـلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد ويلتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد الذي يقدم إلى شهر أوسنة ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فن انتظر بحي. الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسىما ورا. المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منهااليوم الذي مضى ، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينتظر أحدكم من الدنياإلا غنى مطغبا أو فقرا منسيا أو مرضامفسدا أو هرما مقيداأومونا بجهزا أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر (١) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه . اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هر.ك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل مو تُك (٢) وقال صلى الله عليه وسلم . نعمتان مغبون فيهما كثير منالناس: الصحة والفراغ (٢٠) أى أنه لايغتمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالها ، وقال صلى الله عليه وسلم . من حافأدلج ومن أدلج بلغ المنزل. الا إن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة (١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها وجاء الموت بمـا فيه (°) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع أتشكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة (٦٠) ، وقال أبو هريرة : قال رســول الله صلى الله عليه وســلم . أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد (٧) ، وقال ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال . مابتي من الدنيا إلاكما بتي من يومنا هذا في مثل مامضي منه (٨) وقال صلى الله عليه وسلم . مثل الدنياكثيل ثوب شق من أوَّله إلى آخره فبق متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع (١) وقال جابر . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول . صبحتكم ومسيتكم , بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرب بين أصبعيه ــ (١٠) ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رســول الله صلى الله عليه وســلم ﴿ فَمَن يَرِدُ الله أن يهــديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال . إن النور إذا دخل الصدرانفسح ، فقيل يارسول الله على لذلك من علامة تعرف؟

⁽٧) حديث أبي هريرة ﴿ أَنَا النَّذِيرِ ، والموت المغيرِ ، والسَّاعَة الموعد » أَخْرَجِه ابن أبي الدُّنيا في تصر الأمل وأبو القاسم البنوى بإسناد فيه لين .

⁽۸) حدیث ابن عمر : خرج رسول الله صلی الله علیه وسلم والشمس علی أطراف السعف فقال « مابق من الدنیا الا مثل مابق من بومنا هذا فی مثل مامضی منه » أخرجه ابن أبی الدنیا فیه باسناد حسن والتردذی نحوه من حدیث أبی سدید وحسنه (۹) حدیث « مثل الدنیا مثل ثوب شق من أوله الم آخره . . . الحدیث » أخرجه ابن أبی الدنیا فیه من حدیث أس ولایسم (۱۰) حدیث جابر : كان اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ۰۰۰ الحدیث » أخرجه مسلم وابن أبی الدنیا فی مقدم الأمل و الفنظ له .

قال . نعم التجانى عن دار الغرور والإمابة إلى دار الخلود والاستعداد المبوت قبل نزوله (١١) ، وقال السدى ﴿ الذي خُلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن/ استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا . وقال حذيفة ؛ مامنصباح ولامساء إلا ومنادى ينادى : أيها الناسالرحيلالرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى ﴿ إِمَا لَإِحدَى الكَبِرِ نَذَيْرًا لَلْبَشْرِ لَمْنَ شَاءَ مَنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أُو يَتَأْخُر ﴾ في الموت. وقال سحيم ــ مولى بنى تميم ـ جلست إلى عامر بن عبد الله و هو يصلى فأوجر في صلانه ثم أقبل على فقاّل ؛ أرحنى بحاجتك فإنى أبادر ، قلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحمك الله ، قال : فقمت عنه وقام إلى صلاته . ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني ا إنما أبادر خروج نفسي : قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ؛ ويجك بادرى قبل أن يأتيك الامر ؛ ويحك بادرى قبل أن يأتيك الامر احتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولايراني . وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة فإنما مي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلىالله عز وجل ، رحم الله امرأ فظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ا ثم قرأ هذه الآية ﴿ [انمـا نعدّ لهم عدًا ﴾ يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرُك . واجتهد أبو موسى الاشعرى قبل موته اجتهاداً شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس بجراها أخرجت جميع ماعندها والذي بق من أحلى أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامرأته : شدى رحَلك فليس على جهنم معبرة . وقال بعض الخلفاء على منبره : عاد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدّوا للموتفقد أظلـكم وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإنغاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصرالمدة ، وإن غائبا يحدُّ به الجديدان الليلوالنهار لحرىبسرعة الآوية ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لافضل العدّة ، فالتق عند ربه من ناصح نفسه وقدّم تو بته رغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوّقها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذى غفلة أو يكون عمر، عليه حجة وأن ترديه أيامه إلىشقوة ، جعلنا الله وإياكم بمن لاتبطره نعمة ولاتقصربه عنطاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الحتير دائمًا فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين في قوله تصالى (فتنتم أنفسكم) قال بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال بالتوبة (وارتبتم) قال الشيطان وقال الحسن: (وارتبتم) قال الشيطان وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام فلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولايلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتهم. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهوضيف وماله عارية والصنيف مرتحل والعارية مؤداة ، وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال رحبا بكم وأهلاحياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الآذن وتخرجوه من هذه الآذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا

 ⁽١) حديث ابن مسعود: تلا رسول الله مسلى الله عليه وسلم (فن يرد الله أن يهديه يصرح صدره للاسلام) فقال
 « لمن النور لذا دخل القلب انفسح ٠٠٠ الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم .

ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنه كم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشاً واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولوق بالأرض واجتهد فى العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتنى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو علىذلك (۱) . وقال عاصم الآحول : قال لى فضيل الرقاشي .. وأنا سائله _ يا هذا لا يشغلنك كثرة النباس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لاشيء ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لا سيا وهو فى كل نفس بصده كما قال بعض الحكاء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك . وقال لقمان لا بنه . يا ننى أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لوكان فى أعظم اللذات وأطيب بحالس اللهو فا ننظر أن يدخل عليه جندى فيضر به خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وأطيب بحالس اللهو فا ننظر أن يدخل عليه جندى فيضر به خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع و ، وعنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الآلم في مكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التى أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذى يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالآلم ، فإذا كان فيه الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الآجراء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الآلم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم ذلك الآلم فلا يصيب الروح إلا بعض الآلم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم ذلك الآلم وما أشده ا

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماقالبدن إلاوقد حلبه الآلم فلوأصابته شوكة فالآلم الذي يجده إنما يجرى في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لآن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا و باطنا إلا و تصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلاتسأل عن كربه وألمه ؛ حتى قالوا: إن الموت الاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض الانقطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لمسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه الأن الكرب قد بالغ فيه وقصاعد على قلبه ، وبلغ كل

⁽۱) حديث أبي عبيدة للباجي ؛ دخلنا على الحسنَ في مرضه الذي مات فيه تقال مرسباً بكم ...الحديث .أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهدّ كل قوّة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة .

أماالعقل فقدغشيه وشوشه . وأمااللسان فقد أبكه ، وأماالاطراف فقد ضعفها . ويود لوقدر علىالاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة ولكنه لايقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذى موأصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالالم منتشر في داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص الشفتان ، ويتقلص السفتان ،

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ١ ولوكان المجذوب عرقا واحدا الكان ألمه عظيما فكيف والججذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا تدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنياوأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقبل توبة العبد مالم يغرغر (١) ، وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول • اللهم هؤن على محمد سكرات الموت (١) ، والناس إنمـا لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنمــا تدرك بنور النبوّة والولاية ، ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياءُ من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواربين ادعوا الله تعـالي أن يهوّن على هذه السكرة ـ يعني الموت ـ فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت ، وروى أن نفرا من اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لودعوتم الله تعالى أن يخرج المكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجودقد خرج من قبر من القبور فقال : ياقوم ماأردتم منى لقد ذقت الموت منذخمسين سنة ماسكنت مرارة الموت من قلى . وقالت عائشة رضي الله عنها : لاأغيط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول . اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والآنامل . اللهم فأعنى على الموت وموّنه على ^(٣) ، وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر تلثمائة ضربة بالسيف (¹¹⁾ ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدَّته فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف 😬 ، ودخل صلى الله عليه وسلمُ على مريض ثم قال . إنى أعلم مايلتي مامنه عرق إلاويألم للموت على حدته ١٦١ ، وكان على كرّم الله وجُهه يحض علىالقتالويقول:

⁽١) حديث « لمن الله يقبل توبة العبد مالم ينرغر » أخرجه الترمذي وحسنه وآبن ماجه من حديث ابن عمر .

⁽۲) حديث كان يقول و الهيم مون على محمد سكرات الموت » تقدم . (۳) حديث كان يقول و الهيم لمنك تأخذ الروح من بين المصب والفصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الموت من حديث صمعة بن غيلان الجهني وهو معضل سقط منه الصحابي والمتابيي . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه اتمال هم قدر ثلثات خربة بالسيف » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه مكذا مرسلا ورجاله ثقات . (٥) حديث : سئل عن الموت وشدته فقال و ان أهون الموت عن حوسب مرسلا . (٦) حديث : فقال و ان أهون الموت عن مربض فقال و أني الأعلم ما يلتي ما منه عرق الا ويألم للموت على حدته » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند دخل على مربض فقال و المربض والسكفارات من رواية عبيد بن ممير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات .

إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الاوزاعي : بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره . وقال شدّاد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور ، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بتى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة ، وإذا كان للسكافر معروف لم يجز به هةِن عليه في الموت ليستكل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده؟ فقال : كأنّ السموات مطبقة على الأرض وكأنّ نفسي يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر (١) ، وروى عن مكتول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لو أنّ شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لمـاتوا بإذن الله تعـالى لأن فى كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات (٢١) ، ويروى ، لو أنّ قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنياكلها لذابت (٣٦ ، وروى أنّ إبراهيم عليه السلام لمــا مات قالـالله تعــالى له :كيف وجدت الموت ياخليلي قال : كسفود جعل في صوف رطب ثم جذَّب . فقال : أما إنا قد هؤنا عليك . وروى عن موسى عليه السلام أنه لمنا صارت روحه إلى الله تعنالي قال له ربه : ياموسي كيف وجدت الموت ، قال : وجدت نفسي كالعصفور حين يقلي على المقلي لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وروى عنه أنه قال : وجدت نفسيكشاة حية تسلخ بيد القصاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده في المساء ثم بمسح بها وجهه ويقول و اللهم هؤن على سكرات الموت (١) ، وفاطمة رضي الله عنها تقول : واكرباه لكربك يَاأبتاه 1 وهو يقول « لاكرب على أبيك بعد اليوم (*) ، وقال عمر رضى الله عنه الكعب الاحبار ياكعب حدثنا عن الموت؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إنّ الموتكغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقي ماأبقي وقال الني صلى الله عليه وسلم . إنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة (٦) . .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه . فما حالنا ونحن المنهمكون فىالمعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى فإن دواهى الموت ثلاث :

(الأولى) شدة النزع كما ذكر ناه.

⁽۱) حديث « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر» أخرجه أحمد من حديث عائشة باسناد سحيح قال ه وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمى « موت الفجأة أخذة أسف » (۲) حديث مكحول « لو أن شعرة من شعر اليت وضمت على أهل السموات والأرض لما لوا . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه « لو أن ألم شعرة وزاد « وأن في يوم القيامة لتسمين هر لا أدناها هولا يضاعف على الموت سسمين ألف ضعف » وأبو ميسرة هو همرو بن شر حبيل والحديث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث « لوأن قطرة من الموت وضعت على جال الدنيا كلها لذابت » في أحد في أسلا ولعل المصنف لم يورده جديثا فا فه قال : ويروى ، (٤) حديث : لمنه كان عنده قدح من ماه هند الموت ، شفق عليه من حديث عائشة .

⁽ه) حديث : لمن فاطمة قالت وأكرباء لسكرباى ياأبت ٠٠٠ الحديث · أخرجه البغارى من حديث أنس باقظ : واكرب أبتاء ، وفي رواية لابن خزيمة : واكرباء . . (٦) حديث « لمن العبد ليمالج كرب الموت وسكرات الموت ولمن مفاصله ليسلم بعضها على بعض . . الحديث » رويناء في الأربعير الأبي عدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالمه .

(الدهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب ؛ فلو رأى صورته الني يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال فقة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال الملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطبق ذلك ، قال : بلي ، قال المؤلك الموت عنه أعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الربح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدعان ؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لمكان حسبه : وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنّ داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأمرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لأن جاء داود ليلة بين منه عناء ؟ لجاء داود فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت ورام دارك الله ناملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحسمي علي سرير ملكي ، إذ بدا لي ملك الموت فرال مني كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسي إليه ، فياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ! فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون ، فقد حكى ملكي ، إذ بدا لي ملك الموت دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآما في منامه ليلة التنفس عليه بقية عمره ! فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت فقال ؛ من أدخلك دارى ؟ فقال ؛ أدخلنها ربها ! فقال : أنا ربها ، فقال : أدخلنها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : فعم ، فأعرض عنى ، فأعرض ثم التفت فإذا هوبشا ب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطبب ريحه ، فقال : ياملك الموت ، لو لم بلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

و منها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه البكاتبان عمله ، فإن كان مطيعا قالا له : جزاك الله عنا خيرا فرب بجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضر تنا ، وإن كان فاجرا قالا له : لاجزاك الله عنا خيرا فرب بجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضر تنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم منالنار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموتباً حد البشريين : إما أبشر ياعدو الله بالخنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الآلباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنياً حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم

⁽۱) حديث أبي هريرة « لمن داود كان رجلاغيورا... الحديث أخرجه أحمد باسنادجيد نحوه وابن أبي الدنيافي كتاب الموت بافظه (۲) حديث « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوظ « لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره الى الجنة أم لملى النار » وفي

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلنا نكره الموت قال « ليس ذاك بذاك إن الؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقا. ه الله وروى أن حذيفة بن البمان قال لابن مسعود ـ. وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أىساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحراء فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على ألىهريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشدد 1 ثم بكي أبوهريرة وقال : والله ما أبكي حزنا علىالدنيا ولاجزعا منفرافكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من رقي بجنة أم بنار . وروى في الحديث عن النبي صلىالله عليه وسلم أنه قال . إن الله إذارضي عن عبد قال : ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لاريحه ، حسى منعمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسهائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كلواحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده علىرأسه ثم صرخ ، قال فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فسكان معصوما (٢) ، وقال الحسن : لاراحة للمؤمن الإفىلقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد ــ عند الموت : ماتشتهي ؟ قال: فظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ! فرفع طرفه إليه تم قال : يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى البار أو إلى الجنة وقال محمد بن واسع ـ عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام ! إلى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يهتى فى النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . فخوف سو. الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معني سوء الحاتمة وشدة خوفالعارفين منه في كتاب الحوف والرجا.وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نطول بذكره وإعادته .

بيان مايستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ! ومن لسانه أن يـكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يـكون حسن الظن بالله تعالى .

(أما الصورة) فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينة ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به (٢) » .

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهي علامة الخير ، قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه

⁼ رواية « حرام على نفس أن تخرج من الدنبا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل البار » وفي الصحيحين من حديث عبادة بن المساعت ما يعمهد لذلك « لمن المؤمن لذا حضره الموت بعمر برضوان الله وكراعته وان المسكافر لذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ١٠٠٠ علديث » . . (١) حديث « من أحب لغاء الله أحب الله لقاءه ومن كره الله لقاءه . . . الحديث متنق عليه من حديث عبادة بن الصاحت . (٢) حديث « لمن الله لذا رضي على عبده قال : يا لك الموت اذهب لمن فلان فأتني بروحه الأرعمه . . . الحديث ، أخرجه إن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أبي الدارى بإسناد سحيت « لمذا حضر الميت أتته في أول الحديث برفعه وفي آخره مادل على أنه مراوع والنمائي من حديث أبي هريرة بإسناد سحيت « لمذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي راضية عنك لهلي روح الله ورمجان ورب راض غير غضبان . . الحديث » . هو ردفت عيناه . . . الحديث » أخرجه الترمذي الحكم في نوادر (٢) حديث سلمان ولا يصح .

وسلم و لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله (١١) ، وفي رواية حذيفة و فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا (٢) ، وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و من مات وهو يعلم أن لاإله إلاالله دخل الجنة (٣) ، وقال عبيدالله وهو يشهد ، وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه و لا إله إلا الله ، فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلاكانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم برون ما لا ترون ولقنوهم : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلم ه فلم يجد فيه شيئا ، ففك لحييه فوجد طرف اسانه لاصقا بحنكه يقول : لا إله إلا الله ، فغفر له بكلمة الإخلاص ١٤) .

وينبغى للملةن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف ، فر بمــا لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك و يؤدى إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكامة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الحاتمة .

و إنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شىء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فىحقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الـكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الآمر فىخطر المشيئة ، فإن بجر د حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظنّ) فهو مستحب في هذا الوقت ـ وقد ذكر نا ذلك في كتاب الرجاء ـ وقد وردت الآخبار بفضل حسن الظنّ بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظلك بالله ؟ قال : أغر قتني ذنوب لي رأشرفت على هلمكة ولكني أرجو رحمة ربي ! فيكبر واثلة وكبر أهل البيد بتكبيره وقال : الله أكبر سممت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، يقول الله تعالى أنا ـ ند ظنّ عبدى في فليظن بي ما شاه ، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال ، كيف نجدك ، قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي برجو وآمنه من الذي يخاف (١١ ، وقال ثابت البناني . كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا و تقول له . يا بني إن لك بوما فاذكر بومك ، فلما نزل به أمرالله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له : يابني قد كنت أحدرك مصر عك هذا وأقول إن المذيوما ، فنال : يا أمه إن لى ربا كثير عليه أمه وجعلت تقول له : يابني قد كنت أحدرك مصر عك هذا وأقول إن المذيوما ، فنال : يا أمه إن لى ربا كثير وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقال له أمه : يا بني توصى بشيء ؟ قال : أمم ، خاتمي لا تسلينيه فإن فيه وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقال : أين يذهب بي ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتي أن أذهب إلى من ذكر الله تمال فلمل فلم الله إن المن مقال أله أبي المعتمر حدّ تني بالرخص لملي ألقي لا يرى الحير المناحسن الظنّ به وكانوا يستحبرن أن يذكر للعبد محاس عمله عند موته لمكي يحسن ظنه بربه .

⁽۱) حديث ه لفنوا موناكم: لا لله لملا الله ، تقدم. (۲) حديث حذيفة: فأنها نهدم ما المها : تقدم. (۳) حديث : من مات وهو يعلم أن لالله لملا الله دخل الجنة . تقدم . (٤) حديث أبي هريرة : حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ٠٠٠ الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهتي في الشعب ولمسناده جيد لملا أن في رواية المبيهق رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيي بن طلحة وهو ضعيف .

^(•) حديث : دخل وأثلة بن الأسقم على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ٢ وفيه « يقول الله أنا هند ظن هبدى بى فليطن بي ماشاء » أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهق في الشعب به جيما .

⁽٦) حديث : دخل على شاب و هو يموت فقال مركيف تجدك ؟ ٥ فقال : أرحو الله وأخاف ذنوبي .. الحديث ، تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ــ واسمه عزرائيل ولهعينان عين في وجهه وعين في قفاه ــ فقال : ياملك الموت ما تصنع . إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتق الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين ، وقال : قد دحيت له الارض فترك عمثل الطشت ببن يديه يتناول منها ما يشاء ، قال و و يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سلمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالى لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا و ندع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعـــــلم منك ا إنمـا هي صحف أو كتب تلق إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان مَلك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه _ بعد مرات_ وكذلك طلب دابة فأتىبها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملاه كبرا . ثم سار وسارت معه الحيول وهو لاينظر إلى الناس كبرا لجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمر عظيما ! قال إن لى إليك حاجة قال اصبر حتى أنول قال لا الآن ، فقهره على لجمام دابته فقال اذكرها 1 قال ، هو سر ، فأدنى له رأسه فسارً: وقال ، أنا ملك الموت 1 فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأفضى حاجتي وأودعهم ، قال لا والله لانرى أهلك وثقلك أبدا 1 فقبض روحه فخرّكأنه خشبة ، ثم معنى فلني عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لى إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فسارًه وقال أنا ملك الموت 1 فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ماكان فى الأرض غائب أحب إلى أن ألقاء منك ! فقال ملك الموت افض حاجتك التي خرجت لهـا ، فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعمالي ؛ قال فاختر على أى حال شئت أن أفبض روحك ؟ فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إلى أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أنوضاً وأصلى ثم اقبض روحي وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى جمع رجل من بنى إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أرونى أصناف أموالى ؟ فأنى بشيءكثير من الحيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أما بخارج من منزلك حتى أفرّق ببن روحك وبدنك ! قال فالمهلة حتى أورقه قال هيهات انقطمت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه . وروى أنّ رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسامن غلبانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الآخرى وهم يأكلون فلمــا فرغوا قال يا نفس أنسمي لسنين فقد جمت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عقه مخلاة يتشبه بالمساكين ، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه ،فراب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال فعم فأخيروه بذلك فقال ملا فعلتم به وفعلتم ، فقرع الباب قرعة أشدٌ من الأولى ، فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت ، فلما سموره ألق عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخديم ، فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به أحداً ؟ فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صافع ، فإنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لدنك الله من مال ١ أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلي لربي ، فألطق

الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتنى عن بابهم وكحنت تنكح المتنعات بي ، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتدع منك ولو أنفقتني فيسبيل الخير نفعتك ؟ خلقت يان آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم ، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الارض مثله ! ثم عرج إلى السهاء فقالت الملائدكة لمن كنت أشذ رحمة بمن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الارض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتهاور حمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لامتمهد له بها . فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذيرحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء 1 قال عطاء بن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإنّ العبد ليغرس الغراس وينسكح الازواج ويبني البنيان وإنّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لايدرى . وقال الحسن ما من نوم إلا وملك اليوم يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فإذا قبض روحه أقبلأهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزمًا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبق منكم أحدا . قال الحسن فوالله أو برون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكو على أنفسهم ، وقال يزيد الرقاشي بينها جبـار من الجبابرة من بني إسرائيل جالسفي منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مغضبا فنال له من أنت ومن أدخلك على دارى ؟ فقال أما الذي أدخلني الدار فربها ، وأما أنا فالذي لايمنع من الحجاب ولا أستأذن علىالملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مربد؟ قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فنال له أنت إذن ملك الموت ! قال أما هو ، قال فهل أنت عملي حتى أحدث عهدا؟ قال هبهــات ١ انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل ١ قال فإلى أين تذهب بي ؟ قال إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته ، قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا ، قال فإلى لظى نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فمن بين صارخ وباك . قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء المقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلمــا خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت ، قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال في إذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصني منه فتأمر الربح حتى تحملني إلى أقصى الهند ا ففعلت الربح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال نعم كنت أنعجب منه لاني كنت أمرت أن أقبضه بأفصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك 1 .

الباب الرابع ف وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حستة _ حيا وميتا وفعلا وقولاً _ وجميع أحواله عبرة للناظرين

وتبصرة المستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم علىالله منهإذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لابل أرسل إليه الملائكة الـكرام الموكلين بقبض أرواح الآنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمةاينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك في النزع كر بهوظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه ،حتى بكي لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوةدافعا عنه مقدورا؟ وهلراقب الملك فيه أهلا وعشيراً ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً ؟ هيهات ! بل امتثل ماكانبه مأموراً واتبح ماوجده في اللوح مسطوراً . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود، وهو أول من تنشق عنه الارض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لانعتبر به ولسنا على ثقة فيها نلقاه بل نحن أسراء الشهوات ا وقرناء المعاصي والسيئات ١ فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعلنا فظن أننا مخلدلون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنــا عند الله مكرمون ، هيهات اهيهات ا بل نتيقن أنا جميعًا على النَّـار ﴿ اردُونَ ، ثم لاينجو منها إلا المتقونَ ، فنحن للورود .ستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لابل ظلمنا أنفسنا إنَّ كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المنقين ، وقد قال الله ربالعالمين ﴿ وَإِن منكم الا واردهاكان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فلينظر كل عبدإلىنفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كالو امع ما وفقو اله من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين، إذ كان سيدالنبيين وقائد المتقين ،واعتبركيف كان كربه عند فراق الدنيا ! وكيف اشتد أره عند الانقلاب إلى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضى الله عنـه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسـُـلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال . مرحباً بكم حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصى بكم الله ، إنى الحكم منه نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الاجل ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأونى ، فانرءوا على أنفسكموعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله 🗥 وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته , من لامتى بعدى ، فأو حى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبي أنى لاأخذله فى أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الارض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال . الآن قرت عيني (٢) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا

الباب الرابع في وفاة الني صلى الله عليه وسلم

⁽۱) حديث ابن مسعود: دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق ... الحديث » رواه البرار وقال: هذا السكلام فد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة ، قال: وعبد الرحن الأصبهائي لم يسمع هدا من مرة ولا على عمن أخبره عن مرة ، قال: ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قات: وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن سعود . ورويناه في مشبخة القاضي أبي بكر الأنساري من رواية الحسن المربي عن ابن محود ولكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العربي في منها يرويه عن مرة كا رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط . (۲) حديث: أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عندموته « من لأمق بعدى » فأوحى الله تما لل جبريل أن بعمر حبيبي أني الأخذله في أمته ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث الجنة على جميم الأنبياء والأمم فيه « من الأمتي المصطفاة من بعدى » قال : أبعر ياحيب الله فإن الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على جميم الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال « بالن طابت نهسي » ولسناده ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسله بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال ، أمابعد : يامعشرالمهاجرين فإنكم تزيدوزوأصبحت الانصار لا تريد على التي هي عليها اليوم ، وإنَّ الأنصار عينتي الني أويت إليها فأكرمواكر يمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيتهم ، ثم قال . إن عبدا خير بين الدنيا وبين ماعند الله فاختار ماعند الله ، فيكي أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال الني صلى الله عليه وسلم . على رسلك يا أبا بكر سدّوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أنى بكر فإنى لا أعلم امرأ أفضل عندى في الصحبة من أبي بكر ١١١ ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقبض صلى الله عليه وسلم فی بیتی وفی بو می وبین سحری ونحری وجمع الله بین ریق وریقه عند الموت ، فدخل علی آخی عدالرحمن و بیده سواك فجمل بنظر إليه فعرفت أن يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فنارلته إياه فأدخله ف فيه فاشتد عليه فقلت : ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجملُ يدخل فيها يده ويقول و لا إله إلا الله أن للمرت لسكرات ، ثم نصب يده يقولُ و الرفيق الأعلى . . الرفيق الأعلى ، فقلت : إذن والله لايختارنا (٢) وروى.عيد بن عبدالله عن أبيه قال : لمـا رأت الانصار أنّ الني صلىالله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضى الله عنه على النبي مَثَلِطَةٍ فأعاله بمكانهم و إشذاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله ، فمدّ يده وقال وها, فتناولوه ، فقال , ما تقولون 1 ، قالوا : نقول : نخشى أن تموت ، وتصابح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ ، فنار رسول الله ﷺ فخرج متوكثا على على والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصَّرَب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس إنه بلغني أنـكم تخافون على الموت كأنه استنـكار منـكم للموت ، وما تنكرون من موت نبيكم ألم أفع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؟ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الاؤلين خيرا وأوصىالمهاجرين فيها بينهم فإنّ الله عزوجل قال ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانُ لَنْيَ خَسْرُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ _ إلى آخرِها _ وإن الأمور تجرى بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإنّ الله عز وجل لايعجلّ لعجلة أحد ومن غالبالله غلبه ومنخادع الله خدعه ﴿ فهلّ عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ﴾ وأ ِ م يكم بالانضار خيرا فإنهـم الذين تبوَّموا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليمكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم والمتجاوز عن مسيئهم ، ألاولا تستأثروا علمهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون في ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضي أعرض بمـا بين بصرى الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، حصباؤه اللؤاؤ وبطحاؤه المسك ، من حرمه في الموقف غدا حرم الحير كله ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده إلا بمـا ينبغي , فقال العباس : يا نبي الله أوص بقريش 1 فقال , إنمــا أوصى بهــذا الام قريشا والناستبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناسخيرا ، يا أيها الناس إنَّ الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أتمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى ﴿ وكذلك نولى

⁽۱) حديث عائمة : أمرنا أن نفسله بسبم قرب منسبعة آبار فنمانا ذلك نوجد راحة فخرج فعلى بالناس واستنفر لأهل أحد . . الحديث » أخرجه الدارى فى مسنده وفيه أبراهيم بن المختار مختاف فيه عن محمد بن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنمنة . (۲) حديث عائشة : قبض فى بيتى وفى يومى و بين شحرى وتحرى وجم الله بين ربقى وريقه عند الموت . . الحديث » متفق هليه

بمض الظالمين بعضا بمــاكانوا يكسبون ﴾ ١١ ، وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن الني صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر رضي الله عنه , سل با أبا بكر ، فقال يا رسول الله دنا الاجل؟ فقال , قد دنا الاجل وتدلى ، فقال لهنك ياني الله ما عند الله ! فليت شعرى عن منقلبنا ، فقـال . إلى الله وإلى سدرة المنتهي ثم إلى جنة المـأوى والفردوس الاعلى والكمأس الاوفى والرفيق الاعلى والحظ والعيش المهنا ، فقال يا نبى الله من يلى غسلك؟ قال , رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى ، قال ففيم نكف ك ؟ فقال ، في ثيابي هذه وفي حلة يمـانية وفي بياض مصر ، فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكي ثم قال . مهلا غفرالله لـكم وجزاكم عن نبيـكمخيرا ، إذا غسلتموني وكفنتمونى فضعونى على سريرى في بيتي هذاعلى شفيرى قبرى ، ثم أخرجوا عني ساءة ، فإنّ أوّل من بصلي على الله عز وجل ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ ثم يأذن للملائكة في الصلاة على ، فأوّل من يدخل على من خاق الله و يصلي على جبر بل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلىالله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بنزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منه كم الإمام وأهل بيتي الآدني فالأدني ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان ، قال فن يدخلك القبر ؟ قال . زمر من أهل بيتي الادنى فالادنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عني إلى من بعدى ٢١ ، وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال في أوَّل شهر ربيع الأوَّل فَأَذَنَ بالصلاةُ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا أبابكر يصلى بالناس ، فخرجت فلم أربحضرة الباب إلاعرف رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت قم ياعمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبروكان رجلاصيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالشكبير فقال . أين أبو بكر ؟ بأبي الله ذلك والمسلمون ، قالهـ ا ثلاث مرات «مروا أبابكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضي الله عنها يارسول الله إن أبابكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء ا فقال وإنكن صويحبات يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس، قال فصلي أبو بكر بعد الصلاة التي صلي عمر ، فحكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ ويحك ماذا صنعت ى ا والله لولا أنى ظننتِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله إنى لم أر أحداً أولى . بذلك منك 1 قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما في الولاية من المخاطرة والهلسكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام الني صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الامر أمر الله والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (٣) وقالت عائشة رضي الله عنها فلما

⁽۱) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بزداد نقلا أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر ... الحديث فى خروجه متوكئا مصوب الرأس يخط رجليه حتى جاس على أسفل مرقاة من المنبر . فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نسكارة ولم أجدله أصلا وأبوه عبد الله بن شهراد بن الأزور تابين مسمود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ايس بالقوى . (٢) حديث ابن مسمود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ايس بالقوى . (٢) حديث ابن مسمود :أن البي سلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر ه سل ياأبا بكر » فقال . يارسول الله دنا الأجل ؟ فقالى ه قد دنا الأجل ... الحديث في سؤالهم له : من يلى غدلك وفيم المكفئك ؟ وكيفية المسلاة عليه » رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدى باسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما

⁽٣) حديث عبد الله بن زممة : جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة نقال النبي صلى الله عليه وسلم « مروا أبابكر فليصل بالناس » فخرجت فلم أر محضرة البالبالا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر ..، الحديث، أخرجه أبو داود باسناد جيد محوه مختصرا دون قوله « فقالت عائشة إن أبابكر رجل رقيق ... لملى آخره » ولم يقل : في أول ربيع الأول ، وقال « مروا من يصلى بالناس » وقال « يأبي الله ذلك والمؤمنون » مرتين وفي رتواية له فقال « لالالاز... لبصل قناس ابن أبي قعافة » يقول ذلك ===

كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ، فتفرق عنه الرجال|لم منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينا نحن علىذلكُلم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اخرجن عنى ! هذا الملك يستأذن على ، فخرج من في البيت غيرى ورأسه في حجرى فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى فأعاد رأسه في حجرى وقال للنسوة . ادخلن ، فقلت . ما هذا محس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم . أجل ياعائشة هذا ملك الموت جامل فقال : إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لاأدخل عليك إلابإذن ، فإن لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت ، وأمرني أن لاأفبضك حتى تأمرني فاذاأمرك ؟ فقلت ؛ اكفف عنى حتى بأتيني جبريل عليه السلام، فهذه ساعة جبريل ، فقالت عائشة رضياللة تعالى عنها ؛ فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الامر وهيبة ملات أجوافنا ، قالت ، وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إنالله عزوجل يقرأ عليك السلام ويقول ؛ كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولـكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الحلق وأن تكون سنة في أمتك فقال , أجدني وجما , فقال : أبشر فإن الله تعــالي أراد أن يبلغك ماأعد لك فقال . ياجبريل إن ملك الموت استأذن على ، وأخبره الخبر فقال جبريل : يامحمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالى مااستأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أيدا ، إلاأن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال . فلا تبرح إذن حتى يجيء ، وأذنالنساءفقال . يافاطمةادني، فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق السكلام ، ثمقال « ادنىمنىرأسك ، فأكبت عليه فناجاهــا فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق المكلام ، فحكان الذي رأينا منها عجبا ، فسألتها بعد ذلك فقالت . أخبرني وقال . إني ميت اليوم ، فبكيت ثم قال . إنى دعوت الله أن يلحقك بي في أوّل أهلي وأنجِه ــــــلك معي ، فضحكت ، وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت . وجاءماكالموتواستأذنفأذنله فقال اللك . ماتأمرنا يامحمد ؟ قال . القني بر بي الآن ، فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليكمشتاق.ولم يتر ددعن أحد تر دده عنك ولم ينهنى عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكنساعتك المامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يارسول الله هذا آخر ماأنزل فيه إلى الارض أبدا طوى الوحى وطويت الدنياو ما كان لى فى الارض حاجة غيرك ، ومالى فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم مو قنى لاو الذى بعث محمداً بالحق مافي البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقمت إلى النبي صلىالله عليه وسلم حتى أضعر أسه بين تدبي و أمسكت بصدره ، وجمل يغمي عليهِ حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسانقط ، فجعلت أسلت ذلك الدرق وماوجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له _ إذا أفاق ـ بأبي أنت وأي ونفسي وأهلي ماتلق حبهتك منالرشح ؟ فقال . ياعائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحار ، فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فعكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بمنه إلى أبى ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجىء أحد ، وإنما صدهم الله عنه لانه ولاه جبريل وميكاميل ، وجعل إذا أغمى عليه قال , بل الرفيق الاعلى ، كأن الحيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال ، الصلاة الصلاة إنكم لاتزالون متماسكين ماصليتم جميعـا ، الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو

⁼ منضباً ، وأمامافي آخره من قول عائشة فني الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يارسول الله ان أبابكر رجل رقبق لمذا قام . مقامك لم يسمح الناس من البكاء ! فقال « لمنسكن سواحيات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

يقول , الصلاة الصلاة (١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضى الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم ـ يوم أصيب على كـرّم الله وجهه بالكوفة _ مثلها : مالقيت من يوم الاثنين ، مات فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه قتل على ؛ وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلىالله عليه وآله وسلم الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغيربيان ، وبتي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، إمما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم ٣١ وفى رواية أنه قال : ياأيها النــاس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت ، والله لاأسمع أحداً يذكر أن رسول الله صلىاللهعليه وسلم قد مات إلا علوته بسيني هذا . وأما على فإنه أقعد فلا يبرح البيك . وأما عثمان فجعل لا يـكلم أحدا ـ يؤخذ بيده فيجا. به ويذهب به ـ ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإنالله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإنكان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس ففال : والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند رہکم تحتصمون 🕽 .

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الحزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليسه

⁽¹⁾ حديث عائدة : لماكان اليوم الذى مات فيه رسول الله على الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فغفرى عنه الرجال لمل منازلهم وحوائجهم مستبدر بن وأخلوا رسول الله على الله على وسلم بالنساء فيها نحن على ذلك لم يكن على مثل حاله في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله عليه وسلم ه اخرجن عنى ، هذا ملك يستأذن على ... الحديث ، بطوله في مجىء ملك الموت في والله عليه وسلم ، أخرجه الطبراني في السكم بر من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله الى ملك الموت أن احبط لملى حبيبي وسنى محمد عليه وسلم في أحسس صورة وارفق به في قبض روحه . وفيه دخول ملك الموت واستثذانه في فبضه نقال و ياحلك الموت واستثذانه في فبضه نقال و ياحلك الموت أن خلفت حبيبي جبربل ، قال خلفته في سماء الهذيا والملائك ينزونه فيك ، فياكار بأسم ع أرأتاه جبربل فقصد عند وأسه وذكر بشارة جبربل له عما أعد الله له وفيه ادن ياحالي الموت فانته لملى مأمرت به ... الحدبت . وفيه : فدنا ملك المرت يمالج قبض روح النبي سلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك ، الى أن قال : فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المرب بن سنان عن أبيه عن وهب بن منيه الل أحمد : كان يكذب على وهب بن منيه ، وأبوء لدربيس أيضاً متروك قاله المدار تعلى ، ورواء العابراني أيضاً من حديث المدين على : أنجبربل يكذب على وهو بن منيه ، وأبوء ادمن لما أمرت به ، وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن مبدوز المدار قال البخارى ذاهب فضاله ثم الحديث ورواء أيضاً من حديث ابن عباس في مجىء ملك الموت أو لا واستنذانه وتوله . لمزربك يقرئك السلام فقال وأبن جبربل ، فقال هو قريب مني الآن يأتي عباس في مجىء ملك الموت أولا واستنذانه وتوله . لمزربك يقرئك السلام فقال وأبن جبربل ، فقال هو قريب مني الآن يأتي منك الموت عن نزل عليه جبريل . . الحديث وقيه المختار بن نافع منسكر الحديث . المخديث وقيه المختار بن نافع منسكر الحديث ، المحديث ورواء أيضاً من حديث ابن عباس في مجىء مثلك الموت أولا واستنذانه وتوله . لمزربك يقرئك السلام فقال وأبن جبريل ، المحديث ورواء أيضاً من حديث ابن عباس في مجىء مثلك الموت أولا واستنذانه وتوله . لمناكل المحت المحديث المح

⁽۲) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضعى وانتماف النهار بوم الأدين . رواه ابن عبد البر (۲) حديث عائشة : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم النعج الناس _ حين ارتفت الرنة وسجى رسول لله صلى لله عليه وسلم الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بمونه وأخرس بعضهم فا تدكلم الا بعد البعد ، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الحمالب بمن كذب بمونه ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فدن أخرس فرج عمر على الناس عليه وسلم لم يمت . . . الحديث الى قوله (عند رسكم نخته مون) لم أجد له أصلا وهو منسكر ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت . . . الحديث الى قوله (عند رسكم نخته مون) لم أجد له أصلا وهو منسكر ،

ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يارسول الله ماكان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قسد مات و من كان يعبد رب محمد فإنه حي لأيموت قال الله تعمالي ﴿ وَمَا مُحَمَّدُ إِلَّا رَسُولَ قِلْدَ خَلْتُ مِنْ قَبِلُهُ الرسسل، أَفَاإِنْ مَات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الآية ﴾ (١) ، فكأن النياس لم يسمعوا هـذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية : أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما بلغه الحبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكى ويقول : بأنى أنت وأمى ونفسى وأهلي طبت حيا وميتـا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الانبيـاء والنبَّوة ، فعظمت عن الصفة وجلمات عن البـكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة وعمَّت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجـدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهبت عناابكاء لانفذنا عليك ماه العيون ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمدواد كارمحالمان لا يبر مان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلف من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنـا واحفظه فينا (٢٠) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجاً سمعة أهر المصلى ، كلما ذكر شيئًا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم باأهل الديم (كل نفس ذا ثقة الموت ﴾ الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل يخفة ، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطىالبكاء فقد صونه فاطلع أحدهم فلم ير أحداً . ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لايعرفون صوته : ياأهل البيت أذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إنّ فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الحنضر واليسع عليهما السلام حضراالني صلى الله عليه وسلم "" واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أد بكر رضى الله عنه فقال : قام أبو بكر فىالناس

⁽¹⁾ حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الجارث بن الخررج بناء فدخل على رسول الله صلى الله هايه وسلم فنظر لمايه ثم اكب عليه فقبله وبكى ثم قال : أبى أنت وأى ماكان الله ليذيقك الموت حرتين ٠٠٠ المدبث . الى آخر قوله : وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية لملا يو بمذ أخرجه البخارى ومسلم من حدبث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد ، فهم يكام الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منهى بثوب حبرة ، فسكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقه أكب عليه وكم وتتين ، أما الموقة التي كتبت عليك فقد متما . ولهما من حديث ابن عباس : أن أبابكر خرج وعمر يكلم الناس ... الحديث . وفيه : ولله اسكأن الناس لم ، لهوا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخارى فيهما .

⁽۲) حدیث: لن أبا بكر لما بلنه الخبر دخل بیت رسول الله صلی الله علیه و لم ... و هو بصلی علی النبی صلی الله علیه وسلم و عیناه تهملان وغصصه ترتفع کفسم الحرة و هو فی ذلك جلد الفهل و المفال ... فأ ک علیه فسکشف الثوب عن وجهه ... المدیت المل قوله : واحفظه فینا ، أخرجه ابن أبی الدنیا فی کتاب الهزاء من حدیث ابن عمر باسناد ضدیف : جاء أبو بكر و رسول الله صلی الله علیه و سلم مسجی ف کشف الثوب عن وجهه ... الحدیث الی آخره . (۳) حدیث ابن عمر فی سماع التمزیة به صلی الله علیه و سلم : لمن فی الله خلفا من كل أحد و دركا له كل رغبة و نجاء من كل مخافة فاقه فارجوا و به فئقوا . ثم سهموا آخر بهده : لمن فی الله عزاء من كل مصیبة و عوضا من كل رغبة فاقه فأطبعوا و بأسره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الحضر و الیسم ، لم أجد فیه ذكر « الیسم » و أما ذكر ه الحضر » فی التمزیة فأنسكر النووی و حرده فی كتب الحدیث و قال : انها ذكره الأصماب . قات: فی قدر رواه الحاکم فی المستدرك فی حدیث آنس و لم بصححه و لایسم ، و رواه این أبی الدنیا فی كتاب الهزاء من حدیث آنس و لم بصححه و لایسم ، و رواه این أبی الدنیا فی كتاب الهزاء من حدیث آنس و لم بصححه و لایسم ، و رواه این أبی الدنیا فی كتاب الهزاء من حدیث آنس أبی فی لمزار علیه و سلم اجتم أصابه حوله بیکون فدخل علیهم رجل طویل شمر المنسك به و الم الله علیه و سلم ما أبیل خواد به بحوله به علی در سول الله صلی الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكن علی در سول الله صلی الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكی علی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكن علی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكن علی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكی علی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكن علیه و سلم م أخراب البیت فیكی علی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكن فید و سلم الله علیه و سلم الله علیه و سلم و أخذ به ما الله علیه و سلم م أخراب البیت فیكی در سول الله علیه و سلم م أخراب البیس الله علیه و سلم م أخراب البیت فیکی در سرک الله علیه و سلم الله ع

خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأتن عليه على كل حال وقال: أشهد أن لاإله إلاالله وحده صدق وعده ونصر عده وغلب الاحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن عبده عددا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كاشرع وأن الدين كاشرع وأن الحديث كاحدث وأن القول كافال وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيك وامينك وخبرتك برصفوتك بأفضل ماصليت به على أحد من خلفك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيدالم سلين وخاتم النبيين وارام المنتقين محمد عائد الحنير وإمام الحير ورسول الرحمة . اللهم قزب زلفنه وغلم مهاه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والآخرة وبلغه المدرجة والوسيلة في الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وعلى آل محمد كا صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد بحيد ، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيى لم يمت ، وإن الله قد مت ومن كان يعبد الله وسلم ماعده على ماعده وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كنابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر في أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط و ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه و لاتستنظ وه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذى بلغنى أنك تقول ما مات نبى الله صلى الله عليه وسلم ؟ أماترى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم ؟ أماترى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى فى كنابه ﴿ إَنْكُ مِيتَ وَإِنْهُم مِيتُونَ ﴾ فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كناب الله قبل الآن لما زل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حى لا يموت ﴿ إِنَا لله وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبى بكر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قانوا : والله ماندرى كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجر ده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى مابقى منهم رجل الاواضع لحيته على صدره نائماتم قال قائل ـ لايدرى من و _ غسلوارسول الله صلى الله عليه و سلم ثيابه ، فانقه وافغملوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه و سلم في قيصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنو دينا لا تخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ثيابه . فأقر رناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاه أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرع منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالربح الرحماء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه و سلم فإنكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم ولم يترك

⁼ على أسمايه فقال: لمن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هاقك فإلى الله تعالى فأنيبرا ونظره الميكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم مجبره التواب. ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر: على الرجل ، فنظروا ممينا وشمالا فلم يروا أحدا ، فقال أبو بكر : على الرجل ، فنظروا ممينا وشمالا فلم يروا أحدا ، فقال أبو بكر : لعل هذا الحضر أخو نينا عليه السلام جاء يعزينا . ورواه الطبراني في الأوسط ولمساده ضميف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث على بن أبي طالب : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءآت نسم حسه ولانرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله و بركانه لمن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفاً من كل هافك ودركا من كل فائت ، فبالله فئقوا ولياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عايسكم . فقال على * تدرون من هذا ؟ هو الحضر . وفيه محمد بن جمفر الصادق للسكام فيه وقيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مي سلامن غير ذكر على كا رواه الشافعي في الأم

سبدا ولالبدا إلادفن معه . قال أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس بقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكمانه فلم يترك بدد وفانه مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولاوضع قصبة على قصبة "" فنى وفاته عبرة نامة وللمسلمين به أسوة حسنة .

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعمالي عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعمالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت : لعمــــــرك مايغني الثراء عنالفتي اذاحشرجت يوماوضاق بهاالصدر

فكشفعن وجهه وقال: ايس كذاولكن قولى ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد ﴾ انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكمنونى فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنهما عند موته :

وأبيض يستسق الغسام بوجهه ربيع اليتساى عصمة الأرامل فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صليالة عليه و حلما عليه فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صليالة عليه و حلم ، و دخلوا عليه فقال ا ألا ندعر الكطبينا بنظر إليك؟ قال قد نظر إلى طبيبي وقال : إنى فعال لما أريد . و دخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك .

و لما القل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ؛ اعلم أن لله حقا فى النهار لايقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليللايقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليللايقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليللايقبله فى النهار ، وأنه لايقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما لقلت موازين من لقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى النهاو لقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يشفل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الخنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئانهم ، فيقول الفائل : أنا ون مؤلاء ولا أبلغ مبلغ مؤلاء ؛ فإن انه ذكر أمل النار بأسوا اعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من مؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤ من راغبا واهبا ولا يلق بيديه إلى النهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أخب ولست بمعجوه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أناه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فإنا نراك لمما بك . فقالوا أبو بكر : من قال هؤلاء المكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الآفق المبين : قالوا : وماالآفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهارو أشجار ، يغشاه كل يوم مائة

⁽۱) حديث أنى جعفر : فرش لحده عفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعدوفاته مالا ولابنى فى حياته لبناعلى لبنة ولاوضع قصبة على قصبة أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شفران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك ،ن شرط كتابنا ، وأماكونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وخيرها وأماكونه مابنى في حياته فتقدم أيضاً .

رحمة ، فن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المسكان و اللهم إلك ابتدأت الحلق من غير حاجة بك إلهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير ، اللهم إنك خلقت الحلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيداوغويا ورشيدا ، فلانشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تحلقها فلا محيص لها لما علمت ، فاجعلى من تستعمله بطاعتك اللهم إن أحد الايشاء حتى تشاء ، فاجمل شيئتك أن أشاء ما يقربنى اليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء الا إذنك ، فاجعل حركاتى في تقواك . اللهم إنك خلقت الجنة خلقت الجنة والسر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والمار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إلك أردت بقوم الصلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإ بمان وزبنه فى قلى ، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك . فأحين بعد الموت حياة طيرة وفربنى إليك زلنى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت ثفتى ورجائى ولاحول ولا قرة إلا بالله ، قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل :

وفاه عمر بن الخطاب رضي الله تعمالي عنه

قال عمرو بن ميمون ركنت قائمًا غداة أصيب عمر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصفين عام بيهما ، فإذا رأى خللا فال : استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدّم فكبر . قال : وربمـا قرأ سورة يوسف أو النحل ـ أو نحو ذلك ـ في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول: قتلني ـ أو أكلني ـ الـكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، وطار العلجُ بسكين ذات طرفين لايمرّ على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة ـ وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فَقَدَّمَه ، فأما من كان يلي عمر فقد رأى مارأيت ، وأما نواحي المسجد مايدرون ما الآمر ؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله 1 فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما المعرفوا قال : يا ابن العباس الظر من قتلني 1 قال : فغاب ساعة ثم جا. فقال : غــلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر رضي الله عنه : قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل م يتي بيد رجل مسلم ، قسد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة 1 وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال ابن عباس : إن شئت فعلت ؛ أى إن شئت قتلناهم ، قال : بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فانطلفنا معه قال : وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ! قال : فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لابأس . فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى من الله عزوجل ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ماقدعلمت ، ثم وايت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافا لاعلى ولالى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الارض ، فقال : ردوا على الغلام ، فقال : يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنتي لثربك وأتتي لربك . ثم قال : ياعبد الله انظر ماعلي من الدين ؟ فحسبوه فوجدوه سته وثمانين أَلْمَا أُونِحُوه ، فقال : إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم ؛ والافسل في بني عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم ، وأد عني هذا المال والطلق إلى أم المؤمنين عائشةفقل :

عمر يقرأ عليك السلام، ولاتقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولاوثر نه اليوم على نفسى ! فلما أقبل قبل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : مالديك ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين قد أذنت قال : الحد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك ا فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر ا فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاء ها من داخل . فقالوا: أوص ياأمير المؤمنين واستخلف ، فقال : ماأرى أحق بهذا الآمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الآمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك والإفليستمن به أيكم أمر ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة ، وقال أو مى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الآولين أن يعرف لهم فضلهم وبحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوّموا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وجباة الاموال وغيظ العدق وأن لا بأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بالاعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عزوجل وذمة رسول الله عليه قسلم أن يوني لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم ، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبي صلىالله عليه وسلم قال د قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر (۱۱) , وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فته كنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع و أنافيهم، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت فإذا هو على بن أبي طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ماخافت أحد أحب إلى أن ألق الله بمثل عمله منك ا وايم الله إن كنت كثيرا أسم النبي صلى الله عليه وسلم بقول منك ا وايم الله إن كنت لاظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أنى كنت كثيرا أسم النبي صلى الله عليه وسلم بقول و ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر (۱۱) ، فإنى كنت ـ لارجو أن لاظن ـ أن يجعلك الله معهما .

وفاة عُمان رضي الله عنه

الحديث فى قتله مشهور . وقد قال عبد الله بنسلام : أتيت أخىءثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال مرحباً يا أخى ا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الحوخة ــ وهى خوخة فى البيت ــ فقال و ياعثمان حصروك ؟ ، قلت فعم ، قال و عطشوك ، قلت فعم ، فأدلى إلى دلوا فيه ما مفشربت حتى رويت ــ حتى

⁽۱) حدیث « قال فی جبریل علیه السلام لببك الإسلام علی موت عمر » أخرجه أبو بكر الاً جری فی كتاب الصریمة من حدیث أبی بن كهب بسند ضعیف جداً وذكره ابن الجوزی فی الموضوعات .

⁽٢) حديث ابن عباس قال : وضع عمر على سربره فتسكنفه الناس يدعون ويصلون ، فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيراً أسمع النبي سلى افته عليه وسلم يقول « ذهبت أما وأبو بكر وعمر . . الحديث » متفق عليه .

إنى لأجد برده بين ثديى وبين كتنى _ وقال لى , إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ا فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشخط عثبان في الموت حين جرح ماذا قال عثبان وهو يتشخط ؟ قالوا سمعناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد صلىالله عليه وسلم _ ثلاثا _ قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لايحتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثبان رضى الله عنه فقال اثنوني بصاحبيكم اللذين ألباكم على اقال فجيء بهما كأنما هما تعليه أو حماران ، فأشرف عليهم عثبان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بثر رومة فقال من يشتري رومة ، يحمل داره مع دلاه المسلمين ، نغير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم ، هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلى فيها ركمتين ؟ قالوا اللهم نعم ، فل النشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثمير بمكة ومعه أبو بكر وعمروأنا ، فانشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله على الله عليه وسلم كان على ثمير بمكة ومعه أبو بكر وعمروأنا ، فتحرك الحبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال ، اسكن ثهير فيا عليك إلا نبي وصديق فتحرك الحبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال ، اسكن ثهير فيا عليك إلا نبي وصديق فتحرك الحبل حتى قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد ١١٠ .

وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول ﴿ لاَلِهُ لِلاَأَانَتُ سَبَحَانُكُ إنى كذت من الظالمين ﴾ اللهم إنى أستعديك عايهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أناه ابن التياح حين طلع الفجريؤذنه بالصلاة وهو مضطجع منثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

> اشدد حيازيمك للبو ت فإن الموت لافيكا ولا تجزع من الموت إذا حــــل بواديـكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ان ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه لجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة ! وعنشيخ من قريش أنّ عليا مالى ولصلاة الغداة ! وعنشيخ من قريش أنّ عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة ، وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخـل عليه الحسين رضى الله عنه فقال ياأخى لآى شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بلت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ا قال باأخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عهما قال لما بزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً الحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد بزل من الآمر ما ترون ! وإنّ الدنيا قد تغيرت وتذكرت وأدبر

⁽١) حديث تمسامة بن حزن القشيرى : شهدت الدارخين أشرف عليهم عثمان بدير الحديث أخرجه الترمذي وقال حدن والخسائي

معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء ، ألاحسبي من عيش كالمرعى الوبيل ، ألاترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرما .

الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لماحضرت معاوية بن بي سفيان الوفاة قال ؟ أقعدونى ، فأقعد لجعل يسبح الله تعمالى ويذكره بم بكى وقال : تذكر ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألاكان هذا وغصن الشباب نضر ربان ، وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يا رب أرحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الولة وعد بحلك على من لا يرجو غيرك ولم يتق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش : أمه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا ، فحمد الله وأتنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبئتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلامت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أبها الناس إنى من زرع قد استحصدو إنى وارتكم ولن يليمكم أحد من بعدى إلاوهو شر منى ، كاكان من قبل خيرا منى ا ويايزيد إذا ونى أجلى فول غسلى رجلالبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ، ثم اعد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أننى وفى وأذنى وعينى ، واجعل النوب على جلدى دون أكفانى ، ويايزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فحلوا معاوية وأرحم الراحين ، وقال محد بن عقبة : لما نول مؤيا الموت قال باليتى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أل من هذا الامر شيثا .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة فظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المفسلة ، فقال عبد الملك : ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، لم أل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أباحازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدني كما قال الله تعدالي (ولقد جثتمونا فرادى كما خلقنا كم أول مرة وتركتم ما خولنا كم وراء ظهور كم كي الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر ـ بيني وبينه باب وهو في قبة له ـ فسمعته يقول ﴿ تلك الدار الآخر نجعلها للذين لا يريدون علوا في الآرض ولا فسادا والعاقبة للمنقين ﴾ ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولاكلاما فقلت لوصيف له ؛ انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فرثمت فإذا هو ميت ، وقيل له لمساحضره الموت : أعهد ياأمير المؤمنين ! قال : أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بذ لكم منه ، وروى أنه لمسا ثقل عر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفح عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يستى السم ! قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفح عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يستى السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال فعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطنى قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أحاف أن تذهب نفسك ؛ قال : ربيخير مذهوب إليه ، والله لوعلت أنشفائي عندشعمة أدنى يا أمير المؤمنين فإني أحاف أن تذهب نفسك ؛ قال : ربيخير مذهوب إليه ، والله لوعلت أنشفائي عندشعمة أدنى يا أمير المؤمنين فإني أحاف أن تذهب نفسك ؛ قال : ربيخير مذهوب إليه ، والله لوعلت أنشفائي عندشعمة أدنى يا أمير المؤمنين فإني أحاف أن تذهب نفسك ؛ قال : ربيخير مذهوب إليه ، والله لوعلت أنشفائي عندشعمة أدنى

مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته . اللهم خراممر فى لقائك ؛ فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لماحضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ياأمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا ا فيكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الحلق ، فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسى أن لاتقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها ، فكيف بكثير بمنا ضيعنا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات : ولمنا قرب وقت موته قال : أجلسونى ! فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له فى ذلك فقال : إنى لارى خضرة ؛ ما ثم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفامه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول ﴿ مَا أَغَنَى عَنَى مَالَيْهُ هلك عنى سلطانيه ﴾ .

وفرش المـأمرن رمادا واضطجع عليه وكان يقول: يامن لا يزول ملـكه ارحم من قد زال ملـكه. وكان المتعصم يقول عند موته: لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس (لا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ـ وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من بأخذها بمـا فيها ليته كان بـمرا . وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفرلى فإن الناس يقولون إنك لاتغفرلى . فـكان عمر بن عبد العزبز تعجبه هذه السكلمة منه ويغبطه عليها ، ولمـا حكىذلك للحسنقال : أقالها ؟ قيل : نعم ، قال : عسى .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل النصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إنى قد كنت أخافك وأنااليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أن لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الآنهار ولا لغرس الآشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولمما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحدكان كلما أفاق من غمرة فنح طرفه ثم قال رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلي يحبك .

و لما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ؟ قال : ماأبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنياكزاد الراكب (١) فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضمة عشر درهما .

ولمسا حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته: واحزناه فقال: بل واطرباه اغدا نلق الاحبة محمدا وحزبه. وقيل. فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك رقال ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ . ولمسا حضرت ابراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال: أنتظر مهالله رسولا يبشرنى الجنة أوبالنار ولمسا حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال ، والله ماأبكى لذنب أعلم أنى أتيته ؛ ولكن

⁽١) حديث : ١ــا حضرت سلمان الوفاة بكى ، وقيه عهد المينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كراد الراكب ، أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

أخاف أنى أتيت شيئًا حسبته هينا وهو عند الله عظيم .

قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تزدما ثم أنشأ يقول :

و الحضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما أبكى جزعا من الموت و لا حرصا على الدنيا و لكن أبكى على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء !

ولمسا حضرت فضيلا الوفاة غشى عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه وافلة زاده

و لمساحضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه . اجعل رأسى على التراب ، فبكى فصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ماكنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا ! قال : اسكت ! فإنى سألت الله تعالىأن يحيينى حياة الاغنياء وأن يميتنى موت الفقراء ، ثم قال له لقنى ولا تعد على مالم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت ا فقال: ما آمنك بعد. وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ . آمة فى كمتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ودخل الحسن رضى الله عنه على رجل بجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتنى آخره، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله وقال الجريرى: كنت عند الجنيد فى حال نزعه _ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز _ وهو يقرأ القرآن فخم، فقلت له: فى هذه الحالة ياأ با القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك منى وهو ذا قطوى صحيفتى؟ وقال رويم حضرت وفاة أنى سعيد الحراز وهو يقول:

حنين قليب العارفين إلى الذكر وتذكارهم وقت المناجاة للسر أديرت كؤوس للمنسايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر همومهم جسوالة بمعسكر به أهسل ود الله كالانجم الزهر فأجسامهم فى الارض قتلى بحبه وأرواحهم فى الحجب نحو العلاتسرى فما عرسوا إلا بقرب حبيهم وما عرجوا من مس بؤس ولاضر

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا . وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت بلحظة . وقيل لبعضهم وهو في النزع! قل ألله فقال : إلى متى تقولون الله وأما محترق بالله . وقال بعضهم : كنت عند ممساد الدينوري فقدم فقيرا وقال : السلام عليه علم هنا موضع فظيف بمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال : فأشاروا إليه بمحكان ـ وكان شمء ينماه ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاه الله ، ومضى إلى ذلك المحكان ومدّ رجليه ومات . وكان أبو عباس الدينوري يشكلم في الفقير الوضوء وركع ماشاه الله ، ومضى إلى ذلك المحكان ومدّ رجليه ومات . وكان أبو عباس الدينوري يشكلم في المفتر الوضوء وركع ماشاه الله ، وقال الموقي ، فقامت المرأة ، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت . قد مت ووقعت ميتة ، ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبي على الروذباري ـ قالت : لما قرب أجل أبي على الروذباري ـ وكان رأسه في حجرى ـ فتم عينيه وقال : هذه أبواب السهاء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول ياأباعلى رأسه في حجرى ـ فتم عينيه وقال : هذه أبواب السهاء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول ياأباعلى

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعــــين مودة حتى أراكا أراك معذبي بفتور لحظ وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : مانسيته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكر أن الدينورى ـ خادمالشبليــ ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال على درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ! ثم

قال: وصنّى للصلاة ، ففعلت فنسيت تخليل لحيته _ وقد أمسك على لسانه _ فقبض على يدى وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ماتقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر _ وكان يشق عليه _ كأنك تحب الحياة ؟ فقل ؛ القدوم على الله شديد . وقيه ل لصالح بن مساد: ألا توصى بابنك وعيالك ؟ فقال إني لاستحيى من الله أن أوصى بهم إلى غيره ! ولما احتضر أبو سليمان الداراني أناه أصحابه فقالوا أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب عاسبك بالصغير و يعاقبك بالكبير ؟ ولمها احتضر أبو بكر الواسطى قيه له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيه كم واحتضر بعضهم فبركمت امرأته فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكى ا فقال إن كنت باكية فابكى على نفسك ا فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد دخلت على سرى السقطى أعوده في مرض موته فقلت كمف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بى والذى بى أصابنى من طبيبي فأخذت المروحة لارقحه فقال ، كيف يجد ريج المروحة من جوفه يحترق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق كيف القرار على من لا قرار له ما جناه الهوى والشوق والقلق يارب إن يك شيء فيه لى فرج فامن على به ما دام بى رمق

وحكى أنَّ قومًا من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله ، فأنشأ يقول .

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج وجهك المأمول حجتنا بوم يأتى النـاس بالحجج لا أتاح الله لى فـــرجا بوم أدعو منك بالفرج

وحكى أنّ أبا العباس بن عطا. دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم بجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذر فى فإنى كنت فى وردى ! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات . وقيل المكنانى لما حضرته الوفاة ماكان عملك ؟ فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به ! وقفت على باب قلى أربعين سنة فعكلا مر فيه غير الله حجبته عنه .وحكى عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هؤن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان _ فذكرت محاسنه _ فأفاق فقال من المتعكم ؟ فقلت أنا ! فقال إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لى ؛ إنى بسكل سخى رفيق ، ثم طفى " ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلفافقال: يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله في شيء من عملى ! فقال دخلت على شيمخ لى من أصحاب هذه الصفة _ وهو عليل _ وهو يقول يمكنك أن تعمل عله . وعن المغازلي قال دخلت على شيمخ لى من أصحاب هذه الصفة _ وهو عليل _ وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بى ، ودخل بعض المشايخ على مشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعمل وصنع _ من باب الدعاء _ فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى . وقيل لرويم عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أحسن غيره . ولما حضرت الثورى الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال اله كيف أصبحت فقال أليس ثم أمر ؟ ودخل المزنى على الشافعي رحمة ألله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت فقال أليس ثم أمر ؟ ودخل المزنى على الشافعي رحمة ألله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت

يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا والإخوان مفارقا ولسوء عملي ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تمالي واردا ، ولا أدرى أروحي تصير إلى الجنة فأهنبها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثمم أنشأ يقول:

ولما قسا قلى وضافت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلما تعاظمنى ذنى فلما قرنتسمه بعفوك ربى كان عفوك أعظا فا زلت ذا عفو عنالدنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما ولولاك لم ينوى بإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يابني باب كـنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى ، لاأدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فـآن لى أوان الجواب .

فهذه أقاويلهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الحنوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والسكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحمكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائر عبرة للبصير وفيها تنديه و تذكير لاهل الغفلة ، فإنها لا تريدهم مشاهدتها إلا فساوة ، لانهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائر محملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائر هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد . ويروى عن أبى هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإنا على الآثر . وكان مكحول الدمشق إذا رأى جنازة قال اغدوا فإنا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الآول والآخر لاعقل له . وقال أسيد بن حضير ماشهدت جنازة فحدثتى نفسى بشىء سوى ماهو مفعول به وما هوصائر إليه . ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول والله لانقر عينى حتى أعملم إلى ماذا صرت إليه ، ولاأعلم مادمت حيا . وقال الاعمش كنا نشهد الجنائر فلا ندرى من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البنانى كنا فدهد الجنائر فلا ندرى من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن 1 لانفظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأ نثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكامون إلا في ميرائه وماخلفه لورثته ، ولا يتفكر أفرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ماخلفه ، ولا يتفكر واحد منهم - إلا ماشاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها . ولاسبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بَشرة المعاصي والدنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والاهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاصرين على الجنائر بكاؤهم على الميت ، فطر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسهم لاعلى الميت ، نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لمكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال اللائة وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحائمة وقد أمن ، وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يملى على كانه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيبتني والله هذه الجنائر . وأنشأ يقول :

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو.حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمفار ذئب فلمساغاب عادت راتعات

 أن آداب حضور الجنائز : التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع -كما ذكرنا آدابه وسننه في خن الفقه _ ومن آدا به حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الحاتمة يخطرة لاندرى حقيقتها . ولذلك روى عن عمر بن ذرّ أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا أبافلان فلقد صحبت عمر ك بالنوحيد وعفر ت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذوخطايا ؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا ؟ ويحكي أنّ رجلًا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فاستأجر تحالين وحملتها إلىالمصلى فماصلى عليهأحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن ؛ فسكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها ، فانتشر الحبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان ، فخرج أهل البلد فصلي الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال ؛ قيل لي في المنام الزل إلى موضع فلانترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفورله ، فزاد تعجبالناس ! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره في المساخور مشغولا بشرب الحنر ! فقال : انظري هل تعرفين منه شيئًا من أعمال الحير ؟ قالت : فعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثميابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعه ثم يعود إلى المساخور ويشتغل بالفسق (والثاني)أنه كانأبدا لايخلو بيته من يتيم أويتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحساره إلى أولاده ، وكانشديد التفقدلهم . (والثالث) أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول : يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملاها بهذا الحبيث ؟ يعني نفسه . فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره وعن صلة بن أشم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة و إلا فإنى لا إخالك ناجيــــا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال ، من لم ينس القبر واللي وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدّغدا من أيامه وعدّنفسه من أهل القبور (١١) ، وقبل العلى كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير ان أجدهم خير ان صدق يكفون الالسنة ويذكر ون الآخرة . وقال رسول الله صلى عليه وسلم ، مارأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه (١١) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه ، فبكى و بكيت وبكوا فقل ، ما يبكيكم ؟ ، قلما : بكينا لبكائك ؛ قال ، هذا قبر أمى آمنة بنت و هب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لى ، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبي على ، فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (١٦) ، وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ،

⁽١) حديث الضحاك : قال رجل بارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القرور واللي .. الحديث » تقدم .

⁽٢) حديث ه مارأيت منظراً لملا والقبر أفظع منه ، تقدم في الباب المثالث من آداب الصُّعبة .

⁽٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله عليه وسلم الى المقابر فجلس على تبر وكنت أدنى القوم ... الحديث ، وقيه ه هذا قبر آمنة بلت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ... ه وتقدم فى آداب الصحبة أيضاً ، ورواء ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وقيه ذكر لعمر بن الحطاب ، وآخره عند ابن ماجه مختصراً وقيه أبوب بن هافى ضفه ان معين وقال أبو حاتم صالح .

فسئل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنة والنار فلاتبكي ا وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ ١١ ، وقيل إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هــذا شيء لم تـكن تصنعه ؟ فقال ذكرت أهمل القبور وماحيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما . وقال مجاهمه أوَّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ، هذا ماأعددت لك فما أعددت لى ؟ وقال أبو ذرّ ألا أخبركم بيوم فقرى ، يوم أوضع في قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكروني معادى وإذا قمت لم يغتابوني وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول : ياأهل القبور مالى إذا دعو تكملاتجيبوني ا ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزبز لبعض جلسائه : يافلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه ، وإنك لو رأيت الميت بمدثلاثة في قبرهلاستوحشت من قربه بعد طول الانس منك به ! ولرأيت بيتاتجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلي الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خرّ مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها المقبور في حفرته والمتخلّى في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت ؟ ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خاركا يخور الثور . وقالحاتم الأصم من مربالمقابر فلم يتفكرلنفسه ولم يدع لهم فقدحان نفسه وحامهم . وكان بكر العابد يقول ياأماه ليتك كنت بى عقيها إن لابنك في القبر حبساً طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيلاً . وقال يحيى بن من معاذ : يا بن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أن تجيبه ؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليَّه دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك ١ وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه ! وعاينتم أعمالكم فواعملاه ! ثم يقول غدا عطاء فىالقبور غدا عطاء فىالقبر ر ، فلايزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عنذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، فىكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشا. الله ثم يقول ﴿ رَبِ ارجَمُونَ لَعَلَى أَعْمَلَ صَّالَحًا فَيَا تَرَكَتَ ﴾ يرددها ، ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل . وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم ، فتقولً يا ابن آدم لم لاتذكر طول بلاك ومابيني وبينكشيء ا وقالميمون بن مهرانخرجت مع عمربن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى تم أقبل على فقال ياميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهلالدنيا فى لذاتهم وعيشهم 1 أماتراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلي وأصابت الهوام مقيلا في أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ماأعلم أحدا أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يائابت لايغرنـك صموت أهلها فـكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلىجنازة زوجها الحسن بنالحسن فغظت وجهها وقالت :

⁽۱) حديث عثمان : كان لذا وقف على قبر كي حتى يبل لحيته وقيه : لن القبر أول منازلالآخرة . أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة .

وكانوا رجاء ثم أمســوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة فلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يتسوا فانقا وا . وقال أبوموسى التميمى : توفيت امرأة الفرزدق فحرج فى جنازتها وجوه البصرة _ وفيم الحسن _ فقال له الحسن : يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لاإله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافى أشد من القبر التهابا وأضيقا إذا جاءنى يوم القيامــة قائد عنيف وسؤاق يسوق الفرزدقا لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغاول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحانها من منسكم المغمور فى ظلمانها ومن المكرّم منسكم فى قعرها قد ذاق برد الآمن من روعانها أما السكون لذى العيون فواحد لا يستبين الفضل فى درجانها لو جاوبوك لاخبروك بألسن تصف الحقائق بعد من حالانها أما المطيع فنازل فى روضة يفضى إلى ما شاء من دوحانها والجرم الطاغى بهيا متقلب فى حضرة يأوى إلى حيانها وعقارب تسعى إليه فروحه فى شدة التعذيب من لدغانها

ومر داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألحدوكا فكيف أذوق لطعم الكرى وأنت بيمناك قد وسيدوكا

ثم قالت : يا ابناه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار : مردت بالمقبرة فأنشأت أقول :

> أتيت القبدور فناديتها فأين المعظم والمحتقر وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تضانوا جميعاً فما مخـبر وماتوا جميعاً ومات الخبر تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيها ترى معتـبر

قال: فرجعت وأنا باك

أبيـات وجدت مكنوبة على القبور

وجد مكتوبا على فير

تناجيك أجداث وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقدك معمور الجوانب محمكم وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك : مزرت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

یمـر أقاربی جنبات قبری كأن أقاربی لم يعرفونی ذوو الميراث يقتسمون مالی وما يألون أن جحدوا ديونی وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيـالله أسرع ما نسـونی

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعدّ عليه المفظ والنفس أصبحت ياغافلا فىالنقص منغمسا وأنت دمرك فى اللذات منغمس لا يرحم الموت ذا جهل لنزته ولا الذى كان منه العلم يقتبس كم أخرس الموت فى قبر وقفت به عن الجواب لساءا ما به خرس قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الاجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا ;

وقفت على الاحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان فلما أن بكيت وفاض دمعى رأت عيناى بينهــم مـكانى

ووجد على ةبر طبيب مكتوبا:

قد قلت لما قال لى قائل صار لقان إلى رمسه فأين ما يوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسه هيمات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على ةبر آخر مكتوبا :

يا أيها النباس كان لى أمل قصر برعن بلوغه الآجل فليتق الله ربه رجل أمكنه فى حياته العمل ماأناوحدىنقلتحيث ترى كل إلى مثقله سينتقسل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم علم الذي هو من أيام عمره الذى هو مضيع له لـكان ذلك أحب إلهم من الدنيا بحذا فيرها ، لانهم عرفوا قدر الاعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأن

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها ، فوطن نفسك على التحسر على تضييعهما عند خروج الامر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخالى فى الله _ فيها يرى النائم _ فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقرلها _ يعنى الحمد لله رب العالمين . أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانا قد قام فصلى كعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزلهـ في تقدمه عليه في الموت ــ منزلة مالو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على اقرب ، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر . وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لاسيها وقد ورد في موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لأن أفدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله "" ، وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد ،ن القلب ، وقال زيد بن أ. لم : توفى ابن لداود عليك السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له : ما كان عدله عندك؟ قال ملم الأرض ذهبا ! قيل له : فإن لك من الآجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار ، فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو اثنــان ؟ قال د أو اثنان (٢٪ ، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . وقف محمد بن سلمان على قبر ولده فقال: اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوني . ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال : اللهم إني قد غفرت له ماوجب لي عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعراق على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فیه من بری فهب له ما قصر فیه من طاعتك . ولما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ نام أبوه عمر بن ذرّ ـ بعد ماوضعه في لحده ـ فقال: ياذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذرّ متمتني به مامتعتني ووفيته أجله ورزقهولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتكوطاعتي، اللهم ماوعدتني عليه من الآجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب ليعذابه ولا تعذبه . فأبكي النـاس ثم قال عند الصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة ياذرّ وما بناإلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا و تركناك ولو أقمنامانفعناك ونظر رجل إلى اسأة بالبصرة فقال: مارأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن ا فقالت: يا عبد الله إنى لني حزن مايشركني فيه أحد ، قال : فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان بلميان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف ذبح أني الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنابه إلا متشحطًا في دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله ، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدّة الحر ، قالت ؛ فأرداني الدهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّه الجزع ، فــا من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما پدفعه الله في كل حال فهو الاكثر •

⁽۱) حدیث « لأن أقدم سقطا أحب الى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله » لم أجد فيه ذكر « مائةفارس » وروى ابن ماجه من حدیث أبی هر برة « اسقط أندمه بين يدى أحب الى من فارس أخلفه خانى » .

بيان زيارة القبور والدعاء المبيت وما يتعلق به

زبارة القبور مستحة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قرور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد (١) . .

⁽١) حديث : نهبه عن زيارة القبور ثم اذنه في ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد نقدم .

⁽۲) حدیث علی «کنت نهیتکم عن زبارة التبور فزوروما فإنها تذکرکم الآخرة غیران لاتقولوا هجراً » رواه أحمد وأبو یهلی فی مسده وا بن أبی الدنیا فی کتاب الفبور واللفظ له ولم یقل أحمد وأبو یهلی « غیر أن لاتقولوا هجراً » وفیه علی بنزبدن جدعان عن ربعه بن التابغة غال البخاری لم یسمح وربیعة ذکره ابن حبار فی اشقات (۳) حدیث : زار رسول الله صلی الله علیه وسلم قبر أمه فی ألف مقم علم برباکیا أکثر من یوئذ أخرجه ابن أبی الدنیا فی کتاب الفبور من حدیث بربدة وشیخه أحمد بن عمر ال الأخذی متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قریبا من ألف را كب وفیه أنه لم یأذن له فی الاستنفار لها

⁽٤) حديث و وقال في هذا اليوم أذن لى في الزيارة دون الاستنفار ، تقدم في الحديث قبلة من حديث بريدة أنه لم يؤذن لو في الاستنفار له ما ورواه مسلم من حديث أي هربرة ه استأذنت ربي أن استنفار له عليا ذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى ه (٥) حديث ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة بوما من المتأبر نقلت : يأم المؤمنين من أبن أقبلت ؟قالت : من قبر أخي عبد الرحن قلت : أليس كان رحول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نهم ثم أمن بها . أخرجه ابن أبي الدنيا في الفيور بإسناد جيد (٦) حديث أبي ذر «زر الفيور تذكر الآخرة واغسل الموتى، قان مالجة جسد خاو موعظة بلينة . . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الفيور والحاكم بإسناد جيد (٧) حديث ابن أبي مليكة « زوراموتاكم وسلموا عليهم وملموا عليهم ، . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مه المواسناده حسن . (٨) حديث « من زار قبر أبويه أو أحدهاف كل جمة غفر له وكتب برا » أخرجه الطبراني في الصنيد والأوسط من حديث أبي هربرة وابن أبي الدنيا في الفيور من رواية محمد بن النهان برقمه وهو ممضل أخرجه الطبراني في الصنيخه عند الطبراني يحبى بن العلاء البجل متروك (٩) حديث ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه وهو عاق في فيدعوالته فيما من بعدما فيكنبه الله من البارين » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحبى بن عقبة أمي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن أنس وعيي بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاها ضيف .

وجبت له شفاعتى (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من زارنى بالمدينة محتسباك ف له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (۱) ، وقال كدب الآحرار : ما من فجر يطلع إلا نول سبعون ألفا من الملائدكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الارض خرج فيسبعين ألفا من الملائكة يوقرونه

والمستحب في زيارة النبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ولا يمسحالقبرولايمسه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول :السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يدبه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم المصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس غنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم (١٣) ، وقال سلمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت يارسولالله مؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا س الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا من بقبر لايعرفه وسلم عليه ردعليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصها في مناى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلي ، فقلت أين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بِـكر ابن عبد الله المزنى فنتلاق أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيات آ بليت الاجسام وإنما تتلاق الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الآيام كلها؟ قال لفضل بوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسسع يزور يوم الجمعة فقيــل له لو أخرت إلى يوم الاثنين؟ قال بلغني أن المرتى يعلمون بزؤارهم يوم الجمعة ويُوما قبله ويوما بعده . وقال الصحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذاك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . وقال بشر ا بن منصور لمساكان زمنالطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتـكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا بزيد على هذه الـكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصر فت إلى أهلى ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينها أنا نائم إذا بحلق كثير قد جاءوني فقلت ماأنتم وما حاجتكم؟ قالوا نحن أهل المفار قلت ما جاء بكم؟ قالوا إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التي كنت تدعر لنا بها ، قلت فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاملمافقالت لى يابشار بنغالب هداياك أتينا على طبق من نور مخرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الاحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلكالدعاء علىأطباق مننور وخمرمناديل الحرير ثم أتىبها لميت فقيل4 هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماالميت في قبره إلاكالغريق المتغوث ينتظر دءوة تلحقه

⁽۱) حدیث «منزار قبری فقد وجبت له هفاعتی» تقدم نی أسرار الحج (۲) حدیث « من زارنی بالمدینة محتسباً کاشتله شفیماً وشهیداً یوم القیامة » تقدم فیه (۳) حدیث عائشة « مامن رجل یزور قبر أخیه ویجلس عنده الا استأنس به ورد علیه حتی یقوم » أخرجه ابن أبی الدنیا فی التمهید من حدیث ابن عباس نموه وصعحه عبد الحق الأشبیلی ه

من أبيه أو اخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن مدايا الآحياء للأموات الدعاء والاست: فار (١١) وقال بعضهم مات أخ لى فرأيته فى المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك ؟ قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالى لرأيت أنه سيضر بنى به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الآزدى شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال و إذا مات أحدكم فسوتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثانية فإنه يشول أرشدنا يرحمك الله والحكن لا تسمعون فيقول له اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محدا رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن إماما ،فإن منكرا ونكيرا يتأخر كل واحدمنهما فيقول انطاق بنا ما يقعدنا عند ، ذا وقد لقن حجته ، وبكون الله عز وجل حجيجه دونهما ، فقال رجل يارسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال و فلينسبه إلى حواء (٢٠) ،

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روى عن على بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد بن قدامة الجوهرى معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لاحمد يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر بن اسماعيل الحلمي ؟ قال ثقة : قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم و قال أخبرنى مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك ، فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزى سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلنم المقابر فاقر موا بفاتحة الكتاب والمعقرة تين وقل هو الله أحمد ، واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فإنه يصل إليهم ، وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فنزات الحندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول اند آذيتني منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلنون ونحن فعلم ولا نقدر على العمل ثم قال الركعتان اللنان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرشهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نورا مثل الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزا. وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال كانت عجوز فى عبدا قيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغى أنها عوتبت ، فى كثرة إتيانها المقابر فقالت إنّ القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتى القبور فسكأنى

⁽۱) حديث ه ماالميت في قبرة الاكالمنوبي المتنوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أومن أخيه أو صديق له .. الحديث، أخرجه أبو منصور الحالمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عدالواحد قال الذهبي حدث عن مشام بن عمار محديث باطل (۲) حديث سعيد بن عبد الله الأزدى قال : شهدت أبا أمامة الباهلي وهوني المنزع فقال : ياحيد إذا مت فاصنوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ه لذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان أبن فلانة ... الحديث ، في تلقين المبت في قبره أخرجه الطبراني بإسماد ضعيف .

ا فظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى أفظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الاجفان الدسمة ، فيا لها من فظرة لو أشربها العاد قلوسم ما أنكل مرارتها للانفس وأشد تلفها للابدان ، بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ماذكره عمر بن عبدالعزيز ؛ حيث دخل عليه فقيه فته بجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتي بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقة ان فسالمنا على الحدين وتقلست الشفتان عن الاسنان ، وخرج الصديد من الفي وانفتح الفيم ، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب بماتراه الآن .

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا مات ساحكم فدعوه ولا تقعوا فيه (۱) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لاتسبوا الأموات فإنهم قد أنضوا إلى ما قدّموا (۲) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لا تذكروا ، وتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسهم ما هم فيه (۳) ، وقال أنس بن مالك: مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال عليه السلام ، وجبت ، ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبت ، فسأله عمر عن ذلك فقال ، إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له الجنة منها هم إن العبد لمموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعمل لملائكته أشهدكم أنى قدة بلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن على في عبدى (د) . .

الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى النهبر إلى نفخة الصور بيسان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فمها .

فظنّ بسنهم : أنّ الموت هو العدم ، وأنه لاحشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر . وقال آخرون : إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الارواح دون الاجساد ، وإنّ الاجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا .

وكل هذه ظنون فاسدة وماثلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والاخبار أنّ الموت معناه تغير حال فقط وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد

⁽١) حديث ٥ لذا مات صاحكم فدعوه ولاتفعوا فيه ٧ أخرجه أبو داود من حديث عائدة .إسناد جيد

 ⁽٢) حديث « لانسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا لمل ماقدموا » أخرجه المغارى من حديث عائشة أبضاً

⁽٣) حديث و لاتذكروا ، وتاكم للا بخبر . . الحديث ، أخرجه إبن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة باسنادجيد ، تتصرأ على ماذكر منه هنا بلفظ ه هلمكاكم، وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي هو العلم الله عليه وسلم فأتنوا عليها شرأ فقال وعلم عليه علامة النسائي والعلم الى حديث أبي هريرة و لن العبد لمجوت فيثني عليه النوم الثناء يدلم الله منه غيرذك . . الحديث أخرجه أحمد من رواية شبيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه على ربه عزوجل و مامن عبد مسلم يموت فيمهد له الاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير لا قال الله عزوجل قدفيات شهادة عبادى على ماعادوا وغفرت لهماأهام »

انقطاع تصرفها عن الجسد بخروح الجسد عن طاعتها ، فإن الاعضاء آلات المروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالآذن وتبصر بالدين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب ، والقلب هينا عبارة عن الروح ، والروح تعلما لاشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والنم والمحد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيستى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعمل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد منها علم بما حكم به على كل عبد من عباده . وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل المدركة باقيه مستعملة لبعض الاعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والمرت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها وكل الاعضاء آلات والروح هي المستعملة لها ، وأعني بالروح : المدني الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الافراح والمناقب منها القلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الافراح والمناقب منها الموم والإدراكات ، ولا بطل منها الافراح والمناقب من أن يكون آلة له ، وذلك لا يموت - أي لا ينعدم - وموني الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كا أن معني الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالموت زمانة مطلقة في الاعضاء كلها وحقيقة الإنسان بنفي المدود وهي باقية .

نعم تغير حاله من جهتين: (إحداهما) أنه سلب منه عينه وأذبه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وساب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولافرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هوالفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والآلم واحد في الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له في الدنيا شيء بأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد المرت ويصعب شقاؤه في مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلابذ كرالله ولم بأنس الا به عظم فعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

(والثانى) أنه ينكشف له بالموت مالم بكن مكشوفا له فى الحياة ، كاقد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا له فى النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأوّل ما ينكشف له ما يضره و بنفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كناب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعبد ذلك يقال له (كنى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتشتعل فته نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لاجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريدالزاد لعينه . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ماكان يوده

واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمه تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقديمني عنه ، ويكون حال المتنعم بالدنياالمطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتبادا على أن الملك يتساهل في أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأ خذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قدد و نت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخرف والمختجلة والحياء والنحمر والندم ، فهذا حال الميت الفاجر المختر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته قموذ بالله منه ، فإن الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عندا لموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ،

ذم لا يمكن كشف الغطاء بمن كنه حقيقه الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول م الروح من أمر ربى الله ، فليس لا حد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخباركثيرة (أما الآيات) فاورد فى الشهداء إذنال تمالى ﴿ ولانحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أموانا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾ ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ، فقيل يارسول الله أتنادبهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده إنهم الاسمع لهذا السكلام منسكم إلا أنهم الايقدرون على الجواب (٢) ، فهذا نص فى روح الشقى وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص أرواح فى الشهداء . والا يخلو الميت عن سعادة أوشقاوة ، وقال صلى الله عليه وسلم ، الفر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٢) ، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير ، وإنما يتأخر بعض أنواع المذاب والثواب دون أصله .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، الموت القيامة فن مات فقد قامت قيامته (١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إنكان من أهل الجبة فن الجنة وإنكان من أهل النار فن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة (٥) ، وليس يخنى مانى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال وعن أبى قيس قال : كنا مع علقمة فى جنازة فقال : أماهذا فقد قامت قيامته وقال على كرمالله وجهه :

⁽۱) حدیث : لمنه لم یؤذن لرسول الله صلی الله علیه و سلم أن یتکلم فی الروح . متفق علیه من حدیث ابن مساود فی سؤال البهود عن الروح و رول قوله تمالی (ویدالونك عن الروح) وقد تقدم . (۲) حدیث : مدائه من قتل من سنادید قریش یوم بدر « یافلان قد و جدت ماوعدنی ربی حقا ... ، أخرجه سلم من حدیث عمر بن الخطاب . (۳) حدیث « القبر إما مفرة من حدیث الرار أو روضة من ریاض الجنة ، أخرجه الترمذی من حدیث أبی سعید و تقدم فی الرجاء و الحوف .

⁽٤) حديث أنس * الموت النيامة من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعف وقد تقدم

⁽٥) حديث ه اذا مات أحدكم عرض عليه مقمده بالمداة والعيشي ... الحديث ، متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هر برة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (۱) ، وقال مسروق : ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الواسد : كنت أمشى بوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال : الموت ، قلت : فإن لم يمت؟ قال : يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لآنه لا يحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن ، وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب الأنس بالدنيا ، والآنس بهن لابد من فراقه غاية الشقاء ، فكل ماسوى الله وذكره والآنس به فلا بد من فراقه غاية الشقاء ، فكل ماسوى الله وذكره والآنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو ، إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا و تبرم بها ولم يكن له أفس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه عن الدنيا و تبرم بها ولم يكن له أفس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه عائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منهى النعيم واللذات وأكل اللذات الشهداء الذين قنلوا في سبيل الله الأنهم ما أقدموا على الفتال إلا فاطمين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتافين إلى لقاء الله راضين بالفتل في طلب مرضاته ، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع ، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها ، فعا أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ماباعه إذا فارقه ! وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الاحوال ولمكن لايدركه الموت عليه فيتغير . والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان عاريده قال الله تعالى ﴿ وهم مايشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة الحنات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كا قال الله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فكان هذا أمم انكشف لارباب الفلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع لجميع أحاديث تأخير . وهذا أمم انكشف لارباب الفلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع لجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيه مه بعبارة أخرى ، فقد روى عن عائشة رضى الله علم بنو بشرك الله بالحير فقال ، وكان قد استشهد أبو ، يوم أحد فقال : الشهرك الله بالحير فقال ، وكان قد استشهد أبو ، يوم أحد فقال : فقال : يارب ماعبدتك حق عبادتك أنمي عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك ماشك أخلى أبل المنات أمنى أنك إلها لاترجع (۱۱) ، وقال كمب : يو جد رجل فى الجنة يبكي فيقال له : لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال ؛ أبلك إلها لاترجع (۱۱) ، وقال كمب : يو جد رجل فى الجنة يبكي فيقال له : لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ،

⁽¹⁾ حديث أبي هريرة و من مان غريبا مان شهيدا ووق فتاني القبر ، أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبروقال ابن أبي الدنيا و فتان » (٢) حديث عائمة و ألا أبصرك ياجابر ... الحديث، وفيه و لمن الله حيا أباك فأقده بيزيديه . الحديث، أخرجه ابن أبي الحديث بابر و ألاأبديرك بمما لني الله به أباك، أخرجه ابن أبي الحديث به وفيه فقال و ياعبدي عن على أعماك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سيعانه إنه سبق مني أنهم لايرجون ، .

و يكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الاكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيســــه أنواع الاشجار والازمار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات . أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لاهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه (١) ، فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم . وقال صلى الله عليه وســلم . إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بـكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه (") ، وكذلك المؤمن بجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم بحب أن يرجع إلى الدنياكما لا يحب الجنين أن برجع إلى بطن أ.ه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه (٣) ، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه . وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلا فو اراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئًا وإنمــا الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة ، وعن عمرو بن دينار قال : مامن ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم . وقال مالك بنأنس : بلغيأنأرواج المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت . وقال النعان ابن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول . ألا إنه لم يبق من الدنيا إلامثل الذباب يمور في جَوْهَا فَاللَّهُ اللَّهِ فَى إَخْوَانَكُمْ مِن أَمْلُ اللَّهُ وَرَ وَإِنْ أَعْمَالَكُمْ تَمْرَضَ عَليهم لَذَا ، وقال أَ وَهُريْرَةَ ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم . لا تفضحوا مُوتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أُوليائكم من أهل القبور (٥) ، ولذلك قال آبو الدرداء: ﴿ لَلْهُمْ إِنِّي أَعُودُ بِكُ أَنْ أَعْمَلُ عَمَلًا أَخْرَى بِهُ عَنْدُ عَبْدَاللَّهُ مَنرواحة - وكان قد مات وهو خاله - وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرضالسابعة . وقال أبو سعيد الخدرى : سممت رسرل الله صلى الله عليه وسلم يقول . إن الميت يدرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبر. ٧ وقال صالح المرى بلغي أن الآرواح شلاقي عنــد الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان مأواك دن أن الجسدين كنت في طيب أوخبيث ؟ وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يثرقبون الاخبار ، فإذا أنه م الميت قالوا . ما فعل فلان ؟ فيتول : ألم يأتـكم . . . أو

اسمه معاوية أو ابن معاوية نسمه عبدالماك بنحسن .

⁽١) «ديث : قال لرجل مات « أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأملها نان كان قد رضى فلايسر. أن يرجم الى الدنيا كا لايسر أ دمكم أ يرجم لمل بطن أمه » أخرجه إن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله نقات .

⁽۲) حدیث « لمن مثل المؤمن فی الدنیا کش الحنین فی بطن أمه إذا خرج من بطنها کی علی مخرجه حتی إذا رأی الضوء ووضع لم یحب أن يرجع لمل مکانه » أخرجه ابن أبی الدنیا فیه من روایة بقیة عن جابر بن غام السانی عن سلم بن عاصر الجنائری مرسلا مکذا (۳) حدیث : قبل لرسول الله صلی الله علیه وسلم لمن فلا المدمات فقال مستریح أو مستراح منه » متفق علیه من حدیث أبی فتادة

بلفظ : من عليه بجازة فقالَ ذلك وهو عند ان أب الدنيا في الموت باللفظ له ي أورد. المصنف

⁽٤) حديث النمان بن بشير : ألا لمنه لم ي ني من الدنيا الا مثل الذباب يمور في جوفها فالله الله في لمخوانسكم من أمل القبور ، فاز أعمالسكم تسرض عليهم » أخرجه فين أني الدنيا أبو بكر بزلال من رواية مالك بن أدى عن النمان من قوله « اللهالله» ورواه بكذله الأزدى في الضفاء وقال لايصح لمسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتمديل بكماله في ترجمة أبي اسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول ، قال الأزدى لايسح اسناده وذكر ابن حباز في النقات ملك بن أدى

⁽ه) حُدَيث أبى هريرة ، لأنفضحوا موتاكم بديئات أعماله كم في ته تعرض الولياله كم من أحل التبرر ، أخرجه أبن أبي الدنيا والمحامل بإسنا اضعيف ولأحمد من رواية من سمم انسانا عن أنس « لمن أعماله كم تعرض على أنار بكم وعشائركم من الأموات . . . الحديث ا (٢) حديث أبي سعيد الحدري « ال الميت بعرف من يتسله ومن يحمله ومن يدايه في قبره » رواه أحمد من رواية رجل عنه

⁽٦٣ - لمحياء علوم الدين - ٤)

ما قدم عليكم ؟ فيقولون ﴿ إِمَا لِلهَ وَإِمَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ سلك به غير سبيلنا . وعن جمفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كا يستقبل الغائب . وقال مجاهد ؛ إن الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره . ودوى أبو أيوب الانصارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كا يتلق البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان فى كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلاز وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوّجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال : مات قبلى قالوا ﴿ إِنَا لِلهَ وَإِمَا إِلَيْهِ وَأَجْعُونَ ﴾ فلانة ؟ وهل تروّجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال : مات قبلى قالوا ﴿ إِنَا للهِ وَإِمَا إِلَيْهِ وَأَجْعُونَ ﴾ فلانة ؟ وهل أمه الهاوية (١) . .

بيــاد كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الاحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول القبر للميت حين يوضّع فيــه ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي أَلَم تعلم أبي بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غزك بي إذ كنت تمر بي فذاذا ؟ فإن كان مصلحا أجاب عنه بحيبالقبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عنالمنكر فيقول القبر : إنى إذا أنحوّل عليه خضرا ويعود جسده نوراً و أصعد روحه إلى الله تعـالى ^{٢١} ، والفذاذ هو الذي يقدّم رجلاً ويؤخر أخرىهكذا فسره الراوي . وقال عبيد بن عمير اللبشي: ليسمن ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعًا خرج مسرورًا ، ومن دخلني عاصيًا خرج مثبورًا . وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أوأصابه بعضمايكره ناداه جيرانه منالموتى : أيها المتخلف فىالدنيا بعد إخوانه وجيرانه أماكاناكفيئامعتبر أماكان لك في متقدّمنا إباك فكرة ، أمار أبت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت مافات إخو انك؟ وتناديه بقاع الأرض ؛ أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض من غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلىالقبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلىالمنزلالذىلابدً له منه ؟ وقال يزيدالرقاشي : بلغنيأن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم الطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الآخلاء والاهلون فلاأنيس لك اليوم عندناً . وقال كعب : إذا وضعالعبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحجوا لجهاد والصدقة ، قال : فتجيء ملائكة الدذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لـ كم دلميه فقد أطال بي القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لاسبيل لـكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لـكم عليه فيأ نونه من قبل جسده فيقول الحبج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأنعب بدنه وحبج وجاهد لله فلاسبيل لكم عليه . قال: فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تمالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لـكم عليه . قال فيقال له : هنيمًا طبت-يا وطبت ميتا . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة

⁽۱) حدیث أبی أبوب ه ان نفس المؤمن اذا قبضت تلفاها أهل الرحمة من عند افته كما يتلق البشير يتولون انظروا أخاكم حق يستريح ، أخرجه ابن أبی الدنيا ئی كتاب الوت والطبرانی فی مستدالشامیين بإسناد ضعیف ، ورواه ابن المبارك فی الزهد، وتوفاعلی أبی آبوب بإسناد جدد و رفعه ابن ساعد فی زوانده علی الزهدوفیه سلام الطویل ضعیف و هوعند النسائی و ابن حبان تحوه من حدیث أبی هر برة باسناد جدد (۳) حدیث « يقول القبر للمیت حبر بوضع فیه : و يحك يا ابن آدم ما غرك بر ألم تعلم أبی بهت الفتنة . . . الحدیث ، الحدیث الفتنا فی کتاب الفبور و العابرانی فی مستداشا، نبین و أبو أحد الحاکم فی السكنی من حدیث آبی الحجاج الحالی باسناد ضعیف ،

فيستضى. بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة : بلغنى أن رسول الله صلىالله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شى. إلاقبر، ويقول ويحك ابن آدم أليس قد حذر تنى وحذرت ضبق ونتنى وهولى ودودى فماذا أعددت لى . ١١) .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عاليه وسلم على قبره منكساً رأسه ثم قال و اللهم إلى أعوذ بك من عذاب القبر ، ثلاثًا ثم قال و إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مدّ بصره ، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السها. والأرض وكل ملك في السها. وفتحت أبواب السهاء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الـكرامة فإنى وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذاولوا مديرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبي محمد ، صلى الله عليه وسلم قال . فينته رانه انتهارا شديدا وهي آخر فرصة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أنقدصدةت وهي معنى قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم يأتيـه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثيــاب فيقول : أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح والله ماعلمت أن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا ، قال ، ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ، قال . وأما الـكافر فإنه إذاكان فى قبل مَن الآخرة وانقطاع من الدنيا نولت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السياء والأرض وكل ملك فى السياء وغلقت أبواب السياء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إنى وعدته ﴿ منها خلقنا كم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وأنه ليسمع خفق نه الهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك ومادينك؟ فيقول : لاأدرىفيقال : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيل الوجه منتن الربح قبيل الثياب فيقول: أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول: بشرك الله شرا من أنت؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، والله إن كنت لسريعا في معصية الله بطيئًا عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد لواجتمع عليهااالثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار ترابا ، فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ، ثم تعود فيهالروح فيضر بهبهابين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين ، قال . ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١١ ، وقال محمد بن على مامن ميت بموت إلا مثل له

⁽۱) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير : بلنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ه لمن الميت يقمد وهو يسمم خعاو سفيعيه فلا يكلمه الا قبره يقول و بحك باان آدم الحديث ... ، أخرجه ابنأبي الدنيافي القبور هكذا مرسلا ورجاله تفات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلنني ولم يرفعه . (۲) حديث البراء : خرجنا بم رسول الله عليه وسلم في خبرة على قبره منسكما رأسه ثم قال « اللهم لمني أعوذ بك من عذاب القبر .. الحديث ، بطوله =

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة فال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئانه . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن المؤمن إذا احتضر أنته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال ; أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية و مرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت علمها الحريرة وبعث بها إلى علمين . وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا وبقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجرة وأن لها نشيشا ويظوى عليها المسح ويذءب بها إلى سجين ١١ ، وعن محمد بن كمب الفرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجمو ن لعلى أعمل صالحا فيها تركت ﴾ قال أى شيء تربد في أى شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال و تغرس الغراس وتبنى البنيان وتدقق الانهار؟ قال: لا ، لعلىأعمل صالحافياتركت ، قال : فيقول الجبار ﴿ كَلَا إنهاكُلُمة هو قائمُلها ﴾ أى ليقولنها عند الموت . وقال أبو هريرة : قال الني صلى الله عليه وسلم . المؤمن في قبره فيروضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيهاذا أنزلت ﴿ فَإِنْ لِهُ مَعَيْشَة صَنْـكا ﴾ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال , عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ماالتنين ، تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رموس بخد شونه و يلحسونه وينفخون في جسمه إلى نوم يبعثون ٢٠١ ، ولا ينبغيأن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الاخلاق المذمومة منالكبروالرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيامها هي المهاحكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوى منهايلدغ لدغالتنين والضميف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذى إبذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنورالبصيرةهذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أنمقدار عددها لايوقف عليه إلا بنور النبقة . فأمثال هذه الاخبار لهــا ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولـكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الـكافر في قبره مدّة ونراقيه و لا نشاهد شيئًا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثالهذا

(أحدهما) وهو الأظهر والاسم والاسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه الدين لاتصلح لمشاهدة الامور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة وضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لانؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائك والوحى أهم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي مالا تشاهده الامة فكيف لاتجوز هذا في الميت ؟ وكاأن الملك لايشبه الآدميين والحيوا بات فالحيات والعقارب الى تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالما بل هي جنس آخر و تدرك بحاسة أخرى .

⁼ أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وتال صحيح على شرط المنبخين وضعه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً .

⁽۱) حديث أبي هربرة « أن المؤمن أذا حضر أتنه الملائسكة بحربرة فيها مدك وضبائر الرعمان .. الحديث » أخرجه ابن أبي الهذا وابن حبان مع اختلاف والبزار بافظ المصنف . (۲) حديث أبي هربرة « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبسون ذراعا .. الحديث » ورواه أب حبان .

(المقام الثانى) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد برى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم إذلك حتى تراه يصبح فى نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من سكانه ،كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كا يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حقك غير مشاهد . وإذا كان العذاب فى ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ل الذى يلقاك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الآلم بل عذابك في الآثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الآثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لايمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة ، فإيه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات المهلمكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت الممشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمني معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والو صال . بل هذا بعينه هو أحد أبواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده رأفار به ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لاير جو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ اليس يعظم شقاؤه ويشتد عذا به ويتمني ويقول ليته لم بكن لي مال قط ولاجاه قط فكنت لاأتاذي بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحـــد

فاحال من لايغرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على مافانه من فعيم الآخرة والحجاب عن الله عز رجل فإن حب غيرالله يحجبه عن القاء الله والتنعم به و فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته مافاته من فعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لايتبع نار الفراق إلانار جهنم كما قال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إبهم لصالوا المحمم) وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لفاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه الدوائن والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليدمل العاملون.

والمقصود أن الرجل قد بحب في سه بحيث لو حير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب ، وحبه الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فايستعدّ لهذه اللدغات ؛ فإن الموت بأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ، وبأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاه، وبيأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك أذا مات ، لانا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذاب بعد الموت أشد . لانه في الحياة يتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة يتسلى باسباب بشغل بها حواسه من بجالسة و محادثة و يتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذقد انسد عليه طرق التسلى وحصل الياس . فإذن كل قييص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه بنق متأسفا عليه ومعذبا به ، فإن كان يخفا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون ، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكما أن حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ، صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين (۱) ، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شت فاستكثر وإن شقت فاستقلل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك .

و إنمـا تـكثر الحيات والعقارب في قبور الاغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمـان في حيات القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام فقال له : يا بنى عظنى ، قال : لا تخالف الله تعالى فيها يريد ، قال : يا بنى زدنى ، قال : يا أبت لا تطيق ا قال : قل ، قال : لا تجمل بينك و بين الله قميصا . فما لبس قميما ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الآول وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الآول وأثبت الثاني . ومنهم من لم يثبت إلا النالث . وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لعنيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الآنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الآنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدّق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذى أوصيك به أن لا تكثر فظرك في تفصيل ذلك ولانشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفها كان ، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا عاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عداب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول و تضييع زمان .

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم . إذا مات العبد أناه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ماكنت تقول في النبي ، فإنكان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقرلان إنكنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره . ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال لا أدرى كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا قال لاأدرى

⁽١) حديث و صاحب الدرهم أخف حسام من صاحب الدرهين ، لم أجد له أصلا .

كنت أسمع الناس يقولون شيئًا وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للارض التئمى عليه فتلتثم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا برال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك (١) ، وعنعطا. بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه د ياغر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغساوك وكفنوك وحنطوك ، ثم احتملوك حتى يضموك فيه ، ثم يهيلوا عليَّك التراب ويدفنوك ، فإذا الصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف بجزان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك ياعمر ؟ . فقال عمر : ويكون معى مثل عقلي الآن؟ قال . نعم ، قال . إذناً كفيكهما أنه ، وهذا نص صريح في أن العقل لايتغير بالموت إنما يتغير البدن والاعضاء . فيكون الميت عافلا مدركا عالما بالآلام واللذات كاكان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لاينقسم في نفسه هو المدرك الأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يـ ق إلا الجزء المدرك الذي لايتجزأ ولا ينقسم لـكان الإنسان العاقل بكاله قائمـا باقيا وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لايحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنسكدر : بلغني أنَّ السكافر بسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدما سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة ، لاتراه فتتقيه ولاتسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة : إذا وضع لليت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرا.ته القرآن . وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقدكان يبسطى للصدقة والدعاء لاسبيل لـكم عليه ، وإن جاء من قيل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تفف الصلاة والصبر ناحية فيقولأما إنى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجمك فنعم الآخلاء أخلاؤك ونعم الاصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة لجلس على رأس القبر ثم جمل ينظر فيه ثم قال. يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله ٣٠ ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنّ للقبر ضغطة ولو سلم أونجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤٪ ، وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلىالله عليهوسلم وكانت أمرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلمــا انتهينا إلى القبر فدخله انتقعوجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يارسول الله رأيناً منك شأنا فم ذلك ؟ قال . ذكرتضغطة ابنتي وشدّة عذاب القبر ، فأتيت فأخبرت أنّ الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سُمع صوتها مابين الخافةين (٠) . .

⁽۱) حديث أبي هريرة « اذا مان العبد أناه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدها منكر وللآخر نسكير ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف . (۲) حديث عطاه بن يسار ؟ قل : قال رسول الله على الله عليه وسلم له سر الخطاب « ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطاق بك قومك فناسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور همكذا مرسلا ورجاله نقات قال البيهتي في الاعتقاد ، رويناه من وجه محميح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت : ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ، ورواه البيهتي في الاعتقاد من دم عمروقال غرب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبرسول القسل الله عمر ؛ أيمد اليا عقول ا ؟ فقال فهم كهيئتكم اليوم » فقال عمر : أيمد اليا عقول ا ؟ فقال فهم جعل يظرفيه ... الحديث بهيه الحجر . (٣) حديث عديث مرسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازه لجلس على راس القبر م جعل يظرفيه ... الحديث رواه أحمد باست وقيد و المد ضنطت رواه أحمد بالمن أبي الدنيا في المؤت من رواية سليان الأعمش عن أنس و فيه « المد ضنطت ضنطة م صوتها مابين الخافين » أخرجه ابن أبي الدنيا في المؤت من رواية سليان الأعمش عن أنس و في سمم منه ،

الباب الثامن : فيها عرف من أحوال الموتر. بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولـكن حال زيد وعمر و بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمر و فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عولنا على صلاحه الظاهر فألتقوى علمه القلب وهو غامض بخنى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ ولا حكم لظاهر الصلاح دون الته وى الباطن قال الله تعمل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمر و إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه ، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهاءة إلى عالم النيب والملكوت فلا يرى بالدين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفه من شهوانه وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عانم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولماكانت النشاوة منقشعة عن أدين الانبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملسكوت وشاهدوا عجائبه ، والموقى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبرفي حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته (۱) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ آخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه المشاهدة لامطم فيها لغير الانبياء والاولياء الذين تقرب درجتهم منهم .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أبها أيضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة في المنام وهي من أبوار النبوة . فال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرؤيا الصالحة جزء من سنة وأربسين جزءا ،ن الدّرة (۱) ، وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الفشارة عن الفلب ، فلذاك لا يو تمق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فسكان ما يراه أضغنات أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا (۱) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضا فهوا . صل وطهارة الظاهر بمنزلة النتمة والتكلة لها . ومهما صفا الباطن انكشف في حدثة القلب ما سيكون في المستقبل ، كا انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله ، سلم في النوم حتى برل قوله تعالى (لقد صدة الغيب في النوم الرؤيا بالحق . (١) وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله أمالي وبدائع فطرة الآدى وهو من أوضح الآدلة على عالم الملكوت ، والحلم غافلون عند من عائم من سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دفائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك القصود ، وهو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال مرآة ترامى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأنّ كل مافدره الله تعمل من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعمل يعمل عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتماب المدين ، وتارة بإمام مبين ؛ كما ورد في القرآن . فجميع

⁽¹⁾ حديث: وأى رسول الله صلى لله على، وسلم ضنطة أقبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينبابنة، وكذلك حلل أبى جابر لما استفهد تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى فله (٢) حديث و الرؤيا السالحة جزء من ستة وأرسين جزءا من النبوة و تقدم . (٣) حديث : أمره بالطهارة عند النبي . متمق عليه ،ن حديث البراء و لذا أتبت مضمعك فتوضأ وضوءك للمسلاة ... الحديث و . (٤) حديث : انسكشف دخول مَمَة يُرسهل الله صلى الله عليه وسلم فى النوم . أخرجه ابن أبى حاتم فى نفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

ماجرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لايشاهد بهذه العين . ولا تظان أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو رق ، بل ينبغى أن تفهم قطما أن لوح الله لايشبه لوح الحلق ، كا أن ذاته وصفاته لاتشبه ذات الحلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقليه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فقشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الحط حرفا ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فقشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الحط حرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه . واللوح فى المثال كرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها مرجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالمة اللوح الذى هو من كلها مرجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالمة اللموح الذى هو من عالم الملكوت كالبرق عالم الملكوت ، فإن هبت ربح حركت هذا الحجاب ورفعته تلالا فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق عالم الملكوت ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لايدوم وهو الغالب ، ومادام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملكوت ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلاتورده على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء بما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه، فأ يقع في القلب يبتدره الحيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المنخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقي الحيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الحيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الحيال حكاية أي معنى مرالماني فيرجم إلى المعانى بالمناسبة التي بين المتخيل والمعانى. وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلا قال لابن سيرين: رأيت كانّ بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت وقدن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت! فانظر أنّ روح الحتم هوالمنع ولاجله يرادا لحتم، وإنماينكشف للقلب عالى الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعا للناس من الاكل والشرب، ولكن الحيال ألف المنع عند الحتم بالحاتم فتمثله بالصورة الحيالية التي تتضمن روح المعني ولا بدق في الحفظ إلا الصورة الحيالية التي تتضمن روح المعنى ولا بدق في الحفظ إلا الصورة الحيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ا وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لآنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويبكشف الغطاء بالبكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالانكال والمخازى والفضائح .. فعوذ بالله من ذلك .. وإما مكنوفا بنميم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للاشقياء وقد انكشف الغطاء (لقد كنت فى غفلة من هسسذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ويقال (أفسحر هذا أم أنتم لانبصر ون اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون) وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وبدا لهم من القمالم يكونوا يحتسبون) فأعلم العلماء وأحكم الحكاء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ولا اختلج بهضيره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الفطاء من فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الفطاء من

شقاوة لاز.ة أم سعادة دائمة ؟ لمكان ذلك كافيا في استغراقي جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل باعضائنا وسمعنا وبصرنا ا مع أنا العلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن أين من بنفث روح القدس فى روعه فيقول ما فال لسيد النهيين ، أحبب من أحبب فإنك مفسارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك بحرى به (١١ ؟ ، فلا جرم لما كان ذلك مكسوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (١١ ولم بخلف دينارا ولا درهما (١١ ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال ، لو كنت متخذا خليلالا تخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحن (١١ ، فبين أن خلة الرحن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسما خليل ولا حبيب ا وقد قال لامته ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبمونى يحبيكم الله ﴾ فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإيه ما عا الآخرة فقد سلكت سبيله الذي مسلك وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما البعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا غان الجميم عي وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما البعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا على المسلك المناوى كن فلو خرجت من مكن الغرور وأنصفت نفسك يارجل ـ وكاما ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصبح الما على لا نم وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالمكم كيف تحكون) .

ولنرجع إلى ماكنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الـكلام إلى غير مقصده ، ولنذكر الآن من المنامات الـكاشفة لاحوال المرتى مايمظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافية في الآخرة

فن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام ، من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى () ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام في أيته لا ينظر إلى فقلت : يارسول الله ما شأنى ا فالتفت إلى وقال ، ألست المقبل وأنت صائم ؟ ، قال : والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأما صائم أبدا . وقال العباس رضى الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته بمسح اله قى عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهذ لولا أنى لقيته رموفا رحيا . وقال الحسن بن على : قال لى على رضى الله عه ؛ إنّ رسول الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى مناى فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : يارسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت : يارسول الله إن سغيان بن عيينة حدّانا عن محمد بن المنكدر فقلت : يارسول الله استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت : يارسول الله إن سغيان بن عيينة حدّانا عن محمد بن المنكدر فقلت : يارسول الله استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت : يارسول الله إن سغيان بن عيينة حدّانا عن محمد بن المنكدر

⁽۱) حديث « لمن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم . (٣) حديث: لم يضم البنة على لبنة ولاقصة على قصبة . تقدم أيضا . (٤) حديث ؛ لم يخلف دينارا ولادرها . تقدم أيضا . (٤) حديث « لوكنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر ولسكن صاحبكم خلبل الرحن » تقدم أيضا · (٥) حديث « من رآني فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتخبل بى » متفى عليه من حديث أبى هريرة .

عن جابر بن عبد الله ؛ أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال ، غفر الله لك (١) ، وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لابى لهب مصاحبا له ، فلم المات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمى أمر، فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام قال : فرأيته يلنهب نارا فسألته عن جاله فقال : صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عنى ولا يروّح إلا ليلة الاثنين في كل الآيام والليالي ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لى فرحا به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عنى العذاب في كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد: خرجت حاجاً فصحبنى رجل كان لايقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال: أخبرك عن ذلك ؛ خرجت أول من إلى مكة ومعى آبى ، فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل ؛ فبينا أنا نائم إذ أتانى آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ! قال: فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلنى من ذلك رعب ، فبينا أنا فى ذلك الغم إذ غلبتنى عبنى فنمت فإذا على رأس أبى أربعة سودان مدهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنحوا ، فسح وجهه بيده ثم أتانى فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك ! فقلت له : من أنت بأبى أنت وأى ؟ فقال : أما محمد ، قال : فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض ! فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز فال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده ـ فسلت وجلست ، فبينها أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما البابوأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج معاوية بأسرع من أن خرج معاوية على أثره و : و يقول : غفر لى ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله ! ـ وكان ذلك قبل قنله بـ فأنكره أصحابه فقال زأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتى بعدى ؟ قتلوا بنى الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الحبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه .

ورؤىالصديق رضىالله عنه فقيلله : إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا أوردني الموارد ، فاذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ: رأيت متمما الدورق في المنام فقلت: ياسيدى مافعل الله بك ؟ فقال: ديريى في الجنان فقيل لى . يامتمم هل استحسلت فيها شيئًا وكلتك إليه ولم أوصلك إلى . يامتمم هل استحسلت فيها شيئًا لوكلتك إليه ولم أوصلك إلى . ورؤى يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى ؛ قيل . بماذا ؟ قال: ما خلطت جدا بهزل . وعن منصور بن إسمعيل قال: رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت مافعل الله بك ؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به إلاذنبا واحدا فإني استحييت أن أقربه ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت .

⁽١) حديث ابن عيبة عن محد بن المنكدر عن جابر : ماسئل الذي صلى الله هليه وسلم شيئا قط فقال لا . رواه مسلم وقد تقدم .

ماكان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره. وقال أبو جعفر الصيد لاني: رأيت رسولانة صلىانةعليهوسلم فيالنوم وحوله جماعة منالفقراء ، فبينها نجن كذلك إذ انشقت السهاء فنزل ملـكان أحدهما : بيده طشت ، وبيد الآخر : إبريق ، فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وســلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما الآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ا فقلت : ياً رسول الله أليس قد رُوى عنك أنك قلت « المره مع من أحب ، ؟ قال : بلي ، قلت : يارسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء 1 فقال صلىالله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم . وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى أنكلم على الناس فوقف على الك فقال : أفرب ما تنزّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خنى بميزان وفى ا فولى الملكوهو يقول : كلامموفق والله . ورۋى بحمع فى النوم فقيلله : كيف رأيتالام ؟ فقال : رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة ا فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال . لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فأشخص رجلا يقتلني ! وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولاتغره . وقالصالح بن بشير : رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له : رحمك لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، قال : أماوالله المد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائمًا ، فقلت : في أى الدرجات أنت ؟ فقال (مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ وسئل زرارة بن أبي أو في المنام : أي الاعمال أفضل عندكم ؟ فقال: الرضا وقصر الامل. وقال يزيد بن مذعور : رأيت الاوزاعي في المنام فقلت : يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أزفع مندرجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخا كبيرا ، فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة : رأيتأخى فى المنام فقلت : يا أخى مافعل الله بك؟ فقال : كلذنب استغفرت منه غفر لى ومالم أستغفر منه لم يغفر لى . وقال علىالطلحى : رأيت فى المناماسأة لاتشبه نساء الدنيا فقلت : من أنت ؟ فقالت : حوراء ، فقلت زوّجيني نفسك ، قالت : اخطبني إلىسيدي وأمهر في ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتهما . وقال إبراهيم بن اسحق الحربي : رأيت زبيدة في المنسام فقلت : ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي ، فقلت لها : بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت : أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلىأربابها ، وغفر لى بنبتي . ولما مات سفيان الثورىرۋى فى المنام فقيل له : مافعل بك ؟ قال : وضعت أوّل قدى علىالصراط والثانى في الجنة . وقال أحمد بن أبي الحوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها وكان يتلألا وجهها نورا ــ فقلت لها : عاذا ضوء وجهك ؟ قالت : تذكر الله الليلة النيكيت فيها ؟ قلت : فعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، فن ثم ضوء وجهى كما ترى . وقال المكتاني : رأيت الجنيد في المنام فقلت له : ما فعل الله بك؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصلبهما في الليل . ورؤيت زبيدة في للنام فقيل لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي مهذه الكلمات الأربع : لاإله إلاالله أفي بها عمرى ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لاإله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلاالله ألتي بها ربي . ورۋى بشر في المنام فقيل له : ما فعل الله بك؟ قال : رحمي ربي عز وجل وقال يابشر أما استحبيب مني كنت تخافي كل ذلك الحوف . وروى أبوسليمان في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال رحمني وما كان شيء أضر علىمن إشارات القوم إلى . وقال أبو بكر الكتاني : رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له : منأنت؟ قال : التقوى ! قلت : فأين تسكن؟ قال : كل قلب حزين 1 ثم التفت فإذًا أمرأةً سوداء فقلت : من أنت؟ قالت : أنا السقم ! قات : فأين تسكنين؟ قالت: كل قلب فرح مرح! قال: فانتبت وتماهدت أن لا أضحك إلاغلبة. وقال أبو سعيد الحراز: وأيت في المنام كأن إبليس وبمبعلى، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها، فهتف في هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحى؛ رأيت إبليس في النوم يمشى عربانا فقلت: ألا تستحى من الناس افقال: بالله هؤلاء ناس! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهاركما يتلاعب الصبيان بالكرة! بل الناس قوم غير مؤلاء قد أسقموا جسمى، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية. وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء في متكنا على أبي بكر وعمر رضى الله عهما، فجاء فوقف على وأما أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدرى، فقال: شر هذا أكثر من خيره، وعن ابن عيينة قال: رأيت سفيان الثورى في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقلت له: أوصنى، فالذ المنام معرفة الناس، وروى أبو حانم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال: رأيت سفيان الثورى فقلت: ما فعل الله بك ؟ فقال:

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد فدونك فاختر أى قصر أردته وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: مافعل الله بك؟ قال: ناقشنى حتى أيست ، فلمارأى يأسى تغمدنى برحمته ، ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى وجعلنى حجة على المحبين ، ورؤى الثورى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال : رحمنى ، فقيل له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال : هو بمن يلج على ربه فى كل يوم مرتين ، ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال « حاسبونا فدققوا « ثم منوا فأ عتموا « ورؤى مالك بن أنس فقيل له: مافعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت ، ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهر عنه راض ، ورؤى الجاحظ فقيل له مافعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بخطك غيرشي. يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عرياما فقال ألا تستحى من الناس ؟ فقال وهؤلاء نابس ! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى ! قال الجنيد فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأونى قالوا لا يغزنك حديث الخبيث . ورؤى النصراباذى بمكة ـ بعد وفاته ـ في النوم فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت لا يا ذا الجلال ، فما وضعت في اللحد حتى لحفت برق ، ورأى عتبة الفلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقاات يا عتبة أبا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك ، في المنام على صورة حسنة فقاات يا عتبة أبا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك ، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي علمها حتى ألقاك . وقيل رأى أبوب السختياني جنازة عاص ، فدخل الدمليز كيلا يصلى عليها . فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وقال قل لا يوب الدمليز كيلا يصلى عليها . فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وقال قل لا يوب (قل لو أنتم تملكون خرائن رحمة ربي إذا لامسكتم خشية الإنفاق ﴾ وقال بعضهم وأيت في الميلة التي مات فها

داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع التشييخ ، قلت : تلك الاحوال الني شاهدتها ، فقال : لم تغن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم - فى النوم - فقال لى : قللا بي سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد _ وحياة الحب _ حلتم وماحلنا

قال : فانتهت فذكرت ذلك له فقال ؛ كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابنراشد : رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت: أليس قد مت ؟ قال: بلي ، قلت: فما صنع الله بك ؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال ؛ بخ بخ ذاك ﴿ مِن الذين أَنْعُمُ اللَّهُ عَلَيْهُمْ مِن النبيين والصدِّيقين﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفانه في المنام فقلت : يا أبا عبد الله ماصنع الله بك ؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب ونثر على اللؤاؤ الرطب. ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأنّ مناديا ينادى _ إن الله اصطنى آدم ونرحاوآل إبراهيم وآل عمران على العالمين-واصطنى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقالأبو يهقوبالقارى الدقبق رأيت في مناى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس الفرنى ، فأتيته فقلت أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله ، فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني . وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرم فقلت مافعلت يا ورقاء ؟ قال البكاء من خشية الله . وقال يزيد بن فعامة هلكت جارية في الطاءون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لهــا يا بنية أخبريني عن الآخرة ؟ قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم ، لعلم و لانعمل و تعملون ولاتعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام: رأيت عتبة في المنام فَقَلْتَ ، ما صنع الله بك؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك ا قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت (يا هادى المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الاحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصألحين آمين بارب العالمين) وقال موسى بنحاد رأيتسفيان الثورى في الجنة يطيرمن نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت ، يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال بالورع ، قلت فما بال على بن عاصم ؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلاكما يرى الكوكب · ورأى رجل من التابدين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال ً يارسول الله عظنى ، قال فعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له وقال الشافعي رحمة الله عليه دهمني في هٰذه الآيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في مناى فقال لى ياعمد بن إدريس قل اللهم إنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ماأعطيتني ولا أتتى إلا ما وقيتني المايم فوفقني لمـا تحب وترضى من القول والعمل في عافية ؛ فلســــــ أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عر وجل طلبتي وسهل لي الخلاص بماكنت فيه ، فعليه كم يهذه الدعوات لا تغفلوا عنها . فهذه جملة من المسكما شفات تدل على أحوال الموتى وعلى الاعمال المقربة إلى الله زلنى ، فلنذكر بعدها مابين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصدور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخةالصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل مابين يديه من الاهوال والاخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهله . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها . وصفة المساملة عن الدنوب . وصفة الميزان ، وصفة الحصاء ورد المظالم ، وصفة الصراط . وصفة الشفاعة . وصفة الحوض . وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصنافي نميمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم . وصفة الحور العين والولدان . وصفة النظر إلى وجه الله تمالى . وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدّة أحوال الميت في سكرات الموتوخطر منى خوفالعاقبةثم مقاساته لظلمة القبروديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالها ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الاخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجباروالسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته ، ثم انتظارالنداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لابدّ لك من معرفتها ، ثممالإيمان بهاعلى سبيل الجزموالتصديق ، ثم تطويلالفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدا. أفتدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهر يرهامعماتكتنفه من المصاعب والأهوال ، بل إذا ستلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن مابين يديه منالطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذي أخبر ـ صدقت ، ثم مدّ يديه لتناوله ؛ كان .صدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتـكذيب العمل أبلغ من تـكذيباللسان . وقد قال النيصلي الله عليه وسلم , قال الله تعالى شتمني ابن آدم وماينبغي له أن يشتمني ، وكذَّبني وما بنبغي له أن بكذبني ، أما شتمه إياى فيقول إن لي ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني (١١) . ولمُمَا فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هـذا العالم لأمثال تلك لأمور : ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدى المصور العافل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعمالي ﴿ أُولَمْ يُرُ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يكَ نطفة من مني يمني ثم كان علفة فحلق فسترى فجمل منه الزوجين الذكر والآنثي ﴾ فني خلفالآدى ــ مع كثرة عجائمه واختلاف تركيب أعضائه ـ أعاجيب تزيد على الاعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

⁽۱) حدیث و قال افته تعالی شتمنی ابن آدم و ما ینبنی له أن یشتمنی و کـذبنی و ما ینبغی له أن پکذننی ... الحدیث ، أخرجه البخاری من حدیث أبی هر برة .

ذلك في صنعته وقدرته ؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقق الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيها يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإيها صبحة واحدة تنفرج بها القبور عن رموس الموتى فيثورون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الحلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤه ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ماكان عندهم من الهموم والمقموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا نقر في النافور فذلك يومئذ في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ويقون ونفخ في الصور فإذا هم من الاجداث واحدة تأخذه وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الاجداث إلى دبهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحن وصدق المرسلون ﴾ فلو لم يكن بين يدى الما ولا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتتي فإنها نفخة وصيحة يصدق بها من في السموات والارض _ يعني أمون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبة وأصفى بالاذن ينتظر متي يؤمر فينفخ (۱) . .

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاعلى القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كبرض السعوات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صنق من في السعوات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الحلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى السرافيل فيأمره أن ينفخ الشانية فذلك قوله تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وحين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة (٢١) ، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكساره واستكانتهم عند الانبساث خوفا من هذه الصعقة، وانتظارا لمسايقضى عليهم من وذلهم وانكساره واستكانتهم عند الانبساث خوفا من هذه الصعقة، وانتظارا لمسايقضى عليهم من المرفهين والمحتون فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغره وأحقرهم يوطئون بالاقدام مثل والاغتياء المتنعمين فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغره وأحقرهم يوطئون بالاقدام مثل الذرة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالحلائق بعد توحشها ذليلة ليوم الذرة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالحلائق بعد توحشها ذليلة ليوم

⁽¹⁾ حديث « كيف ألم وصاحب الصور قد اللهم القرن وحتى الجمهة . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ « ان ساحي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان بلاحظان النظر متى يؤمران » وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه . (٢) حديث « حين بعث الى بعث الى ساحب الصور فأموى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث » لم أجده هكذا بل قد ورد: أن اسرافيل من حين ابتداء الحاق وهو كذلك كارواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « الى الله تبارك وتعالى الما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « الى الله تبارك وتعالى الما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى الدرش ينظر من يؤمم » قال البخارى و لم يصح وفي رواية الأبي المديخ « ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستمد بنظر نحو العرش مخافة أن يؤمم قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكان دريان » واسنادها جيد ،

النشور من غير خطيئة تدنست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوها وأذعنت خاشعة من هينة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

صفة أرض المحشر وأهله

ثم الظركيف يسافون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختني الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الاعين فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يسافون إليه زمرا ، فسبحان من جمع الحلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الارض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هي النفخة الاولى والرادفة هي النفخة الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومثذ واجفة ولتلك الابصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النق ليس فيها معلم لاحد ١١١ . .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع ، والنقى : هو النقى عن القشر والنخــالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظان أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا في الاسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات ﴾ . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الاديم الدكاظي ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عايها خطيقة ، والسموات تذهب شميها وقرها ونجومها . فانظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الحلائق على هذا الصعيد تسائرت من فوقهم نجوم السهاء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الارض لخود سراجها . فيينا هم كذلك إذ دارت السها من فوق رءوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمياته عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيساهول صوت انشقاقها في سمعك وبا هيبة ليوم تنشق فيه السهاء مع صلابها وشدتها اثم تنهار وتسيل كالمفت المذابة تخالطهاصفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السهاء كالمهل وصارت الجبال كالمهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم خفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راوية الحديث ـ قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الآذان ، قالت سودة ـ زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث ـ قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضا الم بعض ؟ فقال و شغل الناس عن ذلك بهم ﴿ لكل امرى منهم ومثد شأن يعنيه ﴾ ٢١ ، فأعظم بيوم تنكشف فيه المورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم فيه المورات ويؤمن فيه مع ذلك النو هريرة رضى الله عنه : : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس على الالتفات إلى غيره ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : : قال رسول الله صلى الله وكيف يمشون على يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يارسول الله وكيف يمشون على يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يارسول الله وكيف يمشون على يوم القيامة عليه وأله وسلم و يحقر الميام عليه وكيف يمشون على يوم القيامة عليه وآله وسلم و يحقر المهام على الاقيامة على الاقتراء على وجوههم ، فقال رجل : يارسول الله وكيف يمشون على الاقتراء الميام الميامة وعلى وجوههم ، فقال ربول الله وكيف يمشون على الاقيامة وحية على الاقتراء الميامة وحياء وحوه الميامة وعلى وحوه الميامة وعلى وحوية الميامة وحية الميامة وحية الميامة وحية على الاقتراء الميامة وحية على الاقتراء الميامة وعلى الميامة وحية الميامة وحية الميامة وحية وحية الميامة وحية ال

⁽۱) حديث « يحسر الناس يوم الفيامة على أرض بيضاء عفراء كقرس النقى ليس فيها مطر لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وقصل البخارى قوله « ليس فيها معلم لأحد » لجملها من قول سهل أوغيره وأدرجها مسلم فيه .

 ⁽۲) حديث « يبث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة راوية الحديث: واسوأتاه ...
 الحديث » أخرجه التعلي والبنوى وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي الفائلة « واسوأتاه » ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي الفائلة « واسوأتاه » .

وجوههم؟ قال والذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (١) ، في طبع الآدى إنكار كل مالم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الحاطف لانكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها المأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبونا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

صفة العرق

ثم تفكر في ازدحام الحلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والارضين إلسبع من ملك وجنّ وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عماكانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كفاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظلرب العالمين . ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرّبون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرهــا واشتدَّكربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الافدام ، والضاف إليه شدة الحجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والحوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يوم يقوم الناس لرب العالمين _ حتى يغيب أحدُهُم في رشحه إلى أنصاف أذنيه (٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ أذقنهم (١٣) ، كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر . قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شمدة الكرب (١٤) ، وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن النياس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف سياقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ ومنهم من يغطيه العرق ـ وضرب بيده على رأسه مكَّذا (٥٠) ، فتأمل بامسكين في عرق أمل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادي فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق ؟

⁽۱) حديث أبي هريرة و يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ... الحديث » رواه الترمذي وحسنه و في السجيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يانبي الله ، كيف يحشر السكافر على وجهه ؟ قال و أليس الذي أمشاه على الرجاين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » . (۷) حديث ابن عمر و يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحده في الأرض سبعين في رشحه الى أنساف أذنيه » متفق عليه . . (۷) حديث أبي هريرة و يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ... الحديث » أخرجه في المصنف . (٤) حديث « قياما شاخصة أبسارهم أربعين سنة الى السهاء يلجمهم العرق من شدة السكرب » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن يلجمهم العرق من شدى الأطن أنه كان يتعدد السكن العله تشبه عليه . (٥) حديث عقبة بن عامى « ددو الشدس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فنهم من يبلغ عرقه عقنه ... الحديث ، رواه أحمد وفيه ابن لهيمة .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه النعب فى سبيل الله ـ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر ـ فسيخرجه الحياء والحوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم ، يقفون المبائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح فسيم . قال كعب وقتادة ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : يقومون مقدار اللهائة عام . بل قال عبدالله بن عمرو ، تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال «كيف بكم إذا جمعكم الله كا تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم (۱۱) ، وقال الحسن : ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة رلا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا الصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها ، فلم المنا الجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاء ليشفع في حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي إلادفعهم وقال : دعوني ا نفسي نفسي ؟ شغلي أصرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحدبشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه ﴿ لا يملكون الشفاعة إلامن أذن له الرحن ورضي له قولا ﴾ فتأمل في طول هذا اليوم وشدة وسلم لمن يؤذن له فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر .

واعلم أنّ من طال انتظاره فى الدنيا للبوت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم على أنّ من طال انتظاره فى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال و والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا (١١) ، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فعلى المؤمن من عمرك فالامر إليك والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لايام طوال تربح ربحا لامنتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعدّ يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، بوم ترى السهاء فيه قد انفطرت ، والسكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انسكدرت ، والشمس قد كوّرت ، والجبال قد

⁽۱) حديث ابن عمر . تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال و كيف بكم اذا جميم الله كما يجمع النبل في الكنافة خدين ألف سنة لاينظر المبكم * قلت : لاعما هو عبد الله بن عمر ورواه العابراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابنوهب ولهم غيرعبدالرحمن بن ميسرة الحضري أربعة هذا أحدهم ، صرى والثلاثة الآخرون شاميون .

(۲) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال و والدى نفسى بيده الله ليخفف على المؤمن حتى بكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا » أخرجه أبو يعلى والبيهتي في النصب من حديث أبي سميد الحدرى وفيه ابن لهيمة وقدرواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيمة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد و يهون ذلك على المؤمن كندلى الهمس النروب المل أن تغرب ورواه البيهتي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ و احد الله ليخفف على من يشاء من عباده طول كوقت سلاة مفروضة » .

سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الابدان قد زوجت ، والجحيم قدسعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والارض قد مدّت ، يوم ترى الارض قدزلزلت فيه * زلزالهاً ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتانا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذوقعت الواقعة والشقتالسهاء فهي بومئذ واهية ، والملك على أرجائهاويحمل عرشربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخنى منـكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة ، يوم ترج الارض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثاً ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوثوتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك فاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يوم ترى الجبال تحسيها جامدة وهي تمرّ مرالسحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكرن وردة كالدهان ، فيو مئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصى من السكلام، ولا يسئل فيه عن الاجرام بل يؤخذ بالنواصي والافدام، يوم تجدكل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أنَّ بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ماقدَّمت وأخرت يوم تخرس فيه الآلسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال ، شيبتني هُود وأخواتها (١١ ، وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كرّرت ، فيا أيها القارئ العاجز إنمـا حظك من قراءتك أن تمجمع القرآن وتحرّك به اللسّان ، ولو كـنت متفـكرا فيها تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مماشاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسانفقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه . وقد وصف الله بعض دواهها وأكثر من أسامهالنقف بكثرة أساميماعلى كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الاسامى تـكرير الاسامى والالقابُّ بل الغرض تنبيه أولى الالباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفى كل نعت من فعوتها معنى ، فاحرص على معرفه معانبها .

ونحن الآن نجمع لك أساميها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المساءلة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الراجفة ويوم الماقت ويوم المنافسة ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاحة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم الماتب ويوم العذاب ويوم الفراد ويوم القرار ويوم المناق ويوم المقتاء ويوم الحزاء ويوم البلاء ويوم البكا. ويوم الحشر ويوم الويم ويوم المترض ويوم المون ويوم الحتى ويوم الحتى ويوم الحتى ويوم الحتى ويوم الحتى ويوم الحتى ويوم المنتب ويوم المناقبة ويوم المنتب ويوم المناقبة ويوم المنتب ويوم المنتب ويوم المنتب ويوم المناقبة ويوم المنتب ويوم المناقبة ويوم المناشر ويوم المناش ويوم المناش ويوم المناقبة ويو

⁽۱) حديث « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون ولذا الشمس كورت » أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والدعن ولده ويوم يفر الرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لامرد له من الله يوم هم بارزون ويوم هم على النار يفتنون يوم لاينفع مال ولا بنون يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . يوم ترد فيه المعاذير و تبلى السرائر و تظهر الضمائر و تكشف الاستار . يوم تخشع فيه الابصار ، و تسكن الاصوات و يقل فيه الالتفات ، و تبرز الحفيات و تظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد و مدهم الاشهاد ، و يشيب الصغير و يسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين و نشرت الدواوين ، و برزت الجحيم و أغلى الحيم ، و زفرت النار و يئس الكفار ، و سعر ت النيران و تغيرت الالوان ، و خرس اللسان و نطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الابواب وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعزفنا غفلتنا ويقول (اقترب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهسم) ثم يعزفنا قرب القيامة فيقول (اقتربت الساعة وانشق القمر ما إنهم يرونه بعيدا وتراه قريبا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوساف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الآحرال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير . فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نولت ملائدكة من أرجاء السهاء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال وسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (۱۱) ، فا ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشدرين بما بدا من غضب الجبار على عباده .وعند نرولهم لابيق نبي ولاصديق ولاصالح إلاويخرون لاذنانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين . فهذا حال المقربين فاظنك بالعصاة المجرمين ؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا للقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الآرض وقالوا : سبحان ربناماهوفينا ولمئة آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفا عدقين بالخلائق من الجوانبوعلى جميعهم شعار الذل والحضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله ﴿ فَلْنَسَأَلَنَ الذِينَ أَرْسُلَ إِلَيْهُمْ وَلَنْسَأَلَنَ المُرْسَلِينَ فَلَنْقَصَنَ عَلَيْهُمْ بَعْلُمْ وَمَاكُمُنَا غائبينَ﴾ وقوله ﴿فُورِبُكُ لَنْسَأَلَنْهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيبدأ سبحانه بالآنبياء ﴿ يَوْمُ يَجْمَعُ اللهَالْرُسْلُفِيقُولُ

⁽١) حديث د إن قة هزوجل ملسكا ما بين شفرى عينبه مسيره مائة عام ۽ لم أره بهذا اللفظ.

ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الآنبياء وتنهجى علومهم من شدة الهيبة ؛ إذ يقال لحم : ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الحلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يحيبون ، فيقولون من شدة الهيبة · لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب . وهم فى ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لامته : هل بلغتكم ؟ فيقولون ؛ ما أتانا من نذير ، ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له (أأنت قلت للناس اتخذونى وأى إلهين من دون الله) فيه متشخطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الانبياء بمثل هذا السؤال من فلانة هلم إلى موقف العرض . وعند الآنبياء بمثل هذا الشوال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتمد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولا يكشف ستره على ملا الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الارض بنور ربها ﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المأخوذ بالاخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ياجبريل اثنى بالنار ، فيجىء لها جبريل ويقول : ياجهنم أجبى خالفك ومليكك، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلات فزعاور عبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين يوم ﴿ ترى كل أمة جائية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى خشمى . فبينهام كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خرفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ، تم زفرت الثالثة فتساقط الحلائق على وجوهم وشخصو ابأبصارهم ينظرون من طرف خنى خاشع، وانهضمت عندذلك قلوب الظالمين . فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والاشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم ، فإذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الانبياء اشتدالفرع على العصاة ، ففر الوالد من ولده والآخ من أخيه والروج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لامره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل برى ربنا يوم القيامة ؟ فقال و هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونه سحاب ، قالوا لا ، قال و فوالذي دونها سحاب ، قالوا لا ، قال و فوالذي نفسي بيده لاتضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، قالوا لا ، قال و فوالذي نفسي بيده لاتضارون في رؤية ربكم ؛ فيلق العبد فيقول له ألم أكر مك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك تراس وتربع ، فيقول العبد بلى ؛ فيقول أظننت أنك ملاق فيقول لافيقول فأنا أنساك كما فسيتني ١١٠ ، فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضد بك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالشباب ففياذا أبليته ، ألم أمهل لك في العمر ففياذا أفنيته ، ألم أرزقك المال فن أين اكتسبته وفياذا أنفقته ، بالشباب ففياذا أبليته ، ألم أمهل لك في العمر ففياذا أفنيته ، ألم أرزقك المال فن أين اكتسبته وفياذا أنفقته ، ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كمنا مع رسول الله عليه وسلم و مساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كمنا مع رسول الله عليه وسلم ومساويك و أيت و مساويك و أيت و العمر في الله على المله ومولك و أيت و العمر و المدون الله على و المولى الله و المو

⁽١) حديث أبي هريرة : هل عرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فيرؤية الفسس في الخلهيرة ايس دونها سحاب ٠٠٠ الحديث » متفق عليه دون قوله « فيلني العبد ١٠٠٠ الح » فانفر د بها مسلم .

فضحك ثم قال . أتدرون مم أضحك ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال . من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال . يقول بلي ، قال . فيقول فإنى لاأجيز على نفسى إلا شــاهـدا منى فيقول كمنى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال , فيختم على فيه ويقال لاركانه الطقى ، قال , فتنطق بأعماله ثم يخلىبينهوبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وسحقا فمنكن كنت أناضل (١١) ، فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عايه غيره. سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال : قاّل رسول الله صلى الله عليه وسلم و يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول|نىسترتها عليك في الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم (٢) ، وقد قال رسول الله صلىالله عليه وسلم , من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة (٢٠) ، فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيره ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لوسمعوه ، فهذا جدير بأن يجازي بمثله في القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنو بك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب رلبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوفوتقاد كماتقادالفرسالمجنوب وقد رفع الحلائق إليك أبصارهم ، فتوهم نفسك أنك في أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم و ماداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : ياابن آدم ادن منى ، فدنوت منه بقلب خافق يحزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذي لايغادر صغيرةولاكبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ؟ فكم لك من خجل وجبن ؟ وكملك من حصر وعجز ؟ فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقلماتقول؟ ثم تفكر في عظم حيا تك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول : ياعبدى؟ أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادى ، استخففت بنظرى إليك فلم تكثرث واستعظمت نظر غيرى ، ألم أنعم عليك : فماذا غرّك بي أظننت أبي لا أراك وأنك لاتلقاني . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم , ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان (١٠) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم , ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألمأنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلي فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلي ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة (٠) ، وقاله ابن مسعود : مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليله البدر ، ثم يفول ياابن آدم ما غزك بي يا ابن آدم ماعملت فيما علمت ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ياابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل

⁽۱) حدیث أنس « آندرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه ... الحدیث » رواه مسلم (۲) حدیث : سأل ابن عمر رجل فقال : كیف سمت رسول الله صلى الله علیه وسلم یقول فی النجوی ... الحدیث »رواه سلم . (۱۳) حدیث « من ستر علی مؤمن عورته ستر الله عورته یوم القیامة » تقدم .

⁽٤) حدیث « مامنسکم من أحد الاویسأله رب العالمین ... الحدیث » متفق علیه من حدیث ابن عدی عن أبی حاتم بافظ « إلا سیکامه » الحدیث . (٥) حدیث «لیقفن أحدکم بین یدی الله تعالی لیس بینه و بینه ترجان ... الحدیث » أخرجه المخاری من حدیث عدی بن حاتم .

لك ألم أكن رقيباً على أذنيك ، وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه ، وقال بجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيها أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيها أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيهاذا أنفقه ؟ فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سره وك وفرحك وبغبطك الأولون والآخرون ـ وإماأن يقال للملائكة خدوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه ـ وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تق معك ا .

صفة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر في الميزان وقطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعدالسؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فىالنار، فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها (وقسم آخر) لاسيئة لهم فينادى مناد ليقم الحادونله علىكل حال ؛ فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكراله تعالى . وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها ﴿ ويبق قسم ثالث ﴾ وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخني علم م ولا يخنى على الله تعمالي أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبي الله إلا أن يعرِّفهم ذلك ليبينفضله عند العَفُو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحفوالكتب منطوبة على الحسنات والسيئات وينصب الميزان و تشخص الابصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق. وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسسلم فانتبه فقال . مايبكيك يا عائشة ؟ . قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال . والذي نفسي بيده فى اللاث مواطن فإن أحداً لايذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله، وعند الصراط (١١) ، وعن أنس , يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك . فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الحلائق سعد فلان سعادة لايشتى بعدها أبدا ، وإن خف ميزانه نادىبصرت بسم الخلائق شتى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبداً . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب.من نار فيأخذون نصيبالنار إلى النار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة ، إنه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقولوكم بعث النار؟ فيقول منكل ألف تسعائة وتسعة وتسعون ، فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال . أعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ماكانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بني آدم وبني إبليس. قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال . يأجوج ومأجوج ، قال : فسرى عُنالقومَ فقال ، اعملوا وأبشروا فوالذينفس

⁽۱) حديث الحسن: أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ... الحديث » وفيه : فقال « مايبكيك ياعائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ٠٠٠ الحديث » أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنهها ذكرت النار فبكت فقال « مايبكيك » دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه لعس ولمسناده جيد .

محمد بيده ماأنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابه (١١) ،

صفة الخصهاء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الاعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية ﴾ واعلم أنه لاينجومن خطر الميزانإلامن حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل للوت توبة نصوحاً ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، وبرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، وبطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردُّ المظالم أحاط به خصاًوه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض علىناصيته ، وهذا يتعلق بلببه ، هـذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شتمتني ، وهذا يقول استهزأت بي ، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بمــا يسو.ني ، وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتني فغششتني ، وهذا يقول بايعتني فغبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجاً وكنت غنيا فمأطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وماراعيتني . فبينا أنتكذلك وقد انشب الخصاء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مهوت متحير من كثرتهم ـ حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهمأوجالسته فى بحلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أوخيانة أو نظر بعين استحقار، وقدضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم _ إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليوم تجزى كل نفس بمـا كسبت لاظلم اليوم ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوةن نفسك بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله ُ تعسالى على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنمـا يؤخرهم ليوم تشخص فيــه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس ﴾ الآية

فيا أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ا وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن تردحقا أو تظهر عذرا ؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل تدرون من المفلس ، قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له ولا دينار ولا متاع ، قال ، المفلس من أمنى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقدشتم هذاوقذف هذاوا كل مال هذاوسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذامن حسناته وهذامن حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذمن خطاياهم فطرحت عليه شمطرح في النار (٢٠) ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصاؤك وأخذوها ، ولعاك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجرى

⁽١) حديث « يقول الله يا آدم كم قابت بث النار فيقول : وكم بث النار ؟ فيقول من كل ألف تسمالة وتسع وتسمون ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سبيد الحدرى ورواه البخارى من حديث أبي هريرة تحوه وقد تقدم .

⁽۲) حدیث أبی هریرة « حل تدرون من المفلی ؟ » قالوا : المفلس بارسول الله من لادرهم له ولاختاع ... الحدیث . تصم (۲) حدیث أبی هریرة « حل تدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس بارسول الله من لادرهم له ولاختاع ... الحدیث . تصم

على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ا فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجاء من القرناء ؟ فقد روى أبوذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال ، ياأبا ذرّ أتدرى فيم ينتطحان ؟ ، قلت : لا ، قال و ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة (1) ،

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثاله م يحشر الحلق كلهم يوم القيامة _ المهائم والدواب والطير وكل شيء _ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجاء من القرناء ، ثم يقول كوني ترابا ، فذلك حين يقول المكافر باليتني كنت ترابا . فكنت أنت بامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يارب هذه سيئات ماقارفتها قط 1 فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الشيطان قد يئس أن تعبد الاصنام بأرض العرب ولمكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالحقرات وهى الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فايزال عبد يجىء فيقول ربإن فلانا ظلمى بمظلمة فيقول المحتم من حسناته فايزال كذلك حتى لايبق له من حسناته ثيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر برلوا بغلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم لحقابرا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (٣) ، وكذلك الدنوب و لما يزل قوله تعمال فتفرق القوم عابم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون كي قال الزبير : يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ا قال و نعم ليكرون عليمكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٣) ، قال الزبير : والله إن الأمر لشديد ، فأعظم بشدة يوم لا يسام فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للظلوم من الظالم ا قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و يحشر الله العباد عراة غيرا بهما ، للظلوم من الظالم ا قال ليس معهم شيء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل الجنة والحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ؛ حتى الطمة ، قلنا : وكيف وإنما من أهل النار أن يدخل النار ولاحد من أهل الجنة عند، مظلمة حتى أقتصه منه ؛ حتى الطمة ، قلنا : وكيف وإنما نأتى الله عزوجل عراة غبرا بهما ؛ فقال ، بالحسنات والسيئات (٤) و فاتقوا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذا موالهم نائى الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذا موالهم

⁽۱) حدیث د یاأبا ذر أندری فیم بنتطحان » قلت : ۷ ، قال د ولکن ربك یدری وسیقضی بینهما » أخرجه أحمد من روایة أشیاخ لم یسموا عن أبی ذر .

⁽۲) حديث ابن مسعود « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأسنام بأرض العرب ولسكن سيرضى منسكم بما دون ذلك المحقوات ومي الموبقات ... الحديث » رواه أشمد والبيهتي في الشعب مقتصرا على آخره « لما كم ومحقرات القنوب فإنهن مجتمعن على الرجل حتى بهلسكنه » وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا . . . الحديث . وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولسكن في التحريش بينهم » . (٣) حديث : لمسائزل قوله تعالى (لمنك ميتولنهم ميتون ثم لمنسكم يوم الفيامة عند ربكم مختصون) قال الزبير : بارسول الله أيسكرر علينا ماكان بيننا ، . . الحديث أخرجه أحمد والفظ له والترمذي من حديث الربير وقال حسن محميم . . (٤) حديث أنس « محمير العباد عراه غبرا بهما » قانا : ما بهما ؟ قال « ليس معهم شيء . . . الحديث الحديث » قلت : ليس من حديث أنس ولم عام عائي رواه أحمد باسناد حسن وقال « غرلا » مكان « غبرا » .

والتعرض لأعراضهم وتصنيق قلومهم وإساءة الحلق في معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمنفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسنانه ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الإخلاص محيث لا يطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لاحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم ، كاروى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى مدت ثما باه فقال عمر ا ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأى ؟ قال ، رجلان من أمتى جثيا بين مدى رب العزة فقال أحدهما : بارب خدلى مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى : أعمل أخاك مظلمته قال : بارب لم يق من حسناته شيء فقال الله تعالى الطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال : يارب يتحمل عنى من أوزارى ، قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال و إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزراه ، قال ، فقال الله الطالب ارفع رأسك فانظر في الجان في فع رأسه فقال : يارب إرى مدائن من فضة من تفعة وقصور امن ذهب مكللة باللؤلؤ لاى نبي مذا أو لاى صديق هذا ؟ أو لاى شهيد هذا ؟ قال لمن أعطانى الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملك ، أو لاى صديق هذا ؟ قال : أرب أرى قدعفوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيدأخيك فأدخله الجنة قال وسول الله صلى الله عليه وسلم عندذلك ، اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإنالله يصلح بين المؤمنين (١١) ، وهذا تنبيه على أن ذلك إيما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات الدين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الآبد ؛ كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل الفضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النميم وبردالرضا يتلألا من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك ، والملائك يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الاشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشتى بعدها أبدا المفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الحلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت قمل أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية المصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الآخرى والعياذ باقة بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال : عليك لعننى باعبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعمل فيقولون : وعليك لعنتنا ولعنة الحلائق أجمين ، وعند ذلك تغنال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالفها فأقدمت عليك بفظاظها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك بسحبونك على وجهك على ملا الحلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون ال تدع اليوم تبورا واحدا وادع تبوراكثيرا وتنادى لللائكة ويقولون : هذا فلان بن فلارث

⁽۱) حدیث أنس: بدنا رسول الله صلى الله علیه وسلم جالس لذرأ بناه ضعك حتى بدت نشایاه نقال عمر: ما أضعكانه بارسول الله بأنى أنت وأى ؟ قال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العالمين ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا في حسن الظن باقة والحاكم في المستدرك وقد نهدم .

كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشق شقاوة لايسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب اذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لانخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملا العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الآليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الاعظم وهوخطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الاهوال في قول الله تعمالي ﴿ يَوْمُ نَحْشُرُ المُتَقَينَ إِلَى الرَّحْنُ وَفَداً وَنسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفى قوله تعمال ﴿ فامدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ فالنماس من بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط _ وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر _ فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فىالدنياوأثقلظهر وبالأوزار وعصى تعثر في أوّل قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيها يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمك شهيق النار و تغيظها ، وقد كلفت أنَّ تمشي على الصراط معضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المـانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتنازلهم زبانية النــار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر اليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رموسهم وتعلوا أرجلهم ، فياله من منظر ماأفظعه ومرتنى ماأصعبه ومجاز ماأضيقه ١ فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول . يا رب ســلم سلم » والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم الحَثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثُبُور وقلت : هذا ماكنت أخافه فياليتني قدّمت لحياتي ! ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ! ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ! ياليتني كنت ترابا ! ياليتني كنت نسيا منسيا ! ياليت أى لم تلدني اوعندذلك تختطفك النيران - والعياذ بالله ـ وينادى المنادى ﴿ اخستُوا فيها ولا ت كلمون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والآنين والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك ؟ فإنكنتغيرمؤمن بذلك فماأطولمقامك مع الكفار في دركات جهنم اوإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمـانك إذا لم يبعثك على السعى في طلب رضا الله تعالى بطاعته وثرك معاصية افلولم يمكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك منخطرا لجواز عليه ـ وإنسلمت ـ فناهيك به هولا وفزعا ورعبا أ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أوّل من يجيز بأمته من الرسل ، ولا يشكلم يومئذ لا الرسل ، ودعوى الرسل يومثذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك. السعدان؟ ، قالوا : تعم يارسول الله قال ، فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تحتطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو (١) ، وقال أبو سعيد الحدرى:قالرسولالله

⁽١) حديث « ينصب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أولَ من يجيزَ ، متفق عليه منحديث أبي هريرة في أتناء حديث طويل

صلى الله عليه وسلم ، بمر الناس على جسر جهم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالاوعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالربح ومنهم من يمر كالفرس الجرى ومنهممن يسعىسعيا ومنهم من يمشى مشياومنهم من يحبوحبوا ومنهم من يرحفزحفا ، فأماأهل النار الذبنهم أهلها فلايموتون ولا يحيون ، وأماناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن ف الشفاعة (١) ، وذكر إلى آخر الحديث : وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال. و يجمع الله الآولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فُصلُ القضاء ، وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال وثم يقول للؤمنين ارفعوا رموسكم فيرفعون رموسهم فيعطيهم نورهم على قسدر أعسالهم فنهم من يعطى نوره مشل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مشل النخطة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجــلا يعطى نوره على إبهــام قدمه فيضي مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا أظــلم قام ، ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكبومنهم من يمركشة الفرس ومنهم من بمركشة الرجلحتي يرَّالذي أعطىنوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويدنه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه 🕠 النار ، قال . فلا يزال كذلك حتى يُخاص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل ٢٦) وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول , الصراط كحدّ السيفأو كحدّ الشعرةوإنّ الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإنّ جبريل عليه السلام لآخذَ بحجزتي وإني لأقول يارب سلمسلم فالزالون والزالات يومئذ كثير (٣٠ . .

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطوّل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فن خاف هذه الآهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ، ولست أعنى بالحوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السياع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك ؟ فماذا من الحوف في شيء ؟ بل من خاف شيئا هرب منه ، رمن رجا شيئا طله . فلاينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته . وابعد من رقة النساء خوف الحقى إذا سموا الآهوال سبق إلى السنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم ، وهم مع ذلك مصرون على المعادى التي هي سبب هلاكهم . فالشيطان يضحك من استعاذتهم . كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب فالشيطان يضحك من استعاذتهم . كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكدلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول « لا إله بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكدلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول « لا إله بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكدلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول « لا إله بلسانه وهو قاعد في مكانه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

⁽۱) مدیت أبی سمید و مجمر الناس علی جسر جهتم وعلیه حسك وكلالیب و خطاطیف . . الحدیث و متفق علیه مماختلاف ألفاظ (۲) حدیث ابن مسعود و مجمع الله الأولین و الآخرین لمیقات یوم معلوم قیاما أربین سنة شاخصة أبصارهم الى السها و ینتظرون فصل الفضاء ، قال : وذكر الحدیث الى ذكر سعود المؤمنین الحدیث بطوله رواه ابن عدی و الحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا .

⁽٣) حديث أنس « الصراط كحد السيف ــ أو كحد الشعرة ... الحديث » أخرجه البيهق فى الثعب وقال هذا استاد ضعيف قال وروى عن زيادالمميرى عن أنس مرافوعا « الصراط كحد الشعرة ــ أو كحد السيف » قال وهي رواية صحيحة انهي ورواء أحمد من حديث عائمة رفيه إن لهيمة .

بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلىالله عليه وسلم حريصا على تعظيم سننه ومتشوّقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال منشفاعته أو شفاعتهم فتنجر بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

أعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولى الله ، ولاتستصغر معصية أصلا فإن الله تعالى خبأ وطويته في معاصيه فلعل مقت الله فيه ، ولاتستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الدكلمة الطيبة أوالنية الحسنة أو ما يجرى بجراه .

وشواهد الشفاعة في القرآن والآخبار كثيرة: قال الله تعمال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) روى عمرو ابن العاص: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاقول إبراهيم عليه السلام (رب إنهن أصلان كثيرا من الناس فن تبعقى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رسيم) وقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ثم رفع يديه وقال و أمتى أمتى و ثم بكى فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال: ياجريل اذهب إلى محمد فقل ما أمتك ولا نسورك (١١) وقال صلى الله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال: ياجريل اذهب إلى محمد فقل له إناسترضيك في أمتك ولا نسورك (١١) وقال صلى الله عليه وسلم وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركنه الصلاة فليصلوا عطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصه وبعث إلى الناس عامة (١٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم و إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين بعث إلى قومه خاصه وبعث إلى الناس عامة (١٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم و أنا أول صلى الله عليه وسلم و المنابق عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدى لواء الحد تحته آدم فن دونه (١٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم و لمنكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختى دعوق شفاعة لأمتى يوم القيامة (١٤) ، وقال ابن عباس رضى الله عليه ولم دامكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختى دعوق شفاعة لأمتى يوم القيامة (١٤) ، وقال ابن عباس رضى الله عنه وسلم ولمنكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختى بعدى لى الحبة وتبق أمتى بعدى ، فأقول : يارب أمتى فيقول الله عزوجل: عالى الحبة وتبق أمتى بعدى ، فأقول : يارب أمتى فيقول الله عزوجل: ياحب أمتك فأقول : بارب عجل حسابهم فيا أذال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم

⁽۱) حدیث عمرو بن العام : أن رسول الله صلى الله على من الله علیه وسلم الله علیه وسلم (رب انهن أه للن كثیرا من الماس فن تبهن فإیه منى ومن عصانى فإنك غفور رحم) وقول عیسى صلى الله علیه وسلم (لمن تعذیهم فإنهم عبادك) ثم رفع یدیه ، ثم قال « أمتى أمنى » ثم بكی ... الحدیث ، وفیه : یاجبریل اذهب الى محمد فقل : لمنا سنرضیك و لاند و هك فى أمتك ، قلت لميس هو من حدیث عمرو بن العام كا رواه مسلم ولعله سقط من الإحیاء فركر عبد الله من بعض النساخ . (۲) حدیث « أعطیت خسا لم یعطین أحد قبل ... الحدیث » وفیه « وأقطیت الشفاعة » فركر عبد الله من حدیث جابر « إذا كان بوم الفیامة كنت لمام النبیبن وخطیبهم وصاحب شفاعتهم من غیر غر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حدیث أبى بن كعب قال الترمذى حسن صحیح . (۳) حدیث « أنا سیدولد آدم و لاغر ... الحدیث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حدیث أبى بن كعب قال الترمذى حسن صحیح . (۳) حدیث « لمسكل بى دعود مستجابة فأریدان أختبي دعولى الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حدیث أبى سعید الحدرى . (٤) حدیث « لمسكل بى دعود مستجابة فأریدان أختبي دعولى الشفاعة الأمتى بوم الفیامة » متفق علیه من حدیث أنس ورواه مسلم من حدیث أبى هربرة .

إلى النار وحتى إن مالـكما خازن النار يقول : يامحـد ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من بقية (١١ ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم . إني لاشفع يوم القيامة لاكثر بما على وجه الارض من حجر ومدر (١٣) ، وقال أبوهريرة أتى رسول الله صلى الله تعمالي عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منهما نهشة ثم قال . أنا سيد المسرسلين يوم القيسامة ، وهـل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الآولين والآخرين في صميد واحد يسمعهم الناعي وينف ذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ النساسُ من الغم والسكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفعُ لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليسكم بآدم عليهُ السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلفك الله تصالى بينده ونفخ فينك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يفضب قبله مثله ولا يفضب بعده مثله وإنه قد نهانيٌ عن الشجَّرة فعصيته ؛ نفسي نفسي ا اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضب لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قوى ؛ نفسىنفسى ا اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبىالله وخليله من أهل الارض اشفع لنا إلى ربُّكُ ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليُّوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كـذبت نلاث كـذبات ويذكرهما ؛ نفسي نفسي ا اذهبوا إلى غـيرى اذهبـوا إلىموسي . فيأتونموسي عليه السلام فيقولون: ياموسي أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألاترى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبـله مثله ولن يغضب بعـده مثله ، وإنى قتلت نفسالمأوس رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إن ربى غضب اليرم غضبا لم يغضب قبله مثله وأن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ؛ نفسى نفسى ا اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليـه وسـلم . فيأنونى فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فـآ تى تحتالعرش فأقع ساجدا لربي ، ثم يفتح الله لى من محسامده وحسن الثنياء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمله ارفَع رأسك سُل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أمتى أمتى يارب ؛ فقال : يا محمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الآيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال . والذي نفسى بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كمابين مكة وبصرى ٣٠١ ، وفحديث آخر . هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهمذا ، وقوله

⁽۱) حديث ابن هباس « ينصب الأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويهتى منهرى لاأجاس عليه كائمـــا بين يدى ربى منقصها ۱۰۰۰ الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسطونى لمسناده عمد بنابات والبنانى ضعيف . (۲) حديث « لمنى لأشفع يوم الفيامة لأكثر بمـــا على وجه الأرض من حجر ومدر » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث بريدة بسند حسن .

⁽٣) حديث أبى هريرة : أن النبي على الله عليه وسلم أتى بلحم فرنع(أيه الدراع وكان يعجبه فنمش منها نهشة ثم قال « أناسيد الناس . . : الحديث بعلوله فى الشفاعة ، قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا لمبراهيم وتفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم .

إنى سقيم . فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفـاعة أيضـا حتى قال رسول الله صلىالله عليه وسلم . يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر (١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله ٢٠١ ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنّ رجلًا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يافلان هل تعرفني ؟ فيقول : لاوالله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مردت في ف الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفعلى بها عندربك ! فيسأل الله تعالى ذكر مويقول إنى أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلهافقال : هل تعرفني ؟ فقلت : لامن أنت ؟ فقال : أناا لذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه ، فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار (٣) ، وعن أنسقال قال رسول الله صــــــلى الله عليه وسلم , أنا أوّل الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر 🗥 ، وقال رسولالله صلى الله عليه وسلم وإن أقوم بين يدى ربى عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الحلائق يقوم ذلك المقام غيرى (١٠) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسولالله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج 'حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبــا إنّ الله عز وجل اتخــذمنخلقه خليلا اتخذ أبراهيم خليلاً ا وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلسه تكليها ا وقال آخر : فعيسى كلسة الله وروحه ا وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال , قد سمعت كلامكم وتعجبكم إنّ إبراهيم خليل الله وهوكذلك وموسى نجى الله وهوكذلك وعيسى روح الله وكلمته وهوكذلك وآدم اصطفاءالله تعالىوهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحد يوم القيامة ولا فخر وأناأو لشافع وأو لمشفع يوم القيامة ولا فحر وأنا أوَّل من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فأدخلهـا ومعى فقراء المؤمنين ولا فحر وأنا أكسرم الآولين والآخرين ولا فحر 🗥 ، .

صفة الحوض

اعلم أنَّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الآخبار على وصفه ، ونحن

⁽۱) حديث « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمنى أكثر من ربيعة ومضر » رويناه فى جزه أبى عمر بن السماك من حديث أبى أمامة الا أنه قال « مثل أحسد الحيين ربيعة ومضر » وفيه ؛ فكأن المشيخة برون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن والترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبى الجدعا « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بن عبر « قالوا : سواك قال « سواى » قال الترمذى حسن سميح وقال الحاكم سميح قبل أراد بالرجل أويسا .

⁽٢) حديث « يقال الرجل فم يافلان فاشفع فيقوم بشفع القبيلة ولأهل البيت والرجل والرجلين على قدر عمله » أخرجه المترمذى من حديث أبى سعيد « ان من أمنى من يشفع الفقام ومنهم من يشفع القبيلة ... الحديث » وقال حسن والبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع الرجلين والثلاثة » . (٣) حديث أنس « ان رجلا من أمل الجنة يشرف يوم التيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : أنا الذي مهرت بي في الدنيا يوما طاستسقيتني شربة فسقيتك ، . . الحديث » في شفاعته فيه واخراجه من النار ، أخرجه أبو منصور الدياسي في مسند الفردوس بسند طاستسقيتني شربة فسقيتك ، . . الحديث » في شفاعته فيه واخراجه من النار ، أخرجه الترمذي . وقال حسن غريب ،

⁽ه) حدیث « فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن بمين العرش ... الحدیث « أخرجه الترمذى منحدیث أبى هريرة وقال حسن غريب صحيح . (٦) حدیث ابن هباس : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ناورج حتى أذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسم حديثهم فقال بعضهم عجبا : أن الله أتخذ من خلقه خليلا أتخذ إبراهيم خليلا ... الحدیث . رواه الترمذى وقال غرب .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أنَّمنشرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس : أغنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له : يارسولالله لم ضحكت ؟ فقال , آية أنزلت على آنفًا ، وقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ـ إنا أعطينــاك الكوثر ﴾ حتى ختمهـا ثم قال . هــل تدرون ما الكوثر؟ ، قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال . إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم الساء (١) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بينما أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤ اؤ المجرّف قلت: ماهذا يا جبر بل ؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر (٢٦) ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول , مابين لابتي حوضي مثل مابين المدينة وصنعاء .. أو مثل مابين الممدينة وعمان .. (١٣) ، وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعسالي ﴿ إِنَا أَعْطَيْنَاكُ الْكُوثُر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . هو نهر في الجنة حافتاهمن ذهب ، شرابهأشدّبياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك بجرى على جنسادل اللؤلؤ والمرجان (ئ) ، وقال ثوبان ـ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال رسول الله صلى! لله عليه وســلم . إنّ حوضي مابين عدن إلى عمان البلقان ماؤ. أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم الساء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، أوّل النـاس ورودا عليه فقرا. المهـاجرين ، فقــال عمر بن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال . هم الشعث رءوســا الدنس ثيـابا الذين لا ينكحرن المتنعات ولا تفتح لهم أبواب السـدد (٥٠) ، فقـال عمر بن عبـد العربر : والله لقـد نكحت المتنعات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله ، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ. وعن أبي ذرّ قال : قلت يارسول الله ما آنية الحوض؟ قال . والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السهاء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية ، من شرب.منه لم يظمأ آخر ماعليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله مابين عمان وأيلة ، ماؤه أشدّ بياضا من اللين وأحلي من العسل "" ، وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنَّ لكل نبي حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإنى لارجو أن أكون أكثرهم واردة (١٠) ، فهذا رجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليرج كل عبدأن يكون في جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فإنّ الراجي للحصاد من بــــــالبـذر ونتي الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنباتِ ودفع الصواعق إلى أران الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الارص وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذ مغترومتمن

عن سمرة وهو أصبح.

⁽¹⁾ حديث أنس . أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبديا فقالوا له يارسول الله لم شحكت ؟ فقاله و آية نرلت على آنفا » وقرأ بسمالله الرحن الرحيم (إذا أعطيناك السكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس « بينها أناأسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاء قباب اللؤلؤ الحجوف . . الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قوله أنس للما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم للى السهاء . • الحديث ، وهو مرفوع ولن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنس « مابين لأبني حوضي مثل مابين المدينة وصنعاء أو مثل مابين المدينة مابين المدينة وعمان » رواه مسلم . (٤) حديث أنس « مابين لأبني حوضي مثل مابين المدينة وصنعاء أو مثل مابين المدينة مابين المدينة وعمان » رواه مسلم . الحديث » أخرجه الترمذى وقال فريب وابن ماجه . المصنف . (٥) حديث ثوبان « لمن حوضي مابين عدن إلى عمان البلقاء . . . الحديث أبي ذر : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال « والذي نفسي بيده لآنيته أكثر واردة . . . الحديث » أخرجه المدمن ي وقال غريب قال روى الأشمث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه الترمذى وقال غريب قال روى الأشمث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه الترمذى وقال غريب قال روى الأشمث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه

وليس من الراجين فى شىء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرورا لحق فعوذبالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله بالله الله تعالى ﴿ فلا تغرّ الحياة الدنيا ولا يغرّ نكم بالله الغرور ﴾ .

القول فى صفة جهنم وأهوالهـــا وأنــكالها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيــل : ﴿ وَإِنَّ مَنْكُمُ إِلَّا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظـالمين فيها جثيا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك . فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه ، وتأمــل في حال الحلائقوقد قاسوا من دواهي القيامة ماقاسوا ، فبينها هم في كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لهــا زفيرا وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ وخرج المنادي من الزبانية قائلًا : أين فلان بن فلان المسوّفُ نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في ســوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجمحيم ويقولون له ﴿ ذَقَ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزِ الْكُرِيمِ ﴾ فأسكنوا دارا ضيقة الارجاء مظلة المسالك مبهمة المهالك ، يخلدفيها الاسير ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ومستقرهما لجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيهاالهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المصاصي ، ينادون من أكسافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يامالك قد حق علينا الوعيد يامالك قد أثقلنا الحديد بامالك فدنضجت مناالجلود يامالك أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية : هيمات لات حين أمان ا ولا خروج لكم من دار الهوان فاخستوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منهـالكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم ألاسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النـــار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرق في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولبـاسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيــل القطران وضرب المقــامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجــلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطر بون بين غواشيها ، تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رموسهم الحيم يصهر به مانى بطونهم والجلود ، ولهم مقسامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصـديد من أفواههم وننقطـع من العطش أكبادهم ، وقسيل على الحـدود أحـداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الاطراف شعورهـ بل جلودها ، وكلما لضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، قــد عرّبت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران ، وهممع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون 1 فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سؤدت وجوههم أشد سوآدامن الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وابكت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزرقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعنــاقهم ، وجمــ بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النــار بوجوههم ويطأون حسك الحــديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم · وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلىالله عليه وسلم

ولى في جهنم سبعين ألف وادف كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهى الحكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله (۱) ، وقال على كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتموذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادى الحزن ، قيل يارسول الله وما وادى ـ أو جب ـ الحزن قال ، واد في جهنم تتعوّذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المراثين (۱) ، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الإعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، محسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الإعضاء السبعة التي بها يعمى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى : جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عنى الهاوية فإنه لاحد لعمقها كا لاحد لعمق شهوات الدنيا ، ف كا لاينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنهى هاوية من المعقها كا لاحد لعمق منه وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله عليه وسلم و أندرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال دهذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها (۱) . .

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فحكا أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، و من خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النارلهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في الناركيفها كان ، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذا با لو عرضت عليه الدنيا بحذافير لافتدى بهامن شدة ماهو فيه ماهو قال رسول الله على الله عليه و من عرارة نعليه (أ) من خقف عليه واعتبر بمن شدد عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من فانظر الآن إلى من خقف عليه واعتبر بمن شدد عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن الماكان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهبهات ! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه . وعن هذا عبر في بعض الاخبار حيث قيل ، إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى هربا مما هم فيه . وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل ، إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى النار ألف عام حتى احورت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة (1) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين نفي الشتاء و نفس في الصيف فأشد مانجدونه في الشتاء من زمهر يرها() ،

⁽۱) حدیث و لمن فی جهنم سبعین ألف واد فی کل واد سبعون ألف عب فی کل شعب سبعون ألف نمان وسبعون ألف عمر (۱) حدیث و لمن و المنافق حتی یواقع ذابی کله » لم أجده هکذا مجملته وسیاتی بعده ماورد فی د کر الحیات والمقارب .

(۲) حدیث علی : تموذوا بافته من جب الحزن ... أو وادی الحزن ... الحدیث » رواه این عدی بلفظ و وادی الحزن » وقال وأیو نمیم والاً سبهانی بسند ضعیف ورواه الترمذی وقال غریب وابن ماجه من حدیث أبی در برد قافظ و جب الحزن » وضعه ان عدی وتقدم فی ذم الجاه والریاه . (۳) حدیث أبی هر برد : کنا مع رسول الله صلی اقه علیه وسلم فسممنا وجبه ... الحدیث » وفیه و هذا حجر أرسل فی جهنم ... الحدیث » رواه مسلم . (٤) حدیث و لمن أدني أهل النار عنابا فسلت بسبعین ماه من میاه الرحمة حتی أطافها أهل الدنیا » ذکر ابن عبد البر من حدیث ابن عباس و وهذه النار قد ضربت باه البحر سبم مران ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » وقابرار من حدیث أنس وهو ضعیف « وما وصات البکم »حتی أحسبه قال و اضحت سبم مران ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » وقابرار من حدیث أنس وهو ضعیف « وما وصات البکم »حتی أحسبه قال و اضحت بلها و تضیء علیکم » . (۲) حدیث و مرافقه ان بوقدعلی النار ألف عام حتی احرت ... الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی هر برد « الحدیث النار ألف عام حتی احرت ... الحدیث أبی هر برد « و استکت النار الی ربها فقالت یارب أکل بعضی بعضا ، فأذن لها بنفسین ... الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی هر برد « المدیث النار الی ربها فقالت یارب أکل بعضی بعضا ، فأذن لها بنفسین ... الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی هر برد « المدیث النار الی ربها فقالت یارب أکل بعضی بعضا ، فأذن لها بنفسین ... الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی هر برد « المدیث » متفق علیه من حدیث أبی هر برد «

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس في الدنيامن الكفار فيقال اغمدوه في النار غسة شميقال له هلرأيت نعيا قط فيقال : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيافيقال اغسوه في الجنة غسة شميقال له : هلرأيت ضراقط كفيقول : لا وقال أبو هريرة : لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون شم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء في قوله (تلفح وجوههم النار) إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما عسملي عظم إلا ألقته عند أعقامهم .

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أن دلوا من غساق جهم ألق فى الدنيا لانستن أهسل الارض (١) ، فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيستى أحرهم من ماء صديد يتجرعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كل مكان وما هو يميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ﴿ ثم إنكم إيها الضالون المكذبون لأكلون من شجر من زقوم فالثون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب إلهيم ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّهَا شِجْرَة تخرج في أصل الجميم طلعها كانه رءوس الشياطين فإنها لآكلون منها فالثون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) وقال تعالى (تصلى ناراً حامية تستى من عين آنية) وقال تعالى (إن لدينا أنكالا وجحيا وطعاما ذا غصة وعذابه ألما ﴾ وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لوأن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم (٢) ، فكيف من يكون طعامه ذلك ؟ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم , إرغبوا فيها رغبكم الله واحذروا وخافوا ماخوفكم الله به من عذابه وعقابهومن جهنم ، فإنه لوكانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لـكم ، ولوكانت قطرة من النار معكم في دنياكم التيأنتم فيها خبثنها عليكم "" ، وقال أبو الدرداء : قالرسول الله صلىالله عليه وسلم . ياتي على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون كما كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فــيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا ُدخل الشراب بطونهم قطع مافى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، قال : فيدعون خزنة جهنم ﴿ أَن ادعواربِكُم يَخْفُفُ عَنَا يُومَا مِن العَذَابِ فيقولون أُولِم تَكُ تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلي قالوا فادعوا وما دعا. الـكافرين[لافي ضلال) قال . فيقولون ادعوامالـكافيدعون فيقولون يامالك ليقض علينا ربك ، قال , فيجيبهم إنـكم ماكثون (١٤) ، قال الاعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير منربكم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال : فيجيبهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تـكلمون ﴾ قال،

⁽۱) حديث أبى سميد الحدرى « لو أن دلوا من غساق ألتى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض » أخرجه الترمذى وقال لم بما نعرفه من حديث رشد بن سمد وفيه ضمف . (۲) حديث ابن عباس « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه . (۳) حديث أنس « ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا بما خوقهم به من هذاب الله وعقابه من جهم ... الحديث » لم أجد له لمسنادا .

⁽٤) حديث أبى الدرداء « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستنيثون بالطعام . الحديث « أخرجه الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء ، قال الدارى : والناس لايعرفون هذا الحديث ، ولم عما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قوله .

فهند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (ويستى من ماه صديد يتجرّعه ولا يسكاد يسيفه) قال ، يقرّب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى (وسقوا ماه حيما فقطع أمعاءهم) وقال تعمالي (وإن يستغيثوا يغائوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) فهده طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (1)

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغربت بهم ، فهى لاتفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة اقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من آناه الله ما يؤد زكانه مثل له يوم القيامة شجاعاً أفرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخيذ بلهازمه يعنى أشدافه _ فيقول أنا مالك أناكنزك ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا يحسن الذين يبخلون بما آناهم الله من فضله ... الآية ﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنّ في النار لحيات مشهل أعناق البخت يلسمن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا ، وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلعسن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما قسلط عليه في الدنيا البخل وسوء الحاني وإيذاء الناس ومن وقي ذلك وتى هذه الحيات فلم تمثل له (٣) ، ثم تفكر بعد هذا كاه في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزبد في أجسامهم طولا الحيات فلم تمثل له (٣) ، ثم تفكر بعد هذا كاه في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزبد في أجسامهم طولا التوالى ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله وسلم ، ضرس المكافر في النار مثل أحسد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضرس المكافر في النار مثل أحسد وغلظ جلده وقال عليه السلام ، إن المكافر ليجرّ لسانه في سجين يوم القيامة يتواطوه الناس (٢) ، ومع عظم الاجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودههم و لحومهم . قال الحسن في قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ قال تأكام النار كل يوم سبعين ألف صرة ، كلما أكلنهم قيل لهم عودوا فيه ودون كاكانوا .

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعاتهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤتى بجهنم يومئذ لهما سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٢) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرسل على أهل النار السكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الاخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (١) ، قال محمد بن

⁽۱) حديث أبي أمامة في قوله تمالى (ويستى من ماه صديد يتجرعه ولايكاد بسينه) قال يقرب اليه ... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب. (۲) حديث أبي هريرة و من آناه الله مالا فلم يؤد زكانه مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ... الحديث ، أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نموه . (٣) حديث وإن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة .. الحديث ، أخرجه أحمد من رواية ابن لهيمة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزه .

⁽٤) حديث أبى هربرة « ضرس الكافر في النار مثل أحسد ... الحديث » رواه مسلم ، (ه) حديث « شفته السالى ساقعاً على صديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب ساقعاً على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه » أخرجه الترمذي من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب .

⁽٦) حديث ه لمن الكافر لبجر لسانه فرسخين وم القيامة يتواطؤه الناس » أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف . (٧) حديث ه يؤتى مجهتم بومئذ لها سبهون ألف زمام . ، ، الحديث » أخرجه ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف . . (٨) حديث ألس ه يمسل على أهل النار البكأء فيبكون حتى تنقطع الحدوث ٠ ٠ ٠ مسلم من حديث عبد الله من رواية يزيد الرقاشي عن ألس والرقاشي ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دءوات بجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الحامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ﴿ رَبُّنَا أَمْتُنَا الْمُنتِينَ وَأَحْيِيتُنَا الثُّنتِينَ فَاعْتَرَفْنَا بَذُنُو بِنَا فَهِلَ إِلَى خروج من سبيل ﴾ فيقول الله تعالى مجيبًا لهم ﴿ ذَلُّهُمْ بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحـكم لله العلى الـكبير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فيجيبهمالله تعالى ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُمَالَـكُمْ مِنْ زُوال ﴿ فَيَقُولُونَ ﴿ رَبَّنَا أَخْرَجُنَا لَعْمَلُ صَالَّحًا غَيْرِالذِّي كُنَا لَعْمَلُ بِهِ فَيْجَيِّبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ أُولُمْ لَعْمَرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فَيْهِ مِن تَذَكَّرُوجًا.كم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا غلسبت علينًا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنامنها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكامون ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعمالي ﴿ سُواء علينا أَجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزءوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم. يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال ياأهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت (١) ، وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل . ورۋى الحسن رضي الله عنه جالسا فيزاوية وهو يبكي فقيل له : لم تبكي ؟ فقال: اخشي أن يطرحني في النار ولا يبالي . فهذه أصناف عذاب جهنم على الجلة ، وتفصيل عمومها وأجرائها ومحنها وحسرتها لانهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع مايلاقونه من شدّةالعذاب-سرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعواكل ذَّلك بثمن بخس دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكسدرة منغصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أحلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ١ وكيف لم نـكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لـكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيالحسرة هؤلاء وقد فأتهم وبلوا بمــا بلوا بدولم يبق معهم شيءمن نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم إنهم لولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنها تعرض عليهم . فقد قال رسولاللهصلي الله عليه وسـلم . يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الاؤلون والآخرون بمثلها ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا ، فيقول الله تعمالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركنم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الآليم مع ماحرمتكم من الثواب المقيم (٢) ، وقال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لايؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق الناريصيح . وقال داود : إلميلاصبرلي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبرلې على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فانظر بامسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خاق النار بأهوالها وخلق أهلا لايزيدون ولاينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الامر وهم في غفلة وهم لايؤمنون ﴾

⁽۱) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أماج فيذيج » أخرجه البخارى من حديث ابن همر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم . . (۲) حديث « يؤمر يوم القيامة بناس من النار لملى الجنة حتى لمذا دنوا منها واستنشقوا روائحها . . . الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدية عن أنمن وأبو هدية لمبراهيم بن هدية هاك. .

ولعمرى الإشارة به يوم القيامة ، بل فى أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بمــاذا سبق فى حقك !

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حق ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسر لمما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار ، وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار الى نعيم وإن الفجار لنى جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآبتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى ، فتأمل لعيمها وسرورها فإن من بعــد من أحدهما استقر لا محالة في الآخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النميم المقيم الموعود لاهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الحوف وقدها بزمام الرجَّاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الآليم ، فتفكر فيأهل الجنة وفيوجوههم نضرة النعيم يسقون،منرحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الاحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض فيها بسط من العبقري الاخضر ، متكتين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجّان لم يطمئهن إنس قبلهم ولاجان ، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحزير الابيض ما تتحير فيه الابصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤاؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبـؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكوابوأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جراء بمـاكانوا يعملون ، في مقـام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عنــد مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ، لايرهقهم فتر ولاذلة بلعباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهيت أنفسهم خالدون ، لايخافون فيها ولايحزنون ، وهممن ربب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون منأطعمتها ، ويشربون منأنهارها لبنا وحمرا وعسلا في أنهـــار أراضها من فضة وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونبانها زعفران ، ويمطرون من سحباب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب منفضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم بمزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لميصنعه آدىفيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته ، في كفخادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ، ولكن من أبن للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه . فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الاحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دُونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلاسلامة الآبدان مع الامن

من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسبها ا وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والمتنفص من ضرورته اكيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرير ممتعون لهم فيهاكل ما يشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال وسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينادى ، ناد يا أهل الجنة إن لهم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لهم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لهم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل فلا تموتوا أبدا وإن لهم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تاكم الجنة أور ثنموها بما كنتم تعلمون) (١١) .

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالىبيان ، واقرأ من قوله تعالى ﴿ وَلَمْن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى آخر سورة الرحن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها منالسور . وإن أردت أن تُعرف تفصيل صفاتها من الآخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت علىجملتها ، وتأمل أوّلا عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال . جنتان من فضة آنيتهما وما فبهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلارداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (٠) ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة : قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم . من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها والبينة ثمانية أبواب ، فن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، فقال أبو بـكر رضى الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منهاكلها ؟ قال , نعم ، وأرجو أن تبكون منهم (٢) ، وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه أنه ذكرالنار فعظم أمرها ذكرا لاأحفظه شمقال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب منأبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت سَاقَهَا عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت مانى بطونهم منأذىأوبأس، ثم عمدوا إلى الآخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنميا دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كَمَا تَطْيَفُ وَلَدَانَ أَهُلُ الدُّنيا بِالْحَبِيبِ يَقْدُم عَلِيهِم مِن غَيْبَة ، يقولون له : أبشر أعد الله لكمن الكرامة كذا ، قال : فينطق غلام منأولئك الولدان إلى بعضأزواجه منالحور العينفيقول : قد جاء فلان ــ باسمــه الذي كان يدعى به في الدنيا ـ فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلىأساس بنيانه فإذا جندلاللؤاؤ فوقه صرح أحر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لالم أن يذهب بصره ، ثم يطأطيء رأسه فإذا أزواجه ﴿ وَأَكُوابُ مُوضُوعَةً وَيُمَـارَقُ مُصَفُّوفَةً وزرانِي مِبْوَلَةً ﴾ ثم اتكاً فقال ﴿ الحد لله الذي هدا نا لهذا وماكنا لنهتدي

⁽۱) حدیث أبی هریرة « ینادی مناد این اسکم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ... الحدیث » أخرجه مسلمین حدیث أبی هریرة و آبی سعید . (۲) حدیث « جتنان من فضة آنیتهما وما فیهما وجنتان من ذهب آنیتهما ومافیهما ... الحدیث » متفق علیه من حدیث أبی مریرة « من انفق زوجین من ماله فی سسبیل الله دعی من أبواب الجنة . . الحدیث » متفق علیه .

لولا أن هدانا الله ﴾ ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظمنون أبدا و تصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الحازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لاحد قبلك ١١ . .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلم فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فهما فهال تعالى ﴿ سَابَقُوا إِلَى مَغْفَرَةَ مِن رَبِّكُم ﴾ وقال تعالى ﴿ وَفَ ذَلِكَ فَلِيتَنَافُسُ الْمُتَنَافُسُونَ ﴾ والعجب أنه لو تقدّم عليك أفرانك أو جيرانك بريادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فرقهم كما تتراءون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يارسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال . بلي والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّرا المرسلين ٢٠ . وقال أيضا . إن أهم الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السهاء وإن أبا بكر وعمر منهموأنعما (٣) . وقال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم , ألا أحدثكم بذيف الجنة , قال : قلت بلي بارسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأمنا قال • إن في الجنة غرفًا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال : قلت بارسولالله ولمن هذه الغرف؟ قال د لمن أفشى الســـلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام ، قال : قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال . أمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لق أعا. فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام(') , يعنى اليهود والنصارى والمجوس . رستل رسولالله صلى الله عليه وسلم عنقوله ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ قال « قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون دارا من ياقرت أحمر ، في كل دار سبَّعون بيتا من زمرد أخضر ، في كلُّ بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة ـ يعني من القوة ـ مايأتى على ذلك أجمع (١٠) . .

⁽۱) حديث ? آتى يوم الفيامه باب الجنة فأستفتح فيتول الحازن من أنت فأتول محمد ٠٠٠ الحديث ، أخرجه مسلم من حديث أنس .

⁽۲) حديث أبى سعيد و أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كا ترا، ون السكوكب ١٠٠٠ الحديث ، متنق عليه وقد تقدم ، (٣) حديث و أن أهل الدرجات العلى ليراهم من تعتهم كا يرون النجم الطالم ، رواه القرمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد . (٤) حديث جابر و ألا أحدث كم بنرف الجنة ، قلت : بلى بارسول الله بأبينا أنت وأمنا قال و أن في الجنة هرفا من أصناف الجوهر ١٠٠٠ الحديث ، أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر . (٥) حديث : سئل عن قوله تمالى ومساكن طيبة في جنات عدن) قال و قصور من لؤلؤ . . الحديث ، أخرجه أبو الشبيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجرى في كتاب العظمة والآجرى في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حمين في هذه الآية ولايصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبي حام ، والحسن البصرى لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور .

⁽١٨ - لحياء علوم الدين - ٤)

صفة حائط الجنسة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم , إن حائط الجنة ابنة من فضة وابنة من ذهب تراجما زعفران وطينها مسك (١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربَّة الجنة فقال و درمكة بيضاء مسك خالص (٦) ، وقال أبو هريرة : قال رسولالله صلى الله عليه وسلم . من سره أن يسقيه الله عز وجل الخر في الآخرة فليتركها في الدنيا ، و من سره أن يكسوه الله الحرير فيالآخرة فليتركه فيالدنيا ٣٠ . وقال . أنهارالجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك ١٠٠ . ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لـكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها (٠) ، وقال أبوهريرة : قال رسولالله صلى الله عليه وسلم . إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها اقرموا إن شكتم ﴿ وظل عدود ﴾ (٦) ، وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم يقولون : إنَّ الله عزوجلُ ينَّفعنا بالاعرابُ ومسائلهم ؛ أقبلُ أعرابي فقال : يارسولالله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وماكنت أدرى أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ فقالُ رسولالله صلى الله عليه وسلم . ما هي ؟ ، قال : السدر فإنّ لهــا شوكا ، فقال . قد قال الله تعالى ﴿ في سدر مخضود ﴾ يخضد الله شوكه فيجمل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر (٧) ، وقال جرير بن عبدالله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام : الطلق بهذا النطع فأظله فالطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدرى ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضا ، ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأن النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثم .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله ﴿ يَحْلُونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهِبِ وَاوْلُوا وَلِبَاسُهُمْ فَيُهَا حَرِيرٍ ﴾ وَالْآيَاتُ فَى ذَلَكَ كَشَيْرَةً وَإِنْمَـا تفصيله فى الاخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عايه وسلم قال . من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى

⁽۱) حديث أبى هريرة « أن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك » أخرجه الترمذى بلفظ « وملاطها المسك » وقال ليس اسناده بذك القوى وليس عندى بمتصل ورواه الزار من حديث أبى سـميد بإسناد فيه مقال ورواه موقوظ عليه بإسناد صحيح ، (۲) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال « دركة بيضاء مسك خالس » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبي ميل التعليه وسلم عن ذلك فذكره . (۳) حديث أبى هريرة « من سرم أن يحدومالة الحرير في الآخرة فليتركف الدنيا » أخرجه العلبراني في الاوسط بإساد حسن والنسائي بإسناد صحيح « من ابس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الحر في الدنيا لم يشربها في الآخرة » .

⁽٤) حديث و أمهار الجنة تنفجر من تحت تلال ــ أو تحت جبال ــ المسك » أخرجه العقيل في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث و لوكان أدني أهسل الجنة حلية عدلت محلية أهل الدنيا جيمها لــكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جيمها بــكان ما يحليث ان في الجنة شجرة بسير أهل الدنيا جيمها » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن . (٦) حديث أبي أمامة : أقبل أعرابي الراكب في غالها مائة عام لا يقطعها . . . الحديث المراكب في النهارك في الزهدعن فقال يارسول الله قد ذكر الله في الفرآن شجرة مؤذية الله و مامي » قال : السدر . . الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهدعن سفوان بن عمرو عن سليم بن عامي ممسلا من غير ذكر لأبي أمامة .

ثيابه ولا يفى شبابه ، فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر (۱) ، وقال رجل يا يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مم تضحكون ؟ من جاهل سأل عالما ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن صلى الله عليه وسلم ، بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين (۲) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله عليه وسلم ، إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتفقوطون آ نيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان برى نخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لااختلاف المنهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ، وفى رواية ، على كل زوجة سبعون بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ، وفى رواية ، على كل زوجة سبعون أدى لولؤة فيها تضىء ما بين المشرق والمغرب (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، الخيمة درة مجوّفة طولها فى الساء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون (٥) ، رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس ؛ الخيمة درة مجوّفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الحدرى : قال رسول الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ما بين الفراشين كا بين السهاء والأرض (١) .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السيان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لاتحصى، قال الله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان _ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة ، وقد قال ثوبان _ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة _ يعنى على الصراط _ ؟ فقال و فقراء المهاجرين ، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال و زيادة كبد الحوت ، قال : فما غداؤهم على أثرها ؟ قال و ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل في أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال و من عين فيها تسمى سلسبيلا ، فقال : صدقت (١) وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لاصحابه : إن أقرّل بها خصمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم و قال رسول الله عليه وسلم و قال الله عليه وسلم و قال الله عليه وسلم و قال الله عليه وسلم و الله عليه وسلم و الله عليه وسلم و الله عليه وسلم و قال الله عليه وسلم و الله والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوّة ما أنه و حد في المطعم خورة و المه و الله والذى المهام و الله والمها و الله والذى المهام و الله و المهام و الله والذى المهام و الله و المهام و الله و الله و الها و الله و الله و الدى المهام و الله و الدى الله و المهام و الله و الله و المهام و الله و ال

⁽¹⁾ حديث أبي هريرة « من يدخل الجنة ينهم ولاياً سيلاتها بيابه .. الحديث » رواه مسلم دون قوله « في الجنة مالاهين رأت .. الحديث أبي هريرة « قال الله تعالى أعددت العالجين مالاهين رأت .. الحديث . ورات العالجين مالاهين رأت .. الحديث . ورات العالمين العالمين رأت الحديث العالمين رأت الحديث العديث الحديث الحديث الحديث الحديث الحديث الحديث الحديث الحديث المعرف عبد الله بن عمرو و (٣) حديث أبي هريرة وأول زمرة تدخل الجنة سورتهم على سورة الله رابد و وراب الحديث المعرف والمعرف التي المعرف والمعرف والمعرف المعرف المعرف المعرف المعرف والمعرف وا

⁽٧) حديث ثوبان : جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله الى أن قال : فمن أول الناس اجازة ؟ يعنى على الصراط ففال د فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحقتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال د زيادة كبدالنون ٠٠٠ الحديث، رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره ٠

والمشرب والجماع ، فقال اليهودى ؛ فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله وسلم ، حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر (۱) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخز بين يديك مشويا (۱) ، وقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن في الجنة طيرا مثل البنخاتي قال أبو بكر رضى الله عنده : إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال أنع منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبا بكر (۱) ، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعدالي (يطاف عليهم بصعاف) قال : يطاف عليهم بسبمين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الاخرى مثله ، وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه (ومن اجه من تسفيم) قال : يمزج الاصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا ، وقال لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ربح طيبها

صفة الحور العين والولدان

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الآخار بزيادة شرحفيه . روى أنسرضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال و غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا ومافيها والهاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة اطلعت إلى الآرض لاضاءت ولملات ما بينهما رائحة وانصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (١٤) و يعنى الخار ، وقال أو سعيد الحدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال و تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من المرآة وإن أدني اؤ اؤة عليها لنضى و مابين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبمون ثو با ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من و راءذاك (١٠) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و لما أسرى بى دخلت في الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام المؤلؤ والزبر جد الاختر والياقوت الآحر فقلن : السلام عليك يارسول الله ؛ فقلت : باجبريل ماهذا النداء قال : هؤلاء المقصورات في الحيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لمن ، فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا و نحن الحالدات فلا فظمن أبدا ، وقرأ رسول الله عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه النسرون الله عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه الناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه المناه المناه عليه وسلم قوله تعالى (حور مقصورات في الحيام المناه ا

⁽۱) حديث زيد بن أرقم : جاء رحل من اليهود فقال : يا أبا القاسم ألست تزهم أن أهسل الجنة يأكلون فيها ويشهر بون • • • الحديث . وفيه • حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك » أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحبح ،

⁽٢) جديث ابن مسعود ه انك لتنظر إلى الطير في الجنة فتفتهيه فيخر بين يديك مشويا ، أخرجه البرار بإسناد صميم .

⁽٣) حديث حديفة « لمن في الجنة طبرا أمثال البخاتي ... الحديث » غريب من حديث حديفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح « لمن طبر الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة » قال أبو بكر : يارسول الله لمن هذه العلير ناعمة قال « أكاتها أنم منها » قالها ثلاثا « ولمني أرجو أن تسكون بمن يأكل منها » وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوثر وقال « فيه طبر أعناقها كأعناق الجزر » قال عمر : لمن هذه لناعمة ٠٠٠ الحديث . وايس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن .

⁽٤) حديث « غدوة في سبيل اقة أو روحه خير من الدنيا وما فيها ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أنس .

⁽ه) حدیث أبی سعید الحدری فی قوله تمالی (کأنهن الیاقوت والمرجان) قال « تنظر لمل وجهها فی خدرها أمنی من المرآن م. الحدیث » أخرجه أبو یمل من روایة أبی الهیثم عن أبی سعید بإسناد حسنورواه أحمد وفیه این لهیمة ورواه این المارك فی الزهد والرقائق من روایة أبی الهیثم عن النبی سلی افته علیه وسلم می سلا دون ذكر أبی سعید وللترمذی من حدیث این مسعود « لمن المرأة من نساء أمل الجنة لیری بیاض نخ ساقها من وراء سبمین حلة ۲۰۰ الحدیث » ورواه عنه موقوقا قال و هذا أست و الصحیحین من حدیث أبی هر بره « لسكل امری منهم زوجتان اثنتان بری نخ سوقهما من وراء المهم » .

⁽٦) حديث أنس « لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضا بسمى الصرح عليه خيام الدؤلؤ و لزبرجد الأخضر والياقوت الأحر • • • الحديث » وفيه « أن جبريل قال مؤلاء المفسورات فى الحيام» وفيه «فطفةن يقلن محن الراضيات فلانسخط» لمأجده مكذا عند

وقال الاوزاعي (في شغل فاكهون) قال: من الحيض والفائط والرولوالبصاق والنخامة والني والولد. وقال الاوزاعي (في شغل فاكهون) قال: شغلهم افتضاض الابتكار. وقال رجل: يا رسول الله أيباضع أ مل الجنة ؟ قال ، يمطى الرجل منهم من القرة في اليوم الواحد أفضل من سبمين منك (١١) ، وقال عبد الله ن عمر ؛ إن أدني أهل الجنة منزلة من يسمى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الرجل من أهل الجنة لينزوج خسمائة حوراء وآربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ئيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا (١١) وقال الني صلى الله عليه وسلم ، إن في الجنة سوقا مافيها ببع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحرر العين يرفعن بأصوات المتسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الحالمات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا لسخط فطرى لمن كان لنا وكنا له (١١) ، وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و إن الحورالدين في الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبثنا الازواج كرام (١٠) ، وقال يحي بن كثير في قوله تعالى (في روضة يجرن) قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله عليه وسلم ، مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثلثان من الحور العين بغنيانه بأحسن صوت سمعه الإلس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد رجليه ثلثان من الحور العين بغنيانه بأحسن صوت سمعه الإلس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد وتقديسه (١٠) .

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه و ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لما هي ورب السكعبة نوريتلالا وربحانة تهتزوقصر مشيدونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة وزوجة حسناه جميلة في حبرة و نعمة في مقام أبدا و نضرة في دار عالية بهية سليمة ، قالوا : نحن المشمر ون لها ما رسول الله قال و قولوا إن شاء الله تعالى ، ثم ذكر الجهاد وحض عليه (١) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة خيل فإنها قعجبني ؟ قال و إن أحببت ذلك أنيت بفرس من ياقونة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شدت ، وقال له رجل : إنّ الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت

بهامه والترمذى من حديث على « إن في الجنة لمجتمعا اللحور العبر برقمن أسوانا لم تسمم الملائق مثلها يقلن محن الخالدات فلانبيد و محن الناعمات فلا نبأس و محن الراضيات فلا نسخط طوى لمن كان لما وكنا له » وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظامة حديث إني أوني بسند ضعيف « فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ... الحديث » . (١) حديث : قال رجل يارسول الله أيباسم أهل الجنة ؟ قال « يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منهم » أخرجه الترمذى وصيحه وابن حبان من حديث ألس « يعطى الروق الجنة قوة كذا وكذامن الجاع » فقيل أو يطبق ذلك ؟ قال « يعطى الوقعائة » . (٢) حديث « لمن الرجل من أهل الجنة ليتروج خسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وعمانيه آلاف ثب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا » أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وني كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفي الأأنه قال منهن مقدار عمره في الدنيا » أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وني كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفي الأأنة سوقا مافيها بيع ولاشراء لملا العمور من الرجال والنساء « م الحديث » أخرجه الترمذي فرقه في موضيين من حديث على وقد تقدم مافيها بيع ولاشراء لملا العمور من الرجال والنساء « م الحديث » أخرجه الترمذي فرقه في موضيين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا عديثين .

⁽٤) حديث أنس * إن الحور في الجنة يتننين فيقلن : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام » أخرجه العابراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنسكدر قال البخارى يتسكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لابأس به . (٥) حديث أبي أماءة «مامن عبد يدخل الجنة الا ويجلس عند رأسمه وعند رجليه مختان من الحور العين بننيانه بأحدن صوت سممه الإنس والجن وليس بحزمار الشيطان والسكن بتحديد الله وتقديسه » أخرجه الطبراني بإسناد حسن . (٦) حديث أسامة بن زيد « ألا هلمن مشرقجنة أن الجنة لا خطر لها ١٠٠٠ الحديث » أخرجه ابن ماجه وابن حبان ،

غيناك ١١١ ، وعن أبي سعيد الحدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولدكما يشتهى ، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استقتر أهل الجنه اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدّثان ماكان بينهما في دار الدنيا فيقول ياأخي تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعرنا الله عز وجل فغفر لنا (١٦) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع (١٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم وثلثان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤاؤ وزبر جد ويافوت كا بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء مابين المشرق والمغرب (٥) وقال صلى الله عليه وسلم ، نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كلا البعير المقتب وإذا طيرها كالهنت ، وإذا فيها جارية فقلت ياجارية لمن أنت ؟ فقالت لويد بن حارثة ، وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر (١٦) ، وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكنب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون) فهذه صفات بيده ، وكنب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون) فهذه صفات المحنة ذكرناها جملة ثم نقاناها تفصيلا .

وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال: إنّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصنى لم يصفه الرجال وأنها من خمر لذة للشاربين لاتسفه الأحلام ولاتصدع منها الرءوس، وإن فيها مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر : ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثون في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السباء، كل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤاؤ وتمارها لايملم علمها إلاالله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسائة سنة، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حاة فتلبسها فيرى

⁽١) حديث جاءرجل للى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فإنها تمجبني ... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظوفهه المسمودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهديلفظ المصنف من رواية عبدالرحن بن سابط ممسلاقال انترمذي وهذا أسيحوقد ذكراً بو موسى المديني عبد الرحمن بن ما بطني ذيله على ابن منده في المحابة ولا يصبحله صحبة . (٢) حديث أبي سعيد « لمن الرَّجِل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، ويكون حمله وفصاله ونشأته فيساعة واحدة ،أخرجه الزماجه والترمذي وقال حسن غريب ، قال : وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم : في الجنة چاعولايكون ولد ، انتهى .ولأحمد من حديث لأبي رزين « يلذ ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لاتوالد » ، (٣) حديث « لذا المتقر أهل الجنة اشتاق الإخوان. لملى الإخوان فيسير سرير هذا لملى سرير هذا ﴾ أخرجه البزار من روايةالربيع بن صبيح عن الحسنعن أنس وقال : لانسه يروى عن الذي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى . والربيم بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس. ﴿ ٤) حديث ﴿ أَهِلِ الْجَنَّةُ جَرِدُ مَهُ بِيضَ جَمَّا دَمَكُ عَلَونَا بَناء ثلاث وثلاثان . . . الحديث ﴾ أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دول قوله « بيض جعاد » ودون قوله «على خلق آدم» لمل آخر،ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا «أهلالجنة جرد مهد كحلَّ وقال غريب وفي الصحيحين من حديثًا بي هريرة ﴿ عَلَى صُورَةُ أَ بيهم آدم ستون ذراعاً » (٥) حديث ﴿ أَدَنَى أَهِلِ الْجَنَّةِ مَلَوْلَةُ اللَّذِي لَهُ تُمَانُونَ أَلْفَ خَادِم ٠٠٠ الحديث ﴾ أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطه ا من أوله إلى قوله « ولن عليهم الثيجان » ومن هنا بإسناده أيضا وقال لانعرفه لملا من حديث رشد بن سعد . (٦) حديث و نظرت الى الجنة فإذا الرمانة من رمانهما كجلد البعير المقتب واذا طيرها كالبخت ٠٠٠ الحديث ، رواه الثمامي في تفسيره من رواية أبي هرون العبدي عن أبي سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين،من حديث أبي هريرة ﴿ يقول الله أعددت لمبادى الما لمين مالامين رأت ولا أذن سمت ولا خطر على قلب بشر ، .

غسافها منوراء تلك السنمين حلة ، قدطهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت ، لا يمتخطون فيها ولا بينو لون وانميا هو جشاء ورشح مسك ، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما إنه ليس ليل يكر الفدة على الرواح والرواح على الغذة ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناه ، فيرا له نيميله في وملكه مسيرة ما أنهام في قصور من الذهب والفعنة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كاينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين الفصحة من ذهب ويراح عليهم بمثلها ، في كل صحفة لون ليس في الاخرى مئله ، ويحدطهم آخره كا يجد طعم أوله ، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا نقب ، وقال جاهد ، إن أدنى أهل الجنة مؤلا المن ينظر إلى ربه بالغداة والعشى . وقال سعيد ان المساحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة ؛ سوار من ذهب وسوار من ثولؤ وسوار من فضفة ، وقال أبو هر برة رضى الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة أبو هي تقول ؛ أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ وقال يحيىن معاذ ؛ ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فياعج با لمن يختار وترك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا والله علي وليسل ما يفني ويرك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أبط ما يفني ويرك الدنول علم ما يفني ويرك الدون طلب ما يوني ويرك الدون طلب الدون ويرك الدون طلب ما يوني ويرك الدون طلب ما يوني ويرك الدون المورون بالمورون بالمورون بالمورون المورون بالمورون بالمورون المورون بالمورون بالمورو

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك تعـالى

قال الله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعمال ، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكر ناه حقيقتها فى كتاب المحبة ـ وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة ، قال جرير بن عبدالله البجلى ؛ كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال وقبل غروبها كالرون القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) (١١) وهو مخرج فى الصحيحين وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ (وسبح محمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) (١١) وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال ، إذاد خل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : : يا أهل الجنة إن لم عندالله موحدا بريدأن ينجزكموه قالوا : ماهذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيئنا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ ، قال ، فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عزوجل فا أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (١٢) ، وقد روى حديث الرؤيا المرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء : وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغى أن تمكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المول . هاما سائر فعيم الجنة فإنه يشارك فيه المهمة المسرحة فى المرعى .

⁽۱) حدیث جریر : کنا جلوسا عند رسول الله صلی الله علیه وسلم فرأی الفسر لیلة البدر فقال « انسکم ترون ربسکم ۰۰۰ الحدیث » هو فی الصحیحین کما ذکر المصنف . (۲) حدیث صهیب فی قوله تعسالی (للذین أحسنوا الحسنی وزیادة) رواه مسلم کما ذکره المصنف ،

نختم الكناب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل النفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل (۱) وليس لنا من الاعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في التفاؤل، ونرجو أن يخم عافرتنا بالخير في الدنياوا لآخرة كاختمنا الكستاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ﴿ إن لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشام ﴾ وقال تعالى ﴿ قَلْ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لانقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذيوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفور ارحيما ﴾ .

ونحن نسَّتغفر الله تعالى من كل مازَّلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وَّف سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستنفره بما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا مُمقصرنا فالوفَّاء به ، ونستغفره من كل لعمة أنعم بهاعلينا فاستعملاها في معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتمكلف توينا للناس في كتاب سطرناه أوكلام لظمناه أوعلم أفدناه أواستفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أوكتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميـع السيئات ظآهرا وباطنا فإن الكرُّم عميم والرحمة واسعه والجود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خاق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلافضله وكرمه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن لله تعالى ما ثة رحمة أنول منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بهاعباده يوم القيامة (١) ، ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كنابا من نحت العرش فيه إنَّ رحمَى سبقت غضي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة "" ، وقالُ رسول الله صلى الله عليه وسـلم . يتجلى الله عز وجل لنا يُوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى الناريهوديا أو فصرانيا (٤) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم . يشفع الله تعالى آدم يوم الفيامة من جميع ذربته في مائمة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٠٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم إنَّ الله عز وجل يقول يوم القيامة للبؤمنين هل أحدبتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (٦) ، وقال

(٦) حديث « ان الله تعالى يقول يوم الفيامة الهؤمنين هل أحببتم لقائمي فيقولون لعم ٠٠٠ ألحديث » أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف .

⁽١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث « ويمجبني المفأل الصالح والكلمة الحسنة ، ولها من حديث أبي هريرة « وخيرها الفأل ؟ قال » السكلمة الصالحة يسممها أحدكم » .

⁽٢) حديث و ان قة تمالى ما قد رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان ، (٣) حديث و اذاكان يوم القيامة أخرج افة كتابا من عجت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضي ، نم الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولمسا قضى افة الحلق كتب عنده فوق العرش ان رحمق سبقت غضي » لفظ البخارى وقال مسلم وكتب في كتابه على نفسه ان رحمتي تنلب غضي » . (٤) حديث و يتجل الله لما يوم القيامة ضاحكا فيقول أبديروا معشر المسلمين فإنه ليس منسكم أحد الا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا » أخرجه مسلم من حديث أبى موسى و اذاكان يوم القيامة دفع افته الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار » ولأبى داود و أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها في الآخرة وم الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبى موسى أيضاً و يتجلى الله ربنا لماضاحكا بوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سعدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه على بنزيد بن جدعان . (٥) حديث و يشفع الله وجم العابراني من حديث أنس بإسناد ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار مرف ذكرنى يوما أوخافنى في مقام (۱) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ماقالوا فيأس بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا وأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجرا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين (٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٢) ، وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيآ نه يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآ ته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أنّ الله عز وجمل قال لموسى عليه السلام : ياموسى استغاث بك قارون فلم تغنه وعزتى وجلالى لو استغاث بي لاغثيته وعفوت عنه . وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر ويأمر بردهما ويسألها عن فعلهما ، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لاتمرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ حسن ظي بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد مأخرجتنى منها ، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ فقال الاعرابي : فوالله ماأنقذكم منها أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ فقال الاعرابي : فوالله ماأنقذكم منها وهو بي من رسول الله صلى الله عليه وهو في مرض الموت فبكيت فقال ان عباس : خذوهامن غير فقيه . وقال الصنامجي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال ان عباس : خذوهامن غير فقيه . وقال الصنامجي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال ان عباس الله والا حديثاوا حدا وسوف أحدث كو الله حرم الله النار عليه واله تعليه وسلم الله عليه وسلم يقول و من شهد أن لا إله إلا الله وأن محدا رسول الله حرم الله النار عليه (أن عمر و بن العاص : قال رسول الله عليه الله الله وأن الله يستخلص رجلا من أمتى على دموس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاكل سجل منها مثل مدالبصر ، شم يقول أن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك يوم القيامة فينشر عليه تسعة وأنه لا ظلم عليك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

(٦٩ -- إحياء علوم الدين --- ١

⁽۱) حديث «يقول الله عزوجل يوم الفيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أوخافني في مقام» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب . (۲) حديث «لذا اجتمع أهل البارفي النار ومن شاه القدمهم من أهل القبلة المسكن الم تكونوا مسلمين ؟ قالوا الى فيقولون ما أغنى عنه على إسلامكم لذ أنتم معنا في النار . . . الحديث » في لمخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وشلم (رجما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) أخرجه النسائي في السكبرى من حديث جابر عموه بإساد صحيح (س) حديث « فقد أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشقيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قمة المرأة من السبى إذ وجدت صبيا في السبى فأخذته ببطنها فأرضته . (٤) حديث « ينادى مناد من محت المرش يوم القيامة على السبى إذ وجدت صبيا في السبى فأخذته ببطنها فأرضته . (٤) حديث المناجى عن عبادة بن يا المناجى عن عبادة بن الأسمد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الحطيب ليس بثقة . (ه) حديث المناجى عن عبادة بن الصناعى بلفظ آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدا رسول الله ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول إنك لانظلم، قال , فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال , فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء (١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه الفيامة والصراط , إن الله يقول للملائسكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجره من النار فيخرجون خلقا كثيراثم يقولون ياربنا لم نذرفيها أحداءنأم تنابه ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال فصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاكثيرا ثم يقولون ياربنا لم لذر فيها أحداءن أمرتنابه ، يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجو مفيخرجون خلقاكثيرا ثم بقولون ياربنا لمنذر فيهاأ حدا عن أمرتنابه ، فحكان أبو سعيد يقول : إنام تصدقونى مذا الحديث فاقرءوا إنشئتم ﴿إنالة لايظلم مثقال ذرّة وإن الله حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراعظما ﴾ قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبرون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حيل السيل ألا ترونها تكون بما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ، قالوا يارسول الله كا ثلك كنت ترعى بالبادية قال . فيخرجون كاللؤلؤ فيرقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولاخير قدموه ، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لـكم فيقولون ربنا أعطية:ا مالم تعط أحدا من العالمين ، فيقول الله تعالى إن لـكم عندى ماهو أفضل من هذًا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا (٢١) و رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما . وروى البخاري أيضا عن ابن عباس,رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسوا، الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال . عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والذي معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوتأن تكون أمي فقيل ليهذا موسىوقومه ، ثم قيل لي انظرفرأيت سوأدا كثيرا قد سدّ الافق ، فقيل لى الظر هكذا وهكذا فرأيت سواد كشيرا ، فقيل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، فتفرق الناس ولم يدين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فتمالوا . أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ور سؤله هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول اللهصلي الله عليه وسلم فقال ,هم الذين لاي.كتوون ولا يستر قون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشةفقال : ادع الله أن يجعلني منهم يار ـ ول الله فقال . أنت منهم ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم • سبقك مها عكاشة "" ، وعن عمر بن حزم الانصارى قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً لايخرج إلا لصلاَّةِ مكتوبة ثم يرجع ، فلماكان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قمد حدث حدث قال , لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لاحســـاب عليهم وإنى سألت ربى في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجدا واجداكريما فأعطاني مع كل واحــد من

⁽١) حديث عبد الله بنعمرو و لمن الله يستخاص رجلا من أمنى على رءوس الحلائق يومانقيامة فينتمبر له تسمة وتسمون سجلا » فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب . (٢) حديث و لمن الله يقول للملائسكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من المار فيخرجون خلفا كثيرا ... الحديث ، فى لمخراج الموحدين وقوله تمالى لأهل الجنة « فلا أسخط عليسكم بعده أبدا » أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سميد . (٣) حديث ابن عباس و عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد ... الحديث » لمل قوله و سبقك بها عكاشة » رواه البخارى .

السبعين ألفا سبعين ألفا ، قال ، قلت يارب وتبلغ أمتى هذا ؟ قال أكمل لك العدد منالاعراب (١) ، وقال أبوذر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . عرض لى جبريل في جانت الحرة فقال : بشر أمتـك أنه من مات لايشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، فقلت ياجبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن سرق وإن زنى ، قلت وإن سرق وإن زنی ؟ قال وإن سرق وإن زنی قلت وإن سرق وإن زنی ؟ قال وإن سرق وإن زنی وإن شرب الخر (۲) ، وقال أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال ﴿ وَلَمْنَ مُحَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنْتَانَ ﴾ فقلت وإن سرق وإن زني ؟ فقال ﴿ وَلَمْنَ خَابَ مَقَّامُ رَبِّه جنتان ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال a وإن رغم أنف أبى الدرداء ^(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهلُ الملل فقيل له هــذا فداؤك من النسار (١٠ » وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة : أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن الني صلى الله عليه وسلم قال • لايموت رجل مسلّم إلا أدخل الله تعالى مـكانه النار يهوديا أو نصرانيا ، فأستحلفه عمر بن عبــد العزيز بالله الذي لاإله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له (٠) وروى أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد ـ فى يوم صائف شديدا لحرّ ـ فبصرت به امرأة فى خباء القوم فأقبلت تشتد وأفبل أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ ، وقالت : ابني ا بني ا فبكي الناس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحتهم تم بشرهم فقال . أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ . قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم ه فإن الله تبارك و تعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها أنه » فتفرّق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة · فهذه الاحاديث وما أوردنا في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فمرجومن الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته .

⁽١) حديث عمرو بن حزم الألصارى : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج لملا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه « لمن ربى وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم » وفيه «أعطأنَى مم كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهتي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر ﴿ فزادني مَمْ كُلُّ واحد سبعين ألفا ﴾ وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحن بن أبي بكر فقال عمر : فهلا أستردته ؟ فقال • قد استردته فأعطاني مم كل رجل سبمين ألفاً » قال عمر : فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطاني هسكذا » وفرج عبد الله بن أبي بكر بين بديه قال عبد الله وبسط باعيه وحتى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندى ضعيف . ﴿ ٢ُ) حديث أبي ذر ﴿ عرض لَى جبريل في جانب الحرة فقال : بصر أمتك بأنه من مات لايصرك باقة شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه بلفظ «أناني جبربل فبضرني» وفي رواية لها « أثاني آت من ربي » . (٣) حديث أبي الهرداء : فرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمْ خاف مقام ربه جنتان ﴾ ففلت • وان زني وان سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسنادصحيح . (؛) حديث • اذاكاريوم الفيامة دفع الىكل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار ، رواه مسلم من حديث أبي موسى مجوه وقد تقدم . (٥) حديث أبي بردة . أن حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلىالله عليه وسلم قال • لايموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا ، عزاه المصنف لرواية مسلم وهوكذلك . (٦) حديث :وقف صي في بعض المنازي ، ينادي عليه فيمن يزيد، في يوم مائف شديد الحر، فبصرت به أمهأة ... الحديث. وفيه ﴿ اللهُ أَرْحَمُ بَكُمُ جَمِّهَا من هذه بابتها، متفق عليه مختصرا مع أختلاف من حديث عمر بن الحطاب قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبَّى فإذا أمرأة منااسبي تسمى اذ وجدت صبّياً في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضمته ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أترون هذه المرأة طارحة ولدها في المار ؟ فلنا : لاوانة وهي تقدر علي أن لانطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ الله أرحم بعباده من هذه بولدها » لفظ مسلم وقال البخارى : فإذا امرأة من السبي قد تخلب ثديها تسعى اذ وجدت صبيا ... الحديث .

والحمد قة تعالى عودا على بدء والصلاة والتسام على سيدنا محمد فى كل حركة وهدء . يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراق: اننى أكملت مسودة هذا التأليف فى سنة ٧٦١ ، وأكملت تبييض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر وبيـم ا**لأو**ل سنة ٧٩٠ انتهى

فهرس الجزء الرابع من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي

حييفة م بيان مظان الحاجة إلى الصبر .. الخ كتاب التربة ٧٥ بيان دواء الصبر ومايستمان به عايه الركن الأول في نفس النوبة ... الخ ٨٠ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر بيان حقيقة النوية وحدها الركن الأول في نفس الشكر يدان وجوب النوية وفضلها ىيان فضيلة الشكر سان أن وجوب التوبة على الفور ٨١ بيان حد الشكر وحقيقته بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخ^اص ٨٥ سان طريق كشف الغطاء عن الشكر في والآحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة حق ألله تعالى ١٣ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها . و بيان تمبيز مايحبه الله تعالى عما يكرهه فهى مقبولة لامحالة ه الركن الثاني من أركان الشكر ... الخ ١٦ الركن الثاني فيها عنه النوبة وهي الذنوب بيان حقيقة النعمة وأقسامها بيار أفسام الذنوب بالإضافة إلى صفات ٩.١ بيانوجهالانموذجنى كثرة نعمالله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر ٢٢ بيان كيفية نوزع الدرجات والدركات الطرف الأول في نعم الله تمالي في خلق فالآخرة على لحسنات والسيئات في الدنيا أسياب الإدراك ٣٢ بيان ماتعظم به الصغائر من الدنوب ١٨١ الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق وس الركن الثالث في تمام النوبة ... الخ الارادات ع بيان أقسام العباد في درام التوبة ١١٧ الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خاق سان ماينبغي أن يبادر إليه التائب... الخ القدرة وآلات الحركة ٩١٦ الطرف الرابع في نعم الله تعمالي في ٩٤ الركن الرابع في دواء التوبة ... الخ الاصول التي يحصل فيها الاطعمة ١٠٠١ لخ كتاب الصىر والشكر ١١٨ الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الشطر الأول في الصبر الاسباب الموصلة الاطعمة إليك ٧١ بيان فضدلة الصر الطرف السادس في إصلاح الاطعمة ٣٢ بنان حقيقة الصبر ومعناه ١١٩ الطرف السابع في إصلاح المصلحين ٣٦ بيان كون الصبر نصف الإيمان ١٧٠ الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في بيان الأسامي الني تتجدد للصبر ... الخ

٦٧ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة

والضعف

خلق الملائكة عليهم السلام

برر بيان السبب الصارف للخلقعن الشكر

ãà.

۱۲۷ الركن الثالث من كتاب الصبر بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شى. واحد

١٣٤ بيان فضل النعمة على البلاء

١٣٥ بيان الأفضل من الصبر والشكر

١٤٢ كتاب الخوف والرجاء

ويشتمل على شطرين الشطر الأول

بيان حقيقة الرجاء

١٤٤ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

۱۶۲ بیان دواء الرجاء والسبیل الذی بحصل منه حال الرجاء ویفلب

> ه ۱۵ الشطر الثانى من السكتاب سان حقيقة الخوف

۱۵۷ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة و الضمف

۱۵۸ بيان أقسام الحنوف بالإضافة إلى مايخاف منه

١٦٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

178 بيان أن الأفضل هو غلبة الحرف أو غلمة الرجاء أو اعتدالها

١٦٧ بيان الدواء الذييستجاب حال الخوف

۱۷۳ بیان معنی سوء الحاتمة

۱۸۰ بيان أحوال الانبياء والملائـكةعليهم الصلاة والسلام فى الخوف

۱۸۳ بيان أحوال الصحابة والتابمين والسلف والصالحين في شدة الحوف

١٨٩ كتاب الفقر والزمد

١٩٠ الشطر الأول من الكتاب في الفقر
 بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال
 العقير وأساميه

١٩٣ بيان فضيلة الفقر مطلقا

صحيفة

۱۹۹ بيان فضيلة خصوص الفقر ا.من الراضين والقالمين والصادقين

٢٠١ بيان فضيلة الفقر على الغني

۲۰۶ بیان آداب الفقیر فی فقره

٢٠٧ بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ

۲۱۰ بیان تحریم السؤال من غیر ضرور **د** وآداب الفقیر المضطر فمه

١٤ ٧ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

٢١٥ بيان أحرال السائلين

٧١٦ الشطر الثانى من الكتاب في الرهد

بيان حقيقة الزهد

٢١٩ ببان فضيلة الزهد

۲۲o بیان درجات الزهد وأقسامه الخ

۳۳. بيان تفصيل الزهدفيا هو من ضروريات الحياة

٢٤٩ بيان علامات الزهد

٢٤٣ كتاب التوحيد والتوكل بمان فضلة التوكل

بيان وضيلة التوكل ٢٤ سان حقيقة التوحيد ا

۲٤٥ بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل
 التوكل و هو الشطر الأول من الكناب
 ٢٥٩ الشطر الثانى من الكتاب

بيان حال النوكل

٧٦٤ بيان ماقاله الشيوخ فى أحوال النوكل

٢٦٥ بيان أعمال المتوكلين

۲۷۲ بيان توكل المعيل

مه بيان أحر ال المتوكلين في التعلق بالأسباب ...

بضرب مثال

٧٨١ بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

۲۸۲ بیان أن ترك التداوی قد مجمد فی بمض الاحوالویدلعلی قوة التوكل الح

. ۲۹ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفعدل

بدكل حال

عصفة

۱۹۹۷ میان احوال المتوکلین فی اظهار المرض وکنیامه

> ۲۹۳ كتاب الحبة والشوق والانس والرضا

بيان شواهدالشرع ف-حبالعبدلله تعالى ٣٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

... بيان أن المستحق المحبة هو اللهوحده ٣٠٠ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تمالى الخ

٣١٣ بيان السبب فىزيادةالنظرفىل**دة الآخ**رة الخرة على المعرفة فى الدنيا

٣١٥ بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى
 ٣١٩ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
 ٣٧٠ بيان السبب قصور أفهام الحاق عن

. ۳۲ بیال السبب قصور اقهام الحلق معرفة الله سبحانه وتعالی

٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

٣٣٧ بيان محبة الله للعبد ومعناها

۳۲۹ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
 بيان معنى الآنس بالله تعالى

٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تشمره غلبة الآنس'

٣٤٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الح ٣٤٤ بيان فضيلة الرضا

۳٤۷ بيان حقيقة الرضاو تصوره فيها يخالف المموى

٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

٣٥٤ بيان أن الفرارمن البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لايقدتم في الرضا

۳۵۰ بیان جملة من حکایات آلمحبین وأفوالهم ومکاشفاتهم ۳۹۰ خاتمة الکتاب بکلهات متفرقة تتعلق

٣٩٠ خاتمة الـكتاب بكلبات متفرقة تتعلق
 بالمحبة يلتفع بها

صحيفة ٣٦١ كتاب النية والإخلاس والصدق ٣٦٢ الباب الآول فى النية

> بيان فصيلة النية ٣٦٥ بيان حقيقة النية

٣٦٩ بيان سر قوله صلى الله عايه وسلم نية المؤمن خير من عمله

٣٦٨ بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية ٣٧٣ بيان أن النيةغير داخلة نحت الاختيار ٣٧٣ الباب الثانى فى الإخلاص وفضيلته

> ودرجانه وحقيقته فضلة الإخلاص

. ٢٧٩ بيان حقيفة الإخلاص

٣٨١ بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص ٣٨٧ بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة

الاخلاس

٣٨٤ بيان حــكم العمل المشوب واستحقاق الثراب به

٣٧٦ الباب الثالث في الصدق و اضياته و حقيقته فضيلة الصدق

٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناء ومراتبه

۳۹۳ كتاب المراقبة والمحاسبة

المقام الآول من المرابطة المشارطة ٣٩٣ المرابطة الثانية المراقبة

٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجانها

ع. ٤ المرابطة الثالثة محاسبة النفس الخ فضيلة المحاسبة

٠٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

٣٠ ع المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصير ها

٨.٤ المرابطة الخامسة الجاهدة

٢٩٦ المرابطة السادسة في تو بيسخ النفس ومعاتمبتها ٢٧٧ كتاب الفكر

فعنيلة التفكر

صحيفة

٤٨٤ (الباب السادس) فى أقاد بل العارفين على الجنائر والمقابروحكم زيارة القبور ٤٨٥ بيان حال القبر وأقاويلهم عندالقبور

٤٨٩ بيان أقاويلهم عند موت ألولد

٩٠٠ بيان زيارة القبور والدعاء للميت...الخ

٩٣ ﴾ (البابالسابع)فى حقيقة الموت و ما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

ىيان حقيقة الموت

۹۸ بیان کلام القبر للبیت وکلام المرتی الما
 بلسان المقال أو بلسان الحال

٤٩٩ بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

۷۰ بیان سؤال منسکر و نسکیر وصور تهما
 وضغطة القبر و بقیة الفول فی عذاب القبر

٥٠٤ (الباب الثامن) فيماعرف من أحوال الموتى بالمسكاشفة في المنام

٥٠٦ بيان منامات تكشف عن أحوال المرتى
 والاعمال النافعة في الآخرة

 ٧٠ و بيان منامات المشايخ رحمة اقد عليهم أجمين

۱۱۵ (الشطرالثانی) مركتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الآهوال والاخطار وفيه بيان نفخة الصور . . . الخ صفة نفخة الصور

٥١٣ صفة أرض المحشر وأمله

١٤٥ صفة العرق

٥١٥ صفة طول يوم القيامة
 صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

١٧٥ صفة المساءلة

. ٢٥ صفة الميزان

٧١ه صفة الخصياء

ià.se

وع بيان حقيقة الغكر وثمرته

٧٧ بيان مجاري الفكر

وسمى بيان كيفية التفكر في خاق الله نعالى

٤٤٨ كتاب ذكر الموت ومابعده

وه ع الشطر الأول فى مقدماته وتوابعه الخ الباب الأول فى ذكر الموت الخ بيان فضل ذكر الموت كيفهاكان

١٠٤ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

γه و الباب الثانى في طول الآمل وفضيلة قصر الآمل وسبب طوله وكيفية معالجته فضيلة قصر الآمل

١٥٦ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

٤٥٨ بيان مرا تب الناس في طول الأمل وقصره

٩٠٤ بيان المبادرة إلىالعمل وحذرآهةالـأخير

11 ٤ الباب الثالث في كرات الموت و شدته و ما يستحب من الآحو ال عنده

470 بيــان مايستحب ،نأحوال المحتضر عند الموت

وجع بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يمرب لسان ألحال عنها

378 (الباب الرابع) فى وفاة رسول الله صلىالله عليه وسلموا لخلفاءالر اشدين من بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

٤٧٦ وفاة أبي بكر الصديق رضىالله تعالى عنه ٤٧٧ وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

۲۷۸ و فاق عثمان رضی الله تعالی عنه

و٧٤ وفاه على كرم الله وجهه

٨٤ (الباب الحامس) فى كلام المحتضرين
 من الحلفاء والأمراء والصالحين

٤٨١ بيان أقاويل جماعة منخصوص الصالحين من الصحابة والتابمين ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين محيفة

٣٨٥ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأراكهم وخيامهم والمحتافة والرائدة والرائدة والولدان مفة الحور الدين والولدان وردت بها الاخبار وردت بها الاخبار عبده الله تعالى وجه الله تعالى على سبيل النفاؤل بذلك

ععدفة

٥٧٥ صفة الصراط
 ٥٧٥ صفة الحرض
 ٥٣٥ القرل في صفة جهنم وأهرالها وأنسكالها
 ٥٣٥ القول في صفة الجنة وأوصاف نعيمها
 ٥٣٥ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها
 وأنهارها

تم الفهرس وبه تم الكتاب